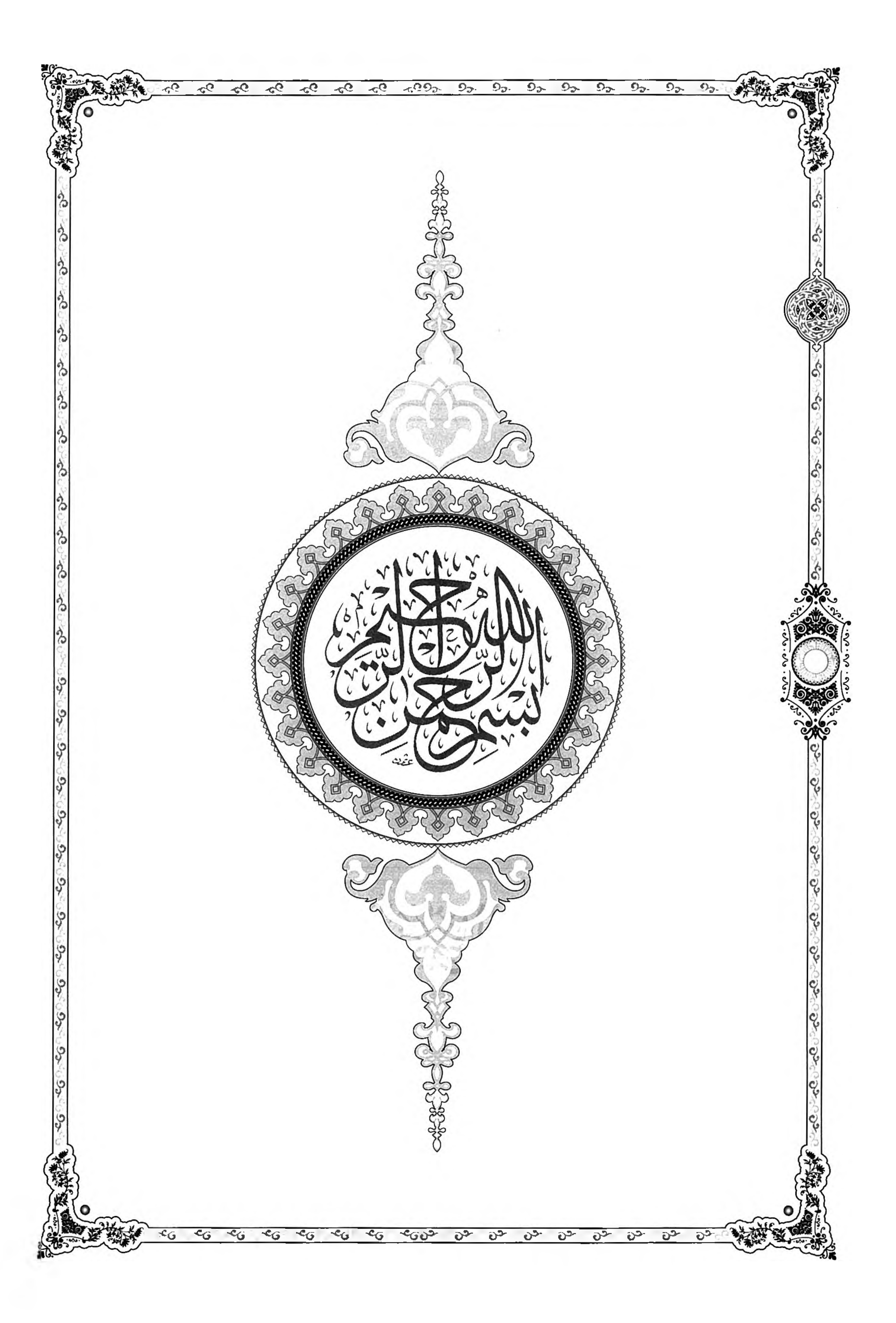

إحياء علوم الدين
للإمام الغزالي
رضي الله عنه
المجلد الخامس
ربع المهلكات / القسم الأول
دار المنهاج


بسم الله الرحمن الرحيم



إحياء علوم الدين

للإمام المجدِّد، حُجّة الإسلام والمسلمين

زين الدين أبي حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الشافعي

رضي الله عنه

(٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ) ـ (١٠٥٨ ـ ١١١١ م)

رُبعُ المُهلِكاتِ / القِسمُ الأوّل

كتاب

عجائب القلب

رياضة النفس وتهذيب الخُلُق ومعالجة أمراض القلب

كسر الشهوتين ـ آفات اللسان ـ آفة الغضب والحقد والحسد

تشرّفت بخدمته والعناية به

تحقيقاً وضبطاً وتوثيقاً ومراجعة

اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي



المجلد الخامس

دار المنهاج

الإصدار الثالث ـ الطبعة الأولى
١٤٤٣هـ ـ ٢٠٢١م



المملكة العربية السعودية ـ جدة
حي الكندرة ـ شارع الملك فهد ـ جانب البنك الفرنسي
هاتف رئيسي 6326666 12 00966
المكتبة 6322471 ـ فاكس 6320392
ص. ب 22943 ـ جدة 21416
www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com



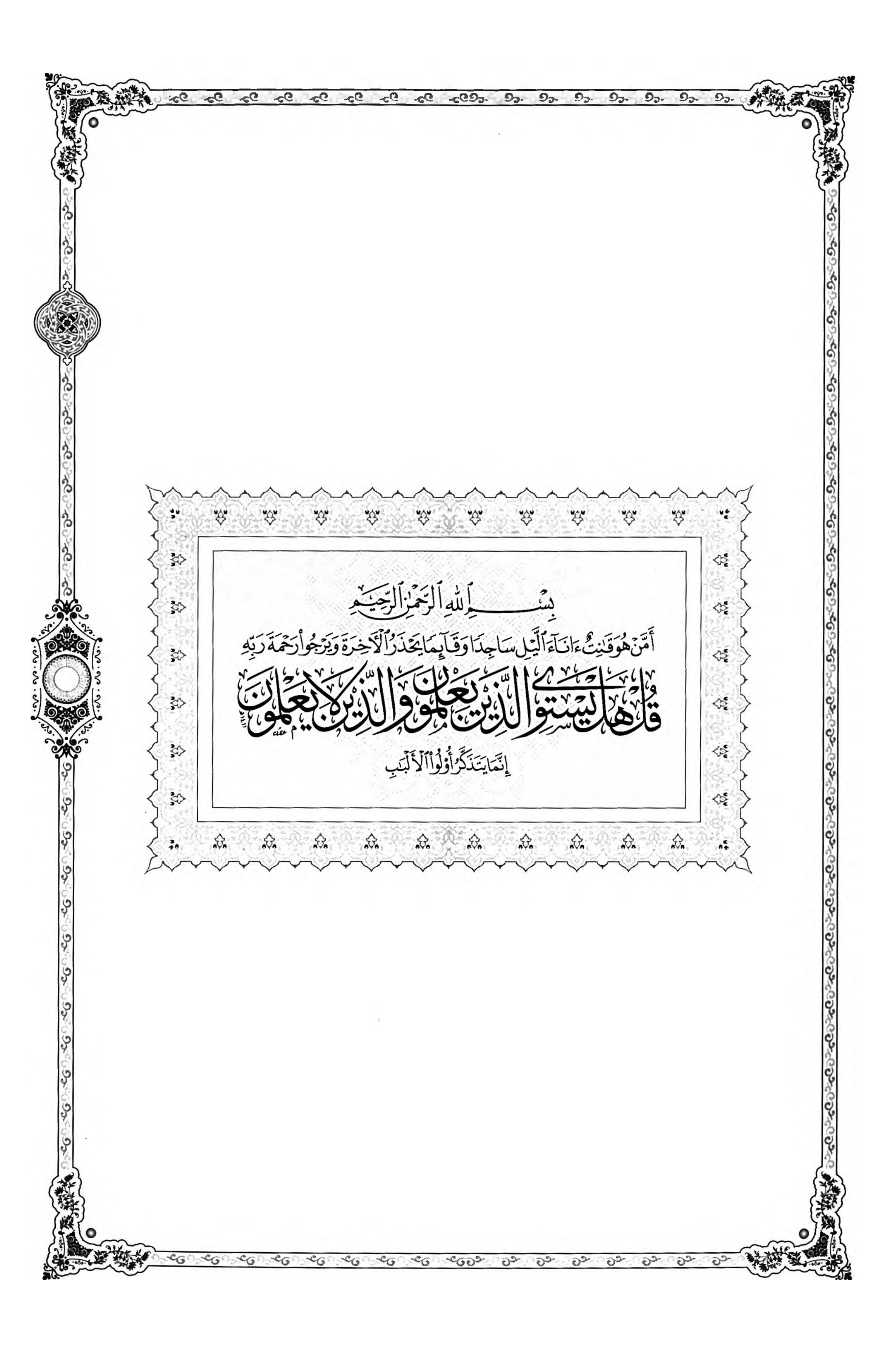
Alminhaj.com

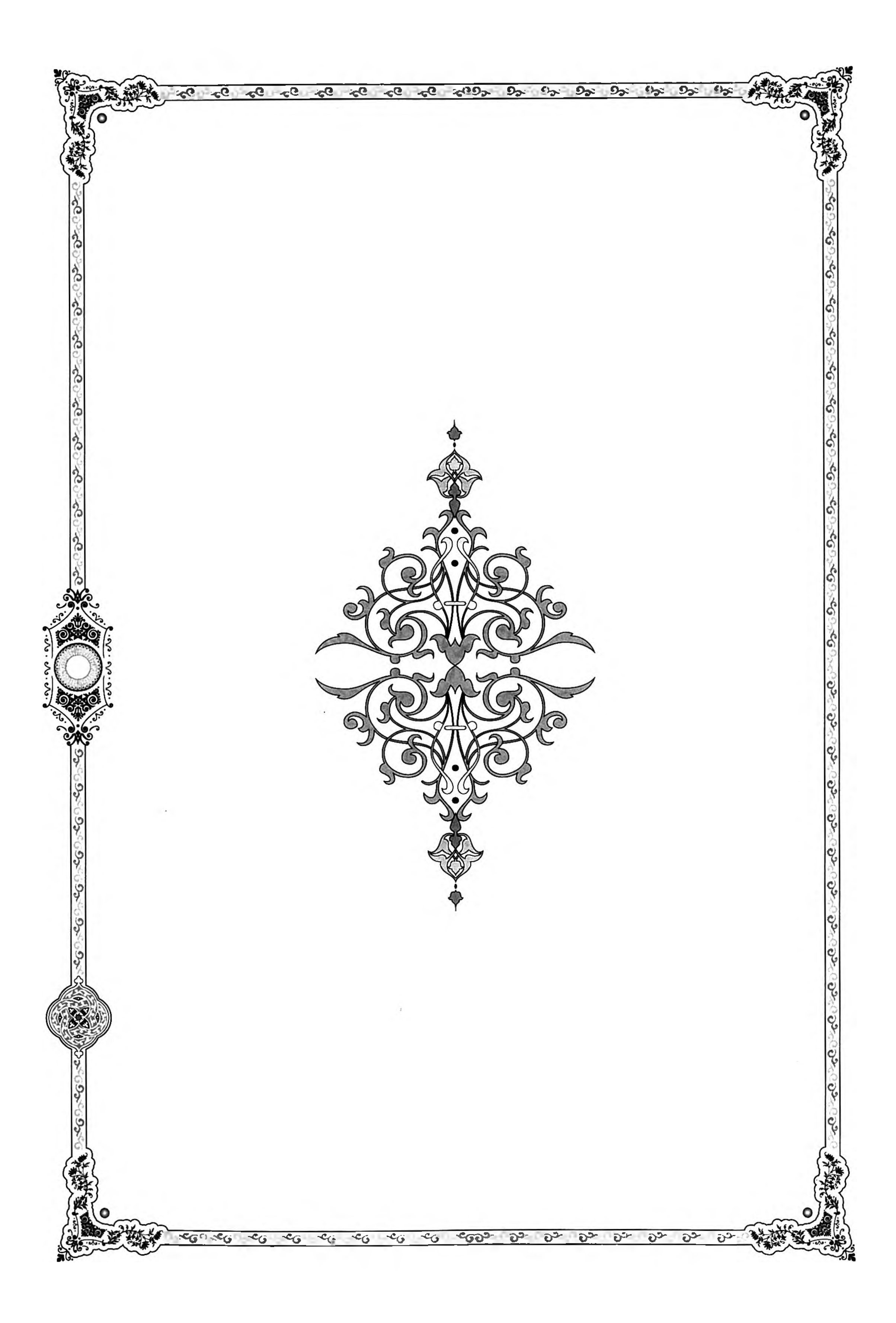


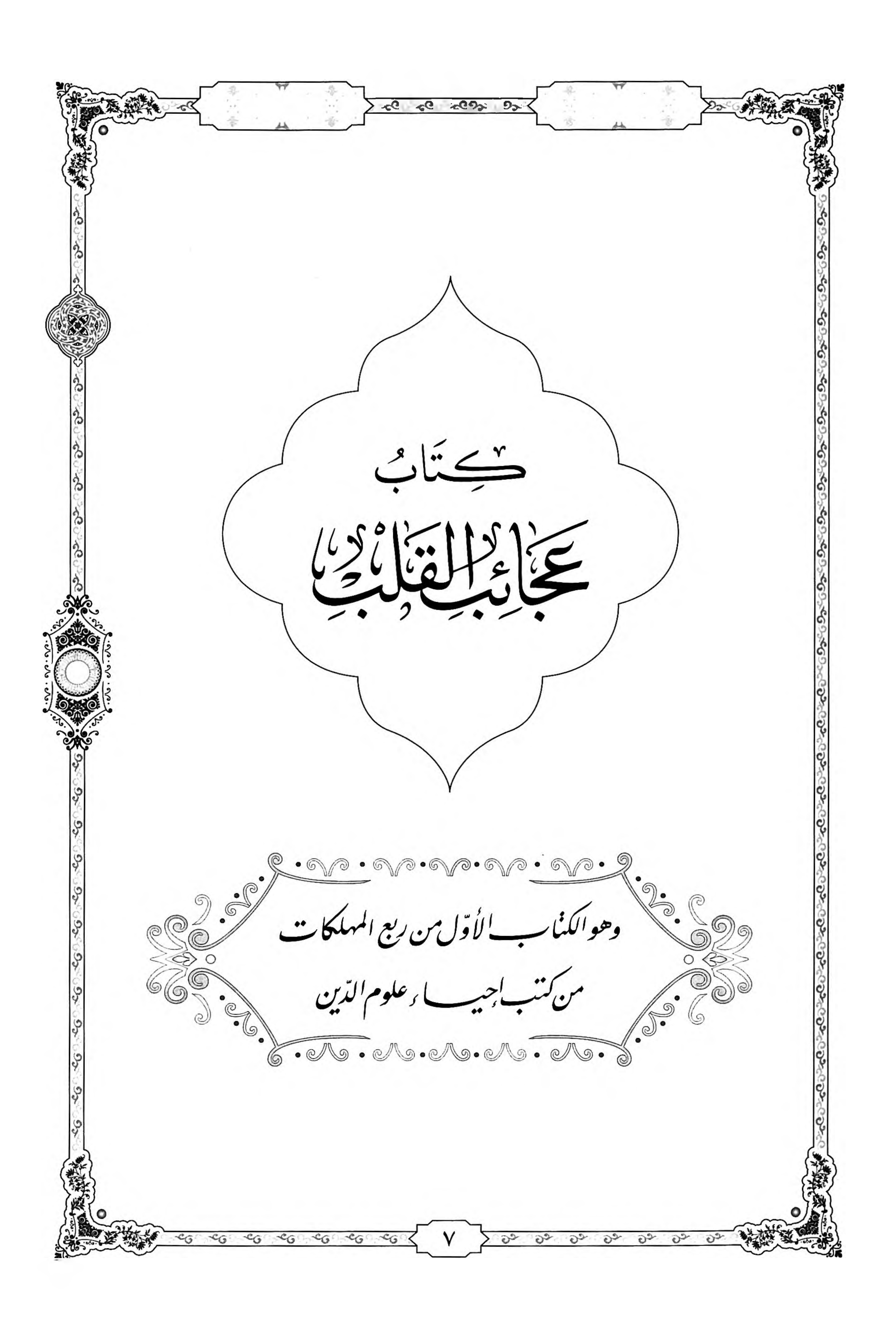




الرقم المعياري الدولي
ISBN: 978 - 9953 - 541 - 50 - 1


بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ
أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ الَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ الْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ
قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الْأَلْبَٰبِ

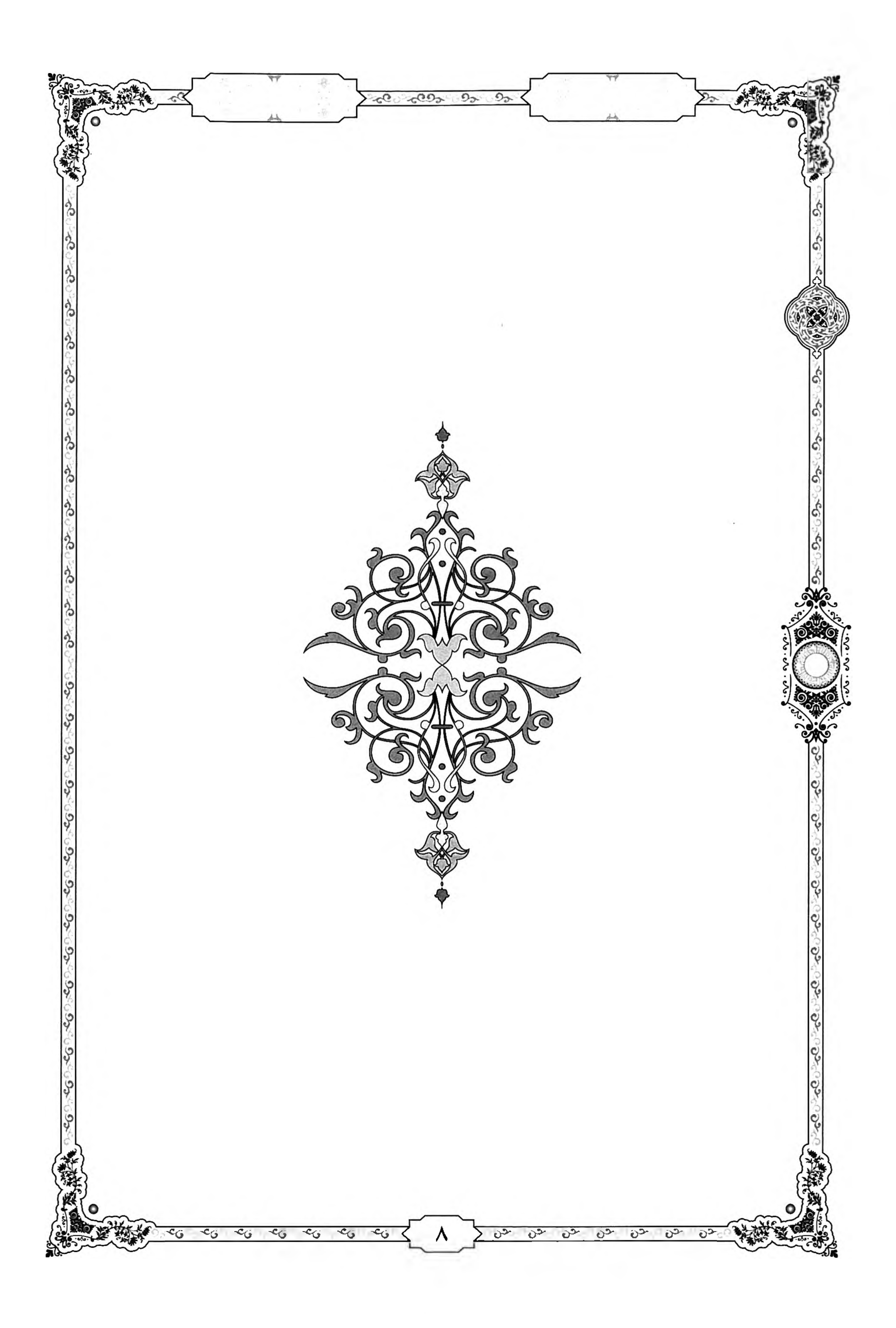




كتاب عجائب القلب

وهو الكتاب الأوّل من ربع المهلكات

من كتب إحياء علوم الدّين



كتاب عجائب القلب[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي تتحيَّرُ دونَ إدراكِ جلالِهِ القلوبُ والخواطرُ[2] ، وتدهَشُ في مبادي إشراقِ أنوارِهِ الأحداقُ والنواظرُ ، المطَّلعِ علىٰ خفيَّاتِ السرائرِ ، العالمِ بمكنوناتِ الضمائرِ ، المستغني في تدبيرِ ملكِهِ عنِ المشاورِ والموازرِ ، مقلِّبِ القلوبِ ، وغفَّارِ الذنوبِ ، وستَّارِ العيوبِ ، ومفرِّجِ الكروبِ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ سيِّدِ المرسلينَ ، وجامعِ شملِ الدينِ ، وقاطعِ دابرِ الملحدينَ ، وعلىٰ آلِهِ الطيِّبينَ الطاهرينَ ، وسلَّمَ كثيراً .

أما بعد :

فشرفُ الإنسانِ وفضيلتُهُ التي فاقَ بها جملةً مِنْ أصنافِ الخلقِ باستعدادِهِ لمعرفةِ اللهِ سبحانَهُ ، التي هيَ في الدنيا جمالُهُ وكمالُهُ وفخرُهُ ، وفي الآخرةِ عُدَّتُهُ وذُخرُهُ .

---

(١) فإن قال قائل : كيف يكون الحديث عن القلب وعجائبه في ربع المهلكات ؟ . . فالإجابة ستأتي للمصنف رحمه الله تعالىٰ ، وفيه بيان أن هـٰذا الكتاب والذي يليه ليس من لباب الحديث عن المهلكات أو المنجيات ، وإنما هما كالتوطئة والتمهيد .

(٢) والمعنىٰ : لا تطيق القلوب والخواطر الواردة عليها الإحاطة ؛ لعظم قدره وفخامة شأنه ، فتقف دونها وقوف المتحيّر الذي لا يهتدي للصواب ؛ لإشكال الأمر عليه . « إتحاف » (١٩٩/٧) .

وإنَّما استعدَّ للمعرفةِ بقلبِهِ ، لا بجارحةٍ مِنْ جوارحِهِ ، فالقلبُ هوَ العالِمُ باللهِ ، وهوَ المتقرِّبُ إلى اللهِ ، وهوَ العاملُ للهِ ، وهوَ الساعي إلى اللهِ ، وهوَ المكاشَفُ بما عندَ اللهِ ولديهِ ، وإنَّما الجوارحُ أتباعٌ وخدمٌ وآلاتٌ يستخدمُها القلبُ ، ويستعملُها استعمالَ المالكِ للعبيدِ ، واستخدامَ الراعي للرعيَّةِ ، والصانعِ للآلةِ .

فالقلبُ هوَ المقبولُ عندَ اللهِ إذا سلمَ مِنْ غيرِ اللهِ ، وهوَ المحجوبُ عنِ اللهِ إذا صارَ مستغرقاً بغيرِ اللهِ ، وهوَ المطالبُ وهوَ المخاطبُ ، وهوَ المعاتبُ والمعاقبُ ، وهوَ الذي يسعدُ بالقربِ مِنَ اللهِ فيفلحُ إذا زكَّاهُ ، وهوَ الذي يخيبُ ويشقىٰ إذا دنَّسَهُ ودسَّاهُ ، وهوَ المطيعُ بالحقيقةِ للهِ تعالىٰ ، وإنَّما الذي ينتشرُ على الجوارحِ مِنَ العباداتِ أنوارُهُ ، وهوَ العاصي المتمرِّدُ على اللهِ تعالىٰ ، وإنَّما الساري إلى الأعضاءِ مِنَ الفواحشِ آثارُهُ .

وبإظلامِهِ واستنارتِهِ تظهَرُ محاسنُ الظاهرِ ومساويهِ ؛ إذْ كلُّ إناءٍ ينضحُ بما فيهِ .

وهوَ الذي إذا عرفَهُ الإنسانُ . . فقدْ عرفَ نفسَهُ ، وإذا عرفَ نفسَهُ . . فقدْ عرفَ ربَّهُ .

وهوَ الذي إذا جهلَهُ الإنسانُ . . فقدْ جهلَ نفسَهُ ، وإذا جهلَ نفسَهُ . . فقدْ جهلَ ربَّهُ ، ومَنْ جهلَ قلبَهُ . . فهوَ بغيرِهِ أجهلُ .

وأكثرُ الخلْقِ جاهلونَ بقلوبِهِمْ وأنفسِهِمْ ، وقدْ حيلَ بينَهُمْ وبينَ

أنفسِهِمْ ، وإنَّ اللهَ يحولُ بينَ المرءِ وقلبِهِ ، **وحيلولتُهُ** : بأنْ يمنَعَهُ عنْ مشاهدتِهِ وقربِهِ ، ومراقبتِهِ ومعرفةِ صفاتِهِ ، وكيفيةِ تقلُّبِهِ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمـٰنِ ، وأنَّهُ كيفَ يهوي مرَّةً إلىٰ أسفلِ السافلينَ ، وينخفضُ إلىٰ أفقِ الشياطينِ ، وكيفَ يرتفعُ أخرىٰ إلىٰ أعلىٰ علِّيينَ ، ويرتقي إلىٰ عالمِ الملائكةِ المقرَّبينَ (١) .

ومَنْ لمْ يعرفْ قلبَهُ ليراقبَهُ ويراعيَهُ ، ويترصدَ ما يلوحُ مِنْ خزائنِ الملكوتِ عليهِ وفيهِ . . فهوَ ممَّنْ قالَ اللهُ تعالىٰ فيهِمْ : ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ (٢) فمعرفةُ القلبِ وحقيقةِ أوصافِهِ أصلُ الدينِ ، وأساسُ طريقِ السالكينَ .

وإذْ قدْ فرغنا مِنَ الشطرِ الأوَّلِ مِنْ هـٰذا الكتابِ مِنَ النظرِ فيما يجري على الجوارحِ مِنَ العباداتِ والعاداتِ ؛ **وهوَ العلمُ الظاهرُ** ، ووعدْنا أنْ نشرحَ في الشطرِ الثاني ما يجري على القلوبِ مِنَ الصفاتِ المهلكاتِ والمنجياتِ ؛ **وهوَ العلمُ الباطنُ** . . فلا بدَّ أنْ نقدِّمَ عليهِ كتابينِ :

كتابٌ في شرحِ عجائبِ صفاتِ القلبِ وأخلاقِهِ .

---

(١) وانخفاضه وارتفاعه إنما هو بالاتصاف بما لكل من الدرجتين من الأوصاف الذميمة والحميدة ، فإذا استولىٰ عليه الشهوة والغضب . . التحق بأفق الشياطين ، وإن ملكهما حتىٰ صفا . . التحق بأفق الملائكة المقربين . « إتحاف » (٧/٢٠١) ، ولكل من الدرجتين منازلات وأحوال ، وللسامية منهما مشاهدات ومكاشفات .

(٢) سورة الحشر : (١٩) .

وكتابٌ في كيفيَّةِ رياضةِ القلبِ وتهذيبِ أخلاقِهِ .

ثمَّ نندفعُ بعدَ ذٰلكَ في تفصيلِ المهلكاتِ والمنجياتِ .

فلنذكرِ الآنَ مِنْ شرحِ عجائبِ القلبِ بطريقِ ضربِ الأمثالِ ما يقرِّبُ مِنَ الأفهامِ ؛ فإنَّ التصريحَ بعجائبِهِ وأسرارِهِ الداخلةِ في جملةِ عالمِ الملكوتِ ممَّا يكلُّ عنْ دركِهِ أكثرُ الأفهامِ .

* * *

بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل وما هو المراد بهذه الأسامي

اعلمْ : أنَّ هٰذهِ الأسماءَ الأربعةَ تُستعملُ في هٰذهِ الأبوابِ ، ويقلُّ في فحولِ العلماءِ مَنْ يحيطُ بهٰذهِ الأسامي ، واختلافِ معانيها وحدودِها ومسمَّياتِها ، وأكثرُ الأغاليطِ منشؤُها الجهلُ بمعنىٰ هٰذهِ الأسامي ، وباشتراكِها بينَ مسمَّياتٍ مختلفةٍ ، ونحنُ نشرحُ مِنْ معاني هٰذهِ الأسامي ما يتعلَّق بغرضِنا .

❁ ❁ ❁

اللفظُ الأوَّلُ : لفظُ القلبِ .

وهوَ يُطلقُ لمعنيينِ :

أحدُهُما : اللحمُ الصنوبريُّ الشكلِ ، المودعُ في الجانبِ الأيسرِ مِنَ الصدرِ ، وهوَ لحمٌ مخصوصٌ ، وفي باطنِهِ تجويفٌ ، وفي ذٰلكَ التجويفِ دمٌ أسودُ ، وهو منبعُ الروحِ ومعدِنُهُ ، ولسنا نقصدُ الآنَ شرْحَ شكلِهِ وكيفيتِهِ ؛ إذْ لا تتعلَّقُ بهِ الأغراضُ الدينيةُ ، وإنَّما يتعلَّقُ بذٰلكَ غرضُ الأطباءِ .

وهٰذا القلبُ موجودٌ للبهائمِ ، بلْ هوَ موجودٌ للميّتِ .

ونحنُ إذا أطلقْنا لفظَ القلبِ في هٰذا الكتابِ . . لمْ نعنِ بهِ ذٰلكَ ؛ فإنَّهُ قطعةُ لحمٍ لا قدْرَ لهُ ، وهوَ مِنْ عالمِ المُلْكِ والشهادةِ ؛

إذْ تدركُهُ البهائمُ بحاسَّةِ البصرِ فضلاً عنِ الآدميينَ .

والمعنى الثاني : هوَ لطيفةٌ ربَّانيَّةٌ روحانيَّةٌ ، لها بهٰذا القلبِ الجسمانيِّ تعلُّقٌ ، وتلكَ اللطيفةُ هيَ حقيقةُ الإنسانِ ، وهوَ المدْرِكُ العالِمُ العارفُ مِنَ الإنسانِ ، وهوَ المخاطبُ والمعاقبُ ، والمعاتبُ والمطالبُ ، ولهُ علاقةٌ معَ القلبِ الجسمانيِّ ، وقدْ تحيَّرَتْ عقولُ أكثرِ الخلقِ في إدراكِ وجهِ علاقتِهِ ؛ فإنَّ تعلقَهُ بهِ يضاهي تعلُّقَ الأعراضِ بالأجسامِ ، والأوصافِ بالموصوفاتِ ، أوْ تعلُّقَ المستعملِ للآلةِ بالآلةِ ، أوْ تعلُّقَ المتمكِّنِ بالمكانِ .

وشرحُ ذٰلكَ ممَّا نتوقاهُ لمعنيينِ :

أحدُهُما : أنَّهُ متعلِّقٌ بعلومِ المكاشفةِ ، وليسَ غرضُنا في هٰذا الكتابِ إلا علومَ المعاملةِ .

والثاني : أنَّ تحقيقَهُ يستدعي إفشاءَ سرِّ الروحِ ، وذٰلكَ ممَّا لمْ يتكلَّمْ فيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فليسَ لغيرِهِ أنْ يتكلَّمَ فيهِ [1] .

والمقصودُ : أنَّا إذا أطلقْنا لفظَ القلبِ في هٰذا الكتابِ . . أردْنا بهِ

(١) تقدم الأثر الوارد في ذٰلك ، وفي امتناعه صلى الله عليه وسلم عن الكلام في الروح انظر « عوارف المعارف » (٢/٧٧١) ، ومن جملة كلام الإمام السهروردي فيه : (وحيث أمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإخبار عن الروح وماهيته بإذن الله تعالىٰ ووحيه وهو صلوات الله عليه معدن العلم وينبوع الحكمة . . فكيف يسوغ لغيره الخوض فيه والإشارة إليه ؟!) .

هٰذهِ اللطيفةَ ، **وغرضُنا** : ذكرُ أوصافِها وأحوالِها ، لا ذكرُ حقيقتِها في ذاتِها ، وعلمُ المعاملةِ يفتقرُ إلىٰ معرفةِ صفاتِها وأحوالِها ، ولا يفتقرُ إلىٰ ذكرِ حقيقتِها .

❁ ❁ ❁

اللفظُ الثاني : الروحُ .

وهوَ أيضاً يُطلقُ فيما يتعلَّقُ بجنسِ غرضِنا لمعنيينِ :

أحدُهُما : جسمٌ لطيفٌ ، منبعُهُ تجويفُ القلبِ الجسمانيِّ ، وينتشرُ بواسطةِ العروقِ الضواربِ إلىٰ سائرِ أجزاءِ البدنِ ، وجريانُهُ في البدنِ وفيضانُ أنوارِ الحياةِ والحسِّ والبصرِ والسمعِ والشمِّ منهُ علىٰ أعضائِهِ . . يضاهي فيضانَ النورِ مِنَ السراجِ الذي يُدارُ في زوايا البيتِ ؛ فإنَّهُ لا ينتهي إلىٰ جزءٍ مِنَ البيتِ إلا ويستنيرُ بهِ .

فالحياةُ مثالُها النورُ الحاصلُ في الحيطانِ ، والروحُ مثالُهُ السراجُ ، وسريانُ الروحِ وحركتُهُ في الباطنِ مثالُهُ حركةُ السراجِ في جوانبِ البيتِ بتحريكِ محرِّكِهِ .

والأطباءُ إذا أطلقوا لفظَ الروحِ . . أرادوا بهِ هٰذا المعنىٰ ، وهوَ بخارٌ لطيفٌ أنضجَتْهُ حرارةُ القلبِ ، وليسَ شرحُهُ مِنْ غرضِنا ؛ إذِ المتعلِّقُ بهِ غرضُ الأطباءِ الذينَ يعالجونَ الأبدانَ ، فأمَّا غرضُ أطباءِ الدينِ المعالجينَ للقلبِ حتَّىٰ ينساقَ إلىٰ جوارِ ربِّ العالمينَ . . فليسَ يتعلَّقُ بشرحِ هٰذا الروحِ أصلاً .

المعنى الثاني : هوَ اللطيفةُ العالمةُ المدركةُ مِنَ الإنسانِ ، وهوَ الذي شرحناهُ في أحدِ معنيي القلبِ ، وهوَ الذي أرادَهُ اللهُ تعالىٰ بقولِهِ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ (١) ، وهوَ أمرٌ عجيبٌ ربَّانيٌّ ، تعجزُ أكثرُ العقولِ والأفهامِ عنْ دركِ كُنْهِ حقيقتِهِ .

❁ ❁ ❁

اللفظُ الثالثُ : النفسُ .

وهوَ أيضاً مشتركٌ بينَ معانٍ ، ويتعلَّقُ بغرضِنا منهُ معنيانِ :

أحدُهُما : أنَّهُ يُرادُ بهِ المعنى الجامعُ لقوَّةِ الغضبِ والشهوةِ في الإنسانِ ، علىٰ ما سيأتي شرحُهُ ، وهاذا الاستعمالُ هوَ الغالبُ علىٰ أهلِ التصوُّفِ ؛ لأنَّهُمْ يريدونَ بالنفْسِ الأصلَ الجامعَ للصفاتِ المذمومةِ مِنَ الإنسانِ ، فيقولونَ : (لا بدَّ مِنْ مجاهدةِ النفسِ وكسرِها) ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أعدىٰ عدوٍّ لكَ نفسُكَ التي بينَ جنبيكَ » (٢) .

المعنى الثاني : هوَ اللطيفةُ التي ذكرناها ، التي هيَ الإنسانُ بالحقيقةِ ، وهيَ نفسُ الإنسانِ وذاتُهُ ، ولـٰكنَّها تُوصفُ بأوصافٍ

---

(١) سورة الإسراء : (٨٥) .

(٢) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٣٢) عن أبي مالك الأشعري مرفوعاً ، والبيهقي في « الزهد » (٣٤٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢٠٦/٧) تعقيباً علىٰ طريق البيهقي : (ووجدت بخط الحافظ ابن حجر ما نصه : وللحديث طرق أخرىٰ غير هـٰذه من حديث أنس وغيره) .

مختلفةٍ بحسبِ اختلافِ أحوالِها ، فإذا سكنَتْ تحتَ الأمرِ ، وزايلَها الاضطرابُ بسببِ معارضةِ الشهواتِ . . سُمّيتِ النفسَ المطمئنةَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ في مثلِها : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [1] ، والنفسُ بالمعنى الأوّلِ لا يُتصوَّرُ رجوعُها إلى اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّها مبعدةٌ عنِ اللهِ ، وهيَ مِنْ حزبِ الشيطانِ .

وإذا لَمْ يتمَّ سكونُها ، ولٰكنَّها صارَتْ مدافعةً للنفسِ الشهوانيةِ ومعترضةً عليها . . سُمّيتِ النفسَ اللوَّامةَ ؛ لأنَّها تلومُ صاحبَها عندَ تقصيرِهِ في عبادةِ مولاهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [2] .

وإنْ تركتِ الاعتراضَ ، وأذعنَتْ وأطاعَتْ لمقتضى الشهواتِ ودواعي الشيطانِ . . سُمّيتِ النفسَ الأمَّارةَ بالسوءِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ إخباراً عنْ يوسفَ عليهِ السَّلامُ أوِ امرأةِ العزيزِ : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [3] ، وقدْ يجوزُ أنْ يُقالَ : المرادُ بالأمَّارةِ بالسوءِ : هيَ النفسُ بالمعنى الأوّلِ .

فإذاً ؛ النفسُ بالمعنى الأوّلِ مذمومةٌ غايةَ الذمِّ ، وبالمعنى الثاني : محمودةٌ ؛ لأنَّها نفسُ الإنسانِ ؛ أيْ : ذاتُهُ وحقيقتُهُ العالمةُ باللهِ تعالىٰ وسائرِ المعلوماتِ .

* * *

(١) سورة الفجر : (٢٧ ـ ٢٨) .
(٢) سورة القيامة : (٢) .
(٣) سورة يوسف ﷺ : (٥٣) .

اللفظُ الرابعُ : العقلُ .

وهوَ أيضاً مشتركٌ لمعانٍ مختلفةٍ ذكرناها في كتابِ العلمِ ، والمتعلِّقُ بغرضِنا مِنْ جملتِها معنيانِ :

أحدُهُما : أنَّهُ قدْ يُطلقُ ويُرادُ بهِ العلمُ بحقائقِ الأمورِ ، فيكونُ عبارةً عنْ صفةِ العلمِ الذي محلُّهُ القلبُ .

والثاني : أنَّهُ قدْ يُطلقُ ويُرادُ بهِ المدرِكُ للعلومِ ، فيكونُ هوَ القلبَ ؛ أعني تلكَ اللطيفةَ .

ونحنُ نعلمُ أنَّ كلَّ عالمٍ فلَهُ في نفسِهِ وجودٌ هوَ أصلٌ قائمٌ بنفسِهِ ، والعلمُ صفةٌ حالَّةٌ فيهِ ، والصفةُ غيرُ الموصوفِ ، والعقلُ قدْ يُطلقُ ويُرادُ بهِ صفةُ العالمِ ، وقدْ يُطلقُ ويُرادُ بهِ محلُّ الإدراكِ ؛ أعني المدرِكَ ، وهوَ المرادُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوَّلُ ما خلقَ اللهُ العقلُ »[1] ؛ فإنَّ العلمَ عرضٌ لا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ أوَّلَ مخلوقٍ ، بلْ لا بدَّ أنْ يكونَ المحلُّ مخلوقاً قبلَهُ أوْ معَهُ ، ولأنَّهُ لا يمكنُ الخطابُ معَهُ ، وفي الخبرِ : « أنَّهُ قالَ لهُ تعالىٰ : أقبلْ . . فأقبلَ ، ثمَّ قالَ لهُ : أدبرْ . . فأدبرَ . . . » الحديثَ[2] .

فإذاً ؛ قدِ انكشفَ لكَ أنَّ معانيَ هـٰذهِ الأسامي موجودةٌ ،

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/٢٨٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٣١٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/٣١٨) .

(٢) هو قطعة من حديث : « أول ما خاق الله العقل » المتقدم قبله .

وهيَ القلبُ الجسمانيُّ ، والروحُ الجسمانيُّ ، والنفسُ الشهوانيَّةُ ، والعلومُ[1] .

＊ ＊ ＊

فهٰذهِ أربعةُ معانٍ يُطلقُ عليها الألفاظُ الأربعةُ ، ومعنىً خامسٌ ؛ وهيَ اللطيفةُ العالمةُ المدرِكةُ مِنَ الإنسانِ ، والألفاظُ الأربعةُ بجملتِها تتواردُ عليها ، فالمعاني خمسةٌ ، والألفاظُ أربعةٌ ، وكلُّ لفظٍ أُطلقَ لمعنيينِ ، وأكثرُ العلماءِ قدِ التبسَ عليهِمُ اختلافُ هٰذهِ الألفاظِ وتواردُها ، فتراهُمْ يتكلَّمونَ في الخواطرِ ، ويقولونَ : هٰذا خاطرُ العقلِ ، وهٰذا خاطرُ الروحِ ، وهٰذا خاطرُ القلبِ ، وهٰذا خاطرُ النفسِ ، وليسَ يدري الناظرُ اختلافَ معاني هٰذهِ الأسماءِ ، فلأجلِ كشفِ الغطاءِ عنْ ذٰلكَ . . قدَّمْنا شرحَ هٰذهِ الأسامي .

وحيثُ وردَ في القرآنِ والسنَّةِ لفظُ القلبِ . . فالمرادُ بهِ المعنى الذي يفقَهُ مِنَ الإنسانِ ويعرفُ حقيقةَ الأشياءِ ، وقدْ يُكنىٰ عنهُ بالقلبِ الذي في الصدرِ ؛ لأنَّ بينَ تلكَ اللطيفةِ وبينَ جسمِ القلبِ علاقةً خاصةً ؛ فإنَّها وإنْ كانتْ متعلِّقةً بسائرِ البدنِ ومستعملةً لهُ ، ولٰكنَّها تتعلَّقُ بهِ بواسطةِ القلبِ ، فتعلُّقُها الأوَّلُ بالقلبِ ، وكأنَّهُ محلُّها ومملكتُها ، وعالمُها ومطيَّتُها .

ولذٰلكَ شبَّهَ سهلٌ التستريُّ القلبَ بالعرشِ ، والصدْرَ بالكرسيِّ ،

---

(١) في (ب ، ج ، ل) : (والعقل العلمي) بدل (والعلوم) .

فقالَ : (القلبُ هوَ العرشُ ، والصدرُ هوَ الكرسيُّ)[1] ، ولا تظنَّ بهِ أنَّهُ يرىٰ أنَّهُ عرشُ اللهِ وكرسيُّهُ ؛ فإنَّ ذٰلكَ محالٌ ، بلْ أرادَ بهِ أنَّهُ مملكتُهُ ، والمجرى الأوَّلُ لتدبيرِهِ وتصرُّفِهِ ، فهما بالنسبةِ إليهِ كالعرشِ والكرسيِّ بالنسبةِ إلى اللهِ تعالىٰ ، ولا يستقيمُ هٰذا التشبيهُ أيضاً إلا مِنْ بعضِ الوجوهِ ، وشرحُ ذٰلكَ أيضاً لا يليقُ بغرضِنا ، فلنتجاوزْهُ .

❊ ❊ ❊

(١) قوت القلوب (١/٢٣١) .

بيان جنود القلب

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (١) ، فللهِ سبحانَهُ في القلوبِ والأرواحِ وغيرِها مِنَ العوالمِ جنودٌ مجنَّدةٌ ، لا يعرفُ حقيقتَها وتفصيلَ عددِها إلا هوَ ، ونحنُ الآنَ نشيرُ إلىٰ بعضِ جنودِ القلبِ ، فهوَ الذي يتعلَّقُ بغرضِنا .

ولهُ جندانِ :

جندٌ يُرىٰ بالأبصارِ .

وجندٌ لا يُرىٰ إلا بالبصائرِ .

وهوَ في حكمِ المَلِكِ ، والجنودُ في حكْمِ الخدمِ والأعوانِ ، فهٰذا معنى الجندِ .

فأمَّا جندُهُ المشاهدُ بالعينِ : فهوَ اليدُ والرِّجْلُ ، والعينُ والأذنُ واللسانُ ، وسائرُ الأعضاءِ الظاهرةِ والباطنةِ ؛ فإنَّ جميعَها خادمةٌ للقلبِ ، ومسخَّرةٌ لهُ ، فهوَ المتصرِّفُ فيها ، والمردِّدُ لها .

وقدْ خُلقَتْ مجبولةً علىٰ طاعةِ القلبِ ، لا تستطيعُ لهُ خلافاً ، ولا عليهِ تمرُّداً ، فإذا أمرَ العينَ بالانفتاحِ . . انفتحَتْ ، وإذا أمرَ الرجْلَ بالحركةِ . . تحرَّكَتْ ، وإذا أمرَ اللسانَ بالكلامِ وجزمَ الحكْمَ بهِ . . تكلَّمَ ، وكذا سائرُ الأعضاءِ .

---

(١) سورة المدثر : (٣١) .

وتسخُّرُ الأعضاءِ والحواسِّ للقلبِ يشبهُ مِنْ وجهٍ تسخُّرَ الملائكةِ للهِ تعالىٰ ؛ فإنَّهُمْ مجبولونَ على الطاعةِ ، لا يستطيعونَ لهُ خلافاً ، بلْ لا يعصونَ اللهَ ما أمرَهُمْ ، ويفعلونَ ما يُؤمرونَ ، وإنَّما يفترقانِ في شيءٍ ؛ وهوَ أنَّ الملائكةَ عليهِمُ السلامُ عالمةٌ بطاعتِها وامتثالِها ، والأجفانُ تطيعُ القلبَ في الانفتاحِ والانطباقِ علىٰ سبيلِ التسخيرِ ولا خبرَ لها مِنْ نفسِها ومِنْ طاعتِها للقلبِ .

وإنَّما افتقرَ القلبُ إلىٰ هٰذهِ الجنودِ مِنْ حيثُ افتقارُهُ إلى المرْكَبِ والزادِ لسفرِهِ الذي لأجلِهِ خُلِقَ ، وهوَ السفرُ إلى اللهِ سبحانَهُ ، وقطعُ المنازلِ إلىٰ لقائِهِ ، فلأجلِهِ خُلقَتِ القلوبُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١) ، وإنَّما مركبُهُ البدَنُ ، وزادُهُ العلْمُ ، وإنَّما الأسبابُ التي توصلُهُ إلى الزادِ وتمكِّنُهُ مِنَ التزوُّدِ منهُ . . هوَ العملُ الصالحُ ، وليسَ يمكنُ أن يصلَ العبدُ إلى اللهِ سبحانَهُ ما لمْ يسكنِ البدَنَ ، ولمْ يجاوزِ الدنيا ، فإنَّ المنزلَ الأدنىٰ لا بدَّ مِنْ قطعِهِ للوصولِ إلى المنزلِ الأقصىٰ ؛ والدنيا مزرعةُ الآخرةِ ، وهِيَ منزلٌ مِنْ منازلِ الهدىٰ ، وإنَّما سُمِّيَتْ دنيا لأنَّها أدنى المنزلتينِ ، فاضطرَّ إلىٰ أنْ يتزوَّدَ مِنْ هٰذا العالَمِ ، والبَدَنُ مركبُهُ الذي يصلُ بهِ إلىٰ هٰذا العالمِ ، فافتقرَ إلىٰ تعهُّدِ البدَنِ وحفظِهِ ، وإنَّما يحفظُ البدَنَ بأنْ يجلبَ إليهِ ما يوافقُهُ مِنَ الغذاءِ وغيرِهِ ، وأنْ يدفعَ عنهُ ما ينافيهِ ويهلكُهُ مِنْ أسبابِ الهلاكِ ، فافتقرَ لأجلِ جلْبِ الغذاءِ إلىٰ جندينِ :

---

(١) سورة الذاريات : (٥٦) .

باطنٌ ؛ وهوَ الشهوةُ .

وظاهرٌ ؛ وهوَ اليدُ والأعضاءُ الجالبةُ للغذاءِ .

فخُلقَ في القلبِ مِنَ الشهواتِ ما احتاجَ إليهِ ، وخُلقَتِ الأعضاءُ التي هيَ آلاتُ الشهواتِ ، فافتقرَ لأجلِ دفْعِ المهلكاتِ إلىٰ جندينِ :

باطنٌ ؛ وهوَ الغضبُ الذي بهِ يدفعُ المهلكاتِ ، وينتقمُ مِنَ الأعداءِ .

وظاهرٌ ؛ وهوَ اليدُ والرِّجْلُ الذي بهما يعملُ بمقتضى الغضبِ .

وكمَّلَ ذٰلكَ بأمورٍ خارجةٍ عنِ البدنِ ؛ كالأسلحةِ وغيرِها .

ثمَّ المحتاجُ إلى الغذاءِ إذا لمْ يعرفِ الغذاءَ . . لمْ تنفعْهُ شهوةُ الغذاءِ وآلتُهُ ، فافتقرَ للمعرفةِ إلىٰ جندينِ :

باطنٌ ؛ وهوَ إدراكُ البصرِ والذوقِ والشمِّ والسمعِ واللمسِ .

وظاهرٌ ؛ وهوَ العينُ والأذنُ والأنفُ وغيرُها .

وتفصيلُ وجهِ الحاجةِ إليها ، ووجهِ الحكمةِ فيها يطولُ ، ولا تحويهِ مجلداتٌ كثيرةٌ ، وقدْ أشرنا إلىٰ طرفٍ يسيرٍ منها في كتابِ الشكرِ ، فليُقتنعْ بهِ .

فجملةُ جنودِ القلبِ تحصرُها ثلاثةُ أصنافٍ :

ـ صنفٌ باعثٌ ومستحثٌّ ؛ إمَّا إلىٰ جلبِ النافعِ الموافقِ كالشهوةِ ، وإمَّا إلىٰ دفعِ الضارِّ المنافي كالغضبِ ، وقدْ يُعبَّرُ عنْ هٰذا الباعثِ بالإرادةِ .

ـ والثاني : هوَ المحرّكُ للأعضاءِ إلىٰ تحصيلِ هـٰذهِ المقاصدِ ، ويعبَّرُ عنْ هـٰذا الثاني بالقدرةِ ، وهيَ جنودٌ مبثوثةٌ في سائرِ الأعضاءِ ، لا سيَّما العضلاتُ منها والأوتارُ .

ـ والثالثُ : هوَ المدركُ المتعرِّفُ للأشياءِ كالجواسيسِ ، وهيَ قوَّةُ البصرِ والسمعِ والشمِّ والذوقِ واللمسِ ، وهيَ مبثوثةٌ في أعضاءٍ معيَّنةٍ ، ويُعبَّرُ عنْ هـٰذا بالعلمِ والإدراكِ ، ومعَ كلِّ واحدٍ مِنْ هـٰذهِ الجنودِ الباطنةِ جنودٌ ظاهرةٌ ، وهيَ الأعضاءُ المركَّبَةُ مِنَ الشحْمِ واللحمِ والعصبِ والدمِ والعظمِ ، التي أُعدَّتْ آلاتٍ لهـٰذهِ الجنودِ ، فإنَّ قوَّةَ البطْشِ إنَّما هيَ بالأصابعِ ، وقوَّةَ البصرِ إنَّما هيَ بالعينِ ، وكذا سائرُ القوىٰ .

ولسنا نتكلَّمُ في الجنودِ الظاهرةِ ؛ أعني : الأعضاءَ ؛ فإنَّها مِنْ عالمِ الملكِ والشهادةِ ، وإنَّما نتكلَّمُ الآنَ فيما أُيِّدَ بهِ مِنْ جنودٍ لمْ تروها .

وهـٰذا الصنفُ الثالثُ ـ وهوَ المدركُ مِنْ هـٰذهِ الجملةِ ـ ينقسمُ :

إلىٰ ما قدْ أُسكنَ المنازلَ الظاهرةَ ؛ وهيَ الحواسُّ الخمسُ ؛ أعني : السمعَ والبصرَ والشمَّ والذوقَ واللمسَ .

وإلىٰ ما أُسكنَ منازلَ باطنةً ؛ وهيَ تجاويفُ الدماغِ ، وهيَ أيضاً خمسةٌ ؛ فإنَّ الإنسانَ بعدَ رؤيةِ الشيءِ يغمضُ عينيهِ ، فيدركُ صورتَهُ في نفسِهِ ، وهوَ الخيالُ ، ثمَّ تبقىٰ تلكَ الصورةُ معَهُ بسببِ شيءٍ يحفظُهُ ، وهوَ الجندُ الحافظُ ، ثمَّ يتفكَّرُ فيما حفظَهُ ، فيُركِّبُ بعضَ

ذٰلكَ إلىٰ بعضٍ ، ثمَّ يتذكَّرُ ما قدْ نسيَهُ ، ويعودُ إليهِ ، ثمَّ يجمعُ جملةَ معاني المحسوساتِ في خيالِهِ بالحسِّ المشتركِ بينَ المحسوساتِ ، ففي الباطنِ حسٌّ مشتركٌ ، وتخيُّلٌ وتفكُّرٌ ، وتذكُّرٌ وحفْظٌ ، ولولا خلْقُ اللهِ قوَّةَ الحفظِ والفكرِ ، والذكْرِ والتخيُّلِ . . لكانَ الدماغُ يخلو عنهُ كما تخلو اليدُ والرجْلُ عنهُ ، فتلكَ القوىٰ أيضاً جنودٌ باطنةٌ ، وأماكنُها أيضاً باطنةٌ .

فهٰذهِ هيَ أقسامُ جنودِ القلبِ ، وشرحُ ذٰلكَ بحيثُ يدركُهُ فهمُ الضعفاءِ بضربِ الأمثلةِ يطولُ ، و **مقصودُ مثلِ هٰذا الكتابِ أنْ ينتفعَ بهِ الأقوياءُ والفحولُ مِنَ العلماءِ** ، ولٰكنَّا نجتهدُ في تفهيمِ الضعفاءِ بضرْبِ الأمثلةِ ؛ ليقربَ ذٰلكَ مِنْ أفهامِهِمْ .

❊ ❊ ❊

بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة

اعلمْ : أنَّ جنديِ الغضبِ والشهوةِ قدْ ينقادانِ للقلبِ انقياداً تامّاً ، فيعينُهُ ذٰلكَ علىٰ طريقِهِ الذي يسلكُهُ ، وتحسنُ مرافقتُهُما في السفرِ الذي هوَ بصددِهِ ، وقدْ يستعصيانِ عليهِ استعصاءَ بغيٍ وتمرُّدٍ حتَّىٰ يملكاهُ ويستعبداهُ ، وفيهِ هلاكُهُ وانقطاعُهُ عنْ سفرِهِ الذي بهِ وصولُهُ إلىٰ سعادةِ الأبدِ .

وللقلبِ جندٌ آخرُ ؛ وهوَ العلمُ والحكمةُ والتفكُّرُ كما سيأتي شرحُهُ ، وحقُّهُ أنْ يستعينَ بهٰذا الجندِ ؛ فإنَّهُ حزبُ اللهِ تعالىٰ على الجندينِ الآخرينِ ، فإنَّهُما قدْ يلتحقانِ بحزبِ الشيطانِ ، فإنْ تركَ الاستعانةَ وسلَّطَ علىٰ نفسِهِ جندَ الغضبِ والشهوةِ . . هلكَ يقيناً ، وخسرَ خسراناً مبيناً ، وذٰلكَ حالُ أكثرِ الخلقِ ، فإنَّ عقولَهُمْ صارَتْ مسخَّرةً لشهواتِهِمْ في استنباطِ الحيلِ لقضاءِ الشهوةِ ، وكانَ ينبغي أنْ تكونَ الشهوةُ مسخَّرةً لعقولِهِمْ فيما يفتقرُ العقلُ إليهِ .

ونحنُ نقرّبُ ذٰلكَ إلىٰ فهمِكَ بثلاثةِ أمثلةٍ :

المثالُ الأوَّلُ :

أنْ نقولَ : مَثَلُ نفسِ الإنسانِ في بدنِهِ ـ أعني بالنفسِ : اللطيفةَ المذكورةَ ـ كمَثَلِ مَلِكٍ في مدينتِهِ ومملكتِهِ ، فإنَّ البدَنَ مملكةُ النفسِ وعالَمُها ومستقرُّها ومدينتُها ، وجوارحُهُ وقواهُ بمنزلةِ الصنَّاعِ والعَمَلَةِ ،

والقوَّةُ العقليَّةُ المفكِّرةُ لهُ كالمشيرِ الناصحِ والوزيرِ العاقلِ ، والشهوةُ لهُ كالعبدِ السوءِ يجلبُ الطعامَ والميرةَ إلى المدينةِ ، والغضبُ والحميَّةُ لهُ كصاحبِ الشرطةِ ، والعبدُ الجالبُ للميرةِ كذَّابٌ مكَّارٌ ، خدَّاعٌ خبيثٌ ، يتمثَّلُ بصورةِ الناصحِ ، وتحتَ نصحِهِ الشرُّ الهائلُ والسمُّ القاتلُ ، وديدنُهُ وعادتُهُ منازعةُ الوزيرِ الناصحِ في آرائِهِ وتدبيراتِهِ ، حتَّىٰ إنَّهُ لا يخلو مِنْ منازعتِهِ ومعارضتِهِ ساعةً .

فكما أنَّ الواليَ في مملكتِهِ إذا كانَ مستغنياً في تدبيراتِهِ بوزيرِهِ ، ومستشيراً لهُ ومعرضاً عنْ إشارةِ هٰذا العبدِ الخبيثِ ، مستدلاً بإشارتِهِ فِي أنَّ الصوابَ في نقيضِ رأيِهِ ، وأدَّبَ صاحبَ شرطتِهِ وأسلمَهُ لوزيرِهِ ، وجعلَهُ مؤتمراً لهُ ، ومسلطاً مِنْ جهتِهِ علىٰ هٰذا العبدِ الخبيثِ وأتباعِهِ وأنصارِهِ ، حتَّىٰ يكونَ العبدُ مسوساً لا سائساً ، ومأموراً مدبَّراً لا أميراً مدبِّراً . . استقامَ أمرُ بلدِهِ ، وانتظمَ العدْلُ بسببِهِ . . فكذٰلكَ النفسُ ، متى استعانَتْ بالعقلِ ، وأدبَتِ الحميَّةَ الغضبيَّةَ ، وسلطَتْها على الشهوةِ ، واستعانَتْ بإحداهُما على الأخرىٰ ؛ تارةً بأنْ تقلِّلَ مرتبةَ الغضبِ وغلوائِهِ بمخالفةِ الشهوةِ واستدراجِها ، وتارةً بقمعِ الشهوةِ وقهرِها بتسليطِ الغضبِ والحميَّةِ عليها وتقبيحِ مقتضياتِها . . اعتدلَتْ قواها ، وحسنَتْ أخلاقُها .

ومَنْ عدلَ عنْ هٰذهِ الطريقةِ . . كانَ كمَنْ قالَ اللهُ تعالىٰ فيهِ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [1] .

---

(١) سورة الجاثية : (٢٣) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾[1] .

وقالَ عزَّ وجلَّ فيمَنْ نهى النفسَ عنِ الهوىٰ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[2] .

وستأتي كيفيةُ مجاهدةِ هٰذهِ الجنودِ وتسليطِ بعضِها علىٰ بعضٍ في كتابِ رياضةِ النفسِ ، إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

❁ ❁ ❁

المثالُ الثاني :

اعلمْ : أنَّ البدنَ كالمدينةِ ، والعقلُ ـ أعني : المدركَ مِنَ الإنسانِ ـ كَمَلِكٍ مدبِّرٍ لها ، وقواهُ المدركةُ مِنَ الحواسِّ الظاهرةِ والباطنةِ كجنودِهِ وأعوانِهِ ، وأعضاؤُهُ كرعيَّتِهِ ، والنفسُ الأمَّارةُ بالسوءِ التي هيَ الشهوةُ والغضبُ كعدوٍّ ينازعُهُ في مملكتِهِ ويسعىٰ في إهلاكِ رعيَّتِهِ ، فصارَ بدنُهُ كرباطٍ وثغرٍ ، ونفسُهُ كقيِّمٍ فيهِ مرابطٍ .

فإنْ هوَ جاهدَ عدوَّهُ وهزمَهُ ، وقهرَهُ علىٰ ما يحبُّ . . حُمِدَ أثرُهُ إذا عادَ إلى الحضرةِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ﴾[3] .

وإنْ ضيَّعَ ثغرَهُ ، وأهملَ رعيَّتَهُ . . ذُمَّ أثرُهُ ، وانتُقِمَ منهُ عندَ اللهِ

---

(١) سورة الأعراف : (١٧٦) .

(٢) سورة النازعات : (٤٠ ـ ٤١) .

(٣) سورة النساء : (٩٥) .

تعالىٰ ، فيُقالُ لهُ يومَ القيامةِ : (يا راعيَ السوءِ ؛ أكلتَ اللحمَ ، وشربتَ اللبنَ ، ولمْ تُؤوِ الضالَّةَ ، ولمْ تجبرِ الكسيرَ ، اليومَ أنتقمُ منكَ) ، كما وردَ في الخبرِ [1] ، وإلىٰ هـٰذهِ المجاهدةِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رجعْنا مِنَ الجهادِ الأصغرِ إلى الجهادِ الأكبرِ » [2] .

* * *

المثالُ الثالثُ :

مَثَلُ العقلِ مَثَلُ فارسٍ متصيِّدٍ ، وشهوتُهُ كفرسِهِ ، وغضبُهُ ككلبِهِ ، فمتىٰ كانَ الفارسُ حاذقاً ، وفرسُهُ مروضاً ، وكلبُهُ مؤدَّباً معلماً . . كانَ جديراً بالنجاحِ .

ومتىٰ كانَ هوَ في نفسِهِ أخرقَ ، وكانَ الفرسُ جموحاً ، والكلبُ عقوراً . . فلا فرسُهُ ينبعثُ تحتَهُ منقاداً ، ولا كلبُهُ يسترسلُ بإشارتِهِ مطيعاً ، فهوَ خليقٌ بأنْ يعطبَ فضلاً عنْ أنْ ينالَ ما طلبَ .

وإنَّما خرْقُ الفارسِ مثلُ جهلِ الإنسانِ وقلَّةِ حكمتِهِ وكلالِ بصيرتِهِ ، وجماحُ الفرسِ مثلُ غلبةِ الشهوةِ ، خصوصاً شهوةَ البطنِ والفرجِ ، وعقْرُ الكلبِ مثالُ غلبةِ الغضبِ واستيلائِهِ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بلطفِهِ .

* * *

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (١٩٠٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٨٧) عن مالك بن دينار رحمه الله تعالىٰ .

(٢) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٣٧٣) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/٤٩٨) ، وابن الجوزي في « ذم الهوىٰ » (١١٨) .

بيان خاصيّة قلب الإنسان

اعلمْ : أنَّ جملةَ ما ذكرناهُ قدْ أنعمَ اللهُ بهِ علىٰ سائرِ الحيواناتِ سوى الآدميِّ ؛ إذْ للحيواناتِ الشهوةُ والغضبُ والحواسُّ الظاهرةُ والباطنةُ أيضاً ، حتَّىٰ إنَّ الشاةَ ترى الذئبَ بعينِها ، فتعلمُ عداوتَهُ بقلبِها ، فتهربُ منهُ ، فذٰلكَ هوَ الإدراكُ الباطنُ .

فلنذكرْ ما يختصُّ بهِ قلبُ الإنسانِ ولأجلِهِ عَظُمَ شرفُهُ ، واستأهلَ القربَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ راجعٌ إلىٰ علمٍ وإرادةٍ .

❁ ❁ ❁

أمَّا العلمُ : فهوَ العلمُ بالأمورِ الدنيويةِ والأخرويةِ ، والحقائقِ العقليةِ ، فإنَّ هٰذهِ أمورٌ وراءَ المحسوساتِ ، ولا يشاركُهُ فيها الحيواناتُ ، بلِ العلومُ الكليَّةُ الضروريَّةُ مِنْ خواصِّ العقلِ ؛ إذْ يحكمُ الإنسانُ بأنَّ الشخصَ الواحدَ لا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ في مكانينِ في حالةٍ واحدةٍ ، وهٰذا حكمٌ منهُ علىٰ كلِّ شخصٍ ، ومعلومٌ أنَّهُ لمْ يدرِكْ بالحسِّ إلا بعضَ الأشخاصِ ، فحكمُهُ علىٰ جميعِ الأشخاصِ زائدٌ علىٰ ما أدركَهُ الحسُّ .

وإذا فهمتَ هٰذا في العلمِ الظاهرِ الضروريِّ . . فهوَ في سائرِ النظرياتِ أظهرُ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الإرادةُ : فإنَّهُ إذا أدركَ بالعقلِ عاقبةَ الأمرِ ، وطريقَ الصلاحِ فيهِ . . انبعثَ مِنْ ذاتِهِ شوقٌ إلىٰ جهةِ المصلحةِ ، وإلىٰ تعاطي أسبابِها والإرادةِ لها ، وذٰلكَ غيرُ إرادةِ الشهوةِ وإرادةِ الحيواناتِ ، بلْ يكونُ علىٰ ضدِّ الشهوةِ ؛ فإنَّ الشهوةَ تنفرُ عنِ الفصْدِ والحجامةِ ، والعاقلُ يريدُها ويطلبُها ، ويبذلُ المالَ فيها ، والشهوةُ تميلُ إلىٰ لذائذِ الأطعمةِ في حينِ المرضِ ، والعاقلُ يجدُ في نفسِهِ زاجراً عنها ، وليسَ ذٰلكَ زاجرَ الشهوةِ .

ولوْ خلقَ اللهُ العقلَ المعرِّفَ بعواقبِ الأمورِ ولمْ يخلقْ هٰذا الباعثَ المحرِّكَ للأعضاءِ علىٰ مقتضىٰ حكمِ العقلِ . . لكانَ حكْمُ العقلِ ضائعاً على التحقيقِ .

* * *

فإذاً ؛ قلبُ الإنسانِ اختُصَّ بعلمٍ وإرادةٍ ينفكُّ عنها سائرُ الحيوانِ ، بلْ ينفكُّ عنها الصبيُّ في أوَّلِ الفطرةِ ، وإنَّما يحدثُ ذٰلكَ فيهِ عندَ البلوغِ ، وأمَّا الشهوةُ والغضبُ والحواسُّ الظاهرةُ والباطنةُ . . فإنَّها موجودةٌ في حقِّ الصبيِّ ، ثمَّ للصبيِّ في حصولِ هٰذهِ العلومِ فيهِ درجتانِ :

إحداهُما : أنْ يشتملَ قلبُهُ علىٰ سائرِ العلومِ الضروريَّةِ الأوَّليَّةِ ؛ كالعلمِ باستحالةِ المستحيلاتِ ، وجوازِ الجائزاتِ الظاهرةِ ، فتكونُ العلومُ النظريَّةُ فيهِ غيرَ حاصلةٍ ، إلا أنَّها صارَتْ ممكنةً قريبةَ الإمكانِ والحصولِ ، ويكونُ حالُهُ بالإضافةِ إلى العلومِ كحالِ الكاتبِ الذي لا

يعرفُ مِنَ الكتابةِ إلا الدوَاةَ والقلمَ والحروفَ المفردةَ دونَ المركبةِ ، فإنَّهُ قدْ قاربَ الكتابةَ ولمْ يبلغْها بعدُ .

الثانيةُ : أنْ تحصلَ لهُ العلومُ المكتسبةُ بالتجاربِ والفكرِ ، فتكونَ كالمخزونةِ عندَهُ ، فإذا شاءَ . . رجعَ إليها ، وحالُهُ حالُ الحاذقِ بالكتابةِ ؛ إذْ يُقالُ لهُ : (كاتبٌ) وإنْ لمْ يكنْ مباشراً للكتابةِ بقدرتِهِ عليها ، وهٰذهِ هيَ غايةُ درجةِ الإنسانيةِ .

ولٰكنْ في هٰذهِ الدرجةِ مراتبُ لا تُحصىٰ ، يتفاوتُ الخلقُ فيها بكثرةِ المعلوماتِ وقلتِها ، وبشرفِ المعلوماتِ وخسَّتِها ، وبطريقِ تحصيلِها ؛ إذْ تحصلُ لبعضِ القلوبِ بإلٰهامٍ إلٰهيّ علىٰ سبيلِ المبادأةِ والمكاشفةِ ، ولبعضِها بتعلُّمٍ واكتسابٍ ، ثمَّ قدْ يكونُ سريعَ الحصولِ وقدْ يكونُ بطيءَ الحصولِ ، وفي هٰذا المقامِ تتباينُ منازلُ العلماءِ والحكماءِ ، والأنبياءِ والأولياءِ ، فدرجاتُ الترَقِّي فيهِ غيرُ محصورةٍ ؛ إذْ معلوماتُ اللهِ سبحانَهُ لا نهايةَ لها ، وأقصى الرتبِ رتبةُ النبيِّ الذي تنكشفُ لهُ كلُّ الحقائقِ أوْ أكثرُها مِنْ غيرِ اكتسابٍ وتكلُّفٍ ، بلْ بكشفٍ إلٰهيّ في أسرعِ وقتٍ .

وبهٰذهِ السعادةِ يقربُ العبدُ مِنَ اللهِ تعالىٰ قرْباً بالمعنىٰ والحقيقةِ والصِّفةِ [١] ، لا بالمكانِ والمسافةِ ، ومراقي هٰذهِ الدرجاتِ هيَ منازلُ السائرينَ إلى اللهِ تعالىٰ ، ولا حصرَ لتلكَ المنازلِ ، وإنَّما يعرفُ

(١) وهو ما عقد له المصنف في « المقصد الأسنىٰ » (ص ٢٩) فصلاً في التخلق بأخلاق الله تعالىٰ والتحلي بمعاني صفاته وأسمائه بقدر ما يتصور في حقه .

كلُّ سالكٍ منزلَهُ الذي بلغَهُ في سلوكِهِ ، فيعرفُهُ ويعرفُ ما خلفَهُ مِنَ المنازلِ ، فأمَّا ما بينَ يديهِ . . فلا يحيطُ بحقيقتِهِ علماً ، لٰكنْ قدْ يصدِّقُ بهِ إيماناً بالغيبِ ، كما أنَّا نؤمنُ بالنبوَّةِ والنبيِّ ونصدِّقُ بوجودِهِ ، ولٰكنْ لا يعرفُ حقيقةَ النبوَّةِ إلا النبيُّ ، وكما لا يعرفُ الجنينُ حالَ الطفلِ ، ولا الطفلُ حالَ المميِّزِ وما يُفتحُ لهُ منَ العلومِ الضروريةِ ، ولا المميِّزُ حالَ العاقلِ وما اكتسبَهُ مِنَ العلومِ النظريَّةِ . . فكذٰلكَ لا يعرفُ العاقلُ ما انفتحَ علىٰ أولياءِ اللهِ وأنبيائِهِ من مزايا لطفِهِ ورحمتِهِ : ﴿ مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ [١] .

وهٰذهِ الرحمةُ مبذولةٌ بحكمِ الجودِ والكرمِ مِنَ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، غيرُ مضنونٍ بها علىٰ أحدٍ ، ولٰكنْ إنَّما تظهرُ في القلوبِ المتعرِّضَةِ لنفحاتِ رحمةِ اللهِ تعالىٰ ، كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لربِّكُمْ في أيَّامِ دهرِكُمْ نفحاتٍ ، ألا فتعرَّضوا لها » [٢] ، والتعرُّضُ لها بتطهيرِ القلبِ وتزكيتِهِ مِنَ الخبثِ والكدورةِ الحاصلةِ مِنَ الأخلاقِ المذمومةِ كما سيأتي بيانُهُ .

وإلىٰ هٰذا الجودِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ينزلُ اللهُ كلَّ ليلةٍ إلىٰ سماءِ الدنيا فيقولُ : هلْ مِنْ داعٍ فأستجيبَ لهُ . . . » الحديثَ [٣] .

---

(١) سورة فاطر : (٢) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١٩/٢٣٣) ، وابن عبد البر في « التمهيد » (٥/٣٣٩) بنحوه .

(٣) رواه البخاري (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) .

وبقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ حكايةً عنْ ربِّهِ عزَّ وجلَّ : (لقدْ طالَ شوقُ الأبرارِ إلىٰ لقائِي ، وأنا إلىٰ لقائِهِمْ أشدُّ شوقاً)[١] .

وبقولِهِ تعالىٰ : « مَنْ تقرَّبَ إليَّ شبراً . . تقرَّبْتُ إليهِ ذراعاً »[٢] .

كلُّ ذٰلكَ إشارةٌ إلىٰ أنَّ أنوارَ العلومِ لمْ تحتجبْ عنِ القلوبِ لبخْلٍ ومنعٍ مِنْ جهةِ المنعمِ ، تعالىٰ عنِ البخلِ والمنعِ علوّاً كبيراً ، ولٰكنْ حُجبَتْ لخبْثٍ وكدورةٍ وشغْلٍ مِنْ جهةِ القلوبِ ؛ فإنَّ القلوبَ كالأواني ، فما دامَتْ ممتلئةً بالماءِ لا يدخلُها الهواءُ ، فالقلوبُ المشغولةُ بغيرِ اللهِ لا تدخلُها المعرفةُ بجلالِ اللهِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لولا أنَّ الشياطينَ يحومونَ علىٰ قلوبِ بني آدمَ . . لنظروا إلىٰ ملكوتِ السماءِ »[٣] .

ومِنْ هٰذهِ الجملةِ يتبيَّنُ أنَّ خاصِّيَّةَ الإنسانِ العلمُ والحكمةُ ، وأشرفُ أنواعِ العلمِ هوَ العلمُ باللهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، فبِهِ كمالُ الإنسانِ ، وفي كمالِهِ سعادتُهُ وصلاحُهُ لجوارِ حضرةِ الكمالِ والجلالِ ، فالبدنُ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١٩٣) من كلام سهل بن عبد الله يحكيه حديثاً قدسياً ، والمقدسي في « الترغيب في الدعاء » (ص٥٣) من كلام أحمد بن مخلد الخراساني مثله ، وقد ذكره الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٠٦٧) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) .

(٣) هو عند أحمد في « المسند » (٢/٣٥٣) في قصة الإسراء مرفوعاً ، ومنه : « فلما نزلت إلى السماء الدنيا . . نظرت أسفل مني ، فإذا أنا برهج ودخان وأصوات ، فقلت : ما هٰذا يا جبريل ؟ قال : هٰذه الشياطين يحومون علىٰ أعين بني آدم ألا يتفكروا في ملكوت السماوات والأرض ، ولولا ذٰلك . . لرأوا العجائب » .

مركبٌ للنفسِ ، والنفسُ محلٌّ للعلمِ ، والعلمُ هوَ مقصودُ الإنسانِ وخاصيَّتُهُ التي لأجلِهِ خُلِقَ .

وكما أنَّ الفرسَ يشاركُ الحمارَ في قوَّةِ الحملِ ، ويختصُّ عنهُ بخاصيَّةِ الكرِّ والفرِّ وحسنِ الهيئةِ ؛ فيكونُ الفرسُ مخلوقاً لأجلِ تلكَ الخاصيَّةِ ، فإنْ تعطَّلَتْ منهُ . . نزلَ إلىٰ حضيضِ رتبةِ الحمارِ ؛ فكذٰلكَ الإنسانُ يشاركُ الفرسَ والحمارَ في أمورٍ ، ويفارقُهُما في أمورٍ هيَ خاصِّيَّتُهُ ، وتلكَ الخاصيَّةُ مِنْ صفاتِ الملائكةِ المقرَّبينَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، والإنسانُ علىٰ رتبةٍ بينَ البهائمِ والملائكةِ ؛ فإنَّ الإنسانَ مِنْ حيثُ يتغذَّىٰ وينسلُ . . فنباتٌ ، ومِنْ حيثُ يحسُّ ويتحرَّكُ بالاختيارِ . . فحيوانٌ ، ومِنْ حيثُ صورتُهُ وقامتُهُ . . فكالصورةِ المنقوشةِ على الحائطِ ، وإنَّما خاصِّيَّتُهُ معرفةُ حقائقِ الأشياءِ .

فَمنِ استعملَ جميعَ أعضائِهِ وقواهُ علىٰ وجهِ الاستعانةِ بها على العلمِ والعملِ . . فقدْ تشبَّهَ بالملائكةِ ، فحقيقٌ بأنْ يلتحقَ بهمْ ، وجديرٌ بأنْ يُسمَّىٰ مَلَكاً وربَّانياً ؛ كما أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنْ صواحباتِ يوسفَ : ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [١] .

ومَنْ صرفَ همَّتَهُ إلى اتباعِ اللذَّاتِ البدنيةِ ، يأكلُ كما تأكلُ الأنعامُ . . فقدِ انحطَّ إلىٰ حضيضِ أفقِ البهائمِ ، فيصيرُ إمَّا غُمْراً كثورٍ [٢] ، وإمَّا شرِهاً كخنزيرٍ ، وإمَّا ضرِيّاً ككلبٍ أوْ سنَّورٍ ، أوْ حقوداً

---

(١) سورة يوسف ﷺ : (٣١) .

(٢) الغُمر : الجاهل .

كجملٍ ، أَوْ متكبراً كنمرٍ ، أَوْ ذا روغانٍ كثعلبٍ ، أَوْ يجمعُ ذٰلكَ كلَّهُ كشيطانٍ مَريدٍ .

وما مِنْ عضوٍ مِنَ الأعضاءِ ولا حاسَّةٍ مِنَ الحواسِّ إلا ويمكنُ الاستعانةُ بهِ على طريقِ الوصولِ إلى اللهِ تعالىٰ ، كما سيأتي بيانُ طرفٍ منهُ في كتابِ الشكرِ ، فَمنِ استعملَهُ فيهِ . . فقدْ فازَ ، ومَنْ عدلَ عنهُ . . فقدْ خسرَ وخابَ .

وجملةُ السعادةِ في ذٰلكَ : أنْ يجعلَ لقاءَ اللهِ تعالىٰ مقصدَهُ ، والدارَ الآخرةَ مستقرَّهُ ، والدنيا منزلَهُ ، والبدنَ مركبَهُ ، والأعضاءَ خدمَهُ ، فيستقرَّ هوَ ـ أعني : المدركَ مِنَ الإنسانِ ـ في القلبِ الذي هوَ وسَطُ مملكتِهِ كالملكِ ، ويُجري القوَّةَ الخياليَّةَ المودعةَ في مقدَّمِ الدماغِ مُجرىٰ صاحبِ بريدِهِ ؛ إذْ تجتمعُ أخبارُ المحسوساتِ عندَهُ ، ويُجري القوَّةَ الحافظةَ التي مسكنُها مؤخَّرَ الدماغِ مُجرىٰ خازنِهِ ، ويُجري اللسانَ مُجرىٰ ترجمانِهِ ، ويُجري الأعضاءَ المتحرّكةَ مُجرىٰ كتابِهِ ، ويُجري الحواسَّ الخمسَ مُجرىٰ جواسيسِهِ ، فيوكِلُ كلَّ واحدٍ منها بأخبارِ صُقْعٍ مِنَ الأصقاعِ ، فيوكلُ العينَ بعالمِ الألوانِ ، والسمعَ بعالمِ الأصواتِ ، والشمَّ بعالمِ الأرائحِ ، وكذٰلكَ سائرُها ؛ فإنَّها أصحابُ أخبارٍ يلتقطونَها مِنْ هٰذهِ العوالمِ ، ويؤدُّونَها إلى القوَّةِ الخياليَّةِ التي هيَ كصاحبِ البريدِ ، ويسلِّمُها صاحبُ البريدِ إلى الخازنِ ، وهيَ القوَّةُ الحافظةُ ، ويعرضُها الخازنُ على المَلِكِ ، فيقتبسُ الملكُ منها ما يحتاجُ إليهِ في تدبيرِ مملكتِهِ ، وإتمامِ سفرِهِ

الذي هوَ بصددِهِ ، وقمعِ عدوِّهِ الذي هوَ مبتلىً بهِ ، ودفعِ قواطعِ الطريقِ عليهِ .

فإذا فعلَ ذٰلكَ . . كان مُوفَّقاً سعيداً ، شاكراً نعمةَ اللهِ تعالىٰ .

وإذا عطَّلَ هٰذهِ الجملةَ ، أوِ استعملَها لٰكنْ في مراعاةِ أعدائِهِ ؛ وهيَ الشهوةُ والغضبُ وسائرُ الحظوظِ العاجلةِ ، أوْ في عمارةِ طريقِهِ دونَ منزلِهِ ؛ إذِ الدنيا طريقُهُ التي عليها عبورُهُ ، ووطنُهُ ومستقرُّهُ الآخرةُ . . كانَ مخذولاً شقياً ، كافراً بنعمةِ اللهِ تعالىٰ ، مضيّعاً لجنودِ اللهِ تعالىٰ ، ناصراً لأعداءِ اللهِ ، مخذِّلاً لحزبِ اللهِ ، فيستحقُّ المقتَ والإبعادَ في المنقلبِ والمعادِ ، نعوذُ باللهِ مِنْ ذٰلكَ .

وإلى المثالِ الذي ضربناهُ أشارَ كعبُ الأحبارِ حيثُ قالَ : دخلتُ علىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ، فقلتُ : الإنسانُ عيناهُ هادٍ ، وأذناهُ قمعٌ ، ولسانُهُ ترجمانٌ ، ويداهُ جناحانِ ، ورجلاهُ بريدٌ ، والقلبُ منهُ مَلِكٌ ، فإذا طابَ الملكُ . . طابَتْ جنودُهُ ، فقالَتْ : هٰكذا سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ (١) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ في تمثيلِ القلوبِ : (إنَّ للهِ تعالىٰ في أرضِهِ آنيةً وهيَ القلوبُ ، فأحبُّها إليهِ تعالىٰ أرقُّها وأصفاها وأصلبُها) (٢) ، ثمَّ فسَّرَ ذٰلكَ فقالَ : (أصلبُها في الدينِ ، وأصفاها

---

(١) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (٧٣٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/٤٧) .

(٢) قوت القلوب (١/١١٧) ، ورواه الطبراني في « مسند الشاميين » (٨٤٠) عن أبي عنبة الخولاني مرفوعاً .

في اليقينِ ، وأرقُّها على الإخوانِ) [١] ، وهوَ إشارةٌ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [٢] .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [٣] ، قالَ أُبيُّ بنُ كعبٍ رضيَ اللهُ عنهُ : معناهُ : مثلُ نورِ المؤمنِ وقلبِهِ [٤] ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ ﴾ مثلُ قلبِ المنافقِ [٥] .

وقالَ زيدُ بنُ أسلمَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴾ : هوَ قلبُ المؤمنِ [٦] .

وقالَ سهلٌ : (مثلُ القلبِ والصدرِ مثلُ العرشِ والكرسيِّ) [٧] .

فهٰذهِ أمثلةُ القلبِ .

* * *

(١) قوت القلوب (١/١١٧) .

(٢) سورة الفتح : (٢٩) .

(٣) سورة النور : (٣٥) .

(٤) رواه عنه الطبري في « تفسيره » (١٠/١٨/١٧٣) ، و« قوت القلوب » (١/١١٨) .

(٥) سورة النور : (٤٠) ، وروى الطبري في « تفسيره » (١٠/١٨/١٩٢) عن أُبيٍّ رضي الله عنه : (ضرب الله مثلاً للكافر فقال : ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ . . . ﴾ الآية ، قال : فهو يتقلب في خمس من الظلم : فكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة ؛ إلى النار) ، و« قوت القلوب » (١/١١٨) .

(٦) سورة البروج : (٢٢) ، وانظر « قوت القلوب » (١/١١٨) .

(٧) قوت القلوب (١/١١٨) .

بيان مجامع أوصاف القلب وأمثلته

اعلمْ : أنَّ الإنسانَ قدِ اصطحبَ في تركيبِهِ وخلقتِهِ أربعَ شوائبَ ، فلذٰلكَ اجتمعَتْ عليهِ أربعةُ أنواعٍ مِنَ الأوصافِ ، وهيَ الصفاتُ السبعيَّةُ ، والبهيميَّةُ ، والشيطانيَّةُ ، والربَّانيَّةُ .

فهوَ مِنْ حيثُ سُلِّطَ عليهِ الغضبُ يتعاطىٰ أفعالَ السباعِ ؛ مِنَ العداوةِ والبغضاءِ ، والتهجُّمِ على الناسِ بالضربِ والشتمِ .

ومِنْ حيثُ سُلِّطَتْ عليهِ الشهوةُ يتعاطىٰ أفعالَ البهائمِ ؛ مِنَ الشرهِ والحرصِ والشبقِ وغيرِهِ .

ومِنْ حيثُ إنَّهُ في نفسِهِ أمرٌ ربَّانيٌّ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [1] فإنَّهُ يدَّعي لنفسِهِ الربوبيَّةَ ، ويحبُّ الاستيلاءَ والاستعلاءَ ، والتخصُّصَ والاستبدادَ بالأمورِ كلِّها ، والتفرُّدَ بالرئاسةِ ، والانسلالَ عنْ ربقةِ العبوديَّةِ والتواضعِ ، ويشتهي الاطلاعَ على العلومِ كلِّها ، بلْ يدَّعي لنفسِهِ العلمَ والمعرفةَ والإحاطةَ بحقائقِ الأمورِ ، ويفرحُ إذا نُسِبَ إلى العلمِ ويحزنُ إذا نُسبَ إلى الجهلِ ، والإحاطةُ بجميعِ الحقائقِ ، والاستيلاءُ بالقهرِ علىٰ جميعِ الخلائقِ . . مِنْ أوصافِ الربوبيَّةِ ، وفي الإنسانِ حرصٌ علىٰ ذٰلكَ .

ومِنْ حيثُ يختصُّ عَنِ البهائمِ بالتمييزِ ، معَ مشاركتِهِ لها في

---

(١) سورة الإسراء : (٨٥) .

الغضبِ والشهوةِ حصلَتْ فيهِ شيطانيَّةٌ ، فصارَ شريراً ، يستعملُ التميزَ في استنباطِ وجوهِ الشرِّ ، ويتوصَّلُ إلى الأغراضِ بالمكرِ والحيلةِ والخداعِ ، ويظهرُ الشرَّ في معرضِ الخيرِ ، وهٰذهِ أخلاقُ الشياطينِ .

وكلُّ إنسانٍ فيهِ شَوْبٌ مِنْ هٰذهِ الأصولِ الأربعةِ ؛ أعني : الربانيَّةَ ، والشيطانيَّةَ ، والسبعيَّةَ ، والبهيميَّةَ ، وكلُّ ذٰلكَ مجموعٌ في القلبِ ، فكأنَّ المجموعَ في إهابِ الإنسانِ : خنزيرٌ ، وكلبٌ ، وشيطانٌ ، وحكيمٌ .

فالخنزيرُ هوَ الشهوةُ ؛ فإنَّهُ لَمْ يكنِ الخنزيرُ مذموماً للونِهِ وشكلِهِ وصورتِهِ ، بلْ لجشعِهِ وكَلَبِهِ وحرْصِهِ .

والكلبُ هوَ الغضبُ ؛ فإنَّ السبعَ الضاريَ والكلبَ العقورَ ليسا كلباً وسبعاً باعتبارِ الصورةِ واللونِ والشكلِ ، بلْ روحُ معنى السبعيَّةِ الضراوةُ والعدوانُ والعَقْرُ ، وفي باطنِ الإنسانِ ضراوةُ السبعِ وغضبُهُ ، وحرْصُ الخنزيرِ وشبقُهُ ، فالخنزيرُ يدعو بالشرهِ إلى الفحشاءِ والمنكرِ ، والسبعُ يدعو بالغضبِ إلى الظلمِ والإيذاءِ .

والشيطانُ لا يزالُ يهيّجُ شهوةَ الخنزيرِ وغيظَ السبعِ ، ويغري أحدَهُما بالآخرِ ، ويحسِّنُ لهما ما هما مجبولانِ عليهِ .

والحكيمُ الذي هوَ مثالُ العقلِ مأمورٌ بأنْ يدفعَ كيدَ الشيطانِ ومكرَهُ ؛ بأنْ يكشفَ عنْ تلبيسِهِ ببصيرتِهِ النافذةِ ، ونورِهِ المشرقِ الواضحِ ، وأنْ يكسرَ شرهَ هٰذا الخنزيرِ بتسليطِ الكلبِ عليهِ ، إذْ بالغضبِ يكسرُ

سورةَ الشهوةِ ، ويدفعُ ضراوةَ الكلبِ بتسليطِ الخنزيرِ عليهِ ، ويجعلُ الكلَّ مقهوراً تحتَ سياستِهِ .

فإنْ فعلَ ذٰلكَ وقدرَ عليهِ . . اعتدلَ الأمرُ ، وظهرَ العدلُ في مملكةِ البدنِ ، وجرى الكلُّ على الصراطِ المستقيمِ .

وإنْ عجزَ عنْ قهرِهِمْ . . قهروهُ واستخدموهُ ، فلا يزالُ في استنباطِ الحيلِ وتدقيقِ الفكرِ ليشبعَ الخنزيرَ ، ويرضيَ الكلبَ ، فيكونَ دائماً في عبادةِ كلبٍ وخنزيرٍ ، وهٰذا حالُ أكثرِ الناسِ مهما كانَ أكثرُ همَّتِهِمُ البطنَ والفرجَ ومنافسةَ الأعداءِ .

والعجبُ منهُ أنَّهُ ينكرُ علىٰ عبدةِ الأصنامِ عبادتَهُمْ للحجارةِ ، ولوْ كُشِفَ الغطاءُ عنهُ ، وكُوشفَ بحقيقةِ حالِهِ ، ومثِّلَ لهُ حقيقةُ حالِهِ كما يمثُلُ للمكاشفينَ ؛ إمَّا في النومِ ، أوْ في اليقظةِ . . لرأىٰ نفسَهُ ماثلاً بينَ يدي خنزيرٍ ، ساجداً لهُ مرَّةً ، وراكعاً أخرىٰ ، ومنتظراً لإشارتِهِ وأمرِهِ ، ومهما هاجَ الخنزيرُ لطلبِ شيءٍ مِنْ شهواتِهِ . . انبعثَ على الفورِ في خدمتِهِ وإحضارِ شهوتِهِ ، أوْ رأىٰ نفسَهُ ماثلاً بينَ يدي كلبٍ عقورٍ ، عابداً لهُ ، مطيعاً سامعاً لما يقتضيهِ ويلتمسُهُ ، مدققاً للفكرِ في حيلِ الوصولِ إلىٰ طاعتِهِ ، وهوَ بذٰلكَ ساعٍ في مسرَّةِ شيطانِهِ ؛ فإنَّهُ الذي يهيِّجُ الخنزيرَ ويثيرُ الكلبَ ، ويبعثُهُما على استخدامِهِ ، فهوَ مِنْ هٰذا الوجهِ يعبدُ الشيطانَ بعبادتِهِما [1] .

---

(١) فكيف ينكر من هو مثل هٰذا علىٰ عبدة الأصنام مع إقرارهم بأنهم إنما يعبدونها ←

فليراقبْ كلُّ عبدٍ حركاتِهِ وسكناتِهِ ، وسكوتَهُ ونطقَهُ ، وقيامَهُ وقعودَهُ ، ولينظرْ بعينِ البصيرةِ ؛ فإنَّهُ لا يرىٰ ـ إنْ أنصفَ ـ نفسَهُ إلا ساعياً طولَ النهارِ في عبادةِ هٰؤلاءِ ، وهٰذا غايةُ الظلمِ ؛ إذ جعلَ المالكَ مملوكاً ، والربَّ مربوباً ، والسيِّدَ عبْداً ، والقاهرَ مقهوراً ؛ إذِ العقلُ هوَ المستحقُّ للسيادةِ والقهرِ والاستيلاءِ ، وقدْ سخَّرَهُ لخدمةِ هٰؤلاءِ الثلاثةِ ، فلا جرمَ ينتشرُ إلىٰ قلبِهِ مِنْ طاعةِ هٰؤلاءِ الثلاثةِ صفاتٌ تتراكمُ عليهِ ، حتَّىٰ يصيرَ طابعاً وريْناً مهلكاً للقلبِ ومميتاً لهُ .

أمَّا طاعةُ خنزيرِ الشهوةِ . . فيصدرُ منها صفةُ الوقاحةِ ، والخبْثِ ، والتبذيرِ والتقتيرِ ، والرياءِ ، والهتكةِ ، والمجانةِ ، والعبثِ ، والحرصِ والجشعِ ، والملقِ والحسدِ ، والحقدِ ، والشماتةِ ، وغيرِها .

وأمَّا طاعةُ كلبِ الغضبِ . . فتنتشرُ منها إلى القلبِ صفةُ التهوُّرِ ، والنذالةِ [1] ، والبذْخِ والصلفِ والاستشاطةِ ، والتكبُّرِ والعجْبِ ، والاستهزاءِ والاستخفافِ وتحقيرِ الخلقِ ، وإرادةِ الشرِّ وشهوةِ الظلمِ ، وغيرِها .

وأمَّا طاعةُ الشيطانِ بطاعةِ الشهوةِ والغضبِ . . فيحصلُ منها

← لتقربهم إلى الله زلفىٰ ، وعابد الخنزير والكلب أسوأ حالاً منهم لفواتهم تلك النية ؟! « إتحاف » (٧/٢٢٧) .

(١) في (ب) : (البذاءة) بدل (النذالة) ، وعند الحافظ الزبيدي : (البذالة) . « إتحاف » (٧/٢٢٨) .

صفةُ المكرِ والخداعِ ، والحيلةِ والدهاءِ ، والجَرْبَزَةِ [1] ، والتلبيسِ ، والتضريبِ ، والغشِّ ، والخِبِّ ، والخنا ، وأمثالِها .

ولوْ عكسَ الأمرَ ، وقهرَ الجميعَ تحتَ سياسةِ الصفةِ الربَّانيَّةِ . . لاستقرَّ في القلبِ مِنَ الصفاتِ الربانيَّةِ العلمُ والحكمةُ واليقينُ ، والإحاطةُ بحقائقِ الأشياءِ ، ومعرفةُ الأمورِ على ما هيَ عليهِ ، والاستيلاءُ على الكلِّ بقوَّةِ العلمِ والبصيرةِ ، واستحقاقُ التقدُّمِ على الخلْقِ بكمالِ العلمِ وجلالِهِ ، ولاستغنىٰ عنْ عبادةِ الشهوةِ والغضبِ .

فينتشرُ إليهِ مِنْ ضبطِ خنزيرِ الشهوةِ وردِّهِ إلىٰ حدِّ الاعتدالِ صفاتٌ شريفةٌ ؛ مثلُ العفَّةِ ، والقناعةِ ، والهدوءِ ، والزهدِ ، والورعِ ، والتقوىٰ ، والانبساطِ ، وحسنِ الهيئةِ ، والحياءِ ، والظَّرْفِ ، والمساعدةِ ، وأمثالِها .

ويحصلُ فيهِ مِنْ ضبطِ قوَّةِ الغضبِ وقهرِها ، وردِّها إلىٰ حدِّ الواجبِ صفةُ الشجاعةِ ، والكرمِ ، والنجدةِ ، وضبطِ النفسِ ، والصبرِ ، والحلمِ ، والاحتمالِ ، والعفوِ ، والثباتِ ، والنبْلِ ، والشهامةِ ، والوقارِ ، وغيرِها .

والقلبُ في حكمِ مرآةٍ قدِ اكتنفَتْهُ هٰذهِ الأمورُ المؤثِّرةُ فيهِ ، وهٰذهِ الآثارُ على التوالي واصلةٌ إلى القلبِ .

* * *

أمَّا الآثارُ المحمودةُ التي ذكرناها . . فإنَّها تزيدُ مرآةَ القلبِ جلاءً

---

(١) الجربزة : لفظة فارسية ، معناها المكر والاحتيال ، وتأتي بمعنى الجرأة كذٰلك .

وإشراقاً ، ونوراً وضياءً ، حتَّىٰ يتلألأَ فيهِ جليَّةُ الحقِّ ، وينكشفَ فيهِ حقيقةُ الأمرِ المطلوبِ في الدينِ .

وإلىٰ مثلِ هـٰذا القلبِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . جعلَ لهُ واعظاً مِنْ قلبِهِ »(١) .

وبقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانَ لهُ مِنْ قلبِهِ واعظٌ . . كانَ عليهِ مِنَ اللهِ حافظٌ »(٢) .

وهـٰذا القلبُ هوَ الذي يستقرُّ فيهِ الذكرُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾(٣) .

❊ ❊ ❊

وأمَّا الآثارُ المذمومةُ . . فإنَّها مثلُ دخانٍ مظلمٍ يتصاعدُ إلىٰ مرآةِ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (رواه الديلمي في « مسند الفردوس » من حديث أم سلمة ، وإسناده جيد) « إتحاف » (٧/٢٢٨) ، وزاد الحافظ الزبيدي : (رواه ابن لال في « مكارم الأخلاق » ، ومن طريقه أورده الديلمي ، ولفظه : « جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه » ، ولفظ « القوت » [١/١١٥] : وفي الخبر : « إذا أراد الله بعبد خيراً . . جعل له زاجراً من نفسه وواعظاً من قلبه » ، قلت : وأخرجه أبو نعيم في « الحلية » [٢/٢٦٤] من قول ابن سيرين بزيادة : « يأمره وينهاه ») .

(٢) كذا في « قوت القلوب » (١/١١٥) غير أنه قال : (وفي الخبر . . .) وذكره ، وقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٦/٥٥) عن أبي الجلد قال : (قرأت في الحكمة : من كان له من نفسه واعظ . . كان له من الله حافظ ، ومن أنصف الناس من نفسه . . زاده الله بذٰلك عزاً ، والذل في طاعة الله أقرب من التعزز بالمعصية) .

(٣) سورة الرعد : (٢٨) ، ولولا أن الذكر استقر فيه . . ما اطمأن إليه . « إتحاف » (٧/٢٢٨) .

القلبِ ، ولا يزالُ يتراكَمُ عليهِ مرَّةً بعدَ أخرىٰ إلىٰ أنْ يسودَّ ويظلمَ ، ويصيرَ بالكليَّةِ محجوباً عنِ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ الطبْعُ ، وهوَ الريْنُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [١] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [٢] ، فربطَ عدمَ السماعِ بالطبعِ بالذنوبِ كما ربطَ السماعَ بالتقوىٰ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ﴾ [٣] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ [٤] .

ومهما تراكمَتِ الذنوبُ . . طُبِعَ على القلبِ ، وعندَ ذٰلك يَعمى القلبُ عنْ إدراكِ الحقِّ وصلاحِ الدينِ ، ويستهينُ بأمرِ الآخرةِ ، ويستعظمُ أمرَ الدنيا ، ويصيرُ مقصورَ الهمِّ عليها .

وإذا قرعَ سمعَهُ أمرُ الآخرةِ وما فيها مِنَ الأخطارِ . . دخلَ مِنْ أذنٍ وخرجَ مِنْ أخرىٰ ، ولمْ يستقرَّ في القلبِ ، ولمْ يحرِّكْهُ إلى التوبةِ والتداركِ ، أولـٰئكَ الذينَ يئسوا مِنَ الآخرةِ كما يئسَ الكفَّارُ مِنْ أصحابِ القبورِ ، وهـٰذا هوَ معنى اسودادِ القلبِ بالذنوبِ كما نطقَ بهِ القرآنُ والسنةُ .

قالَ ميمونُ بنُ مهرانَ : (إذا أذنبَ العبدُ ذنباً . . نُكِتَ في قلبِهِ

---

(١) سورة المطففين : (١٤) .

(٢) سورة الأعراف : (١٠٠) .

(٣) سورة المائدة : (١٠٨) .

(٤) سورة البقرة : (٢٨٢) .

نكتةٌ سوداءُ ، فإنْ هوَ نزعَ وتابَ . . صُقِلَ ، وإنْ عادَ . . زيدَ فيها حتَّىٰ يعلوَ قلبَهُ ، فهوَ الرانُ) (١) .

وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قلبُ المؤمنِ أجردُ ، فيهِ سراجٌ يزهرُ ، وقلبُ الكافرِ أسودُ منكوسٌ » (٢) ، فطاعةُ اللهِ تعالىٰ بمخالفةِ الشهواتِ مصقلةٌ للقلبِ ، ومعاصيهِ مسوِّداتٌ لهُ ، فمَنْ أقبلَ على المعاصي . . اسودَّ قلبُهُ ، ومَنْ أتبعَ السيئةَ الحسنةَ ، ومحا أثرَها . . لمْ يظلمْ قلبُهُ ، ولٰكنْ ينقصُ نورُهُ ؛ كالمرآةِ التي يُتنفَّسُ فيها ثمَّ تُمسحُ ، ويُتنفَّسُ ثمَّ تُمسحُ ؛ فإنَّها لا تخلو عنْ كدورةٍ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « القلوبُ أربعةٌ : قلبٌ أجردُ فيهِ سراجٌ يزهرُ ، فذٰلكَ قلبُ المؤمنِ ، وقلبٌ أسودُ منكوسٌ ، فذٰلكَ قلبُ الكافرِ ، وقلبٌ أغلفُ مربوطٌ علىٰ غلافِهِ ، فذٰلكَ قلبُ المنافقِ ، وقلبٌ مصفحٌ فيهِ إيمانٌ ونفاقٌ ، فمثلُ الإيمانِ فيهِ كمثلِ البقلةِ يمدُّها الماءُ الطَّيِّبُ ، ومثلُ النِّفاقِ فيهِ كمثلِ القرحةِ يمدُّها القيحُ والصديدُ ، فأيُّ المادَّتينِ غلبَتْ عليهِ . . حُكِمَ لهُ بها » ، وفي روايةٍ : « ذهبَتْ بهِ » (٣) .

---

(١) كذا رواه عنه أبو طالب في « القوت » (١/١١٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/٨٩) ، ورواه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً الترمذي (٣٣٣٤) ، وابن ماجه (٤٢٤٤) ، وابن حبان في « صحيحه » (٩٣٠) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/١٧) ، والطبراني في « الصغير » (٢/١٠٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/٣٨٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً ، وتمامه في الحديث بعده .

(٣) هو تمام الحديث قبله ، رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/٢٧٦) .

وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ (١) ، فأخبرَ أنَّ جلاءَ القلبِ وإبصارَهُ يحصلُ بالذكرِ ، وأنَّهُ لا يتمكنُ منهُ إلا الذينَ اتقوا ، فالتقوىٰ بابُ الذكرِ ، والذكرُ بابُ الكشفِ ، والكشفُ بابُ الفوزِ الأكبرِ ، وهوَ الفوزُ بلقاءِ اللهِ تعالىٰ .

* * *

(١) سورة الأعراف : (٢٠١) .

بيان مثل القلب بالإضافة إلى العلوم خاصّة

اعلمْ : أنَّ محلَّ العلمِ هوَ القلبُ ؛ أعني : اللطيفةَ المدبِّرةَ لجميعِ الجوارحِ ، المطاعةَ المخدومةَ مِنْ بينِ سائرِ الأعضاءِ ، وهيَ بالإضافةِ إلىٰ حقائقِ المعلوماتِ كالمرآةِ بالإضافةِ إلىٰ صورِ المتلوِّناتِ ، فكما أنَّ للمتلوّنِ صورةً ، ومثالُ تلكَ الصورةِ ينطبعُ في المرآةِ ويحصلُ بها . . فكذٰلكَ لكلِّ معلومٍ حقيقةٌ ، ولتلكَ الحقيقةِ صورةٌ تنطبعُ في مرآةِ القلبِ وتتضحُ فيها ، وكما أنَّ المرآةَ غيرٌ ، وصورُ الأشخاصِ غيرٌ ، وحصولُ مثالِها في المرآةِ غيرٌ ، فهيَ ثلاثةُ أمورٍ . . فكذٰلكَ ها هنا ثلاثةُ أمورٍ : القلبُ ، وحقائقُ الأشياءِ ، وحصولُ نفسِ الحقائقِ في القلبِ وحضورُها فيهِ .

فالعالِمُ عبارةٌ عنِ القلبِ الذي فيهِ يحلُّ مثالُ حقائقِ الأشياءِ ، والمعلومُ عبارةٌ عنْ حقائقِ الأشياءِ ، والعلمُ عبارةٌ عنْ حصولِ المثالِ في المرآةِ .

وكما أنَّ القبضَ مثلاً يستدعي قابضاً كاليدِ ، ومقبوضاً كالسيفِ ، ووصولاً بينَ اليدِ والسيفِ بحصولِ السيفِ في اليدِ ويُسمَّىٰ قبضاً . . فكذٰلكَ وصولُ مثالِ المعلومِ إلى القلبِ يُسمَّىٰ علماً ، وقدْ كانَتِ الحقيقةُ موجودةً ، والقلبُ موجوداً ، ولمْ يكنِ العلمُ حاصلاً ؛ لأنَّ العلمَ عبارةٌ عنْ وصولِ الحقيقةِ إلى القلبِ ، كما أنَّ السيفَ موجودٌ ، واليدَ موجودةٌ ، ولمْ يكنِ اسمُ القبضِ

والأخذِ حاصلاً ؛ لعدمِ وقوعِ السيفِ في اليدِ .

نعم ؛ القبضُ عبارةٌ عنْ حصولِ السيفِ بعينِهِ في اليدِ ، والمعلومُ بعينِهِ لا يحصلُ في القلبِ ، فمَنْ علمَ النارَ . . لمْ تحصلْ عينُ النارِ في قلبِهِ ، ولٰكنَّ الحاصلَ حدُّها وحقيقتُها المطابقةُ لصورتِها ، فتمثيلُهُ بالمرآةِ أولىٰ ؛ لأنَّ عينَ الإنسانِ لا تحصلُ في المرآةِ ، وإنَّما يحصلُ مثالٌ مطابقٌ لهُ ، فكذٰلكَ حصولُ مثالٍ مطابقٍ لحقيقةِ المعلومِ في القلبِ يُسمَّىٰ علماً .

* * *

وكما أنَّ المرآةَ لا تنكشفُ فيها الصورُ لخمسةِ أمورٍ :

أحدُها : نقصانُ صورتِها ؛ كجوهرِ الحديدِ قبلَ أنْ يُدوَّرَ ويُشكَّلَ ويُصقلَ .

والثاني : لخبثِهِ وصدئِهِ وكدورتِهِ وإنْ كانَ تامَّ الشكلِ .

والثالثُ : لكونِهِ معدولاً بِهِ عنْ جهةِ الصورةِ إلىٰ غيرِها ؛ كما إذا كانَتِ الصورةُ وراءَ المرآةِ .

والرابعُ : لحجابٍ مرسلٍ بينَ المرآةِ والصورةِ .

والخامسُ : للجهلِ بالجهةِ التي فيها الصورةُ المطلوبةُ ، حتَّىٰ يتعذَّرَ بسببِهِ أنْ يحاذيَ بها شطرَ الصورةِ وجهتَها .

فكذٰلكَ القلبُ مرآةٌ مستعدةٌ لأنْ ينجليَ فيها حقيقةُ الحقِّ في الأمورِ كلِّها .

وإنَّما خلَتِ القلوبُ عنِ العلومِ التي خلَتْ عنها لهٰذهِ الأسبابِ الخمسةِ :

أولُها : نقصانٌ في ذاتِ القلبِ :

كقلبِ الصبيِّ ؛ فإنَّهُ لا تتجلَّىٰ لهُ المعلوماتُ لنقصانِهِ .

والثاني : لكدورةِ المعاصي والخبَثِ الذي يتراكمُ علىٰ وجهِ القلبِ مِنْ كثرةِ الشهواتِ :

فإنَّ ذٰلكَ يمنعُ صفاءَ القلبِ وجلاءَهُ ، فيمنعُ ظهورَ الحقِّ فيهِ ؛ لظلمتِهِ وتراكمِهِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قارفَ ذنباً . . فارقَهُ عقلٌ لمْ يعدْ إليهِ أبداً »(١) ؛ أيْ : حصلَ في قلبِهِ كدورةٌ لا يزولُ أثرُها أبداً ؛ إذْ غايتُهُ أنْ يتبعَهُ بحسنةٍ تمحوها ، فلوْ جاءَ بالحسنةِ ولمْ تتقدَّمِ السيئةُ . . لازدادَ ـ لا محالةَ ـ إشراقُ القلبِ ، فلمَّا تقدمَتِ السيئةُ . . سقطَتْ فائدةُ الحسنةِ ، لٰكنْ عادَ القلبُ بها إلىٰ ما كانَ قبلَ السيئةِ ، ولمْ يزددْ بها نوراً ، فهٰذا خسرانٌ مبينٌ ، ونقصانٌ لا حيلةَ لهُ ، فليسَتِ المرآةُ التي تتدنَّسُ ثمَّ تُمسحُ بالمصقلةِ كالتي تُمسحُ بالمصقلةِ لزيادةِ جلائِها مِنْ غيرِ دنسٍ سابقٍ .

فالإقبالُ علىٰ طاعةِ اللهِ والإعراضُ عنْ مقتضى الشهواتِ هوَ الذي

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أر له أصلاً) . « إتحاف » (٧/٢٣١) ، وسيأتي للمصنف غير مرة .

يجلو القلبَ ويصفيهِ ، ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [(١)] .

وقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عملَ بما علمَ . . ورَّثَهُ اللهُ علمَ ما لَمْ يعلمْ » [(٢)] .

الثالثُ : أنْ يكونَ معدولاً بهِ عنْ جهةِ الحقيقةِ المطلوبةِ :

فإنَّ قلبَ المطيعِ الصالحِ وإنْ كانَ صافياً فإنَّهُ ليسَ يتضحُ فيهِ جليَّةُ الحقِّ ؛ لأنَّهُ ليسَ يطلبُ الحقَّ ، وليسَ محاذياً بمرآتِهِ شطرَ المطلوبِ ، بلْ ربَّما يكونُ مستوعبَ الهمِّ بتفصيلِ الطاعاتِ البدنيَّةِ ، أوْ بتهيئةِ أسبابِ المعيشةِ ، ولا يصرفُ فكرَهُ إلى التأمُّلِ في حضرةِ الربوبيَّةِ ، والحقائقِ الخفيَّةِ الإلٰهيةِ ، فلا ينكشفُ لهُ إلا ما هوَ متفكرٌ فيهِ مِنْ دقائقِ آفاتِ الأعمالِ وخفايا عيوبِ النفسِ إنْ كانَ متفكِّراً فيها ، أوْ مصالحِ المعيشةِ إنْ كان متفكِّراً فيها .

وإذا كانَ تقييدُ الهمِّ بالأعمالِ وتفصيلِ الطاعاتِ مانعاً عنِ انكشافِ جليَّةِ الحقِّ . . فما ظنُّكَ فيمَنْ صرفَ الهمَّ إلىٰ شهواتِ الدنيا ولذَّاتِها وعلائقِها ؟! فكيفَ لا يُمنعُ عنِ الكشفِ الحقيقيِّ ؟!

الرابعُ : الحجابُ :

فإنَّ المطيعَ القاهرَ لشهواتِهِ ، المتجرِّدَ الفكرِ في حقيقةٍ مِنَ الحقائقِ

---

(١) سورة العنكبوت : (٦٩) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٤) .

قدْ لا ينكشفُ لهُ ذٰلكَ ؛ لكونِهِ محجوباً عنهُ باعتقادٍ سبقَ إليهِ منذُ الصبا علىٰ سبيلِ التقليدِ والقبولِ بحسنِ الظنِّ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يحولُ بينَهُ وبينَ حقيقةِ الحقِّ ، ويمنعُ مِنْ أنْ ينكشفَ في قلبِهِ خلافُ ما تلقَّفَهُ مِنْ ظاهرِ التقليدِ .

وهٰذا أيضاً حجابٌ عظيمٌ ، بهِ حُجِبَ أكثرُ المتكلِّمينَ والمتعصِّبينَ للمذاهبِ ، بلْ أكثرُ الصالحينَ المتفكِّرينَ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ؛ لأنَّهُمْ محجوبونَ باعتقاداتٍ تقليديَّةٍ جمدَتْ في نفوسِهِمْ ، ورسخَتْ في قلوبِهِمْ ، وصارَتْ حجاباً بينَهُمْ وبينَ دركِ الحقائقِ .

الخامسُ : الجهلُ بالجهةِ التي يقعُ منها العثورُ على المطلوبِ :

فإنَّ طالبَ العلمِ ليسَ يمكنُهُ أنْ يحصِّلَ العلمَ بالمجهولِ إلا بالتذكُّرِ للعلومِ التي تناسبُ مطلوبَهُ ، حتىٰ إذا تذكَّرَها ورتَّبَها في نفسِهِ ترتيباً مخصوصاً يعرفُهُ العلماءُ بطرقِ الاعتبارِ . . فعندَ ذٰلكَ يكونُ قدْ عثرَ علىٰ جهةِ المطلوبِ ، فتنجلي حقيقةُ المطلوبِ لقلبِهِ ، فإنَّ العلومَ المطلوبةَ التي ليسَتْ فطريةً [(١)] لا تُقتنصُ إلا بشبكةِ العلومِ الحاصلةِ ، بلْ كلُّ علمٍ لا يحصلُ إلا عنْ علمينِ سابقينِ يأتلفانِ ويزدوجانِ علىٰ وجهٍ مخصوصٍ ، فيحصلُ مِنِ ازدواجِهِما علمٌ ثالثٌ علىٰ مثالِ ما يحصلُ النِّتاجُ مِنِ ازدواجِ الذكرِ والأنثىٰ ، ثمَّ كما أنَّ مَنْ أرادَ أنْ يستنتجَ رمكةً لمْ يمكنْهُ ذٰلكَ مِنْ حمارٍ وبعيرٍ وإنسانٍ [(٢)] ، بلْ

---

(١) في (أ) : (أولية) بدل (فطرية) .

(٢) الرَّمَكَة : الأنثىٰ من البراذين .

مِنْ أصلٍ مخصوصٍ مِنَ الخيلِ الذكرِ والأنثىٰ ، وذٰلكَ إذا وقعَ بينهما ازدواجٌ مخصوصٌ . . فكذٰلكَ كلُّ علمٍ فلَهُ أصلانِ مخصوصانِ ، وبينَهُما طريقٌ في الازدواجِ يحصلُ مِنِ ازدواجِهِما العلمُ المستفادُ المطلوبُ .

فالجهلُ بتلكَ الأصولِ وبكيفيةِ الازدواجِ هوَ المانعُ مِنَ العلمِ ، ومثالُهُ : ما ذكرناهُ مِنَ الجهلِ بالجهةِ التي الصورةُ فيها ، بلْ مثالُهُ : أنْ يريدَ الإنسانُ أنْ يرىٰ قفاهُ مثلاً في المرآةِ ، فإنَّهُ إنْ رفعَ المرآةَ بإزاءِ وجهِهِ . . لمْ يكنْ قدْ حاذىٰ بها شطرَ القفا ، فلا يظهرُ فيها القفا ، وإنْ رفعَها وراءَ القفا وحاذاهُ . . كانَ قدْ عدلَ بالمرآةِ عنْ عينِهِ ، فلا يرى المرآةَ ولا صورةَ القفا فيها ، فيحتاجُ إلىٰ مرآةٍ أخرىٰ ينصبُها وراءَ القفا ، وهٰذهِ في مقابلتِها بحيثُ يبصرُها ، ويرعىٰ مناسبةً بينَ وضعِ المرآتينِ حتَّىٰ تنطبعَ صورةُ القفا في المرآةِ المحاذيةِ للقفا ، ثمَّ تنطبعَ صورةُ هٰذهِ المرآةِ في المرآةِ الأخرى التي في مقابلةِ العينِ ، ثمَّ تدركَ العينُ صورةَ القفا ؛ فكذٰلكَ في اقتناصِ العلومِ طرقٌ عجيبةٌ ، فيها ازوراراتٌ وتحريفاتٌ أعجبُ ممَّا ذكرناهُ في المرآةِ ، يعزُّ علىٰ بسيطِ الأرضِ مَنْ يهتدي إلىٰ كيفيَّةِ الحيلةِ في تلكَ الازوراراتِ .

* * *

فهٰذهِ هيَ الأسبابُ المانعةُ للقلوبِ مِنْ معرفةِ حقائقِ الأمورِ ، وإلا . . فكلُّ قلبٍ فهوَ بالفطرةِ صالحٌ لمعرفةِ الحقائقِ ؛ لأنَّهُ أمرٌ ربَّانيٌّ شريفٌ ، فارقَ سائرَ الجواهرِ بهٰذهِ الخاصِّيَّةِ والشرفِ ، وإليهِ الإشارةُ

بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ [(١)] إشارةً إلىٰ أنَّ لهُ خاصيَّةً تميَّزَ بها عنِ السماواتِ والأرضِ والجبالِ ، بها صارَ مطيقاً لحملِ أمانةِ اللهِ تعالىٰ ، وتلكَ الأمانةُ هيَ المعرفةُ والتوحيدُ .

وقلبُ كلِّ آدميٍّ مستعدٌّ لحملِ الأمانةِ ومطيقٌ لها في الأصلِ ، ولـٰكنْ يثبِّطُهُ عنِ النهوضِ بأعبائِها والوصولِ إلىٰ تحقيقِها الأسبابُ التي ذكرناها ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرةِ ، فأبواهُ يهوِّدانِهِ وينصِّرانِهِ ويمجِّسانِهِ » [(٢)] .

وقولُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لولا أنَّ الشياطينَ يحومونَ علىٰ قلوبِ بني آدمَ . . لنظروا إلىٰ ملكوتِ السماءِ » [(٣)] إشارةٌ إلىٰ بعضِ هـٰذهِ الأسبابِ التي هيَ الحجابُ بينَ القلبِ وبينَ الملكوتِ .

وإليهِ الإشارةُ بما رُويَ عنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : قيلَ

---

(١) سورة الأحزاب : (٧٢) .

(٢) رواه البخاري (١٣٥٨) ، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، واللام في قوله : (الفطرة) للعهد ، والمعهود : فطرة الله التي فطر الناس عليها ؛ أي : الخلقة التي خلق الناس عليها من الاستعداد لقبول الدين والتهيؤ للتمييز بين الخطأ والصواب . « إتحاف » (٧/٢٣٣) ، وفي رواية عند مسلم لهـٰذا الحديث تؤكد ما بيَّنه المصنف هنا أن المراد بالفطرة : الاستعداد لحمل الأمانة ، لا وجود معارف سابقة ، وهي : « كل إنسان تلده أمه على الفطرة ، وأبواه بعد يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، فإن كانا مسلمين . . فمسلم . . . » الرواية .

(٣) هو عند أحمد في « المسند » (٢/٣٥٣) ضمن قصة الإسراء .

لرسولِ اللهِ : يا رسولَ اللهِ ؛ أينَ اللهُ ؛ في الأرضِ أوْ في السماءِ ؟ قال : « في قلوبِ عبادِهِ المؤمنينَ »[١] .

وفي الخبرِ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : لمْ يسعْني أرضي ولا سمائي ، ووسعَني قلبُ عبديَ المؤمنِ اللينِ الوادعِ »[٢] .

وفي الخبرِ : أنَّهُ قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ مَنْ خيرُ الناسِ ؟ فقالَ : « كلُّ مؤمنٍ مخمومِ القلبِ » ، فقيلَ : وما مخمومُ القلبِ ؟ فقالَ : « هوَ التقيُّ النقيُّ ، الذي لا غشَّ فيهِ ولا بغيَ ، ولا غدرَ ولا غلَّ ولا حسدَ »[٣] .

ولذٰلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (رأىٰ قلبي ربّي) ، إذْ كانَ قدْ رفعَ الحجابَ بالتقوىٰ .

***

(١) قوت القلوب (١١٨/١) .

(٢) قوت القلوب (١١٨/١) ، وقد أورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٤٤٦٦) من حديث أنس رضي الله عنه بنحوه ، ورواه أحمد في « الزهد » (٤٢٣) عن وهب بن منبه ، قال : إن الله عز وجل فتح السماوات لحزقيل حتىٰ نظر إلى العرش أو كما قال ، فقال حزقيل : سبحانك ما أعظمك يا رب !! فقال الله : إن السماوات والأرض لم تطق أن تحملني ، وضقنَ من أن تسعني ، ووسعني قلب المؤمن الوادع اللين . وفي « الرسالة القشيرية » (ص ٣٨٥) : (وفي بعض الكتب : أن موسىٰ عليه السلام قال : يا رب ؛ أين تسكن ؟ فأوحى الله تعالىٰ إليه : في قلب عبدي المؤمن . ومعناه : سكون الذكر في القلب ؛ فإن الحق سبحانه وتعالىٰ منزه عن كل سكون وحلول ، وإنما هو إثبات ذكر وتحصيل) ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢٣٤/٧) : (ويشهد لصحة معناه حديث أبي عنبة الخولاني المار ذكره قريباً عن الطبراني ، وهٰذا القدر يكفي للصوفي ، ولا يعترض عليه إذا عزاه إلىٰ حضرة الرسالة ، والإنصاف من أوصاف المؤمنين) .

(٣) رواه ابن ماجه (٤٢١٦) بنحوه ، **وأصل الخمّ في المعنى** : الكنْس والتنقية .

ومَنِ ارتفعَ الحجابُ بينَهُ وبينَ ربِّهِ . . تجلَّىٰ صورةُ المُلْكِ والملكوتِ في قلبِهِ ، فيرىٰ جنَّةً عرضُ بعضِها السماواتُ والأرضُ ، أمَّا جملتُها . . فأكثرُ سَعةً مِنَ السماواتِ والأرضِ ؛ لأنَّ السماواتِ والأرضَ عبارةٌ عنْ عالمِ المُلْكِ والشهادةِ ، وهوَ وإنْ كانَ واسعَ الأطرافِ ، متباعدَ الأكنافِ . . فهوَ متناهٍ على الجملةِ ، وأمَّا عالمُ الملكوتِ ، وهوَ الأسرارُ الغائبةُ عنْ مشاهدةِ الأبصارِ ، المخصوصةُ بإدراكِ البصائرِ . . فلا نهايةَ لهُ[1] .

نعم ؛ الذي يلوحُ للقلبِ منهُ مقدارٌ متناهٍ ، ولٰكنَّهُ في نفسِهِ وبالإضافةِ إلىٰ علمِ اللهِ تعالىٰ لا نهايةَ لهُ .

وجملةُ عَالمِ المُلْكِ والملكوتِ إذا أُخذَتْ دفعةً واحدةً تُسمَّى الحضرةَ الربوبيَّةَ ؛ لأنَّ الحضرةَ الربوبيَّةَ محيطةٌ بكلِّ الموجوداتِ ؛ إذْ ليسَ في الوجودِ شيءٌ سوى اللهِ تعالىٰ وأفعالِهِ ، ومملكتُهُ وعبيدُهُ مِنْ أفعالِهِ ، فما يتجلَّىٰ مِنْ ذٰلكَ للقلبِ هوَ الجنَّةُ بعينِها عندَ قومٍ ، وهوَ سببُ استحقاقِ الجنَّةِ عندَ أهلِ الحقِّ ، ويكونُ سعةُ ملكِهِ في الجنَّةِ بحسبِ سعةِ معرفتِهِ ، وبمقدارِ ما تجلَّىٰ لهُ مِنَ اللهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، وإنَّما مرادُ الطاعاتِ وأعمالِ الجوارحِ كلِّها تصفيةُ القلبِ وتزكيتُهُ

(١) لسعته ، وعالم الشهادة بالنسبة إلىٰ عالم الملكوت كالقشرة بالنسبة إلى اللب ، وكالصورة والقالب بالنسبة للروح ، وكالظلمة بالنسبة إلى النور ، وكالسفل بالنسبة إلى العلو ، ولذٰلك يسمىٰ عالم الملكوت : العالَم العلوي ، والعالم الروحاني ، والعالم النوراني ، وفي مقابلته : العالم السفلي والجسماني والظلماني . « إتحاف » (٧/٢٣٥) ، وأصله من كلام المصنف في « مشكاة الأنوار » .

وجلاؤُهُ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [١] ، ومرادُ تزكيتِهِ حصولُ أنوارِ الإيمانِ فيهِ ؛ أعني : إشراقَ نورِ المعرفةِ ، وهوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [٢] ، وبقولِهِ : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [٣] .

نعمْ ؛ هٰذا التجلي وهٰذا الإيمانُ لهُ ثلاثُ مراتبَ :

المرتبةُ الأولىٰ : **إيمانُ العوامِّ** : وهوَ إيمانُ التقليدِ المحضِ .

والثانيةُ : **إيمانُ المتكلمينَ** : وهوَ ممزوجٌ بنوعِ استدلالٍ ، ودرجتُهُ قريبةٌ مِنْ درجةِ إيمانِ العوامِّ .

والثالثةُ : **إيمانُ العارفينَ** : وهوَ المشاهدةُ بنورِ اليقينِ [٤] .

❊ ❊ ❊

ونبيِّنُ لكَ هٰذهِ المراتبَ بمثالٍ ، وهوَ أنَّ تصديقَكَ بكونِ زيدٍ مثلاً في الدارِ لهُ ثلاثُ درجاتٍ :

الأولىٰ : أنْ يخبرَكَ بهِ مَنْ جرَّبتَهُ بالصدْقِ ، ولمْ تعرفْهُ بالكذبِ ، ولا اتهمتَهُ في القولِ ، فإنَّ قلبَكَ يسكنُ إليهِ ، ويطمئنُّ بخبرِهِ بمجرَّدِ

---

(١) سورة الشمس : (٩) .

(٢) سورة الأنعام : (١٢٥) .

(٣) سورة الزمر : (٢٢) .

(٤) ينظر في بيانها كلام المصنف في « مشكاة الأنوار » مجملاً ، وقد روىٰ أحمد في « المسند » (١/٢١٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « ليس الخبر كالمعاينة » .

السماعِ ، وهٰذا هوَ الإيمانُ بمجرَّدِ التقليدِ ، وهوَ مثلُ إيمانِ العوامِّ ؛ فإنَّهُمْ لمَّا بلغوا سنَّ التمييزِ . . سمعوا مِنْ آبائِهِمْ وأمهاتِهِمْ وجودَ اللهِ تعالىٰ ، وعلمِهِ وإرادتِهِ وقدرتِهِ وسائرِ صفاتِهِ ، وبعثةِ الرسلِ وصدقِهِمْ وما جاؤوا بهِ ، وكما سمعوا بهِ . . قبلوهُ ، وثبتوا عليهِ ، واطمأنوا إليهِ ، ولمْ يخطرْ ببالِهِمْ خلافُ ما قالوهُ لهُمْ ؛ لحسنِ ظنِّهِمْ بآبائِهِمْ وأمهاتِهِمْ ومعلِّميهِمْ .

وهٰذا الإيمانُ سببُ النجاةِ في الآخرةِ ، وأهلُهُ مِنْ أوائلِ رتبِ أصحابِ اليمينِ ، وليسوا مِنَ المقرَّبينَ ؛ لأنَّهُ ليسَ فيهِ كشفٌ وبصيرةٌ وانشراحُ صدرٍ بنورِ اليقينِ ؛ إذِ الخطأُ ممكنٌ فيما سُمعَ مِنَ الآحادِ ـ بلْ مِنَ الأعداد ـ فيما يتعلَّقُ بالاعتقاداتِ ، فقلوبُ اليهودِ والنصارىٰ أيضاً مطمئنةٌ بما يسمعونَهُ مِنْ آبائِهِمْ وأمهاتِهِمْ إلا أنَّهُمْ اعتقدوا ما اعتقدوهُ خطأً لأنَّهُمْ أُلقيَ إليهِمُ الخطأُ ، والمسلمونَ اعتقدوا الحقَّ ، لا لاطلاعِهِمْ عليهِ ، ولٰكنْ أُلقيَ إليهِمْ كلمةُ الحقِّ (١) .

❀ ❀ ❀

---

(١) ولقائل أن يقول : فما بال مقلِّد غير المسلمين يرى المصنف أنه من أهل النار ومقلد المسلمين أنه من أهل الجنة وكل منهما مشترك في التقليد ليس إلا ؟ فلهٰذا جواب حكميٌّ يطول ، وعلىٰ طريقة أهل الكلام يمكن القول : بِمَ كُلِّفَ العبد : أبالبحث عن الإيمان أو بالإيمان ؟ ومعلوم أن التكليف متجه للإيمان ، فمن أصاب الإيمان بغير بحث ودليل . . فهو من أهله ، ومن لم يصبه . . كُلِّف بالبحث عنه ، فإن تراخىٰ عن ذٰلك . . لم يكن من أهله ، والإمام الغزالي هنا وفي غيره من كتبه يميل إلى القول بإيمان المقلد الجازم بتقليده ، وهو رأي عامة أهل السنة والجماعة .

الرتبةُ الثانيةُ : أنْ تسمعَ كلامَ زيدٍ وصوتَهُ مِنْ داخلِ الدارِ ، ولٰكنْ مِنْ وراءِ جدارٍ ، فتستدلَّ بهِ علىٰ كونِهِ في الدارِ ، فيكونَ إيمانُكَ وتصديقُكَ ويقينُكَ بكونِهِ في الدارِ أقوىٰ مِنْ تصديقِكَ بمجرَّدِ السماعِ ؛ فإنَّكَ إذا قيلَ لكَ : (إنَّهُ في الدارِ) ثمَّ سمعتَ صوتَهُ . . ازددتَ بهِ يقيناً ؛ لأنَّ الصوتَ يدلُّ على الشكلِ والصورةِ عندَ مَنْ يسمعُ الصوتَ في حالِ مشاهدةِ الصورةِ ، فيحكمُ قلبُهُ بأنَّ هٰذا صوتُ ذٰلكَ الشخصِ .

وهٰذا إيمانٌ ممزوجٌ بدليلٍ ، والخطأُ أيضاً ممكنٌ أنْ يتطرَّقَ إليهِ ؛ إذِ الصوتُ قدْ يشبهُ الصوتَ ، وقدْ يمكنُ التكلُّفُ بطريقِ المحاكاةِ ، إلا أنَّ ذٰلكَ قدْ لا يخطرُ ببالِ السامعِ ؛ لأنَّهُ ليسَ يجعلُ للتهمةِ موضعاً ، ولا يقدرُ في هٰذا التلبيسِ والمحاكاةِ غرضاً .

* * *

الرتبةُ الثالثةُ : أنْ تدخلَ الدارَ فتنظرَ إليهِ بعينِكَ وتشاهدَهُ ، وهٰذهِ هيَ المعرفةُ الحقيقيَّةُ ، والمشاهدةُ اليقينيَّةُ ، وهيَ تشبهُ معرفةَ المقرَّبينَ والصدِّيقينَ ؛ لأنَّهُمْ يؤمنونَ عنْ مشاهدةٍ ، فينطوي في إيمانِهِمْ إيمانُ العوامِّ والمتكلمينَ ، ويتميَّزونَ بمزيَّةٍ بيِّنَةٍ يستحيلُ معها إمكانُ الخطأِ .

نعمْ ؛ وهمْ أيضاً يتفاوتونَ بمقاديرِ العلومِ ، وبدرجاتِ الكشفِ .

أما درجاتُ الكشفِ : فمثالُهُ : أنْ يبصرَ زيداً في الدارِ عنْ قربٍ ،

وفي صحنِ الدارِ في وقتِ إشراقِ الشمسِ ، فيكملُ لهُ إدراكُهُ ، والآخرُ يدركُهُ في بيتٍ أوْ مِنْ بعدٍ ، أوْ في وقتِ عشيةٍ ، فيتمثلُ لهُ في صورتِهِ ما يستيقنُ معَهُ أنَّهُ هوَ ، ولكنْ لا تتمثلُ في نفسِهِ الدقائقُ والخفايا مِنْ صورتِهِ ، ومثلُ هٰذا متصوَّرٌ في تفاوتِ المشاهدةِ للأمورِ الإلٰهيةِ .

وأمَّا مقاديرُ العلومِ : فهو بأنْ يرىٰ في الدارِ زيداً وعمراً وبكراً وغيرَ ذٰلك ، وآخرُ لا يرىٰ إلا زيداً ، فمعرفةُ ذٰلكَ تزيدُ بكثرةِ المعلوماتِ لا محالةَ .

فهٰذهِ حالُ القلبِ بالإضافةِ إلى العلومِ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ بالصوابِ .

❋ ❋ ❋

بيان حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم العقليّة والدّينيّة والدّنيويّة والأخرويّة

اعلمْ : أنَّ القلبَ بغريزتِهِ مستعدٌّ لقبولِ حقائقِ المعلوماتِ كما سبقَ ، ولـٰكنَّ العلومَ التي تحلُّ فيهِ تنقسمُ إلىٰ عقليَّةٍ ، وإلىٰ شرعيَّةٍ .

والعقليَّةُ تنقسمُ إلىٰ ضروريَّةٍ ، ومكتسبةٍ .

والمكتسبةُ إلىٰ دنيويَّةٍ ، وأخرويَّةٍ

❀ ❀ ❀

أمَّا العقليَّةُ : فنعني بها : ما تقضي بها غريزةُ العقلِ ، ولا تُوجدُ بالتقليدِ والسماعِ .

وهيَ تنقسمُ :

إلىٰ ضروريةٍ لا يدري مِنْ أينَ حصلَتْ ، وكيفَ حصلَتْ ؛ كعلمِ الإنسانِ بأنَّ الشخصَ الواحدَ لا يكونُ في مكانينِ ، والشيءَ الواحدَ لا يكونُ حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً معاً ؛ فإنَّ هـٰذهِ علومٌ يجدُ الإنسانُ نفسَهُ منذُ الصبا مفطوراً عليها ، ولا يدري متىٰ حصلَ لهُ هـٰذا العلمُ ، ولا مِنْ أينَ حصلَ لهُ ؛ أعني أنَّهُ لا يدري لها سبباً قريباً ، وإلا . . فليسَ يخفىٰ عليهِ أنَّ اللهَ هوَ الذي خلقَهُ وهداهُ .

وإلىٰ علومٍ مكتسبةٍ ، وهيَ المستفادةُ بالتعلُّمِ والاستدلالِ .

وكلا القسمين قدْ يُسمَّىٰ عقلاً ، قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ[1] : [من الهزج]

رَأَيْتُ الْعَقْلَ عَقْلَيْنِ فَمَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعُ

وَلا يَنْفَعُ مَسْمُوعٌ إِذا لَمْ يَكُ مَطْبُوعُ

كَما لا تَنْفَعُ الشَّمْسُ وَضَوْءُ الْعَيْنِ مَمْنُوعُ

والأَوَّلُ : هوَ المرادُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعليٍّ : « ما خلقَ اللهُ خلقاً أكرمَ عليهِ مِنَ العقلِ »[2] .

والثاني : هوَ المرادُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : « إذا تقرَّبَ الناسُ إلى اللهِ تعالىٰ بأنواعِ البرِّ . . فتقرَّبْ أنتَ بعقلِكَ »[3] ؛ إذْ لا يمكنُ التقرُّبُ بالغريزةِ الفطريَّةِ ولا بالعلومِ الضروريَّةِ ، بلْ بالمكتسبةِ ، ولٰكنْ مثلُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ هوَ الذي يقدرُ على التقرُّبِ باستعمالِ العقلِ في اقتناصِ العلومِ التي بها يُنالُ القرْبُ مِنْ ربِّ العالمينَ .

والقلبُ جارٍ مَجرى العينِ ، وغريزةُ العقلِ فيهِ جاريةٌ مجرىٰ قوَّةِ

(١) ديوان سيدنا علي الموسوم بـ « أنوار العقول لوصي الرسول » (ص ١٦١) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/٢٨٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/٣١٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٣١٢) .

(٣) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١/١٨) مرفوعاً : « يا علي ؛ إذا تقرب الناس إلىٰ خالقهم في أبواب البر . . فتقرب إليه بأنواع العقل ، تسبقهم بالدرجات والزلفىٰ عند الناس في الدنيا ، وعند الله في الآخرة » .

البصرِ في العينِ ، وقوَّةُ الإبصارِ لطيفةٌ تُفقدُ في العمىٰ ، وتُوجدُ في البصرِ وإنْ كانَ قدْ غمَّضَ العينَ أوْ جَنَّ عليهِ الليلُ ، والعلمُ الحاصلُ منهُ في القلبِ جارٍ مَجرىٰ قوَّةِ إدراكِ البصرِ في العينِ ، ورؤيتُهُ لأعيانِ الأشياءِ ، وتأخُّرُ العلومِ عنْ عينِ العقلِ في مدَّةِ الصبا إلىٰ أوانِ التمييزِ أوِ البلوغِ . . يضاهي تأخُّرَ الرؤيةِ عنِ البصرِ إلىٰ أوانِ إشراقِ الشمسِ وفيضانِ نورِها على المبصراتِ ، والقلمُ الذي بهِ سطرَ اللهُ العلومَ علىٰ صفحاتِ القلوبِ يجري مجرىٰ قرْصِ الشمسِ ، وإنَّما لمْ يحصلِ العلمُ في قلبِ الصبيِّ قبلَ التمييزِ لأنَّ لوحَ قلبِهِ لمْ يتهيَّأْ بعدُ لقبولِ نقشِ القلمِ ، والقلمُ عبارةٌ عنْ خلقٍ مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ ، جعلَهُ سبباً لحصولِ نقْشِ العلومِ في قلوبِ البشرِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[(١)] ، وقلمُ اللهِ تعالىٰ لا يشبهُ قلمَ خلقِهِ ، كما أنَّ وصفَهُ سبحانَهُ لا يشبهُ وصفَ خلقِهِ ، فليسَ قلمُهُ مِنْ قصبٍ ولا خشبٍ ، كما أنَّهُ سبحانَهُ ليسَتْ ذاتُهُ مِنْ جوهرٍ ولا عرضٍ ، فالموازنةُ بينَ البصيرةِ الباطنةِ والبصرِ الظاهرِ صحيحةٌ مِنْ هٰذهِ الوجوهِ ، إلا أنَّهُ لا مناسبةَ بينَهُما في الشرفِ ؛ فإنَّ البصيرةَ الباطنةَ هيَ عينُ النفسِ التي هيَ اللطيفةُ المدركةُ ، وهيَ كالفارسِ ، والبدنُ كالفرسِ ، وعمى الفارسِ أضرُّ على الفارسِ مِنْ عمى الفرسِ ، بلْ لا نسبةَ لأحدِ الضررينِ إلى الآخرِ .

ولموازنةِ البصيرةِ الباطنةِ للبصرِ الظاهرِ سمَّاهُ اللهُ تعالىٰ باسمِهِ ،

---

(١) سورة العلق : (٤ ـ ٥) .

فقالَ : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ (١) ، سمَّىٰ إدراكَ الفؤادِ رؤيةً .

وكذٰلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (٢) وما أرادَ بهِ الرؤيةَ الظاهرةَ ، فإنَّ ذٰلكَ غيرُ مخصوصٍ بإبراهيمَ عليهِ السلامُ حتَّىٰ يُذكرَ في معرضِ الامتنانِ .

ولذٰلكَ سمَّىٰ ضدَّ إدراكِهِ عمىً ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ (٣) ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٤) .

فهٰذا بيانُ العلمِ العقليِّ .

❀ ❀ ❀

أمَّا العلومُ الدينيَّةُ : فهيَ المأخوذةُ بطريقِ التقليدِ مِنَ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ وسلامُهُ ، وذٰلكَ يحصلُ بالتعلُّمِ لكتابِ اللهِ تعالىٰ وسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وفهْمِ معانيهما بعدَ السماعِ ، وبهِ كمالُ صفةِ القلبِ ، وبهِ سلامتُهُ عنِ الأدواءِ والأمراضِ ، فالعلومُ العقليَّةُ غيرُ كافيةٍ في سلامةِ القلبِ وإنْ كانَ محتاجاً إليها ، كما أنَّ العقلَ غيرُ كافٍ في استدامةِ أسبابِ صحةِ البدنِ ، بلْ يحتاجُ إلىٰ معرفةِ خواصِّ الأدويةِ والعقاقيرِ بطريقِ التعلُّمِ مِنَ الأطباءِ ، إذْ مجرَّدُ العقلِ لا يهدي

---

(١) سورة النجم : (١١) .
(٢) سورة الأنعام : (٧٥) .
(٣) سورة الحج : (٤٦) .
(٤) سورة الإسراء : (٧٢) .

إليهِ ، ولٰكنْ لا يمكنُ فهمُهُ بعدَ سماعِهِ إلا بالعقلِ ، فلا غنىٰ بالعقلِ عنِ السمعِ ، ولا بالسمعِ عنِ العقلِ ، فالداعي إلىٰ محضِ التقليدِ معَ عزلِ العقلِ بالكليَّةِ جاهلٌ ، والمكتفي بمجرَّدِ العقلِ عنْ أنوارِ القرآنِ والسنَّةِ مغرورٌ ، فإيَّاك أنْ تكونَ مِنْ أحدِ الفريقينِ ، وكُنْ جامعاً بينَ الأصلينِ ؛ فإنَّ العلومَ العقليَّةَ كالأغذيةِ ، والعلومَ الشرعيَّةَ كالأدويةِ ، والشخصُ المريضُ يتضرَّرُ بالغذاءِ مهما فاتَهُ الدواءُ ، فكذٰلكَ أمراضُ القلوبِ لا يمكنُ علاجُها إلا بالأدويةِ المستفادةِ مِنَ الشريعةِ ، وهيَ وظائفُ العباداتِ والأعمالُ التي ركَّبَها الأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِمْ لإصلاحِ القلوبِ ، فمَنْ لا يداوي قلبَهُ المريضَ بمعالجاتِ العباداتِ الشرعيَّةِ ، واكتفىٰ بالعلومِ العقليَّةِ . . استضرَّ بها كما يستضرُّ المريضُ بالغذاءِ .

وظنُّ مَنْ يظنُّ أنَّ العلومَ العقليَّةَ مناقضةٌ للعلومِ الشرعيَّةِ ، وأنَّ الجمعَ بينَهُما غيرُ ممكنٍ . . هوَ ظنٌّ صادرٌ عنْ عمىً في عينِ البصيرةِ ، نعوذُ باللهِ منهُ ، بلْ هٰذا القائلُ ربَّما يناقضُ عندَهُ بعضُ العلومِ الشرعيَّةِ لبعضٍ ، فيعجزُ عنِ الجمعِ بينَهُما ، فيظنُّ أنَّهُ تناقضٌ في الدينِ ، فيتحيَّرُ بهِ ، وينسلُّ مِنَ الدينِ انسلالَ الشعرةِ مِنَ العجينِ .

وإنَّما ذٰلكَ عجزٌ في نفسِهِ خيَّلَ إليهِ تناقضاً في الدينِ ، وهيهاتَ !! وإنَّما مثالُهُ مثالُ الأعمى الذي دخلَ دارَ قومٍ ، فتعثَّرَ فيها بأواني الدارِ ، فقالَ لهُمْ : ما بالُ هٰذهِ الأواني تركَتْ على الطريقِ ؟ لِمَ لا تُردُّ

إلىٰ مواضعِها ؟ فقالوا لهُ : تلكَ الأواني في مواضعِها ، وإنَّما أنتَ لستَ تهتدي إلى الطريقِ لعماكَ ، فالعجبُ منكَ أنَّكَ لا تحيلُ عثرتَكَ علىٰ عماكَ ، وإنَّما تحيلُها علىٰ تقصيرِ غيركَ !!

فهٰذهِ نسبةُ العلومِ الدينيَّةِ إلى العلومِ العقليَّةِ .

❁ ❁ ❁

والعلومُ العقليَّةُ تنقسمُ إلىٰ دنيويَّةٍ وأخرويَّةٍ :

فالدنيويَّةُ : كعلمِ الطبِّ ، والحسابِ ، والهندسةِ ، والنجومِ ، وسائرِ الحرفِ والصناعاتِ .

والأخرويَّةُ : كعلمِ أحوالِ القلبِ ، وآفاتِ الأعمالِ ، والعلمِ باللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، كما فصلناهُ في كتابِ العلمِ .

وهما علمانِ متنافيانِ ؛ أعني أنَّ مَنْ صرفَ عنايتَهُ إلىٰ أحدِهما حتَّىٰ تعمقَ فيهِ . . قصرَتْ بصيرتُهُ عنِ الآخرِ على الأكثرِ ، ولذٰلكَ ضربَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ للدنيا والآخرةِ ثلاثةَ أمثلةٍ فقالَ : (هما ككفَّتي الميزانِ ، وكالمشرقِ والمغربِ ، وكالضرَّتينِ ، إذا أرضيتَ إحداهُما . . أسخطتَ الأخرىٰ)[1] .

ولذٰلكَ ترى الأكياسَ في أمورِ الدنيا وفي علمِ الطبِّ والحسابِ والهندسةِ والفلسفةِ جهالاً في أمورِ الآخرةِ ، والأكياسَ في دقائقِ علومِ الآخرةِ جهالاً في أكثرِ علومِ الدنيا ؛ لأنَّ قوَّةَ العقلِ لا تفي

---

(١) الذريعة (ص ١٣٦) .

بالأمرينِ جميعاً في الغالبِ ، فيكونُ أحدُهُما مانعاً مِنَ الكمالِ في الثاني .

ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أكثرَ أهلِ الجنَّةِ البلْهُ »[1] أي : البلْهُ في أمورِ الدنيا .

وقالَ الحسنُ في بعضِ مواعظِهِ : (لقدْ أدركتُ أقواماً لوْ رأيتموهُمْ . . لقلتُمْ : مجانينُ ، ولوْ رأوكُمْ . . لقالوا : شياطينُ)[2] .

فمهما سمعتَ أمراً غريباً مِنْ أمورِ الدينِ جحدَهُ أهلُ الكياسةِ في سائرِ العلومِ . . فلا ينفِرنَّكَ جحودُهُمْ عنْ قبولِهِ ؛ إذْ مِنَ المحالِ أنْ يظفرَ سالكُ طريقِ المشرقِ بما يُوجدُ في المغربِ ، فكذٰلكَ يجري أمرُ الدنيا والآخرةِ .

ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا . . . ﴾ الآيةَ[3] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾[4] .

---

(١) رواه الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٤٣١/٧) ، وابن عدي في « الكامل » (٣١٣/٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٩٨٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٣٠٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه (١٣٠٣) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٢) قوت القلوب (١٧١/١) ، ورواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٢٦٥/١) .

(٣) سورة يونس ﷺ : (٧) .

(٤) سورة الروم : (٧) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ (١) .

فالجمعُ بينَ كمالِ الاستبصارِ في مصالحِ الدنيا والدينِ لا يكادُ يتيسَّرُ إلا لمَنْ رسَّخَهُ اللهُ لتدبيرِ عبادِهِ في معاشِهِمْ ومعادِهِمْ (٢) ، وهمُ الأنبياءُ المؤيَّدونَ بروحِ القدسِ ، المستمدُّونَ مِنَ القوَّةِ الإلـٰهيَّةِ التي تتسعُ لجميعِ الأمورِ ولا تضيقُ عنها .

فأمَّا قلوبُ سائرِ الخلقِ . . فإنَّها إذا اشتغلَتْ بأمرٍ . . انصرفَتْ عنِ الآخرِ ، وقصرَتْ عنِ الاستكمالِ فيهِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) سورة النجم : (٢٩ ـ ٣٠) .

(٢) في (د ، ك ، ل) : (رشحه) بدل (رسخه) .

بيان الفرق بين الإلهام والتّعلّم
والفرق بين طريق الصّوفيّة في استكشاف الحقّ وطريق النّظّار

اعلمْ : أنَّ العلومَ التي ليسَتْ ضروريَّةً ـ وإنَّما تحصلُ في القلبِ في بعضِ الأحوالِ ـ . . تختلفُ الحالُ في حصولِها ، فتارةً تهجمُ على القلبِ كأنَّهُ أُلقيَ فيهِ مِنْ حيثُ لا يدري ، وتارةً تُكتسبُ بطريقِ الاستدلالِ والتعلُّمِ ، فالذي يحصلُ لا بطريقِ الاكتسابِ وحيلةِ الدليلِ يُسمَّىٰ **إلهاماً** ، والذي يحصلُ بالاستدلالِ يُسمَّى **اعتباراً واستبصاراً** .

ثمَّ الواقعُ في القلبِ بغيرِ حيلةٍ وتعلُّمٍ واجتهادٍ مِنَ العبدِ ينقسمُ إلىٰ ما لا يدري العبدُ أنَّهُ كيفَ حصلَ لهُ ومِنْ أينَ حصلَ ، وإلىٰ ما يطلعُ معَهُ على السببِ الذي منهُ استُفيدَ ذٰلكَ العلمُ ، وهوَ مشاهدةُ المَلَكِ الملْقِي في القلبِ ، والأوَّلُ يُسمَّىٰ **إلهاماً ونفثاً في الرُّوعِ** ، والثاني يُسمَّىٰ **وحياً** ، وتختصُّ بهِ الأنبياءُ ، والأوَّلُ يختصُّ بهِ الأولياءُ والأصفياءُ ، والذي قبلَهُ ـ وهوَ المكتسبُ بطريقِ الاستدلالِ ـ يختصُّ بهِ العلماءُ .

وحقيقةُ القولِ فيهِ : أنَّ القلبَ مستعدٌّ لأنْ تنجليَ فيهِ حقيقةُ الحقِّ في الأشياءِ كلِّها ، وإنَّما حيلَ بينَهُ وبينَها بالأسبابِ الخمسةِ التي سبقَ ذكرُها ، فهيَ كالحجابِ المسدلِ الحائلِ بينَ مرآةِ القلبِ وبينَ اللوحِ المحفوظِ الذي هوَ منقوشٌ بجميعِ ما قضى اللهُ بهِ إلىٰ يومِ القيامةِ ، وتجلِّي حقائقِ العلومِ مِنْ مرآةِ اللوحِ في مرآةِ القلبِ يضاهي

انطباعَ صورةٍ مِنْ مرآةٍ في مرآةٍ تقابلُها ، والحجابُ بينَ المرآتينِ تارةً يُزالُ باليدِ ، وأخرىٰ يزولُ بهبوبِ ريحٍ تحرِّكُهُ ، وكذٰلكَ قدْ تهبُّ رياحُ الألطافِ ، فتنكشفُ الحجبُ عنْ أعينِ القلوبِ ، فينجلي فيها بعضُ ما هوَ مسطورٌ في اللوحِ المحفوظِ .

ويكونُ ذٰلكَ تارةً عندَ المنامِ ، فيعلمُ بهِ ما يكونُ في المستقبلِ ، وتمامُ ارتفاعِ الحجابِ بالموتِ ، فبهِ ينكشفُ الغطاءُ ، وينكشفُ أيضاً في اليقظةِ ، حتَّىٰ يرتفعَ الحجابُ بلطفٍ خفيٍّ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فيلمعُ في القلوبِ مِنْ وراءِ سترِ الغيبِ شيءٌ مِنْ غرائبِ العلمِ ، تارةً كالبرقِ الخاطفِ ، وأخرىٰ على التوالي إلىٰ حدٍّ ما ، ودوامُهُ في غايةِ الندورِ ، فلمْ يفارقِ الإلهامُ الاكتسابَ في نفسِ العلمِ ، ولا في محلِّهِ ، ولا في سببِهِ ، ولٰكنْ يفارقُهُ في جهةِ زوالِ الحجابِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ ليسَ باختيارِ العبدِ ، ولمْ يفارقِ الوحيُ الإلهامَ في شيءٍ مِنْ ذٰلكَ ، بلْ في مشاهدةِ المَلَكِ المفيدِ للعلمِ ؛ فإنَّ العلوم إنَّما تحصلُ في قلوبنا بواسطةِ الملائكةِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ [1] .

❁ ❁ ❁

فإذا عرفتَ هٰذا . . فاعلمْ أنَّ ميلَ أهلِ التصوُّفِ إلى العلومِ الإلهاميَّةِ دونَ التعليميَّةِ ، فلذٰلكَ لمْ يحرصوا علىٰ دراسةِ العلمِ وتحصيلِ ما

---

(١) سورة الشورىٰ : (٥١) .

صنَّفَهُ المصنِّفونَ ، والبحثِ عنِ الأقاويلِ والأدلَّةِ المذكورةِ ، بلْ قالوا : الطريقُ تقديمُ المجاهدةِ ومحوُ الصفاتِ المذمومةِ ، وقطعُ العلائقِ كلِّها ، والإقبالُ بكنْهِ الهمَّةِ على اللهِ تعالىٰ ، ومهما حصلَ ذٰلكَ . . كانَ اللهُ هوَ المتولِّيَ لقلبِ عبدِهِ ، والمتكفِّلَ بتنويرِهِ بأنوارِ العلمِ ، وإذا تولَّى اللهُ أمرَ القلبِ . . فاضَتْ عليهِ الرحمةُ ، وأشرقَ النورُ في القلبِ ، وانشرحَ الصدرُ ، وانكشفَ لهُ سرُّ الملكوتِ ، وانقشعَ عنْ وجهِ القلبِ حجابُ العزَّةِ [1] بلطفِ الرحمةِ ، وتلألأَتْ فيهِ حقائقُ الأمورِ الإلٰهيَّةِ .

وليسَ على العبدِ إلا الاستعدادُ بالتصفيةِ المجرَّدةِ ، وإحضارُ الهمَّةِ معَ الإرادةِ الصادقةِ ، والتعطُّشُ التامُّ ، والترصُّدُ بدوامِ الانتظارِ لما يفتحُهُ اللهُ تعالىٰ مِنَ الرحمةِ ، فالأنبياءُ والأولياءُ انكشفَتْ لهُمُ الأمورُ وفاضَ علىٰ صدورِهِمُ النورُ لا بالتعلُّمِ والدراسةِ والكتابةِ للكتبِ ، بلْ بالزهدِ في الدنيا والتبرّي مِنْ علائقِها ، وتفريغِ القلبِ مِنْ شواغلِها ، والإقبالِ بكنهِ الهمَّةِ على اللهِ تعالىٰ ، فمَنْ كانَ للهِ . . كانَ اللهُ لهُ .

وزعموا أنَّ الطريقَ في ذٰلكَ أوَّلاً بقطعِ علائقِ الدنيا بالكليَّةِ ، وتفريغِ القلبِ منها ، وبقطعِ الهمَّةِ عنِ الأهلِ والمالِ والولدِ والوطنِ ، وعنِ العلمِ والولايةِ والجاهِ ، بلْ يصيرُ قلبُهُ إلىٰ حالةٍ يستوي فيها وجودُ كلِّ شيءٍ وعدمُهُ ، ثمَّ يخلو بنفسِهِ في زاويةٍ معَ الاقتصارِ على

---

(١) في (ل) : (الغرَّة) .

الفرائضِ والرواتبِ ، ويجلسُ فارغَ القلبِ ، مجموعَ الهمِّ ، ولا يفرِّقُ فكرَهُ بقراءةِ قرآنٍ ، ولا بالتأمُّلِ في تفسيرِهِ ، ولا بكتْبِ حديثٍ ولا غيرِهِ [1] ، بلْ يجتهدُ ألا يخطرَ ببالِهِ شيءٌ سوىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، فلا يزالُ بعدَ جلوسِهِ في الخلوةِ قائلاً بلسانِهِ : (**الله ، الله ، الله**) على الدوامِ ، معَ حضورِ القلبِ ، حتىٰ ينتهيَ إلىٰ حالةٍ يتركُ تحريكَ اللسانِ ويرىٰ كأنَّ الكلمةَ جاريةٌ علىٰ لسانِهِ ، ثمَّ يصبرُ عليهِ إلىٰ أنْ ينمحيَ أثرُهُ عنِ اللسانِ ، ويصادفَ قلبَهُ مواظباً على الذكرِ ، ثمَّ يواظبُ عليهِ إلىٰ أنْ ينمحيَ عنِ القلبِ صورةُ اللفظِ وحروفُهُ وهيئةُ الكلمةِ ، ويبقىٰ معنى الكلمةِ مجرَّداً في قلبِهِ ، حاضراً فيهِ ، كأنَّهُ لازمٌ لهُ لا يفارقُهُ ، ولهُ اختيارٌ إلىٰ أنْ ينتهيَ إلىٰ هٰذا الحدِّ ، واختيارٌ في استدامةِ هٰذهِ الحالةِ بدفعِ الوسواسِ ، وليسَ لهُ اختيارٌ في استجلابِ رحمةِ اللهِ تعالىٰ ، بلْ هوَ بما فعلَهُ صارَ متعرِّضاً لنفحاتِ رحمةِ اللهِ ، فلا يبقىٰ إلا الانتظارُ لما يفتحُ اللهُ مِنَ الرحمةِ كما فتحَها على الأنبياءِ والأولياءِ بهٰذهِ الطريقِ ، وعندَ ذٰلكَ إذا صدقَتْ إرادتُهُ ، وصفَتْ همَّتُهُ ، وحسُنَتْ مواظبتُهُ ، فلمْ تجاذبْهُ شهواتُهُ ، ولمْ يشغلْهُ حديثُ النفسِ بعلائقِ الدنيا . . تلمعُ لوامعُ الحقِّ في قلبِهِ ، ويكونُ في ابتدائِهِ كالبرقِ الخاطفِ لا يثبتُ ثمَّ يعودُ ، وقدْ يتأخَّرُ ، وإنْ عادَ . . فقدْ يثبتُ ، وقدْ يكونُ مختطفاً ، وإنْ ثبتَ . . قدْ يطولُ ثباتُهُ ، وقدْ لا يطولُ ، وقدْ يتظاهرُ أمثالُهُ على التلاحقِ ، وقدْ يقتصرُ علىٰ فَنٍّ

---

(١) كالاشتغال بالأذكار والأوراد . « إتحاف » (٧/ ٢٤٧) .

واحدٍ ، ومنازلُ أولياءِ اللهِ تعالىٰ فيهِ لا تُحصرُ ، كما لا يُحصىٰ تفاوتُ خلقِهِمْ وأخلاقِهِمْ .

وقدْ رجعَ هـٰذا الطريقُ إلىٰ تطهيرٍ محضٍ مِنْ جانبِكَ ، وتصفيةٍ وجلاءٍ ، ثمَّ استعدادٍ وانتظارٍ فقطْ [١] .

وأمَّا النظَّارُ وذوو الاعتبارِ . . فلم ينكروا وجودَ هـٰذا الطريقِ وإمكانَهُ ، وإفضاءَهُ إلى المقصدِ على الندورِ ، فإنَّهُ أكثرُ أحوالِ الأنبياءِ والأولياءِ ، ولـٰكنِ استوعروا هـٰذا الطريقَ ، واستبطؤوا ثمرتَهُ ، واستبعدوا استجماعَ شروطِهِ ، وزعموا أنَّ محوَ العلائقِ إلىٰ ذٰلكَ الحدِّ كالمتعذِّرِ ، وإنْ حصلَ في حالٍ . . فثباتُهُ أبعدُ منهُ ؛ إذْ أدنىٰ وسواسٍ وخاطرٍ يشوِّشُ القلبَ [٢] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قلبُ المؤمنِ أشدُّ تقلُّباً مِنَ القِدْرِ إذا استجمعَتْ غلْياً » [٣] .

---

(١) ذكر الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٧/٢٤٧) بأن هـٰذا هو طريق شيخ المصنف الإمام أبي علي الفارمذي الطوسي رحمه الله تعالىٰ .

(٢) وهم قالوا : إن نفي الخواطر الثلاثة لازم للمريد ؛ أعني النفسية والشيطانية والملكية ، وإنه لا بد من إثبات الخاطر الحقاني ، ومعرفة الخواطر وتمييزها عسر ، ولا تتم معرفة ذٰلك وتمييزها إلا لمن تحلَّىٰ بالتقوىٰ والزهد وأكل الحلال الطيب دائماً ، وأنَّىٰ يتيسر ذٰلك لكل أحد في كل وقت ، وإنه يلزم المريد دائماً مراقبة خواطره ، ولا يترك خاطر الغير يمر بباله ، وكل ذٰلك صعب المنال قريب المحال . « إتحاف » (٧/٢٤٩) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٦/٤) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/٢٥٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/١٧٥) من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه ، ولفظه : « لقلب ابن آدم أشد انقلاباً من القدر إذا اجتمعت غلياً » .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ منْ أصابعِ الرحمٰنِ »[1] .

وفي أثناءِ هٰذهِ المجاهدةِ قدْ يفسدُ المزاجُ ، ويختلطُ العقلُ ، ويمرضُ البدنُ ، وإذا لمْ تتقدَّمْ رياضةُ النفسِ وتهذيبُها بحقائقِ العلومِ . . تشبَّثَتْ بالقلبِ خيالاتٌ فاسدةٌ تطمئنُّ النفسُ إليها مدَّةً طويلةً إلىٰ أن يزولَ وينقضيَ العمرُ قبلَ النجاحِ فيهِ .

فكمْ مِنْ صوفيٍّ سلكَ هٰذا الطريقَ ثمَّ بقيَ في خيالٍ واحدٍ عشرينَ سنةً ، ولوْ كانَ قدْ أتقنَ العلمَ مِنْ قبلُ . . لانفتحَ لهُ وجهُ التباسِ ذٰلكَ الخيالِ في الحالِ ، فالاشتغالُ بطريقِ التعلُّمِ أوثقُ وأقربُ إلى الغرضِ[2] .

وزعموا أنَّ ذٰلكَ يضاهي ما لوْ تركَ الإنسانُ تعلُّمَ الفقهِ ، وزعمَ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً ، ولفظه عنده : « إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمٰن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء » ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم ، مصرِّف القلوب ؛ صرف قلوبنا علىٰ طاعتك » .

(٢) وقد أجاب الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢٤٩/٧) عن هٰذا الزعم فقال : (وقد يجاب عن ذٰلك بأن تلك الخيالات الفاسدة التي تتشبث بالقلب إنما منشؤها تلك العلوم التي تعلمها وظن في نفسه أنها معارف موصلة ، وفي الحقيقة هي القواطع عن الطريق ، وهي التي لا تفي الأعمار في تحصيلها ، وأما السالك الذي بصدد تصفية قلبه من الكدورات الوهمية ، فهو علىٰ هدي من ربه إن اعتل بدنه أو فسد مزاجه ، فحصل له بذٰلك تفرقة خاطر ، فهو معذور عند الله ، وإن مات . . فقد وقع أجره على الله ، وحقيق أن يقال : هو عاشق ، إن مات ليلة وصاله لا يلام) .

أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يتعلَّمْ ذٰلكَ ، ولٰكنْ صارَ فقيهاً بالوحيِ والإلهامِ مِنْ غيرِ تكرارٍ وتعليقٍ ، ويقولُ : (أنا أيضاً ربَّما أنتهي بالرياضةِ والمواظبةِ إليهِ) ، ومَنْ ظنَّ ذٰلكَ . . فقدْ ظلمَ نفسَهُ ، وضيَّعَ عمرَهُ ، بلْ هوَ كمَنْ يتركُ طريقَ الكسبِ والحراثةِ رجاءَ العثورِ علىٰ كنزٍ مِنَ الكنوزِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ ممكنٌ ، ولٰكنَّهُ بعيدٌ جداً ، فكذٰلكَ هٰذا .

وقالوا : لا بدَّ أوَّلاً مِنْ تحصيلِ ما حصَّلَهُ العلماءُ ، وفهمِ ما قالوهُ ، ثمَّ لا بأسَ بعدَ ذٰلكَ بالانتظارِ لما لمْ ينكشف لسائرِ العلماءِ ، فعساهُ ينكشفُ بالمجاهدةِ بعدَ ذٰلكَ .

❋ ❋ ❋

بيان الفرق بين المقامين بمثال محسوس

اعلمْ : أنَّ عجائبَ القلبِ خارجةٌ عنْ مدركاتِ الحواسِّ ؛ لأنَّ القلبَ أيضاً خارجٌ عنْ إدراكِ الحسِّ ، وما ليسَ مدركاً بالحواسِّ تضعفُ الأفهامُ عن درْكِهِ إلا بمثالٍ محسوسٍ ، **ونحنُ نقرِّبُ ذٰلكَ إلى الأفهامِ الضعيفةِ بمثالينِ** :

أحدُهُما : أنَّهُ لوْ فرضْنا حوضاً محفوراً في الأرضِ ، احتملَ أنْ يُساقَ إليهِ الماءُ مِنْ فوقِهِ بأنهارٍ تُفتحُ فيهِ ، ويُحتملُ أنْ يُحفرَ أسفلَ الحوضِ ويُرفعَ منهُ الترابُ إلىٰ أنْ يقربَ مِنْ مستقرِّ الماءِ الصافي ، فينفجرَ الماءُ مِنْ أسفلِ الحوضِ ، ويكونُ ذٰلكَ الماءُ أصفىٰ وأدومَ ، وقدْ يكونُ أغزرَ وأكثرَ . . فكذٰلكَ القلبُ مثلُ الحوضِ ، والعلمُ مثلُ الماءِ ، والحواسُّ الخمسُ مثلُ الأنهارِ ، وقدْ يمكنُ أنْ تُساقَ العلومُ إلى القلبِ بواسطةِ أنهارِ الحواسِّ ، والاعتبارِ بالمشاهداتِ حتَّىٰ يمتلئَ علماً ، ويمكنُ أنْ تُسدَّ عنهُ هٰذهِ الأنهارُ بالخلوةِ والعزلةِ وغضِّ البصرِ ، ويعمدَ إلىٰ عمْقِ القلبِ بتطهيرِهِ ، ورفعِ طبقاتِ الحجُبِ عنهُ ، حتَّىٰ تتفجَّرَ ينابيعُ العلمِ مِنْ داخلِهِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فكيفَ يتفجرُ العلمُ مِنْ ذاتِ القلبِ وهوَ خالٍ عنهُ ؟

فاعلمْ : أنَّ هٰذا مِنْ عجائبِ أسرارِ القلبِ ، ولا يُسمحُ بذكرِهِ في

علمِ المعاملةِ ، بلِ القدْرُ الذي يمكنُ ذكرُهُ أنَّ حقائقَ الأشياءِ مسطورةٌ في اللوحِ المحفوظِ ، بلْ في قلوبِ الملائكةِ المقرَّبينَ ، فكما أنَّ المهندسَ يسطرُ صورةَ أبنيةِ الدارِ في بياضٍ ، ثمَّ يخرجُها إلى الوجودِ علىٰ وَفْقِ تلكَ النسخةِ . . فكذٰلكَ فاطرُ السماواتِ والأرضِ كتبَ نسخةَ العالمِ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ في اللوحِ المحفوظِ ، ثمَّ أخرجَهُ إلى الوجودِ علىٰ وَفْقِ تلكَ النسخةِ ، والعالمُ الذي خرجَ إلى الوجودِ بصورتِهِ تتأدَّىٰ منهُ صورةٌ أخرىٰ إلى الحسِّ والخيالِ ، فإنَّ مَنْ ينظرُ إلى السماءِ والأرضِ ثمَّ يغضُّ بصرَهُ . . يرىٰ صورةَ السماءِ والأرضِ في خيالِهِ ، حتَّىٰ كأنَّهُ ينظرُ إليها ، ولوِ انعدمَتِ السماءُ والأرضُ وبقيَ هوَ في نفسِهِ . . لوجدَ صورةَ السماءِ والأرضِ في نفسِهِ كأنَّهُ يشاهدُهُما وينظرُ إليهما ، ثمَّ يتأدَّىٰ مِنْ خيالِهِ أثرٌ إلى القلبِ ، فيحصلُ فيهِ حقائقُ الأشياءِ التي دخلَتْ في الحسِّ والخيالِ .

والحاصلُ في القلبِ موافقٌ للعالمِ الحاصلِ في الخيالِ ، والحاصلُ في الخيالِ موافقٌ للعالمِ الموجودِ في نفسِهِ خارجاً مِنْ خيالِ الإنسانِ وقلبِهِ ، والعالمُ الموجودُ موافقٌ للنسخةِ الموجودةِ في اللوحِ المحفوظِ ، فكأنَّ للعالمِ أربعَ درجاتٍ في الوجودِ ؛ وجودٌ في اللوحِ المحفوظِ ، وهوَ سابقٌ علىٰ وجودِهِ الجسمانيِّ ، ويتبعُهُ وجودُهُ الحقيقيُّ ، ويتبعُ وجودَهُ الحقيقيَّ وجودُهُ الخياليُّ ؛ أعني : وجودَ صورتِهِ في الخيالِ ، ويتبعُ وجودَهُ الخياليَّ وجودُهُ العقليُّ ؛ أعني : وجودَ صورتِهِ في القلبِ .

وبعضُ هٰذهِ الوجوداتِ روحانيَّةٌ وبعضُها جسمانيَّةٌ [١] ، والروحانيَّةُ بعضُها أشدُّ روحانيَّةً مِنَ بعضٍ ، وهٰذا لطفٌ مِنَ الحكمةِ الإلٰهيةِ ؛ إذْ جعلَ حدقتَكَ علىٰ صغرِ حجمِها بحيثُ تنطبعُ فيها صورةُ العالمِ والسماواتِ والأرضِ على اتساعِ أكنافِها ، ثمَّ يسري مِنْ وجودِها في الحسِّ وجودٌ إلى الخيالِ ، ثمَّ منهُ وجودٌ في القلبِ ؛ فإنَّكَ أبداً لا تدركُ إلا ما هوَ واصلٌ إليكَ ، فلوْ لمْ يجعلْ للعالمِ كلِّهِ مثالاً في ذاتِكَ . . لما كانَ لكَ خبرٌ ممَّا يباينُ ذاتَكَ .

فسبحانَ مَنْ دبَّرَ هٰذهِ العجائبَ في القلوبِ والأبصارِ ، ثمَّ أعمىٰ عنْ دركِها القلوبَ والأبصارَ ، حتَّىٰ صارَتْ قلوبُ أكثرِ الخلقِ جاهلةً بأنفسِها وبعجائبِها .

❁ ❁ ❁

ولنرجعْ إلى الغرضِ المقصودِ ، فنقولُ :

القلبُ قدْ يُتصوَّرُ أنْ يحصلَ فيهِ حقيقةُ العالمِ وصورتُهُ ؛ تارةً مِنَ الحواسِّ ، وتارةً مِنَ اللوحِ المحفوظِ ، كما أنَّ العينَ يُتصوَّرُ أنْ يحصلَ فيها صورةُ الشمسِ ؛ تارةً مِنَ النظرِ إليها ، وتارةً مِنَ النظرِ إلى الماءِ الذي يقابلُ الشمسَ ويحكي صورتَها .

فمهما ارتفعَ الحجابُ بينَهُ وبينَ اللوحِ المحفوظِ . . رأى الأشياءَ فيهِ ، وتفجَّرَ إليهِ العلمُ منهُ ، فاستغنىٰ عنِ الاقتباسِ مِنْ مداخلِ

---

(١) فالوجود الأول والثاني : جسمانيان ، والثالث والرابع : روحانيان . « إتحاف » (٧/ ٢٥١) .

الحواسِّ ، فيكونُ ذٰلكَ كتفجُّرِ الماءِ مِنْ عمقِ الأرضِ .

ومهما أقبلَ على الخيالاتِ الحاصلةِ مِنَ المحسوساتِ . . كانَ ذٰلكَ حجاباً لهُ عنْ مطالعةِ اللوحِ المحفوظِ ، كما أنَّ الماءَ إذا اجتمعَ مِنَ الأنهارِ في الحوضِ منعَ ذٰلكَ مِنَ التفجُّرِ مِنَ الأرضِ ، وكما أنَّ مَنْ نظرَ إلى الماءِ الذي يحكي صورةَ الشمسِ لا يكونُ ناظراً إلىٰ نفسِ الشمسِ .

فإذاً ؛ للقلبِ بابانِ :

بابٌ مفتوحٌ إلىٰ عالمِ الملكوتِ ، وهوَ اللوحُ المحفوظُ وعالَمُ الملائكةِ .

وبابٌ مفتوحٌ إلى الحواسِّ الخمسِ المتمسِّكةِ بعالمِ الشهادةِ والمُلْكِ ، وعالمُ الشهادةِ والملكِ أيضاً يحاكي عالمَ الملكوتِ نوعاً مِنَ المحاكاةِ .

فأمَّا انفتاحُ بابِ القلبِ إلى الاقتباسِ مِنَ الحواسِّ . . فلا يخفىٰ عليكَ .

وأمَّا انفتاحُ بابِهِ الداخلانيِّ إلىٰ عالمِ الملكوتِ ، ومطالعةُ اللوحِ المحفوظِ . . فتعلمُهُ علماً يقيناً بالتأمُّلِ في عجائبِ الرؤيا ، واطلاعِ القلبِ في النومِ علىٰ ما سيكونُ في المستقبلِ ، أوْ كانَ في الماضِي ، مِنْ غيرِ اقتباسٍ مِنْ جهةِ الحواسِّ .

وإنَّما ينفتحُ ذٰلكَ البابُ لِمَنْ أفردَ ذكرَ اللهِ تعالىٰ ، وقالَ صلَّى اللهُ

عليهِ وسلَّمَ : « سبقَ المُفْرِدونَ » ، قيلَ : ومَنْ هم المُفْرِدونَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « المستهتَرونَ بذكرِ اللهِ تعالىٰ ، وضعَ الذِّكرُ عنهُمْ أوزارَهُمْ ، فوردُوا القيامةَ خفافاً » ، ثمَّ قالَ في وصفِهِمْ إخباراً عنِ اللهِ تعالىٰ : « ثمَّ أقبلُ بوجهي عليهِمْ ، أترىٰ مَنْ واجهتُهُ بوجهي يعلمُ أحدٌ أيَّ شيءٍ أريدُ أنْ أعطيَهُ ؟ » ثمَّ قالَ تعالىٰ : « أوَّلُ ما أعطيهِمْ أنْ أقذفَ مِنْ نوري في قلوبِهِمْ ، فيخبرونَ عنِّي كما أخبرُ عنهُمْ » [1] ، ومدخلُ هٰذهِ الأخبارِ هوَ البابُ الباطنُ .

فإذاً ؛ الفرقُ بينَ علومِ الأولياءِ والأنبياءِ وبينَ علومِ العلماءِ والحكماءِ هٰذا ، وهوَ أنَّ علومَهُمْ تأتي مِنْ داخلِ القلبِ ، مِنَ البابِ المنفتحِ إلىٰ عالمِ الملكوتِ ، وعلمُ الحكمةِ يأتي مِنْ أبوابِ الحواسِّ المفتوحةِ إلىٰ عالمِ المُلْكِ ، وعجائبُ عالمِ القلبِ وتردُّدُهُ بينَ عالمي الشهادةِ والغيبِ لا يمكنُ أنْ يُستقصىٰ في علمِ المعاملةِ ، فهٰذا مثالٌ يعرِّفُكَ الفرقَ بينَ مدخلِ العلمينِ .

❁ ❁ ❁

المثالُ الثاني : يعرِّفُكَ الفرقَ بينَ العملينِ ؛ أعني : عملَ العلماءِ وعملَ الأولياءِ ، فإنَّ العلماءَ يعملونَ في اكتسابِ نفسِ العلومِ

---

(١) قوت القلوب (١/١١٩) ، وأصله عند مسلم (٤٨٣٤) وفيه : « سبق المفردون » ، قالوا : وما المفردون يا رسول الله . قال : « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » ، وعند الترمذي (٣٥٢٠) وفيه : « المستهترون في ذكر الله ، يضع الذكر عنهم أثقالهم ، فيأتون يوم القيامة خفافاً » .

واجتلابِها إلى القلوبِ ، وأولياءُ الصوفيَّةِ يعملونَ في جِلاءِ القلوبِ وتطهيرِها وتصفيتِها وتصقيلِها فقطْ .

فقدْ حُكِيَ أنَّ أهلَ الصينِ وأهلَ الرومِ تباهَوا بينَ يدي بعضِ الملوكِ بحسْنِ صناعةِ النقْشِ والصورِ ، فاستقرَّ رأيُ الملكِ علىٰ أنْ يُسلِّمَ إليهِمْ صُفَّةً لينقشَ أهلُ الصينِ منها جانباً ، وأهلُ الرومِ جانباً ، ويُرخىٰ بينهما حجابٌ يمنعُ اطلاعَ كلِّ فريقٍ على الآخرِ ، ففُعِلَ ذٰلكَ ، فجمعَ أهلُ الرومِ مِنَ الأصباغِ الغريبةِ ما لا ينحصرُ ، ودخلَ أهلُ الصينِ مِنْ غيرِ صبغٍ ، وأقبلوا يَجلونَ جانبَهُمْ ويصقلونَهُ ، فلمَّا فرغَ أهلُ الرومِ . . ادَّعىٰ أهلُ الصينِ أنَّهُمْ قدْ فرغوا أيضاً ، فعجبَ الملكُ مِنْ قولِهِمْ وأنَّهُمْ كيفَ فرغوا مِنَ النقشِ مِنْ غيرِ صبغٍ ، فقيلَ لهُمْ : وكيفَ فرغتُمْ مِنْ غيرِ صبغٍ ؟! فقالوا : ما عليكُمْ ، ارفعوا الحجابَ ، فرفعوا ، فإذا بجانبِهِمْ يتلألأُ منهُ عجائبُ الصنائعِ الروميَّةِ معَ زيادةِ إشراقٍ وبريقٍ ؛ إذْ كانَ قدْ صارَ كالمرآةِ المجلوَّةِ لكثرةِ التصقيلِ ، فازدادَ حسْنُ جانبِهِمْ بمزيدِ التصقيلِ .

فكذٰلكَ عنايةُ الأولياءِ بتطهيرِ القلبِ وجِلائِهِ ، وتزكيتِهِ وصفائِهِ ، حتَّىٰ يتلألأَ فيهِ جليَّةُ الحقِّ بنهايةِ الإشراقِ ؛ كفعلِ أهلِ الصينِ ، وعنايةُ الحكماءِ والعلماءِ باكتسابِ ونقشِ العلومِ ، وتحصيلِ نقشِها في القلبِ ، كفعلِ أهلِ الرومِ .

وكيفما كانَ الأمرُ . . فقلبُ المؤمنِ لا يموتُ ، وعلمُهُ عندَ الموتِ لا ينمحي ، وصفاؤُهُ لا يتكدَّرُ ، وإليهِ أشارَ الحسنُ رحمةُ اللهِ عليهِ

بقولِهِ : (الترابُ لا يأكلُ محلَّ الإيمانِ)[1] ، بلْ يكونُ وسيلةً وقربةً إلى اللهِ تعالىٰ .

وأما ما حصَّلَهُ مِنْ نقشِ العلمِ ، أوْ ما حصَّلَهُ مِنَ الصفاءِ والاستعدادِ لقبولِ نقشِ العلمِ . . فلا غنىٰ بهِ عنهُ ، ولا سعادةَ لأحدٍ إلا بالعلمِ والمعرفةِ ، وبعضُ السعاداتِ أشرفُ مِنْ بعضٍ ، كما أنَّهُ لا غنىٰ إلا بالمالِ ، فصاحبُ الدرهمِ غنيٌّ ، وصاحبُ الخزائنِ المترعةِ غنيٌّ ، وتفاوتُ درجاتِ السعداءِ بحسبِ تفاوتِ المعرفةِ والإيمانِ ، كما تتفاوتُ درجاتُ الأغنياءِ بحسَبِ قلَّةِ المالِ وكثرتِهِ ، فالمعارفُ أنوارٌ ، ولا يسعى المؤمنونَ إلىٰ لقاءِ اللهِ تعالىٰ إلا بأنوارِهِمْ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾[2] .

وقدْ رُوِيَ في الخبرِ : أنَّ بعضَهُمْ يُعطىٰ نوراً مثلَ الجبلِ ، وبعضَهُمْ أصغرَ ، حتىٰ يكونَ آخرُهُمْ رجلاً يُعطىٰ نوراً علىٰ إبهامِ قدميهِ ، فيضيءُ مرَّةً وينطفئُ أخرىٰ ، فإذا أضاءَ . . قدَّمَ قدمَهُ فمشىٰ ، وإذا طَفِئ . . قامَ ، ومرورُهُمْ على الصِّراطِ علىٰ قدْرِ نورِهِمْ ، فمنهُمْ مَنْ يمرُّ كطرفِ العينِ ، ومنهُمْ مَنْ يمرُّ كالبرقِ ، ومنهُمْ مَن يمرُّ كالسحابِ ، ومنهُمْ مَنْ يمرُّ كانقضاضِ الكواكبِ ، ومنهُمْ مَنْ يمرُّ كشدِّ الفرسِ ، والذي

---

(١) كما نقله صاحب « القوت » ، ومعلوم أن محل الإيمان والتقوى القلب ، كما ورد في الخبر : « ألا إن التقوىٰ ها هنا » وأشار إلى القلب . « إتحاف » (٧/٢٥٥) ، وهـٰذا المعنىٰ أشار إليه المصنف في « كيمياء السعادة » (ص ١٣٠) بمزيد تفصيل .

(٢) سورة الحديد : (١٢) .

أُعطيَ نوراً علىٰ إبهامِ قدميهِ يحبو علىٰ وجهِهِ ويديهِ ورجليهِ ، يجرُّ يداً ويعلِّقُ أخرىٰ ، ويجرُّ رجلاً ويعلِّق أخرىٰ ، ويصيبُ جوانبَهُ النارُ ، فلا يزالُ كذٰلكَ حتَّىٰ يخلصَ » الحديثَ[1] .

فبهٰذا يظهرُ تفاوتُ الناسِ في الإِيمانِ ، ولوْ وُزنَ إيمانُ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ بإيمانِ العالمينَ سوى النبِّيينَ والمرسلينَ . . لرجحَ ، وهٰذا أيضاً يضاهي قولَ القائلِ : (لوْ وُزنَ نورُ الشمسِ بنورِ السُّرُجِ كلِّها . . لرجحَ) ، فإيمانُ آحادِ العوامِّ نورُهُ مثلُ نورِ السراجِ ، وبعضُهُمْ نورُهُ كنورِ الشمعِ ، وإيمانُ الصديقينَ نورُهُ كنورِ القمرِ والنجومِ ، وإيمانُ الأنبياءِ كنورِ الشمسِ .

وكما ينكشفُ في نورِ الشمسِ صورةُ الآفاقِ معَ اتساعِ أقطارِها ولا ينكشفُ في نورِ السراجِ إلا زاويةٌ ضيّقةٌ مِنَ البيتِ . . فكذٰلكَ تفاوتُ انشراحِ الصدورِ بالمعارفِ ، وانكشافُ سعةِ الملكوتِ لقلوبِ العارفينَ ، ولذٰلكَ جاءَ في الخبرِ : أنَّهُ يُقالُ يومَ القيامةِ : « أخرجوا مِنَ النارِ مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالٌ منَ الإيمانِ ، ونصفُ مثقالٍ ، وربعُ مثقالٍ ، وشعيرةٌ ، وذرَّةٌ »[2] ، كلُّ ذٰلكَ تنبيهٌ علىٰ تفاوتِ درجاتِ الإِيمانِ ، وأنَّ هٰذهِ المقاديرَ مِنَ الإيمانِ لا تمنعُ دخولَ النارِ ، وفي مفهومِهِ أنَّ مَنْ إيمانُهُ يزيدُ علىٰ مثقالٍ . . فإنَّهُ لا يدخلُ النارَ ؛ إذْ لوْ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٧٠٠) ، والطبراني في « الكبير » (٣٥٧/٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٥٨٩/٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٧٤١٠) ، ومسلم (١٩٣) .

دخلَ . . لأمرَ بإخراجِهِ أوّلاً ، وأنَّ مَنْ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ لا يستحقُّ الخلودَ في النارِ وإنْ دخلَها .

وكذلكَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ شيءٌ خيراً مِنْ ألفِ مثلِهِ إلّا الإنسانُ المؤمنُ »[(١)] ، إشارةً إلىٰ تفضيلِ قلبِ العارفِ باللهِ تعالى الموقنِ ، فإنَّهُ خيرٌ مِنْ ألفِ قلبٍ مِنْ عوامِّ الخلقِ .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[(٢)] تفضيلاً للمؤمنينَ على المسلمينَ ، والمرادُ بهِ المؤمنُ العارفُ دونَ المقلِّدِ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾[(٣)] فأرادَ ها هنا بالذينَ آمنوا : الذينَ صدَّقوا مِنْ غيرِ علمٍ ، وميَّزَهُمْ عنِ الذينَ أُوتوا العلمَ .

ويدلُّ ذلكَ علىٰ أنَّ اسمَ المؤمنِ يقعُ على المقلِّدِ وإنْ لمْ يكنْ تصديقُهُ عنْ بصيرةٍ وكشفٍ ، وفسَّرَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾[(٤)] ، فقالَ : (يرفعُ اللهُ العالمَ فوقَ المؤمنِ بسبعِ مئةِ درجةٍ ، بينَ كلِّ درجتينِ كما بينَ السماءِ والأرضِ)[(٥)] .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٦/٢٣٨) من حديث سلمان رضي الله عنه ، والقضاعي في « الشهاب » (١٢١٦) ، والطبراني في « الصغير » (١/١٤٧) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) سورة آل عمران : (١٣٩) .

(٣) سورة المجادلة : (١١) .

(٤) سورة المجادلة : (١١) .

(٥) قوت القلوب (١/١١٧) ، ورواه مرفوعاً أبو يعلىٰ في « المسند » (٨٥٦) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٢٩) بنحوه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثرُ أهلِ الجنَّةِ البلْهُ ، وعلِّيونَ لذوي الألبابِ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلي علىٰ أدنىٰ رجلٍ مِنْ أصحابي »[٢] ، وفي روايةٍ : « كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ علىٰ سائرِ الكواكبِ »[٣] .

فبهٰذهِ الشواهدِ يتضحُ تفاوتُ درجاتِ أهلِ الجنةِ بحسَبِ تفاوتِ قلوبِهِمْ ومعارفِهِمْ ، ولهٰذا كانَ يومُ القيامةِ يومَ التغابنِ ؛ إذِ المحرومُ مِنْ رحمةِ اللهِ عظيمُ الغبْنِ والخسرانِ ، والمحرومُ يرىٰ فوقَ درجتِهِ درجاتٍ عظيمةً ، فيكونُ نظرُهُ إليها كنظرِ الغنيِّ الذي يملكُ عشرةَ دراهمَ إلى الغنيِّ الذي يملكُ الأرضَ مِنَ المشرقِ إلى المغربِ ، وكلُّ واحدٍ منهما غنيٌّ ، ولٰكنْ ما أعظمَ الفرقَ بينَهُما ، وما أعظمَ الغبنَ علىٰ مَنْ بُخِسَ حظَّهُ مِنْ ذٰلكَ ، وللآخرةُ أكبرُ درجاتٍ وأكبرُ تفضيلاً .

* * *

(١) رواه الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٧/٤٣١) ، وابن عدي في « الكامل » (٣/٣١٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٩٨٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٣٠٤) دون زيادة : (وعليون لذوي الألباب) ، وهي عند صاحب « القوت » (١/١١٧) ، وقد روىٰ نحو هٰذه الزيادة الحافظ المزي في « تهذيب الكمال » (٢٦/١١٧ ـ ١١٨) عن أحمد بن أبي الحواري رحمه الله تعالىٰ .

(٢) رواه الترمذي (٢٦٨٥) .

(٣) رواه أبو داوود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) .

بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة لا من التعلم ، ولا من الطريق المعتاد

اعلمْ : أنَّ مَنِ انكشفَ لهُ شيءٌ ولوِ الشيءَ اليسيرَ بطريقِ الإلهامِ والوقوعِ في القلبِ مِنْ حيثُ لا يدري . . فقدْ صارَ عارفاً بصحَّةِ الطريقِ ، ومَنْ لمْ يدركْ ذٰلكَ مِنْ نفسِهِ قطُّ . . فينبغي أنْ يؤمنَ بهِ ؛ فإنَّ درجةَ المعرفةِ فيهِ عزيزةٌ جداً ، ويشهدُ لذٰلكَ شواهدُ الشرعِ والتجارِبُ والحكاياتُ .

❁ ❁ ❁

أمّا الشواهدُ : فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ (١) ، فكلُّ حكمةٍ تظهرُ مِنَ القلبِ بالمواظبةِ على العبادةِ مِنْ غيرِ تعلُّمٍ . . فهوَ بطريقِ الكشفِ والإلهامِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عملَ بما علِمَ . . ورَّثَهُ اللهُ علمَ ما لَمْ يعلمْ ، ووفَّقَهُ فيما يعملُ حتَّىٰ يستوجبَ الجنَّةَ ، ومَنْ لمْ يعملْ بما يعلمُ . . تاهَ فيما يعلمُ ، ولمْ يوفَّقْ فيما يعملُ حتَّىٰ يستوجبَ النارَ » (٢) .

---

(١) سورة العنكبوت : (٦٩) .

(٢) كذا هو بتمامه في « القوت » (١/١١٩) ، وقد تقدم صدره ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٧/٢٥٨) : (هٰذا نص « القوت » ، فهو من قول بعض التابعين ، وسياق المصنف يقتضي أنه بقية الحديث السابق ، ولذا قال العراقي : ←

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ : مِنَ الإشكالاتِ والشُّبَهِ ، ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [١] : يعلِّمْهُ علماً مِنْ غيرِ تعلُّمٍ ، ويفطِّنْهُ مِنْ غيرِ تجربةٍ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [٢] ، قيلَ : نوراً يفرقُ بهِ بينَ الحقِّ والباطلِ ، ويخرجُ بهِ مِنَ الشبهاتِ ، ولذٰلكَ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يكثرُ في دعائِهِ مِنْ سؤالِ النورِ ، فقالَ : « اللَّهمَّ ؛ أعطني نوراً ، وزِدْني نوراً ، واجعلْ لي في قلبي نوراً ، وفي قبري نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً » حتَّىٰ قالَ : « في شعري ، وبشري ، ولحمي ، ودمي ، وعظامي » [٣] .

وسُئِلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [٤] ما هٰذا الشرحُ ؟ فقالَ : « هوَ التَّوسعةُ ، إنَّ النورَ إذا قُذِفَ بهِ في القلبِ . . اتَّسعَ لهُ الصدرُ وانشرحَ » [٥] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما :

« صدر الحديث تقدم في العلم ، وهٰذه الزيادة لم أرها » ، والذي يظهر لي أنه سقط كلام من النساخ) .

(١) سورة الطلاق : (٢ ـ ٣) .

(٢) سورة الأنفال : (٢٩) .

(٣) رواه البخاري (٦٣١٦) ، ومسلم (٧٦٣) .

(٤) سورة الزمر : (٢٢) .

(٥) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/٣١١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٦٨) .

« اللَّهمَّ ؛ فَقِّهْهُ في الدينِ ، وعلِّمْهُ التأويلَ »[1] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما عندَنا شيءٌ أسرَّهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلينا إلا أنْ يُؤتيَ اللهُ تعالىٰ عبداً فهماً في كتابِهِ)[2] ، وليسَ هٰذا بالتعلُّمِ .

وقيلَ في تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾[3] : إنَّهُ الفهمُ في كتابِ اللهِ تعالىٰ[4] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾[5] ، خصَّ ما انكشفَ باسمِ الفهمِ[6] .

وكانَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (المؤمنُ ينظرُ بنورِ اللهِ مِنْ وراءِ سترٍ رقيقٍ ، واللهِ ؛ إنَّهُ للحقُّ يقذفُهُ اللهُ في قلوبِهِمْ ، ويجريهِ علىٰ ألسنتِهِمْ)[7] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (ظنُّ المؤمنِ كهانةٌ)[8] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اتقوا فِراسةَ المؤمنِ ؛ فإنَّهُ ينظرُ

---

(١) رواه البخاري (١٤٣) دون قوله : « وعلمه التأويل » ، وبتمامه عند أحمد في « المسند » (١/٢٦٦) .

(٢) رواه النسائي (٨/٢٣) بنحوه .

(٣) سورة البقرة : (٢٦٩) .

(٤) قوت القلوب (١/١١٨) .

(٥) سورة الأنبياء : (٧٩) .

(٦) قوت القلوب (١/١١٨) .

(٧) قوت القلوب (١/١١٨) .

(٨) قوت القلوب (١/١١٨) ، وقال : (أي : كأنه سحر في نفاذه وصحة وقوعه) .

بنورِ اللهِ تعالىٰ »[1] ، وإليهِ يشيرُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾[2] ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[3] .

وروى الحسنُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « العلمُ علمانِ ، فعلمٌ باطنٌ في القلبِ فذٰلكَ هوَ العلمُ النّافعُ »[4] .

وسُئِل بَعضُ العلماءِ عنِ العلمِ الباطنِ ما هوَ ؟ فقالَ : (هوَ سرٌّ مِنْ أسرارِ اللهِ تعالىٰ يقذفُهُ في قلوبِ أحبابِهِ ، لمْ يُطلعْ عليهِ ملكاً ولا بشراً)[5] .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مِنْ أمَّتي محدَّثينَ ومكلَّمينَ ، وإنَّ عمرَ منهُمْ »[6] .

وقرأَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (وما أرسلنا مِنْ قبلِكَ مِنْ رسولٍ ولا نبيٍّ ولا محدَّثٍ) يعني : الصدِّيقينَ ، والمحدَّثُ هوَ الملهَمُ ، والملهَمُ هوَ الذي انكشفَ لهُ في باطنِ قلبِهِ مِنْ جهةِ الداخلِ[7] ، لا مِنْ جهةِ المحسوساتِ الخارجةِ .

---

(١) رواه الترمذي (٣١٢٧) .
(٢) سورة الحجر : (٧٥) . (٣) سورة البقرة : (١١٨) .
(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٥٠٢) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٥٠) .
(٥) قوت القلوب (١/١٢٠) .
(٦) رواه البخاري (٣٤٦٩) ، ومسلم (٢٣٩٨) ، واللفظ هنا عند صاحب « القوت » (١/١٢١) .
(٧) الذي هو قلب القلب ، وفيه باب إلى الملكوت الأعلىٰ . « إتحاف » (٧/٢٥٩) .

والقرآنُ مصرِّحٌ بأنَّ التقوىٰ مفتاحُ الهدايةِ والكشفِ ، وذٰلكَ علمٌ مِنْ غيرِ تعلُّمٍ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾[1] خصَّصَها بهِمْ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[2] .

وكانَ أبو يزيدَ وغيرُهُ يقولُ : (ليسَ العالمُ الذي يحفظُ مِنْ كتابٍ ، فإذا نسيَ ما حفظَهُ . . صارَ جاهلاً ، إنَّما العالمُ الذي يأخذُ علمَهُ مِنْ ربِّهِ أيَّ وقتٍ شاءَ ، بلا حفظٍ ولا درسٍ)[3] .

وهٰذا هوَ العالمُ الربَّانيُّ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾[4] ، معَ أنَّ كلَّ علمٍ مِنْ لدنْهُ عزَّ وجلَّ ، ولٰكنَّ بعضَها بوسائطِ تعليمِ الخلقِ ، فلا يُسمَّىٰ ذٰلكَ علماً لدنِّياً ، بلِ اللدنِّيُّ الذي ينفتحُ في سرِّ القلبِ مِنْ غيرِ سببٍ مألوفٍ مِنْ خارجٍ .

فهٰذهِ شواهدُ النقلِ ، ولوْ جُمِعَ كلُّ ما وردَ فيهِ مِنَ الآياتِ والأخبارِ والآثارِ . . لخرجَ عنِ الحصرِ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا مشاهدةُ ذٰلكَ بالتجارِبِ : فذٰلكَ أيضاً خارجٌ عنِ الحصرِ ، وظهرَ ذٰلكَ على الصحابةِ والتابعينَ ومَنْ بعدَهُمْ .

---

(١) سورة يونس ﷺ : (٦) .

(٢) سورة آل عمران : (١٣٨) .

(٣) قوت القلوب (١/١٢١) .

(٤) سورة الكهف : (٦٥) .

قالَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها عندَ موتِهِ : (إنَّما هما أخواكِ وأختاكِ) ، وكانَتْ زوجتُهُ حاملاً ، فولدَتْ بنتاً ، فكانَ قدْ عرفَ قبلَ الولادةِ أنَّها بنتٌ [1] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ في أثناءِ خطبتِهِ : (يا ساريةُ ؛ الجبلَ الجبلَ) إذِ انكشفَ لهُ أنَّ العدوَّ قدْ أشرفَ عليهِ ، فحذَّرَهُ بمعرفتِهِ ذٰلكَ [2] ، ثمَّ بلوغُ صوتِهِ إليهِ مِنْ جملةِ الكراماتِ العظيمةِ .

وعنْ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : دخلتُ علىٰ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ وكنتُ قدْ لقيتُ امرأةً في طريقي ، فنظرتُ إليها شزراً ، وتأمَّلْتُ محاسنَها ، فقالَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ لما دخلتُ : يدخلُ عليَّ أحدُكُمْ وآثارُ الزنا ظاهرةٌ علىٰ عينيهِ ؟! أما علمتَ علىٰ أنَّ زنا العينينِ النظرُ ؟! لتتوبنَّ أوْ لأعزِّرنَّكَ ، فقلتُ : أوحيٌ بعدَ النبيِّ

---

(١) رواه مالك في « الموطأ » (٢/٧٥٢) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : إن أبا بكر الصديق كان نحلَها جادَّ ـ أي : مجدود بمعنىٰ مقطوع ـ عشرين وسقاً من ماله بالغابة ، فلما حضرته الوفاة . . قال : والله يا بنيَّة ؛ ما من الناس أحد أحب إلي غنىً بعدي منك ، ولا أعز علي فقراً بعدي منك ، وإني كنت نحلتك جادَّ عشرين وسقاً ، فلو كنت جددتيه واحتزتيه . . كان لك ، وإنما هو اليوم مال وارث ، وإنما هما أخواك وأختاك ، فاقتسموه علىٰ كتاب الله ، قالت عائشة : فقلت : يا أبتِ ؛ والله لو كان كذا وكذا . . لتركته ، إنما هي أسماء ، فمن الأخرىٰ ؟ فقال أبو بكر : ذو بطن بنت خارجة ، أُراها جاريةً . فكانت كما قال رضي الله تعالىٰ عنه ، وولدت له أم كلثوم .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٩٨) ، والبيهقي في « الاعتقاد » (ص ٤٣٠) ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٧/٢٦٠) : (وقد أفرد لطرقه القطب الحلبي الحافظ جزءاً) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟! فقالَ : لا ، ولـٰكنْ تبصرةٌ وبرهانٌ وفراسةٌ صادقةٌ (١) .

وعنْ أبي سعيدٍ الخرَّازِ قالَ : دخلتُ المسجدَ الحرامَ ، فرأيتُ فقيراً عليهِ خرقتانِ ، فقلتُ في نفسي : هـٰذا وأشباهُهُ كَلٌّ على الناسِ ، فناداني وقالَ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ (٢) ، فاستغفرتُ اللهَ في سرِّي ، فناداني وقالَ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ (٣) ، ثمَّ غابَ عنِّي فلمْ أرَهُ (٤) .

وقالَ زكريا بنُ دِلُّويهِ : دخلَ أبو العباسِ بنُ مسروقٍ علىٰ أبي الفضلِ الهاشميِّ وهوَ عليلٌ ، وكانَ ذا عيالٍ ، ولمْ يُعرفْ لهُ سببٌ يعيشُ بهِ ، قالَ : فلما قمتُ . . قلتُ في نفسي : مِنْ أينَ يأكلُ هـٰذا الرجلُ ؟ قالَ : فصاحَ بي : يا أبا العباسِ ؛ رُدَّ هـٰذهِ الهمَّةَ الدنيَّةَ ؛ فإنَّ للهِ تعالىٰ ألطافاً خفيَّةً (٥) .

وقالَ أحمدُ النقيبُ : دخلتُ على الشبليِّ ، فقالَ مفتوناً : يا أحمدُ ؛ فقلتُ : ما الخبرُ ؟ قالَ : كنتُ جالساً ، فجرىٰ بخاطري : إنَّكَ بخيلٌ (٦) ، فقلتُ : ما أنا ببخيلٍ ، فقاوَمَني خاطري وقالَ : بلىٰ ،

---

(١) الرسالة القشيرية (ص ٤٠٥) .

(٢) سورة البقرة : (٢٣٥) .

(٣) سورة الشورىٰ : (٢٥) .

(٤) الرسالة القشيرية (ص ٤٠٥) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١٦٤) .

(٦) عنى الشبلي نفسه ، لا مخاطبه .

أنتَ بخيلٌ ، فقلتُ : ما فُتحَ اليومَ عليَّ بشيءٍ إلا دفعتُهُ إلىٰ أوَّلِ فقيرٍ يلقاني ، قالَ : فما استتمَّ الخاطرُ حتَّىٰ دخلَ عليَّ صاحبٌ لمؤنسٍ الخادمِ ومعَهُ خمسونَ ديناراً ، فقالَ : اجعلْها في مصالِحِكَ ، قالَ : فقمتُ فأخذتُها وخرجتُ ، وإذا بفقيرٍ مكفوفٍ بينَ يدي مزيِّنٍ يحلقُ رأسَهُ ، فتقدمتُ إليهِ وناولتُهُ الدنانيرَ ، فقالَ : أعطِها المزيِّنَ ، فقلتُ : إنَّها دنانيرُ !! فقالَ : أوَليسَ قدْ قلنا لكَ : إنَّكَ بخيلٌ ؟! قالَ : فناولتُها المزيِّنَ ، فقالَ المزيِّنُ : قدْ عقدْنا لما جلسَ هٰذا الفقيرُ بينَ أيدينا ألا نأخذَ عليهِ أجراً ، قالَ : فرميتُ بها في دجلةَ ، وقلتُ : ما أعزَّكِ أحدٌ إلا أذلَّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ (١) .

وقالَ حمزةُ بنُ عبدِ اللهِ العلويُّ : دخلتُ علىٰ أبي الخيرِ التِّيناتيِّ ، واعتقدتُ في نفسي أنْ أسلِّمَ عليهِ ولا آكلَ في دارِهِ طعاماً ، فلمَّا خرجتُ مِنْ عندِهِ . . إذا بهِ قدْ لحقَني وقدْ حملَ طبقاً فيهِ طعامٌ وقالَ : يا فتىٰ ، كُلْ ؛ فقدْ خرجتَ الساعةَ منِ اعتقادِكَ . وكانَ أبو الخيرِ التيناتيُّ هٰذا مشهوراً بالكراماتِ (٢) .

وقالَ إبراهيمُ الرَّقِّيُّ : قصدتُهُ مسلِّماً عليهِ ، فحضرتْ صلاةُ المغربِ ، فلمْ يكدْ يقرأُ فاتحةَ الكتابِ مستوياً ، فقلتُ في نفسي :

---

(١) نقلها من بعد المصنف اليافعي في « الإرشاد والتطريز » (ص ١٠٩) ، وابن الملقن في « طبقات الأولياء » (ص ٢٠٨) ، وعن حكم إتلاف المال أورد الإمام أبو النصر الطوسي في « اللمع » (ص ٤٨٣) ، واليافعي في « الإرشاد » أجوبة عن ذلك .

(٢) رواه أبو النصر السراج في « اللمع » (ص ٣٩٢) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٥٧٣) .

ضاعَتْ سفرتي ، فلمَّا سلَّمَ . . خرجتُ إلى الطهارةِ ، فقصدَني سبعٌ ، فعدتُ إلىٰ أبي الخيرِ وقلتُ : قصدني سبعٌ ، فخرجَ وصاحَ بهِ وقالَ : ألمْ أقلْ لكَ : لا تتعرَّضْ لضيفاني ؟! فتنحَّى الأسدُ ، فتطهَّرتُ ، فلمَّا رجعتُ . . قالَ لي : اشتغلتُمْ بتقويمِ الظواهرِ فخفتمُ الأسدَ ، واشتغلنا بتقويمِ البواطنِ فخافَنا الأسدُ (١) .

وما حُكِيَ عنْ تفرُّسِ المشايخِ وإخبارِهِمْ عنِ اعتقاداتِ الناسِ وضمائرِهِمْ يخرجُ عنِ الحصرِ .

بلْ ما حُكِيَ عنهُمْ منْ مشاهدةِ الخضرِ عليهِ السلامُ ، والسؤالِ منهُ ، ومِنْ سماعِ صوتِ الهاتفِ ، ومِنْ فنونِ الكراماتِ . . خارجٌ عنِ الحصرِ ، والحكايةُ لا تنفعُ الجاحدَ ما لمْ يشاهدْ ذٰلكَ مِنْ نفسِهِ ، ومَنْ أنكرَ الأصلَ . . أنكرَ التفصيلَ .

❊ ❊ ❊

والدليلُ القاطعُ الذي لا يقدرُ أحدٌ علىٰ جحدِهِ أمرانِ :

أحدُهُما : عجائبُ الرؤيا الصادقةِ : فإنَّهُ ينكشفُ بها الغيبُ ، وإذا جازَ ذٰلكَ في النومِ . . فلا يستحيلُ أيضاً في اليقظةِ ، فلمْ يفارقِ النومُ اليقظةَ إلا في ركودِ الحواسِّ وعدمِ اشتغالِها بالمحسوساتِ ، فكمْ مِنْ مستيقظٍ غائصٍ لا يسمعُ ولا يبصرُ لاشتغالِهِ بنفسِهِ .

الثاني : إخبارُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الغيبِ وأمورِ

(١) الرسالة القشيرية (ص ٥٧٣) .

في المستقبلِ : كما اشتملَ علىٰ ذٰلكَ القرآنُ ، وإذا جازَ ذٰلكَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . جازَ لغيرِهِ ؛ إذِ النبيُّ عبارةٌ عنْ شخصٍ كُوشِفَ بحقائقِ الأمورِ ، وشُغِلَ بإصلاحِ الخلقِ ، فلا يستحيلُ أنْ يكونَ في الوجودِ شخصٌ مكاشَفٌ بالحقائقِ ، ولا يشتغلُ بإصلاحِ الخلقِ ، وهٰذا لا يسمَّىٰ نبيّاً ، بلْ يسمَّىٰ وليّاً ، فمَنْ آمنَ بالأنبياءِ ، وصدَّقَ بالرؤيا الصحيحةِ . . لزمَهُ ـ لا محالةَ ـ أنْ يقرَّ بأنَّ القلبَ لهُ بابانِ ؛ بابٌ إلىٰ خارجٍ ؛ وهوَ الحواسُّ ، وبابٌ إلى الملكوتِ مِنْ داخلِ القلبِ ؛ وهوَ بابُ الإلهامِ والنفثِ في الرُّوعِ والوحيِ ، فإذا أقرَّ بهما جميعاً . . لمْ يمكنْهُ أن يحصرَ العلومَ في التعلمِ ومباشرةِ الأسبابِ المألوفةِ ، بلْ يجوِّزُ أنْ تكونَ المجاهدةُ سبيلاً إليهِ .

فهٰذا ما ينبِّهُ علىٰ حقيقةِ ما ذكرناهُ مِنْ عجيبِ تردُّدِ القلبِ بينَ عالمِ الشهادةِ وعالمِ الملكوتِ .

وأمَّا السببُ في انكشافِ الأمورِ في المنامِ بالمثالِ المحوجِ إلى التعبيرِ ، وكذٰلكَ تمثُّلُ الملائكةِ للأنبياءِ والأولياءِ بصورٍ مختلفةٍ . . فذٰلكَ أيضاً مِنْ أسرارِ عجائبِ القلبِ ، ولا يليقُ ذٰلكَ إلا بعلمِ المكاشفةِ ، فلنقتصرْ علىٰ ما ذكرناهُ ، فإنَّهُ كافٍ للاستحثاثِ على المجاهدةِ وطلبِ الكَشْفِ منها .

وقدْ قالَ بعضُ المكاشفينَ : ظهرَ لي المَلَكُ ، فسألَني أنْ أمليَ عليهِ شيئاً مِنْ ذكري الخفيِّ عنْ مشاهدتي مِنَ التوحيدِ ، وقالَ : ما نكتبُ لكَ عملاً ، ونحنُ نحبُّ أنْ نصعدَ لكَ بعملٍ تتقرَّبُ بهِ

إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، فقلتُ : ألستُما تكتبانِ الفرائضَ ؟ قالا : بلىٰ ، قلتُ : فيكفيكُما ذٰلكَ[1] .

وهٰذهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ الكرامَ الكاتبينَ لا يطلعونَ علىٰ أسرارِ القلبِ ، وإنما يطلعونَ على الأعمالِ الظاهرةِ[2] .

وقالَ بعضُ العارفينَ : سألتُ بعضَ الأبدالِ عنْ مسألةٍ مِنْ مشاهدةِ اليقينِ ، فالتفتَ إلىٰ شمالِهِ فقالَ : ما تقولُ رحمَكَ اللهُ ؟ ثمَّ التفتَ إلىٰ يمينِهِ فقالَ : ما تقولُ رحمَكَ اللهُ ؟ ثمَّ أطرقَ إلىٰ صدرِهِ وقالَ : ما تقولُ رحمَكَ اللهُ ؟ ثمَّ أجابَ بأغربِ جوابٍ سمعتُهُ ، فسألتُهُ عنِ التفاتِهِ ، فقالَ : لمْ يكنْ عندي في المسألةِ علمٌ عتيدٌ[3] ، فسألتُ صاحبَ الشمالِ ، فقالَ : لا أدري ، فسألتُ صاحبَ اليمينَ وهوَ أعلمُ منهُ ، فقالَ : لا أدري ، فنظرتُ إلىٰ قلبي وسألتُهُ ، فحدَّثني بما أجبتُكَ ، فإذا هوَ أعلمُ منهما[4] .

وكأنَّ هٰذا هوَ معنىٰ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ في أمَّتي محدَّثينَ ، وإنَّ عمرَ منهُمْ »[5] .

---

(١) هٰكذا نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٧/٢٦٣) .

(٢) وقال بعض العارفين : بل يطلعون علىٰ بعض أعمال القلب بقرائن خارجة ، فإن المؤمن إذا ذكر الله في قلبه . . فاحت منه رائحة طيبة إلىٰ فمه ، فيشمونها الملائكة ، فيدركون بها إذا ذكر الله تعالىٰ ، فيكتبون ذٰلك في صحيفة حسناته . « إتحاف » (٧/٢٦٣) .

(٣) أي : جواب حاضر .

(٤) قوت القلوب (١/١٢٠) .

(٥) رواه البخاري (٣٤٦٩) ، ومسلم (٢٣٩٨) ، واللفظ عند صاحب « القوت » (١/١٢١) .

وفي الأثرِ : (أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : أيُّما عبدٍ اطلعتُ علىٰ قلبِهِ ، فرأيتُ الغالبَ عليهِ التمسُّكَ بذكري . . تولَّيتُ سياستَهُ ، وكنتُ جليسَهُ ، ومحادثَهُ وأنيسَهُ) .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمةُ اللهِ عليهِ : (القلبُ بمنزلةِ القبَّةِ المضروبةِ ، حولَها أبوابٌ مغلقةٌ ، فأيُّ بابٍ فُتِحَ لهُ عَملٌ فيهِ فقدْ ظهرَ انفتاحُ بابٍ مِنْ أبوابِ القلبِ إلىٰ جهةِ الملكوتِ والملأِ الأعلىٰ) .

وينفتحُ ذٰلكَ البابُ بالمجاهدةِ والورعِ ، والإعراضِ عنْ شهواتِ الدنيا ، ولذٰلكَ كتبَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ إلىٰ أمراءِ الأجنادِ : (احفظوا ما تسمعونَ مِنَ المطيعينَ ؛ فإنَّهُمْ تنجلي لهُمْ أمورٌ صادقةٌ)[١] .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (يدُ اللهِ علىٰ أفواهِ الحكماءِ ، لا ينطقونَ إلا بما هيّأَ اللهُ لهُمْ مِنَ الحقِّ)[٢] .

وقالَ آخرُ : (لوْ شئتُ . . لقلتُ : إنَّ اللهَ تعالىٰ يُطلِعُ الخاشعينَ علىٰ بعضِ سرِّهِ)[٣] .

❋ ❋ ❋

---

(١) قوت القلوب (١/١١٨) ، ونسب روايته السيوطي في « الدر المنثور » (٨/٣٢) لسعيد بن منصور في « سننه » .
(٢) قوت القلوب (١/١١٨) .
(٣) قوت القلوب (١/١١٨) .

بيان تسلط الشيطان على القلب بالوساوس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها

اعلمْ : أنَّ القلبَ كما ذكرناهُ في مثالِ قبةٍ مضروبةٍ لها أبوابٌ ، تنصبُّ إليهِ الأحوالُ مِنْ كلِّ بابٍ .

ومثالُهُ أيضاً مثالُ هدفٍ تنصبُّ إليهِ السهامُ مِنَ الجوانبِ .

أوْ هوَ مثالُ مرآةٍ منصوبةٍ تجتازُ عليها أصنافُ الصورِ المختلفةِ ، فتتراءىٰ فيها صورةٌ بعدَ صورةٍ ، ولا تخلو عنها .

أوْ مثالُ حوضٍ تنصَبُّ فيهِ مياهٌ مختلفةٌ مِنْ أنهارٍ مفتوحةٍ إليهِ ، وإنَّما مداخلُ هٰذهِ الآثارِ المتجدِّدةِ في القلبِ في كلِّ حالٍ إمَّا مِنَ الظاهرِ فالحواسُّ الخمسُ ، وإمَّا مِنَ الباطنِ فالخيالُ والشهوةُ والغضبُ والأخلاقُ المركَّبةُ في مزاجِ الإنسانِ ؛ فإنَّهُ إذا أدركَ بالحواسِّ شيئاً . . حصلَ منهُ أثرٌ في القلبِ ، وكذٰلكَ إذا هاجَتِ الشهوةُ مثلاً بسببِ كثرةِ الأكلِ ، أوْ بسببِ قوَّةٍ في المزاجِ . . حصلَ منها في القلبِ أثرٌ ، وإنْ كفَّ عنِ الإحساسِ . . فالخيالاتُ الحاصلةُ في النفسِ تبقىٰ ، وينتقلُ الخيالُ مِنْ شيءٍ إلىٰ شيءٍ ، وبحسبِ انتقالِ الخيالِ ينتقلُ القلبُ مِنْ حالٍ إلىٰ حالٍ آخر .

والمقصودُ : أنَّ القلبَ في التغيُّرِ والتأثُّرِ دائماً إنما هوَ مِنْ هٰذهِ الأسبابِ .

❀ ❀ ❀

وأخصُّ الآثارِ الحاصلةِ في القلبِ هيَ الخواطرُ ، وأعني بالخواطرِ : ما يعرضُ فيهِ مِنَ الأفكارِ والأذكارِ ، وأعني بهِ : إدراكاتِهِ علوماً إمَّا علىٰ سبيلِ التجدُّدِ ، وإمَّا علىٰ سبيلِ التذكُّرِ ؛ فإنَّها تُسمَّىٰ خواطرَ مِنْ حيثُ إنَّها تخطرُ بعدَ أنْ كانَ القلبُ غافلاً عنها .

والخواطرُ هيَ المحرِّكاتُ للإراداتِ ؛ فإنَّ النيَّةَ والعزمَ والإرادةَ إنَّما تكونُ بعدَ خُطورِ المنويّ بالبالِ لا محالةَ ، فمبدأُ الأفعالِ الخواطرُ ، ثمَّ الخاطرُ يحرِّكُ الرغبةَ ، والرغبةُ تحرِّكُ العزمَ ، والعزمُ يحركُ النيَّةَ ، والنيَّةُ تحرِّكُ الأعضاءَ .

والخواطرُ المحرِّكةُ للرغبةِ تنقسمُ :

إلىٰ ما يدعو إلى الشرِّ ؛ أعني : إلىٰ ما يضرُّ في العاقبةِ .

وإلىٰ ما يدعو إلى الخيرِ ؛ أعني : إلىٰ ما ينفعُ في الدارِ الآخرةِ .

فهما خاطرانِ مختلفانِ ، فافتقرا إلى اسمين مختلفين ، فالخاطرُ المحمودُ يُسمَّىٰ **إلـهاماً** ، والخاطرُ المذمومُ ـ أعني : الداعيَ إلى الشرِّ ـ يسمَّىٰ **وَسواساً** .

ثمَّ إنَّكَ تعلمُ أنَّ هـٰذهِ الخواطرَ حادثةٌ ، ثمَّ كلُّ حادثٍ فلا بدَّ لهُ مِنْ محدثٍ ، ومهما اختلفتِ الحوادثُ . . دلَّ ذٰلكَ على اختلافِ الأسبابِ .

هـٰذا ما عُرِفَ مِنْ سنَّةِ اللهِ تعالىٰ في ترتيبِ المسبَّباتِ على الأسبابِ ، فمهما استنارَتْ حيطانُ البيتِ بنورِ النارِ ، وأظلمَ سقفهُ

واسودَّ بالدخانِ . . علمتَ أنَّ سببَ السوادِ غيرُ سببِ الاستنارةِ ، وكذٰلكَ لأنوارِ القلبِ وظلمتِهِ سببانِ مختلفانِ ، فسببُ الخاطرِ الداعي إلى الخيرِ يُسمَّىٰ **مَلَكاً** ، وسببُ الخاطرِ الداعي إلى الشرِّ يُسمَّىٰ **شيطاناً** ، واللطفُ الذي بهِ يتهيَّأُ القلبُ لقبولِ إلـهامِ الخيرِ يُسمَّىٰ **توفيقاً** ، والذي بهِ يتهيَّأُ لقبولِ وسواسِ الشيطانِ يُسمَّىٰ **إغواءً وخِذلاناً** ؛ فإنَّ المعانيَ المختلفةَ تفتقرُ إلىٰ أسامٍ مختلفةٍ .

والملكُ : عبارةٌ عنْ خلْقٍ خلقَهُ اللهُ تعالىٰ ، شأنُهُ إفاضةُ الخيرِ ، وإفادةُ العلمِ ، وكشفُ الحقِّ ، والوعدُ بالخيرِ ، والأمرُ بالمعروفِ ، وقدْ خلقَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ وسخَّرَهُ لذٰلكَ .

والشيطانُ : عبارةٌ عنْ خلْقٍ شأنُهُ ضدُّ ذٰلكَ ، وهوَ الوعدُ بالشرِّ ، والأمرُ بالفحشاءِ ، والتخويفُ عندَ الهمِّ بالخيرِ بالفقرِ .

فالوسوسةُ في مقابلةِ الإلهامِ ، والشيطانُ في مقابلةِ الملكِ ، والتوفيقُ في مقابلةِ الخِذلانِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [١] ، فإنَّ الموجوداتِ كلَّها متقابلةٌ مزدوجةٌ إلا اللهَ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ فردٌ لا مقابلَ لهُ ، بلْ هوَ الواحدُ الحقُّ ، الخالقُ للأزواجِ كلِّها .

فالقلبُ متجاذبٌ بينَ الشيطانِ والملكِ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « في القلبِ لَمَّتانِ : لَمَّةٌ مِنَ الملكِ ؛ إيعادٌ بالخيرِ ، وتصديقٌ بالحقِّ ، فمَنْ وجدَ ذٰلكَ . . فليعلمْ أنَّهُ مِنَ اللهِ سبحانَهُ ، فليحمدِ اللهَ ،

---

(١) سورة الذاريات : (٤٩) .

ولَـمَّةٌ مِنَ العدوِّ ؛ إيعادٌ بالشرِّ ، وتكذيبٌ بالحقِّ ، ونهيٌ عنِ الخيرِ ، فمَنْ وجدَ ذٰلكَ . . فليستعذْ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ » ، ثمَّ تلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ . . . ﴾ الآيةَ [1] .

وقالَ الحسنُ : (إنَّما هما همَّانِ يجولانِ في القلبِ ، همٌّ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وهمٌّ مِنَ العدوِّ ، فرحمَ اللهُ عبداً وقفَ عندَ همِّهِ ، فما كانَ مِنَ اللهِ تعالىٰ . . أمضاهُ ، وما كانَ مِنْ عدوِّهِ . . جاهدَهُ) [2] .

ولتجاذبِ القلبِ بينَ هٰذينِ المسلَّطينِ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمٰنِ » [3] ، واللهُ يتعالىٰ عنْ أنْ يكونَ لهُ إصبعٌ مركَّبةٌ مِنْ لحمٍ وعظمٍ ودمٍ وعصبٍ ، منقسمةٌ بالأناملِ ، ولٰكنْ روحُ الإصبعِ سرعةُ التقليبِ ، والقدرةُ على التحريكِ والتغييرِ ، فإنَّكَ لا تريدُ إصبعَكَ لشخصِهِ ، بلْ لفعلِهِ في التقليبِ والترديدِ ، كما أنَّكَ تتعاطى الأفعالَ بأصابعِكَ ، واللهُ تعالىٰ إنما يفعلُ ما يفعلُهُ باستسخارِ المَلَكِ والشيطانِ ، وهما مسخَّرانِ بقدرتِهِ في تقليبِ القلوبِ ، كما أنَّ أصابعَكَ مسخَّرةٌ لكَ في تقليبِ الأجسامِ مثلاً .

والقلبُ بأصلِ الفطرةِ صالحٌ لقبولِ آثارِ المَلَكِ ولقبولِ آثارِ الشيطانِ

---

(١) سورة البقرة : (٢٦٨) ، والحديث رواه الترمذي (٢٩١٤) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (١٠٩٨٥) .

(٢) قوت القلوب (١/١١٣) .

(٣) رواه مسلم (٢٦٥٤) بنحوه .

صلاحاً متساوياً ، ليسَ يترجَّحُ أحدُهُما على الآخرِ ، وإنَّما يترجَّحُ أحدُ الجانبينِ باتباعِ الهوىٰ ، والإكبابِ على الشهواتِ ، أوِ الإعراضِ عنها ومخالفتِها .

فإنِ اتبعَ الإنسانُ مقتضى الشهوةِ والغضبِ . . ظهرَ تسلُّطُ الشيطانِ بواسطةِ الهوىٰ ، وصارَ القلبُ عُشَّ الشيطانِ ومعدنَهُ ؛ لأنَّ الهوىٰ هوَ مرعى الشيطانِ ومرتعُهُ ، وإنْ جاهدَ الشهواتِ ، ولمْ يسلِّطْها علىٰ نفسِهِ ، وتشبَّهَ بأخلاقِ الملائكةِ عليهِمُ السلامُ . . صارَ قلبُهُ مستقرَّ الملائكةِ ومهبطَهُمْ .

ولمَّا كانَ لا يخلو قلبٌ عنْ شهوةٍ وغضبٍ ، وحرصٍ وطمعٍ وطولِ أملٍ ، إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنْ صفاتِ البشريَّةِ المتشعِّبةِ عنِ الهوىٰ . . لا جرمَ لمْ يخلُ قلبٌ عنْ أنْ يكونَ للشيطانِ فيهِ جولانٌ بالوسوسةِ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما منكُمْ مِنْ أحدٍ إلا ولهُ شيطانٌ » ، قالوا : وأنتَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « وأنا ، إلا أنَّ اللهَ أعانَني عليهِ فأسلمُ ، فلا يأمرُ إلا بخيرٍ »(١) .

وإنَّما كانَ هٰذا لأنَّ الشيطانَ لا يتصرَّفُ إلا بواسطةِ الشهوةِ ، فمَنْ أعانَهُ اللهُ علىٰ شهوتِهِ حتَّىٰ صارَتْ لا تنبسطُ إلا حيثُ ينبغي وإلى الحدِّ الذي ينبغي . . فشهوتُهُ لا تدعو إلى الشرِّ ، فالشيطانُ المتدرِّعُ بها لا يأمرُ إلا بالخيرِ .

---

(١) رواه مسلم (٢٨١٤) .

ومهما غلبَ على القلبِ ذكرُ الدنيا بمقتضياتِ الهوىٰ . . وجدَ الشيطانُ مجالاً فوسوسَ ، ومهما انصرفَ القلبُ إلىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ . . ارتحلَ الشيطانُ وضاقَ مجالُهُ ، وأقبلَ المَلَكُ وألهمَ .

❀ ❀ ❀

والتطاردُ بينَ جندي الملائكةِ والشياطينِ في معركةِ القلبِ دائمٌ إلىٰ أنْ ينفتحَ القلبُ لأحدهِما ، فيستوطنُ ويستمكنُ ، ويكونُ اجتيازُ الثاني اختلاساً .

وأكثرُ القلوبِ قدْ فتحتْها جنودُ الشيطانِ وتملَّكتْها ، فامتلأَتْ بالوساوسِ الداعيةِ إلىٰ إيثارِ العاجلةِ واطِّراحِ الآخرةِ ، ومبدأُ استيلائِها اتباعُ الشهواتِ والهوىٰ ، ولا يمكنُ فتحُها بعدَ ذٰلكَ إلا بتخليةِ القلبِ عنْ قوتِ الشيطانِ ، وهوَ الهوىٰ والشهواتُ ، وعمارتِهِ بذكرِ اللهِ تعالى الذي هوَ مطرحُ أثرِ الملائكةِ .

قالَ جريرُ بنُ عبيدةَ العدويُّ : شكوتُ إلى العلاءِ بنِ زيادٍ ما أجدُ في صدري مِنَ الوسوسةِ ، فقالَ : إنَّما مثلُ ذٰلكَ مثلُ البيتِ الذي يمرُّ بِهِ اللصوصُ ، فإنْ كانَ فيهِ شيءٌ . . عالجوهُ ، وإلا . . مضوا وتركوهُ (١) .

يعني : أنَّ القلبَ الخاليَ عنِ الهوىٰ لا يدخلُهُ الشيطانُ ، ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ (٢) ، فكلُّ مَنِ اتبعَ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٢٤٥) .

(٢) سورة الحجر : (٤٢) .

الهوىٰ فهوَ عبدُ الهوىٰ لا عبدُ اللهِ ، ولذٰلكَ سلَّطَ اللهُ عليهِ الشيطانَ .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [١] إشارةً إلىٰ أنَّ مَنِ الهوىٰ إلـٰهُهُ ومعبودُهُ . . فهوَ عبدُ الهوىٰ لا عبدُ اللهِ .

وقـالَ عثمانُ بنُ أبي العاصِ للنبيِّ صـلَّى اللهُ عليهِ وسلَّـمَ : يا رسولَ اللهِ ؛ حالَ الشيطانُ بيني وبينَ صلاتي وقراءتي ، فقالَ : « ذٰلكَ شيطانٌ يُقالُ لهُ : خِنْزَبٌ ، فإذا أحسسْتَهُ . . فتعوَّذْ باللهِ منهُ واتفلْ عنْ يسارِكَ ثلاثاً » ، قالَ : ففعلتُ ذٰلكَ ، فأذهبَهُ اللهُ عنِّي [٢] .

وفي الخبرِ : « إنَّ للوضوءِ شيطاناً يقالُ لهُ : الولهانُ ، فاستعيذوا باللهِ منهُ » [٣] .

ولا يمحو وسوسةَ الشيطانِ مِنَ القلبِ إلا ذكرُ ما سوىٰ ما يوسوسُ بهِ ؛ لأنَّهُ إذا حضرَ في القلبِ ذكرُ شيءٍ . . انعدمَ منهُ ما كانَ فيهِ مِنْ قبلُ ، ولـٰكنْ كلُّ شيءٍ سوى اللهِ تعالىٰ وسوىٰ ما يتعلَّقُ بهِ فيجوزُ أيضاً أنْ يكونَ مجالاً للشيطانِ ، فذكرُ اللهِ هوَ الذي يُؤمنُ جانبُهُ ، ويُعلمُ أنَّهُ ليسَ للشيطانِ فيهِ مجالٌ ، فلا يعالجُ الشيءُ إلا بضدِّهِ ، وضدُّ جميعِ وساوسِ الشيطانِ ذكرُ اللهِ بالاستعاذةِ ، والتبرّي عنِ الحولِ والقوَّةِ ، وهوَ معنىٰ قولِكَ : (أعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ) .

---

(١) سورة الجاثية : (٢٣) .

(٢) رواه مسلم (٢٢٠٣) .

(٣) رواه الترمذي (٥٧) ، وابن ماجه (٤٢١) .

وذلكَ لا يقدرُ عليهِ إلا المتقونَ ، الذينَ الغالبُ عليهِمْ ذكرُ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّما الشيطانُ يطوفُ عليهِمْ في أوقاتِ الفلتاتِ علىٰ سبيلِ الخلسةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[1] .

وقالَ مجاهدٌ في معنىٰ قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾[2] قالَ : (هوَ منبسطٌ على القلبِ ، فإذا ذكرَ اللهَ تعالىٰ . . خنسَ وانقبضَ ، وإذا غفلَ . . انبسطَ علىٰ قلبِهِ)[3] .

فالتطاردُ بينَ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ووسوسةِ الشيطانِ كالتطاردِ بينَ النورِ والظلامِ ، وبينَ الليلِ والنهارِ[4] ، ولتضادِّهما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾[5] .

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الشيطانَ واضعٌ خطمَهُ علىٰ قلبِ ابنِ آدمَ ، فإنْ هوَ ذكرَ اللهَ تعالىٰ . . خنسَ ، وإنْ نسيَ ذكرَ اللهِ تعالىٰ . . التقمَ قلبَهُ »[6] .

---

(١) سورة الأعراف : (٢٠١) .

(٢) سورة الناس : (٤) .

(٣) رواه الطبري في « تفسيره » (١٥/٣٠/٤٥٥) ، والسياق في « القوت » (١/١١٣) .

(٤) فإذا جاء الليل . . ذهب النهار ، وبالعكس ، فمن الناس من يكون ليله أطول من نهاره ، وآخر بضده ، ومنهم من يكون زمنه نهاراً كله ، وآخر ضده . « إتحاف » (٧/٢٦٩) .

(٥) سورة المجادلة : (١٩) .

(٦) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٣٠١) ، وابن عدي في « الكامل » (٣/١٨٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٨٦) .

وقالَ ابنُ وضَّاحٍ في حديثٍ ذكرَهُ : (إذا بلغَ الرجلُ أربعينَ سنةً ولـمْ يتبْ . . مسحَ الشيطانُ وجهَهُ بيدِهِ وقالَ : بأبي وجهُ مَنْ لا يفلحُ)[1] .

وكما أنَّ الشهواتِ ممتزجةٌ بلحْمِ ابنِ آدمَ ودمِهِ . . فسلطنةُ الشيطانِ أيضاً ساريةٌ في لحمِهِ ودمِهِ ، ومحيطةٌ بالقلبِ مِنْ جوانبِهِ ، ولذٰلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الشيطانَ يجري منِ ابنِ آدمَ مجرى الدمِ ، فضيِّقوا مجاريَهُ بالجوعِ »[2] .

وذٰلكَ لأنَّ الجوعَ يكسرُ الشهوةَ ، ومَجرى الشيطانِ الشهواتُ ، ولأجلِ اكتنافِ الشهواتِ للقلبِ مِنْ جوانبِهِ قالَ اللهُ تعالىٰ إخباراً عنْ

---

(١) كذا حكاه من حديث ابن وضاح ابنُ عبد ربه في « العقد الفريد » (٣/١٨٥) ، وأنشد للبحتري :

فـإذا رأىٰ إبـليـسُ غـرَّةَ وجـهِـهِ حيَّا وقـالَ : فديتُ مَنْ لا يفلحُ

(٢) رواه البخاري (٢٠٣٨) ، ومسلم (٢١٧٤) دون زيـادة : « فضيقوا مجاريه بالجوع » ، قال الحافظ الزبيدي : (وأنا أظن أن هـٰذه الزيادة وقعت تفسيراً للحديث من بعض رواته ، فألحقها به من روىٰ عنه) . « إتحاف » (٤/١٩٤) ، ومعنى الزيادة صحيح كما لا يخفىٰ ؛ إذ الشبع مسلك ومدخل من مداخل الشيطان ، روىٰ أحمد في « الزهد » (٣٩٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٢٨) عن ثابت البناني قال : (بلغنا أن إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام ، فرأىٰ عليه معاليق من كل شيء ، فقال له : ما هـٰذه المعاليق التي أراها عليك ؟ قال : هـٰذه الشهوات التي أصيب بها بني آدم ، فقال له يحيىٰ عليه السلام : هل لي فيها شيء ؟ قال : لا ، قال : فهل تصيب مني شيئاً ؟ قال : ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة والذكر ، قال : هل غير ذا ؟ قال : لا ، قال : لا جرم !! والله لا أشبع أبداً) ، وأول خطيئة وسوس بها الشيطان لبني آدم لقمة .

إبليسَ : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ (١) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الشيطانَ قعدَ لابنِ آدمَ بأطرقِهِ ، فقعدَ لهُ بطريقِ الإسلامِ فقالَ : أتسلمُ وتذرُ دينَكَ ودينَ آبائِكَ ؟! فعصاهُ وأسلمَ ، ثمَّ قعدَ لهُ بطريقِ الهجرةِ فقالَ : أتهاجرُ فتدعُ أرضَكَ وسماءَكَ ؟! فعصاهُ وهاجرَ ، ثمَّ قعدَ له بطريقِ الجهادِ فقالَ : أتجاهدُ وهوَ جَهْدُ النفسِ والمالِ فتقاتلُ فتقتلُ فتنكحُ نساؤُكَ ويقسمُ مالُكَ ؟! فعصاهُ وجاهدَ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فمَنْ فعلَ ذٰلكَ فماتَ . . كانَ حقّاً على اللهِ أنْ يدخلَهُ الجنَّةَ » (٢) .

فذكرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ معنى الوسوسةِ ، وهيَ هٰذهِ الخواطرُ التي تخطرُ للمجاهدِ أنَّهُ يُقتلُ وتُنكحُ نساؤُهُ ، وغيرُ ذٰلكَ ممَّا يصرفُهُ عنِ الجهادِ ، وهٰذهِ الخواطرُ معلومةٌ ، فإذاً ؛ الوسواسُ معلومٌ بالمشاهدةِ ، وكلُّ خاطرٍ فلهُ سببٌ ، ويفتقرُ إلى اسمٍ يعرِّفُهُ ، فاسمُ سببِهِ الشيطانُ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ ينفكَّ عنهُ آدميٌّ ، وإنَّما يختلفونَ بعصيانِهِ ومتابعتِهِ ، ولذٰلكَ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ما مِنْ أحدٍ إلا ولهُ شيطانٌ » (٣) .

---

(١) سورة الأعراف : (١٦ ـ ١٧) .
(٢) رواه النسائي (٦/٢١) من حديث سبرة بن أبي فاكه رضي الله عنه مرفوعاً .
(٣) رواه مسلم (٢٨١٤) .

فقدِ اتضحَ بهٰذا النوعِ مِنَ الاستبصارِ معنى الوسوسةِ والإلهامِ ، والمَلَكِ والشيطانِ ، والتوفيقِ والخذلانِ .

❁ ❁ ❁

فبعدَ هٰذا ؛ نظرُ مَنْ ينظرُ في ذاتِ الشيطانِ ، وأنَّهُ جسمٌ لطيفٌ أوْ ليسَ بجسمٍ ، وإنْ كانَ جسماً فكيفَ يدخلُ بدنَ الإنسانِ ما هوَ جسمٌ . . فهٰذا الآنَ غيرُ محتاجٍ إليهِ في علمِ المعاملةِ ، بلْ مثالُ هٰذا الباحثِ عنْ هٰذا كمثالِ مَنْ دخلَتْ في ثيابِهِ حيَّةٌ وهوَ محتاجٌ إلىٰ إزالتِها ودفعِ ضررِها ، فاشتغلَ بالبحثِ عنْ لونِها وشكلِها ، وطولِها وعرضِها ، وذٰلكَ عينُ الجهلِ .

فمصادمةُ الخواطرِ الباعثةِ على الشرِّ قدْ عُلمَتْ ، ودلَّ ذٰلكَ علىٰ أنَّهُ عنْ سببٍ لا محالةَ ، وعُلمَ أنَّ الداعيَ إلى الشرِّ المحذورِ في المستقبلِ عدوٌّ ، فقدْ عُرفَ العدوُّ لا محالةَ ، فينبغي أنْ يُشتغلَ بمجاهدتِهِ ، وقد عرَّفَ اللهُ سبحانَهُ عداوتَهُ في مواضعَ كثيرةٍ مِنْ كتابِهِ ؛ ليُؤمنَ بهِ ويُحترزَ عنهُ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [1] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [2] .

---

(١) سورة فاطر : (٦) .

(٢) سورة يسٓ : (٦٠) .

فينبغي للعبدِ أنْ يشتغلَ بدفعِ العدوِّ عنْ نفسِهِ ، لا بالسؤالِ عنْ أصلِهِ ونسبِهِ ومسكنِهِ .

نعمْ ؛ ينبغي أنْ يسألَ عنْ سلاحِهِ ليدفعَهُ عنْ نفسِهِ ، وسلاحُ الشيطانِ الهوىٰ والشهواتُ ، وذٰلكَ كافٍ للعالمينَ [١] ، فأمَّا معرفةُ ذاتِهِ وصفاتِهِ وحقيقتِهِ ـ نعوذُ باللهِ منهُ ـ وحقيقةِ الملائكةِ . . فذٰلكَ ميدانُ العارفينَ المتغلغلينَ في علومِ المكاشفاتِ ، فلا يحتاجُ في علمِ المعاملةِ إلىٰ معرفتِهِ .

نعمْ ؛ ينبغي أنْ يعلمَ أنَّ الخواطرَ تنقسمُ إلىٰ ما يُعلمُ قطعاً أنَّهُ داعٍ إلى الشرِّ ، فلا يخفىٰ كونُهُ وسوسةً ، وإلىٰ ما يُعلمُ أنَّه داعٍ إلى الخيرِ ، فلا يشكُّ في كونِهِ إلْهاماً ، وإلىٰ ما يتردَّدُ فيهِ ، فلا يدري أنَّهُ مِنْ لَمةِ المَلَكِ ، أوْ مِنْ لَمةِ الشيطانِ ؟ فإنَّ مِنْ مكايدِ الشيطانِ أنْ يعرضَ الشرَّ في معرضِ الخيرِ ، والتمييزُ في ذٰلكَ غامضٌ ، وأكثرُ العبَّادِ بهِ يهلكونَ ؛ فإنَّ الشيطانَ لا يقدرُ علىٰ دعائِهِمْ إلى الشرِّ الصريحِ ، فيصوِّرُ الشرَّ بصورةِ الخيرِ ؛ كما يقولُ للعالمِ بطريقِ الوعظِ : أما تنظرُ إلى الخلْقِ وهُمْ موتىٰ مِنَ الجهلِ ، هلكىٰ مِنَ الغفلةِ ، قدْ أشرفوا على النارِ ؟! أمالكَ رحمةٌ علىٰ عبادِ اللهِ تنقذُهُمْ مِنَ المعاطبِ بنصحِكَ ووعظِكَ وقدْ أنعمَ اللهُ عليكَ بقلبٍ بصيرٍ ، ولسانٍ ذلقٍ ، ولهجةٍ مقبولةٍ ؟! فكيفَ تكفرُ نعمةَ اللهِ تعالىٰ ، وتتعرَّضُ لسخطِهِ ، وتسكتُ عنْ إشاعةِ العلمِ ، ودعوةِ الخلقِ إلى الصراطِ المستقيمِ ؟!

---

(١) في غير (ج ، د) : (العاملين) .

ولا يزالُ يقرِّرُ ذٰلكَ في نفسِهِ ، ويستجرُّهُ بلطيفِ الحيلِ ، إلىٰ أنْ يشتغلَ بوعْظِ الناسِ ، ثمَّ يدعوهُ بعدَ ذٰلكَ إلىٰ أنْ يتزيَّنَ لهُمْ ويتصنَّعَ بتحسينِ اللفظِ وإظهارِ الخيرِ ، ويقولُ لهُ : إنْ لمْ تفعلْ ذٰلكَ . . سقطَ وقعُ كلامِكَ مِنْ قلوبِهِمْ ، ولمْ يهتدوا إلى الحقِّ ، ولا يزالُ يقرِّرُ ذٰلكَ عندَهُ ، وهوَ في أثنائِهِ يؤكِّدُ فيهِ شوائبَ الرياءِ ، وقبولَ الخلقِ ، ولذَّةَ الجاهِ ، والتعزُّزَ بكثرةِ الأتباعِ والعلمِ ، والنظرَ إلى الخلقِ بعينِ الاحتقارِ ، فيستدرجُ المسكينَ بالنصحِ إلى الهلاكِ ، فيتكلَّمُ وهوَ يظنُّ أنَّ قصدَهُ الخيرُ ، وإنَّما قصدُهُ الجاهُ والقبولُ ، فيهلكُ بسببِ ذٰلكَ ، وهوَ يظنُّ أنَّهُ عندَ اللهِ بمكانٍ ، وهوَ مِنَ الذينَ قالَ فيهِمْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ ليؤيِّدُ هٰذا الدينَ بأقوامٍ لا خلاقَ لهُمْ »[1] ، و« إنَّ اللهَ ليؤيِّدُ هٰذا الدينَ بالرجلِ الفاجرِ »[2] .

ولذٰلكَ رُوِيَ أنَّ إبليسَ لعنَهُ اللهُ تمثَّلَ لعيسى ابنِ مريمَ عليهِ السلامُ فقالَ لهُ : قُلْ : لا إلٰهَ إلا اللهُ ، فقالَ : (كلمةُ حقٍّ ولا أقولُها بقولِكَ) ؛ لأنَّ لهُ تحتَ الخيرِ أيضاً تلبيساتٍ ، وتلبيساتُ الشيطانِ مِنْ هٰذا الجنسِ لا تتناهىٰ ، وبها يهلكُ العلماءُ ، والعبَّادُ والزهَّادُ ، والفقراءُ والأغنياءُ ، وأصنافُ الخلْقِ ممَّنْ يكرهونَ ظاهرَ الشرِّ ولا يرضونَ لأنفسِهِمُ الخوضَ في المعاصي المكشوفةِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٨٣٣) من حديث أنس رضي الله عنه .
(٢) رواه البخاري (٣٠٦٢) ، ومسلم (١١١) .

وسنذكرُ جملةً مِنَ مكايدِ الشيطانِ في كتابِ الغرورِ في آخرِ هٰذا الربعِ ، ولعلَّنا إنْ أمهلَ الزمانُ . . صنَّفنا فيهِ كتاباً على الخصوصِ ، نسمِّيهِ : « تلبيسَ إبليسَ » [1] ؛ فإنَّهُ قدِ انتشرَ الآنَ تلبيسُهُ في البلادِ والعبادِ ، لا سيَّما في المذاهبِ والاعتقاداتِ ، حتَّىٰ لمْ يبقَ مِنَ الخيراتِ إلا رسمُها ، كلُّ ذٰلكَ إذعاناً لتلبيساتِ الشيطانِ ومكايدِهِ .

فحقٌّ على العبدِ أنْ يقفَ عندَ كلِّ همٍّ يخطرُ لهُ ؛ ليعلمَ أنَّهُ مِنْ لمَّةِ المَلَكِ أوْ لمَّةِ الشيطانِ ، وأنْ يمعنَ النظرَ فيهِ بعينِ البصيرةِ ، لا بهوىً مِنَ الطبعِ ، ولا يُطلعُ عليهِ إلا بنورِ التقوىٰ والبصيرةِ وغزارةِ العلمِ ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ ﴾ أيْ : رجعوا إلىٰ نورِ العلمِ ، ﴿ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [2] أيْ : ينكشف لهُمُ الإشكالُ ، فأمَّا مَنْ لمْ يَرُضْ نفسَهُ بالتقوىٰ . .

---

(١) وهل صنف الإمام هٰذا الكتاب ؟ فقد ذكره ابن السبكي في « طبقات الشافعية » (٢٢٧/٦) سرداً ، وكذا الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٤١/١) وغالب نقله عن ابن السبكي ، ولم يذكرا أنهما وقفا عليه أو حققا القول في نسبته له ، وفي كتاب « منهاج العابدين » (ص ٨٧) المنسوب للمصنف : (وقد صنَّفنا كتاباً سميناه « تلبيس إبليس ») ، وهٰذا نص في كونه رحمه الله تعالىٰ صنَّف هٰذا الكتاب ، ولٰكن « منهاج العابدين » كتاب نسب إلىٰ غير المصنف ، ونقل الزبيدي في « الإتحاف » (٤٣/١) عن بعض العارفين أنه للشيخ علي بن خليل السبتي ، وإنما عزي للإمام الغزالي لما فيه من المحاكاة لأسلوبه ولكثير من كلامه واستشهاداته وطريقته في التصنيف ، ومع هٰذا لا يمكن الجزم بنفي أو إثبات . ولولا أن المصنف هنا ذكر كتاب الغرور الذي هو قطعة من « إحياء علوم الدين » . . لاتجه القول بأن « التلبيس » هو كتاب الغرور نفسه ، هٰذا وقد صنف ابن الجوزي مقتنصاً هٰذا العنوان كتاباً بهٰذا الاسم ردَّ فيه على المصنف وكتابه « الإحياء » .

(٢) سورة الأعراف : (٢٠١) .

فيميلُ طبعُهُ إلى الإذعانِ لتلبيسِهِ بمتابعةِ الهوىٰ ، فيكثرُ فيهِ غلطُهُ ، ويتعجَّلُ بهِ هلاكَهُ وهوَ لا يشعرُ ، وفي مثلِهِمْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ (١) ، قيلَ : هيَ أعمالٌ ظنُّوها حسناتٍ ، فإذا هيَ سيِّئاتٌ (٢) .

❁ ❁ ❁

وأغمضُ أنواعِ علومِ المعاملةِ الوقوفُ علىٰ خدعِ النفسِ ومكايدِ الشيطانِ ، وذٰلكَ فرضُ عينٍ علىٰ كلِّ عبدٍ ، وقدْ أهملَهُ الخلْقُ ، واشتغلوا بعلومٍ تستجرُّ إليهِمُ الوسواسَ ، وتسلِّطُ عليهِمُ الشيطانَ ، وتنسيهِمْ عداوتَهُ وطريقَ الاحترازِ عنهُ .

ولا ينجي مِنْ كثرةِ الوسواسِ إلا سدُّ أبوابِ الخواطرِ ، وأبوابُها مِنْ خارجٍ الحواسُّ الخمسُ ، وأبوابُها مِنْ داخلٍ الشهواتُ وعلائقُ الدنيا ، والخلوةُ في بيتٍ مظلمٍ تسدُّ بابَ الحواسِّ ، والتجرُّدُ عنِ الأهلِ والمالِ يقلِّلُ مداخلَ الوسواسِ مِنَ الباطنِ ، ويبقىٰ معَ ذٰلكَ مداخلُ باطنةٌ من التخيُّلاتِ الجاريةِ في القلبِ ، وذٰلكَ لا يُدفعُ إلا بشغْلِ القلبِ بذكرِ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ إنَّهُ لا يزالُ يجاذبُ القلبَ وينازعُهُ ، ويلهيهِ عنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، فلا بدَّ مِنْ مجاهدتِهِ ، وهٰذهِ مجاهدةٌ لا آخرَ لها إلا الموتُ ؛ إذْ لا يتخلَّصُ أحدٌ مِنَ الشيطانِ ما دامَ حيّاً (٣) .

---

(١) سورة الزمر : (٤٧) .
(٢) روىٰ ذٰلك الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/٢٦٢) عن الفضيل بن عياض .
(٣) روىٰ أحمد في « المسند » (٣/٧٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ←

نعمْ ؛ قدْ يقوىٰ بحيثُ لا ينقادُ لهُ ، ويدفعُ عنْ نفسِهِ شرَّهُ بالجهادِ ، ولـٰكنْ لا يستغني قطُّ عنِ الجهادِ والمدافعةِ ما دامَ الدمُ يجري في بدنِهِ ، فإنَّهُ ما دامَ حيّاً . . فأبوابُ الشيطانِ مفتوحةٌ إلىٰ قلبِهِ لا تنغلقُ ، وهيَ الشهوةُ ، والغضبُ ، والحسدُ ، والطمعُ ، والشَّرَهُ وغيرُها كما سيأتي شرحُها ، ومهما كانَ البابُ مفتوحاً والعدوُّ غيرَ غافلٍ . . لمْ يُدفعْ إلا بالحراسةِ والمجاهدةِ .

قالَ رجلٌ للحسنِ : يا أبا سعيدٍ ؛ أينامُ الشيطانُ ؟ فتبسَّمَ وقالَ : لوْ نامَ . . لوجدنا عنهُ راحةً [(١)] .

فإذاً ؛ لا خلاصَ للمؤمنِ منهُ .

نعمْ ؛ لهُ سبيلٌ إلىٰ دفعِهِ وتضعيفِ قوَّتِهِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ المؤمنَ يُنْضي شيطانَهُ كما يُنْضي أحدُكُمْ بعيرَهُ في السفرِ » [(٢)] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (شيطانُ المؤمنِ مهزولٌ) [(٣)] .

وقالَ قيسُ بنُ الحجَّاجِ : قالَ لي شيطاني : دخلتُ فيكَ وأنا مثلُ

← مرفوعاً : « قال إبليس : أي ربِّ ؛ لا أزال أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، قال : فقال الربُّ عز وجل : لا أزال أغفر لهم ما استغفروني » .

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٤٤٠) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٢/٣٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، وينضي : يهزل ويضعف .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٩/١٥٦) بنحوه .

الجزورِ ، وأنا الآنَ مثلُ العصفورِ ، قلتُ : ولِمَ ذاك ؟ قالَ : تذيبُني بذكرِ اللهِ تعالىٰ [1] .

فأهلُ التقوىٰ لا يتعذَّرُ عليهِمْ سدُّ أبوابِ الشيطانِ ، وحفظُها بالحراسةِ ؛ أعني : الأبوابَ الظاهرةَ ، والطرقَ الجليَّةَ التي تفضي إلى المعاصي الظاهرةِ ، وإنَّما يتعثَّرونَ في طرقِهِ الغامضةِ ، فإنَّهُمْ لا يهتدونَ إليها فيحرسونَها ؛ كما أشرنا إليهِ في غرورِ العلماءِ والوعَّاظِ .

والمشكلُ أنَّ الأبوابَ المفتوحةَ إلى القلبِ للشيطانِ كثيرةٌ ، وبابُ الملائكةِ بابٌ واحدٌ ، وقدِ التبسَ ذٰلكَ البابُ الواحدُ بهٰذهِ الأبوابِ الكثيرةِ ، فالعبدُ فيها مثالُ المسافرِ الذي يبقىٰ في باديةٍ كثيرةِ الطرقِ ، غامضةِ المسالكِ ، في ليلةٍ مظلمةٍ ، فلا يكادُ يعلمُ الطريقَ إلا بعينٍ بصيرةٍ وطلوعِ شمسٍ مشرقةٍ ، والعينُ البصيرةُ ها هنا هي القلبُ المصفَّىٰ بالتقوىٰ ، والشمسُ المشرقةُ هي العلمُ الغزيرُ المستفادُ مِنْ كتابِ اللهِ تعالىٰ وسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فبهما يهتدي إلىٰ غوامضِ طرقِهِ ، وإلا . . فطرقُهُ كثيرةٌ وغامضةٌ [2] .

قالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : خطَّ لنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً خطّاً فقالَ : « هٰذا سبيلُ اللهِ » ، ثمَّ خطَّ خطوطاً عنْ يمينِ الخطِّ وعنْ شمالِهِ فقالَ : « هٰذهِ سبلٌ ، علىٰ كلِّ

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٧٦/٤٩) .

(٢) والمراد بالعلم هنا هو علم المعرفة المخصوص به المقربون . « إتحاف » (٢٧٣/٧) .

سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليهِ » ، ثمَّ تلا : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ﴾ (١) يعني : تلكَ الخطوطَ ، فبيَّنَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كثرةَ طرقِهِ (٢) .

وقدْ ذكرنا مثالاً للطريقِ الغامضِ مِنْ طرقِهِ ، وهوَ الذي يخدعُ بهِ العلماءَ والعبَّادَ المالكينَ لشهواتِهِمْ ، الكافِّينَ عنِ المعاصي الظاهرةِ ، فلنذكرْ مثالاً لطريقِهِ الواضحِ الذي لا يخفىٰ إلا أنْ يُضطرَّ الآدميُّ إلىٰ سلوكِهِ ، وذٰلكَ كما رُوِيَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « كانَ راهبٌ في بني إسرائيلَ ، فعمدَ الشيطانُ إلىٰ جاريةٍ فخنقَها ، وألقىٰ في قلوبِ أهلِها أنَّ دواءَها عندَ الراهبِ ، فأتوا بها إليهِ ، فأبىٰ أنْ يقبلَها ، فلم يزالوا بهِ حتَّىٰ قبلَها ، فلمَّا كانَتْ عندَهُ ليعالجَها . . أتاهُ الشيطانُ ، فزيَّنَ لهُ مقاربتَها ، فلمْ يزلْ بهِ حتَّىٰ واقعَها ، فحملَتْ منهُ ، فوسوسَ إليهِ وقالَ : الآنَ تفتضحُ ، يأتيكَ أهلُها ، فاقتلْها ، فإنْ سألوكَ . . فقلْ : ماتَتْ ، فقتلَها ودفنَها ، فأتى الشيطانُ أهلَها ، فوسوسَ إليهِمْ وألقىٰ في قلوبِهِمْ أنَّهُ أحبلَها ثمَّ قتلَها ودفنَها ، فأتاهُ أهلُها ، فسألوه عنها ، فقالَ : ماتَتْ ، فأخذوهُ ليقتلوهُ بها ، فأتاهُ الشيطانُ فقالَ : أنا الذي أخذتُها ، وأنا الذي ألقيتُ في قلوبِ أهلِها ، فأطعْني . . تنجُ وأخلِّصْكَ منهُمْ ، قالَ : بماذا ؟ قال : اسجدْ لي سجدتينِ ، فسجدَ لهُ سجدتينِ ، فقالَ لهُ الشيطانُ : إنِّي بريءٌ منكَ ، فهوَ الذي قالَ اللهُ

---

(١) سورة الأنعام : (١٥٣) .

(٢) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١١٠٩) .

تعالىٰ فيهِ : ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ ﴾ (١) .

فانظرِ الآنَ إلىٰ حيلِهِ واضطرارِهِ الراهبَ إلىٰ هٰذهِ الكبائرِ ، وكلُّ ذٰلكَ لطاعتِهِ لهُ في قبولِ الجاريةِ للمعالجةِ وهوَ أمرٌ هيِّنٌ ، وربما يظنُّ صاحبُهُ أنَّهُ خيرٌ وحسنةٌ ، فيحسنُ ذٰلكَ في قلبِهِ بخفيِّ الهوىٰ ، فيقدمُ عليهِ كالراغبِ في الخيرِ ، فيخرجُ الأمرُ بعدَ ذٰلكَ عنِ اختيارِهِ ، ويجرُّهُ البعضُ إلى البعضِ ، بحيثُ لا يجدُ محيصاً ، فنعوذُ باللهِ مِنْ تضييعِ أوائلِ الأمورِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ حامَ حولَ الحمىٰ . . يوشكُ أنْ يقعَ فيهِ » (٢) .

❋ ❋ ❋

---

(١) سورة الحشر : (١٦) ، والحديث رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » ، والطبري في « تفسيره » (١٤/٢٨/٦٢ ـ ٦٤) عن علي وعبد الله بن مسعود وابن عباس وطاووس ، والحاكم في « المستدرك » (٢/٤٨٤) عن علي رضي الله عنهم ، وأورد رواية مفصلة طويلة القرطبيُّ في « تفسيره » (١٨/٣٧) .

(٢) رواه البخاري (٥٠) ، ومسلم (١٥٩٩) .

بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب

اعلمْ : أنَّ مثالَ القلبِ مثالُ حصنٍ ، والشيطانُ عدوٌّ يريدُ أنْ يدخلَ الحصنَ ويملكَهُ ويستوليَ عليهِ ، ولا يُقدرُ علىٰ حفظِ الحصنِ مِنَ العدوِّ إلا بحراسةِ أبوابِ الحصنِ ومداخلِهِ ومواضعِ ثُلَمِهِ ، ولا يقدرُ علىٰ حراسةِ أبوابِهِ مَنْ لا يعرفُ أبوابَهُ .

وحمايةُ القلبِ مِنْ وسواسِ الشيطانِ واجبةٌ ، وهوَ فرضُ عينٍ علىٰ كلِّ عبدٍ مكلَّفٍ ، وما لا يُتوصَّلُ إلى الواجبِ إلا بِهِ . . فهوَ أيضاً واجبٌ ، ولا يُتوصَّلُ إلىٰ دفعِ الشيطانِ إلا بمعرفةِ مداخلِهِ ، فصارَتْ معرفةُ مداخلِهِ واجبةً .

ومداخلُ الشيطانِ وأبوابُهُ صفاتُ العبدِ ، وهيَ كثيرةٌ ، ولـٰكنَّا نشيرُ إلى الأبوابِ العظيمةِ الجاريةِ مَجرى الدروبِ التي لا تضيقُ عنْ كثرةِ جنودِ الشيطانِ .

❊ ❊ ❊

فمِنْ أبوابِهِ العظيمةِ : الغضبُ والشهوةُ :

فإنَّ الغضبَ هوَ غولُ العقلِ ، فإذا ضعفَ جندُ العقلِ . . هجمَ جندُ الشيطانِ ، ومهما غضبَ الإنسانُ . . لعبَ الشيطانُ بِهِ كما يلعبُ الصبيُّ بالكرةِ .

فقدْ رُوِيَ أنَّ إبليسَ لقيَ موسىٰ عليهِ السلامُ ، فقالَ لهُ : يا موسىٰ ؛

أنتَ الذي اصطفاكَ اللهُ برسالتِهِ ، وكلَّمَك تكليماً ، وأنا خلقٌ مِنْ خلْقِ اللهِ أذنبتُ ، وأنا أريدُ أنْ أتوبَ ، فاشفعْ لي إلىٰ ربِّي أنْ يتوبَ عليَّ ، فقالَ لهُ موسىٰ : نعمْ ، فلمَّا صعدَ موسى الجبلَ وكلَّمَ ربَّه عزَّ وجلَّ وأرادَ النزولَ . . قالَ لهُ ربُّهُ : أدِّ الأمانةَ ، فقالَ موسىٰ : يا ربِّ ؛ عبدُكَ إبليسُ يريدُ أنْ تتوبَ عليهِ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ : يا موسىٰ ؛ قدْ قضيتُ حاجتَكَ ، مرْهُ أنْ يسجدَ لقبرِ آدمَ حتَّىٰ يُتابَ عليهِ ، فلقيَ موسىٰ إبليسَ ، فقالَ لهُ : قدْ قضيتُ حاجتكَ ، أُمرتَ أنْ تسجدَ لقبرِ آدمَ حتَّىٰ يُتابَ عليكَ ، فغضبَ واستكبرَ ، وقالَ : لمْ أسجدْ لهُ حيّاً ، أأسجدُ لهُ ميتاً ؟! ثمَّ قالَ : يا موسىٰ ؛ إنَّ لكَ عليَّ حقّاً بما شفعتَ لي إلىٰ ربِّكَ ، فاذكرْني عندَ ثلاثٍ لا أهلكُكَ فيهنَّ : اذكرْني حينَ تغضبُ ؛ فإنَّ روحي في قلبِكَ ، وعيني في عينِكَ ، وأجري منكَ مَجرى الدمِ ، واذكرْني حينَ تلقى الزحفَ ؛ فإني آتي ابنَ آدمَ حينَ يلقى الزحفَ ، فأذكِّرُهُ زوجتَهُ وولدَهُ وأهلَهُ حتَّىٰ يولِّيَ ، وإيَّاكَ أنْ تجلسَ إلى امرأةٍ ليسَتْ بذاتِ محرمٍ ؛ فإنِّي رسولُها إليكَ ورسولُكَ إليها ، فلا أزالُ حتىٰ أفتنَكَ بها وأفتنَها بكَ (١) .

فقدْ أشارَ في هٰذا إلى الشهوةِ والغضبِ والحرْصِ ؛ فإنَّ الفرارَ مِنَ الزحفِ حرصٌ على الدنيا ، وامتناعُهُ مِنَ السجودِ لآدمَ ميتاً هوَ الحسدُ ، وهوَ مِنْ أعظمِ مداخلِهِ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (٤٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦١/١٢٧) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بنحوه .

وقدْ ذُكرَ أنَّ بعضَ الأولياءِ قالَ لإبليسَ : أرني كيفَ تغلبُ ابنَ آدمَ ، فقالَ : آخذُهُ عندَ الغضبِ وعندَ الهوىٰ [١] .

وحُكِيَ أنَّ إبليسَ ظهرَ لراهبٍ ، فقالَ لهُ الراهبُ : أيُّ أخلاقِ بني آدمَ أعونُ لكَ ؟ قالَ : الحدَّةُ ، فإنَّ العبدَ إذا كانَ حديداً . . قلَّبناهُ كما يقلِّبُ الصبيانُ الكرةَ [٢] .

وقيلَ : إنَّ الشيطانَ يقولُ : كيفَ يغلبُني ابنُ آدمَ وإذا رضيَ . . جئتُ حتَّىٰ أكونَ في قلبِهِ ، وإذا غضبَ . . طرتُ حتَّىٰ أكونَ في رأسِهِ ؟! [٣] .

❁ ❁ ❁

ومِنْ أبوابِهِ العظيمةِ : الحسدُ والحرْصُ :

فمهما كانَ العبدُ حريصاً علىٰ شيءٍ . . أعماهُ حرْصُهُ وأصمَّهُ ؛ إذْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حبُّكَ الشيءَ يعمي ويصمُّ » [٤] ، ونورُ البصيرةِ هوَ الذي يُعرِّفُ مداخلَ الشيطانِ ، فإذا غطَّاهُ الحسدُ والحرصُ . . لمْ يبصرْ ، فحينئذٍ يجدُ الشيطانُ فرصةً ، فيحسِّنُ عندَ الحريصِ كلَّ ما يوصلُهُ إلىٰ شهوتِهِ ، وإنْ كانَ منكراً وفاحشاً .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٧١) عن يزيد بن قسيط يحكيه عن بعض الأنبياء .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (٣٨) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٩٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/١١٧) .

(٤) رواه أبو داوود (٥١٣٠) .

فقدْ رُوِيَ أنَّ نوحاً عليهِ السلامُ لمَّا ركبَ السفينةَ . . حملَ فيها مِنْ كلِّ زوجينِ اثنينِ كما أمرَهُ اللهُ تعالىٰ ، فرأىٰ في السفينةِ شيخاً لمْ يعرفْهُ ، فقالَ لهُ نوحٌ : ما أدخلَكَ ؟ فقالَ : دخلتُ لأصيبَ قلوبَ أصحابِكَ ، فتكونَ قلوبُهُمْ معي وأبدانُهُمْ معكَ ، فقالَ لهُ نوحٌ : اخرجْ منها يا عدوَّ اللهِ ؛ فإنَّكَ رجيمٌ ، فقالَ لهُ إبليسُ : خمسٌ أهلكُ بهنَّ الناسَ ، وسأحدِّثُكَ منهنَّ بثلاثٍ ، ولا أحدِّثُكَ باثنتينِ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نوحٍ أنَّهُ لا حاجةَ بكَ إلى الثلاثِ فليحدثْكَ بالاثنتينِ ، فقالَ لهُ نوحٌ : ما الاثنتانِ ؟ فقالَ : هما اللتانِ لا تكذباني ، هما اللتانِ لا تخلفاني ، بهما أهلكُ الناسَ ؛ الحرصُ والحسدُ ، فبالحسدِ لُعنتُ ، وجُعلتُ شيطاناً رجيماً ، وأمَّا الحرصُ . . فإنَّهُ أُبيحَ لآدمَ الجنَّةُ كلُّها إلا الشجرةَ ، فأصبتُ حاجتي منهُ بالحرْصِ [1] .

❁ ❁ ❁

ومِنْ أبوابِهِ العظيمةِ : **الشبعُ مِنَ الطعامِ وإنْ كانَ حلالاً صافياً** : فإنَّ الشبعَ يقوِّي الشهواتِ ، والشهواتُ أسلحةُ الشيطانِ .

فقدْ رُوِيَ أنَّ إبليسَ ظهرَ ليحيى بنِ زكريا عليهما السلامُ ، فرأىٰ عليهِ معاليقَ مِنْ كلِّ شيءٍ ، فقالَ لهُ : يا إبليسُ ؛ ما هٰذهِ المعاليقُ ؟ قالَ : هٰذهِ الشهواتُ التي أصيبُ بها ابنَ آدمَ ، فقالَ : فهلْ لي فيها مِنْ شيءٍ ؟ قالَ : ربَّما شبِعتَ فثقلناكَ عنِ الصلاةِ وعنِ الذكرِ ، قالَ : فهلْ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (٤٤) ، وهو من حديث ابن عمر المتقدم قريباً .

غيرُ ذٰلكَ ؟ قالَ : لا ، قالَ : للهِ عليَّ ألا أملأَ بطني مِنْ طعامٍ أبداً ، فقالَ لهُ إبليسُ : وللهِ عليَّ ألا أنصحَ مسلماً أبداً[1] .

ويقالُ : في كثرةِ الأكلِ ستُّ خصالٍ مذمومةٍ :

أولُها : أنْ يذهبَ خوفُ اللهِ منْ قلبهِ .

والثاني : أنْ يذهبَ رحمةُ الخلقِ منْ قلبهِ ؛ لأنَّهُ يظنُّ أنَّهمْ كلُّهُمْ شِباعٌ .

والثالثُ : أنَّهُ يثقلُ عنِ الطاعةِ .

والرابعُ : أنَّهُ إذا سمعَ كلامَ الحكمةِ . . لا يجدُ لهُ رقّةً .

والخامسُ : أنَّهُ إذا تكلَّمَ بالموعظةِ والحكمةِ . . لا يقعُ في قلوبِ الناسِ .

والسادسُ : أنْ يهيجَ فيهِ الأمراضُ .

❊ ❊ ❊

ومِنْ أبوابِهِ : حبُّ التزيُّنِ بالأثاثِ والثيابِ والدارِ :

فإنَّ الشيطانَ إذا رأىٰ ذٰلكَ غالباً علىٰ قلبِ إنسانٍ . . باضَ فيهِ وفرَّخَ ، فلا يزالُ يدعوهُ إلىٰ عمارةِ الدارِ ، وتزيينِ سقوفِها وحيطانِها ، وتوسيعِ أبنيتِها ، ويدعوهُ إلى التزيُّنِ بالثيابِ والدوابِّ ، ويستسخرُهُ

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٣٩٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٢٩) عن ثابت البناني .

فيها طولَ عمرِهِ ، وإذا أوقعَهُ في ذٰلكَ . . فقدِ استغنىٰ أنْ يعودَ إليهِ ثانيةً ؛ فإنَّ بعضَ ذٰلكَ يجرُّهُ إلى البعضِ ، فلا يزالُ يؤدِّيهِ شيءٌ إلىٰ شيءٍ ، إلىٰ أنْ يُساقَ إليهِ أجلُهُ ، فيموتَ وهوَ في سبيلِ الشيطانِ واتباعِ الهوىٰ ، ويُخشىٰ مِنْ ذٰلكَ سوءُ العاقبةِ بالكفرِ ، نعوذُ باللهِ منهُ .

❁ ❁ ❁

ومِنْ أبوابِهِ العظيمةِ : الطمعُ في الناسِ :

فإذا غلبَ الطمعُ على القلبِ . . لمْ يزلِ الشيطانُ يحبِّبُ إليهِ التصنُّعَ والتزيُّنَ لمَنْ طمعَ فيهِ بأنواعِ الرياءِ والتلبيسِ ، حتَّىٰ يصيرَ المطموعُ فيهِ كأنَّهُ معبودُهُ ، فلا يزالُ يتفكَّرُ في حيلةِ التودُّدِ والتحبُّبِ إليهِ ، ويدخلُ كلَّ مدخلٍ للوصولِ إلىٰ ذٰلكَ .

وأقلُّ أحوالِهِ الثناءُ عليهِ بما ليسَ فيهِ ، والمداهنةُ لهُ بتركِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ ، فقدْ روىٰ صفوانُ بنُ سليمٍ : أنَّ إبليسَ تمثَّلَ لعبدِ اللهِ بنِ حنظلَة ، فقالَ لهُ : يا بنَ حنظلةَ ؛ احفظْ عنِّي شيئاً أعلِّمُكَهُ فقالَ : لا حاجةَ لي بهِ ، قالَ : انظرْ فإنْ كانَ خيراً . . أخذْتَ ، وإنْ كانَ شرّاً . . رددتَ ، يا بنَ حنظلةَ ؛ لا تسألْ أحداً غيرَ اللهِ سؤالَ رغبةٍ ، وانظرْ كيفَ تكونُ إذا غضبتَ ، فإنِّي أملكُكَ إذا غضبتَ (١) .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢٧/٢٧) .

ومِنْ أبوابِهِ العظيمةِ : العجلةُ وتركُ التثبُّتِ في الأمورِ :

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العجلةُ مِنَ الشيطانِ ، والتأنِّي مِنَ اللهِ تعالىٰ »[1] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾[2] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾[3] .

وقالَ لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾[4] .

وهٰذا لأنَّ الأعمالَ ينبغي أنْ تكونَ بعدَ التبصرةِ والمعرفةِ ، والتبصرةُ تحتاجُ إلىٰ تأمُّلٍ وتمهُّلٍ ، والعجلةُ تمنعُ مِنْ ذٰلكَ ، وعندَ الاستعجالِ يروِّجُ الشيطانُ شرَّهُ على الإنسانِ مِنْ حيثُ لا يدري .

فقدْ رُوِيَ أنَّهُ لمَّا وُلدَ عيسى ابنُ مريمَ عليهِ السلامُ . . أتتِ الشياطينُ إبليسَ ، فقالوا : أصبحتِ الأصنامُ قدْ نُكستْ رؤوسُها ، فقالَ : هٰذا حادثٌ قدْ حدثَ ، مكانَكُمْ ، فطارَ حتَّىٰ أتىٰ خافقي الأرضِ ، فلمْ يجدْ شيئاً ، ثمَّ وجدَ عيسىٰ عليهِ السلامُ قدْ وُلدَ ، وإذا الملائكةُ حافِّينَ بهِ ، فرجعَ إليهِمْ فقالَ : إنَّ نبيّاً قدْ وُلدَ البارحةَ ، ما حملتْ أنثىٰ قطُّ ولا وضعَتْ إلا وأنا بحضرتِها إلا هٰذا ، فأيِسُوا

---

(١) رواه الترمذي (٢٠١٢) ولفظه : « الأناة من الله ، والعجلة من الشيطان » .

(٢) سورة الأنبياء : (٣٧) .

(٣) سورة الإسراء : (١١) .

(٤) سورة طه : (١١٤) .

مِنْ أنْ تُعبدَ الأصنامُ بعدَ هٰذهِ الليلةِ ، ولٰكنِ ائتوا بني آدمَ مِنْ قبلِ العجلةِ والخفَّةِ [١] .

۞ ۞ ۞

ومِنْ أبوابِهِ العظيمةِ : الدراهمُ والدنانيرُ وسائرُ أصنافِ الأموالِ مِنَ العروضِ والدوابِّ والعقارِ :

فإنَّ كلَّ ما يزيدُ علىٰ قدْرِ القوتِ والحاجةِ فهوَ مستقرُّ الشيطانِ ؛ فإنَّ مَنْ معَهُ قوتُهُ فهوَ فارغُ القلبِ ، فلوْ وجدَ مئةَ دينارٍ مثلاً علىٰ طريقٍ . . انبعثَ مِنْ قلبهِ عشرُ شهواتٍ ، تحتاجُ كلُّ شهوةٍ منها إلىٰ مئةِ دينارٍ أخرىٰ ، فلا يكفيهِ ما وجدَهُ ، بلْ يحتاجُ إلىٰ تسعِ مئةٍ أخرىٰ ، وقدْ كانَ قبلَ وجودِ المئةِ مستغنياً ، فالآنَ لمَّا وجدَ مئةً . . ظنَّ أنَّهُ صارَ بها غنيّاً ، وقدْ صارَ محتاجاً إلىٰ تسعِ مئةٍ ليشتريَ داراً يعمرُها ، وليشتريَ جاريةً ، وليشتريَ أثاثَ البيتِ ، ويشتريَ الثيابَ الفاخرةَ ، وكلُّ شيءٍ مِنْ ذٰلكَ يستدعي شيئاً آخرَ يليقُ بهِ ، وذٰلكَ لا آخرَ لهُ ، فيقعُ في هاويةٍ آخرُها عمْقُ جهنَّمَ ، فلا آخرَ لها سواهُ .

قالَ ثابتٌ البنانيُّ : لمَّا بُعِثَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . قالَ إبليسُ لشياطينِهِ : لقدْ حدثَ أمرٌ ، فانظروا ما هوَ ، فانطلقوا حتىٰ

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٥٦/٤٧) عن وهب بن منبه ، وقد روى البخاري (٣٢٨٦) ، ومسلم (٢٣٦٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان ، فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه » ، ثم قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران : ٣٦] .

أعيَوا ثم جاؤوا وقالوا : ما ندري ، قالَ : أنا آتيكُمْ بالخبرِ ، فذهبَ ثمَّ جاءَ وقالَ : قدْ بعثَ اللهُ محمداً ، قالَ : فجعلَ يرسلُ شياطينَهُ إلىٰ أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فينصرفونَ خائبينَ ، ويقولونَ : ما صحبنا قوماً قطُّ مثلَ هـٰؤلاءِ ، نصيبُ منهُمْ ، ثمَّ يقومونَ إلىٰ صلاتِهِمْ فيُمحىٰ ذٰلكَ ، فقالَ لهُمْ إبليسُ : رويداً بهِمْ ، عسى اللهُ أنْ يفتحَ لهمُ الدنيا ، فهناكَ تصيبونَ حاجتَكم منهُمْ [1] .

ورُويَ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ توسَّدَ يوماً حجراً ، فمرَّ بهِ إبليسُ ، فقالَ : يا عيسىٰ ؛ رغبتَ في الدنيا ؟ فأخذَهُ عيسىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فرمىٰ بهِ مِنْ تحتِ رأسِهِ ، وقالَ : هـٰذا لكَ معَ الدنيا [2] .

وعلى الحقيقةِ : مَنْ يملكُ حجراً يتوسَّدُ بهِ عندَ النومِ . . فقدْ مَلَكَ مِنَ الدنيا ما يمكنُ أنْ يكونَ عدَّةً للشيطانِ عليهِ ؛ فإنَّ القائمَ بالليلِ مثلاً للصلاةِ مهما كانَ بالقربِ منهُ حجرٌ يمكنُ أنْ يتوسَّدَهُ . . فلا يزالُ يدعوهُ إلى النومِ وإلىٰ أنْ يتوسَّدَهُ ، ولوْ لمْ يكنْ ذٰلكَ . . لكانَ لا يخطرُ ببالِهِ ذٰلكَ ، ولا تتحرَّكُ رغبتُهُ في النومِ ، هـٰذا في حجرٍ ، فكيفَ بمَنْ يملكُ المخادَّ الوثيرةَ ، والفرشَ الوطيئةَ ، والمنتزهاتِ الطيِّبةَ ، فمتىٰ ينشطُ لعبادةِ اللهِ تعالىٰ ؟!

❊ ❊ ❊

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (٣٩) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٥٥٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١٦/٤٧) .

ومِنْ أبوابِهِ العظيمةِ : البخلُ وخوفُ الفقرِ :

فإنَّ ذٰلكَ هوَ الذي يمنعُ مِنَ الإنفاقِ والتصدُّقِ ، ويدعو إلى الادخارِ والكنْزِ والعذابِ الأليمِ ، الذي هوَ الموعودُ للمكاثرينَ كما نطقَ بهِ القرآنُ العزيزُ (١) .

قالَ خيثمةُ بنُ عبدِ الرحمٰنِ : (إنَّ الشيطانَ يقولُ : ما غلبَني عليهِ ابنُ آدمَ فلنْ يغلبَني على ثلاثٍ : أنْ آمرَهُ أنْ يأخذَ المالَ مِنْ غيرِ حقِّهِ ، وينفقَهُ في غيرِ حقِّهِ ، ويمنعَهُ مِنْ حقِّهِ) (٢) .

وقالَ سفيانُ : (ليسَ للشيطانِ سلاحٌ مثلَ خوفِ الفقرِ ، فإذا قبلَ ذٰلكَ منهُ . . أخذَ في الباطلِ ، ومنعَ مِنَ الحقِّ ، وتكلَّم بالهوىٰ ، وظنَّ بربِّهِ ظنَّ السوءِ) .

ومِنْ آفاتِ البخلِ : الحرصُ علىٰ ملازمةِ الأسواقِ لجمعِ المالِ ، والأسواقُ هيَ معشَّشُ الشياطينِ .

وروىٰ أبو أمامةَ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنَّ إبليسَ لمَّا نزلَ إلى الأرضِ . . قالَ : يا ربِّ ؛ أنزلتَني إلى الأرضِ ، وجعلتَني رجيماً ، فاجعلْ لي بيتاً ، قالَ : الحمَّامُ ، قالَ : اجعلْ لي مجلساً ، قالَ : الأسواقُ ومجامعُ الطرقِ ، قالَ : اجعلْ لي طعاماً ، قالَ : طعامُكَ ما لمْ يذكرِ اسمُ اللهِ عليهِ ، قالَ : اجعلْ لي شراباً ،

---

(١) قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : ٣٤] .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦١٦٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/١١٧) .

قالَ : كلُّ مسكرٍ ، قالَ : اجعلْ لي مؤذِّناً ، قالَ : المزاميرُ ، قالَ : اجعلْ لي قرآناً ، قالَ : الشعرُ ، قالَ : اجعلْ لي كتاباً ، قالَ : الوشمُ ، قالَ : اجعلْ لي حديثاً ، قالَ : الكذبُ ، قالَ : اجعلْ لي مصايدَ ، قالَ : النساءُ »[1] .

❀ ❀ ❀

ومِنْ أبوابِهِ العظيمةِ : التعصُّبُ للمذاهبِ والأهواءِ ، والحقدُ على الخصومِ ، والنظرُ إليهِمْ بعينِ الازدراءِ والاستحقارِ :

وذٰلكَ ممَّا يُهلكُ العبادَ والفسَّاقَ جميعاً ، فإنَّ الطعنَ في الناسِ والاشتغالَ بذكرِ نقصِهِمْ صفةٌ مجبولةٌ في الطبعِ مِنَ الصفاتِ السبعيَّةِ ، فإذا خيَّلَ إليهِ الشيطانُ أنَّ ذٰلكَ هوَ الحقُّ ، وكانَ موافقاً لطبعِهِ . . غلبَتْ حلاوتُهُ علىٰ قلبِهِ ، فاشتغلَ بهِ بكلِّ همَّتِهِ ، وهوَ بذٰلكَ فرحانُ مسرورٌ ، يظنُّ أنَّهُ يسعىٰ في الدينِ ، وهوَ ساعٍ في اتباعِ الشياطينِ ، فترى الواحدَ منهُمْ يتعصَّبُ لأبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ آكلُ الحرامَ ، ومطلقُ اللسانَ بالفضولِ والكذبِ ، ومتعاطٍ لأنواعِ الفسادِ ، ولوْ رآهُ أبو بكرٍ . . لكانَ هوَ أوَّلَ عدوٍّ لهُ ؛ إذْ مُوالي أبي بكرٍ مَنْ أخذَ سبيلَهُ ، وسارَ بسيرتِهِ ، وحفظَ ما بينَ لحييهِ[2] ، وكانَ مِنْ سيرتِهِ رضيَ اللهُ عنهُ أنْ يضعَ حصاةً في فمِهِ ليكفَّ لسانَهُ عنِ الكلامِ

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٠٧/٨) .

(٢) في غير (أ) : (ما أحبه) بدل (ما بين لحييه) ، وجرى الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢٨٠/٧) على المثبت .

فيما لا يعنيه [١] ، فأنَّىٰ لهٰذا الفضوليِّ أنْ يدعيَ ولاءَهُ وحبَّهُ ولا يسيرَ بسيرتِهِ ؟!

وترىٰ فضوليّاً آخرَ يتعصَّبُ لعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ ، وكانَ مِنْ زهدِ عليٍّ وسيرتِهِ أنَّهُ لبسَ في خلافتِهِ ثوباً اشتراهُ بثلاثةِ دراهمَ ، وقطعَ رأسَ الكمَّينِ إلى الرسغ [٢] ، فترى الفاسقَ لابساً لثيابِ الحريرِ ، ومتجمّلاً بأموالٍ اكتسبَها مِنْ حرامٍ وهوَ يتعاطىٰ حبَّ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ ويدعيهِ ، وهوَ أوَّلُ خصمائِهِ يومَ القيامةِ .

وليتَ شعري ؛ مَنْ أخذَ ولداً عزيزاً لإنسانٍ هوَ قرَّةُ عينِهِ وحياةُ قلبِهِ ، فأخذَ يضربُهُ ويمزِّقُهُ ، وينتفُ شعرَهُ ويقطعُهُ بالمقراضِ ، وهوَ معَ ذٰلكَ يدَّعي حبَّ أبيهِ وولاءَهُ ، فكيفَ تكونُ حالُهُ عندَهُ ؟!

ومعلومٌ أنَّ الدينَ والشرعَ كان أحبَّ إلىٰ أبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ وسائرِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ مِنَ الأهلِ والولدِ ، بلْ مِنْ أنفسِهِمْ ، والمقتحمونَ لمعاصي الشرعِ هُمُ الذينَ يمزِّقونَ الشرعَ ، ويقطِّعونَهُ بمقاريضِ الشهواتِ ، ويتودَّدونَ بهِ إلىٰ عدوِّ اللهِ إبليسَ

---

(١) روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٧٠٣١) : أن عمر دخل علىٰ أبي بكر وهو آخذ بلسانه هٰكذا يقول : ها إن ذا أوردني الموارد .

(٢) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١/٨٣) عن أبي سعيد الأزدي قال : رأيت علياً أتى السوق ، وقال : من عنده قميص صالح بثلاثة دراهم ؟ فقال رجل : عندي ، فجاء به ، فأعجبه ، قال : لعله خير من ذٰلك ؟ قال : لا ، ذاك ثمنه ، قال : فرأيت علياً يقرض رباط الدراهم من ثوبه ، فأعطاه ، فلبسه ، فإذا هو يفضل عن أطراف أصابعه ، فأمر به فقطع ما فضل عن أطراف أصابعه .

وعدوّ أوليائِهِ ، فترىٰ كيفَ يكونُ حالُهمْ يومَ القيامةِ عندَ الصحابةِ وعندَ أولياءِ اللهِ تعالىٰ ؟! بلْ لوْ كشفَ الغطاءُ ، وعرفَ هٰؤلاءِ ما تحبُّهُ الصحابةُ في أمَّةِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . لاستحيَوا مِنْ أنْ يجروا على اللسانِ ذكرَهُمْ معَ قبحِ أفعالِهِمْ .

ثمَّ إنَّ الشيطانَ يخيِّلُ إليهمْ أنَّ مَنْ ماتَ محبّاً لأبي بكرٍ وعمرَ رضيَ اللهُ عنهما . . فالنارُ لا تحومُ حولَهُ ، ويخيِّلُ إلى الآخرِ أنَّهُ إذا ماتَ محبّاً لعليٍّ . . لمْ يكنْ عليهِ خوفٌ ، وهٰذا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ لفاطمةَ رضيَ اللهُ عنها وهيَ بَضعةٌ منهُ : « اعملي ؛ فإنِّي لا أغني عنكِ مِنَ اللهِ شيئاً »[1] .

وهٰذا مثالٌ أوردناهُ مِنْ جملةِ الأهواءِ .

وهٰكذا حكمُ المتعصّبينَ للشافعيِّ وأبي حنيفةَ ومالكٍ وأحمدَ وغيرِهِمْ مِنَ الأئمَّةِ ، فكلُّ مَنِ ادعىٰ مذهبَ إمامٍ ، وهوَ ليسَ يسيرُ بسيرتِهِ . . فذٰلكَ الإمامُ هوَ خصمُهُ يومَ القيامةِ إذْ يقولُ لهُ : كانَ مذهبي العملَ دونَ الحديثِ باللسانِ ، وكانَ الحديثُ باللسانِ لأجلِ العملِ لا لأجلِ الهذيانِ ، فما بالُكَ خالفتَني في العملِ والسيرةِ التي هيَ مذهبي ومسلكي الذي سلكتُهُ وذهبتُ فيهِ إلى اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ ادعيتَ مذهبي كاذباً ؟!

وهٰذا مدخلٌ عظيمٌ مِنْ مداخلِ الشيطانِ ، قدْ أهلكَ بهِ أكثرَ

---

(١) رواه البخاري (٢٧٥٣) ، ومسلم (٢٠٦) ولفظ : (اعملي) عند البزار في « مسنده » (٢٩١٩) .

العالمِ ، وقدْ سُلِّمَتِ المدارسُ لأقوامٍ قلَّ مِنَ اللهِ خوفُهُمْ [١] ، وضعفَتْ في الدينِ بصيرتُهُمْ ، وقويَتْ في الدنيا رغبتُهُمْ ، واشتدَّ على الاستتباعِ حرصُهمْ ، ولمْ يتمكَّنوا مِنَ الاستتباعِ وإقامةِ الجاهِ إلا بالتعصُّبِ ، فحسَّنوا ذلكَ في صدورِهِمْ ، ولمْ ينبِّهوهُمْ علىٰ مكايدِ الشيطانِ فيهِ ، بلْ نابوا عنِ الشيطانِ في تنفيذِ مكيدتِهِ ، فاستمرَّ الناسُ عليهِ ، ونسوا مهمَّاتِ دينِهِمْ ، فقدْ هلكوا وأهلكوا ، فاللهُ تعالىٰ يتوبُ علينا وعليهِمْ .

قالَ الحسنُ : (بلغَنا أنَّ إبليسَ قالَ : سوَّلتُ لأمَّةِ محمدٍ المعاصيَ ، فقطعوا ظهري بالاستغفارِ ، فسوَّلتُ لهُمْ ذنوباً لا يستغفرونَ اللهَ تعالىٰ منها ، وهيَ الأهواءُ) [٢] ، وقدْ صدقَ الملعونُ ؛ فإنَّهُمْ لا يعلمونَ أنَّ ذلكَ مِنَ الأسبابِ التي تجرُّ إلى المعاصي ، فكيفَ يستغفرونَ منها ؟!

❁ ❁ ❁

ومِنْ عظيمِ حيلِ الشيطانِ : أنْ يشغلَ الإنسانَ عنْ نفسِهِ بالاختلافاتِ الواقعةِ بينَ الناسِ في المذاهبِ والخصوماتِ :

قالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ : (جلسَ قومٌ يذكرونَ اللهَ تعالىٰ ، فأتاهُمُ الشيطانُ ليقيمَهُمْ عنْ مجلسِهِمْ ويفرِّقَ بينَهُمْ ، فلم يستطعْ ، فأتىٰ رفقةً أخرىٰ يتحدَّثونَ بحديثِ الدنيا ، فأفسدَ بينَهُمْ ، فقاموا يقتتلونَ

---

(١) في غير (أ) : (المنابر) بدل (المدارس) .
(٢) رواه هناد في « الزهد » (٩٢٨) .

وليسَ إيَّاهُمْ يريدُ ، فقامَ الذينَ يذكرونَ اللّٰهَ تعالىٰ فاشتغلوا بهِمْ يفصلونَ بينَهُمْ ، فتفرَّقوا عنْ مجلسِهِمْ ، وذٰلكَ مرادُ الشيطانِ منهُمْ) .

❁ ❁ ❁

ومِنْ أبوابِهِ : **حمْلُ العوامِّ الذينَ لمْ يمارسوا العلمَ ولم يتبحَّروا فيهِ على التفكُّرِ في ذاتِ اللّٰهِ تعالىٰ وصفاتِهِ ، وفي أمورٍ لا يبلغُها حدُّ عقولِهِمْ :**

حتَّىٰ يشكِّكَهُمْ في أصلِ الدينِ ، أوْ يخيِّلَ إليهِمْ في اللّٰهِ تعالىٰ خيالاتٍ يتعالى اللّٰهُ عنها ، يصيرُ بها كافراً أوْ مبتدعاً ، وهوَ بهِ فرحٌ مسرورٌ مبتهجٌ بما وقعَ في صدرِهِ ، يظنُّ أن ذٰلكَ هوَ المعرفةُ والبصيرةُ ، وأنَّهُ انكشفَ لهُ ذٰلكَ بذكائِهِ وزيادةِ عقلِهِ .

فأشدُّ الناسِ حماقةً أقواهُمُ اعتقاداً في عقلِ نفسِهِ ، وأثبتُ الناسِ عقلاً أشدُّهُمُ اتهاماً لنفسِهِ ، وأكثرُهُمْ سؤالاً مِنَ العلماءِ .

قالَتْ عائشةُ رضيَ اللّٰهُ عنها : قالَ رسولُ اللّٰهِ صلَّى اللّٰهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الشيطانَ يأتي أحدَكُمْ فيقولُ : مَنْ خلقَكَ ؟ فيقولُ : اللّٰهُ تباركَ وتعالىٰ ، فيقولُ : فمَنْ خلقَ اللّٰهَ ؟ فإذا وجدَ أحدُكُمْ ذٰلكَ . . فليقلْ : آمنتُ باللّٰهِ ورسلِهِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يذهبُ عنهُ »[1] .

فالنبيُّ صلَّى اللّٰهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يأمرْ بالبحثِ في علاجِ هٰذا

(١) رواه أحمد في « المسند » (٦/٢٥٧) ، وابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (٢٨) ، وهو عند البخاري (٣٢٧٦) ، ومسلم (١٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الوسواسِ ؛ فإنَّ هٰذا وسواسٌ يجدُهُ عوامُّ الناسِ دونَ العلماءِ ، وإنَّما حقُّ العوامِّ أنْ يؤمنوا ويسلِّموا ويشتغلوا بعبادتِهِمْ ومعايشِهِمْ ، ويتركوا العلمَ للعلماءِ ، فالعامِّيُّ لوْ زنىٰ وسرق . . كانَ خيراً لهُ مِنْ أنْ يتكلَّمَ في العلمِ ؛ فإنَّهُ مَنْ تكلَّمَ في اللهِ وفي دينِهِ مِنْ غيرِ إتقانِ العلمِ . . وقعَ في الكفرِ مِنْ حيثُ لا يدري ؛ كمَنْ يركبُ لجَّةَ البحرِ وهوَ لا يعرفُ السباحةَ .

ومكايدُ الشيطانِ فيما يتعلَّقُ بالعقائدِ والمذاهبِ لا حصرَ لها ، وإنَّما أردنا بما أوردناهُ المثالَ .

❁ ❁ ❁

ومِنْ أبوابِهِ : سوءُ الظنِّ بالمسلمينَ :

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ ﴾ (١) ، فمَنْ يحكمْ بشرٍّ علىٰ غيرِهِ بالظنِّ . . بعثَهُ الشيطانُ علىٰ أنْ يطوِّلَ فيهِ اللسانَ بالغيبةِ فيهلِكَ ، أوْ يقصِّرَ في القيامِ بحقوقِهِ ، أوْ يتوانىٰ في إكرامِهِ ، أو ينظرَ إليهِ بعينِ الاحتقارِ ويرىٰ نفسَهُ خيراً منهُ ، وكلُّ ذٰلكَ مِنَ المهلكاتِ .

ولأجلِ ذٰلكَ منعَ الشرعُ مِنَ التعرُّضِ للتهمِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اتقوا مواضعَ التُّهمِ » (٢) .

---

(١) سورة الحجرات : (١٢) .

(٢) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٢٨٣/٧) ، وروى ابن عدي في « الكامل » (١٥٢/٧) عن عمر رضي الله عنه أنه وضع للناس حِكماً ، منها : (ومن ←

حتَّى احترزَ هوَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ ذٰلكَ .

رُويَ عنْ عليِّ بنِ الحسينِ : أنَّ صفيةَ بنتَ حييٍّ أخبرَتْهُ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ معتكفاً في المسجدِ ، قالَتْ : فأتيتُهُ فتحدثتُ عندَهُ ، فلمَّا أمسيتُ . . انصرفتُ ، فقامَ يمشي معي ، فمرَّ بهِ رجلانِ مِنَ الأنصارِ ، فسلَّما ثمَّ انصرفَا ، فناداهما وقالَ : « إنها صفيَّةُ بنتُ حييٍّ » ، فقالا : يا رسولَ اللهِ ؛ ما نظنُّ بكَ إلا خيراً ، فقالَ : « إنَّ الشيطانَ يجري منِ ابنِ آدمَ مَجرى الدمِ ، وإنِّي خشيتُ أنْ يدخِلَ عليكُما »[1] .

فانظرْ كيفَ أشفقَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ دينِهِما فحرسَهُما ، وكيفَ أشفقَ علىٰ أمَّتِهِ فعلَّمَهُمْ طريقَ الاحترازِ مِنَ التهمةِ ؛ حتَّىٰ لا يتساهلَ العالمُ الورعُ المعروفُ بالدينِ في أحوالِهِ فيقولَ : مثلي لا يُظنُّ بهِ إلا الخيرُ إعجاباً منهُ بنفسِهِ ؛ فإنَّ أورعَ الناسِ وأتقاهم وأعلمَهُمْ لا ينظرُ الناسُ كلُّهُمْ إليهِ بعينٍ واحدةٍ ، بلْ بعينِ الرضا بعضُهُمْ ، وبعينِ السخطِ بعضُهُمْ ؛ ولذٰلكَ قالَ الشاعرُ[2] : [من الطويل]

وَعَيْنُ الرِّضا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ ... وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَساوِيا

← عرَّض نفسه للتهم . . فلا يلومن من أساء به الظن) ، وروى الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٧٧) عنه أيضاً : (من أقام نفسه مقام التهمة . فلا يلومن من أساء به الظن) .

(١) رواه مسلم (٢١٧٥) .

(٢) البيت لعبد الله بن معاوية في « ديوانه » (ص ٩٠) ، وفي نسبته إليه خلاف ، انظر « ديوانه » (ص ٩٠ ـ ٩١) .

فيجبُ الاحترازُ عنْ عينِ السوءِ ، وعنْ تهمةِ الأشرارِ ؛ فإنَّ الأشرارَ لا يظنُّونَ بالناسِ كلِّهِمْ إلا الشرَّ ، فمهما رأيتَ إنساناً يسيءُ الظنَّ بالناسِ طالباً للعيوبِ . . فاعلمْ أنَّهُ خبيثٌ في الباطنِ ، وأنَّ ذٰلكَ خبثُهُ يترشَّحُ منهُ ، وإنَّما يرىٰ غيرَهُ مِنْ حيثُ هوَ ، فإنَّ المؤمنَ يطلبُ المعاذيرَ ، والمنافقَ يطلبُ العيوبَ ، والمؤمنُ سليمُ الصدرِ في حقِّ كافَّةِ الخلقِ .

فهٰذهِ بعضُ مداخلِ الشيطانِ إلى القلبِ ، ولوْ أردتُ استقصاءَ جميعِها . . لمْ أقدرْ عليهِ ، وفي هٰذا القدْرِ ما ينبِّهُ علىٰ غيرِهِ ، فليسَ في الآدميِّ صفةٌ مذمومةٌ إلا وهيَ سلاحُ الشيطانِ ، ومدخلٌ مِنْ مداخلِهِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما العلاجُ في دفعِ الشيطانِ ؟ وهلْ يكفي في ذٰلكَ ذكْرُ اللهِ تعالىٰ ، وقولُ الإنسانِ : لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ علاجَ القلبِ في ذٰلكَ سدُّ هٰذهِ المداخلِ بتطهيرِ القلبِ مِنْ هٰذهِ الصفاتِ المذمومةِ ، وذٰلكَ ممَّا يطولُ ذكرُهُ ، وغرضُنا في هٰذا الربعِ مِنَ الكتابِ بيانُ علاجِ الصفاتِ المهلكاتِ ، وتحتاجُ كلُّ صفةٍ إلىٰ كتابٍ مفردٍ علىٰ ما سيأتي شرحُهُ .

نعمْ ؛ إذا قُطعتْ مِنَ القلبِ أصولُ هٰذهِ الصفاتِ . . كانَ للشيطانِ بالقلبِ اجتيازاتٌ وخطراتٌ ، ولمْ يكنْ لهُ استقرارٌ ، ويمنعُهُ مِنَ الاجتيازِ ذكرُ اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ حقيقةَ الذكرِ لا تتمكَّنُ مِنَ القلبِ إلا

بعدَ عمارةِ القلبِ بالتقوىٰ ، وتطهيرِهِ مِنَ الصفاتِ المذمومةِ ، وإلا . . فيكونُ الذكرُ حديثَ نفسٍ ، لا سلطانَ لهُ على القلبِ ، فلا يدفعُ سلطانَ الشيطانِ ، ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[1] ، خصَّصَ بذٰلكَ المتقيَ .

فمثلُ الشيطانِ كمثلِ كلبٍ جائعٍ يقربُ منكَ ، فإن لمْ يكنْ بينَ يديكَ لحمٌ أو خبزٌ . . فإنَّه ينزجرُ بأنْ تقولَ له : اخسأْ ، فمجردُ الصوتِ يدفعُهُ ، فإنْ كانَ بينَ يديكَ لحمٌ وهوَ جائعٌ ، فإنَّهُ يهجمُ على اللحم ولا يندفعُ بمجردِّ الكلامِ ، فالقلبُ الخالي عنْ قوتِ الشيطانِ ينزجرُ عنهُ بمجرَّدِ الذكرِ ، فأمَّا الشهوةُ إذا غلبَتْ على القلبِ . . دفعَتْ حقيقةَ الذكرِ إلىٰ حواشي القلبِ ، ولمْ يتمكَّنْ مِنْ سويدائِهِ ، فيستقرُّ الشيطانُ في سويداءِ القلبِ .

وأمَّا قلوبُ المتقينَ الخاليةُ منَ الهوىٰ والصفاتِ المذمومةِ . . فإنَّهُ يطرقُها الشيطانُ لا للشهواتِ ، بلْ لخلوّها بالغفلةِ عنِ الذكرِ ، فإذا عادَ إلى الذكرِ . . خنسَ الشيطانُ ، ودليلُ ذٰلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[2] ، وسائرُ الأخبارِ والآياتِ الواردةِ في الذكرِ .

قالَ أبو هريرةَ : (التقىٰ شيطانُ المؤمنِ وشيطانُ الكافرِ ، فإذا

---

(١) سورة الأعراف : (٢٠١) .

(٢) سورة النحل : (٩٨) .

شيطانُ الكافرِ سمينٌ دهينٌ كاسٍ ، وشيطانُ المؤمنِ مهزولٌ أشعثُ أغبرُ عارٍ ، فقالَ شيطانُ الكافرِ لشيطانِ المؤمنِ : ما لكَ مهزولاً ؟ قالَ : أنا معَ رجلٍ إذا أكلَ . . سمَّى اللهَ ، فأظلُّ جائعاً ، وإذا شربَ . . سمَّى اللهَ ، فأظلُّ عطشاناً ، وإذا لبسَ . . سمَّى اللهَ ، فأظلُّ عرياناً ، وإذا ادَّهنَ . . سمَّى اللهَ ، فأظلُّ شعثاً ، فقالَ شيطانُ الكافرِ : لٰكنِّي معَ رجلٍ لا يفعلُ شيئاً مِنْ ذٰلكَ ، فأنا أشاركُهُ في طعامِهِ وشرابِهِ ولباسِهِ)[1] .

وكانَ محمدُ بنُ واسعٍ يقولُ كلَّ يومٍ بعدَ صلاةِ الصبحِ : (اللهمَّ ؛ إنَّكَ سلَّطتَ علينا عدوّاً بصيراً بعيوبنا[2] ، يرانا هوَ وقَبيلُهُ مِنْ حيثُ لا نراهُمْ ، اللهمَّ ؛ فآيسْهُ منَّا كما آيستَهُ مِنْ رحمتِكَ ، وقنطْهُ منَّا كما قنطتَهُ مِنْ عفوِكَ ، وباعدْ بيننا وبينَهُ كما باعدتَ بينَهُ وبينَ جنَّتِكَ ، إنَّكَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ) ، قالَ : فتمثَّلَ لهُ إبليسُ يوماً في طريقِ المسجدِ ، فقالَ لهُ : يا بنَ واسعٍ ؛ هلْ تعرفُني ؟ قالَ : ومَنْ أنتَ ؟ قالَ : أنا إبليسُ ، فقالَ : وما تريدُ ؟ قالَ : أريدُ ألا تعلِّمَ أحداً هٰذهِ الاستعاذةَ ولا أتعرَّضُ لكَ ، قالَ : واللهِ ، لا منعتُها ممَّنْ أرادَها ، فاصنعْ ما شئتَ .

وعنْ عبدِ الرحمٰنِ بنِ أبي ليلىٰ قالَ : كانَ شيطانٌ يأتي النبيَّ

---

(١) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١٩٥٦٠) ، والطبراني في « الكبير » (٩/١٥٦) ولٰكن من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) في (ب ، ج) زيادة : (مطلعاً علىٰ عوراتنا) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بيدِهِ شعلةٌ مِنْ نارٍ ، فيقومُ بينَ يديهِ وهوَ يصلِّي ، فيقرأُ ويتعوَّذُ فلا يذهبُ ، فأتاهُ جبريلُ عليهِ السلامُ فقالَ لهُ : قلْ : أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامَّاتِ التي لا يجاوزُهُنَّ برٌّ ولا فاجرٌ مِنْ شرِّ ما يلجُ في الأرضِ وما يخرجُ منها ، وما ينزلُ مِنَ السماءِ وما يعرجُ فيها ، ومِنْ فتنِ الليلِ والنهارِ ومنْ طوارقِ الليلِ والنهارِ ، إلا طارقاً يطرقُ بخيرٍ يا رحمانُ ، فقالَ ذٰلكَ ، فطفئَتْ شعلتُهُ وخرَّ علىٰ وجهِهِ [1] .

وقالَ الحسنُ : (نُبئتُ أنَّ جبريلَ عليهِ السلامُ أتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : إنَّ عفريتاً مِنَ الجنِّ يكيدُكَ ، فإذا أويتَ إلىٰ فراشِكَ . . فاقرأْ آيةَ الكرسيِّ) [2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لقدْ أتاني شيطانٌ فنازعَني ، ثمَّ نازعَني ، فأخذتُ بحلْقِهِ ، فوالذي بعثَني بالحقِّ ما أرسلتُهُ حتَّىٰ وجدتُ بردَ لسانِهِ علىٰ يدي ، ولولا دعوةُ أخي سليمانَ عليهِ السلامُ . . لأصبحَ طريحاً في المسجدِ حتىٰ ينظرَ الناسُ إليهِ » [3] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (٦٩) ، ورواه الطبراني في « الأوسط » (٤٣) عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلىٰ كذٰلك عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (٦٧) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٤٨٤) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا هٰكذا في « مكايد الشيطان » (٦٨) عن الشعبي مرسلاً ، ورواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٥٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما سلكَ عمرُ فجّاً إلا سلكَ الشيطانُ فجّاً غيرَ الذي سلكَهُ عمرُ »[1] ، وهذا لأنَّ القلوبَ كانَتْ مطهَّرةً عنْ مرعى الشيطانِ وقوتِهِ ، وهيَ الشهواتُ .

فمهما طمعتَ في أن يندفعَ الشيطانُ عنكَ بمجرَّدِ الذكرِ كما اندفعَ عنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ . . كانَ محالاً ، وكنتَ كمَنْ يطمعُ أنْ يشربَ دواءً قبلَ الاحتماءِ والمعدةُ مشحونةٌ بغليظِ الأطعمةِ ، ويطمعُ أنْ ينفعَهُ كما نفعَ الذي شربَهُ بعدَ الاحتماءِ وتخليةِ المعدةِ ، فالذكرُ الدواءُ ، والتقوى احتماءٌ ، وهيَ تخلِّي القلبِ عنِ الشهواتِ ، فإذا نزلَ الذكرُ قلباً فارغاً عنْ غيرِ الذكرِ . . اندفعَ الشيطانُ كما تندفعُ العلَّةُ بنزولِ الدواءِ في معدةٍ خاليةٍ عنِ الأطعمةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾[2] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[3] ، ومَنْ ساعدَ الشيطانَ بعملِهِ . . فهوَ مُواليهِ وإنْ ذكرَ اللهَ بلسانِهِ .

❁ ❁ ❁

وإنْ كنتَ تقولُ : (الحديثُ قدْ وردَ مطلقاً بأنَّ الذكرَ يطردُ الشيطانَ) ، ولم تفهمْ أنَّ أكثرَ عموماتِ الشرعِ مخصوصةٌ بشروطٍ نقلَها

---

(١) رواه البخاري (٣٢٩٤) ، ومسلم (٢٣٩٦) بنحوه .

(٢) سورة قٓ : (٣٧) .

(٣) سورة الحج : (٤) .

علماءُ الدينِ . . **فانظرْ** إلىٰ نفسِكَ ، فليسَ الخبرُ كالعيانِ ، وتأمَّلْ أنَّ منتهىٰ ذكرِكَ وعبادتِكَ الصلاةُ ، فراقبْ قلبَكَ إذا كنتَ في صلواتِكَ : كيفَ يجاذبُهُ الشيطانُ إلى الأسواقِ ، وحسابِ المعاملينَ ، وجوابِ المعاندينَ ، وكيفَ يمرُّ بكَ في أوديةِ الدنيا ومهالكِها ، حتَّىٰ إنَّكَ لا تذكرُ ما قدْ نسيتَهُ مِنْ فضولِ الدنيا إلا في صلاتِكَ ، ولا يزدحمُ الشيطانُ علىٰ قلبِكَ إلا إذا صلَّيتَ ، فالصلاةُ محكُّ القلوبِ ، فيها يظهرُ محاسنُها ومساويها ، والصلاةُ لا تُقبلُ مِنَ القلوبِ المشحونةِ بشهواتِ الدنيا ، فلا جرمَ لا ينطردُ عنكَ الشيطانُ ، بلْ ربَّما يزيدُ عليكَ الوسواسَ ، كما أنَّ الدواءَ قبلَ الاحتماءِ ربَّما يزيدُ عليكَ الضررَ .

فإنْ أردتَ الخلاصَ مِنَ الشيطانِ . . فقدِّمِ الاحتماءَ بالتقوىٰ ، ثمَّ أردفْهُ بدواءِ الذكرِ . . يفرُّ الشيطانُ منكَ كما فرَّ مِنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ [(١)] .

ولذٰلكَ قالَ وهبُ بنُ منبهٍ : (اتقِ اللهَ ، ولا تسبَّ الشيطانَ في العلانيةِ وأنتَ صديقُهُ في السرِّ) [(٢)] أيْ : أنتَ مطيعٌ لهُ .

---

(١) وهٰذا حال من انتهىٰ به سلوكه ، وأشرقت عليه أنوار التوفيق ، فلبس لأْمة الصدق ، وتحلىٰ بأسلحة العزل ، ودخل في حومة الحرب بين باعث الدين وداعي الهوىٰ ، فكانت الغلبة لداعي الدين ، وفرت جيوش الشياطين ، ولذا قال أبو حازم : ما الشيطان حتىٰ يهاب ؟! فوالله ؛ لقد أطيع فما نفع ، وعُصي فما ضرَّ ، وقال بعضهم : لولا أن الحق سبحانه أمرنا بالاستعاذة منه . . ما استعذت منه ؛ لحقارته ، وهٰذا شأن المتقين . « إتحاف » (٧/٢٨٧) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/١٥٤) عن وهيب بن الورد .

وقالَ بعضُهُمْ : (يا عجباً لِمَنْ يعصي المحسنَ بعدَ معرفتِهِ بإحسانِهِ ، ويطيعُ اللعينَ بعدَ معرفتِهِ بطغيانِهِ) .

وكما أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [1] فأنتَ تدعو ولا يستجيبُ لكَ . . فكذٰلكَ تذكرُ اللهَ ولا يهربُ الشيطانُ منكَ ؛ لفقدِ شروطِ الذكرِ والدعاءِ .

قيلَ لإبراهيمَ بنِ أدهمَ : ما بالُنا ندعو فلا يُستجابُ لنا وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ؟[2] قالَ : لأنَّ قلوبَكُمْ ميتةٌ ، قيلَ : وما الذي أماتَها ؟ قالَ : ثمانُ خصالٍ : عرفتُمُ اللهَ ولَمْ تقوموا بحقِّهِ ، وقرأتُمُ القرآنَ ولَمْ تعملوا بحدودِهِ ، وقلتُمْ : (نحبُّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ) ولَمْ تعملوا بسنَّتِهِ ، وقلتُمْ : (نخشى الموتَ) ولَمْ تستعدُّوا لهُ ، وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [3] فواطأتموهُ على المعاصي ، وقلتُمْ : (نخافُ النارَ) وأرهقتُمْ أبدانَكُمْ فيها ، وقلتُمْ : (نحب الجنَّةَ) ولم تعملوا لها ، وإذا قمتُمْ مِنْ فرشِكُمْ رميتُمْ عيوبَكُمْ وراءَ ظهورِكُمْ ، وافترشتُمْ عيوبَ الناسِ أمامَكُمْ ، فأسخطتُمْ ربَّكُمْ ، فكيفَ يستجيبُ لكُمْ ؟![4] .

❁ ❁ ❁

---

(١) سورة غافر : (٦٠) .

(٢) سورة غافر : (٦٠) .

(٣) سورة فاطر : (٦) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/١٥) ، وزاد ثنتين : (أكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها ، ودفنتم أمواتكم ولم تعتبروا بهم) .

فإنْ قلتَ : فالداعي إلى المعاصي المختلفةِ شيطانٌ واحدٌ أوْ شياطينُ مختلفونَ ؟

فاعلمْ : أنَّهُ لا حاجةَ لكَ إلىٰ معرفةِ ذٰلكَ في المعاملةِ ، فاشتغلْ بدفعِ العدوِّ ، ولا تسألْ عنْ صفتِهِ ، كُلِ البقلَ مِنْ حيثُ يُؤتىٰ بهِ ولا تسلْ عنِ المبقلةِ .

ولٰكنِ الذي يتضحُ بنورِ الاستبصارِ وشواهدِ الأخبارِ أنَّهُمْ جنودٌ مجنَّدةٌ ، وأنَّ لكلِّ نوعٍ مِنَ المعاصي شيطاناً يخصُّهُ ويدعو إليهِ ، فأمَّا طريقُ الاستبصارِ . . فذكرُهُ يطولُ ، ويكفيكَ القدْرُ الذي ذكرناهُ ، وهوَ أنَّ اختلافَ المسبباتِ يدلُّ على اختلافِ الأسبابِ كما ذكرناهُ في نورِ النارِ وسوادِ الدخان .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الأخبارُ : فقدْ قالَ مجاهدٌ : (لإبليسَ خمسةٌ مِنَ الأولادِ ، قدْ جعلَ كلَّ واحدٍ منهُمْ علىٰ شيءٍ مِنْ أمرِهِ : ثبرٌ ، والأعورُ ، ومِسْوَطٌ ، وداسمٌ ، وزلنبورٌ ؛ **فأمَّا ثبرٌ** . . فهوَ صاحبُ المصائبِ الذي يأمرُ بالثبورِ ، وشقِّ الجيوبِ ، ولطمِ الخدودِ ، ودعوى الجاهليةِ ، **وأمَّا الأعورُ** . . فإنَّهُ صاحبُ الزنا ، يأمرُ بهِ ويزيِّنُهُ ، **وأمَّا مِسوطٌ** . . فهوَ صاحبُ الكذبِ ، و **أمَّا داسمٌ** . . فإنَّهُ يدخلُ معَ الرجلِ إلىٰ أهلِهِ ، يرميهِمْ بالعيبِ عندَهُ ، ويغضبُهُ عليهِمْ ، و **أمَّا زلنبورٌ** . . فهوَ صاحبُ السوقِ ، فبسببِهِ لا يزالونَ ملتطمينَ) .

وشيطانُ الصلاةِ يسمَّىٰ خَنزبَ ، وشيطانُ الوضوءِ يسمَّى الولهانَ ، وقدْ وردَ في ذٰلكَ أخبارٌ كثيرةٌ .

وكما أنَّ الشياطينَ فيهِمْ كثرةٌ . . فكذٰلكَ في الملائكةِ كثرةٌ ، وقدْ ذكرنا في كتابِ الشكرِ السرَّ في كثرةِ الملائكةِ ، واختصاصِ كلِّ واحدٍ منهُمْ بعملٍ ينفردُ بهِ .

وقدْ قالَ أبو أمامةَ الباهليُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وُكِّلَ بالمؤمنِ مئةٌ وستونَ ملكاً يذبُّونَ عنهُ ما لمْ يُقَدَّرْ عليهِ ، مِنْ ذٰلكَ : للبصرِ سبعةُ أملاكٍ يذبُّونَ عنهُ كما يُذَبُّ الذبابُ عنْ قصعةِ العسلِ في اليومِ الصائفِ ، وما لوْ بدا لكُمْ . . لرأيتموهُ علىٰ كلِّ سهلٍ وجبلٍ ، كلُّهُمْ باسطٌ يدَهُ ، فاغرٌ فاهُ ، ولوْ وُكلَ العبدُ إلىٰ نفسِهِ طرفةَ عينٍ . . لاختطفَتْهُ الشياطينُ »[1] .

وقالَ أيوبُ بنُ يزيدَ : (بلغَنا أنَّهُ يُولدُ معَ أبناءِ الإنسِ مِنْ أبناءِ الجنِّ ، ثمَّ ينشؤونَ معَهُمْ) .

وقالَ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ : إنَّ آدمَ عليهِ السلامُ لمَّا أُهبطَ إلى الأرضِ . . قالَ : يا ربِّ ؛ هٰذا العبدُ الذي جعلتَ بيني وبينَهُ عداوةً إنْ لمْ تُعنِّي عليهِ . . لا أقوىٰ عليهِ ، قالَ : لا يُولدُ لكَ ولدٌ إلا وُكِّلَ بهِ ملكٌ ، قالَ : يا ربِّ ؛ زدْني ، قالَ : أجزي بالسيئةِ سيئةً ، وبالحسنةِ عشراً إلىٰ ما أريدُ ، قالَ : يا ربِّ ؛ زدْني ، قالَ : بابُ التوبةِ مفتوحٌ ما

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (٧٥) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٧١١٧) .

دامَ في الجسدِ الروحُ ، فقالَ إبليسُ : يا ربِّ ؛ هٰذا العبدُ الذي كرَّمتَهُ عليَّ إلا تعنِّي عليهِ . . لا أقوىٰ عليهِ ، قالَ : لا يولدُ لهُ ولدٌ إلا وُلِدَ لكَ ولدٌ ، قالَ : يا ربِّ ؛ زدْني ، قالَ : تجري منهُمْ مَجرى الدمِ ، وتتخذُ مِنْ صدورِهِمْ بيوتاً ، قالَ : يا ربِّ ؛ زدْني ، قالَ : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ غُرُورًا ﴾[(١)] .

وعنْ أبي الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خلقَ اللهُ الجنَّ ثلاثةَ أصنافٍ : صنفٌ حيَّاتٌ وعقاربُ وخشاشُ الأرضِ ، وصنفٌ كالريحِ في الهواءِ ، وصنفٌ عليهمُ الحسابُ والعقابُ ، وخلقَ اللهُ تعالى الإنسَ ثلاثةَ أصنافٍ : صنفٌ كالبهائمِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾[(٢)] ، وصنفٌ أجسامُهُمْ أجسامُ بني آدمَ وأرواحُهُمْ أرواحُ الشياطينِ ، وصنفٌ في ظلِّ اللهِ تعالىٰ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ »[(٣)] .

وقالَ وهيبُ بنُ الوردِ : بلغَنا أنَّ إبليسَ تمثَّلَ ليحيى بنِ زكريا عليهِما السلامُ ، وقالَ : إنِّي أريدُ أنْ أنصحَكَ ، قالَ : لا حاجةَ بي إلىٰ نصحِكَ ، ولٰكنْ أخبرْني عنْ بني آدمَ ، قالَ : هُمْ عندَنا ثلاثةُ

---

(١) سورة الإسراء : (٦٤) ، والأثر رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (٧٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٣٨/٧) .

(٢) سورة الأعراف : (١٧٩) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (١) مقتصراً على الجن ، ورواه بتمامه أبو الشيخ في « العظمة » (١٠٨١) .

أصنافٍ ؛ أمَّا صنفٌ منهُمْ . . فهُمْ أشدُّ الأصنافِ علينا نقبلُ علىٰ أحدِهِمْ حتَّىٰ نفتنَهُ ونتمكَّنَ منهُ ، فيفزعَ إلى الاستغفارِ والتوبةِ ، فيفسدُ علينا كلَّ شيءٍ أدركنا منهُ ، ثمَّ نعودُ إليهِ ، فيعودُ ، فلا نحنُ نيئسُ منهُ ، ولا نحنُ ندركُ منهُ حاجتَنا ، فنحنُ منهُ في عناءٍ ، وأمَّا الصنفُ الآخرُ . . فهُمْ في أيدينا بمنزلةِ الكرةِ في أيدي صبيانِكُمْ ، نتلقفُهُمْ كيفَ شئنا ، قدْ كفونا أنفسَهُمْ ، وأمَّا الصنفُ الثالثُ . . فهُمْ مثلُكَ معصومونَ ، لا نقدرُ منهُمْ علىٰ شيءٍ (١) .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فكيفَ يتمثَّلُ الشيطانُ لبعضِ الناسِ دونَ البعضِ ؟ وإذا رأىٰ صورتَهُ . . فهلْ هيَ صورتُهُ الحقيقيَّةُ أوْ هوَ مثالٌ تمثَّلَ لهُ بهِ ؟ فإنْ كانَ علىٰ صورتِهِ الحقيقيّةِ . . فكيفَ يُرىٰ بصورٍ مختلفةٍ ؟ وكيفَ يُرىٰ في وقتٍ واحدٍ في مكانينِ وعلىٰ صورتينِ ، حتَّىٰ يراهُ شخصانِ بصورتينِ مختلفتينِ ؟

فاعلمْ : أنَّ المَلَكَ والشيطانَ لهما صورتانِ هيَ حقيقةُ صورتِهما ، ولا تُدركُ حقيقةُ صورتِهما بالمشاهدةِ إلا بأنوارِ النبوَّةِ ، فما رأى النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جبريلَ عليهِ أفضلُ الصلاةِ والسلامِ في صورتِهِ إلا مرَّتينِ ، وذلكَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سألَهُ أنْ يريَهُ نفسَهُ علىٰ صورتِهِ ، فواعدَهُ بالبقيعِ ، وظهرَ لهُ بحراءَ ، فسدَّ الأفقَ مِنَ المشرقِ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/١٤٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٤/٢٠٥) .

إلى المغربِ ، ورآهُ مرَّةً أخرىٰ علىٰ صورتِهِ ليلةَ المعراجِ عندَ سدرةِ المنتهىٰ [(١)] ، وإنَّما كانَ يراهُ في صورةِ الآدميِّ غالباً ، فكانَ يراهُ في صورةِ دِحْيَةَ الكلبيِّ ، وكانَ رجلاً حسنَ الوجهِ [(٢)] .

والأكثرُ أنَّهُ يُكاشفُ أهلُ المكاشفةِ منْ أربابِ القلوبِ بمثالِ صورتِهِ ، فيتمثَّلُ الشيطانُ لهُ في اليقظةِ ، فيراهُ بعينِهِ ، ويسمعُ كلامَهُ بأذنِهِ ، فيقومُ ذٰلكَ مقامَ حقيقةِ صورتِهِ ، كما ينكشفُ في المنامِ لأكثرِ الصالحينَ .

وإنَّما المكاشَفُ في اليقظةِ هو الذي انتهىٰ إلىٰ رتبةٍ لا يمنعُهُ اشتغالُ الحواسِّ بالدنيا عَنِ المكاشفةِ التي تكونُ في المنامِ ، فيرىٰ في اليقظةِ ما يراهُ غيرُهُ في المنامِ ؛ كما رُوِيَ عنْ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمَهُ اللهُ أنَّ رجلاً سألَ ربَّهُ عزَّ وجلَّ أنْ يريَهُ موضعَ الشيطانِ مِنْ قلبِ ابنِ آدمَ ، فرأىٰ في النومِ جسدَ رجلٍ شبهَ البلَّورِ ، يُرىٰ داخلُهُ مِنْ خارجِهِ ، ورأى الشيطانَ في صورةِ ضفدعٍ قاعدٍ علىٰ منكبِهِ الأيسرِ ، بينَ منكبِهِ وأذنِهِ ، لهُ خرطومٌ طويلٌ دقيقٌ ، قدْ أدخلَهُ مِنْ منكبِهِ

---

(١) رؤيته صلى الله عليه وسلم لجبريل مرتين علىٰ حقيقته لا في صورة بشر متمثل له عند البخاري (٤٨٥٥) ، ومسلم (١٧٧) ولفظه عن عائشة رضي الله عنها : (ولٰكنه رأىٰ جبريل عليه السلام في صورته مرتين) ، وعند الترمذي (٣٢٧٨) : (ولٰكنه رأىٰ جبريل ، لم يره في صورته إلا مرتين ؛ مرة عند سدرة المنتهىٰ ، ومرَّة في جياد له ست مئة جناح قد سد الأفق) .

(٢) أما إتيانه عليه السلام في صورة الرجل . . فعند البخاري (٣٢٣٥) ، ومسلم (١٧٧) ، وأما إتيانه علىٰ صورة دحية رضي الله عنه . . فعند البخاري (٣٦٣٤) ، ومسلم (٢٤٥١) .

الأيسرِ إلىٰ قلبِهِ ، يوسوسُ إليهِ ، فإذا ذكرَ اللهَ تعالىٰ . . خنسَ [١] .

ومثلُ هـٰذا قدْ يشاهدُ بعينِهِ في اليقظةِ ، فقدْ رآهُ بعضُ المكاشفينَ في صورةِ كلبٍ جاثمٍ علىٰ جيفةٍ يدعو الناسَ إليها ، وكانَتِ الجيفةُ مثالَ الدنيا ، وهـٰذا يجري مَجرىٰ مشاهدةِ صورتِهِ الحقيقيَّةِ ؛ فإنَّ القلبَ لا بدَّ وأنْ تظهرَ فيهِ حقيقةٌ مِنَ الوجهِ الذي يقابلُ عالمَ الملكوتِ [٢] ، وعندَ ذٰلكَ يُشرقُ أثرُهُ علىٰ وجهِهِ الذي يقابلُ عالمَ الملكِ والشهادةِ ؛ لأنَّ أحدَهُما متصلٌ بالآخرِ .

وقدْ بينَّا أنَّ القلبَ لهُ وجهانِ ؛ وجهٌ إلىٰ عالمِ الغيبِ ، وهوَ مدخلُ الإلهامِ والوحيِ ، ووجهٌ إلىٰ عالمِ الشهادةِ ، فالذي يظهرُ منهُ في الوجهِ الذي يلي جانبَ عالمِ الشهادةِ لا يكونُ إلا صورةً متخيَّلَةً ؛ لأنَّ عالمَ الشهادةِ كلَّهُ متخيلاتٌ ، إلا أنَّ الخيالَ تارةً يحصلُ مِنَ النظرِ

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (٦/٥٦٣) : (وقد ورد في خبر مقطوع أن رجلاً سأل ربَّه أن يريه موضع الشيطان ، فرأى الشيطان في صورة ضفدع عند نغض كتفه الأيسر حذاء قلبه ، له خرطوم كالبعوضة ، أخرجه ابن عبد البر بسند قوي إلىٰ ميمون بن مهران عن عمر بن عبد العزيز ، فذكره ، وذكره أيضاً صاحب « الفائق » في مصنفه في « م ص ر » ، وله شاهد مرفوع عن أنس عند أبي يعلىٰ وابن عدي ولفظه : « إن الشيطان واضع خطمه علىٰ قلب ابن آدم . . . » الحديث ، وأورد ابن أبي داوود في كتاب « الشريعة » من طريق عروة بن رويم : أن عيسىٰ عليه السلام سأل ربَّه أن يريه موضع الشيطان من ابن آدم ، قال : فإذا برأسه مثل الحية ، واضع رأسه علىٰ ثمرة القلب ، فإذا ذكر العبد ربَّه . . خنس ، وإذا غفل . . وسوس) .

(٢) وعالم الملكوت تنجلي فيه حقائق الأشياء ؛ لمقابلتها اللوح الذي رسمت فيه تلك الحقائق بقلم القدرة . « إتحاف » (٧/٢٩١) .

إلىٰ ظاهرِ عالمِ الشهادةِ بالحسِّ ، فيجوزُ ألا تكونَ الصورةُ علىٰ وَفْقِ المعنىٰ ، حتَّىٰ يرىٰ شخصاً جميلَ الصورةِ وهوَ خبيثُ الباطنِ قبيحُ السرِّ ؛ لأنَّ عالمَ الشهادةِ عالمٌ كثيرُ التلبيسِ ، أمَّا الصورةُ التي تحصلُ في الخيالِ مِنْ إشراقِ عالمِ الملكوتِ علىٰ باطنِ سرِّ القلبِ . . فلا تكونُ إلا محاكيةً للصفةِ وموافقةً لها ؛ لأنَّ الصورةَ في عالمِ الملكوتِ تابعةٌ للصفةِ وموافقةٌ لها ، فلا جرمَ لا يرى المعنى القبيحَ إلا بصورةٍ قبيحةٍ ، فيرى الشيطانَ في صورةِ كلبٍ وضفدعٍ وخنزيرٍ وغيرِها ، ويرى المَلَكَ في صورةٍ جميلةٍ ، فتكونُ تلكَ الصورةُ عنوانَ المعاني ومحاكيةً لها بالصدقِ ، ولذٰلكَ يدلُّ القردُ والخنزيرُ في النومِ علىٰ إنسانٍ خبيثٍ ، وتدلُّ الشاةُ علىٰ إنسانٍ سليمِ الصدرِ ، وهٰكذا جميعُ أبوابِ الرؤيا والتعبيرِ ، وهٰذهِ أسرارٌ عجيبةٌ ، وهي مِنْ عجائبِ علومِ القلبِ ، ولا يليقُ ذكرُها بعلمِ المعاملةِ ، وإنَّما المقصودُ أنْ تصدِّقَ بأنَّ الشيطانَ ينكشفُ لأربابِ القلوبِ ، وكذٰلكَ الملكُ ، تارةً بطريقِ التمثيلِ والمحاكاةِ كما يكونُ ذٰلكَ في النومِ ، وتارةً بطريقِ الحقيقةِ ، والأكثرُ هوَ التمثيلُ بصورةٍ محاكيةٍ للمعنىٰ ، هوَ مثالُ المعنىٰ ، لا عينُ المعنىٰ ، إلا أنَّهُ يشاهَدُ بالعينِ مشاهدةً محقَّقَةً ، وينفردُ بمشاهدتِهِ المكاشَفُ دونَ مَنْ حولَهُ كالنائمِ .

❊ ❊ ❊

بيان ما يؤاخذ به العبد من وساوس القلوب وهممها وخواطرها وقصودها وما يعفىٰ عنه ولا يؤاخذ به

اعلمْ : أنَّ هٰذا أمرٌ غامضٌ ، وقدْ وردَتْ فيهِ آياتٌ وأخبارٌ متعارضةٌ يلتبسُ طريقُ الجمعِ بينَها إلا علىٰ سماسرةِ العلماءِ بالشرعِ ، فقدْ رُويَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « عُفِيَ عنْ أمتي ما حدَّثَتْ بهِ نفوسُها ما لمْ تتكلَّمْ بهِ أوْ تعملْ بهِ » [1] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ للحفظةِ : إذا همَّ عبدي بسيئةٍ . . فلا تكتبوها عليهِ ، فإنْ عملَها . . فاكتبوها سيئةً ، وإذا همَّ بحسنةٍ فلمْ يعملْها . . فاكتبوها حسنةً ، فإنْ عملَها . . فاكتبوها عشراً » ، وقدْ خرَّجَهُ مسلمٌ والبخاريُّ في « الصحيحينِ » [2] ، **وهوَ دليلٌ على العفوِ عنْ عملِ القلبِ وهمِّهِ بالسيئةِ** .

وفي لفظٍ آخرَ : « مَنْ همَّ بحسنةٍ فلمْ يعملْها . . كُتبَتْ لهُ حسنةٌ ، ومَنْ همَّ بحسنةٍ فعملَها . . كُتبَتْ لهُ إلىٰ سبعِ مئةِ ضعفٍ ،

---

(١) رواه البخاري (٥٢٦٩) ، ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة مرفوعاً بنحوه .

(٢) البخاري (٧٥٠١) ، ومسلم (١٢٨) ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢٩٣/٧) : (وإنما قدم مسلماً في الذكر نظراً إلىٰ أن سياق اللفظ له ، وإلا . . فالبخاري مقدم في الذكر لتقدمه في الفضل وفي الزمان ، وربما من يجهل ما ذكرناه اعترض على المصنف في تقديمه مسلماً علىٰ صاحبه ، ونسبه لمخالفة الاصطلاح) .

ومَـنْ هـمَّ بسيئةٍ فلـمْ يعملْها . . لـم تُكتبْ عليهِ ، وإنْ عملَها . . كُتبَتْ » (١) .

وفي لفظٍ آخرَ : « وإذا تحدَّثَ بأنْ يعملَ سيئةً . . فأنا أغفرُها لهُ ما لمْ يعملْها » (٢) ، وكلُّ ذٰلكَ يدلُّ على العفوِ .

فأمَّا ما يدلُّ على المؤاخذةِ : فقولُهُ سبحانَهُ : ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ (٣) .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (٤) ، فدلَّ علىٰ أنَّ عملَ الفؤادِ كعملِ السمعِ والبصرِ ، فلا يُعفىٰ عنهُ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ (٥) .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ (٦) .

---

(١) البخاري (٦٤٩١) ، ومسلم (١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) هي عند مسلم (١٢٩) .

(٣) سورة البقرة : (٢٨٤) .

(٤) سورة الإسراء : (٣٦) .

(٥) سورة البقرة : (٢٨٣) .

(٦) سورة البقرة : (٢٢٥) .

والحقُّ عندَنا في هٰذهِ المسألةِ لا يُوقفُ عليهِ ما لمْ تقعِ الإحاطةُ بتفصيلِ أعمالِ القلوبِ ، مِنْ مبدأ ظهورِها إلىٰ أنْ يظهرَ العملُ على الجوارحِ ، فنقولُ :

أوَّلُ ما يردُ على القلبِ : الخاطرُ : كما لوْ خطرَ لهُ مثلاً صورةُ امرأةٍ ، وأنَّها وراءَ ظهرِهِ في الطريقِ ، لوِ التفتَ إليها . . لرآها .

والثاني : هيجانُ الرغبةِ إلى النظرِ : وهوَ حركةُ الشهوةِ التي في الطبعِ ، وهٰذا يتولَّدُ مِنَ الخاطرِ الأوَّلِ ، ونسمِّيهِ : ميلَ الطبعِ ، ونُسمِّي الأوَّلَ : حديثَ النفسِ .

والثالثُ : حكمُ القلبِ بأنَّ هٰذا ينبغي أنْ يفعلَ : أيْ : ينبغي أنْ ينظرَ إليها ؛ فإنَّ الطبعَ إذا مالَ . . لمْ تنبعثِ الهمَّةُ والنيَّةُ ما لمْ تندفعِ الصوارفُ ؛ فإنَّهُ قدْ يمنعُهُ حياءٌ أوْ خوفٌ مِنَ الالتفاتِ ، وعدمُ هٰذهِ الصوارفِ ربَّما يكونُ بتأمُّلٍ ، وهوَ علىٰ كلِّ حالٍ حكمٌ مِنْ جهةِ العقلِ ، ونُسمِّي هٰذا : اعتقاداً ، وهوَ يتبعُ الخاطرَ والميلَ .

الرابعُ : تصميمُ العزمِ على الالتفاتِ وجزمُ النِّيةِ فيهِ : وهٰذا نسمِّيهِ : همّاً بالفعلِ ، ونيةً وقصداً ، وهٰذا الهمُّ قدْ يكونُ لهُ مبدأٌ ضعيفٌ ، ولٰكنْ إذا أصغى القلبُ إلى الخاطرِ الأوَّلِ حتَّىٰ طالَتْ مجاذبتُهُ للنفسِ . . تأكَّدَ هٰذا الهمُّ ، وصارَ إرادةً مجزومةً ، فإذا انجزمَتِ الإرادةُ . . فربَّما يندمُ بعدَ الجزمِ ، فيتركُ العملَ ، وربَّما يغفُلُ بعارضٍ ، فلا يعملُ بهِ ولا يلتفتُ إليهِ ، وربَّما يعوِّقُهُ عائقٌ ، فيتعذَّرُ عليهِ العملُ .

❀ ❀ ❀

فها هنا أربعُ أحوالٍ للقلبِ قبلَ العملِ بالجارحةِ : الخاطرُ ؛ وهوَ حديثُ النفسِ ، ثمَّ الميلُ ، ثمَّ الاعتقادُ ، ثمَّ الهمُّ ، فنقولُ :

أما الخاطرُ : فلا يؤاخذُ بهِ ؛ لأنَّهُ لا يدخلُ تحتَ الاختيارِ ، وكذٰلكَ **الميلُ وهيجانُ الشهوةِ** ؛ لأنَّهما لا يدخلانِ أيضاً تحتَ الاختيارِ ، وهما المرادانِ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عُفِيَ عنْ أمَّتي ما حدَّثَتْ بهِ نُفوسُها »[١] ، فحديثُ النفسِ عبارةٌ عنِ الخواطرِ التي تهجسُ في النفسِ ، ولا يتبعُها عزمٌ على الفعلِ ، فأمَّا العزمُ والهمُّ . . فلا يُسمَّىٰ حديثَ نفسٍ ، بلْ حديثُ النفسِ كما رُويَ عنْ عثمانَ بنِ مظعونٍ حيثُ قالَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : يا رسولَ اللهِ ؛ نفسي تحدِّثُني أنْ أطلِّقَ خولةَ ، قالَ : « مهلاً ، إنَّ مِنْ سنَّتي النكاحَ » ، قالَ : نفسي تحدِّثُني أنْ أجبَّ نفسي ، قالَ : « مهلاً ، خصاءُ أمَّتي دُؤوبُ الصيامِ » ، قالَ : نفسي تحدِّثُني أن أترهَّبَ ، قالَ : « مهلاً ، رهبانيةُ أمَّتي الجهادُ والحجُّ » ، قالَ : نفسي تحدِّثُني أنْ أتركَ اللحمَ ، قالَ : « مهلاً ، فإنِّي أحبُّهُ ، ولوْ أصبتُهُ . . لأكلتُهُ ، ولوْ سألتُ اللهَ . . لأطعمَنيهِ »[٢] .

---

(١) رواه البخاري (٥٢٦٩) بنحوه .

(٢) رواه الحكيم في « نوادر الأصول » (ص ٣٤٦) ، وابن الجوزي في « تلبيس إبليس » (ص ١٩٥) عن سعيد بن المسيب مرسلاً ، وبعضه متناثر في أحاديث متفرقة ، فعند البخاري (٥٠٧٤) ، ومسلم (١٤٠٢) عن سعد بن أبي وقاص : (رد رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ عثمان بن مظعون التبتل ، ولو أذن له . . لاختصينا) ، وعند الدارمي (٢٢١٥) عنه كذٰلك قال : لما كان من أمر عثمان بن مظعون الذي ←

فهٰذهِ الخواطرُ التي ليسَ معها عزمٌ على الفعلِ هيَ حديثُ النفسِ ، ولذٰلكَ شاورَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ لمْ يكنْ معَهُ عزمٌ وهمٌّ بالفعلِ .

وأمَّا الثالثُ وهوَ الاعتقادُ ، وحكْمُ القلبِ بأنَّهُ ينبغي أنْ يفعلَ : فهٰذا مردَّدٌ بينَ أنْ يكونَ اضطراراً أوِ اختياراً ، والأحوالُ تختلفُ فيهِ ، فالاختياريُّ منهُ يُؤاخذُ بهِ ، والاضطراريُّ لا يُؤاخذُ بهِ .

وأمَّا الرابعُ وهوَ الهمُّ بالفعلِ : فإنَّهُ مؤاخذٌ بهِ ، إلا أنَّهُ إنْ لمْ يفعلْ . . نُظرَ ؛ فإنْ كانَ قدْ تركَهُ خوفاً مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وندماً علىٰ همِّهِ . . كُتبَتْ لهُ حسنةٌ ؛ لأنَّ همَّهُ سيئةٌ ، وامتناعَهُ ومجاهدتَهُ نفسَهُ حسنةٌ ، والهمُّ علىٰ وَفْقِ الطبعِ ممَّا يدلُّ علىٰ تمامِ الغفلةِ عنِ اللهِ تعالىٰ ، والامتناعُ بالمجاهدةِ علىٰ خلافِ الطبعِ يحتاجُ إلىٰ قوَّةٍ عظيمةٍ ، فجدُّهُ في مخالفةِ الطبعِ ـ وهوَ العملُ للهِ تعالىٰ ـ أشدُّ مِنْ جدِّهِ في موافقةِ

كان من ترك النساء . . بعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا عثمان ؛ إني لم أومر بالرهبانية ، أرغبت عن سنتي ؟! » قال : لا يا رسول الله ، قال : « إن من سنتي أن أصلي وأنام ، وأصوم وأطعم ، وأنكح وأطلق ، فمن رغب عن سنتي . . فليس مني » . ولابن سعد في « الطبقات » (٣/٣٦٧) أن ابن مظعون رضي الله عنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ؛ إني رجل تشق علي هٰذه العزبة في المغازي ، فتأذن لي ـ يا رسول الله ـ في الخصاء فأختصي ؟ قال : « لا ، ولٰكن عليك يا بن مظعون بالصيام ؛ فإنه مجفر » . ولأبي نعيم في « معرفة الصحابة » (٤/١٩٥٧) عن أنس قال : مات ابن لعثمان بن مظعون ، فاشتد حزنه عليه حتى اتخذ مسجداً في داره يتعبد فيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنها لم تكتب علينا الرهبانية يا عثمان ، إن رهبانية أمتي الجلوس في المساجد وانتظار الصلوات ، والحج والعمرة . . . » الحديث .

الشيطانِ بموافقةِ الطبعِ ، فكُتِبَ لهُ حسنةٌ ؛ لأنَّهُ رجحَ جهدُهُ في الامتناعِ وهمُّه بهِ علىٰ همِّهِ بالفعلِ ، وإنْ تعوَّقَ الفعلُ بعائقٍ ، أوْ تركَهُ لعذرٍ ، لا خوفاً مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ . . كتبَتْ عليهِ سيئةٌ ؛ فإنَّ همَّهُ فعلٌ مِنَ القلبِ اختياريٌّ .

والدليلُ علىٰ هـٰذا التفصيلِ : ما وردَ في « الصحيح » مفصَّلاً في لفظِ الحديثِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَتِ الملائكةُ عليهِمُ السلامُ : ربِّ ؛ ذاكَ عبدُكَ يريدُ أنْ يعملَ سيئةً ـ وهوَ أبصرُ بهِ ـ فقالَ : ارقبوهُ ؛ فإنْ هوَ عملَها . . فاكتبوها لهُ بمثلِها ، وإنْ تركَها . . فاكتبوها لهُ حسنةً ، إنَّما تركَها مِنْ جرَّائي »[١] ، وحيثُ قالَ : (لمْ يعملْها) أرادَ بهِ : تركَها للهِ ، فأمَّا إذا عزمَ علىٰ فاحشةٍ ، فتعذَّرَتْ عليهِ بسببٍ أوْ بغفلةٍ . . فكيفَ تُكتبُ لهُ حسنةً ؟!

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنما يُحشرُ الناسُ علىٰ نيَّاتِهِمْ »[٢] ، ونحنُ نعلمُ أنَّ مَنْ عزمَ ليلاً علىٰ أنْ يصبحَ ليقتلَ مسلماً ، أو يزنيَ بامرأةٍ ، فماتَ تلكَ الليلةَ . . ماتَ مصرّاً ، ويُحشرُ علىٰ نيَّتِهِ ، وقدْ همَّ بسيئةٍ ولمْ يعملْها .

والدليلُ القاطعُ فيهِ : ما رُويَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إذا التقى المسلمانِ بسيفيهِما . . فالقاتلُ والمقتولُ في النارِ » ،

---

(١) رواه مسلم (١٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ومن جرَّائي : من أجلي .

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٢٩ ، ٤٢٣٠) من حديث أبي هريرة وجابر رضي الله عنهما .

فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هـٰذا القاتلُ ، فما بالُ المقتولِ ؟ قالَ : « لأنَّهُ أرادَ قتلَ صاحبِهِ »[(١)] .

وهـٰذا نصٌّ في أنَّهُ صارَ بمجرَّدِ الإرادةِ مِنْ أهلِ النارِ ، معَ أنَّهُ قُتِلَ مظلوماً ، فكيفَ يُظنُّ أنَّ اللهَ لا يؤاخذُ بالنيَّةِ والهمِّ ؟! بلْ كلُّ همٍّ دخلَ تحتَ اختيارِ العبدِ فهوَ مأخوذٌ بهِ ، إلا أنْ يكفِّرَهُ بحسنةٍ ، ونقضُ العزمِ بالندمِ حسنةٌ ، فلذٰلكَ كُتبَتْ لهُ حسنةً ، فأمَّا فوتُ المرادِ بعائقٍ . . فليسَ بحسنةٍ .

وأمَّا الخواطرُ وحديثُ النفسِ وهيجانُ الرغبةِ . . فكلُّ ذٰلكَ لا يدخلُ تحتَ الاختيارِ ، فالمؤاخذةُ بهِ تكليفُ ما لا يطاقُ ، ولذٰلكَ لمَّا نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾[(٢)] . . جاءَ ناسٌ مِنَ الصحابةِ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالوا : كُلِّفنا ما لا نطيقُ ، إنَّ أحدَنا ليحدِّثُ نفسَهُ بما لا يحبُّ أنْ يثبتَ في قلبِهِ ، ثمَّ يُحاسبُ بذٰلكَ ؟! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لعلَّكُمْ تقولونَ كما قالتِ اليهودُ : سمعنا وعصينا ؟! قولوا : سمعنا وأطعنا » ، فقالوا : سمعنا وأطعنا ، فأنزلَ اللهُ الفرجَ بعدَ سنةٍ بقولِهِ : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[(٣)] .

---

(١) رواه البخاري (٣١) ، ومسلم (٢٨٨٨) من حديث أبي بكرة الثقفي رضي الله عنه .
(٢) سورة البقرة : (٢٨٤) .
(٣) سورة البقرة : (٢٨٦) ، والحديث رواه مسلم (١٢٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

فظهرَ بهِ أنَّ كلَّ ما لا يدخلُ تحتَ الوسعِ مِنْ أعمالِ القلبِ فهوَ الذي لا يُؤاخذُ بهِ .

* * *

فهٰذا هوَ كشفُ الغطاءِ عنْ هٰذا الالتباسِ ، وكلُّ مَنْ يظنُّ أنَّ كلَّ ما يجري على القلبِ يُسمَّىٰ حديثَ النفسِ ، ولمْ يفرِّقْ بينَ هٰذهِ الأقسامِ الثلاثةِ . . فلا بدَّ وأنْ يغلطَ .

وكيفَ لا يُؤاخذُ بأعمالِ القلبِ والكبرُ والعجبُ والرياءُ والنفاقُ والحسدُ وجملةُ الخبائثِ مِنْ أعمالِ القلبِ ؟! بلِ السمعُ والبصرُ والفؤادُ كلُّ أولٰئكَ كانَ عنهُ مسؤولاً ؛ أيْ : ما يدخلُ تحتَ الاختيارِ ؟!

فلوْ وقعَ البصرُ بغيرِ اختيارٍ علىٰ غيرِ ذي محرمٍ . . لمْ يؤاخذْ بهِ ، فإنْ أتبعَها نظرةً ثانيةً . . كانَ مؤاخذاً بها ؛ لأنَّهُ مختارٌ ، فكذا خواطرُ القلبِ تجري هٰذا المجرىٰ ، بلِ القلبُ أولىٰ بمؤاخذتِهِ ؛ لأنَّهُ الأصلُ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « التقوىٰ ها هنا » وأشارَ إلى القلبِ [١] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الإثمُ حوَازُّ القلوبِ » [٣] .

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) ، وفيه : (ويشير إلىٰ صدره ثلاث مرات) .

(٢) سورة الحج : (٣٧) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٩/١٤٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٨٩٢) ، وهو ←

وقالَ : « البرُّ ما اطمأنَّ إليهِ القلبُ وإنْ أفتوكَ وأفتوكَ »[1] .

حتَّىٰ إنَّا نقولُ : إذا حكمَ قلبُ المفتي بإيجابِ شيءٍ وكانَ مخطئاً فيهِ . . صارَ مثاباً عليهِ ، بلْ مَنْ قدْ ظنَّ أنَّهُ تطهَّرَ . . فعليهِ أنْ يصلِّيَ ، فإنْ صلَّىٰ ثمَّ تذكَّرَ أنَّهُ لمْ يتوضَّأْ . . كانَ لهُ ثوابٌ بفعلِهِ ، وإنْ تركَ ثمَّ تذكَّرَ[2] . . كانَ معاقباً عليهِ ، ومَنْ وجدَ علىٰ فراشِهِ امرأةً فظنَّ أنَّها زوجتُهُ . . لمْ يعصِ بوطئِها وإنْ كانَتْ أجنبيَّةً ، وإنْ ظنَّ أنَّها أجنبيةٌ ثمَّ وطئِها . . عصىٰ بوطئِها وإنْ كانَتْ زوجتَهُ .

كلُّ ذٰلكَ نظراً إلى القلبِ دونَ الجوارحِ .

* * *

← موقوف علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، **وحوازُّ القلوب** ـ بتشديد الزاي ـ : جمع حازَّة ، وهي الأمور التي تحزُّ فيها ؛ أي : تؤثر كما يؤثر الحزُّ في الشيء ، وهو ما يخطر فيها من أن تكون معاصي لفقد الطمأنينة إليها . ورواه شمر « الإثم حوَّاز القلوب » بتشديد الواو ؛ أي : يحوزها ويتملكها ويغلب عليها ، ويروى « الإثم حزَّاز القلوب » بزايين ، الأولىٰ مشددة ، وهي فعّال من الحزّ .

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/٢٢٨) ، قال الإمام أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١/١١٥) بعد إيراده لهٰذا الحديث : (فهٰذا وصف قلب مكاشف بالذكر ، ونعت نفس ساكنة بمزيد السكينة والبر) ، فليس هو نعتاً لأي قلب .

(٢) في (أ) : (فإن تذكر ثم تركه) .

بيان أنّ الوسواس هل يتصوّر أن ينقطع بالكلّيّة عند الذكر .. أم لا ؟

اعلمْ : أنَّ العلماءَ المراقبينَ للقلوبِ ، الناظرينَ في صفاتِها وعجائبِها . . اختلفوا في هٰذهِ المسألةِ علىٰ خمسِ فرقٍ :

فقالتْ فرقةٌ : الوسوسةُ تنقطعُ بذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ لأنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قالَ : « فإذا ذكرَ اللهَ . . خنسَ »(١) ، والخنسُ هوَ السكوتُ ، فكأنَّهُ يسكتُ .

وقالتْ فرقةٌ : لا ينعدمُ أصلُهُ ، ولٰكنْ يجري في القلبِ ولا يكونُ لهُ أثرٌ ؛ لأنَّ القلبَ إذا صارَ مستوعباً بالذكرِ . . كانَ محجوباً عنِ التأثُّرِ بالوسوسةِ ؛ كالمشغولِ بهمِّهِ ؛ فإنَّهُ قدْ يكلَّمُ ولا يفهمُ وإنْ كانَ الصوتُ يمرُّ علىٰ سمعِهِ .

وقالتْ فرقةٌ : لا تسقطُ الوسوسةُ ولا أثرُها أيضاً ، ولٰكنْ تسقطُ غلبتُها للقلبِ ، فكأنَّهُ يوسوسُ مِنْ بعدٍ وعلىٰ ضعفٍ .

وقالتْ فرقةٌ : ينعدمُ عندَ الذكرِ في لحظةٍ ، وينعدمُ الذكرُ في لحظةٍ بها ، ويتعاقبانِ في أزمنةٍ متقاربةٍ ، يُظَنُّ لتقاربِها أنَّها متساوقةٌ ، وهيَ كالكرةِ التي عليها نقطٌ متفرّقةٌ ؛ فإنَّكَ إذا أدرتَها بسرعةٍ . . رأيتَ النقطَ دوائرَ ؛ لسرعةِ تواصلِها بالحركةِ .

---

(١) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٣٠١) ، وابن عدي في « الكامل » (٣/١٨٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٨٦) .

واستدلَّ هـٰؤلاءِ بأنَّ الخنسَ قدْ وردَ ، ونحنُ نشاهدُ الوسوسةَ معَ الذكرِ ، ولا وجهَ لهُ إلا هـٰذا .

وقالتْ فرقةٌ : الوسوسةُ والذكرُ يتساوقانِ في القلب على الدوامِ تساوقاً لا ينقطعُ ، وكما أنَّ الإنسانَ قدْ يرىٰ بعينيهِ شيئينِ في حالةٍ واحدةٍ ، فكذٰلكَ القلبُ قدْ يكونُ مَجرىً لشيئينِ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ عبدٍ إلَّا ولهُ أربعةُ أعْينٍ : عينانِ في رأسهِ يبصرُ بهما أمرَ دنياهُ ، وعينانِ في قلبِهِ يبصرُ بهما أمرَ دينِهِ » (١) . وإلىٰ هـٰذا ذهبَ المحاسبيُّ (٢) .

* * *

والصحيحُ عندَنا : أنَّ كلَّ هـٰذهِ المذاهبِ صحيحةٌ ، ولـٰكنْ كلُّها قاصرةٌ عنِ الإحاطةِ بأصنافِ الوسواسِ ، وإنَّما نظرَ كلُّ واحدٍ منهُمْ إلىٰ صنفٍ واحدٍ مِنَ الوسواسِ ، فأخبرَ عنهُ .

والوسواسُ أصنافٌ :

الأوَّلُ : أنْ يكونَ مِنْ جهةِ التلبيسِ بالحقِّ :

فإنَّ الشيطانَ قدْ يلبِّسُ بالحقِّ ، فيقولُ للإنسانِ : (لا تتركِ التنعُّمَ باللَّذاتِ ؛ فإنَّ العمرَ طويلٌ ، والصبرَ عنِ الشهواتِ طولَ العمرِ ألمُهُ عظيمٌ) ، فعندَ هـٰذا إذا ذكرَ العبدُ عظيمَ حقِّ اللهِ تعالىٰ ، وعظيمَ

---

(١) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٠٤٠) بنحوه .
(٢) ذكر نحو هـٰذا بتفصيل في « الرعاية » (ص ٢٠٢ ـ ٢٠٥) .

ثوابِهِ وعقابِهِ ، وقالَ لنفسِهِ : (الصبرُ عنِ الشهواتِ شديدٌ ، ولٰكنَّ الصبرَ على النارِ أشدُّ منهُ ، ولا بدَّ مِنْ أحدِهِما) ، فإذا ذكرَ العبدُ وعدَ اللهِ تعالىٰ ووعيدَهُ ، وجدَّدَ إيمانَهُ ويقينَهُ . . خنسَ الشيطانُ وهربَ ؛ إذْ لا يستطيعُ أنْ يقولَ لهُ : (النارُ أيسرُ مِنَ الصبرِ على المعاصي) ، ولا يمكنُهُ أنْ يقولَ : (المعصيةُ لا تفضي إلى النارِ) فإنَّ إيمانَهُ بكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ يدفعُهُ عنْ ذٰلكَ ، فينقطعُ وسواسُهُ .

وكذٰلكَ يوسوسُ إليهِ بالعجْبِ بعملِهِ ، فيقولُ : (أيُّ عبدٍ يعرفُ اللهَ كما تعرفُهُ ، ويعبدُهُ كما تعبدُهُ ؟! فما أعظمَ مكانَكَ عندَ اللهِ تعالىٰ !!) ، فيتذكَّرُ العبدُ حينئذٍ أنَّ معرفتَهُ وقدرتَهُ وقلبَهُ وأعضاءَهُ التي بها علمُهُ وعملُهُ كلُّ ذٰلكَ مِنْ خلْقِ اللهِ تعالىٰ ، فمِنْ أينَ يُعجبُ بهِ ؟! فيخنسُ الشيطانُ ؛ إذْ لا يمكنُهُ أنْ يقولَ : (ليسَ هٰذا مِنَ اللهِ) لأنَّ المعرفةَ والإيمانَ يدفعُهُ .

فهٰذا نوعٌ مِنَ الوسواسِ ينقطعُ بالكليَّةِ عنِ العارفينَ المستبصرينَ بنورِ الإيمانِ والمعرفةِ .

الصنفُ الثاني : أنْ يكونَ وسواسُهُ بتحريكِ الشهوةِ وهيجانِها :

وهٰذا ينقسمُ إلىٰ ما يعلمُ العبدُ يقيناً أنَّهُ معصيةٌ ، وإلىٰ ما يظنُّهُ بغالبِ الظنِّ .

فإنْ عَلِمَهُ يقيناً . . خنسَ الشيطانُ عنْ تهييجٍ يؤثِّرُ في تحريكِ الشهوةِ ، ولمْ يخنسْ عنِ التهييجِ ، وإنْ كانَ مظنوناً . . فربَّما يبقىٰ

مؤثِّراً بحيثُ يحتاجُ إلىٰ مجاهدةٍ في دفعِهِ ، فتكونُ الوسوسةُ موجودةً ، ولٰكنَّها مدفوعةٌ غيرُ غالبةٍ .

***

الصنفُ الثالثُ : أنْ تكونَ وسوسةٌ بمجرَّدِ الخواطرِ :

وتذكُّرِ الأحوالِ الغائبةِ ، والتفكُّرِ في غيرِ الصلاةِ مثلاً [١] ، فإذا أقبلَ على الذكرِ . . تُصوِّرَ أنْ يندفعَ ساعةً ويعودَ ، ويندفعَ ويعودَ ، فيتعاقبُ الذكرُ والوسوسةُ ، ويُتصوَّرُ أنْ يتساوقا جميعاً ، حتَّىٰ يكونَ الفهمُ مشتملاً علىٰ فهْمِ معنى القراءةِ ، وعلىٰ تلكَ الخواطرِ ، كأنَّهما في موضعينِ مِنَ القلبِ .

وبعيدٌ جداً أنْ يندفعَ هٰذا الخنسُ بالكليَّةِ بحيثُ لا يخطرُ ، ولٰكنَّهُ ليسَ محالاً ؛ إذْ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ صلَّىٰ ركعتينِ لَمْ يحدِّثْ فيهما نفسَهُ بشيءٍ مِنَ الدنيا . . غُفرَ لهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذنْبِهِ » [٢] ، فلولا أنَّهُ متصوَّرٌ . . لما ذكرَهُ .

إلا أنَّهُ لا يُتصوَّرُ ذٰلكَ إلا في قلبٍ استولىٰ عليهِ الحبُّ ، حتَّىٰ صارَ كالمستهتَرِ ؛ فإنَّا قدْ نرى المستوعبَ القلبِ بعدوٍّ تأذَّىٰ بهِ قدْ يتفكَّرُ بمقدارِ ركعتينِ وركعاتٍ في مجادلةِ عدوِّهِ ؛ بحيثُ لا يخطرُ ببالِهِ غيرُ حديثِ عدوِّهِ ، وكذٰلكَ المستغرقُ في الحبِّ قدْ يتفكَّرُ في

---

(١) أي : يتفكر في غير الصلاة وهو يصلي .

(٢) رواه البخاري (١٦٤) ، ومسلم (٢٢٦) بغير زيادة : (بشيء من الدنيا) ، وبها رواه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٧٧١٣) مرسلاً .

محادثةِ محبوبِهِ بقلبِهِ ويغوصُ في فكرِهِ بحيثُ لا يخطرُ ببالِهِ غيرُ حديثِ محبوبِهِ ، ولوْ كلَّمَهُ غيرُهُ . . لمْ يسمعْ ، ولوِ اجتازَ بينَ يديهِ أحدٌ . . لكانَ كأنَّهُ لا يراهُ .

وإذا تُصوِّرَ هٰذا في خوفٍ مِنْ عدوٍّ ، وعندَ الحرصِ علىٰ جاهٍ ومالٍ . . فكيفَ لا يُتصوَّرُ مِنْ خوفِ النارِ والحرصِ على الجنَّةِ ؟! ولٰكنْ ذٰلكَ عزيزٌ ؛ لضعفِ الإيمانِ باللهِ تعالىٰ واليومِ الآخرِ .

وإذا تأمَّلْتَ جملةَ هٰذهِ الأقسامِ وأصنافِ الوسواسِ . . علمتَ أنَّ لكلِّ مذهبٍ مِنَ المذاهبِ وجهاً ، ولٰكنْ في محلٍّ مخصوصٍ .

❁ ❁ ❁

وبالجملةِ : فالخلاصُ مِنَ الشيطانِ في لحظةٍ أوْ ساعةٍ غيرُ بعيدٍ ، ولٰكنَّ الخلاصَ منه عمراً طويلاً بعيدٌ جدّاً ، وهوُ محالٌ في الوجودِ ، ولوْ تخلَّصَ أحدٌ مِنْ وساوسِ الشيطانِ بالخواطرِ وتهييجِ الرغبةِ . . لتخلَّصَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فقدْ رُوِيَ أنَّهُ نظرَ إلىٰ علمِ ثوبِهِ في الصلاةِ ، فلمَّا سلَّمَ . . رمىٰ بذٰلكَ الثوبِ وقالَ : « شغلَني عنِ الصلاةِ » وقالَ : « اذهبُوا بهِ إلىٰ أبي جهمٍ ، وأْتوني بأنبجانيّتِهِ »[(١)] ، وكانَ في يدِهِ خاتمٌ مِنْ ذهبٍ ، فنظرَ إليهِ وهوَ على المنبرِ ، ثمَّ رمىٰ بهِ وقالَ : « نظرةٌ إليهِ ونظرةٌ إليكُمْ »[(٢)] ، وكانَ ذٰلكَ لوسوسةِ الشيطانِ

---

(١) رواه البخاري (٣٧٣) ، ومسلم (٥٥٦/٦٢) بنحوه ، **والأنبجانية** : ضرب من نسيج الصوف الغليظ له .

(٢) رواه النسائي (٨/١٩٤) .

بتحريكِ لذَّةِ النظرِ إلىٰ خاتمِ الذهبِ وعلمِ الثوبِ ، وكانَ ذٰلكَ قبلَ تحريمِ الذهبِ ، فلذٰلكَ لبسَهُ ثمَّ رمىٰ بهِ .

فلا تنقطعُ وسوسةُ عروضِ الدنيا ونقدِها إلا بالرمي والمفارقةِ ، فما دامَ يملكُ شيئاً وراءَ حاجتِهِ ولوْ ديناراً واحداً . . لا يدعُهُ الشيطانُ في صلاتِهِ مِنَ الوسوسةِ في الفكرِ في دينارِهِ ، وأنَّهُ كيفَ يحفظُهُ ، وفيماذا ينفقُهُ ، وكيفَ يخفيهِ حتَّىٰ لا يعلمَ بهِ أحدٌ ، أوْ كيفَ يُظهرُهُ حتَّىٰ يتباهىٰ بهِ ، إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنَ الوساوسِ .

فمَنْ أنشبَ مخالبَهُ في الدنيا ، وطمعَ في أنْ يتخلَّصَ مِنَ الشيطانِ . . كانَ كمَنِ انغمسَ في العسلِ ، وظنَّ أنَّ الذبابَ لا يقعُ عليهِ ، فهو محالٌ ؛ فالدنيا بابٌ عظيمٌ لوساوسِ الشيطانِ ، وليسَ لهُ بابٌ واحدٌ ، بلْ أبوابٌ كثيرةٌ .

قالَ حكيمٌ مِنَ الحكماءِ : (الشيطانُ يأتي ابنَ آدمَ مِنْ قبلِ المعاصي ، فإنِ امتنعَ . . أتاهُ مِنْ وجهِ النصيحةِ ، حتىٰ يلقيَهُ في بدعةٍ ، فإنْ أبىٰ . . أمرَهُ بالتحرُّجِ والشدَّةِ ، حتَّىٰ يحرِّمَ ما ليسَ بحرامٍ ، فإنْ أبىٰ . . شكَّكَهُ في وضوئِهِ وصلاتِهِ ، حتَّىٰ يخرجَهُ عنِ العلمِ ، فإنْ أبىٰ . . خفَّفَ عليهِ أعمالَ البرِّ ، حتَّىٰ يراهُ الناسُ صابراً عفيفاً ، فتميلُ قلوبُهُمْ إليهِ ، فيُعجبُ بنفسِهِ ، وبهِ يهلكُهُ ، وعندَ ذٰلكَ يشتدُّ لجاجُهُ ؛ فإنَّها آخرُ درجةٍ ، ويعلمُ أنَّهُ لوْ جاوزَها . . أفلتَ منهُ إلى الجنةِ) .

* * *

بيان سرعة تقلّب القلب ، وانقسام القلوب في التّغيّر والثّبات

اعلمْ : أنَّ القلبَ ـ كما ذكرناهُ ـ تكتنفُهُ الصفاتُ التي ذكرناها ، وتنصبُّ إليهِ الآثارُ والأحوالُ مِنَ الأبوابِ التي وصفناها ، فكأنَّهُ هدفٌ يُصابُ على الدوامِ مِنْ كلِّ جانبٍ ، فإذا أصابَهُ شيءٌ يتأثَّرُ بهِ . . أصابَهُ مِنْ جانبٍ آخرَ ما يضادُّهُ ، فتتغيَّرُ صفتُهُ ، فإنْ نزلَ بهِ الشيطانُ ، فدعاهُ إلى الهوىٰ . . نزلَ بهِ المَلَكُ وصرفَهُ عنهُ ، وإنْ جذبَهُ شيطانٌ إلىٰ شرٍّ . . جذبَهُ شيطانٌ آخرُ إلىٰ غيرِهِ ، وإنْ جذبَهُ ملكٌ إلىٰ خيرٍ . . جذبَهُ آخرُ إلىٰ غيرِهِ ، فتارةً يكونُ متنازعاً بينَ ملكينِ ، وتارةً بينَ شيطانينِ ، وتارةً بينَ مَلَكٍ وشيطانٍ ، ولا يكونُ قطُّ مهملاً .

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ [١] .

ولاطلاعِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ عجيبِ صنْعِ اللهِ تعالىٰ في عجائبِ القلبِ وتقلُّبِهِ . . كانَ يحلفُ بهِ فيقولُ : « لا ومقلِّبِ القلوبِ » [٢] ، وكانَ كثيراً ما يقولُ : « يا مقلِّبَ القلوبِ ؛ ثبِّتْ قلبي علىٰ دينِكَ » ، قالوا : أَوَتخافُ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « وما يؤمِّنُني والقلبُ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرَّحمٰنِ يقلِّبُهُ كيفَ يشاءُ ؟! » [٣] ،

---

(١) سورة الأنعام : (١١٠) .

(٢) رواه البخاري (٦٦١٧) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٣) رواه الترمذي (٢١٤٠) من حديث أنس رضي الله عنه ، وعند مسلم (٢٦٥٤) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه : « اللهم ، مصرِّف القلوب ؛ صرِّف قلوبنا على طاعتك » .

وفي لفظٍ آخرَ : « إنْ شاءَ أنْ يقيمَهُ . . أقامَهُ ، وإنْ شاءَ أنْ يزيغَهُ . . أزاغهُ »[١] .

وضربَ لهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثلاثةَ أمثلةٍ فقالَ : « مثلُ القلبِ مثلُ العصفورِ ، يتقلَّبُ في كلِّ ساعةٍ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مثلُ القلبِ في تقلُّبِهِ كالقدْرِ إذا استجمعَتْ غلياناً »[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مثلُ القلبِ كمثلِ ريشةٍ في أرضِ فلاةٍ تقلِّبُها الرياحُ ظهراً لبطنٍ »[٤] .

وهٰذهِ التقليباتُ وعجائبُ صنْعِ اللهِ تعالىٰ في تقليبِها مِنْ حيثُ لا تهتدي إليها المعرفةُ لا يعرفُها إلا المراقبونَ لقلوبِهِمْ ، والمراعونَ لأحوالِهِمْ معَ اللهِ تعالىٰ .

***

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/١٨٢) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٧٦٩١) ، وابن ماجه (١٩٩) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه .

(٢) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (١١٤٢) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/٣٢٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٤٠) من حديث أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه مرفوعاً ، وفيه : « يتقلب في اليوم سبع مرات » .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٦/٤) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/٢٥٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/١٧٥) من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه ، ولفظه : « لقلب ابن آدم أشد انقلاباً من القدر إذا اجتمعت غلياً » .

(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٣٧ ، ٧٣٨) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وعنده (٧٣٦) من حديث أنس رضي الله عنه أيضاً .

والقلوبُ في الثباتِ على الخيرِ والشرِّ والتردُّدِ بينَهُما ثلاثةٌ :

قلبٌ عُمِرَ بالتقوىٰ ، وزُكِّيَ بالرياضةِ ، وطُهِّرَ عنْ خبائثِ الأخلاقِ (١) ، تنقدحُ فيهِ خواطرُ الخيرِ مِنْ خزائنِ الغيبِ ومداخلِ الملكوتِ ، فينصرفُ العقلُ إلى التفكُّرِ فيما خطرَ لهُ ؛ ليعرفَ دقائقَ الخيرِ فيهِ ، ويطَّلعَ علىٰ أسرارِ فوائدِهِ ، فينكشفَ لهُ بنورِ البصيرةِ وجهُهُ ، فيحكمَ بأنَّهُ لا بدَّ مِنْ فعلِهِ ، فيستحثُّهُ عليهِ ، ويدعوَهُ إلى العملِ بهِ .

وينظرُ المَلَكُ إلى القلبِ فيجدُهُ طيِّباً في جوهرِهِ ، طاهراً بتقواهُ ، مستنيراً بضياءِ العقلِ ، معموراً بأنوارِ المعرفةِ ، فيراهُ صالحاً لأنْ يكونَ مستقراً لهُ ومهبطاً ، فعندَ ذٰلكَ يمدُّهُ بجنودٍ لا تُرىٰ ، ويهديهِ إلىٰ خيراتٍ أخرىٰ ، حتَّىٰ ينجرَّ الخيرُ إلى الخيرِ ، وكذٰلكَ على الدوامِ ، ولا يتناهىٰ إمدادُهُ بالترغيبِ في الخيرِ ، وتيسيرِ الأمرِ عليهِ .

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ (٢) .

وفي مثلِ هٰذا القلبِ يشرقُ نورُ المصباحِ مِنْ مشكاةِ الربوبيَّةِ ،

---

(١) والترتيب في هٰذا المقام غير مراعىً ؛ فإن التطهير عن الخبائث هو أول ما يكون ، ثم التزكية بالرياضة ثانياً ، فالذي ينتج عنهما عمارة القلب بالتقوىٰ ، فهو آخر المراتب جعله أولاً ، أو يكون المراد بعمارته بالتقوى : الاتقاء من الشرك المضاد للتوحيد ، ثم التزكية بالرياضة : هو أعمال الجوارح ، ثم التطهير عن الخبائث : هو انشراحه بنور اليقين حسبما قسم له . « إتحاف » (٧/٣٠٣) .

(٢) سورة الليل : (٥ ـ ٧) .

حتَّىٰ لا يخفىٰ فيهِ الشرْكُ الخفيُّ الذي هوَ أخفىٰ مِنْ دبيبِ النملةِ السوداءِ في الليلةِ الظلماءِ (١) .

فلا يخفىٰ علىٰ هـٰذا النورِ خافيةٌ ، ولا يُروَّجُ عليهِ شيءٌ مِنْ مكايدِ الشيطانِ ، بلْ يقفُ الشيطانُ ويُوحي زخرفَ القولِ غروراً ، فلا يُلتفتُ إليهِ (٢) .

وهـٰذا القلبُ بعدَ طهارتِهِ مِنَ المهلكاتِ يصيرُ على القرْبِ معموراً بالمنجياتِ التي سنذكرُها ؛ مِنَ الصبرِ ، والشكرِ ، والخوفِ ، والرجاءِ ، والفقرِ ، والزهدِ ، والمحبةِ ، والرضا ، والشوقِ ، والتوكُّلِ ، والتفكُّرِ ، والمحاسبةِ ، وغيرِ ذٰلكَ .

وهوَ القلبُ الذي أقبلَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليهِ بوجهِهِ (٣) ، وهوَ القلبُ

---

(١) كما روىٰ ذٰلك مرفوعاً من حديث عائشة رضي الله عنها الحكيمُ الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٣٩٩) ، وروىٰ نحوه البخاري في « الأدب المفرد » (٧١٦) ، وهـٰذا هو وصف قلوب الصديقين .

(٢) قال الإمام القشيري في « لطائف الإشارات » (٢/٥٥٤) : (الشياطين يتعرضون للأنبياء عليهم السلام ، ولـٰكن لا سلطان ولا تأثير في أحوالهم منهم ، ونبينا صلى الله عليه وسلم أفضل الجماعة) ، إلىٰ أن قال : (إذا أراد الله بعبده خيراً . . أمدَّه بنور التحقيق ، وأيده بحسن العصمة ، فيميز بحسن البصيرة بين الحق والباطل ، فلا يظلُّه غمام الريب ، وينجلي عنه غطاء الغفلة ، فلا تأثير لضباب الغداة في شعاع الشمس عند متوع النهار ، وهـٰذا معنىٰ قوله : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ [الحج : ٥٤ ـ ٥٥]) .

(٣) فسلبه عن أن يكون فيه مستكن لغيره . « إتحاف » (٧/٣٠٤) .

المطمئنُّ ، المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[1] ، وبقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾[2] .

❁ ❁ ❁

القلبُ الثاني : القلبُ المخذولُ المشحونُ بالهوى ، المدنَّسُ بالأخلاقِ المذمومةِ والخبائثِ ، المفتوحُ فيهِ أبوابُ الشياطينِ ، المسدودُ عنهُ أبوابُ الملائكةِ .

ومبدأُ الشرِّ فيهِ : أنْ ينقدحَ فيهِ خاطرٌ مِنَ الهوىٰ ، ويهجِسَ فيهِ ، فينظرُ القلبُ إلىٰ حاكمِ العقلِ ليستفتيَ فيهِ ويستكشفَ وجهَ الصوابِ ، فيكونُ العقلُ قدْ ألفَ خدمةَ الهوىٰ وأنسَ بهِ ، واستمرَّ على استنباطِ الحيلِ لهُ وعلىٰ مساعدةِ الهوىٰ ، فتستولي النفسُ وتساعدُ عليهِ ، فينشرحُ الصدرُ بالهوىٰ ، وتنبسطُ فيهِ ظلماتُهُ ؛ لانخناسِ جنْدِ العقلِ عنْ مدافعتِهِ ، فيقوىٰ سلطانُ الشيطانِ ؛ لاتِّساعِ مكانِهِ بسببِ انتشارِ الهوىٰ ، فيُقبلُ عليهِ بالتزيينِ والغرورِ والأمانيِّ ، ويُوحي بذٰلكَ زخرفاً مِنَ القولِ غروراً ، فيضعفُ سلطانُ الإيمانِ بالوعْدِ والوعيدِ ، ويخبو نورُ اليقينِ بخوفِ الآخرةِ ؛ إذْ يتصاعدُ مِنَ الهوىٰ دخانٌ مظلمٌ إلى القلبِ يملأُ جوانبَهُ ، حتَّىٰ تنطفئَ أنوارُهُ ، فيصيرُ العقلُ كالعينِ التي ملأَ الدخانُ أجفانَها ، فلا يقدرُ علىٰ أنْ ينظرَ .

وهٰكذا تفعلُ غلبةُ الشهوةِ بالقلبِ ، حتَّىٰ لا يبقىٰ للقلبِ إمكانُ

---

(١) سورة الرعد : (٢٨) .

(٢) سورة الفجر : (٢٧) .

التوقفِ والاستبصارِ ، ولوْ بصَّرَهُ واعظٌ وأسمعَهُ ما هوَ الحقُّ فيهِ . . عَمِيَ عنِ الفهمِ ، وصمَّ عنِ السمعِ ، وهاجَتِ الشهوةُ فيهِ ، وسطا الشيطانُ ، وتحرَّكَتِ الجوارحُ على وَفْقِ الهوىٰ ، فظهرَتِ المعصيةُ إلىٰ عالمِ الشهادةِ مِنْ عالمِ الغيبِ بقضاءٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ وقدرٍ .

وإلىٰ مثلِ هٰذا القلبِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [1] .

وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [2] .

وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [3] .

وربَّ قلبٍ هٰذا حالُهُ بالإضافةِ إلىٰ جميعِ الشهواتِ ، وربَّ قلبٍ هٰذا حالُهُ بالإضافةِ إلىٰ بعضِ الشهواتِ ؛ كالذي يتورَّعُ عنْ بعضِ الأشياءِ ، ولٰكنَّه إذا رأىٰ وجهاً حسناً . . لمْ يملكْ عينَهُ وقلبَهُ ، وطاشَ عقلُهُ ، وسقطَ مِساكُ قلبِهِ .

أوْ كالذي لا يملكُ نفسَهُ فيما فيهِ الجاهُ والرئاسةُ والكبْرُ ، ولا يبقىٰ معَهُ مُسْكَةٌ للتثبُّتِ عندَ ظهورِ أسبابِهِ .

أوْ كالذي لا يملكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ مهما استُحقِرَ أوْ ذُكِرَ عيبٌ مِنْ عيوبِهِ .

---

(١) سورة الفرقان : (٤٣ ـ ٤٤) .

(٢) سورة يسٓ : (٧) . (٣) سورة البقرة : (٦) .

أَوْ كالذي لا يملكُ نفسَهُ عندَ القدرةِ علىٰ أخذِ درهمٍ أَوْ دينارٍ ، بلْ يتهالَكُ عليهِ تهالُكَ الوالِهِ المستهتَرِ ، فينسىٰ فيهِ المروءةَ والتقوىٰ ، وكلُّ ذٰلكَ لتصاعدِ دخانِ الهوىٰ إلى القلبِ حتَّىٰ يظلمَ وتنطفئَ منهُ أنوارُهُ ، فينطفئُ نورُ الحياءِ والمروءةِ والإيمانِ ، ويسعىٰ في تحصيلِ مرادِ الشيطانِ .

❁ ❁ ❁

القلبُ الثالثُ : قلبٌ يبدو فيهِ خاطرُ الهوىٰ فيدعوهُ إلى الشرِّ ، فيلحقُهُ خاطرُ الإيمانِ فيدعوهُ إلى الخيرِ ، فتنبعثُ النفسُ بشهوتِها إلىٰ نصرةِ خاطرِ الشرِّ ، فتقوى الشهوةُ وتحسِّنُ التمتُّعَ والتنعُّمَ ، فينبعثُ العقلُ إلىٰ خاطرِ الخيرِ ، ويدفعُ في وجهِ الشهوةِ ، ويقبِّحُ فعلَها ، وينسبُها إلى الجهلِ ، ويشبهُها بالبهيمةِ والسبعِ في تهجُّمِها على الشرِّ ، وقلَّةِ اكتراثِها بالعواقبِ ، فتميلُ النفسُ إلىٰ نصْحِ العقلِ ، فيحملُ الشيطانُ حملةً على العقلِ ، فيقوّي داعيَ الهوىٰ ، ويقولُ : ما هٰذا التحرُّجُ البارِدُ ؟ ولِمَ تمتنعُ عنْ هواكَ فتؤذيَ نفسَكَ ؟

وهلْ ترىٰ أحداً مِنْ أهلِ عصرِكَ يخالفُ هواهُ ، أَوْ يتركُ غرضَهُ ؟ أفتتركُ لهُمْ ملاذَّ الدنيا يتمتعونَ بها وتحجِّرُ علىٰ نفسِكَ حتَّىٰ تبقىٰ محروماً شقيّاً متعوباً (١) يضحكُ عليكَ أهلُ الزمانِ ؟!

---

(١) أي : متعباً ، ونصَّ الحافظ الزبيدي في « تاج العروس » (ت ع ب) علىٰ خطأ (متعوب) فقال : (ولا تقل : متعوب ؛ لمخالفة السماع والقياس ، وقيل : بل هو لحن ؛ لأن الثلاثي لازم ، واللازم لا يبنىٰ منه المفعول) .

أفتريدُ أنْ يزيدَ منصبُكَ علىٰ فلانٍ وفلانٍ وقدْ فعلوا مثلَ ما اشتهيتَ ولمْ يمتنعوا ؟!

أما ترى العالِمَ الفلانيَّ ليسَ يحترزُ مِنْ مثلِ ذٰلكَ ولوْ كانَ ذٰلكَ شرّاً . . لامتنعَ منهُ ؟

فتميلُ النفسُ إلى الشيطانِ ، وتنقلبُ إليهِ ، فيحملُ المَلَكُ حملةً على الشيطانِ ويقولُ : هلْ هلكَ إلا مَنِ اتبعَ لذَّةَ الحالِ ونسيَ العاقبةَ ؟ أفتقنعُ بلذَّةٍ يسيرةٍ وتتركُ لذَّةَ الجنةِ ونعيمَها أبدَ الآبادِ ؟

أمْ تستثقلُ ألمَ الصبرِ عنْ شهوتِكَ ولا تستثقلُ ألمَ النارِ ؟

أتغترُّ بغفلةِ الناسِ عنْ أنفسِهِمْ واتباعِهِمْ هواهُمْ ومساعدتِهِمُ الشيطانَ معَ أنَّ عذابَ النارِ لا يخفِّفُهُ عنكَ معصيةُ غيرِكَ ؟

أرأيتَ لوْ كنتَ في يومٍ صائفٍ شديدِ الحرِّ ووقفَ الناسُ كلُّهُمْ في الشمسِ ، وكانَ لكَ بيتٌ باردٌ . . أكنتَ تساعدُ الناسَ أوْ تطلبُ لنفسِكَ الخلاصَ ؟ فكيفَ تخالفُ الناسَ خوفاً مِنْ حرِّ الشمسِ ولا تخالفُهُمْ خوفاً مِنْ حرِّ النارِ ؟!

فعندَ ذاكَ تمتثِلُ النفسُ إلىٰ قولِ المَلَكِ ، فلا يزالُ يتردَّدُ بينَ الجندينِ ، متجاذَباً بينَ الحزبينِ . . إلىٰ أنْ يغلبَ على القلبِ ما هوَ أولىٰ بهِ .

فإنْ كانَتِ الصفاتُ التي في القلبِ الغالبُ عليها الصفاتُ الشيطانيَّةُ التي ذكرناها . . غلبَ الشيطانُ ، ومالَ القلبُ إلىٰ جنسِهِ

منْ أحزابِ الشيطانِ ، معرِضاً عنْ حزبِ اللهِ تعالىٰ وأوليائِهِ ، ومساعداً لحزبِ الشيطانِ وأعدائِهِ ، وجرىٰ علىٰ جوارحِهِ بسابقِ القدرِ ما هوَ سببُ بعدِهِ عنِ اللهِ تعالىٰ .

وإنْ كانَ الأغلبُ على القلبِ الصفاتِ الملكيَّةَ . . لمْ يصغِ القلبُ إلىٰ إغواءِ الشيطانِ وتحريضِهِ إيَّاهُ على العاجلةِ ، وتهوينِهِ أمرَ الآخرةِ ، بلْ مالَ إلىٰ حزبِ اللهِ تعالىٰ ، وظهرَتِ الطاعةُ بموجَبِ ما سبقَ مِنَ القضاءِ علىٰ جوارحِهِ .

فقلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمٰنِ ؛ أيْ : بينَ تجاذبِ هٰذينِ الجندينِ ، وهوَ الغالبُ ؛ أعني : التقلُّبَ والانتقالَ مِنْ حزبٍ إلىٰ حزبٍ ، أمَّا الثباتُ على الدوامِ معَ حزبِ الملائكةِ ، أوْ معَ حزبِ الشيطانِ . . فنادرٌ مِنَ الجانبينِ .

وهٰذهِ الطاعاتُ والمعاصي تظهرُ مِنْ خزائنِ الغيبِ إلىٰ عالمِ الشهادةِ بواسطةِ خزانةِ القلبِ ؛ فإنَّهُ مِنْ خزائنِ الملكوتِ ، وهيَ أيضاً إذا ظهرَتْ . . كانَتْ علاماتٍ تعرِّفُ أربابَ القلوبِ سابقَ القضاءِ ، فمَنْ خُلِقَ للجنَّةِ . . يُسِّرَتْ لهُ أسبابُ الطاعاتِ ، ومَنْ خُلِقَ للنارِ يُسِّرَتْ لهُ أسبابُ المعاصي ، وسُلِّطَ عليهِ أقرانُ السوءِ ، وأُلقيَ في قلبِهِ حِكَمُ الشيطانِ ؛ فإنَّهُ بأنواعِ الحكمِ يغرُّ الحمقىٰ بقولِهِ : (إنَّ اللهَ رحيمٌ ، فلا تبالِ ، وإنَّ الناسَ كلَّهُمْ ما يخافونَ اللهَ ، فلا تخالفْهُمْ ، وإنَّ العمرَ طويلٌ ، فاصبرْ حتَّىٰ تتوبَ غداً) : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا

يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[1] ، يعدُهُم التوبةَ ، ويمنِّيهِمُ المغفرةَ ، فيهلكُهُمْ بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ بهٰذهِ الحيلِ وما يُجرىٰ مَجراها ، فيوسِّعُ قلبَهُ لقبولِ الغرورِ ، ويضيِّقُهُ عنْ قبولِ الحقِّ .

وكلُّ ذٰلكَ بقضاءٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ وقدرٍ ، ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[2] ، ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾[3] .

فهوَ الهادي والمضلُّ ، يفعلُ ما يشاءُ ، ويحكمُ ما يريدُ ، لا رادَّ لحكمِهِ ، ولا معقِّبَ لقضائِهِ ، خلقَ الجنَّةَ ، وخلقَ لها أهلاً ، فاستعملَهُمْ بالطاعةِ ، وخلقَ النارَ ، وخلقَ لها أهلاً ، فاستعملَهُمْ بالمعاصي .

وعرَّفَ الخلقَ علامةَ أهلِ الجنَّةِ وأهلِ النارِ فقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾[4] ، ثمَّ قالَ تعالىٰ فيما يروي عنهُ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هٰؤلاءِ في الجنَّةِ ولا أبالي ، وهٰؤلاءِ في النَّارِ ولا أبالي »[5] .

---

(١) سورة النساء : (١٢٠) .

(٢) سورة الأنعام : (١٢٥) .

(٣) سورة آل عمران : (١٦٠) .

(٤) سورة الانفطار : (١٣) .

(٥) رواه أحمد في « المسند » (٤/١٨٦) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٣٨) من حديث عبد الرحمٰن السلمي رضي الله عنه مرفوعاً ، وهو عند أحمد في « المسند » (٥/٢٣٩) (٦/٤٤١) من حديث معاذ وأبي الدرداء رضي الله عنهما كذٰلك .

فتعالى اللهُ الملكُ الحقُّ جلَّ وعزَّ ، لا يُسألُ عمَّا يفعلُ وهُمْ يُسألونَ .

* * *

ولنقتصرْ على هٰذا القدْرِ اليسيرِ مِنْ ذكرِ عجائبِ القلبِ ؛ فإنَّ استقصاءَهُ لا يليقُ بعلْمِ المعاملةِ ، وإنَّما ذكرنا منهُ ما يُحتاجُ إليهِ ؛ لمعرفةِ أغوارِ علومِ المعاملةِ وأسرارِها ؛ لينتفعَ بها مَنْ لا يقنعُ بالظواهرِ ، ولا يجتزئَ بالقشرِ عنِ اللبابِ ، بلْ يتشوَّقُ إلىٰ معرفةِ دقائقِ حقائقِ الأسبابِ ، وفيما ذكرناهُ كفايةٌ لهُ ومقنعٌ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، واللهُ وليُّ التوفيقِ .

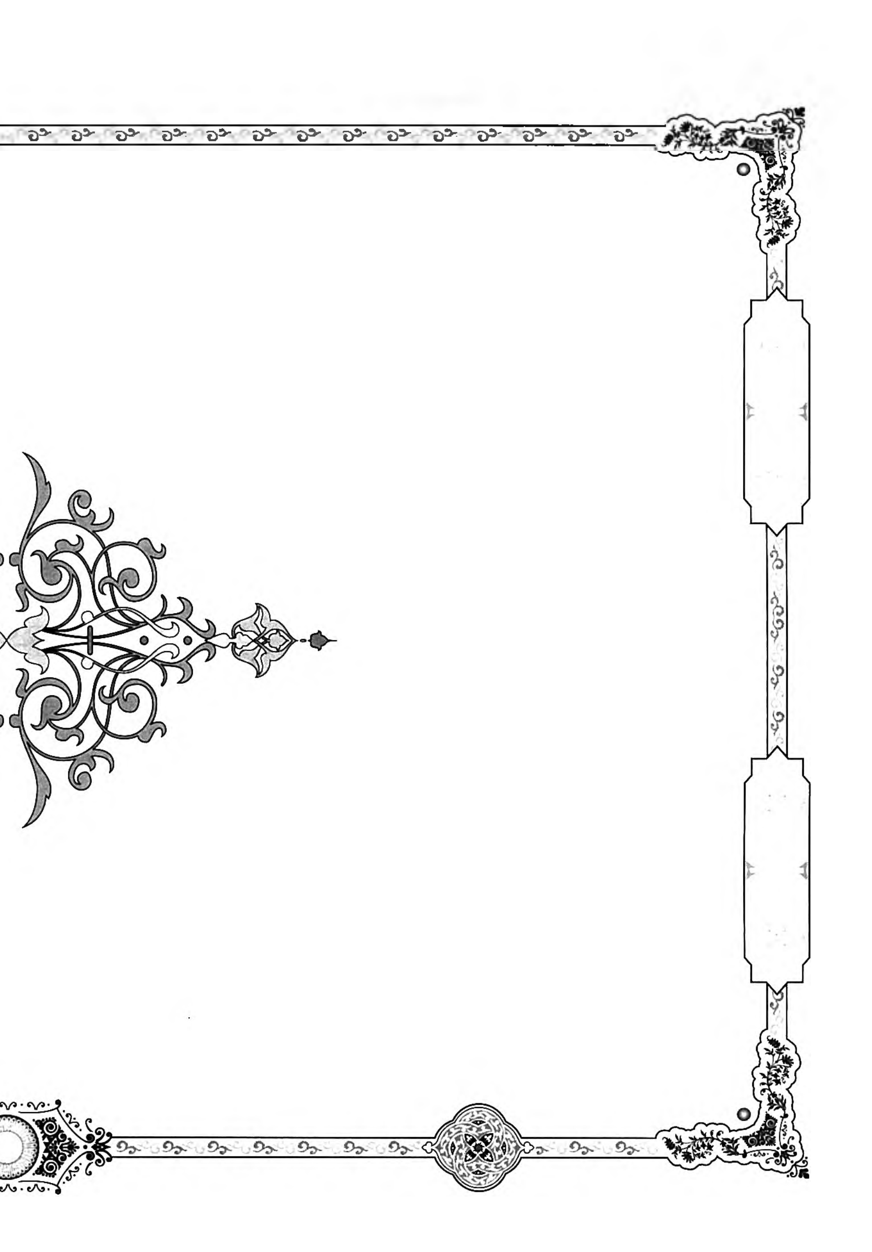
* * *

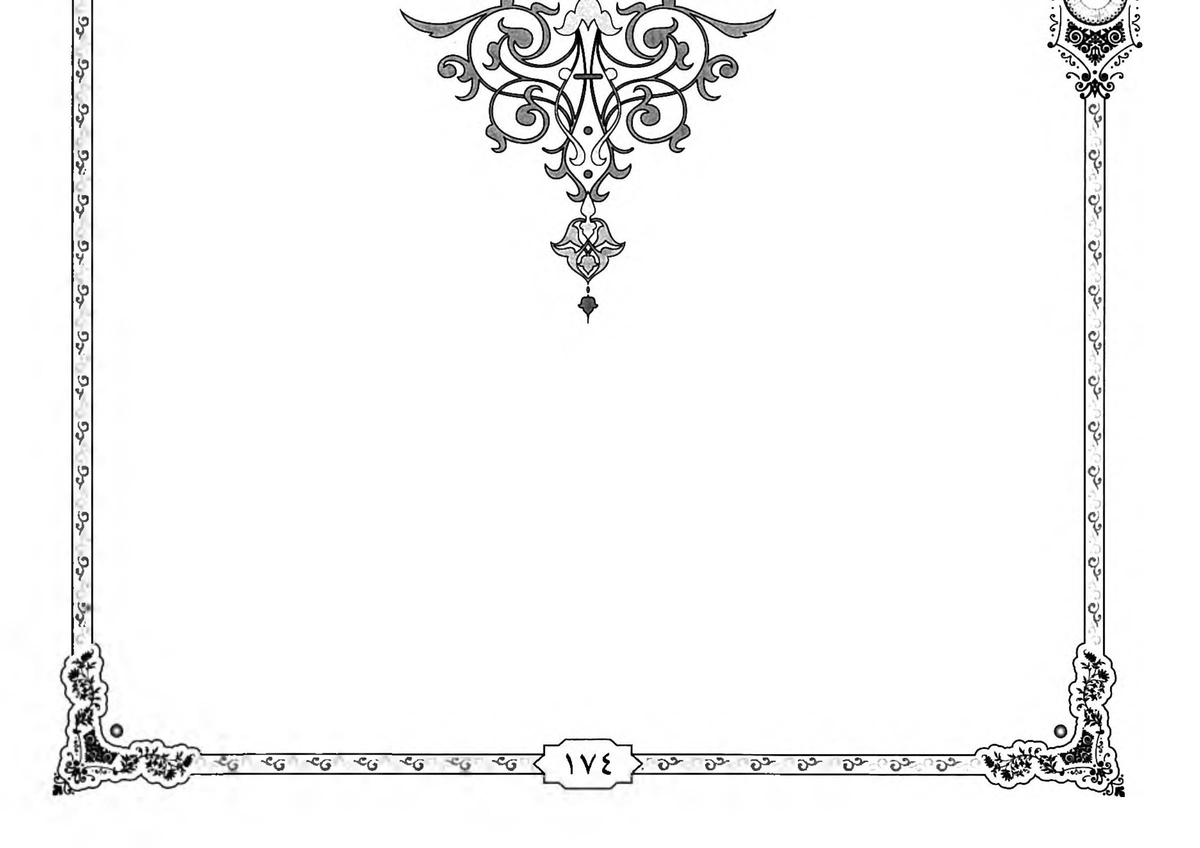
تمّ كتاب عجائب القلب

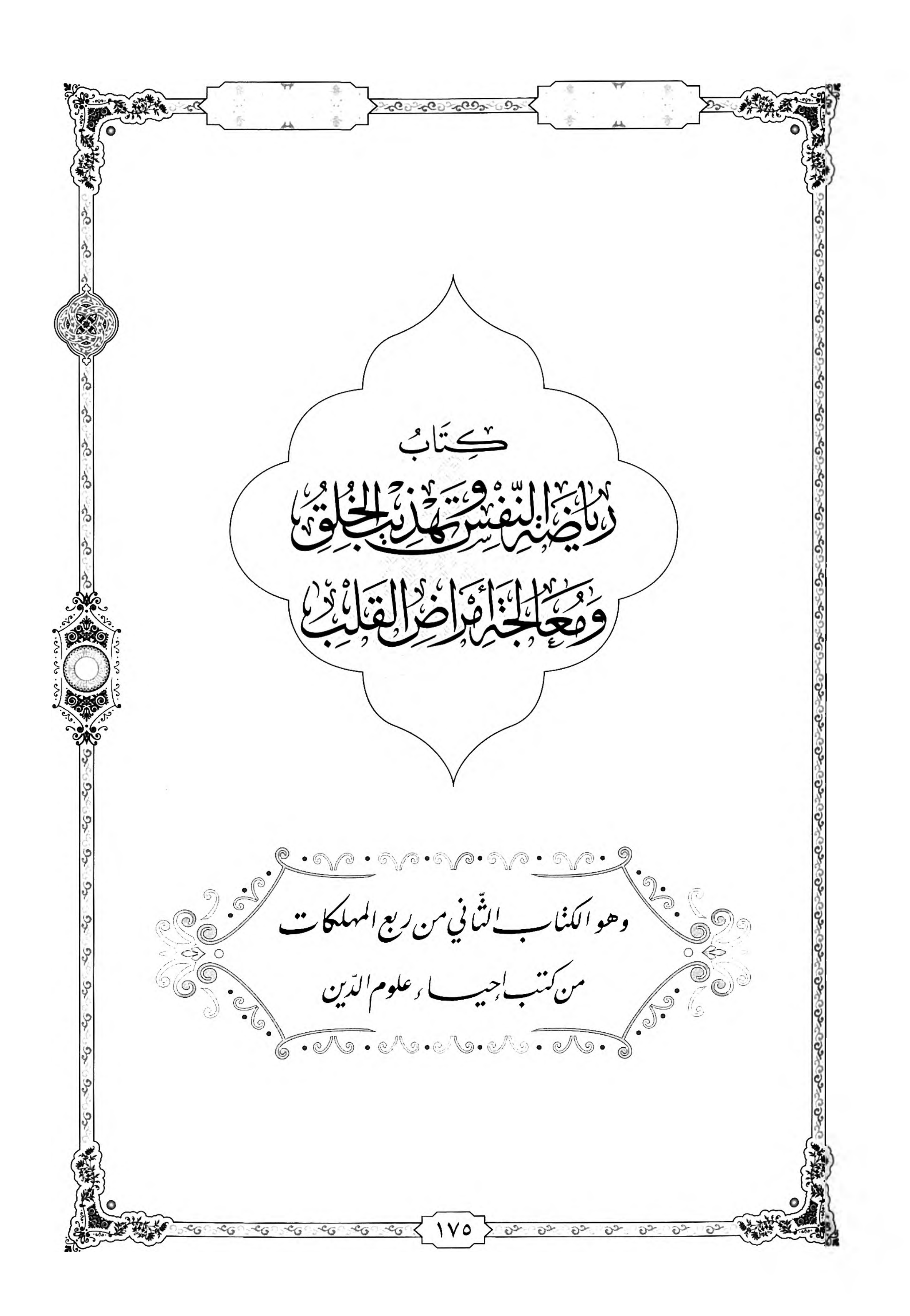
وهو الكتاب الأوّل من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدّين

والحمد لله وحده ، وصلواته على محمّد نبيّه وآله وسلّم تسليماً

يتلوه كتاب رياضة النفس وتهذيب الخلق ومعالجة أمراض القلب

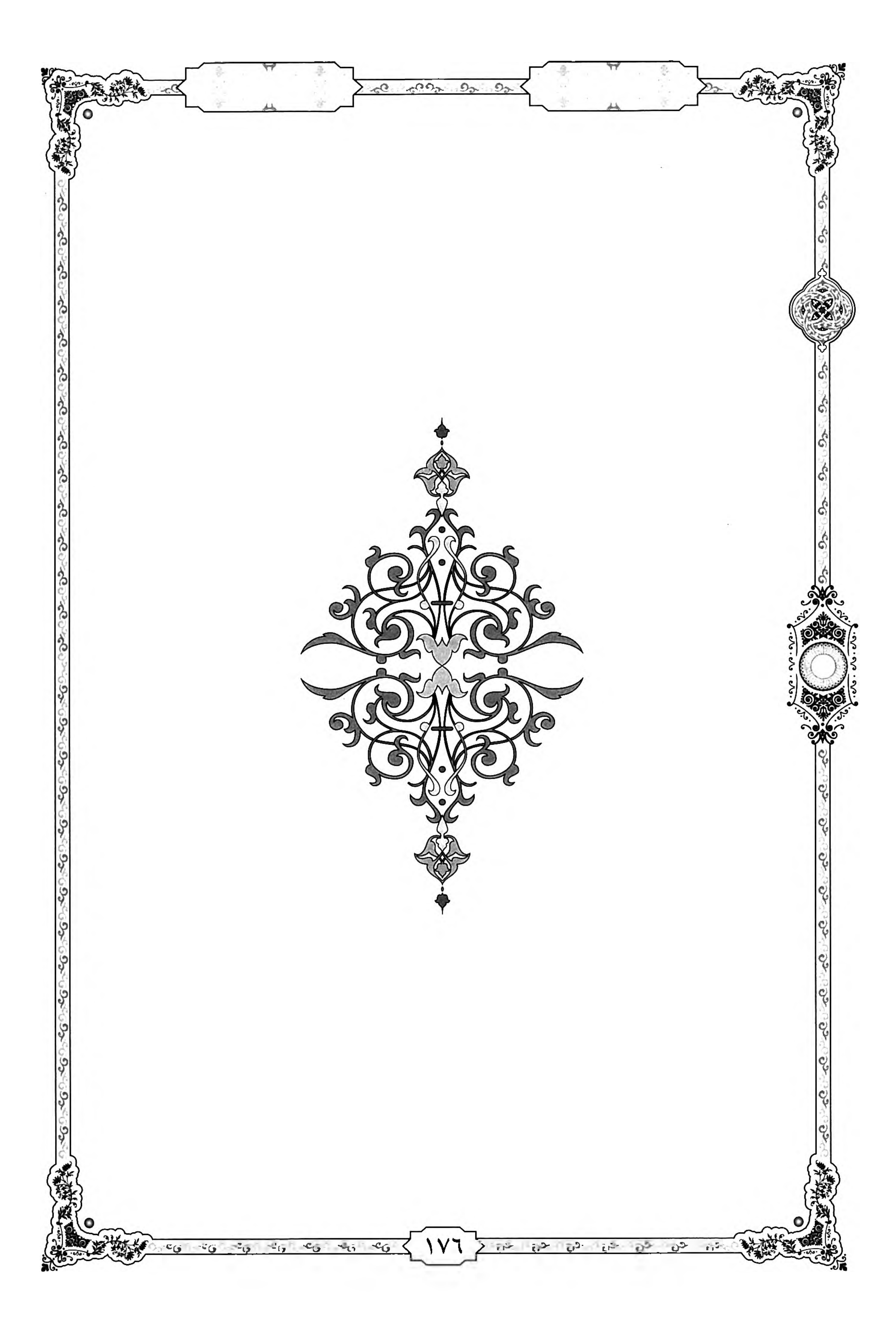






كتاب
رياضة النفس وتهذيب الخلق ومعالجة أمراض القلب

وهو الكتاب الثاني من ربع المهلكات
من كتب إحياء علوم الدين



كتاب رياضة النّفس وتهذيب الخلق ومعالجة أمراض القلب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي صرَّفَ الأمورَ بتدبيرِهِ ، وعدَّلَ تركيبَ الخلقِ فأحسنَ في تصويرِهِ ، وزيَّنَ صورةَ الإنسانِ بحسْنِ تقويمِهِ وتقديرِهِ ، وحرسَهُ مِنَ الزيادةِ والنقصانِ في شكْلِهِ ومقاديرِهِ ، وفوَّضَ تحسينَ الأخلاقِ إلى اجتهادِ العبدِ وتشميرِهِ ، واستحثَّهُ علىٰ تهذيبِها بتخويفِهِ وتحذيرِهِ ، وسهَّلَ علىٰ خواصِّ عبادِهِ تهذيبَ الأخلاقِ بتوفيقِهِ وتيسيرِهِ ، وامتنَّ عليهِمْ بتسهيلِ صعبِهِ وعسيرِهِ .

والصلاةُ والسلامُ علىٰ محمدٍ عبدِ اللهِ ونبيِّهِ وحبيبِهِ وصفيِّهِ وبشيرِهِ ونذيرِهِ ، الذي كانَ يلوحُ نورُ النبوَّةِ مِنْ بينِ أساريرِهِ ، وتُستشفُّ حقيقةُ الحقِّ مِنْ مخايلِهِ وتباشيرِهِ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ الذينَ طهَّروا وجْهَ الإسلامِ منْ ظلمةِ الكفرِ ودياجيرِهِ ، وحسموا مادَّةَ الباطلِ فلمْ يتدنَّسوا بقليلِهِ ولا بكثيرِهِ .

أمّا بعد :

فالخُلُقُ الحسنُ صفةُ سيِّدِ المرسلينَ ، وأفضلُ أعمالِ الصِّدِّيقينَ ، وهوَ على التحقيقِ شطْرُ الدينِ [1] ، وثمرةُ مجاهدةِ المتقينَ ، ورياضةُ المتعبدينَ .

---

(١) وقد روى العقيلي في « الضعفاء » (٢/٣٦٦) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٢٧١٢) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « حسن الخلق نصف الدين » .

والأخلاقُ السيئةُ هيَ السمومُ القاتلةُ والمهلكاتُ الدامغةُ ، والمخازي الفاضحةُ ، والرذائلُ الواضحةُ ، والخبائثُ المبعدةُ عنْ جوارِ ربِّ العالمينَ ، المنخرطةُ بصاحبِها في سلْكِ الشياطينِ ، وهيَ الأبوابُ المفتوحةُ إلىٰ نارِ اللهِ الموقدةِ ، التي تطلعُ على الأفئدةِ ، كما أنَّ الأخلاقَ الجميلةَ هيَ الأبوابُ المفتوحةُ مِنَ القلبِ إلىٰ نعيمِ الجنانِ وجوارِ الرحمٰنِ .

والأخلاقُ الخبيثةُ أمراضُ القلوبِ ، وأسقامُ النفوسِ ، إلا أنَّهُ مرضٌ يفوِّتُ حياةَ الأبدِ ، وأينَ منهُ المرضُ الذي لا يفوِّتُ إلا حياةَ الجسدِ ؟!

ومهما اشتدَّتْ عنايةُ الأطباءِ بضبطِ قوانينِ العلاجِ لأمراضِ الأبدانِ وليسَ في مرضِها إلا فوتُ الحياةِ الفانيةِ . . فالعنايةُ بضبطِ قوانينِ العلاجِ لأمراضِ القلوبِ وفي مرضِها فوتُ حياةٍ باقيةٍ أولىٰ ، وهٰذا النوعُ مِنَ الطبِّ واجبٌ تعلُّمُهُ علىٰ كلِّ ذي لبٍّ [١] ؛ إذْ لا يخلو قلبٌ مِنَ القلوبِ عنْ أسقامٍ لوْ أُهملَتْ . . تراكمَتْ ، وترادفَتِ العللُ وتظاهرَتْ ، فيحتاجُ العبدُ إلىٰ تأنُّقٍ في معرفةِ عللِها وأسبابِها ، ثمَّ إلىٰ تشميرٍ في معالجتِها وإصلاحِها ، فمعالجتُها هوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ وإهمالُها هوَ المرادُ بقولِهِ : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [٢] .

---

(١) وهٰذا هو طب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، أرسلهم الله تعالىٰ لتعليم الأمم كيف يجعلون القلب في كور المجاهدة ، وكيف يطهرون القلب من الأخلاق المذمومة ، وكيف يوردونه طريق الصفاء . « إتحاف » (٣١٧/٧) .

(٢) سورة الشمس : (٩ ـ ١٠) .

ونحنُ نشيرُ في هٰذا الكتابِ إلىٰ جملٍ مِنْ أمراضِ القلوبِ ، وكيفيةِ القولِ في معالجتِها على الجملةِ ، مِنْ غيرِ تفصيلٍ لعلاجِ خصوصِ الأمراضِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يأتي في بقيَّةِ الكتبِ مِنْ هٰذا الربعِ ، وغرضُنا الآنَ النظرُ الكليُّ في تهذيبِ الأخلاقِ وتمهيدِ منهاجِها ، ونحنُ نذكرُ ذٰلكَ ، ونجعلُ علاجَ البدنِ مثالاً لهُ ، ليقربَ مِنَ الأفهامِ دركُهُ .

ويتضحُ ذٰلكَ ببيانِ فضيلةِ حسْنِ الخلقِ ، ثمَّ بيانِ حقيقةِ حسْنِ الخلقِ ، ثمَّ بيانِ قبولِ الأخلاقِ للتغييرِ بالرياضةِ ، ثمَّ بيانِ السببِ الذي بهِ يُنالُ حسنُ الخلقِ ، ثمَّ بيانِ تفصيلِ الطرقِ إلىٰ تهذيبِ الأخلاقِ ورياضةِ النفوسِ ، ثمَّ بيانِ العلاماتِ التي بها يُعرفُ مرضُ القلبِ ، ثمَّ بيانِ الطرقِ التي بها يعرفُ الإنسانُ عيوبَ نفسِهِ ، ثمَّ بيانِ شواهدِ النقلِ علىٰ أنَّ طريقَ المعالجةِ للقلوبِ بترْكِ الشهواتِ لا غيرَ ، ثمَّ بيانِ علاماتِ حسْنِ الخلقِ ، ثمَّ بيانِ الطريقِ في رياضةِ الصبيانِ في أوَّلِ النشوءِ ، ثمَّ بيانِ شروطِ الإرادةِ ومقدماتِ المجاهدةِ .

فهيَ أحدَ عشرَ فصلاً تجمعُ مقاصدَ هٰذا الكتابِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

❊ ❊ ❊

بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق

قالَ اللهُ تعالىٰ لنبيِّهِ وحبيبِهِ مثنياً عليهِ ومظهراً نعمتَهُ لديهِ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خلقُهُ القرآنَ) (٢) .

وسألَ رجلٌ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ حسنِ الخلقِ فتلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (٣) ، ثمَّ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هوَ أنْ تصلَ مَنْ قطعَكَ ، وتعطيَ مَنْ حرمَكَ ، وتعفوَ عمَّنْ ظلمَكَ » (٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما بُعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ » (٥) .

---

(١) سورة القلم : (٤) .

(٢) هو جزء من حديث طويل رواه مسلم (٧٤٦) ، وأبو داوود (١٣٤٢) ، وأحمد في « المسند » (٦/٩١) .

(٣) سورة الأعراف : (١٩٩) .

(٤) رواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٤/٢٣١٠) من حديث قيس بن سعد بن عبادة ، ورواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢٥) عن أميّ الصيرفي .

(٥) رواه أحمد في « المسند » (٢/٣٨١) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/٦١٣) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/١٩٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أثقلُ ما يُوضعُ في الميزانِ يومَ القيامةِ تقوى اللهِ وحسنُ الخلقِ »[(١)] .

وجاءَ رجلٌ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ بينِ يديهِ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما الدينُ ؟ قالَ : « حسنُ الخلُقِ » ، ثمَّ أتاهُ مِنْ قبلِ يمينِهِ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما الدينُ ؟ قال : « حسنُ الخلُقِ » ، ثمَّ أتاهُ مِنْ قبلِ شمالِهِ ، فقالَ يا رسولَ اللهِ ؛ ما الدينُ ؟ فقالَ : « حسنُ الخلُقِ » ، ثمَّ أتاهُ مِنْ ورائِهِ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما الدينُ ؟ فالتفتَ إليهِ وقال : « أمَا تفقَهُ ؟! هوَ ألا تغضبَ »[(٢)] .

وقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما الشؤمُ ؟ قالَ : « سوءُ الخلُقِ »[(٣)] .

وقالَ رجلٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أوصني ، فقالَ : « اتقِ اللهَ حيثُ كنتَ » ، قالَ : زدْني ، قالَ : « أتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها » ، قالَ : زدْني ، قالَ : « خالقِ الناسَ بخلقٍ حسنٍ »[(٤)] .

---

(١) رواه أبو داوود (٤٧٩٩) ، والترمذي (٢٠٠٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .
(٢) رواه المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (ص ٥٢٥) ، والخرائطي أخصر منه في « مساوئ الأخلاق » (٣٥٤) عن أبي العلاء بن الشخير مرسلاً .
(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٧٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٦٥٧) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً ، وعند أحمد في « المسند » (٦/٨٥) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « الشؤم سوء الخلق » .
(٤) رواه أحمد في « المسند » (٥/٢٣٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/١٤٥) ، والمستوصي هو معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وقريب منه عند الترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه دون ذكر الاستيصاء .

وسُئِلَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ قالَ : « حسنُ الخلقِ »[(١)] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما حسَّنَ اللهُ خَلْقَ عبدٍ وخُلُقَهُ فيطعمَهُ النارَ »[(٢)] .

وقالَ الفضيلُ : قيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ فلانةَ تصومُ النهارَ وتقومُ الليلَ وهيَ سيئةُ الخلقِ ، تؤذي جيرانَها بلسانِها ، قالَ : « لا خيرَ فيها ، هيَ مِنْ أهلِ النارِ »[(٣)] .

وقالَ أبو الدرداءِ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « أوَّلُ ما يُوضعُ في الميزانِ حسنُ الخلُقِ والسخاءُ ، ولمَّا خلقَ اللهُ عزَّ وجلَّ الإيمانَ . . قالَ : اللهمَّ ؛ قوِّني ، فقوَّاهُ بحسْنِ الخلقِ والسخاءِ ، ولمَّا خلقَ اللهُ الكفرَ . . قالَ : اللهمَّ ؛ قوِّني ، فقوَّاهُ بالبخلِ وسوءِ الخلقِ »[(٤)] .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١/ ١٨٠) من حديث أسامة بن شريك رضي الله عنه .
(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٧٧٦) ، وابن عدي في « الكامل » (٣/ ٨٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٦٧٨) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٤٤٠) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (١١٩) .
(٤) هما خبران ، فقوله : « أول ما يوضع في الميزان حسن الخلق » وليس فيه عطف السخاء . . فقد رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٥٨٤٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٤/ ٢٥٢) من حديث أم الدرداء رضي الله عنها ، وتقدم أن أصله عند أبي داوود (٤٧٩٩) ، والترمذي (٢٠٠٣) ، وباقي الحديث رواه ابن الجوزي في « الموضوعات » (٢/ ٩٦) بسنده عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، وبيَّن تلفه بمحمد بن تميم الفاريابي .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ استخلصَ هـٰذا الدينَ لنفسِهِ ، ولا يصلحُ لدينِكُمْ إلا السخاءُ وحسنُ الخلقِ ، ألا فزيِّنوا دينَكُمْ بهما »(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « حسنُ الخلُقِ خلقُ اللهِ الأعظمُ »(٢) .

وقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ المؤمنينَ أفضلُ إيماناً ؟ قالَ : « أحسنُهُمْ خُلُقاً »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّكُمْ لنْ تسعوا الناسَ بأموالِكُمْ ، فسعوهُمْ ببسْطِ الوجهِ وحسْنِ الخُلُقِ »(٤) .

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سوءُ الخلقِ يفسدُ العملَ كما يفسدُ الخلُّ العسلَ »(٥) .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١٥٩/١٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٥٩/٢) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما ، وبنحوه عند الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٣٩) من حديث جابر رضي الله عنه ، وقال الحافظ العراقي : (رواه الدارقطني في « المستجاد » ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد فيه لين) . « إتحاف » (٣٢٠/٧) .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٣٤٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٧٥/٢) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٣) رواه أبو داوود (٤٦٨٢) ، والترمذي (١١٦٢) ، وابن ماجه (٤٢٥٩) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٥٨٤٢) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٥٥٠) ، والبزار في « مسنده » (٨٥٤٤) .

(٥) رواه عبد بن حميد في « مسنده » (٧٩٩) ، والطبراني في « الكبير » (٣١٩/١٠) ، وابن عدي في « الكامل » (٢٤١/٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٤٨/٦) .

وعنْ جريرِ بنِ عبدِ اللهِ قالَ : قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّكَ امرؤٌ قدْ حسَّنَ اللهُ خَلْقَكَ فحسِّنْ خُلُقَكَ »[1] .

وعنِ البراءِ بنِ عازبٍ قالَ : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أحسنَ الناسِ وجهاً ، وأحسنَهُمْ خلقاً)[2] .

وعنْ أبي مسعودٍ البدريِّ قالَ : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ في دعائِهِ : « اللهمَّ ؛ حسَّنْتَ خَلْقي فحسِّنْ خُلُقي »[3] .

وعنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو رضيَ اللهُ عنهما قالَ : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يكثرُ الدعاءَ فيقولُ : « اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ الصحةَ والعافيةَ وحسنَ الخلقِ »[4] .

وعنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « كرمُ المرْءِ دينُهُ ، ومروءتُهُ عقلُهُ ، وحَسَبُهُ خلقُهُ »[5] .

وعنْ أسامةَ بنِ شريكٍ قالَ : شهدتُ الأعاريبَ يسألونَ النبيَّ

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٧) وكان جرير من أحسن الناس خلقاً ، وقد أعطي شطر الحسن في جسمه . « إتحاف » (٧/٣٢١) .
(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه .
(٣) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٩) ، قال الحافظ العراقي : (هكذا من رواية أبي الهذيل عن أبي مسعود البدري ، وإنما هو ابن مسعود ، وهو عبد الله ، هكذا رواه ابن حبان في « صحيحه » ، ورواه أحمد من حديث عائشة) . « إتحاف » (٧/٣٢٢) .
(٤) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (١٠) .
(٥) رواه أحمد في « المسند » (٢/٣٦٥) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (١٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٤٨٣) ، والحاكم في « المستدرك » (١/١٢٣) ، وفي (ب) : (كرم المؤمن دينه . . .) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولونَ : ما خيرُ ما أُعطيَ العبدُ ؟ قالَ : « خلُقٌ حسنٌ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أحبَّكُمْ إليَّ وأقربَكُمْ منِّي مجلساً يومَ القيامةِ أحاسنُكُمْ أخلاقاً »[2] .

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مَنْ لمْ تكنْ فيهِ أوْ واحدةٌ منهُنَّ فلا تعتدَّنَّ بشيءٍ مِنْ عملِهِ : تقوىً تحجزُهُ عَنْ معاصي اللهِ ، أوْ حِلمٌ يكُفُّ بهِ السّفيهَ ، أوْ خلقٌ يعيشُ بهِ في الناسِ »[3] .

وكانَ مِنْ دعائِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في افتتاحِ الصلاةِ : « اللهمَّ ؛ اهدني لأحسنِ الأخلاقِ لا يهدي لأحسنِها إلا أنتَ ، واصرفْ عنِّي سيِّئَها لا يصرفُ عنِّي سيِّئَها إلا أنتَ »[4] .

وقالَ أنسٌ : « بينما نحنُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً إذْ قالَ : « إنَّ حسنَ الخلقِ ليذيبُ الخطيئةَ كما تذيبُ الشمسُ الجليدَ »[5] .

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٤٣٦) ضمن خبر ، وكما أورده المصنف رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (١٤) .

(٢) رواه الترمذي (٢٠١٨) ضمن خبر ، وكما أورده المصنف رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٢٣) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٥٥) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٢٩) ، وقد رواه الطبراني في « الكبير » (٣٠٧/٢٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

(٤) رواه مسلم (٧٧١) .

(٥) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤١) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٧٦٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مِنْ سعادةِ المرءِ حسنُ الخُلُقِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اليُمْنُ حسْنُ الخلُقِ »(٢) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لأبي ذرٍّ : « يا أبا ذرٍّ ؛ لا عقلَ كالتدبيرِ ، ولا حسَبَ كحسنِ الخلقِ »(٣) .

وعنْ أنسٍ قالَ : قالَتْ أمُّ حبيبةَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أرأيتَ المرأةَ منَّا يكونُ لها زوجانِ في الدنيا ، فتموتُ ويموتانِ ، ويدخلونَ الجنَّةَ ، لأيِّهما هيَ ؟ قالَ : « لأحسنِهما خُلُقاً كانَ عندَها في الدنيا ، يا أمَّ حبيبةَ ؛ ذهبَ حسْنُ الخلقِ بخيري الدنيا والآخرةِ »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ المسلمَ المسدَّدَ ليدركُ درجةَ الصائمِ القائمِ بحسْنِ خلقِهِ وكرمِ ضريبتِهِ »(٥) ، وفي روايةٍ : « درجةَ الظمآنِ في الهواجرِ »(٦) .

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٦٧٩) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٥٤) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٣) رواه ابن ماجه (٤٢١٨) .

(٤) رواه عبد بن حميد في « مسنده » (١٢١٣) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٠) ، والطبراني في « الكبير » (٢٢٢/٢٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٧١/٥) .

(٥) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٣ ، ٦٠٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، **والضريبة** : الطبيعة .

(٦) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وقالَ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ سمرةَ : كنَّا عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « إنِّي رأيتُ البارحةَ عجباً ، رأيتُ رجلاً مِنْ أمَّتي جاثياً علىٰ ركبتيهِ ، وبينَهُ وبينَ اللهِ حجابٌ ، فجاءَ حسْنُ خلقِهِ فأدخلَهُ على اللهِ تعالىٰ »[1] .

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ ليبلغُ بحسْنِ خلقِهِ عظيمَ درجاتِ الآخرةِ وشرفَ المنازلِ وإنَّهُ لضعيفٌ في العبادةِ »[2] .

ورُوِيَ أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ استأذنَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعندَهُ نساءٌ مِنْ نساءِ قريشٍ يكلمنَهُ ويستكثرنَهُ عاليةً أصواتُهُنَّ علىٰ صوتِهِ ، فلمَّا استأذنَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ . . تبادرنَ الحجابَ ، فدخلَ عمرُ ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يضحكُ ، فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : أضحكَ اللهُ سنَّكَ ، بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ : « عجبتُ لهـٰؤلاءِ اللاتي كُنَّ عندي !! لمَّا سمعنَ صوتَكَ . . تبادرنَ الحجابَ » ، فقالَ عمرُ : أنتَ كنتَ أحقَّ أنْ يهبنَكَ يا رسولَ اللهِ ، ثمَّ أقبلَ عليهِنَّ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : أيْ عدوَّاتِ أنفسِهِنَّ ؛ أتهبنَني ولا تهبنَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟! قلنَ : نعمْ ، أنتَ أغلظُ وأفظُّ مِنْ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٤) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٨١) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٦١) ، والطبراني في « الكبير » (١/ ٢٦٠) .

وسلَّمَ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إيهاً يا بنَ الخطابِ ، والذي نفسي بيدِهِ ؛ ما لقيَكَ الشيطانُ قطُّ سالكاً فجّاً إلّا سلكَ فجّاً غيرَ فجِّكَ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سوءُ الخلُقِ ذنبٌ لا يُغفرُ ، وسوءُ الظَّنِّ خطيئةٌ نتوجُ »[٢] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ العبدَ ليبلغُ مِنْ سوءِ خلقِهِ أسفلَ دَرَكِ جهنَّمَ »[٣] .

❊ ❊ ❊

الآثارُ :

قالَ ابنُ لقمانَ الحكيمِ لأبيهِ : يا أبتِ ؛ أيُّ الخصالِ مِنَ الإنسانِ خيرٌ ؟ قالَ : الدينُ ، قالَ : فإذا كانَتِ اثنتينِ ؟ قالَ : الدينُ والمالُ ، قالَ : فإذا كانَتْ ثلاثاً ؟ قالَ : الدينُ والمالُ والحياءُ ، قالَ : فإذا كانَتْ أربعاً ؟ قالَ : الدينُ والمالُ والحياءُ وحسنُ الخلقِ ، قالَ : فإذا كانَتْ خمساً ؟ قالَ : الدينُ والمالُ والحياءُ وحسْنُ الخلقِ والسخاءُ ، قالَ :

---

(١) رواه البخاري (٣٢٩٤) ، ومسلم (٢٣٩٧) ، ولفظ المصنف عند الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٦٦) .

(٢) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٧) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ونتوج : تنتج الشرور ، وهـٰذا المعنىٰ رواه الطبراني في « الصغير » (١/ ٢٠٠) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « ما من شيء إلا له توبة إلا صاحب سوء الخلق ؛ فإنه لا يتوب من ذنب إلا عاد في شر منه » .

(٣) هو بعض حديث : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه . . . » المتقدم .

فإذا كانَتْ ستّاً ؟ قالَ : يا بنيَّ ؛ إذا اجتمعَتْ فيهِ الخمسُ الخصالُ . . فهوَ تقيٌّ نقيٌّ ، للهِ وليٌّ ، ومِنَ الشيطانِ بريٌّ [١] .

وقالَ الحسنُ : (مَنْ ساءَ خلقُهُ . . عذَّبَ نفسَهُ) [٢] .

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ : (إنَّ العبدَ ليبلغُ بحسْنِ خلقِهِ أعلىٰ درجةٍ في الجنَّةِ وهوَ غيرُ عابدٍ ، ويبلغُ بسوءِ خلقِهِ أسفلَ دركٍ في جهنَّمَ وهوَ عابدٌ) [٣] .

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (في سعةِ الأخلاقِ كنوزُ الأرزاقِ) [٤] .

وقالَ وهبُ بنُ منبهٍ : (مثلُ السيِّئِ الخلقِ كمثلِ الفخَّارةِ المكسورةِ ، لا تُرقعُ ، ولا تعادُ طيناً) .

وقالَ الفضيلُ : (لأنْ يصحبَني فاجرٌ حسنُ الخلقِ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ يصحبَني عابدٌ سيِّئُ الخلقِ) [٥] .

وصحبَ ابنَ المباركِ رجلٌ سيِّئُ الخلقِ في سفرٍ ، فكانَ يحتملُ منهُ ويداريهِ ، فلمَّا فارقَهُ . . بكىٰ ، فقيلَ لهُ في ذٰلكَ ، فقالَ : بكيتُهُ رحمةً لهُ ، فارقتُهُ وخلقُهُ معَهُ لمْ يفارقْهُ .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٨) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٩٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٦٨٣) .
(٣) تقدم قريباً من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٥) من غير نسبة .
(٥) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٦٤) .

وقالَ الجنيدُ : (أربعٌ ترفعُ العبدَ إلىٰ أعلى الدرجاتِ وإنْ قلَّ عملُهُ وعلمُهُ ؛ الحلمُ ، والتواضعُ ، والسخاءُ ، وحسْنُ الخلقِ ، وهوَ كمالُ الإيمانِ)[١] .

وقالَ الكتانيُّ : (التصوُّفُ خلقٌ ، فمَنْ زادَ عليكَ في الخلقِ . . زادَ عليكَ في التصوُّفِ)[٢] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (خالطوا الناسَ بالأخلاقِ ، وزايلوهُمْ بالأعمالِ)[٣] .

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (سوءُ الخلقِ سيئةٌ لا تنفعُ معها كثرةُ الحسناتِ ، وحسْنُ الخلقِ حسنةٌ لا تضرُّ معَها كثرةُ السيئاتِ)[٤] .

وسُئلَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : ما الكرمُ ؟ فقالَ : هوَ ما بيَّنَ اللهُ في كتابِهِ العزيزِ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[٥] ، قيلَ : فما الحسبُ ؟ قالَ : أحسنُكُمْ خُلُقاً أفضلُكُمْ حسباً[٦] .

وقيلَ : (لكلِّ بنيانٍ أساسٌ ، وأساسُ الإسلامِ حسْنُ الخلقِ)[٧] .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٤٠) .
(٢) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٤١٠) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٢١) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٤١) .
(٥) سورة الحجرات : (١٣) .
(٦) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٨٩٩) .
(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/٣٤٠) من كلام عكرمة رحمه الله تعالىٰ .

وقالَ ابنُ عطاءٍ : (ما ارتفعَ مَنِ ارتفعَ إلا بالخُلقِ الحسنِ ، ولمْ ينلْ أحدٌ كمالَهُ إلا المصطفىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأقربُ الخلْقِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ السالكونَ آثارَهُ بحسْنِ الخلُقِ)[1] .

* * *

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٤١) .

بيان حقيقة حسن الخُلق وسوء الخُلق

اعلمْ : أنَّ الناسَ قدْ تكلَّموا في حقيقةِ حسْنِ الخلقِ ، وأنَّهُ ما هوَ ؟ وما تعرَّضوا لحقيقتِهِ ، وإنَّما تعرَّضوا لثمرتِهِ ، ثمَّ لمْ يستوعبوا جميعَ ثمراتِهِ ، بلْ ذكرَ كلُّ واحدٍ مِنْ ثمراتِهِ ما خطرَ لهُ ، وما كانَ حاضراً في ذهنِهِ ، ولمْ يصرفوا العنايةَ إلىٰ ذكرِ حدِّهِ ، وحقيقتِهِ المحيطةِ بجميعِ ثمراتِهِ على التفصيلِ والاستيعابِ ، وذٰلكَ كقولِ الحسنِ : (حسْنُ الخلقِ : بسطُ الوجهِ ، وبذلُ الندىٰ ، وكفُّ الأذىٰ)[1] .

وقالَ الواسطيُّ : (هوَ ألا يخاصمَ ولا يُخاصمَ مِنْ شدَّةِ معرفتِهِ باللهِ تعالىٰ)[2] .

وقالَ شاهُ الكرمانيُّ : (هوَ كفُّ الأذىٰ ، واحتمالُ المؤنِ)[3] .

وقالَ بعضُهُمْ : (هوَ أنْ يكونَ مِنَ الناسِ قريباً ، وفيما بينَهُمْ غريباً)[4] .

وقالَ الواسطيُّ مرَّةً : (هوَ إرضاءُ الخلْقِ في السرَّاءِ والضرَّاءِ)[5] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٠٥) عن عبد الله بن المبارك .
(٢) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٤١٠) .
(٣) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٤١١) .
(٤) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٤١٣) .
(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٦) وفيه : (حسن الخلق أرضى الخلق في السراء والضراء) .

وقالَ أبو عثمانَ : (هوَ الرضا عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ) [١] .

وسُئِلَ سهلٌ التستريُّ عنْ حسْنِ الخلُقِ فقالَ : (أدناهُ الاحتمالُ ، وتركُ المكافأةِ ، والرحمةُ للظالمِ ، والاستغفارُ لهُ ، والشفقةُ عليه) [٢] .

وقالَ مرَّةً : (ألَّا تتهمَ الحقَّ في الرزقِ ، وتثقَ بهِ ، وتَسكنَ إلى الوفاءِ بما ضمنَ ، فتطيعُهُ ولا تعصيهِ في جميعِ الأمورِ فيما بينَكَ وبينَهُ ، وفيما بينَكَ وبينَ الخلقِ) [٣] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (حسْنُ الخلقِ في ثلاثِ خصالٍ : اجتنابُ المحارمِ ، وطلبُ الحلالِ ، والتوسعةُ على العيالِ) [٤] .

وقالَ الحسينُ بنُ منصورٍ : (هوَ ألَّا يؤثرَ فيكَ جفاءُ الخلْقِ بعدَ مطالعتِكَ للحقِّ) [٥] .

وقالَ أبو سعيدٍ الخرَّازُ : (هوَ ألَّا يكونَ لك همَّةٌ غيرَ اللهِ تعالىٰ) [٦] .

فهٰذا وأمثالُهُ كثيرٌ ، وهو تعرُّضٌ لثمراتِ حسْنِ الخلقِ لا لنفسِهِ ،

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٨) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٩) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٩) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٤٠) .
(٥) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٤١٠) .
(٦) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٤١٠) .

ثـمَّ ليسَ هوَ محيطاً بجميعِ الثمراتِ أيضاً [١] ، وكشفُ الغطاءِ عنِ الحقيقةِ أولىٰ مِنْ نقلِ الأقاويلِ المختلفةِ .

* * *

فنقولُ : الخلْقُ والخلُقُ عبارتانِ مستعملتانِ معاً ، يقالُ : (فلانٌ حسنُ الخلْقِ والخلُقِ) ؛ أيْ : حسنُ الظاهرِ والباطنِ ، فيُرادُ بالخلْقِ الصورةُ الظاهرةُ ، ويُرادُ بالخُلُقِ الصورةُ الباطنةُ ، وذٰلكَ لأنَّ الإنسانَ مركَّبٌ مِنْ جسدٍ مدرَكٍ بالبصرِ ، ومِنْ روحٍ ونفسٍ مدرَكةٍ بالبصيرةِ ، ولكلِّ واحدٍ منهُما هيئةٌ وصورةٌ ؛ إمَّا قبيحةٌ ، وإمَّا جميلةٌ .

والنفسُ المدركَةُ بالبصيرةِ أعظمُ قدراً مِنَ الجسدِ المدرَكِ بالبصرِ ، ولذٰلكَ عظَّمَ اللهُ تعالىٰ أمرَهُ بإضافتِهِ إليهِ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [٢] ، فنبَّهَ علىٰ أنَّ الجسدَ منسوبٌ إلى الطينِ ، والروحَ إلىٰ ربِّ العالمينَ ، والمرادُ بالروحِ والنفسِ في هٰذا المقامِ واحدٌ .

فالخُلُقُ : عبارةٌ عنْ هيئةٍ في النفسِ راسخةٍ ، عنها تصدُرُ الأفعالُ بسهولةٍ ويسرٍ مِنْ غيرِ حاجةٍ إلىٰ فكرٍ ورويَّةٍ .

فإنْ كانَتِ الهيئةُ بحيثُ تصدرُ عنها الأفعالُ الجميلةُ المحمودةُ

---

(١) والعذر لهم في ذٰلك : أن الأخلاق لها ثمرات كثيرة ، ومكارمها غير محصورة ، وإحاطتها في جملة واحدة متعسرة ، ولها مراتب عليا وسفلىٰ ، وبينهما أوساط ، وكل قد أشار إلىٰ مرتبة من مراتبها بحسب الاقتضاء . « إتحاف » (٣٢٦/٧) .

(٢) سورة صٓ : (٧١ ـ ٧٢) .

عقلاً وشرعاً . . سُمّيَتْ تلكَ الهيئةُ خُلُقاً حسناً .

وإنْ كانَ الصادرُ عنها الأفعالَ القبيحةَ . . سُمّيَتِ الهيئةُ التي هيَ المصدرُ خُلُقاً سيئاً .

وإنَّما قلنا : (إنَّها هيئةٌ راسخةٌ) لأنَّ مَنْ يصدرُ منهُ بذْلُ المالِ على الندورِ لحاجةٍ عارضةٍ . . لا يُقالُ : (خلقُهُ السخاءُ) ما لمْ يثبتْ ذٰلكَ في نفسِهِ ثبوتَ رسوخٍ .

وإنَّما اشترطنا أنْ تصدرَ منهُ الأفعالُ بسهولةٍ مِنْ غيرِ رويَّةٍ ؛ لأنَّ مَنْ تكلَّفَ بذْلَ المالِ أوِ السكوتَ عندَ الغضبِ بجهْدٍ ورويَّةٍ . . لا يُقالُ : (خلقُهُ السخاءُ والحِلْمُ) .

فها هنا أربعةُ أمورٍ :

أحدُها : فعلُ الجميلِ والقبيحِ .

والثاني : القدرةُ عليهما .

والثالثُ : المعرفةُ بهما .

والرابعُ : هيئةٌ للنفسِ بها تميلُ إلىٰ أحدِ الجانبينِ ، ويتيسَّرُ عليها أحدُ الأمرينِ ، إمَّا الحسنُ وإمَّا القبيحُ .

وليسَ الخُلُقُ عبارةً عنِ الفعلِ : فربَّ شخصٍ خلقُهُ السخاءُ ولا يبذِلُ ، إمَّا لفقدِ المالِ أوْ لمانعٍ ، وربَّما يكونُ خلقُهُ البخلَ وهوَ يبذِلُ إمَّا لباعثٍ أوْ لرياءٍ .

وليسَ هوَ عبارةً عنِ القوَّةِ : لأنَّ نسبةَ القوَّةِ إلى الإمساكِ والإعطاءِ

بلْ إلى الضدينِ واحدٌ ، وكلُّ إنسانٍ خُلِقَ بالفطرةِ قادراً على الإعطاءِ والإمساكِ ، وذٰلكَ لا يوجبُ خُلُقَ البخلِ ولا خُلُقَ السخاءِ .

وليسَ عبارةً عنِ المعرفةِ : فإنَّ المعرفةَ تتعلَّقُ بالجميلِ والقبيحِ جميعاً علىٰ وجهٍ واحدٍ .

بلْ هوَ عبارةٌ عنِ المعنى الرابعِ ؛ وهوَ الهيئةُ التي بها تستعدُّ النفسُ لأنْ يصدرَ منها الإمساكُ أوِ البذلُ ، فالخُلُقُ إذاً عبارةٌ عنْ هيئةِ النفسِ وصورتِها الباطنةِ .

وكما أنَّ حسْنَ الصورةِ الظاهرةِ مطلقاً لا يتمُّ بحسْنِ العينينِ دونَ الأنفِ والفمِ والخدِّ ، بلْ لا بدَّ مِنْ حسْنِ الجميعِ ليتمَّ حسنُ الظاهرِ . . فكذٰلكَ في الباطنِ أربعةُ أركانٍ لا بدَّ مِنَ الحسنِ في جميعِها حتَّىٰ يتمَّ حسْنُ الخلقِ ، فإذا استوتِ الأركانُ الأربعةُ ، واعتدلَتْ وتناسبَتْ . . حصلَ حسْنُ الخلقِ ، وهوَ قوَّةُ العلمِ ، وقوَّةُ الغضبِ ، وقوَّةُ الشهوةِ ، وقوَّةُ العدْلِ بينَ هٰذهِ القوى الثلاثِ .

أمَّا قوَّةُ العلم : فحسنُها وصلاحُها في أنْ تصيرَ بحيثُ يسهلُ بها درْكُ الفرقِ بينَ الصدْقِ والكذبِ في الأقوالِ ، وبينَ الحقِّ والباطلِ في الاعتقاداتِ ، وبينَ الجميلِ والقبيحِ في الأفعالِ ، فإذا صلحَتْ هٰذهِ القوَّةُ . . حصلَ منها ثمرةُ الحكمةِ ، والحكمةُ رأسُ الأخلاقِ الحسنةِ ، وهيَ التي قالَ اللهُ تعالىٰ فيها : ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة : (٢٦٩) .

وأمَّا قوَّةُ الغضبِ : فحسنُها في أنْ يصيرَ انقباضُها وانبساطُها علىٰ حدِّ ما تقتضيهِ الحكمةُ .

وكذٰلكَ الشهوةُ : حسنُها وصلاحُها في أنْ تكونَ تحتَ إشارةِ الحكمةِ ؛ أعني : إشارةَ الدينِ والعقلِ .

وأمَّا قوَّةُ العدْلِ : فهوَ ضبْطُ الغضبِ والشهوةِ تحتَ إشارةِ العقلِ والشرعِ (١) .

فالعقلُ مثالُهُ مثالُ الناصحِ المشيرِ ، وقوَّةُ العدلِ هيَ القدرةُ ، ومثالُها مثالُ المنفذِ الممضي لإشارةِ العقلِ ، والغضبُ هوَ الذي تنفذُ فيهِ الإشارةُ ، ومثالُهُ مثالُ كلبِ الصيدِ ؛ فإنَّهُ يحتاجُ إلىٰ أن يؤدَّبَ حتَّىٰ يكونَ استرسالُهُ وتوقفُهُ بحسَبِ الإشارةِ لا بحسَبِ هيجانِ شهوةِ النفسِ ، والشهوةُ مثالُها مثالُ الفرسِ الذي يُركبُ في طلبِ الصيدِ ؛ فإنَّهُ تارةً يكونُ مروضاً مؤدَّباً ، وتارةً يكونُ جموحاً .

فمنِ استوَتْ فيهِ هٰذِهِ الخصالُ واعتدلَتْ . . فهوَ حسَنُ الخلقِ مطلقاً .

ومَنِ اعتدلَ فيهِ بعضُها دونَ بعضٍ . . فهوَ حسَنُ الخلقِ بالإضافةِ إلىٰ ذٰلكَ المعنىٰ خاصةً ؛ كالذي يحسُنُ بعضُ أجزاءِ وجهِهِ دونَ بعضٍ .

وحسْنُ القوَّةِ الغضبيَّةِ واعتدالُها يُعبَّرُ عنها بالشجاعةِ ، وحسْنُ قوَّةِ الشهوةِ واعتدالُها يُعبَّرُ عنها بالعفَّةِ ، فإنْ مالَتْ قوَّةُ الغضبِ عنِ الاعتدالِ إلىٰ طرفِ الزيادةِ تُسمَّىٰ تهوُّراً ، وإنْ مالَتْ إلى الضعفِ

---

(١) وعن العدل بين هٰذه القوىٰ وسَّع المصنف الكلام في « ميزان العمل » (ص ٢٧٢) .

والنقصانِ تُسمَّىٰ جبناً وخَوَراً ، وإنْ مالَتْ قوَّةُ الشهوةِ إلىٰ طَرفِ الزيادةِ تُسمَّىٰ شَرَهاً ، وإنْ مالَتْ إلى النقصانِ تُسمَّىٰ جموداً ، والمحمودُ هوَ الوسطُ ، وهوَ الفضيلةُ ، والطرفانِ رذيلتانِ مذمومتانِ .

والعدلُ إذا فاتَ . . فليسَ لهُ طرفانِ ؛ زيادةٌ ونقصانٌ ، بلْ لهُ ضدٌّ واحدٌ ومقابلٌ ، وهوَ الجورُ .

وأمَّا الحكمةُ . . فيُسمَّىٰ إفراطُها عندَ الاستعمالِ في الأغراضِ الفاسدةِ خِباً ودهاءً وجَرْبَزَةً [1] ، ويُسمَّىٰ تفريطُها بَلَهاً ، والوسطُ هوَ الذي يختصُّ باسمِ الحكمةِ .

* * *

فإذاً ؛ أمهاتُ الأخلاقِ وأصولُها أربعةٌ : الحكمةُ ، والشجاعةُ ، والعفَّةُ ، والعدْلُ .

ونعني **بالحكمةِ** : حالةً للنفسِ بها يُدرَكُ الصوابُ مِنَ الخطأ في جميعِ الأفعالِ الاختياريةِ .

ونعني **بالعدْلِ** : حالةً للنفسِ وقوَّةً بها تسوسُ الغضبَ والشهوةَ ، وتحملُهُما علىٰ مقتضى الحكمةِ ، وتضبطُهُما في الاسترسالِ والانقباضِ علىٰ حسَبِ مقتضاها .

ونعني **بالشجاعةِ** : كونَ قوَّةِ الغضبِ منقادةً للعقلِ في إقدامِها وإحجامِها .

---

(١) الجربزة : الشطارة والخبث في المعاملة .

ونعني بالعفَّةِ : تأدُّبَ قوَّةِ الشهوةِ بتأديبِ العقلِ والشرعِ .

فمِن اعتدالِ هٰذهِ الأصولِ الأربعةِ تصدرُ الأخلاقُ الجميلةُ كلُّها .

إذْ مِن اعتدالِ قوَّةِ العقلِ يصدُرُ حسنُ التدبيرِ ، وجودةُ الذهنِ ، وثقابةُ الرأيِ ، وإصابةُ الظنِّ ، والتفطُّنُ لدقائقِ الأعمالِ وخفايا آفاتِ النفوسِ ، ومِنْ إفراطِها تصدرُ الجربزةُ ، والمكرُ ، والخداعُ ، والدهاءُ ، ومِنْ تفريطِها يصدرُ البلهُ ، والغمارةُ ، والحمْقُ ، والجنونُ ، وأعني بالغمارةِ : قلَّةَ التجربةِ في الأمورِ معَ سلامةِ التخيُّلِ ، فقدْ يكونُ الإنسانُ غُمْراً في شيءٍ دونَ شيءٍ .

والفرقُ بينَ الحمقِ والجنونِ : أنَّ الأحمقَ مقصودُهُ صحيحٌ ، ولٰكنْ سلوكُهُ للطريقِ فاسدٌ ، فلا تكونُ له رويَّةٌ صحيحةٌ في سلوكِ الطريقِ الموصلِ إلى الغرضِ ، وأمَّا المجنونُ . . فإنَّهُ يختارُ ما لا ينبغي أنْ يختارَ ، فيكونُ أصلُ اختيارِهِ وإيثارِهِ فاسداً .

وأمَّا خلُقُ الشجاعةِ . . فيصدرُ منهُ الكرمُ ، والنجدةُ ، والشهامةُ ، وكِبْرُ النفسِ (١) ، والاحتمالُ ، والحلمُ ، والثباتُ ، وكظمُ الغيظِ ، والوقارُ ، والتؤدةُ ، وأمثالُها ، وهيَ أخلاقٌ محمودةٌ .

وأمَّا إفراطُها وهوَ التهوُّرُ . . فيصدرُ منهُ الصلفُ ، والبذْخُ ، والاستشاطةُ ، والتكبُّرُ ، والعجْبُ .

---

(١) أي : كبر همتها ، والكبير الهمة هو الذي لا يرضىٰ بالهمم الحيوانية قدر وسعه . « إتحاف » (٧/ ٣٣٠) .

وأمَّا تفريطُها . . فيصدرُ منهُ المهانةُ ، والذلَّةُ ، والجزعُ ، والخساسةُ ، وصغرُ النفسِ ، والانقباضُ عنْ تناولِ الحقِّ الواجبِ .

وأمَّا خلقُ العفَّةِ . . فيصدرُ منهُ السخاءُ ، والحياءُ ، والصبرُ ، والمسامحةُ ، والقناعةُ ، والورعُ ، والطلاقةُ ، والمساعدةُ ، والظَّرْفُ ، وقلَّةُ الطمعِ .

وأمَّا ميلُها إلى الإفراطِ أوِ التفريطِ . . فيصدرُ منهُ الحرْصُ ، والشَّرَهُ ، والوقاحةُ ، والخبْثُ ، والتبذيرُ ، والتقتيرُ ، والرياءُ ، والهتكةُ ، والمجانةُ ، والعبثُ ، والملَقُ ، والحسَدُ ، والشماتةُ ، والتذلُّلُ للأغنياءِ ، واستحقارُ الفقراءِ ، وغيرُ ذٰلكَ .

فأمَّهاتُ محاسنِ الأخلاقِ هٰذهِ الفضائلُ الأربعةُ ، وهيَ الحكمةُ ، والشجاعةُ ، والعفةُ ، والعدْلُ ، والباقي فروعُها .

ولمْ يبلغْ كمالَ الاعتدالِ في هٰذهِ الأربعِ إلا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، والناسُ بعدَهُ متفاوتونَ في القرْبِ والبعدِ منهُ ، فكلُّ مَنْ قربَ منهُ في هٰذهِ الأخلاقِ فهوَ قريبٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ بقدْرِ قربِهِ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وكلُّ مَنْ جمعَ كمالَ هٰذهِ الأخلاقِ . . استحقَّ أن يكون بينَ الخلقِ ملكاً مطاعاً يرجعُ الخلقُ كلُّهُمْ إليهِ ، ويقتدونَ بهِ في جميعِ الأفعالِ ، ومَنِ انفكَّ عنْ جملةِ هٰذهِ الأخلاقِ كلِّها ، واتصفَ بأضدادِها . . استحقَّ أنْ يخرجَ مِنْ بينِ العبادِ والبلادِ ؛ فإنَّهُ قدْ قربَ مِنَ الشيطانِ اللعينِ المبعَدِ ، فينبغي أنْ يُبعَدَ ، كما أنَّ الأوَّلَ قريبٌ مِنَ المَلَكِ

المقرَّبِ ، فينبغي أنْ يُقتدىٰ بهِ ويُتقرَّبَ إليهِ ؛ فإنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يُبعثْ إلا ليتمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ كما قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ (١) .

وقد أشارَ القرآنُ إلىٰ هـٰذهِ الأخلاقِ في أوصافِ المؤمنينَ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ (٢) .

فالإيمانُ باللهِ ورسولِهِ مِنْ غيرِ ارتيابٍ هوَ قوَّةُ اليقينِ ، وهوَ ثمرةُ العقلِ ومنتهى الحكمةِ ، والمجاهدةُ بالمالِ هوَ السخاءُ الذي يرجعُ إلىٰ ضبْطِ قوَّةِ الشهوةِ ، والمجاهدةُ بالنفسِ هيَ الشجاعةُ التي ترجعُ إلى استعمالِ قوَّةِ الغضبِ علىٰ شرْطِ العقلِ وحدِّ الاعتدالِ ، فقدْ وصفَ اللهُ تعالى الصحابةَ رضيَ اللهُ عنهُمْ فقالَ : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (٣) إشارةً إلىٰ أنَّ للشدَّةِ موضعاً وللرحمةِ موضعاً ، فليسَ الكمالُ في الشدَّةِ بكلِّ حالٍ ، ولا في الرحمةِ بكلِّ حالٍ .

فهـٰذا بيانُ معنى الخلُقِ وحسنِهِ وقبحِهِ ، وبيانُ أركانِهِ وثمراتِهِ وفروعِهِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/٣٨١) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/٦١٣) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/١٩٢) .

(٢) سورة الحجرات : (١٥) .

(٣) سورة الفتح : (٢٩) .

بيان قبول الأخلاق للتّغيير بطريق الرّياضة

اعلمْ : أنَّ بعضَ مَنْ غلبَتِ البطالةُ عليهِ . . استثقلَ المجاهدةَ والرياضةَ ، والاشتغالَ بتزكيةِ النفسِ وتهذيبِ الأخلاقِ ، فلمْ تسمحْ نفسُهُ بأنْ يكونَ ذٰلكَ ؛ لقصورِهِ ونقصِهِ وخبْثِ دُخْلَتِهِ ، فزعمَ أنَّ الأخلاقَ لا يُتصوَّرُ تغييرُها ، وأنَّ الطباعَ لا تتغيَّرُ ، واستدلَّ فيهِ بأمرينِ :

أحدُهُما : أنَّ الخلُقَ هوَ صورةُ الباطنِ ، كما أنَّ الخَلْقَ هوَ صورةُ الظاهرِ ، فالخلقةُ الظاهرةُ لا يُقدَرُ علىٰ تغييرِها ، فالطويلُ لا يقدرُ أنْ يجعلَ نفسَهُ قصيراً ، ولا القصيرُ يقدرُ أنْ يجعلَ نفسَهُ طويلاً ، ولا القبيحُ يقدرُ علىٰ تحسينِ صورتِهِ ؛ فكذٰلكَ القبحُ الباطنُ يجري هٰذا المجرىٰ .

والثاني : أنَّهُمْ قالوا : حسنُ الخلقِ إنَّما يحصلُ بقمعِ الشهوةِ والغضبِ ، وقدْ جرَّبنا ذٰلكَ بطولِ المجاهدةِ ، وعرفنا أنَّ ذٰلكَ مِن مقتضى المزاجِ والطبعِ ، وأنَّهُ قطُّ لا ينقطعُ عنِ الآدميِّ ، فاشتغالُهُ بهِ تضييعُ زمانٍ بغيرِ فائدةٍ ؛ فإنَّ المطلوبَ هوَ قطعُ التفاتِ القلبِ إلى الحظوظِ العاجلةِ ، وذٰلكَ محالٌ وجودُهُ .

❁ ❁ ❁

فنقولُ : لوْ كانَتِ الأخلاقُ لا تقبلُ التغييرَ . . لبطلَتِ الوصايا

والمواعظُ والتأديباتُ ، ولما قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حسِّنوا أخلاقَكُمْ » !![1] .

وكيفَ يُنكرُ هٰذا في حقِّ الآدميِّ وتغييرُ خلُقِ البهيمةِ ممكنٌ ؛ إذْ يُنقلُ البازي مِنَ الاستيحاشِ إلى الأُنْسِ ، والكلبُ مِنْ شرَهِ الأكلِ مِنَ الصيدِ إلى التأدُّبِ والإمساكِ والتخليةِ ، والفرسُ مِنَ الجماحِ إلى السلاسةِ والانقيادِ ، وكلُّ ذٰلكَ تغييرٌ للأخلاقِ ؟!

والقولُ الكاشفُ للغطاءِ عنْ ذٰلكَ أنْ نقولَ : الموجوداتُ منقسمةٌ :

إلىٰ ما لا مدخلَ لاختيارِ الآدميِّ في أصلِهِ وتفصيلِهِ ؛ كالسماءِ والكواكبِ ، بلْ أعضاءِ البدنِ داخلاً وخارجاً ، وسائرِ أجزاءِ الحيواناتِ ، وبالجملةِ : كلُّ ما هوَ حاصلٌ كاملٌ وقعَ الفراغُ مِنْ وجودِهِ وكمالِهِ .

وإلىٰ ما وُجِدَ وجوداً ناقصاً وجُعِلَ فيهِ قوَّةٌ لقبولِ الكمالِ بعدَ أنْ وُجِدَ شرطُهُ ، وشرطُهُ قدْ يرتبطُ باختيارِ العبدِ ؛ فإنَّ النواةَ ليسَتْ بتفاحٍ ولا نخلٍ ، إلا أنَّها خُلقَتْ خلقةً يمكنُ أنْ تصيرَ نخلةً إنِ انضافَتِ التربيةُ إليها ، ولا تصيرُ تفاحاً أصلاً ، ولا بالتربيةِ .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو بكر ابن لال في « مكارم الأخلاق » من حديث معاذ : « يا معاذ ؛ حسن خلقك للناس » ، منقطع ورجاله ثقات) . « إتحاف » (٧/٣٣٢) ، ولا يخفىٰ أن مراد المصنف مجمل الأخبار الآمرة بتحسين الخلق . وروى الطبراني في « الأوسط » (٦٥٠٢) ، وابن عدي في « الكامل » (٦/٤٤٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « أوحى الله إلىٰ إبراهيم : يا خليلي ؛ حسِّنْ خلقك ولو مع الكفار . . تدخلْ مدخل الأبرار ، فإن كلمتي سبقت لمن حسَّنَ خلقه أن أظلَّه تحت عرشي . . . » الحديث .

فإذا صارَتِ النواةُ متأثرةً بالاختيارِ حتَّىٰ تقبلَ بعضَ الأحوالِ دونَ بعضٍ . . فكذٰلكَ الغضبُ والشهوةُ ، لوْ أردنا قمعَهما وقهرَهما بالكليَّةِ حتَّىٰ لا يبقىٰ لهما أثرٌ . . لمْ نقدرْ عليهِ أصلاً ، ولوْ أردنا سلاستَهما وقودَهُما بالرياضةِ والمجاهدةِ . . قدرنا عليهِ ، وقدْ أُمرنا بذٰلكَ ، وصارَ ذٰلكَ سببَ نجاتِنا ووصولِنا إلى اللهِ تعالىٰ .

❁ ❁ ❁

نعم ؛ الجبلاتُ مختلفةٌ ، فبعضُها سريعةُ القبولِ ، وبعضُها بطيئةُ القبولِ ، **ولاختلافِها سببانِ** :

أحدُهُما : قوَّةُ الغريزةِ في أصْلِ الجبلَّةِ ، وامتدادُ مدَّةِ الوجودِ : فإنَّ قوَّةَ الشهوةِ والغضبِ والتكبُّرِ موجودةٌ في الإنسانِ ، ولٰكنْ أصعبُها أمراً وأعصاها على التغييرِ قوَّةُ الشهوةِ ؛ فإنَّها أقدمُ وجوداً ، إذِ الصبيُّ في مبدأ الفطرةِ تُخلقُ لهُ الشهوةُ ، ثمَّ بعدَ سبعِ سنينَ ربَّما يُخلقُ لهُ الغضبُ ، وبعدَ ذٰلكَ يُخلقُ لهُ قوَّةُ التمييزِ .

والسببُ الثاني : أنَّ الخلُقَ قدْ يتأكَّدُ بكثرةِ العملِ بمقتضاهُ والطاعةِ لهُ ، وباعتقادِ كونِهِ حسناً ومرضياً ، والناسُ فيهِ علىٰ أربعِ مراتبَ :

الأولىٰ : وهوَ الإنسانُ الغفْلُ ، الذي لا يميّزُ بينَ الحقِّ والباطلِ ، والجميلِ والقبيحِ ، بل بقيَ كما فُطِرَ عليهِ ، خالياً عنْ جميعِ الاعتقاداتِ ، ولمْ تستتمَّ شهوتُهُ أيضاً باتباعِ اللذَّاتِ ، فهٰذا سريعُ القبولِ للعلاجِ جداً ، فلا يحتاجُ إلا إلىٰ معلِّمٍ ومرشدٍ ، وإلىٰ باعثٍ

منْ نفسِهِ يحملُهُ على المجاهدةِ ، فيحسنُ خلقُهُ في أقربِ زمانٍ .

والثانيةُ : أنْ يكونَ قدْ عرفَ قبحَ القبيحِ ، ولٰكنَّهُ لمْ يتعوَّدِ العملَ الصالحَ ، بلْ زُيِّنَ لهُ سوءُ عملِهِ ، فتعاطاهُ انقياداً لشهواتِهِ ، وإعراضاً عنْ صوابِ رأيِهِ ؛ لاستيلاءِ الشهوةِ عليهِ ، ولٰكنْ علمَ تقصيرَهُ في عملِهِ ، فأمرُهُ أصعبُ مِنَ الأوَّلِ ؛ إذْ قدْ تضاعفَتِ الوظيفةُ عليهِ ، إذْ عليهِ قلْعُ ما رسخَ في نفسِهِ أولاً مِنْ كثرةِ الاعتيادِ للفسادِ ، والآخرُ أنْ يغرسَ في نفسِهِ صفةَ الاعتيادِ للصلاحِ ، ولٰكنهُ بالجملةِ محلٌّ قابلٌ للرياضةِ إنِ انتهضَ لها بجدٍّ وتشميرٍ وحزمٍ .

والثالثةُ : أنْ يعتقدَ في الأخلاقِ القبيحةِ أنَّها الواجبةُ المستحسنةُ ، وأنَّها حقٌّ وجميلٌ ، وتربَّىٰ عليها ، فهٰذا تكادُ تمتنعُ معالجتُهُ ، ولا يُرجىٰ صلاحُهُ إلا على الندورِ ، وذٰلكَ لتضاعفِ أسبابِ الضلالِ .

والرابعةُ : أنْ يكونَ معَ وقوعِ نشوئِهِ على الرأي الفاسدِ ، وتربيتِهِ على العملِ بهِ يرى الفضيلةَ في كثرةِ الشرِّ واستهلاكِ النفوسِ ، ويباهي بهِ ، ويظنُّ أنَّ ذٰلكَ يرفعُ مِنْ قدرِهِ ، وهٰذا هوَ أصعبُ المراتبِ ، وفي مثلِهِ قيلَ : ومِنَ العناءِ رياضةُ الهرمِ ، ومِنَ التعذيبِ تهذيبُ الذيبِ .

والأوَّلُ مِنْ هٰؤلاءِ جاهلٌ فقطْ ، والثاني جاهلٌ وضالٌّ ، والثالثُ جاهلٌ وضالٌّ وفاسقٌ ، والرابعُ جاهلٌ وضالٌّ وفاسقٌ وشريرٌ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا الخيالُ الآخرُ الذي استدلُّوا بهِ ، وهوَ قولُهُمْ : (إنَّ الآدميَّ

ما دامَ حيّاً فلا ينقطعُ عنهُ الغضبُ والشهوةُ وحبُّ الدنيا وسائرُ هٰذهِ الأخلاقِ) . . فهٰذا غلطٌ وقعَ لطائفةٍ ظنُّوا أنَّ المقصودَ مِنَ المجاهدَةِ قمعُ هٰذهِ الصفاتِ بالكليَّةِ ومحوُها ، وهيهاتَ ؛ فإنَّ الشهوةَ خلقَتْ لفائدةٍ ، وهيَ ضروريَّةٌ في الجبلَّةِ ، فلوِ انقطعَتْ شهوةُ الطعامِ . . لهلكَ الإنسانُ ، ولوِ انقطعَتْ شهوةُ الوقاعِ . . لانقطعَ النسلُ ، ولوِ انعدمَ الغضبُ بالكليَّةِ . . لمْ يدفعِ الإنسانُ عنْ نفسِهِ ما يهلكُهُ ولهلكَ .

ومهما بقيَ أصلُ الشهوةِ فيبقىٰ ـ لا محالةَ ـ حبُّ المالِ الذي يوصلُهُ إلى الشهوةِ ، حتَّىٰ يحملَهُ ذٰلكَ علىٰ إمساكِ المالِ ، وليسَ المطلوبُ إماطةَ ذٰلكَ بالكليَّةِ ، بلِ المطلوبُ ردُّها إلى الاعتدالِ الذي هوَ وسطٌ بينَ الإفراطِ والتفريطِ .

فالمطلوبُ في صفةِ الغضبِ حسنُ الحميَّةِ ، وذٰلكَ بأنْ يخلوَ عنِ التهوُّرِ وعنِ الجبنِ جميعاً .

وبالجملةِ : أنْ يكونَ في نفسِهِ قويّاً ، ومعَ قوَّتِهِ منقاداً للعقلِ ، ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (١) ، وصفَهُمْ بالشدَّةِ ، وإنَّما تصدرُ الشدَّةُ عنِ الغضبِ ، ولوْ بطلَ الغضبُ . . لبطلَ الجهادُ ، وكيفَ يُقصدُ قلعُ الشهوةِ والغضبِ بالكليَّةِ والأنبياءُ عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ لمْ ينفكُّوا عنْ ذٰلكَ ؟! إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما أنا بشرٌ أغضبُ كما يغضبُ البشرُ » (٢) .

---

(١) سورة الفتح : (٢٩) .

(٢) رواه مسلم (٢٦٠١) .

وكانَ إذا تُكلِّمَ بينَ يديهِ بما يكرهُهُ . . يغضبُ حتَّىٰ تحمرَّ وجنتاهُ ، ولٰكنْ لا يقولُ إلا حقّاً ، فكانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لا يخرجُهُ غضبُهُ عنِ الحقِّ (١) .

وقـالَ اللهُ تعـالىٰ : ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ (٢) ، ولـمْ يقـلْ : (والفاقدينَ الغيظَ) .

فـردُّ الغضبِ والشهوةِ إلىٰ حدِّ الاعتدالِ ، بحيثُ لا يقهرُ واحدٌ منهما العقلَ ولا يغلبُهُ ، بلْ يكونُ العقلُ هوَ الضابطَ لهما والغالبَ عليهما . . ممكنٌ ، وهوَ المرادُ بتغييرِ الخلُقِ ؛ فإنَّهُ ربَّما تستولي الشهوةُ على الإنسانِ بحيثُ لا يقوىٰ عقلُهُ علىٰ دفعِها عن الانبساطِ إلى الفواحشِ ، وبالرياضةِ تعودُ إلىٰ حدِّ الاعتدالِ ، فدلَّ أنَّ ذٰلكَ ممكنٌ ، والتجربةُ والمشاهدةُ تدلُّ علىٰ ذٰلكَ دلالةً لا شكَّ فيها .

والـذي يـدلُّ علىٰ أنَّ المطلوبَ هـوَ الوسطُ في الأخـلاقِ دونَ الطرفينِ أنَّ السخاءَ خلقٌ محمودٌ شرعاً ، وهوَ وسطٌ بينَ طرفي التبذيرِ والتقتيرِ ، وقدْ أثنى اللهُ تعالىٰ عليهِ فقالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ (٣) ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ (٤) .

---

(١) فقد روى البخاري (٢٣٦٠) ، ومسلم (٢٣٥٧) في قصة تخاصم رجل مع الزبير رضي الله عنه في شراج الحرَّة ؛ إذ قال الرجل الأنصاري : أنْ كان ابن عمَّتك ؟ فتلوَّن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقدم نحو هٰذا .

(٢) سورة آل عمران : (١٣٤) .

(٣) سورة الفرقان : (٦٧) .

(٤) سورة الإسراء : (٢٩) .

وكذٰلكَ المطلوبُ في شهوةِ الطعامِ الاعتدالُ دونَ الشَّرَهِ والخمودِ ، قالَ اللّهُ تعالىٰ : ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (١) .

وقالَ في الغضبِ : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (٢) .

وقالَ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ الأمورِ أوساطُها » (٣) .

وهٰذا لهُ سرٌّ وتحقيقٌ ، وهوَ أنَّ السعادةَ منوطةٌ بسلامةِ القلبِ عنْ عوارضِ هٰذا العالمِ ، قالَ اللّهُ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (٤) ، والبخلُ مِنْ عوارضِ الدنيا ، والتبذيرُ أيضاً مِنْ عوارضِ الدنيا ، وشرطُ القلبِ أنْ يكونَ سليماً منهما ؛ أيْ : لا يكونَ ملتفتاً إلى المالِ ، ولا يكونَ حريصاً علىٰ إمساكِهِ ولا علىٰ إنفاقِهِ ، فإنَّ الحريصَ على الإنفاقِ مصروفُ القلبِ إلى الإنفاقِ ، كما أنَّ الحريصَ على الإمساكِ مصروفُ القلبِ إلى الإمساكِ ، فكانَ كمالُ القلبِ أنْ يصفوَ عنِ الوصفينِ جميعاً ، وإذا لمْ يكنْ ذٰلكَ في الدنيا . . طلبنا ما هوَ الأشبهُ بعدمِ الوصفينِ وأبعدُ عنِ الطرفينِ ، وهوَ الوسطُ ، فإنَّ الفاترَ لا حارٌّ ولا باردٌ ، بلْ هوَ وسطٌ بينَهُما ، فكأنَّهُ خالٍ عنِ الوصفينِ ؛ فكذٰلكَ السخاءُ بينَ التبذيرِ والتقتيرِ ، والشجاعةُ بينَ الجبنِ والتهورِ ،

---

(١) سورة الأعراف : (٣١) .

(٢) سورة الفتح : (٢٩) .

(٣) رواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٦/٣١٧٠) عن معبد الجهني عن بعض الصحابة مرفوعاً .

(٤) سورة الشعراء : (٨٩) .

والعفَّةُ بينَ الشَّرَهِ والخمودِ ، وكذٰلكَ سائرُ الأخلاقِ ، فكلا طرفي قصْدِ الأمورِ ذميمٌ ، هٰذا هوَ المطلوبُ ، وهوَ ممكنٌ .

نعمْ ؛ يجبُ على الشيخِ المرشدِ للمريدِ أنْ يقبِّحَ عندَهُ الغضبَ رأساً ، ويذمَّ إمساكَ المالِ رأساً ، ولا يرخِّصَ لهُ في شيءٍ منهُ ؛ لأنَّهُ لوْ رخَّصَ لهُ في أدنىٰ شيءٍ . . اتخذَ ذٰلكَ عذراً في استبقاءِ بخلِهِ وغضبِهِ ، وظنَّ أنَّهُ القدْرُ المرخَّصُ فيهِ ، فإذا قصدَ قطْعَ الأصلِ وبالغَ فيهِ . . لمْ يتيسَّرْ لهُ إلا كسْرُ سورتِهِ ، بحيثُ يعودُ إلى الاعتدالِ ، فالصوابُ لهُ أنْ يقصدَ قلْعَ الأصلِ حتَّىٰ يتيسَّرَ لهُ القدْرُ المقصودُ ، فلا يكشفُ هٰذا السرَّ للمريدِ ؛ فإنَّهُ موضعُ غرورِ الحمقىٰ ، إذْ يظُنُّ بنفسِهِ أنَّ غضبَهُ بحقٍ ، وأنَّ إمساكَهُ بحقٍ .

❋ ❋ ❋

بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق على الجملة

قدْ عرفتَ أنَّ حسْنَ الخلقِ يرجعُ إلى اعتدالِ قوَّةِ العقلِ ، وكمالِ الحكمةِ ، وإلى اعتدالِ قوَّةِ الغضبِ والشهوةِ ، وكونِها مطيعةً للعقلِ والشرعِ أيضاً .

وهٰذا الاعتدالُ يحصلُ علىٰ وجهينِ :

أحدُهُما : بجودٍ إلٰهيٍّ وكمالٍ فطريٍّ : بحيثُ يُخلقُ الإنسانُ ويُولدُ كاملَ العقلِ ، حسنَ الخلقِ ، قد كُفِيَ سلطانَ الشهوةِ والغضبِ ، بلْ خُلقَتا معتدلتينِ منقادتينِ للعقل والشرعِ ، فيصيرُ عالماً بغيرِ تعلُّمٍ ، ومؤدَّباً بغيرِ تأدُّبٍ ؛ كعيسى ابنِ مريمَ ، ويحيى بنِ زكريَّا عليهِما السلامُ ، وكذا سائرُ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ ، ولا يبعدُ أنْ يكونَ في الطبعِ والفطرةِ ما قدْ يُنالُ بالاكتسابِ ، فربَّ صبيٍّ خُلِقَ صادقَ اللهجةِ ، سخيّاً جريئاً ، وربَّما يُخلقُ بخلافِهِ ، فيحصلُ ذٰلكَ فيهِ بالاعتيادِ ومخالطةِ المتخلِّقينَ بهٰذهِ الأخلاقِ ، وربَّما يحصلُ بالتعلُّم .

والوجهُ الثاني لاكتسابِ هٰذهِ الأخلاقِ : المجاهدةُ والرياضةُ : وأعني بها : حملَ النفسِ على الأعمالِ التي يقتضيها الخلُقُ المطلوبُ .

فمَنْ أرادَ مثلاً أنْ يحصِّلَ لنفسِهِ خلُقَ الجودِ . . فطريقُهُ أنْ يتكلَّفَ

تعاطيَ فعلِ الجوادِ ، وهوَ بذلُ المالِ ، فلا يزالُ يطالبُ نفسَهُ ويواظبُ عليهِ تكلُّفاً ، مجاهداً نفسَهُ فيهِ حتَّىٰ يصيرَ ذٰلكَ طبعاً لهُ ، ويتيسَّرَ عليهِ ، فيصيرَ بهِ جواداً .

وكذا مَنْ أرادَ أنْ يحصِّلَ لنفسِهِ خلُقَ التواضعِ وقدْ غلبَ عليهِ الكبْرُ . . فطريقُهُ أنْ يواظبَ علىٰ أفعالِ المتواضعينَ مدَّةً مديدةً ، وهوَ فيها مجاهدٌ نفسَهُ ومتكلِّفٌ إلىٰ أن يصيرَ ذٰلكَ لهُ خلقاً وطبعاً ، فيتيسَّرَ عليهِ .

وجميعُ الأخلاقِ المحمودةِ شرعاً تحصلُ بهٰذا الطريقِ .

وغايتُهُ : أنْ يصيرَ الفعلُ الصادرُ منهُ لذيذاً ، فالسخيُّ هوَ الذي يستلذُّ بذلَ المالِ دونَ الذي يبذلُهُ عنْ كراهةٍ ، والمتواضعُ هوَ الذي يستلذُّ التواضعَ ، ولنْ ترسخَ الأخلاقُ الدينيَّةُ في النفسِ ما لمْ تتعوَّدِ النفسُ جميعَ العاداتِ الحسنةِ ، وما لمْ تتركْ جميعَ العاداتِ السيئةِ ، وما لمْ تواظبْ عليها مواظبةَ مَنْ يشتاقُ إلى الأفعالِ الجميلةِ ويتنعَّمُ بها ، ويكرهُ الأفعالَ القبيحةَ ويتألَّمُ بها ؛ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وجُعلَتْ قرَّةُ عيني في الصلاةِ »[1] .

ومهما كانَتِ العباداتُ وتركُ المحظوراتِ معَ كراهةٍ واستثقالٍ . . فهوَ لنقصانٍ ، ولا يُنالُ كمالُ السعادةِ بهِ .

نعم ؛ المواظبةُ عليها بالمجاهدةِ خيرٌ ، ولٰكنْ بالإضافةِ إلىٰ تركِها ،

(١) رواه النسائي (٧/٦١) ، وأحمد في « المسند » (٣/١٢٨) .

لا بالإضافةِ إلىٰ فعلِها عنْ طوعٍ ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ (١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اعبُدِ اللهَ بالرضا ، فإنْ لمْ تستطعْ . . ففي الصبرِ علىٰ ما تكرهُ خيرٌ كثيرٌ » (٢) .

ثمَّ لا يكفي في نيلِ السعادةِ الموعودةِ علىٰ حسْنِ الخلقِ استلذاذُ الطاعةِ واستكراهُ المعصيةِ في زمانٍ دونَ زمانٍ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ ذٰلكَ على الدوامِ ، وفي جملةِ العمرِ ، وكلَّما كانَ العمرُ أطولَ . . كانَتِ الفضيلةُ أرسخَ وأكملَ ، ولذٰلكَ لما سُئِل صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ السعادةِ . . قالَ : « طولُ العمرِ في طاعةِ اللهِ تعالىٰ » (٣) .

ولذٰلكَ كرهَ الأنبياءُ والأولياءُ الموتَ ؛ فإنَّ الدنيا مزرعةُ الآخرةِ ، وكلَّما كانَتِ العباداتُ أكثرَ بطولِ العمرِ . . كانَ الثوابُ أجزلَ ، والنفسُ أزكىٰ وأطهرَ ، والأخلاقُ أقوىٰ وأرسخَ ، وإنَّما مقصودُ العباداتِ تأثيرُها في القلبِ ، وإنَّما تتأكَّدُ آثارُها بكثرةِ المواظبةِ على العباداتِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) سورة البقرة : (٤٥) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٩٥٢٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في الوصية المشهورة ، ولفظه : « فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا واليقين . . فافعل ، وإن لم تستطع . . فإن في الصبر علىٰ ما تكره خيراً كثيراً . . . » الحديث .

(٣) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (٣١٢) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٦/٦) ، وروى الترمذي (٢٣٢٩) من حديث عبد الله بن بسر رضي الله عنه مرفوعاً وقد سئل صلى الله عليه وسلم من خير الناس ؟ قال : « من طال عمره وحسن عمله » .

وغايةُ هٰذهِ الأخلاقِ : أنْ ينقلعَ عنِ النفسِ حبُّ الدنيا ، ويرسخَ فيها حبُّ اللهِ تعالىٰ ، فلا يكونُ شيءٌ أحبَّ إليهِ مِنْ لقاءِ اللهِ تعالىٰ ، فلا يستعملُ جميعَ ما لَهُ إلا على الوجهِ الذي يوصلُهُ إليهِ ، وغضبُهُ وشهوتُهُ مِنَ المسخراتِ لهُ ، فلا يستعملُهما إلا على الوجهِ الذي يوصلُهُ إلى اللهِ تعالىٰ ، وذٰلكَ بأنْ يكونَ موزوناً بميزانِ الشرعِ والعقلِ ، ثمَّ يكونُ بعدَ ذٰلكَ فرِحاً بهِ ومستلذّاً لهُ .

ولا ينبغي أنْ يُستبعَدَ مصيرُ الصلاةِ إلىٰ حدٍّ تصيرُ هيَ قرَّةَ العينِ ، ومصيرُ العباداتِ لذيذةً ؛ فإنَّ العادةَ تقتضي في النفسِ عجائبَ أغربَ مِنْ ذٰلكَ ، فإنَّا قدْ نرى الملوكَ والمتنعمينَ في أحزانٍ دائمةٍ ، ونرى المقامرَ المفلسَ قدْ يغلبُ عليهِ مِنَ اللذَّةِ والفرحِ بقمارِهِ وما هوَ فيهِ ما يستنكرُ معَهُ فرحَ الناسِ بغيرِ القمارِ ، معَ أنَّ القمارَ ربَّما سلبَهُ مالَهُ ، وخرَّبَ بيتَهُ ، وتركَهُ مفلساً ، ومعَ هٰذا فهوَ يحبُّهُ ويلتذُّ بهِ ؛ وذٰلكَ لطولِ إلفِهِ لهُ وصرفِ نفسِهِ إليهِ مدَّةً مديدةً .

وكذٰلكَ اللاعبُ بالحمامِ قدْ يقفُ طولَ النهارِ في حرِّ الشمسِ قائماً علىٰ رجليهِ وهوَ لا يحسُّ بألمِها ؛ لفرحِهِ بالطيورِ وحركاتِها ، وطيرانِها وتحليقِها في جوِّ السماءِ .

بلْ نرى الفاجرَ العيَّارَ يفتخرُ بما يلقاهُ مِنَ الضرْبِ والقطْعِ والصبرِ على السياطِ [1] ، وعلىٰ تقديمِهِ إلى الصلْبِ ، وهوَ معَ ذٰلكَ متبجِّحٌ

---

(١) **العيَّار** : الشاطر الذي يختلس أموال الناس بلطف حيلة ومكر .

بنفسِهِ وبقوَّتِهِ في الصبرِ علىٰ ذٰلكَ ، حتَّىٰ يرىٰ ذٰلكَ فخراً لنفسِهِ ، ويقطَّعُ الواحدُ منهُمْ إرْباً إرْباً علىٰ أنْ يقرَّ بما تعاطاهُ أوْ تعاطاهُ غيرُهُ فيصرُّ على الإنكارِ ، ولا يبالي بالعقوباتِ ؛ فرحاً بما يعتقدُهُ كمالاً وشجاعةً ورجوليَّةً ، فقدْ صارَتْ أحوالُهُ معَ ما فيها مِنَ النَّكالِ قرَّةَ عينِهِ وسببَ افتخارِهِ .

بلْ لا حالةَ أخسُّ وأقبحُ مِنْ حالِ المخنَّثِ في تشبُّهِهِ بالإناثِ ؛ في نتْفِ الشعرِ ، ووشمِ الوجهِ ، ومخالطةِ النساءِ ، فترى المخنَّثَ في فرحٍ بحالِهِ ، وافتخارٍ بكمالِهِ في تخنُّثِهِ يتباهىٰ بهِ معَ المخنَّثينَ .

حتَّىٰ يجري بينَ الحجَّامينَ والكنَّاسينَ التفاخرُ والمباهاةُ كما يجري بينَ الملوكِ والعلماءِ .

وكلُّ ذٰلكَ نتيجةُ العادةِ والمواظبةِ علىٰ نمطٍ واحدٍ على الدوامِ مدَّةً مديدةً ، ومشاهدةُ ذٰلكَ مِنَ المخالطينَ والمعارفِ .

فإذا كانَتِ النفسُ بالعادةِ تستلذُّ الباطلَ ، وتميلُ إليهِ وإلى القبائحِ . . فكيفَ لا تستلذُّ الحقَّ لو رُدَّتْ إليهِ مدَّةً ، وأُلزمَتِ المواظبةَ عليهِ ؟!

بلْ ميلُ النفسِ إلىٰ هٰذهِ الأمورِ الشنيعةِ خارجٌ عنِ الطبعِ ، يضاهي الميلَ إلىٰ أكلِ الطينِ ، فقدْ يغلبُ علىٰ بعضِ الناسِ ذٰلكَ بالعادةِ ، فأمَّا ميلُهُ إلى الحكمةِ ، وحبِّ اللهِ تعالىٰ ، ومعرفتِهِ ، وعبادتِهِ . . فهوَ كالميلِ إلى الطعامِ والشرابِ ؛ فإنهُ مقتضىٰ طبعِ القلبِ ؛ فإنَّهُ أمرٌ ربَّانيٌّ .

وميلُهُ إلىٰ مقتضياتِ الشهوةِ غريبٌ مِنْ ذاتِهِ ، وعارضٌ علىٰ طبعِهِ ، وإنَّما غذاءُ القلبِ الحكمةُ والمعرفةُ وحبُّ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولٰكنِ انصرفَ عنْ مقتضىٰ طبعِهِ لمرضٍ قدْ حلَّ بهِ ؛ كما قدْ يحلُّ المرضُ بالمعدةِ ، فلا تشتهي الطعامَ والشرابَ وهما سببانِ لحياتِها ، فكلُّ قلبٍ مالَ إلىٰ حبِّ شيءٍ سوىٰ حبِّ اللهِ تعالىٰ فلا ينفكُّ عنْ مرضٍ بقدْرِ ميلِهِ إلا إذا أحبَّ ذٰلكَ الشيءَ لكونِهِ معيناً لهُ علىٰ حبِّ اللهِ تعالىٰ ، وعلىٰ دينِهِ ، فعندَ ذٰلكَ لا يدلُّ ذٰلكَ على المرضِ .

❀ ❀ ❀

فإذاً ؛ قدْ عرفتَ بهٰذا قطعاً أنَّ هٰذهِ الأخلاقَ الجميلةَ يمكنُ اكتسابُها بالرياضةِ ، وهيَ تكلُّفُ الأفعالِ الصادرةِ عنها ابتداءً ؛ لتصيرَ طبعاً انتهاءً ، وهٰذا مِنْ عجيبِ العلاقةِ بينَ القلبِ والجوارحِ ؛ أعني : النفسَ والبدنَ ، فإنَّ كلَّ صفةٍ تظهرُ في القلبِ يفيضُ أثرُها على الجوارحِ حتَّىٰ لا تتحرَّكَ إلا علىٰ وَفْقِها لا محالةَ ، وكلُّ فعلٍ يجري على الجوارحِ فإنَّهُ قدْ يرتفعُ منهُ أثرٌ إلى القلبِ ، والأمرُ فيهِ دورٌ ، ويُعرفُ ذٰلكَ بمثالٍ ؛ وهوَ أنَّ مَنْ أرادَ أنْ يصيرَ الحذقُ في الكتابةِ لهُ صفةً نفسيةً حتَّىٰ يصيرَ كاتباً بالطبعِ . . فلا طريقَ لهُ إلا أنْ يتعاطىٰ بجارحةِ اليدِ ما يتعاطاهُ الكاتبُ الحاذقُ ، ويواظبَ عليهِ مدَّةً طويلةً ، وهوَ حكايةُ الخطِّ الحسنِ ، فإنَّ فعلَ الكاتبِ هوَ الخطُّ الحسنُ ، فيتشبَّهُ بالكاتبِ تكلُّفاً ، ثمَّ لا يزالُ يواظبُ عليهِ حتَّىٰ يصيرَ صفةً راسخةً في نفسِهِ ، فيصدرَ منهُ في الآخرِ الخطُّ الحسنُ طبعاً كما كانَ

يصدرُ منهُ في الابتداءِ تكلُّفاً ، فكانَ الخطُّ الحسنُ هوَ الذي جعلَ خطَّهُ حسناً ، ولكنَّ الأوَّلَ متكلَّفٌ ، إلا أنَّهُ ارتفعَ منهُ أثرٌ إلى القلبِ ، ثمَّ انخفضَ مِنَ القلبِ إلى الجارحةِ ، فصارَ يكتبُ الخطَّ الحسنَ بالطبعِ .

وكذٰلكَ مَنْ أرادَ أنْ يصيرَ فقيهَ النفسِ . . فلا طريقَ لهُ إلا أنْ يتعاطىٰ أفعالَ الفقهاءِ ، وهوَ التكرارُ للفقهِ ، حتَّىٰ تنعطفَ منهُ علىٰ قلبِهِ صفةُ الفقهِ ، فيصيرَ فقيهَ النفسِ .

وكذٰلكَ مَنْ أرادَ أنْ يصيرَ سخيّاً عفيفاً حليماً متواضعاً . . فيلزمُهُ أنْ يتعاطىٰ أفعالَ هٰؤلاءِ تكلُّفاً حتَّىٰ يصيرَ لهُ ذٰلكَ بالعادةِ طبعاً ، فلا علاجَ لهُ إلا ذٰلكَ .

وكما أنَّ طالبَ فقهِ النفسِ لا ييئسُ مِنْ نيلِ هٰذهِ الرتبةِ بتعطيلِ ليلةٍ ولا ينالُها بتكرارِ ليلةٍ . . فكذٰلكَ طالبُ تزكيةِ النفسِ وتكميلِها وتحليتِها بالأخلاقِ الحسنةِ لا ينالُها بعبادةِ يومٍ ولا يحرمُ عنها بعصيانِ يومٍ ، وهوَ معنىٰ قولِنا : (إنَّ الكبيرةَ الواحدةَ لا توجبُ الشقاوةَ المؤبَّدةَ) ، ولٰكنَّ العُطلةَ في يومٍ واحدٍ تدعو إلىٰ مثلِها ، ثمَّ تتداعىٰ قليلاً قليلاً حتَّىٰ تأنسَ النفسُ بالكسلِ ، وتهجرَ التحصيلَ رأساً ، فيفوتَها فضيلةُ الفقهِ ، وكذٰلكَ صغائرُ المعاصي يجرُّ بعضُها إلىٰ بعضٍ حتَّىٰ تفوّتَ أصلَ السعادةِ ، بهدمِ أصلِ الإيمانِ عندَ الخاتمةِ .

وكما أنَّ تكرارَ ليلةٍ لا يُحَسُّ تأثيرُهُ في تفقيهِ النفسِ ، بلْ يظهرُ فقهُ النفسِ شيئاً فشيئاً على التدريجِ مثلَ نموِّ البدنِ وارتفاعِ القامةِ . .

فكذلكَ الطاعةُ الواحدةُ لا يُحسُّ تأثيرُها في تزكيةِ النفسِ وتطهيرِها في الحالِ ، ولكنْ لا ينبغي أنْ يُستهانَ بقليلِ الطاعةِ ؛ فإنَّ الجملةَ الكثيرةَ منها مؤثرةٌ ، وإنَّما اجتمعَتِ الجملةُ مِنَ الآحادِ ، فلكلِّ واحدٍ منها تأثيرٌ ، فما مِنْ طاعةٍ إلا ولها أثرٌ وإنْ خفيَ ، فلهُ ثوابٌ لا محالةَ ؛ لأنَّ الثوابَ بإزاءِ الأثرِ ، وكذلكَ المعصيةُ .

وكمْ مِنْ فقيهٍ يستهينُ بتعطيلِ يومٍ وليلةٍ ، وهكذا على التوالي ، يسوِّفُ نفسَهُ يوماً فيوماً ، إلىٰ أنْ يخرجَ طبعُهُ عنْ قبولِ الفقهِ ؛ فكذا مَنْ يستهينُ بصغائرِ المعاصي ويسوِّفُ نفسَهُ بالتوبةِ على التوالي ، إلىٰ أنْ يختطفَهُ الموتُ بغتةً ، أوْ تتراكمَ ظلمةُ الذنوبِ علىٰ قلبِهِ وتتعذَّرَ عليه التوبةُ ؛ إذِ القليلُ يدعو إلى الكثيرِ ، فيصيرُ القلبُ مقيَّداً بسلاسلِ الشهواتِ ، لا يمكنُ تخليصُهُ مِنْ مخالبِها ، وهوَ المعنيُّ بانسدادِ بابِ التوبةِ ، وهوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا . . . ﴾ الآيةَ (١) .

ولذلكَ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ الإيمانَ ليبدو في القلبِ نكتةً بيضاءَ ، كلَّما ازدادَ الإيمانُ . . ازدادَ ذلكَ البياضُ ، فإذا استكملَ العبدُ الإيمانَ . . ابيضَّ القلبُ كلُّهُ ، وإنَّ النفاقَ ليبدو في القلبِ نكتةً سوداءَ ، كلَّما ازدادَ النفاقُ . . ازدادَ ذلكَ السوادُ ، فإذا استكملَ النفاقَ . . اسودَّ القلبُ كلُّهُ) (٢) .

---

(١) سورة يسٓ : (٩) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٧) .

فإذاً ؛ قدْ عرفتَ أنَّ الأخلاقَ الحسنةَ تارةً تكونُ بالطبعِ والفطرةِ ، وتارةً تكونُ باعتيادِ الأفعالِ الجميلةِ ، وتارةً بمشاهدةِ أربابِ الأفعالِ الجميلةِ ومصاحبتِهِمْ ، وهمْ قرناءُ الخيرِ وإخوانُ الصلاحِ ؛ إذِ الطبعُ يسرقُ مِنَ الطبعِ الشرَّ والخيرَ جميعاً ، فمَنْ تظاهرَتْ في حقِّهِ الجهاتُ الثلاثُ حتَّىٰ صارَ ذا فضيلةٍ طبعاً واعتياداً وتعلُّماً . . فهوَ في غايةِ الفضيلةِ ، ومَنْ كانَ رذلاً بالطبعِ ، واتفقَ لهُ قرناءُ السوءِ ، فتعلَّمَ منهُمْ ، وتيسَّرَتْ لهُ أسبابُ الشرِّ حتَّى اعتادَها . . فهوَ في غايةِ البعدِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وبينَ الرتبتينِ مَنِ اختلفَتْ فيهِ هٰذهِ الجهاتُ ، ولكلٍّ درجةٌ في القربِ والبعدِ بحسَبِ ما تقتضيهِ صفتُهُ وحالتُهُ ؛ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [1] ، ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [2] .

* * *

(١) سورة الزلزلة : (٧ ـ ٨) .

(٢) سورة آل عمران : (١١٧) .

بيان تفصيل الطّريق إلى تهذيب الأخلاق

قدْ عرفتَ مِنْ قبلُ أنَّ الاعتدالَ في الأخلاقِ هوَ صحَّةٌ في النفسِ ، والميلَ عنِ الاعتدالِ سقمٌ ومرضٌ فيها ، كما أنَّ الاعتدالَ في مزاجِ البدنِ هوَ صحةٌ لهُ ، والميلَ عنِ الاعتدالِ مرضٌ فيهِ ، فلنتخذِ البدنَ مثالاً ، فنقولُ :

مثالُ النفسِ في علاجِها بمحوِ الرذائلِ والأخلاقِ الرديئةِ عنها ، وجلبِ الفضائلِ والأخلاقِ الجميلةِ إليها . . مثالُ البدنِ في علاجِهِ بمحوِ العللِ عنهُ ، وكسبِ الصحَّةِ لهُ وجلبِها إليهِ ، وكما أنَّ الغالبَ على أصلِ المزاجِ الاعتدالُ ، وإنَّما تعتري العلَّةُ المضرَّةُ بعوارضِ الأغذيةِ والأهويةِ والأحوالِ . . فكذلكَ كلُّ مولودٍ يُولدُ معتدلاً صحيحاً على الفطرةِ ، وإنَّما أبواهُ يهودانِهِ أوْ ينصِّرانِهِ أوْ يمجِّسانِهِ ؛ أيْ : بالاعتيادِ والتعليمِ تُكتسبُ الرذائلُ ، وكما أنَّ البدنَ في الابتداءِ لا يُخلقُ كاملاً ، وإنَّما يكملُ ويقوىٰ بالنشوءِ والتربيةِ بالغذاءِ . . فكذلكَ النفسُ تُخلقُ ناقصةً قابلةً للكمالِ ، وإنَّما تكملُ بالتزكيةِ وتهذيبِ الأخلاقِ والتغذيةِ بالعلمِ .

وكما أنَّ البدنَ إنْ كانَ صحيحاً فشأنُ الطبيبِ تمهيدُ القانونِ الحافظِ للصحةِ ، وإنْ كانَ مريضاً فشأنُهُ جلبُ الصحَّةِ إليهِ . . فكذلكَ النفسُ منكَ ؛ إنْ كانَتْ زكيَّةً طاهرةً مهذَّبةً . . فينبغي أنْ تسعىٰ لحفظِها وحفظِ صفتِها ، وجلبِ مزيدِ قوَّةٍ إليها ، واكتسابِ زيادةِ

صفائِها ، وإنْ كانَتْ عديمةَ الكمالِ والصفاءِ . . فينبغي أن تسْعىٰ لجلبِ ذٰلكَ إليها .

وكما أنَّ العلَّةَ المغيِّرةَ لاعتدالِ البدنِ الموجبةَ للمرضِ لا تُعالجُ إلا بضدِّها ؛ فإنْ كانَتْ مِنْ حرارةٍ فبالبرودةِ ، وإنْ كانتْ مِنْ برودةٍ فبالحرارةِ . . فكذٰلكَ الرذيلةُ التي هيَ مرضُ القلبِ علاجُها بضدِّها ، فيُعالجُ مرضُ الجهلِ بالتعلُّمِ ، ومرضُ البخلِ بالتسخِّي ، ومرضُ الكبْرِ بالتواضعِ ، ومرضُ الشَّرَهِ بالكفِّ عنِ المشتهىٰ تكلُّفاً .

وكما أنَّهُ لا بدَّ مِنِ احتمالِ مرارةِ الدواءِ ، وشدَّةِ الصبرِ عنِ المشتهياتِ لعلاجِ الأبدانِ المريضةِ . . فكذٰلكَ لا بدَّ مِنِ احتمالِ مرارةِ المجاهدةِ والصبرِ لمداواةِ مرضِ القلبِ ، بلْ هٰذا أولىٰ ، فإنَّ مرضَ البدنِ يخلصُ منهُ بالموتِ ، ومرضُ القلبِ والعياذُ باللهِ مرضٌ يدومُ بعدَ الموتِ أبدَ الآبادِ .

وكما أنَّ كلَّ مبرِّدٍ لا يصلحُ لعلَّةٍ سببُها الحرارةُ إلا إذا كانَ علىٰ حدٍّ مخصوصٍ ، ويختلفُ ذٰلكَ بالشدَّةِ والضعفِ ، والدوامِ وعدمِهِ ، وبالكثرةِ والقلَّةِ ، ولا بدَّ لهُ مِنْ معيارٍ يُعرفُ بهِ مقدارُ النافعِ منهُ ؛ فإنَّهُ إنْ لمْ يُحفظْ معيارُهُ زادَ الفسادُ . . فكذٰلكَ النقائضُ التي تُعالجُ بها الأخلاقُ لا بدَّ لها مِنْ معيارٍ .

وكما أنَّ معيارَ الدواءِ مأخوذٌ مِنْ عيارِ العلَّةِ ، حتَّىٰ إنَّ الطبيبَ لا يعالجُ ما لمْ يعرفْ أنَّ العلَّةَ مِنْ حرارةٍ أوْ برودةٍ ؛ فإنْ كانَتْ مِنْ

حرارةٍ . . فيعرفُ درجتَها أهيَ ضعيفةٌ أمْ قويَّةٌ ، فإذا عرفَ ذٰلكَ . . التفتَ إلىٰ أحوالِ البدنِ وأحوالِ الزمانِ وصناعةِ المريضِ وسنِّهِ وسائرِ أحوالِهِ ، ثمَّ يعالجُ بحسَبِها . . فكذٰلكَ الشيخُ المتبوعُ الذي يطبُّ نفوسَ المريدينَ ، ويعالجُ قلوبَ المسترشدينَ ، ينبغي ألَّا يهجمَ عليهِمْ بالرياضةِ والتكاليفِ في فنٍّ مخصوصٍ وفي طريقٍ مخصوصٍ ما لمْ يعرفْ أخلاقَهُمْ وأمراضَهُمْ .

وكما أنَّ الطبيبَ لوْ عالجَ جميعَ المرضىٰ بعلاجٍ واحدٍ قتلَ أكثرَهُمْ . . فكذٰلكَ الشيخُ لوْ أشارَ على المريدينَ بنمطٍ واحدٍ مِنَ الرياضةِ . . أهلكَهُمْ ، وأماتَ قلوبَهُمْ ، بلْ ينبغي أنْ ينظرَ في مرضِ المريدِ ، وفي حالِهِ ، وسنِّهِ ، ومزاجِهِ ، وما تحتملُهُ بنيتُهُ مِنَ الرياضةِ ، ويبني علىٰ ذٰلكَ رياضتَهُ .

فإنْ كانَ المريدُ مبتدئاً ، جاهلاً بحدودِ الشرعِ . . فيعلمُهُ أوَّلاً الطهارةَ ، والصلاةَ ، وظواهرَ العباداتِ .

وإنْ كانَ مشغولاً بمالٍ حرامٍ ، أوْ مقارفاً لمعصيةٍ . . فيأمرُهُ أوَّلاً بتركِها ، فإذا تزيَّنَ ظاهرُهُ بالعباداتِ ، وطهَّرَ عنِ المعاصي الظاهرةِ جوارحَهُ . . نظرَ بقرائنِ الأحوالِ إلىٰ باطنِهِ ؛ ليتفطَّنَ لأخلاقِهِ ، وأمراضِ قلبِهِ ، فإنْ رأىٰ معَهُ مالاً فاضلاً عنْ قدْرِ ضرورتِهِ . . أخذَهُ منهُ ، وصرفَهُ إلى الخيراتِ ، وفرَّغَ قلبَهُ منهُ حتَّىٰ لا يلتفتَ إليه .

وإنْ رأى الرعونةَ والكبْرَ وعزَّةَ النفسِ غالبةً عليهِ . . فيأمرُهُ أنْ يخرجَ

إلى الأسواقِ للكُدْيةِ والسؤالِ[1] ، فإنَّ عزَّةَ النفسِ والرئاسةَ لا تنكسرُ إلا بالذلِّ ، ولا ذلَّ أعظمُ مِنْ ذلِّ السؤالِ ، فيكلِّفُهُ المواظبةَ علىٰ ذٰلكَ مدَّةً ، حتَّىٰ ينكسرَ كبرُهُ وعزَّةُ نفسِهِ ؛ فإنَّ الكبْرَ مِنَ الأمراضِ المهلكةِ ، وكذٰلكَ الرعونةُ .

وإنْ رأى الغالبَ عليهِ النظافةَ في البدنِ والثيابِ ، ورأىٰ قلبَهُ مائلاً إلىٰ ذٰلكَ ، فرحاً بهِ ، ملتفتاً إليهِ . . استخدمَهُ في تعهُّدِ بيتِ الماءِ وتنظيفِهِ ، وكنْسِ المواضعِ القذرةِ ، وملازمةِ المطبخِ ومواضعِ الدخانِ ، حتَّىٰ تتشوَّشَ عليهِ رعونتُهُ في النظافةِ ، فإنَّ الذينَ ينظِّفونَ ثيابَهُمْ ويزيّنونَها ، ويطلبونَ المرقَّعاتِ النظيفةَ ، والسَّجَّاداتِ الملوَّنةَ . . لا فرقَ بينَهُمْ وبينَ العروسِ التي تزيّنُ نفسَها طولَ النهارِ ، فلا فرقَ بينَ أنْ يعبدَ الإنسانُ نفسَهُ أوْ يعبدَ صنماً ، فمهما عبَدَ غيرَ اللهِ . . فقدْ حُجِبَ عنِ اللهِ ، ومَنْ راعىٰ في ثوبِهِ شيئاً سوىٰ كونِهِ حلالاً وطاهراً مراعاةً يلتفتُ إليها قلبُهُ . . فهوَ مشغولٌ بنفسِهِ .

ومِنْ لطائفِ الرياضةِ إذا كانَ المريدُ لا يسخو بتركِ الرعونةِ رأساً ، أوْ بتركِ صفةٍ أخرىٰ ، ولمْ يسمحْ بضدِّها دفعةً . . فينبغي أنْ ينقلَهُ مِنَ الخلُقِ المذمومِ إلىٰ خُلقٍ مذمومٍ آخرَ أخفَّ منهُ ؛ كالذي يغسلُ الدمَ بالبولِ ، ثمَّ يغسلُ البولَ بالماء ، إذا كانَ الماءُ لا يزيلُ الدمَ ، كما يُرغَّبُ الصبيُّ في المكتبِ باللعبِ بالكرةِ والصولجانِ

(١) الكدية هنا : الإلحاح في السؤال والاستجداء .

وما أشبَهَهُ ، ثمَّ يُنقلُ مِنَ اللعبِ إلى الزينةِ وفاخرِ الثيابِ ، ثمَّ يُنقلُ مِنْ ذٰلكَ بالترغيبِ في الرئاسةِ وطلبِ الجاهِ ، ثمَّ يُنقلُ مِنَ الجاهِ بالترغيبِ في الآخرةِ ؛ فكذٰلكَ مَنْ لمْ تسمحْ نفسُهُ بتركِ الجاهِ دفعةً . . فليُنقلْ إلىٰ جاهٍ أخفَّ منهُ ، وكذٰلكَ سائرُ الصفاتِ .

وكذٰلكَ إنْ رأىٰ شَرَهَ الطعامِ غالباً عليهِ . . ألزمَهُ الصومَ وتقليلَ الطعامِ ، ثمَّ يكلِّفُهُ أنْ يهيِّئَ الأطعمةَ اللذيذةَ ويقدِّمَها إلىٰ غيرِهِ وهوَ لا يأكلُ منها ، حتَّىٰ يقوِّيَ بذٰلكَ نفسَهُ ، فيتعوَّدَ الصبرَ وينكسرَ شَرَهُهُ .

وكذٰلكَ إذا رآهُ شابّاً متشوِّقاً إلى النكاحِ وهوَ عاجزٌ عنِ الطَّولِ ، فيأمرُهُ بالصومِ ، وربَّما لا تسكنُ شهوتُهُ بذٰلكَ ، فيأمرُهُ أنْ يفطرَ ليلةً على الماءِ دونَ الخبزِ ، وليلةً على الخبزِ دونَ الماءِ ، ويمنعُهُ اللحمَ والأدْمَ رأساً ، حتَّىٰ تذلَّ نفسُهُ ، وتنكسرَ شهوتُهُ ، فلا علاجَ في مبدأ الإرادةِ أنفعُ مِنَ الجوعِ .

وإنْ رأى الغضبَ غالباً عليهِ . . ألزمَهُ الحِلْمَ والسكوتَ ، وسلَّطَ عليهِ مَنْ يصحبُهُ ممَّنْ فيهِ سوءُ خلقٍ ، ويلزمُهُ خدمةَ مَنْ ساءَ خلقُهُ ؛ حتَّىٰ يُمرِّنَ نفسَهُ على الاحتمالِ معَهُ ، كما حُكِيَ عنْ بعضِهِمْ أنَّهُ كانَ يعوِّدُ نفسَهُ الحِلْمَ ، ويزيلُ عنْ نفسِهِ شدَّةَ الغضبِ ، فكانَ يستأجرُ مَنْ يشتمُهُ علىٰ ملأٍ مِنَ الناسِ ، ويكلِّفُ نفسَهُ الصبرَ ، ويكظمُ غيظَهُ ، حتَّىٰ صارَ الحِلْمُ عادةً لهُ ، بحيثُ كانَ يُضربُ بهِ المثلُ .

وبعضُهُمْ كانَ يستشعرُ في نفسِهِ الجبنَ وضعفَ القلبِ ، فأرادَ

أنْ يحصلَ لنفسِهِ خلُقَ الشجاعةِ ، فكانَ يركبُ البحرَ في الشتاءِ عندَ اضطرابِ الأمواجِ .

وعبَّادُ الهندِ يعالجونَ الكسلَ عنِ العبادةِ بالقيامِ طَوالَ الليلِ علىٰ نصبةٍ واحدةٍ .

وبعضُ الشيوخِ في ابتداءِ إرادتِهِ كانَ يكسلُ عنِ القيامِ ، فألزمَ نفسَهُ القيامَ علىٰ رأسِهِ طولَ الليلِ لتسمحَ بالقيامِ على الرجْلِ عنْ طوعٍ .

وعالجَ بعضُهُمْ حبَّ المالِ بأنْ باعَ جميعَ مالِهِ ورمىٰ بهِ في البحرِ ؛ إذْ خافَ مِنْ تفرقتِهِ على الناسِ رعونةَ الرياءِ بالبذلِ .

فهٰذهِ الأمثلةُ تعرِّفُكَ طريقَ معالجةِ القلوبِ ، وليسَ غرضُنا ذكرَ دواءِ كلِّ مرضٍ ، فإنَّ ذٰلكَ سيأتي في بقيَّةِ الكتبِ ، وإنَّما غرضُنا الآنَ التنبيهُ علىٰ أنَّ الطريقَ الكليَّ فيهِ سلوكُ مسلكِ المضادَّةِ لكلِّ ما تهواهُ النفسُ وتميلُ إليهِ ، وقدْ جمعَ اللهُ تعالىٰ ذٰلكَ كلَّهُ في كتابِهِ العزيزِ في كلمةٍ واحدةٍ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ (١) .

والأصلُ المهمُّ في المجاهدةِ : الوفاءُ بالعزمِ ، فإذا عزَمَ علىٰ تركِ شهوةٍ . . تيسَّرَتْ أسبابُها ، ويكونُ ذٰلكَ ابتلاءً مِنَ اللهِ تعالىٰ واختباراً ، فينبغي أن يصبرَ ويستمرَّ ، فإنَّهُ إنْ عوَّدَ نفسَهُ نكْثَ العزْمِ . .

(١) سورة النازعات : (٤٠ ـ ٤١) .

أَلِفَتْ ذٰلكَ ، ففسدَتْ ، وإذا اتفقَ منهُ نقضُ عزمٍ . . فينبغي أنْ يلزمَ نفسَهُ عقوبةً عليهِ كما ذكرناهُ في معاقبةِ النفسِ في كتابِ المحاسبةِ والمراقبةِ ، وإذا لمْ يخوِّفِ النفسَ بعقوبةٍ . . غلبَتْهُ ، وحسَّنَتْ عندَهُ تناولَ الشهوةِ ، فتفسدُ بها الرياضةُ بالكليَّةِ .

❋ ❋ ❋

بيان علامات مرض القلب وعلامات عوده إلى الصحة

اعلمْ : أنَّ كلَّ عضوٍ مِنْ أعضاءِ البدنِ خُلِقَ لفعلٍ خاصٍّ بهِ ، وإنَّما مرضُهُ أنْ يتعذَّرَ عليهِ فعلُهُ الذي خُلِقَ لهُ ، حتَّىٰ لا يصدرَ منهُ أصلاً ، أوْ يصدرَ منهُ معَ نوعٍ مِنَ الاضطرابِ ، فمرضُ اليدِ أنْ يتعذَّرَ عليها البطشُ ، ومرضُ العينِ أنْ يتعذَّرَ عليها الإبصارُ ، فكذٰلكَ مرضُ القلبِ أنْ يتعذَّرَ عليهِ فعلُهُ الخاصُّ بهِ ، الذي خُلِقَ لأجلِهِ ، وهوَ العلمُ والحكمةُ والمعرفةُ ، وحبُّ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ وعبادتُهُ ، والتلذُّذُ بذكرِهِ ، وإيثارُ ذٰلكَ علىٰ كلِّ شهوةٍ سواهُ ، والاستعانةُ بجميعِ الشهواتِ والأعضاءِ عليهِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] .

ففي كلِّ عضوٍ فائدةٌ ، وفائدةُ القلبِ الحكمةُ والمعرفةُ ، وخاصيَّةُ النفسِ التي للآدميِّ ما يتميَّزُ بها عنِ البهائمِ ، فإنَّهُ لمْ يتميَّزْ عنها بالقوةِ على الأكلِ والوقاعِ والإبصارِ أوْ غيرِها ، بلْ بمعرفةِ الأشياءِ علىٰ ما هيَ عليهِ .

وأصلُ الأشياءِ وموجدُها ومخترعُها هوَ اللهُ عزَّ وجلَّ الذي جعلَها أشياءَ ، فلوْ عرفَ كلَّ شيءٍ ولمْ يعرفِ اللهَ عزَّ وجلَّ . . فكأنَّهُ لمْ يعرفْ شيئاً .

---

(١) سورة الذاريات : (٥٦) .

وعلامةُ المعرفةِ المحبةُ ، فمَنْ عرفَ اللهَ تعالىٰ . . أحبَّهُ ، وعلامةُ المحبةِ ألَّا يؤثرَ عليهِ الدنيا ولا غيرَها مِنَ المحبوباتِ ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (١) ، فمَنْ عندَهُ شيءٌ أحبُّ إليهِ مِنَ اللهِ . . فقلبُهُ مريضٌ ، كما أنَّ كلَّ معدةٍ صارَ الطينُ أحبَّ إليها مِنَ الخبزِ والماءِ ، أوْ سقطَتْ شهوتُها عنِ الخبزِ والماءِ . . فهيَ مريضةٌ ، فهٰذهِ علاماتُ المرضِ .

وبهٰذا يُعرفُ أنَّ القلوبَ كلَّها مريضةٌ إلا ما شاءَ اللهُ ، إلا أنَّ مِنَ الأمراضِ ما لا يعرفُها صاحبُها ، ومرضُ القلبِ ممَّا لا يعرفُهُ صاحبُهُ ، فلذٰلكَ يغفُلُ عنهُ ، وإنْ عرفَهُ . . صعبَ عليهِ الصبرُ علىٰ مرارةِ دوائِهِ ؛ فإنَّ دواءَهُ مخالفةُ الشهواتِ ، وهوَ نزعُ الروحِ ، فإنْ وجدَ مِنْ نفسِهِ قوَّةَ الصبرِ عليهِ . . لمْ يجدْ طبيباً حاذقاً يعالجُهُ ؛ فإنَّ الأطباءَ هُمُ العلماءُ ، وقدِ استولىٰ عليهِمُ المرضُ ، فالطبيبُ المريضُ قلَّما يلتفتُ إلىٰ علاجِهِ ، فلهٰذا صارَ الداءُ عضالاً ، والمرضُ مزمناً ، واندرسَ هٰذا العلمُ ، وأُنكرَ بالكليَّةِ طبُّ القلوبِ ، وأُنكرَ مرضُها ، وأقبلَ الخلقُ علىٰ حبِّ الدنيا ، وعلىٰ أعمالٍ ظاهرُها عباداتٌ وباطنُها عاداتٌ ومراءياتٌ ، فهٰذهِ علاماتُ أصولِ الأمراضِ .

---

(١) سورة التوبة : (٢٤) .

وأمَّا علامةُ عودِها إلى الصحَّةِ بعدَ المعالجةِ . . فهوَ أنْ ينظرَ في العلَّةِ التي يعالجُها ، فإنْ كانَ يعالجُ داءَ البخلِ وهو المهلكُ المبعدُ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ . . فإنَّما علاجُهُ ببذلِ المالِ وإنفاقِهِ ، ولـٰكنَّهُ قدْ يبذلُ المالَ إلىٰ حدٍّ يصيرُ بهِ مبذِّراً ، فيكونُ التبذيرُ أيضاً داءً ، ويكونُ كمَنْ يعالجُ البرودةَ بالحرارةِ حتَّىٰ تغلبَ الحرارةُ ، وهوَ أيضاً داءٌ ، بلِ المطلوبُ الاعتدالُ بينَ الحرارةِ والبرودةِ ، وكذٰلكَ المطلوبُ الاعتدالُ بينَ التقتيرِ والتبذيرِ حتَّىٰ يكونَ على الوسطِ ، وفي غايةِ البعدِ عنِ الطرفينِ .

فإنْ أردتَ أنْ تعرفَ الوسطَ . . فانظرْ إلى الفعلِ الذي يوجبُهُ الخلُقُ المحذورُ ، فإنْ كانَ أسهلَ عليكَ وألذَّ مِنَ الذي يضادُّهُ ، فالغالبُ عليكَ ذٰلكَ الخلُقُ الموجبُ لهُ ، مثلُ أنْ يكونَ إمساكُ المالِ وجمعُهُ ألذَّ عندَكَ وأيسرَ عليكَ مِنْ بذلِهِ لمستحقِّهِ . . فاعلمْ أنَّ الغالبَ عليكَ خلقُ البخلِ ، فزدْ في المواظبةِ على البذلِ ، فإنْ صارَ البذلُ علىٰ غيرِ المستحقِّ ألذَّ عندَكَ وأخفَّ عليكَ مِنَ الإمساكِ بالحقِّ . . فقدْ غلبَ عليكَ التبذيرُ ، فارجعْ إلى المواظبةِ على الإمساكِ ، فلا تزالُ تراقبُ نفسَكَ وتستدلُّ علىٰ خلقِكَ بتيسيرِ الأفعالِ وتعسيرِها حتَّىٰ تنقطعَ علاقةُ قلبِكَ عنِ الالتفاتِ إلى المالِ ، فلا تميلُ إلىٰ بذلِهِ ولا إلىٰ إمساكِهِ ، بلْ يصيرُ عندَكَ كالماءِ ، فلا تطلبُ فيهِ إلا إمساكَهُ لحاجةِ محتاجٍ أوْ بذلَهُ لحاجةِ محتاجٍ ، ولا يترجَّحُ عندَكَ البذلُ على الإمساكِ .

فكلُّ قلبٍ صارَ كذٰلكَ فقدْ أتى اللهَ سليماً عنْ هـٰذا المقامِ

خاصَّةً ، ويجبُ أنْ يكونَ سليماً عنْ سائرِ الأخلاقِ ، حتَّىٰ لا يكونَ لهُ علاقةٌ بشيءٍ ممَّا يتعلَّقُ بالدنيا ، حتَّىٰ ترتحلَ النفسُ عنِ الدنيا منقطعةَ العلائقِ عنها ، غيرَ ملتفتةٍ إليها ، ولا متشوّقةٍ إلىٰ أسبابِها ، فعندَ ذٰلكَ ترجعُ إلىٰ ربِّها رجوعَ النفسِ المطمئنةِ راضيةً مرضيةً ، داخلةً في زمرةِ عبادِ اللهِ المقرَّبينَ ، مِنَ النبيّينَ والصديقينَ والشهداءِ والصالحينَ ، وحسنَ أولئكَ رفيقاً .

ولـمَّا كانَ الوسطُ الحقيقيُّ بينَ الطرفينِ في غايةِ الغموضِ ، بلْ هوَ أدقُّ مِنَ الشعرِ وأحدُّ مِنَ السيفِ ؛ فلا جرمَ مَنِ استوىٰ علىٰ هٰذا الصراطِ المستقيمِ في الدنيا . . جازَ علىٰ مثلِ هٰذا الصراطِ في الآخرةِ ، وقلَّما ينفكُّ العبدُ عنْ ميلٍ عنِ الصراطِ المستقيمِ ـ أعني الوسطَ ـ حتَّىٰ لا يميلَ إلىٰ أحدِ الجانبينِ ، فيكونُ قلبُهُ متعلّقاً بالجانبِ الذي مالَ إليهِ ، ولذٰلكَ لا ينفكُّ عنْ عذابٍ ما واجتيازٍ على النارِ ، وإنْ كانَ مثلَ البرقِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾[1] أي : الذينَ كانَ قربُهُمْ إلى الصراطِ المستقيمِ أكثرَ مِنْ بعدِهِمْ عنهُ .

ولأجلِ عسرِ الاستقامةِ وجبَ علىٰ كلِّ عبدٍ أنْ يدعوَ اللهَ تعالىٰ في كلِّ يومٍ سبعَ عشرةَ مرَّةً في قولِهِ : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[2] إذ وجبَتْ قراءةُ الفاتحةِ في كلِّ ركعةٍ .

---

(١) سورة مريم : (٧١ ـ ٧٢) .

(٢) سورة الفاتحة : (٦) .

فقدْ رُويَ أنَّ بعضَهم رأىٰ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ فقالَ : قدْ قلتَ يا رسولَ اللهِ : « شيَّبَتْني هودٌ » فلِمَ قلتَ ذٰلكَ ؟ قالَ : لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾ (١) .

فالاستقامةُ علىٰ سواءِ السبيلِ في غايةِ الغموضِ ، ولٰكنْ ينبغي أنْ يجتهدَ الإنسانُ في القربِ مِنَ الاستقامةِ إنْ لمْ يقدرْ علىٰ حقيقتِها ، فكلُّ مَنْ أرادَ النجاةَ فلا نجاةَ لهُ إلا بالعملِ الصالحِ ، ولا تصدرُ الأعمالُ الصالحةُ إلا عنِ الأخلاقِ الحسنةِ ، فليتفقدْ كلُّ عبدٍ صفاتِهِ وأخلاقَهُ وليعدِّدْها ، وليشتغلْ بعلاجٍ واحدٍ واحدٍ منها على الترتيبِ ، فنسألُ اللهَ الكريمَ أنْ يجعلَنا مِنَ المتقينَ .

* * *

---

(١) سورة هود ﷺ : (١١٢) ، والحديث رواه البيهقي في « الشعب » (٢٢١٥) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٣٥٧) ، وأما حديث : « شيبتني هود » . . فقد تقدم .

بيان الطّريق الّذي به يعرف الإنسان عيوب نفسه

اعلمْ : أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا أرادَ بعبدٍ خيراً . . بصَّرَهُ بعيوبِ نفسِهِ ، فمَنْ كانَتْ بصيرتُهُ نافذةً . . لمْ تخفَ عليهِ عيوبُهُ ، فإذا عرفَ العيوبَ . . أمكنَهُ العلاجُ ، ولٰكنَّ أكثرَ الخلقِ جاهلونَ بعيوبِ أنفسِهِمْ ، يرىٰ أحدُهُمُ القذىٰ في عينِ أخيهِ ولا يرى الجِذْعَ في عينِ نفسِهِ .

❁ ❁ ❁

فمَنْ أرادَ أنْ يقفَ علىٰ عيبِ نفسِهِ . . فلهُ أربعةُ طرقٍ :

الأوَّلُ : أنْ يجلسَ بينَ يدي شيخٍ بصيرٍ بعيوبِ النفسِ ، مطلعٍ علىٰ خفايا الآفاتِ ، ويحكِّمَهُ في نفسِهِ ، ويتبعَ إشارتَهُ في مجاهدتِهِ ، وهٰذا شأنُ المريدِ معَ شيخِهِ ، والتلميذِ معَ أستاذِهِ ، فيعرِّفُهُ أستاذُهُ وشيخُهُ عيوبَ نفسِهِ ، ويعرِّفُهُ طريقَ علاجِهِ ، وهٰذا قدْ عزَّ في هٰذا الزمانِ وجودُهُ .

❁ ❁ ❁

الثاني : أنْ يطلبَ صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً ، فينصبَهُ رقيباً علىٰ نفسِهِ ليلاحظَ أحوالَهُ وأفعالَهُ ، فما كرهَهُ مِنْ أخلاقِهِ وأفعالِهِ ، وعيوبِهِ الباطنةِ والظاهرةِ . . ينبهُهُ عليهِ .

فهٰكذا كانَ يفعلُ الأكياسُ والأكابرُ مِنْ أئمةِ الدينِ ، كانَ عمرُ

رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (رحمَ اللهُ امرأً أهدىٰ إليَّ عيوبي)[١] .

وكانَ يسألُ سلمانَ عنْ عيوبِهِ لمَّا قدمَ عليهِ ، وقالَ لهُ : ما الذي بلغَكَ عنِّي ممَّا تكرهُهُ ؟ فاستعفىٰ ، فألحَّ عليهِ ، فقالَ : بلغَني أنَّكَ جمعتَ بينَ إدامينِ علىٰ مائدةٍ ، وأنَّ لكَ حُلَّتينِ ، حلَّةً بالنهارِ وحلَّةً بالليلِ ، قالَ : وهلْ بلَغَكَ غيرُ هـٰذا ؟ قالَ : لا ، قالَ : أمَّا هـٰذانِ . . فقدْ كفيتَهُما[٢] .

وكانَ يسألُ حذيفةَ ويقولُ لهُ : أنتَ صاحبُ سرِّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنافقينَ ، فهلْ ترىٰ عليَّ شيئاً مِنْ آثارِ النفاقِ ؟[٣] .

فهوَ علىٰ جلالةِ قدْرِهِ وعلوِّ منصبِهِ هـٰكذا كانَتْ تُهَمَتُهُ لنفسِهِ رضيَ اللهُ عنهُ ، فكلُّ مَنْ كانَ أوفرَ عقلاً وأعلىٰ منصباً . . كانَ أقلَّ إعجاباً ، وأعظمَ اتهاماً لنفسِهِ .

إلا أنَّ هـٰذا أيضاً قدْ عزَّ ، فقلَّ في الأصدقاءِ مَنْ يتركُ المداهنةَ ، فيخبرُ بالعيبِ ، أوْ يتركُ الحسدَ ، فلا يزيدُ علىٰ قدْرِ الواجبِ ، فلا تخلو في أصدقائِكَ عنْ حسودٍ ، أوْ صاحبِ غرضٍ يرىٰ ما ليسَ بعيبٍ عيباً ، أوْ عنْ مداهنٍ يُخفي عنكَ بعضَ عيوبِكَ .

ولهـٰذا كانَ داوودُ الطائيُّ قدِ اعتزلَ الناسَ ، فقيلَ لهُ : لِمَ لا

---

(١) رواه الإسماعيلي والذهبي في « مناقب عمر » . « إتحاف » (٣٤٩/٧) ، وهو كذٰلك في « القوت » (٢٢١/٢) .

(٢) رواه الإسماعيلي والذهبي في « مناقب عمر » . « إتحاف » (٣٤٩/٧) ، وبنحوه رواه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٤٠٨) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٢٩٨/٦) .

تخالطُ الناسَ ؟ فقالَ : وماذا أصنعُ بأقوامٍ يُخفونَ عنِّي عيوبي ؟!

فقدْ كانَتْ شهوةُ ذوي الدينِ أنْ يتنبهوا لعيوبِهِمْ بتنبيهِ غيرِهِمْ ، وقدْ آلَ الأمرُ في أمثالِنا إلىٰ أنَّ أبغضَ الخلْقِ إلينا مَنْ ينصحُنا ويعرِّفُنا عيوبَنا ، ويكادُ هٰذا يكونُ مفصحاً عنْ ضعفِ الإيمانِ ؛ فإنَّ الأخلاقَ السيئةَ حيَّاتٌ وعقاربُ لداغةٌ ، فلو نبَّهَنا منبِّهٌ علىٰ أنَّ تحتَ ثوبِنا عقرباً . . لتقلَّدنا منهُ منَّةً ، وفرحنا بهِ ، واشتغلنا بإزالةِ العقربِ وإبعادِها وقتلِها ، وإنَّما نكايتُها على البدنِ ، ويدومُ ألمُها يوماً فما دونَهُ ، ونكايةُ الأخلاقِ الرديئةِ علىٰ صميمِ القلبِ ، ويُخشىٰ أنْ تدومَ بعدَ الموتِ أبداً ، أوْ آلافاً مِنَ السنينَ ، ثمَّ لا نفرحُ بمَنْ ينبهُنا عليها ، ولا نشتغلُ بإزالتِها ، بلْ نشتغلُ بمقابلةِ الناصحِ بمثلِ مقالتِهِ ، فنقولُ لهُ : (وأنتَ أيضاً تصنعُ كيتَ وكيتَ) ، وتشغلُنا العداوةُ معَهُ عنِ الانتفاعِ بنصحِهِ ، ويشبهُ أنْ يكونَ ذٰلكَ مِنْ قساوةِ القلبِ التي أثمرَتْها كثرةُ الذنوبِ ، وأصلُ ذٰلكَ ضعفُ الإيمانِ ، فنسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يعرِّفَنا رشدَنا ، ويبصِّرَنا بعيوبِ أنفسِنا ، ويشغلَنا بمداواتِها ، ويوفقَنا للقيامِ بشكرِ مَنْ يطلعُنا علىٰ مساوئِنا بمنِّهِ وفضلِهِ .

❁ ❁ ❁

الطريقُ الثالثُ : أنْ يستفيدَ معرفةَ عيوبِ نفسِهِ مِنْ ألسنةِ أعدائِهِ ؛ فإنَّ عينَ السخطِ تبدي المساوئَ ، ولعلَ انتفاعَ الإنسانِ بعدوٍّ مشاحنٍ يذكِّرُهُ عيوبَهُ أكثرُ مِنِ انتفاعِهِ بصديقٍ مداهنٍ يثني عليهِ ويمدحُهُ ، ويخفي عنهُ عيوبَهُ ، إلا أنَّ الطبعَ مجبولٌ علىٰ تكذيبِ العدوِّ ، وحملِ

ما يقولُهُ على الحسدِ ، ولٰكنَّ البصيرَ لا يخلو عنِ الانتفاعِ بقولِ أعدائِهِ ؛ فإنَّ مساوئَهُ لا بدَّ وأنْ تنتشرَ علىٰ ألسنتِهِم .

❊ ❊ ❊

الطريقُ الرابعُ : أنْ يخالطَ الناسَ ، فكلُّ ما رآهُ مذموماً فيما بينَ الخلقِ فليطالبْ نفسَهُ بهِ وينسبْها إليهِ ؛ فإنَّ المؤمنَ مرآةُ المؤمنِ ، فيرىٰ مِنْ عيوبِ غيرِهِ عيوبَ نفسِهِ ، ويعلمُ أنَّ الطباعَ متقاربةٌ في اتباعِ الهوىٰ ، فما يتصفُ بهِ واحدٌ مِنَ الأقرانِ لا ينفكُّ القرنُ الآخرُ عنْ أصلِهِ ، أوْ عنْ أعظمَ منهُ ، أوْ عنْ شيءٍ منهُ ، فليتفقَّدْ نفسَهُ ويطهرْها منْ كلِّ ما يذمُّهُ مِنْ غيرِهِ ، وناهيكَ بهٰذا تأديباً ، فلوْ تركَ الناسُ كلُّهُمْ ما يكرهونَهُ مِنْ غيرِهِمْ . . لاستغنوا عنِ المؤدِّبِ .

قيلَ لعيسىٰ عليهِ السلامُ : مَنْ أدَّبَكَ ؟ قالَ : ما أدَّبَني أحدٌ ، رأيتُ جهلَ الجاهلِ شيناً فاجتنبتُهُ[1] .

وهٰذا كلُّهُ حِيَلُ مَنْ فقدَ شيخاً عارفاً زكياً ، بصيراً بعيوبِ النفسِ ، مشفقاً ناصحاً في الدينِ ، فارغاً مِن تهذيبِ نفسِهِ ، مشتغلاً بتهذيبِ عبادِ اللهِ تعالىٰ ، ناصحاً لهُمْ ، فمَنْ وجدَ ذٰلكَ . . فقدْ وجدَ الطبيبَ ، فليلازمْهُ ، فهوَ الذي يخلِّصُهُ مِنْ مرضِهِ ، وينجيهِ مِنَ الهلاكِ الذي هوَ بصددِهِ .

❊ ❊ ❊

(١) كذا أورده ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (٢/٤٤٢) ، ورواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٤٥٠) ولكن عن بعض الحكماء .

بيان شواهد النقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع على أن الطريق في معالجة أمراض القلوب ترك الشهوات وأن مادة أمراضها هي اتباع الشهوات

اعلمْ : أنَّ ما ذكرناهُ إنْ تأمَّلتَهُ بعينِ الاعتبارِ . . انفتحَتْ بصيرتُكَ ، وانكشفَتْ لكَ عللُ القلوبِ وأمراضُها وأدويتُها بنورِ العلمِ واليقينِ ، فإنْ عجزتَ عنْ ذٰلكَ . . فلا ينبغي أنْ يفوتَكَ التصديقُ والإيمانُ علىٰ سبيلِ التلقي والتقليدِ لمَنْ يستحقُّ التقليدَ ؛ فإنَّ للإيمانِ درجةً كما أنَّ للعلمِ درجةً ، والعلمُ يحصلُ بعدَ الإيمانِ ، وهوَ وراءَهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ (١) .

فمَنْ صدَّقَ بأنَّ مخالفةَ الشهواتِ هيَ الطريقُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولمْ يطَّلعْ علىٰ سببِهِ وسرِّهِ . . فهوَ مِنَ الذينَ آمنوا ، وإذا اطلعَ علىٰ ما ذكرناهُ مِنْ أغوارِ الشهواتِ وأسرارِها . . فهوَ مِنَ الذينَ أُوتوا العلمَ ، وكُلّاً وعدَ اللهُ الحسنىٰ .

والذي يقتضي الإيمانَ بهٰذا الأمرِ في القرآنِ والسنَّةِ وأقاويلِ العلماءِ أكثرُ مِنْ أنْ يُحصىٰ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة المجادلة : (١١) .

(٢) سورة النازعات : (٤٠ ـ ٤١) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ [1] ، قيلَ : نزعَ منها محبَّةَ الشهواتِ [2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ بينَ خمسِ شدائدَ : مؤمنٌ يحسدُهُ ، ومنافقٌ يبغضُهُ ، وكافرٌ يقاتلُهُ ، وشيطانٌ يضلُّهُ ، ونفسٌ تنازعُهُ » [3] ، فبيَّنَ أنَّ النفسَ عدوٌّ منازعٌ يجبُ مجاهدتُهُ .

ويُروىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (يا داوودُ ؛ حذِّر وأنذرْ أصحابَكَ أكلَ الشهواتِ ؛ فإنَّ القلوبَ المتعلِّقَةَ بشهواتِ الدنيا عقولُها عنِّي محجوبةٌ) [4] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (طوبىٰ لِمَنْ تركَ شهوةً حاضرةً لموعودٍ غائبٍ لمْ يرَهُ) [5] .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لقومٍ قدموا مِنَ الجهادِ : « مرحباً بكُمْ ، قدمتُمْ مِنَ الجهادِ الأصغرِ إلى الجهادِ الأكبرِ » ، قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ وما الجهادُ الأكبرُ ؟ قالَ : « جهادُ النفسِ » [6] .

---

(١) سورة الحجرات : (٣) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٦٨/٩) بنحوه عن عمر رضي الله عنه .

(٣) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٥٤٨) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه أبو بكر ابن لال في « مكارم الأخلاق » من حديث أنس بسند ضعيف) . « إتحاف » (٣٥١/٧) .

(٤) رواه عبد الجبار الخولاني في « تاريخ داريا » (ص ١٠٩) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٥/١٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٣٢/٤٧) .

(٦) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٣٧٣) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٤٩٨/١٣) ، وابن الجوزي في « ذم الهوىٰ » (١١٨) بنحوه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المجاهدُ مَنْ جاهدَ نفسَهُ في اللهِ عزَّ وجلَّ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كُفَّ أذاكَ عنْ نفسِكَ ، ولا تتابعْ هواها في معصيةِ اللهِ تعالىٰ ، إذاً ؛ تخاصمْك يومَ القيامةِ ، فيلعنْ بعضُكَ بعضاً ، إلَّا أنْ يغفرَ اللهُ تعالىٰ ويسترَ »[٢] .

وقالَ سفيانُ الثوريُّ : (ما عالجتُ شيئاً أشدَّ عليَّ مِنْ نفسي ، مرَّةً لي ، ومرَّةً عليَّ)[٣] .

وكانَ أبو العباسِ الموصليُّ يقولُ لنفسِهِ : (يا نفسُ ؛ لا في الدنيا معَ أبناءِ الملوكِ تتنعَّمينَ ، ولا في طلبِ الآخرةِ معَ العبَّادِ تجتهدينَ ، كأنِّي بكِ بينَ الجنةِ والنارِ تُحبسينَ ، يا نفسُ ؛ ألا تستحينَ ؟!) .

وقالَ الحسنُ : (ما الدابَّةُ الجموحُ بأحوجَ إلى اللجامِ الشديدِ مِنْ نفسِكَ) .

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ الرازيُّ : (جاهدْ نفسَكَ بأسيافِ الرياضةِ ، والرياضةُ علىٰ أربعةِ أوجهٍ : القوتُ مِنَ الطعامِ ، والغمضُ مِنَ المنامِ ، والحاجةُ مِنَ الكلامِ ، وحملُ الأذىٰ مِنْ جميعِ الأنامِ ، فيتولَّدُ مِنْ قلَّةِ الطعامِ موتُ الشهواتِ ، ومِنْ قلَّةِ المنامِ صفوُ الإراداتِ ، ومِنْ قلَّةِ الكلامِ السلامةُ مِنَ الآفاتِ ، ومنِ احتمالِ الأذى البلوغُ إلى الغاياتِ ،

---

(١) رواه الترمذي (١٦٢١) ضمن حديث عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه .
(٢) قال الحافظ العراقي : (لم أجده بهـٰذا السياق) . « إتحاف » (٧/٣٥١) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/٥) .

وليسَ على العبدِ شيءٌ أشدَّ مِنَ الحِلْمِ عندَ الجفا ، والصبرِ على الأذىٰ ، وإذا تحرَّكَتْ مِنَ النفسِ إرادةُ الشهواتِ والآثامِ ، وهاجَتْ منها حلاوةُ فضولِ الكلامِ . . جرَّدْتَ عليها سيوفَ قلَّةِ الطعامِ مِنْ غمدِ التهجُّدِ وقلَّةِ المنامِ ، وضربتَها بأيدي الخمولِ وقلَّةِ الكلامِ ، حتَّىٰ تنقطعَ عنِ الظلمِ والانتقامِ ، فتأمنَ بوائقَها في سائرِ الأيامِ ، وتصفِّيَها مِنْ ظلمةِ شهواتِها ، فتنجوَ مِنْ غوائلِ آفاتِها ، فتصيرَ عندَ ذٰلكَ روحانيَّةً لطيفةً ، ونوريَّةً خفيفةً ، فتجولَ في ميدانِ الخيراتِ ، وتسيرَ في مسالكِ الطاعاتِ ؛ كالفرسِ الفارهِ في الميدانِ ، وكالمَلِكِ المتنزِّهِ في البستانِ) .

وقالَ أيضاً : (أعداءُ الإنسانِ ثلاثةٌ : دنياهُ ، وشيطانُهُ ، ونفسُهُ ، فاحترسْ مِنَ الدنيا بالزهدِ فيها ، ومِنَ الشيطانِ بمخالفتِهِ ، ومِنَ النفسِ بتركِ الشهواتِ) .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (مَنِ استولَتْ عليهِ النفسُ . . صارَ أسيراً في جبِّ شهواتِها ، محصوراً في سجنِ هواها ، مقهوراً مغلولاً ، زمامُهُ في يدِها تجرُّهُ حيثُ شاءَتْ ، فتمنعُ قلبَهُ الفوائدَ) [1] .

وقالَ جعفرُ بنُ حميدٍ : (أجمعَتِ العلماءُ والحكماءُ علىٰ أنَّ النعيمَ لا يُدركُ إلا بتركِ النعيمِ) .

وقالَ أبو يحيى الورَّاقُ : (مَنْ أرضى الجوارحَ بالشهواتِ . .

---

(١) روى القشيري في « رسالته » (ص ٩٦) نحوه عن أبي محمد الجريري .

فقدْ غرسَ في قلبِهِ شجرَ النداماتِ)[١] .

وقالَ وُهيبُ بنُ الوردِ : (ما زادَ على الخبزِ فهوَ شهوةٌ)[٢] .

وقالَ أيضاً : (مَنْ أحبَّ شهواتِ الدنيا . . فليتهيَّأْ للذلِّ)[٣] .

ويُروىٰ أنَّ امرأةَ العزيزِ قالَتْ ليوسفَ عليهِ السلامُ بعدَ أنْ ملكَ خزائنَ الأرضِ وقعدَتْ لهُ علىٰ رابيةِ الطريقِ في يومِ موكبِهِ وكانَ يركبُ في زهاءِ اثني عشرَ ألفاً مِنْ عظماءِ مملكتِهِ : سبحانَ مَنْ جعلَ الملوكَ عبيداً بالمعصيةِ ، وجعلَ العبيدَ ملوكاً بطاعتِهِمْ لهُ ، يا يوسفُ ؛ إنَّ الحرصَ والشهوةَ صيَّرا الملوكَ عبيداً وذٰلكَ جزاءُ المفسدينَ ، وإنَّ الصبرَ والتقوىٰ صيَّرا العبيدَ ملوكاً ، فقالَ يوسفُ : كما أخبرَ اللهُ عزَّ وجلَّ عنهُ : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[٤] .

وقالَ الجنيدُ : أرقتُ ليلةً ، فقمتُ إلىٰ وردي ، فلمْ أجدِ الحلاوةَ التي كنتُ أجدُها ، فأردتُ أنْ أنامَ فلمْ أقدرْ ، فجلستُ فلمْ أطقِ الجلوسَ ، فخرجتُ ، فإذا رجلٌ ملتفٌّ في عباءةٍ مطروحٌ على الطريقِ ، فلما أحسَّ بي . . قالَ : يا أبا القاسمِ ؛ إليَّ الساعةَ ، فقلتُ : يا سيدي ؛ مِنْ غيرِ موعدٍ !! فقالَ : بلىٰ ، سألتُ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يحرِّكَ لي قلبَكَ ،

---

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٣٥٦) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٩٢) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٤٨/٨) .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٥٧١) .

(٤) سورة يوسف ﷺ : (٩٠) ، والحديث رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١١٧٢٤) مختصراً .

فقلتُ : قدْ فعلَ ، فما حاجتُكَ ؟ قالَ : متىٰ يصيرُ داءُ النفسِ دواءَها ؟ فقلتُ : إذا خالفَتِ النفسُ هواها ، فأقبلَ علىٰ نفسِهِ وقالَ : اسمعي ، قدْ أجبتُكِ بهٰذا سبعَ مرَّاتٍ ، فأبيتِ أنْ تسمعيهِ إلا مِنَ الجنيد ، ها قدْ سمعتيهِ [1] ، قالَ : فانصرفَ وما عرفتُهُ [2] .

وقالَ يزيدُ الرقاشيُّ : (السلامُ على الماءِ الباردِ في الدنيا ، لعلِّي لا أُحرمُهُ في الآخرةِ) [3] .

وقالَ رجلٌ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمَهُ اللهُ : متىٰ أتكلَّمُ ؟ قالَ : إذا اشتهيتَ الصمتَ ، قالَ : متىٰ أصمتُ ؟ قالَ : إذا اشتهيتَ الكلامَ [4] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنِ اشتاقَ إلى الجنةِ . . سلا عنِ الشهواتِ في الدنيا) [5] .

وكانَ مالكُ بنُ دينارٍ يطوفُ في السوقِ ، فإذا رأى الشيءَ يشتهيهِ . . قالَ لنفسِهِ : اصبري ، فواللهِ ما أمنعُكِ إلا مِنْ كرامتِكِ عليَّ [6] .

---

(١) كذا بزيادة الياء علىٰ لغة (ضربتيه) ، والأصل أن يقال : (سمعته) .

(٢) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٣٢٤) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٢٧٥) .

(٣) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٣/٥٠) عن أشعث بن سوار قال : دخلت علىٰ يزيد الرقاشي في يوم شديد الحر ، فقال : يا أشعث ؛ تعال حتىٰ نبكي على الماء البارد في يوم الظمأ ، ثم قال : والهفاه ؛ سبقني العابدون وقطع بي ، قال : وكان قد صام ثنتين وأربعين سنة .

(٤) أورده ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (٢/٤٧٣) .

(٥) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠١٣٩) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١/٧٤) عنه مرفوعاً .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (ص ٣١٦) رقم (٣٦١/ب) .

فإذاً ؛ قدِ اتفقَ العلماءُ والحكماءُ علىٰ أنْ لا طريقَ إلىٰ سعادةِ الآخرةِ إلا بنهيِ النفسِ عنِ الهوىٰ ، ومخالفةِ الشهواتِ ، فالإيمانُ بهٰذا واجبٌ ، وأمَّا علمُ تفصيلِ ما يُتركُ مِنَ الشهواتِ وما لا يُتركُ . . فينكشفُ بما قدَّمناهُ .

وحاصلُ الرياضةِ وسرُّها : ألا تتمتعَ النفسُ بشيءٍ ممَّا لا يوجدُ في القبرِ إلا بقدْرِ الضرورةِ ، فيكونُ مقتصراً مِنَ الأكلِ والنكاحِ واللباسِ والمسكنِ وكلِّ ما هوَ مضطرٌّ إليهِ علىٰ قدْرِ الحاجةِ والضرورةِ ؛ فإنَّهُ لوْ تمتَّعَ بشيءٍ منهُ . . أنسَ بهِ وألفَهُ ، فإذا ماتَ . . تمنَّى الرجوعَ إلى الدنيا بسببِهِ ، ولا يتمنَّى الرجوعَ إلى الدنيا إلا مَنْ لا حظَّ لهُ في الآخرةِ بحالٍ ، ولا خلاصَ منهُ إلا بأنْ يكونَ القلبُ مشغولاً بمعرفةِ اللهِ وحبِّهِ ، والتفكُّرِ فيهِ ، والانقطاعِ إليهِ ، ولا قوَّةَ علىٰ ذٰلكَ إلا باللهِ ، ويقتصرُ مِنَ الدنيا علىٰ ما يدفعُ عوائقَ الذكرِ والفكرِ فقطْ .

❁ ❁ ❁

فمَنْ لمْ يقدرْ علىٰ حقيقةِ ذٰلكَ . . فليقربْ منهُ ، **والناسُ فيهِ أربعةٌ** :

أحدُهُمْ : رجلٌ استغرقَ ذكرُ اللهِ قلبَهُ ، فلا يلتفتُ إلى الدنيا إلا في ضروراتِ المعيشةِ ، فهوَ مِنَ الصديقينَ ، ولا ينتهي إلىٰ هٰذهِ الرتبةِ إلا بالرياضةِ الطويلةِ ، والصبرِ عنِ الشهواتِ مدَّةً مديدةً .

والثاني : رجلٌ استغرقَتِ الدنيا قلبَهُ ، ولمْ يبقَ للهِ تعالىٰ ذكرٌ في

قلبِهِ ، إلا مِنْ حيثُ حديثُ النفسِ حيثُ يذكرُهُ باللسانِ ، فهٰذا مِنَ الهالكينَ .

والثالثُ : رجلٌ اشتغلَ بالدنيا والدينِ ، ولٰكنَّ الغالبَ علىٰ قلبِهِ هوَ الدينُ ، فهٰذا لا بدَّ لهُ مِنْ ورودِ النارِ ، إلا أنَّهُ ينجو منها سريعاً ، بقدْرِ غلبةِ ذكْرِ اللهِ علىٰ قلبِهِ .

والرابعُ : رجلٌ اشتغلَ بهما جميعاً ، لٰكنَّ الدنيا أغلبُ علىٰ قلبِهِ ، فهٰذا يطولُ مُقامُهُ في النارِ ، لٰكنْ يخرجُ منها لا محالةَ ؛ لقوَّةِ ذكرِ اللهِ تعالىٰ في قلبِهِ ، وتمكُّنِهِ مِنْ صميمِ فؤادِهِ ، وإنْ كانَ ذكرُ الدنيا أغلبَ علىٰ قلبِهِ ، اللهمَّ ؛ إنا نعوذُ بكَ مِنْ خزيِكَ ؛ فإنكَ أنتَ المعاذُ .

❊ ❊ ❊

وربَّما يقولُ القائلُ : إنَّ التنعُّمَ بالمباحِ مباحٌ ، فكيفَ يكونُ التنعُّم سببَ البعدِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ؟

وهٰذا خيالٌ ضعيفٌ ، بلْ حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ ، وسببُ إحباطِ كلِّ حسنةٍ ، والمباحُ الخارجُ عنْ قدْرِ الحاجةِ أيضاً مِنَ الدنيا ، وهو سببُ البعدِ ، وسيأتي ذٰلكَ في كتابِ ذمِّ الدنيا .

وقدْ قالَ إبراهيمُ الخوَّاصُ : كنتُ مرةً في جبلِ اللُّكامِ ، فرأيتُ رُمَّاناً ، فاشتهيتُهُ ، فأخذتُ منهُ واحدةً ، فشققتُها ، فوجدتُها حامضةً ، فمضيتُ وتركتُها ، فرأيتُ رجلاً مطروحاً وقدِ اجتمعَتْ عليهِ الزنابيرُ ، فقلتُ : السلامُ عليكَ ، فقالَ : وعليكَ السلامُ يا إبراهيمُ ، فقلتُ :

كيفَ عرفتني ؟! قالَ : مَنْ عرفَ اللّهَ عزَّ وجلَّ . . لمْ يخفَ عليهِ شيءٌ ، فقلتُ : أرىٰ لكَ حالاً معَ اللّهِ عزَّ وجلَّ ، فلوْ سألتَهُ أنْ يحميَكَ مِنْ هـٰذهِ الزنابيرِ !! فقالَ : وأرىٰ لكَ حالاً معَ اللّهِ تعالىٰ ، فلوْ سألتَهُ أنْ يحميَكَ مِنْ شهوةِ الرمَّانِ ، فإنَّ لدغَ الرمَّانِ يجدُ الإنسانُ ألمَهُ في الآخرةِ ، ولدغَ الزنابيرِ يجدُ ألمَهُ في الدنيا ، فتركتُهُ ومضيتُ [1] .

وقالَ السريُّ : (منذُ أربعينَ سنةً تطالبُني نفسي أنْ أغمسَ جزرةً في دبسٍ فما أطعمتُها) [2] .

فإذاً ؛ لا يمكنُ إصلاحُ القلبِ لسلوكِ طريقِ الآخرةِ ما لمْ يمنعْ نفسَهُ مِنَ التنعُّمِ بالمباحِ ؛ فإنَّ النفسَ إذا لمْ تُمنعْ بعضَ المباحاتِ . . طمعَتْ في المحظوراتِ .

❀ ❀ ❀

فمَنْ أرادَ حفظَ لسانِهِ عنِ الغيبةِ والفضولِ . . فحقُّهُ أنْ يلزمَ السكوتَ إلا عنْ ذكرِ اللّهِ ، وإلا عَنِ المهمَّاتِ في الدينِ ؛ حتَّىٰ تموتَ منه شهوةُ الكلامِ ، فلا يتكلَّمُ إلا بحقٍّ ، فيكونُ سكوتُهُ عبادةً ، وكلامُهُ عبادةً .

ومهما اعتادَتِ العينُ رميَ البصرِ إلىٰ كلِّ شيءٍ جميلٍ . . لمْ تتحفَّظْ عنِ النظرِ إلىٰ ما لا يحلُّ ، وكذٰلكَ سائرُ الشهواتِ ؛ لأنَّ الذي

---

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٧٦) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١١٦) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٤١٩) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٢٧٧) ، وفي (ج) : (أطعتها) .

يُشتهىٰ بِهِ الحلالُ هوَ بعينِهِ الذي يُشتهىٰ بِهِ الحرامُ ، فالشهوةُ واحدةٌ ، وقدْ وجبَ على العبدِ منعُها مِنَ الحرامِ ، فإنْ لمْ يعوِّدْها الاقتصارَ علىٰ قدْرِ الضرورةِ مِنَ الشهواتِ . . غلبَتْهُ الشهوةُ .

فهٰذِهِ إحدىٰ آفاتِ المباحاتِ ، ووراءَها آفةٌ عظيمةٌ أعظمُ مِنْ هٰذِهِ ، وهوَ أنَّ النفسَ تفرحُ بالتنعُّمِ في الدنيا وتركنُ إليها ، وتطمئنُّ بها أشراً وبطراً حتَّىٰ تصيرَ ثملةً ، كالسكرانِ الذي لا يفيقُ مِنْ سكرِهِ ، وذٰلكَ الفرحُ بالدنيا سمٌّ قاتلٌ يسري في العروقِ ، فيخرجُ مِنَ القلبِ الخوفَ والحزنَ ، وذكرَ الموتِ وأهوالَ يومِ القيامةِ ، وهٰذا هوَ موتُ القلبِ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا ﴾ (١) ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ (٢) ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (٣) وكلُّ ذٰلكَ ذمٌّ لها ، فنسألُ اللهَ السلامةَ .

فأولو الحزمِ مِنْ أربابِ القلوبِ جرَّبوا قلوبَهُمْ في حالِ الفرحِ بمؤاتاةِ الدنيا ، فوجدوها قاسيةً بطرةً بعيدةً عنِ التأثُّرِ بذكرِ اللهِ واليومِ الآخرِ ، وجرَّبوها في حالةِ الحزنِ ، فوجدوها ليِّنةً رقيقةً صافيةً قابلةً لأثرِ

---

(١) سورة يونس ﷺ : (٧) .

(٢) سورة الرعد : (٢٦) .

(٣) سورة الحديد : (٢٠) .

الذكرِ ، فعلموا أنَّ النجاةَ في الحزنِ الدائمِ والتباعدِ مِنْ أسبابِ البطرِ والفرحِ ، ففطموها عنْ ملاذِّها ، وعوَّدوها الصبرَ عنْ شهواتِها ، حلالِها وحرامِها ، وعلموا أنَّ حلالَها حسابٌ ، وحرامَها عقابٌ ، ومتشابهَها عتابٌ ، وهوَ نوعُ عذابٍ ، فمَنْ نُوقشَ الحسابَ في عرصاتِ القيامةِ . . فقدْ عُذِّبَ [1] ، فخلَّصوا أنفسَهُمْ مِنْ عذابِها ، وتوصَّلُوا إلى الحريَّةِ والمُلْكِ الدائمِ في الدنيا والآخرةِ بالخلاصِ مِنْ أسرِ الشهواتِ ورقِّها ، والأنسِ بذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، والاشتغالِ بطاعتِهِ ، وفعلوا بها ما يُفعلُ بالبازي إذا قُصِدَ تأديبُهُ ، ونقلُهُ مِنَ التوثُّبِ والاستيحاشِ إلى الانقيادِ والتأدُّبِ ، فإنَّهُ يُحبسُ أوَّلاً في بيتٍ مظلمٍ ، وتُخاطُ عيناهُ ، حتَّىٰ يحصلَ بهِ الفطامُ عنِ الطيرانِ في جوِّ الهواءِ ، وينسىٰ ما قدْ كانَ ألفَهُ مِنْ طبعِ الاسترسالِ ، ثمَّ يُرفقُ بهِ باللحمِ حتَّىٰ يأنسَ بصاحبِهِ ويألفَهُ إلفاً ، إذا دعاهُ . . أجابَهُ ، ومهما سمعَ صوتَهُ . . رجعَ إليهِ .

فكذٰلكَ النفسُ لا تألفُ ربَّها ولا تأنسُ بذكرِهِ إلا إذا فُطمَتْ عنْ عادتِها بالخلوةِ والعزلةِ أوَّلاً ؛ ليُحفظَ السمعُ والبصرُ عنِ المألوفاتِ ، ثمَّ عُودتِ الثناءَ والذكرَ والدعاءَ ثانياً في الخلوةِ ؛ حتَّىٰ يغلبَ عليها الأنسُ بذكرِ اللهِ تعالىٰ عوضاً عنِ الأنسِ بالدنيا وسائرِ الشهواتِ .

وذٰلكَ يثقلُ على المريدِ في البدايةِ ، ثمَّ يتنعَّمُ بهِ في النهايةِ ، كالصبيِّ يُفطمُ عنِ الثديِ وهوَ شديدٌ عليهِ ؛ إذْ كانَ لا يصبرُ عنهُ ساعةً ، فلذٰلكَ يشتدُّ بكاؤُهُ وجزعُهُ عندَ الفطامِ ، ويشتدُّ نفورُهُ عنِ

---

(١) كما جاء ذٰلك مرفوعاً عند البخاري (١٠٣) ، ومسلم (٢٨٧٦) .

الطعامِ الذي يُقدَّمُ إليهِ بدلاً عنِ اللبنِ ، ولٰكنَّهُ إذا مُنعَ اللبنَ رأساً يوماً فيوماً ، وعظمَ تعبُهُ في الصبرِ وغلبَهُ الجوعُ . . تناولَ الطعامَ تكلُّفاً ، ثمَّ يصيرُ لهُ طبعاً ، فلوْ ردَّ بعدَ ذٰلكَ إلى الثديِ . . لمْ يرجعْ إليهِ ، فيهجرُ الثديَ ، ويعافُ اللبنَ ، ويألفُ الطعامَ .

وكذٰلكَ الدابَّةُ في الابتداءِ تنفرُ عنِ السرجِ واللجامِ والركوبِ ، فتُحملُ علىٰ ذٰلكَ قهراً ، بأنْ تُمنعَ عنِ الانسراحِ الذي ألفَتْهُ بالسلاسلِ والقيودِ أوَّلاً ، ثمَّ تأنسُ بهِ ، بحيثُ تُتركُ في موضعِها فتقفُ فيهِ مِنْ غيرِ قيدٍ .

فكذٰلكَ تُؤدَّبُ النفسُ كما يُؤدَّبُ الطيرُ والدوابُّ ، وتأديبُها بأنْ تُمنعَ مِنَ الأشَرِ والبطرِ والأنسِ والفرحِ بنعيمِ الدنيا ، بلْ بكلِّ ما يزايلُها بالموتِ ، إذْ قيلَ لهُ : أحببْ ما أحببتَ فإنَّكَ مفارقُهُ(١) ، فإذا علمَ أنَّهُ مَنْ أحبَّ شيئاً يلزمُهُ فراقُهُ ، ويشقىٰ لا محالةَ لفراقِهِ . . شغلَ قلبَهُ بحبِّ ما لا يفارقُهُ ، وهوَ ذكرُ اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يصحبُهُ في القبرِ ولا يفارقُهُ .

وكلُّ ذٰلكَ يتمُّ بالصبرِ أولاً أياماً قلائلَ ؛ فإنَّ العمرَ قليلٌ بالإضافةِ إلىٰ مدَّةِ حياةِ الآخرةِ ، وما مِنْ عاقلٍ إلا وهوَ راضٍ باحتمالِ المشقَّةِ في سفرٍ وتعلُّمِ صناعةٍ وغيرِها شهراً ليتنعَّمَ بهِ سنةً أوْ دهراً ، وكلُّ

---

(١) فقد روى الحاكم في « المستدرك » (٤/٣٢٤) عن سهل بن سعد قال : (جاء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ؛ عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من أحببت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به) الحديث .

العمرِ بالإضافةِ إلى الأبدِ أقلُّ مِنَ الشهرِ بالإضافةِ إلىٰ عمرِ الدنيا ، فلا بدَّ مِنَ الصبرِ والمجاهدةِ ، فعندَ الصباحِ يحمدُ القومُ السُّرىٰ [1] ، وتذهبُ عنهُمْ عماياتُ الكرىٰ ، كما قالهُ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ .

وطريقُ المجاهدةِ والرياضةِ لكلِّ إنسانٍ تختلفُ بحسَبِ اختلافِ أحوالِهِ ، **والأصلُ فيهِ** : أنْ يتركَ كلُّ واحدٍ ما بهِ فرحُهُ مِنْ أسبابِ الدنيا ، فالذي يفرحُ بالمالِ ، أوْ بالجاهِ ، أوْ بالقبولِ في الوعظِ ، أوْ بالعزِّ في القضاءِ والولايةِ ، أوْ بكثرةِ الأتباعِ في التدريسِ والإفادةِ . . فينبغي أنْ يتركَ أوَّلاً ما بهِ فرحُهُ ، فإنَّهُ إنْ مُنِعَ عنْ شيءٍ مِنْ ذٰلكَ ، وقيلَ لهُ : (ثوابُكَ في الآخرةِ لا ينقصُ بالمنعِ) ، فكرهَ ذٰلكَ وتألَّمَ بهِ . . فهوَ ممَّنْ فرحَ بالحياةِ الدنيا واطمأنَّ بها ، وذٰلكَ مهلكٌ في حقِّهِ .

ثمَّ إذا تركَ أسبابَ الفرحِ . . فليعتزلِ الناسَ ، ولينفردْ بنفسِهِ ، وليراقبْ قلبَهُ ؛ حتَّىٰ لا يشتغلَ إلا بذكرِ اللهِ تعالىٰ والفكرِ فيهِ ، وليترصَّدْ لما يبدو في نفسِهِ مِنْ شهوةٍ ووسواسٍ ؛ حتَّىٰ يقمعَ مادَّتَهُ مهما ظهرَ ، فإنَّ لكلِّ وسوسةٍ سبباً ، ولا تزولُ إلا بقطعِ ذٰلكَ السببِ والعلاقةِ ، وليلازمْ ذٰلكَ بقيَّةَ العمرِ ، فليسَ للجهادِ آخرٌ إلا الموتَ .

❋ ❋ ❋

---

(١) وهو سير الليل ، فمن أسهر ليله . . سار إلىٰ مقصوده ، فإذا أصبح ورأىٰ نفسه قد قطع مفاوز لم يكن يمكن قطعها في النهار . . يحمد نفسه علىٰ حسن اجتهاده لنيله مقصوده ، بخلاف من آثر الكسل واختار الراحة والنوم ، يندم إذا أصبح عليه النهار ، وهٰذا مثل مشهور . « إتحاف » (٧/٣٥٦) .

بيان علامات حسن الخلق

اعلمْ : أنَّ كلَّ إنسانٍ جاهلٌ بعيوبِ نفسِهِ ، فإذا جاهدَ نفسَهُ أدنىٰ مجاهدةٍ ، حتَّىٰ تركَ فواحشَ المعاصي . . ربَّما ظنَّ بنفسِهِ أنَّهُ قدْ هذَّبَ نفسَهُ ، وحسَّنَ خلقَهُ ، واستغنىٰ عنِ المجاهدةِ ، فلا بدَّ مِنْ إيضاحِ علامةِ حسْنِ الخلُقِ ؛ فإنَّ حسْنَ الخلُقِ هوَ الإيمانُ ، وسوءَ الخلُقِ هوَ النفاقُ ، وقدْ ذكرَ اللهُ تعالىٰ صفاتِ المؤمنينَ والمنافقينَ في كتابِهِ ، وهيَ بجملتِها ثمرةُ حسْنِ الخلقِ وسوءِ الخلقِ ، فلنوردْ جملةً مِنْ ذٰلكَ لتُعلمَ بهِ آيةُ حسْنِ الخلقِ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾[1] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾[3] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا . . . ﴾ إلىٰ آخرِ السورةِ[4] .

---

(١) سورة المؤمنون : (١ ـ ١٠) .
(٢) سورة التوبة : (١١٢) .
(٣) سورة الأنفال : (٢ ـ ٤) .
(٤) سورة الفرقان : (٦٣ ـ ٧٧) .

فمَنْ أشكلَ عليهِ حالُهُ . . فليعرضْ نفسَهُ علىٰ هٰذهِ الآياتِ ، فوجودُ جميعِ هٰذهِ الصفاتِ علامةُ حسْنِ الخلُقِ ، وفقْدُ جميعِها علامةُ سوءِ الخلُقِ ، ووجودُ بعضِها دونَ بعضٍ يدلُّ على البعضِ دونَ البعضِ ، فليشتغلْ بتحصيلِ ما فقدَهُ ، وحفْظِ ما وجدَهُ .

وقدْ وصفَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ المؤمنَ بصفاتٍ كثيرةٍ ، وأشارَ بجميعِها إلىٰ محاسنِ الأخلاقِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ يحبُّ لأخيهِ ما يحبُّ لنفسِهِ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ . . فليكرمْ ضيفَهُ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ . . فليكرمْ جارَهُ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ . . فليقلْ خيراً أوْ ليصمُتْ »[4] .

وذكرَ أنَّ صفاتِ المؤمنينَ هيَ حسْنُ الخلقِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكملُ المؤمنينَ إيماناً أحسنُهُمْ أخلاقاً »[5] .

---

(١) رواه البخاري (١٣) ، ومسلم (٤٥) .

(٢) رواه البخاري (٦٠١٨) ، ومسلم (٤٧) .

(٣) هو قطعة من الحديث السابق .

(٤) هو قطعة من الحديث السابق .

(٥) رواه الترمذي (٢٦١٢) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩١٠٩) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا رأيتُمُ المؤمنَ صموتاً وقوراً . . فادنوا منهُ ؛ فإنَّهُ يُلقَّنُ الحكمةَ » (١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سرَّتْهُ حسنتُهُ ، وساءَتْهُ سيئتُهُ . . فهوَ مؤمنٌ » (٢) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا يحلُّ لمؤمنٍ أنْ يشيرَ إلىٰ أخيهِ بنظرةٍ تؤذيهِ » (٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يحلُّ لمسلمٍ أنْ يروِّعَ مسلماً » (٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما يتجالسُ المتجالسانِ بأمانةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فلا يحلُّ لأحدِهِما أنْ يفشيَ علىٰ أخيهِ ما يكرهُهُ » (٥) .

وجمعَ بعضُهُمْ علاماتِ حسْنِ الخلقِ فقالَ : (هوَ أنْ يكونَ كثيرَ

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٠١) بنحوه .

(٢) رواه الترمذي (٢١٦٥) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩١٧٥) من حديث عمر رضي الله عنه مرفوعاً .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٨٩) عن حمزة بن عبدة مرسلاً ، وزاد الحافظ العراقي : (وفي « البر والصلة » له من زيادات الحسين المروزي : حمزة بن عبد الله بن أبي سمي ، وهو الصواب) . « إتحاف » (٢٥٥/٦) ، وقال الحافظ المناوي في « فيض القدير » (٥٠٤/٥) : (عن حمزة بن عبيد مرسلاً ، هو ابن عبد الله بن عمر ، قال الذهبي : ثقة إمام) .

(٤) رواه أبو داوود (٥٠٠٤) .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٩١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٦٧٧) عن أبي بكر بن حزم مرسلاً .

الحياءِ ، قليلَ الأذىٰ ، كثيرَ الصلاحِ ، صدوقَ اللسانِ ، قليلَ الكلامِ ، كثيرَ العملِ ، قليلَ الزللِ ، قليلَ الفضولِ ، برّاً ، وصولاً ، وَقوراً ، صبوراً ، شكوراً ، رضيّاً ، حليماً ، رفيقاً ، عفيفاً ، شفيقاً ، لا لعَّاناً ، ولا سبَّاباً ، ولا نمَّاماً ، ولا مغتاباً ، ولا عجولاً ، ولا حقوداً ، ولا بخيلاً ، ولا حسوداً ، هشَّاشاً بشَّاشاً ، يحبُّ في اللهِ ويبغضُ في اللهِ ، ويرضىٰ في اللهِ ويغضبُ في اللهِ ، فهٰذا هوَ حسنُ الخلقِ)[١] .

وسُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ علامةِ المؤمنِ والمنافقِ فقالَ : « إنَّ المؤمنَ همَّتُهُ في الصلاةِ والصيامِ والعبادةِ ، والمنافقَ همَّتُهُ في الطعامِ والشرابِ كالبهيمةِ »[٢] .

وقالَ حاتمٌ الأصمُّ : (المؤمنُ مشغولٌ بالفكرِ والعبرِ ، والمنافقُ مشغولٌ بالحرصِ والأملِ ، والمؤمنُ آيسٌ مِنْ كلِّ أحدٍ إلا مِنَ اللهِ ، والمنافقُ راجٍ كلَّ أحدٍ إلا منَ اللهِ ، والمؤمنُ آمنٌ مِنْ كلِّ أحدٍ إلا مِنَ اللهِ ، والمنافقُ خائفٌ مِنْ كلِّ أحدٍ إلا مِنَ اللهِ ، والمؤمنُ يقدِّمُ مالَهُ دونَ دينِهِ ، والمنافقُ يقدِّمُ دينَهُ دونَ مالِهِ ، والمؤمنُ يحسِنُ ويبكي ، والمنافقُ يسيءُ ويضحكُ ، والمؤمنُ يحبُّ الخلوةَ والوحدةَ ، والمنافقُ يحبُّ الخُلطةَ والملأَ ، والمؤمنُ يزرعُ ويخشى الفسادَ ، والمنافقُ يقلعُ

---

(١) رواه هٰذا ضمن وصف طويل للمؤمن ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١٩/١٧) عن ذي النون المصري .

(٢) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٣٥٩/٧) ، وقال : (ويشهد له قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد ﷺ : ١٢]) .

ويرجو الحصادَ ، والمؤمنُ يأمرُ وينهىٰ للسياسةِ فيصلحُ ، والمنافقُ يأمرُ وينهىٰ للرئاسةِ فيفسدُ) [١] .

وأولىٰ ما يُمتحنُ بهِ حسْنُ الخلقِ الصبرُ على الأذىٰ ، واحتمالُ الجفاءِ ، ومَنْ شكا مِنْ سوءِ خلقِ غيرِهِ . . دلَّ ذٰلكَ علىٰ سوءِ خلقِهِ ؛ لأنَّ حسنَ الخلقِ احتمالُ الأذىٰ ، فقدْ رُويَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يوماً يمشي ومعَهُ أنسٌ ، فأدركَهُ أعرابيٌّ ، فجذبَهُ جذباً شديداً وكانَ عليهِ برْدٌ نجرانيٌّ غليظُ الحاشيةِ ، قالَ أنسٌ : حتَّىٰ نظرتُ إلىٰ عنقِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقدْ أثَّرَتْ فيهِ حاشيةُ البرْدِ مِنْ شدَّةِ جذبِهِ ، فقالَ : يا محمدُ ؛ هبْ لي مِنْ مالِ اللهِ الذي عندَكَ ، فالتفتَ إليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وضحكَ ، ثمَّ أمرَ بإعطائِهِ [٢] .

ولمَّا أكثرَتْ قريشٌ إيذاءَهُ وضرْبَهُ . . قالَ : « اللهمَّ ؛ اغفرْ لقومي فإنَّهُمْ لا يعلمونَ » [٣] ، قيلَ : إنَّ هٰذا يومَ أحدٍ ، فلذٰلكَ أنزلَ اللهُ تعالىٰ فيهِ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [٤] .

وقدْ حُكِيَ أنَّ إبراهيمَ بنَ أدهمَ خرجَ يوماً إلىٰ بعضِ البراري ، فاستقبلَهُ رجلٌ جنديٌّ ، فقالَ : أنتَ عبدٌ ؟ قالَ : نعمْ ، فقالَ لهُ : أينَ

---

(١) روىٰ بعض ذٰلك متفرقاً أبو نعيم في « الحلية » (٨/٦٨ ـ ٧١) عن حاتم الأصم وشقيق البلخي .

(٢) رواه البخاري (٣١٤٩) ، ومسلم (١٠٥٧) .

(٣) رواه البخاري (٣٤٧٧) ، ومسلم (١٧٩٢) ، يحكيه عن نبي من أنبياء الله تعالىٰ .

(٤) سورة القلم : (٤) .

العمرانُ ؟ فأشارَ إلى المقبرةِ ، فقالَ الجنديُّ : إنَّما أردتُ العمرانَ ، فقالَ : هوَ المقبرةُ ، فغاظَهُ ذٰلكَ ، فضربَ رأسَهُ بالسوطِ فشجَّهُ ، وردَّهُ إلى البلدِ ، فاستقبلَهُ أصحابُهُ ، فقالوا : ما الخبرُ ؟ فأخبرَهُمُ الجنديُّ ما قالَ لهُ ، فقالوا : هٰذا إبراهيمُ بنُ أدهمَ ، فنزلَ الجنديُّ عنْ فرسِهِ ، وقبَّلَ يديهِ ورجليهِ ، وجعلَ يعتذرُ إليهِ ، فقيلَ بعدَ ذٰلكَ لهُ : لِمَ قلتَ لهُ : أنا عبدٌ ؟ فقالَ : إنَّهُ لمْ يسألْني عبدُ مَنْ أنتَ ، بلْ قالَ : أنتَ عبدٌ ؟ فقلتُ : نعمْ ؛ لأنِّي عبدُ اللهِ ، فلمَّا ضربَ رأسي . . سألتُ اللهَ لهُ الجنَّةَ ، قيلَ : كيفَ وقدْ ظلمَكَ ؟ فقالَ : علمتُ أنَّني أُوجرُ علىٰ ما نالَني منهُ ، فلمْ أردْ أنْ يكونَ نصيبي منهُ الخيرَ ، ونصيبُهُ منِّي الشرَّ [١] .

ودُعِيَ أبو عثمانَ الحيريُّ [٢] إلىٰ دعوةٍ ، وكانَ الداعي يريدُ تجربتَهُ ، فلمَّا بلغَ منزلَهُ . . قالَ لهُ : ليسَ لي وجهٌ ، فرجعَ أبو عثمانَ ، فلمَّا ذهبَ غيرَ بعيدٍ . . دعاهُ ثانياً فقالَ لهُ : يا أستاذُ ؛ ارجعْ ، فرجعَ أبو عثمانَ ، ثمَّ دعاهُ الثالثةَ وقالَ : ارجعْ علىٰ ما يوجبُ الوقتُ ، فرجعَ ، فلمَّا بلغَ البابَ . . قالَ لهُ مثلَ مقالتِهِ الأولىٰ ، فرجعَ أبو عثمانَ ، ثمَّ جاءَهُ الرابعةَ فردَّهُ ، حتَّىٰ عاملَهُ بذٰلكَ مرَّاتٍ وأبو عثمانَ لا يتغيَّرُ ، فقالَ [٣] : إنَّما أردتُ أنْ أختبرَكَ ، فما أحسنَ خلقَكَ !! فقالَ : إنَّ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٥) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٤١٤) .

(٢) في (أ) : (وحكي أن بعض تلامذة أبي عثمان الحيري دعاه) .

(٣) في (أ) : (لا يتغيَّر ، فأكب علىٰ رجليه وقال : يا أستاذ ؛ إنما . . .) .

الذي رأيتَ منّي هوَ خلُقُ الكلبِ ؛ إنَّ الكلبَ إذا دُعِيَ . . أجابَ ، وإذا زُجرَ . . انزجرَ[١] .

ورويَ عنهُ أيضاً أنَّهُ اجتازَ يوماً في سكَّةٍ ، فطُرِحَتْ عليهِ إجَّانةُ رمادٍ ، فنزلَ عنْ دابتِهِ ، فسجدَ سجدةَ الشكرِ ، ثمَّ جعلَ ينفضُ الرمادَ عنْ ثيابِهِ ولمْ يقلْ شيئاً ، فقيلَ : ألا زبرتَهُمْ ؟ فقالَ : إنَّ مَنِ استحقَّ النارَ فصُولحَ على الرمادِ . . لمْ يجزْ لهُ أنْ يغضبَ[٢] .

ورُوِيَ أنَّ عليَّ بنَ موسى الرضا رحمةُ اللهِ عليهِ كانَ لونُهُ يميلُ إلى السوادِ ؛ إذْ كانَتْ أمُّهُ سوداءَ ، وكانَ لهُ بنيسابورَ حمَّامٌ على بابِ دارِهِ ، وكانَ إذا أرادَ دخولَ الحمَّامِ . . فرَّغَهُ لهُ الحمَّامِيُّ ، فدخلَ ذاتَ يومٍ ، فأغلقَ الحمَّاميُّ البابَ ، ومضىٰ في بعضِ حوائجِهِ ، فتقدَّمَ رجلٌ رُستاقيٌّ إلىٰ بابِ الحمَّامِ ، ففتَحَهُ ودخلَ ، فنزعَ ثيابَهُ ودخلَ ، فرأىٰ عليَّ بنَ موسى الرضا ، فظنَّ أنَّهُ بعضُ خدَّامِ الحمَّامِ ، فقالَ لهُ : قمْ واحملْ إليَّ الماءَ ، فقامَ عليُّ بنُ موسىٰ وامتثلَ جميعَ ما كانَ يأمرُهُ بهِ ، فرجعَ الحماميُّ ، فرأىٰ ثيابَ الرُّستاقيِّ وسمعَ كلامَهُ معَ عليِّ بنِ موسى الرضا ، فخافَ وهربَ وخلَّاهما ، فلمَّا خرجَ عليُّ بنُ موسىٰ . . سألَ عنِ الحمَّاميِّ ، فقيلَ لهُ : إنَّهُ خافَ ممَّا

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٦) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٤١٤) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٦) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٤١٤) ، (والإجانة) تقدم شرحها (١/ ٣٨٤) .

جرىٰ فهربَ ، قالَ : لا ينبغي لهُ أنْ يهربَ ؛ إنَّما الذنبُ لِمَنْ وضعَ ماءَهُ عندَ أمةٍ سوداءَ (١) .

ورُويَ أنَّ أبا عبدِ اللهِ الخيَّاطَ كانَ يجلسُ علىٰ دكَّانِهِ ، وكانَ لهُ حَرِيفٌ مجوسيٌّ يستعملُهُ في الخياطةِ (٢) ، فكانَ إذا خاطَ لهُ شيئاً . . حملَ إليهِ دراهمَ زائفةً ، فكانَ أبو عبدِ اللهِ يأخذُها منهُ ولا يخبرُهُ بذٰلكَ ولا يردُّها عليهِ ، فاتفقَ يوماً أنَّ أبا عبدِ اللهِ قامَ لبعضِ حاجتِهِ ، فأتى المجوسيُّ فلمْ يجدْهُ ، فدفعَ إلىٰ تلميذِهِ الأجرةَ ، واسترجعَ ما قدْ خاطَهُ ، ودفعَ إليهِ درهماً زائفاً ، فلما نظرَ إليهِ التلميذُ . . عرفَ أنَّهُ زائفٌ ، فردَّهُ عليهِ ، فلما عادَ أبو عبدِ اللهِ . . أخبرَهُ بذٰلكَ ، فقالَ : بئسَ ما عملتَ ، هٰذا المجوسيُّ يعاملُني بهٰذهِ المعاملةِ منذُ سنةٍ وأنا أصبرُ عليهِ ، فآخذُ الدراهمَ منهُ وألقيها في البئرِ لئلا يغرَّ بها مسلماً (٣) .

وقالَ يوسفُ بنُ أسباطٍ : (علامةُ حسْنِ الخلُقِ عشرةُ أشياءَ : قلَّةُ الخلافِ ، وحسْنُ الإنصافِ ، وتركُ طلبِ العثراتِ ، وتحسينُ ما يبدو مِنَ السيئاتِ ، والتماسُ المعذرةِ ، واحتمالُ الأذىٰ ، والرجوعُ بالملامةِ على النفسِ ، والتفرُّدُ بمعرفةِ عيوبِ نفسِهِ دونَ عيوبِ غيرِهِ ، وطلاقةُ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٦) ، و**الرستاقي** : فارسي يعرب بمعنى الفلاح أو القروي .

(٢) **الحريف** : المُعامل .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٧) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٤١٥) .

الوجهِ للصغيرِ والكبيرِ ، ولطفُ الكلامِ لمَنْ دونَهُ ولمَنْ فوقَهُ)[1] .

وسُئِلَ سهلٌ عنْ حسْنِ الخلقِ فقالَ : (أدناهُ احتمالُ الأذىٰ ، وتركُ المكافأةِ ، والرحمةُ للظالمِ ، والاستغفارُ لهُ ، والشفقةُ عليهِ)[2] .

وقيلَ للأحنفِ بنِ قيسٍ : ممَّنْ تعلمتَ الحِلْمَ ؟ فقالَ : مِنْ قيسِ بنِ عاصمٍ ، قيلَ : وما بلغَ مِنْ حلمِهِ ؟ قالَ : بينما هوَ جالسٌ في دارِهِ . . إذْ أتتْهُ جاريةٌ لهُ بسفُّودٍ عليهِ شواءٌ[3] ، فسقطَ مِنْ يدِها ، فوقعَ على ابنٍ لهُ صغيرٍ ، فماتَ ، فدهشَتِ الجاريةُ ، فقالَ لها : لا روعَ عليكِ ، أنتِ حرَّةٌ لوجهِ اللهِ تعالىٰ[4] .

وقيلَ : كانَ أويسٌ القرنيُّ إذا رآهُ الصبيانُ . . يرمونَهُ بالحجارةِ ، فكانَ يقولُ لهُمْ : يا إخوتاهُ ؛ إنْ كانَ ولا بدَّ . . فارموني بالصغارِ كي لا تُدموا ساقي فتمنعوني مِنَ الصلاةِ[5] .

وشتمَ رجلٌ الأحنفَ بنَ قيسٍ وهوَ لا يجيبُهُ ، وكانَ يتبعُهُ ، فلمَّا قَرُبَ مِنَ الحيِّ . . وقفَ وقالَ : إنْ كانَ قدْ بقيَ في نفسِكَ شيءٌ فقلْهُ ؛ كي لا يسمعَكَ بعضُ سفهاءِ الحيِّ فيؤذوكَ[6] .

ورُوِيَ أنَّ علياً كرَّمَ اللهُ وجهَهُ دعا غلاماً لهُ فلمْ يجبْهُ ، فدعاهُ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٩) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٩) .

(٣) سفُّود : كتنُّور ويضم ، حديدة ذات شعب معقفة ، يشوىٰ بها .

(٤) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٤١١) .

(٥) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٤١٢) .

(٦) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٤١٢) .

ثانياً وثالثاً فلمْ يجبْهُ ، فقامَ إليهِ ، فرآهُ مضطجعاً ، فقالَ : أما تسمعُ يا غلامُ ؟! قالَ : بلىٰ ، قالَ : فما حملَكَ علىٰ تركِ جوابي ؟ قالَ : أمنتُ عقوبتَكَ فتكاسلتُ ، فقالَ : امضِ ، فأنتَ حرٌّ لوجهِ اللهِ تعالىٰ [١] .

وقالَتِ امرأةٌ لمالكِ بنِ دينارٍ رحمهُ اللهُ : يا مرائي ، فقالَ : يا هٰذهِ ؛ وجدتِ اسمي الذي أضلَّهُ أهلُ البصرةِ [٢] .

وكانَ ليحيى بنِ زيادٍ الحارثيِّ غلامُ سوءٍ ، فقيلَ لهُ : لِمَ تمسكُ هٰذا الغلامَ ؟ فقالَ : لأتعلَّمَ عليهِ الحلمَ [٣] .

فهٰذهِ نفوسٌ قدْ ذُلِّلَتْ بالرياضةِ ، فاعتدلَتْ أخلاقُها ، ونُقِّيَتْ مِنَ الغشِّ والغلِّ والحقدِ بواطنُها ، فأثمرَتِ الرضا بكلِّ ما قدَّرَهُ اللهُ تعالىٰ ، وهوَ منتهىٰ حسْنِ الخلقِ ، فإنَّ مَنْ يكرهُ فعلَ اللهِ تعالىٰ ولا يرضىٰ بهِ . . فهوَ غايةُ سوءِ خلقِهِ .

فهٰؤلاءِ ظهرَتِ العلاماتُ علىٰ ظواهرِهِمْ كما ذكرناهُ ، فمَنْ لمْ يصادفْ مِنْ نفسِهِ هٰذهِ العلاماتِ . . فلا ينبغي أنْ يغترَّ بنفسِهِ ، فيظنَّ بها حسنَ الخلقِ ، بلْ ينبغي أنْ يشتغلَ بالرياضةِ والمجاهدةِ إلىٰ أنْ يبلغَ درجةَ حسْنِ الخلقِ ، فإنَّها درجةٌ رفيعةٌ لا ينالُها إلا المقرَّبونَ والصدِّيقونَ .

* * *

---

(١) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٤١٢) .

(٢) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٤١٣) .

(٣) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٤١٣) .

بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول النشوء ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم

اعلمْ : أنَّ الطريقَ في رياضةِ الصبيانِ مِنْ أهمِّ الأمورِ وآكدِها ، وأنَّ الصبيَّ أمانةٌ عندَ والديهِ ، وقلبَهُ الطاهرَ جوهرةٌ نفيسةٌ ساذجةٌ ، خاليةٌ عنْ كلِّ نقشٍ وصورةٍ ، وهوَ قابلٌ لكلِّ نقشٍ ، ومائلٌ إلىٰ كلِّ ما يُمالُ بهِ إليهِ .

فإنْ عُوِّدَ الخيرَ وعُلِّمَهُ . . نشأَ عليهِ ، وسعدَ في الدنيا والآخرةِ ، وشاركَهُ في ثوابِهِ أبواهُ وكلُّ معلِّمٍ لهُ ومؤدِّبٍ .

وإنْ عُوِّدَ الشرَّ وأُهملَ إهمالَ البهائمِ . . شَقِيَ وهلكَ ، وكانَ الوزرُ في رقبةِ القيِّمِ عليهِ والوالي لهُ .

وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾ (١) .

ومهما كانَ الأبُ يصونُهُ عنْ نارِ الدنيا . . فبأنْ يصونَهُ عنْ نارِ الآخرةِ أولىٰ ، وصيانتُهُ بأنْ يؤدِّبَهُ ويهذِّبَهُ ، ويعلِّمَهُ محاسنَ الأخلاقِ ، ويحفظَهُ مِنَ القرناءِ السوءِ ، ولا يعوِّدَهُ التنعُّمَ ، ولا يحبِّبَ إليهِ الزينةَ وأسبابَ الرفاهيةِ ، فيضيِّعَ عمرَهُ في طلبِها إذا كبرَ ، فيهلكَ هلاكَ الأبدِ ، بلْ ينبغي أنْ يراقبَهُ مِنْ أوَّلِ أمرِهِ ، فلا يستعملُ في حضانتِهِ وإرضاعِهِ إلا امرأةً صالحةً متديّنةً تأكلُ الحلالَ ؛ فإنَّ اللبنَ الحاصلَ

(١) سورة التحريم : (٦) .

مِنَ الحرامِ لا بركةَ فيهِ ، فإذا وقعَ عليهِ نشوءُ الصبيِّ . . انعجنَتْ طينتُهُ مِنَ الخبثِ ، فيميلُ طبعُهُ إلىٰ ما يناسبُ الخبائثَ .

ومهما رأىٰ فيهِ مخايلَ التميزِ . . فينبغي أنْ يحسنَ مراقبتَهُ ، وأوّلُ ذٰلكَ ظهورُ أوائلِ الحياءِ ؛ فإنَّهُ إذا كانَ يحتشمُ ويستحي ، ويتركُ بعضَ الأفعالِ . . فليسَ ذٰلكَ إلا لإشراقِ نورِ العقلِ عليهِ ، حتَّىٰ يرىٰ بعضَ الأشياءِ قبيحاً ومخالفاً للبعضِ ، فصارَ يستحي مِنْ شيءٍ دونَ شيءٍ ، وهٰذهِ هديَّةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ إليهِ ، وبشارةٌ تدلُّ على اعتدالِ الأخلاقِ وصفاءِ القلبِ ، وهوَ مبشِّرٌ بكمالِ العقلِ عندَ البلوغِ ، فالصبيُّ المستحي لا ينبغي أنْ يُهملَ ، بلْ يُستعانُ علىٰ تأديبِهِ بحيائِهِ وتمييزِهِ .

وأوّلُ ما يغلبُ عليهِ مِنَ الصفاتِ شرهُ الطعامِ ، فينبغي أنْ يؤدَّبَ فيهِ ، مثلُ ألا يأخذَ الطعامَ إلا بيمينِهِ ، وأنْ يقولَ عليهِ : (باسمِ اللهِ) عندَ أخذِهِ ، وأنْ يأكلَ ممَّا يليهِ ، وألا يبادرَ إلى الطعامِ قبلَ غيرِهِ ، وألا يحدقَ إلى الطعامِ ولا إلىٰ مَنْ يأكلُ ، وألا يسرعَ في الأكلِ ، وأنْ يجيدَ المضغَ ، وألا يواليَ بينَ اللقمِ ، ولا يلطِّخَ يدَهُ ولا ثوبَهُ ، وأنْ يعوَّدَ الخبزَ القَفارَ في بعضِ الأوقاتِ [1] ، حتىٰ لا يصيرَ بحيثُ يرى الأُدْمَ حتماً .

ويقبِّحُ عندَهُ كثرةَ الأكلِ ؛ بأنْ يشبِّهَ كلَّ مَنْ يكثرُ الأكلَ بالبهائمِ ،

(١) **الخبز القفار** : هو الذي لا أُدْم فيه ولا دسم ، وعند الحافظ الزبيدي (٧/٣٦٤) : اليابس وحده .

وبأنْ يذمَّ بينَ يديهِ الصبيَّ الذي يكثرُ الأكلَ ، ويمدحَ عندَهُ الصبيَّ المتأدِّبَ القليلَ الأكلِ ، وأنْ يحبِّبَ إليهِ الإيثارَ بالطعامِ ، وقلَّةَ المبالاةِ بهِ ، والقناعةَ بالطعامِ الخشنِ أيَّ طعامٍ كانَ .

وأنْ يحبِّبَ إليهِ مِنَ الثيابِ البيضَ دونَ الملوَّنِ والإبريسمِ ، ويقرِّرَ عندَهُ أنَّ ذٰلكَ شأنُ النساءِ والمخنَّثينَ ، وأنَّ الرجالَ يستنكفونَ منهُ ، ويكرِّرُ ذٰلكَ عليهِ ، ومهما رأىٰ علىٰ صبيٍّ ثوباً مِنْ إبريسمٍ أوْ ملوَّنٍ . . فينبغي أنْ يستنكرَهُ ويذمَّهُ .

ويُحفظُ الصبيُّ عنِ الصبيانِ الذينَ عُوِّدوا التنعُّمَ والرفاهيةَ ، ولبسَ الثيابِ الفاخرةِ ، وعنْ مخالطةِ كلِّ مَنْ يسمِعُهُ ما يرغِّبُهُ فيهِ ؛ فإنَّ الصبيَّ مهما أُهملَ في ابتداءِ نشوئِهِ . . خرجَ في الأغلبِ رديءَ الأخلاقِ ، كذَّاباً ، حسوداً ، سروقاً ، نمَّاماً ، لجوجاً ، ذا فضولٍ وضحكٍ ، وكيادٍ ووقاحةٍ ومَجانةٍ ، وإنَّما يُحفظُ عنْ جميعِ ذٰلكَ بحسْنِ التأديبِ .

ثمَّ ينبغي أنْ يُشغلَ في المكتبِ ، فيتعلَّمُ القرآنَ [١] وأحاديثَ الأخبارِ ، وحكاياتِ الأبرارِ وأحوالَهُمْ ؛ لينغرسَ في نفسِهِ حبُّ الصالحينَ ، ويُحفظُ مِنَ الأشعارِ التي فيها ذكرُ العشقِ وأهلِهِ ، ويُحفظُ مِنْ مخالطةِ الأدباءِ الذينَ يزعمونَ أنَّ ذٰلكَ مِنَ الظَّرْفِ ورقَّةِ الطبعِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يغرسُ في قلوبِ الصبيانِ بذرَ الفسادِ .

---

(١) أوّلاً بترتيبه المعهود في بلده ؛ من تقديم حروف الهجاء إفراداً ثم تركيباً . « إتحاف » (٣٦٤/٧) .

ثمَّ مهما ظهرَ مِنَ الصبيِّ خلقٌ جميلٌ ، وفعلٌ محمودٌ . . فينبغي أنْ يُكرمَ عليهِ ، ويُجازىٰ عليهِ بما يفرحُ بهِ ، ويُمدحَ بينَ أظهرِ الناسِ ، فإنْ خالفَ ذٰلكَ في بعضِ الأحوالِ مرَّةً واحدةً . . فينبغي أنْ يُتغافلَ عنهُ ، ولا يُهتكَ سترُهُ ولا يُكاشفَ ، ولا يُظهرَ لهُ أنَّهُ يُتصوَّرُ أنْ يتجاسرَ أحدٌ علىٰ مثلِهِ ، ولا سيما إذا سترَهُ الصبيُّ واجتهدَ في إخفائِهِ ؛ فإنَّ إظهارَ ذٰلكَ ربَّما يفيدُهُ جسارةً حتَّىٰ لا يباليَ بالمكاشفةِ ، فعندَ ذٰلكَ إنْ عادَ ثانياً . . فينبغي أنْ يُعاتبَ سرّاً ، ويُعظِّمَ الأمرُ فيهِ ، ويُقالَ لهُ : (إيَّاكَ أنْ تعودَ بعدَ ذٰلكَ لمثلِ هٰذا ، وأنْ يُطلعَ عليكَ في مثلِ هٰذا فتفتضحَ بينَ الناسِ) .

ولا تكثرِ القولَ عليهِ بالعتابِ في كلِّ حينٍ ؛ فإنَّهُ يهوِّنُ عليهِ سماعَ الملامةِ ، وركوبَ القبائحِ ، ويسقطُ وقعَ الكلامِ مِنْ قلبِهِ .

وليكنِ الأبُ حافظاً هيبةَ الكلامِ معَهُ ، فلا يوبِّخُهُ إلا أحياناً ، وينبغي للأمِّ أنْ تخوِّفَهُ بالأبِ وتزجرَهُ عنِ القبائحِ .

وينبغي أنْ يُمنعَ عنِ النومِ نهاراً ؛ فإنَّهُ يورثُ الكسلَ ، ولا يُمنعُ منهُ ليلاً ، ولٰكنْ يُمنعُ الفرشَ الوطيئةَ ؛ حتَّىٰ تتصلَّبَ أعضاؤُهُ ، ولا يسخفَ بدنُهُ (١) ، فلا يصبرُ عنِ التنعُّمِ ، بلْ يعوَّدُ الخشونةَ في المفرشِ والملبسِ والمطعمِ .

وينبغي أنْ يُمنعَ مِنْ كلِّ ما يفعلُهُ في خفيةٍ ؛ فإنَّهُ لا يخفيهِ إلا

---

(١) أي : لا يرق . « إتحاف » (٧/٣٦٥) .

وهوَ يعتقدُ أنَّهُ قبيحٌ ، فإذا تُركَ . . تعوَّدَ فعلَ القبيحِ .

ويُعوَّدُ في بعضِ النهارِ المشيَ والحركةَ والرياضةَ ؛ حتَّىٰ لا يغلبَ عليهِ الكسلُ .

ويُعوَّدُ ألا يكشفَ أطرافَهُ ، ولا يسرعَ المشيَ ، ولا يرخيَ يديهِ ، بلْ يضمُّهُما إلىٰ صدرِهِ .

ويُمنعُ مِنْ أنْ يفتخرَ علىٰ أقرانِهِ بشيءٍ ممَّا يملكُهُ والداهُ ، أوْ بشيءٍ مِنْ مطاعمِهِ وملابسِهِ ، أوْ لوحِهِ ودواتِهِ ، بلْ يُعوَّدُ التواضعَ والإكرامَ لكلِّ مَنْ عاشرَهُ ، والتلطُّفَ معَهُمْ في الكلامِ .

ويُمنعُ مِنْ أنْ يأخذَ مِنَ الصبيانِ شيئاً بدالَّةِ حشمتِهِ إنْ كانَ مِنْ أولادِ المحتشمينَ ، بلْ يُعلَّمُ أنَّ الرفعةَ في الإعطاءِ لا في الأخذِ ، وأنَّ الأخذَ لؤمٌ وخسَّةٌ ودناءةٌ ، وإنْ كانَ مِنْ أولادِ الفقراءِ . . فيُعلَّمُ أنَّ الطمعَ والأخذَ مهانةٌ وذلَّةٌ ، وأنَّ ذٰلكَ مِنْ دأبِ الكلبِ ؛ فإنَّهُ يبصبصُ في انتظارِ لقمةٍ .

❀ ❀ ❀

وبالجملةِ : يُقبَّحُ إلى الصبيانِ حبُّ الذهبِ والفضةِ ، والطمعُ فيهما ، ويُحذَّرُ منهما أكثرَ ممَّا يُحذَّرُ مِنَ الحيَّاتِ والعقاربِ ؛ فإنَّ آفةَ حبِّ الذهبِ والفضةِ والطمعِ فيهما أضرُّ مِنْ آفةِ السمومِ على الصبيانِ ، بلْ على الأكابرِ أيضاً .

وينبغي أنْ يُعوَّدَ ألا يبصقَ في مجلسِهِ ، ولا يتمخَّطَ ولا يتثاءبَ

بحضرةِ غيرِهِ ، ولا يستدبرَ غيرَهُ ، ولا يضعَ رِجْلاً علىٰ رِجْلٍ ، ولا يضعَ [1] كفَّهُ تحتَ ذَقَنِهِ ، ولا يعمدَ رأسَهُ بساعدِهِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ دليلُ الكسلِ .

ويُعلَّمُ كيفيةَ الجلوسِ ، ويُمنعُ كثرةَ الكلامِ ، ويُبيَّنُ لهُ أنَّ ذٰلكَ يدلُّ على الوقاحةِ ، وأنَّهُ عادةُ أبناءِ اللئامِ .

ويُمنعُ الأيمانَ رأساً ، صادقاً كانَ أَوْ كاذباً ؛ حتَّىٰ لا يعتادَ ذٰلكَ في الصغرِ .

ويُمنعُ أنْ يبتدئَ الكلامَ ، ويُعوَّدُ ألا يتكلَّمَ إلا جواباً وبقَدْرِ السؤالِ ، وأنْ يحسنَ الاستماعَ مهما تكلَّمَ غيرُهُ ممَّنْ هوَ أكبرُ منهُ سنّاً ، وأنْ يقومَ لمَنْ فوقَهُ ، ويوسعَ لهُ المكانَ ، ويجلسَ بينَ يديهِ .

ويُمنعُ مِنْ لغوِ الكلامِ وفحشِهِ ، ومِنَ اللعنِ والسبِّ ، ومِنْ مخالطةِ مَنْ يجري علىٰ لسانِهِ شيءٌ مِنْ ذٰلكَ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يسري لا محالةَ مِنَ القرناءِ السوءِ ، وأصلُ تأديبِ الصبيانِ الحفظُ مِنْ قرناءِ السوءِ .

وينبغي إذا ضربَهُ المعلِّمُ ألا يُكثرَ الصراخَ والشغبَ ، ولا يستشفعَ بأحدٍ ، بلْ يصبرُ ، ويذكرُ لهُ أنَّ ذٰلكَ دأبُ الشجعانِ والرجالِ ، وأنَّ كثرةَ الصراخِ دأبُ المماليكِ والنسوانِ .

وينبغي أنْ يؤذنَ لهُ بعدَ الفراغِ منَ المكتبِ أنْ يلعبَ لعباً جميلاً ، يستريحُ إليهِ مِنْ تعبِ المكتبِ ، بحيثُ لا يتعبُ في اللعبِ ؛ فإنَّ منعَ

---

(١) في النسخ : (ولا يضرب) ، والمثبت من (ق) .

الصبيِّ مِنَ اللعبِ وإرهاقَهُ إلى التعلُّمِ دائماً يميتُ قلبَهُ ، ويبطلُ ذكاءَهُ ، وينغِّصُ عليهِ العيشَ ، حتَّىٰ يطلبَ الحيلةَ في الخلاصِ منهُ رأساً .

وينبغي أنْ يُعلَّمَ طاعةَ والديهِ ومعلِّمِهِ ومؤدِّبِهِ ، وكلِّ مَنْ هوَ أكبرُ منهُ سنّاً ؛ مِنْ قريبٍ وأجنبيٍّ ، وأنْ ينظرَ إليهِمْ بعينِ الجلالةِ والتعظيمِ ، وأنْ يتركَ اللعبَ بينَ أيديهِمْ .

ومهما بلغَ سنَّ التمييزِ . . فينبغي ألا يُسامحَ في تركِ الطهارةِ والصلاةِ ، ويُؤمرُ بالصومِ في بعضِ أيَّامِ رمضانَ ، ويُجنَّبُ لبْسَ الديباجِ والحريرِ والذهبِ ، ويُعلَّمُ كلَّ ما يحتاجُ إليهِ مِنْ حدودِ الشرعِ ويُخوَّفُ مِنَ السرقةِ وأكلِ الحرامِ ، ومِنَ الكذبِ والخيانةِ والفحْشِ ، وكلِّ ما يغلبُ على الصبيانِ .

فإذا وقعَ نشوءُهُ كذٰلكَ في الصبا ؛ فمهما قاربَ البلوغَ . . أمكنَ أنْ يعرفَ أسرارَ هٰذهِ الأمورِ ، فيُذكرُ لهُ أنَّ الأطعمةَ أدويةٌ ، وإنَّما المقصودُ منها أنْ يقوى الإنسانُ بها علىٰ عبادةِ اللهِ تعالىٰ ، وأنَّ الدنيا كلَّها لا أصلَ لها ؛ إذْ لا بقاءَ لها ، وأنَّ الموتَ يقطعُ نعيمَها ، وأنَّها دارُ ممرٍّ لا دارُ مقرٍّ ، وأنَّ الآخرةَ دارُ مقرٍّ لا دارُ ممرٍّ ، وأنَّ الموتَ منتظَرٌ في كلِّ ساعةٍ ، وأنَّ الكيِّسَ العاقلَ مَنْ تزوَّدَ مِنَ الدنيا للآخرةِ ، حتَّىٰ تعظمَ عندَ اللهِ درجتُهُ ، وتتسعَ في الجنانِ نعمتُهُ .

فإذا كانَ النشوءُ صالحاً . . كانَ هٰذا الكلامُ عندَ البلوغِ واقعاً مؤثِّراً ناجعاً ، يثبتُ في قلبِهِ كما يثبتُ النقْشُ في الحجرِ .

وإنْ وقعَ النشوءُ بخلافِ ذٰلكَ ؛ حتَّىٰ ألفَ الصبيُّ اللعبَ والفحْشَ

والوقاحةَ وشرهَ الطعامِ واللباسِ والتزيُّنَ والتفاخرَ . . نبا قلبُهُ عنْ قبولِ الحقِّ نبوةَ الحائطِ عنِ الطينِ اليابسِ .

فأوائلُ الأمورِ هيَ التي ينبغي أنْ تُراعىٰ ؛ فإنَّ الصبيَّ بجوهرِهِ خُلِقَ قابلاً للخيرِ والشرِّ جميعاً ، وإنَّما أبواهُ يميلانِ به إلىٰ أحدِ الجانبينِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرةِ ، وإنَّما أبواهُ يهوِّدانِهِ وينصِّرانِهِ ويمجِّسانِهِ »[١] .

قالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التُّسْتَريُّ : كنتُ وأنا ابنُ ثلاثِ سنينَ أقومُ بالليلِ ، فأنظرُ إلىٰ صلاةِ خالي محمدِ بنِ سوارٍ ، فقالَ لي يوماً : ألا تذكرُ اللهَ الذي خلقَكَ ؟ فقلتُ : كيفَ أذكرُهُ ؟ قالَ : قُلْ بقلبِكَ عندَ تقلُّبِكَ في ثيابِكَ ثلاثَ مرَّاتٍ مِنْ غيرِ أنْ تحرِّكَ بِهِ لسانَكَ : (اللهُ معي ، اللهُ ناظرٌ إليَّ ، اللهُ شاهدي) ، فقلتُ ذٰلكَ لياليَ ، ثمَّ أعلمتُهُ ، فقالَ : قُلْ في كلِّ ليلةٍ سبعَ مرَّاتٍ ، فقلتُ ذٰلكَ ، ثمَّ أعلمتُهُ ، فقالَ : قُلْ ذٰلكَ كلَّ ليلةٍ إحدىٰ عشرةَ مرَّةً ، فقلتُهُ ، فوقعَ في قلبي حلاوتُهُ .

فلمَّا كانَ بعدَ سنةٍ . . قالَ لي خالي : احفظْ ما علَّمتُكَ ، ودُمْ عليهِ إلىٰ أنْ تدخلَ القبرَ ؛ فإنَّهُ ينفعُكَ في الدنيا والآخرةِ ، فلمْ أزلْ علىٰ ذٰلكَ سنينَ ، فوجدتُ لهُ حلاوةً في سرِّي ، ثمَّ قالَ لي خالي يوماً : يا سَهْلُ ؛ مَنْ كانَ اللهُ معَهُ ، وهوَ ناظرٌ إليهِ ، وشاهدُهُ . . يعصيهِ ؟! إيَّاكَ والمعصيةَ .

---

(١) رواه البخاري (١٣٥٨) ، ومسلم (٢٦٥٨) ، واللام في قوله : (الفطرة) للعهد ، والمعهود : فطرة الله التي فطر الناس عليها ؛ أي : الخلقة التي خلق الناس عليها من الاستعداد لقبول الدين والتهيؤ للتمييز بين الخطأ والصواب . « إتحاف » (٧/٢٣٣) .

فكنتُ أخلو بنفسي ، فبعثوا بي إلى المكتبِ ، فقلتُ : إنِّي لأخشىٰ أنْ يتفرَّقَ عليَّ همِّي ، ولٰكنْ شارطوا المعلِّمَ أني أذهبُ إليهِ ساعةً فأتعلَّمُ ، ثمَّ أرجعُ ، فمضيتُ إلى الكتَّابِ ، وحفظتُ القرآنَ وأنا ابنُ ستِّ سنينَ أوْ سبعِ سنينَ ، وكنتُ أصومُ الدهرَ ، وقُوتي مِنْ خبزِ الشعيرِ اثنتي عشرةَ سنةً ، فوقعَتْ لي مسألةٌ وأنا ابنُ ثلاثَ عشرةَ سنةً ، فسألتُ أهلي أنْ يبعثوا بي إلىٰ أهلِ البصرةِ لأسألَ عنها ، فأتيتُ البصرةَ ، فسألتُ علماءَها ، فلمْ يشفِ أحدٌ عنِّي شيئاً ، فخرجتُ إلىٰ عبَّادانَ إلىٰ رجلٍ يُعرفُ بأبي حبيبٍ حمزةَ ابنِ أبي عبدِ اللهِ العبَّادانيِّ ، فسألتُهُ عنها ، فأجابَني ، فأقمتُ عندَهُ مدَّةً أنتفعُ بكلامِهِ ، وأتأدَّبُ بآدابِهِ .

ثمَّ رجعتُ إلىٰ تُسْتَرَ ، فجعلتُ قُوتي اقتصاداً علىٰ أنْ يُشترىٰ لي بدرهمٍ مِنَ الشعيرِ الفرقَ ، فيُطحنَ ويُخبزَ لي ، فأفطرَ عندَ السحرِ علىٰ أوقيَّةٍ كلَّ ليلةٍ بحتاً بغيرِ ملحٍ ولا أُدْمٍ ، فكانَ يكفيني ذٰلكَ الدرهمُ سنةً ، ثمَّ عزمتُ علىٰ أنْ أطويَ ثلاثَ ليالٍ ثمَّ أفطرَ ليلةً ، ثمَّ خمساً ، ثمَّ سبعاً ، ثمَّ خمساً وعشرينَ ليلةً ، فكنتُ علىٰ ذٰلكَ عشرينَ سنةً ، ثمَّ خرجتُ أسيحُ في الأرضِ سنينَ ، ثمَّ رجعتُ إلىٰ تُسْتَرَ ، وكنتُ أقومُ الليلَ كلَّهُ[1] .

❋ ❋ ❋

---

(١) أورد هٰذا الخبر بتمامه القشيريُّ في « رسالته » (ص ٦٥) .

بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة وتدريج المريد في سلوك سبيل الرّياضة

اعلمْ : أنَّ مَنْ شاهدَ الآخرةَ بقلبِهِ مشاهدةَ يقينٍ . . أصبحَ بالضرورةِ مريداً حرْثَ الآخرةِ ، مشتاقاً إليها ، سالكاً سُبُلَها ، مستهيناً بنعيمِ الدنيا ولذَّاتِها ؛ فإنَّ مَنْ كانَتْ معَهُ خرزةٌ فرأىٰ جوهرةً نفيسةً . . لمْ تبقَ لهُ رغبةٌ في الخرزةِ ، وقويَتْ إرادتُهُ في بيعِها بالجوهرةِ .

ومَنْ ليسَ مريداً حرْثَ الآخرةِ ، ولا طالباً للقاءِ اللهِ تعالىٰ . . فهوَ لعدمِ إيمانِهِ باللهِ واليومِ الآخرِ ، ولستُ أعني بالإيمانِ حديثَ النفسِ وحركةَ اللسانِ بكلمتيِ الشهادةِ مِنْ غيرِ صدْقٍ وإخلاصٍ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يضاهي قولَ مَنْ صدَّقَ بأنَّ الجوهرةَ خيرٌ مِنَ الخرزةِ إلا أنَّهُ لا يدري مِنَ الجوهرةِ إلا لفظَها ، وأمَّا حقيقتُها . . فلا ، ومثلُ هٰذا المصدِّقِ إذا ألفَ الخرزةَ قدْ لا يتركُها ، ولا يعظُمُ اشتياقُهُ إلى الجوهرةِ .

❁ ❁ ❁

فإذاً ؛ المانعُ مِنَ الوصولِ عدمُ السلوكِ ، والمانعُ مِنَ السلوكِ عدمُ الإرادةِ ، والمانعُ مِنَ الإرادةِ عدمُ الإيمانِ ، وسببُ عدمِ الإيمانِ عدمُ الهداةِ والمذكِّرينَ ، والعلماءِ باللهِ تعالى الهادينَ إلىٰ طريقِهِ ، والمنبِّهينَ علىٰ حقارةِ الدنيا وانقراضِها ، وعظَمِ أمرِ الآخرةِ ودوامِها ، فالخلقُ غافلونَ قدِ انهمكوا في شهواتِهِمْ ، وغاصوا في رقدتِهِمْ ،

وليسَ في علماءِ الدينِ مَنْ ينبِّهُهُمْ ، فإنْ تنبَّهَ منهُمْ متنبِّهٌ . . عجزَ عنْ سلوكِ الطريقِ لجهلِهِ ، فإنْ طلبَ الطريقَ مِنَ العلماءِ . . وجدَهُمْ مائلينَ إلى الهوىٰ ، عادلينَ عنْ نهجِ الطريقِ ، فصارَ ضعفُ الإرادةِ والجهلُ بالطريقِ ونطقُ العلماءِ بالهوىٰ سبباً لخلوِّ طريقِ اللهِ تعالىٰ عنِ السالكينَ فيهِ .

ومهما كانَ المطلوبُ محجوباً ، والدليلُ مفقوداً ، والهوىٰ غالباً ، والطالبُ غافلاً . . امتنعَ الوصولُ ، وتعطَّلَتِ الطرقُ لا محالةَ .

فإنْ تنبَّهَ متنبِّهٌ مِنْ نفسِهِ ، أوْ مِنْ تنبيهِ غيرِهِ ، وانبعثَ لهُ إرادةٌ في حرْثِ الآخرةِ وتجارتِها . . فينبغي أنْ يعلمَ أنَّ لهُ شروطاً لا بدَّ مِنْ تقديمِها في بدايةِ الإرادةِ ، ولهُ معتصَمٌ لا بدَّ مِنَ التمسُّكِ بهِ ، ولهُ حصْنٌ لا بدَّ مِنَ التحصُّنِ بهِ ؛ ليأمنَ مِنَ الأعداءِ القطَّاعِ لطريقِهِ ، ولهُ وظائفُ لا بدَّ مِنْ ملازمتِها في وقتِ سلوكِ الطريقِ .

أمَّا الشروطُ التي لا بدَّ مِنْ تقديمِها في الإرادةِ : فهيَ رفعُ السدِّ والحجابِ الذي بينَهُ وبينَ الحقِّ ، فإنَّ حرمانَ الخلقِ عنِ الحقِّ سببُهُ تراكمُ الحجُبِ ، ووقوعُ السدِّ على الطريقِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (١) .

والسدُّ بينَ المريدِ وبينَ الحقِّ أربعةٌ : المالُ ، والجاهُ ، والتقليدُ ، والمعصيةُ .

---

(١) سورة يسٓ : (٩) .

وإنَّما يرتفعُ حجابُ **المالِ** بخروجِهِ عنْ ملكِهِ ، حتَّىٰ لا يبقىٰ لهُ إلا قدْرُ الضرورةِ ، فما دامَ يبقىٰ لهُ درهمٌ يلتفتُ إليهِ قلبُهُ . . فهوَ مقيَّدٌ بهِ ، محجوبٌ عنِ اللهِ تعالىٰ .

وإنَّما يرتفعُ حجابُ **الجاهِ** بالبعدِ عنْ موضعِ الجاهِ ، وبالتواضعِ وإيثارِ الخمولِ ، والهربِ مِنْ أسبابِ الذكرِ ، وتعاطي أعمالٍ تنفِّرُ قلوبَ الخلقِ عنهُ .

وإنَّما يرتفعُ حجابُ **التقليدِ** بأنْ يتركَ التعصُّبَ للمذاهبِ ، وأنْ يصدِّقَ بمعنىٰ قولِهِ : (لا إلـهَ إلا اللهُ ، محمدٌ رسولُ اللهِ) تصديقَ إيمانٍ ، ويحرصَ في تحقيقِ صدقِهِ بأنْ يرفعَ كلَّ معبودٍ لهُ سوى اللهِ تعالىٰ ، وأعظمُ معبودٍ لهُ الهوىٰ ، حتَّىٰ إذا فعلَ ذٰلكَ . . انكشفَ لهُ حقيقةُ الأمرِ في معنى اعتقادِهِ الذي تلقَّفَهُ تقليداً ، فينبغي أنْ يطلبَ كشفَ ذٰلكَ مِنَ المجاهدةِ ، لا مِنَ المجادلةِ ، فإنْ غلبَ عليهِ التعصُّبُ لمعتقدِهِ ، ولمْ يبقَ في نفسِهِ متسعٌ لغيرِهِ . . صارَ ذٰلكَ قيداً لهُ وحجاباً ؛ إذْ ليسَ مِنْ شرطِ المريدِ الانتماءُ إلىٰ مذهبٍ معيَّنٍ أصلاً .

وأمَّا المعصيةُ . . فهيَ حجابٌ ، ولا يرفعُها إلا التوبةُ والخروجُ مِنَ المظالمِ ، وتصميمُ العزْمِ علىٰ ترْكِ العَوْدِ ، وتحقيقُ الندمِ علىٰ ما مضىٰ ، وردُّ المظالمِ ، وإرضاءُ الخصومِ ؛ فإنَّ مَنْ لمْ يصححِ التوبةَ ، ولمْ يهجرِ المعاصيَ الظاهرةَ ، وأرادَ أنْ يقفَ علىٰ أسرارِ الدينِ بالمكاشفةِ . . كانَ كمَنْ يريدُ أنْ يقفَ علىٰ أسرارِ القرآنِ وتفسيرِهِ وهوَ بعدُ لمْ يتعلَّمْ لغةَ العربِ ؛ فإنَّ ترجمةَ غريبِ القرآنِ لا بدَّ مِنْ تقديمِها

أوَّلاً ، ثمَّ الترقِّي منها إلىٰ أسرارِ معانيهِ ، فكذٰلكَ لا بدَّ مِنْ تصحيحِ ظاهرِ الشريعةِ أوَّلاً وآخراً ، ثمَّ الترقِّي إلىٰ أغوارِها وأسرارِها .

فإذا قدَّمَ هٰذهِ الشروطَ الأربعةَ ، وتجرَّدَ عنِ المالِ والجاهِ . . كانَ كمَنْ تطهَّرَ وتوضَّأَ ورفعَ الحدثَ ، وصارَ صالحاً للصلاةِ ، فيحتاجُ إلىٰ إمامٍ يقتدي بهِ ، فكذٰلكَ المريدُ يحتاجُ إلىٰ شيخٍ وأستاذٍ يقتدي بهِ لا محالةَ ؛ ليهديَهُ إلىٰ سواءِ السبيلِ ؛ فإنَّ سبيلَ الدينِ غامضٌ ، وسبلَ الشيطانِ كثيرةٌ ظاهرةٌ ، فمَنْ لمْ يكنْ لهُ شيخٌ يهديهِ . . قادَهُ الشيطانُ إلىٰ طرقِهِ لا محالةَ ، فمَنْ سلكَ سبلَ البوادي المهلكةَ بغيرِ خفيرٍ . . فقدْ خاطرَ بنفسِهِ وأهلكَها .

ويكونُ المريدُ المستقلُّ بنفسِهِ كالشجرةِ التي تنبتُ بنفسِها ؛ فإنَّها تجفُّ على القرْبِ ، وإنْ بقيَتْ مدَّةً وأورقَتْ . . لمْ تثمرْ ، فمعتصَمُ المريدِ بعدَ تقديمِ الشروطِ المذكورةِ شيخُهُ ، فليتمسَّكْ بهِ تمسُّكَ الأعمىٰ علىٰ شاطئِ النهرِ بالقائدِ ، بحيثُ يفوِّضُ أمرَهُ إليهِ بالكليَّةِ ، ولا يخالفُهُ في ورْدٍ ولا صدَرٍ ، ولا يبقي في متابعتِهِ شيئاً ولا يذرُ ، ويعلمُ أنَّ نفعَهُ في خطأِ شيخِهِ لوْ أخطأَ أكثرُ مِنْ نفعِهِ في صوابِ نفسِهِ لوْ أصابَ [1] .

(١) وقد نقل الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١/٩) عن الزاهد قطب الدين بن محمد الأردبيلي قال : (قال حجة الإسلام : كنت في بداية أمري منكراً لأحوال الصالحين ومقامات العارفين ، حتىٰ صحبت شيخي يوسف النساج بطوس ، فلم يزل يصقلني ←

فإذا وجدَ مثلَ هٰذا المعتصَمِ . . وجبَ علىٰ معتصَمِهِ أنْ يحميَهُ ويعصمَهُ بحصنٍ حصينٍ ، يدفعُ عنهُ قواطعَ الطريقِ ، وهيَ أربعةُ أمورٍ : الخلوةُ ، والصمتُ ، والجوعُ ، والسهرُ ، وهٰذا تحصُّنٌ مِنَ القواطعِ ؛ فإنَّ مقصودَ المريدِ إصلاحُ قلبِهِ ؛ ليشاهدَ بِهِ ربَّهُ ، ويصلحَ لقربِهِ .

أمَّا الجوعُ : فإنَّهُ ينقصُ دمَ القلبِ ويبيِّضُهُ ، وفي بياضِهِ نورُهُ ، ويذيبُ شحمَ الفؤادِ ، وفي ذوبانِهِ رقَّتُهُ ، ورقَّتُهُ مفتاحُ المكاشفةِ ، كما أنَّ قسوتَهُ سببُ الحجابِ ، ومهما نقصَ دمُ القلبِ . . ضاقَ مسلكُ العدوِّ ؛ فإنَّ مجاريَهُ العروقُ الممتلئةُ بالشهواتِ .

قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يا معشرَ الحواريينَ ؛ جوِّعوا بطونَكُمْ ، لعلَّ قلوبَكُمْ ترىٰ ربَّكُمْ) (١) .

← بالمجاهدة حتىٰ حظيت بالواردات ، فرأيت الله في المنام ، فقال لي : يا أبا حامد ؛ قلت : أوَالشيطان يكلمني ؟ قال : لا ، بل أنا الله المحيط بجهاتك الست ، ثم قال : يا أبا حامد ؛ ذر مساطرك ، واصحب أقواماً جعلتهم في أرضي محل نظري ، وهم الذين باعوا الدارين بحبي ، فقلت : بعزتك إلا أذقتني برد حسن الظن بهم ، فقال : قد فعلت ، والقاطع بينك وبينهم تشاغلك بحب الدنيا ، فاخرج منها مختاراً قبل أن تخرج منها صاغراً ، فقد أفضت عليك أنواراً من جوار قدسي ، ففز ونل . فاستيقظت فرحاً مسروراً ، وجئت إلىٰ شيخي يوسف النساج ، فقصصت عليه المنام ، فتبسم ، فقال : يا أبا حامد ؛ هٰذه ألواحنا في البداية ، محوناها بأرجلنا ، بل إن صحبتني . . سيكحل بصر بصيرتك بإثمد التأييد حتىٰ ترى العرش ومن حوله ، ثم لا ترضىٰ بذٰلك حتىٰ تشاهد ما لا تدركه الأبصار ، فتصفو من كدر طبيعتك ، وترقىٰ علىٰ طور عقلك ، وتسمع الخطاب من الله تعالىٰ كموسىٰ : إني أنا الله رب العالمين) .

(١) أورده الإمام أبو طالب في « القوت » (١/٩٥) ، وكذٰلك (٢/٦٧) وزاد : (وقد رواه عبد الرحمٰن بن يحيى الأسود عن طاووس رفعه إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التستريُّ : (ما صارَ الأبدالُ أبدالاً إلا بأربعِ خصالٍ : بإخماصِ البطونِ ، والسهرِ ، والصمتِ ، والاعتزالِ عنِ الناسِ)[١] .

ففائدةُ الجوعِ في تنويرِ القلبِ أمرٌ ظاهرٌ ، تشهدُ لهُ التجربةُ ، وسيأتي بيانُ وجهِ التدريجِ فيهِ في كتابِ كسرِ الشهوتينِ .

وأمَّا السهرُ : فإنَّهُ يجلو القلبَ ، ويصفيهِ وينوِّرُهُ ، فينضافُ ذٰلكَ إلى الصفاءِ الذي حصلَ منَ الجوعِ ، فيصيرُ القلبُ كالكوكبِ الدرِّيِّ ، والمرآةِ المجلوَّةِ ، فيلوحُ فيهِ جمالُ الحقِّ ، ويشاهدُ فيهِ رفيعَ الدرجاتِ في الآخرةِ ، وحقارةَ الدنيا وآفاتِها ، فتتمُّ بذٰلكَ رغبتُهُ عنِ الدنيا وإقبالُهُ على الآخرةِ .

والسهرُ أيضاً نتيجةُ الجوعِ ؛ فإنَّ السهرَ معَ الشبعِ غيرُ ممكنٍ ، والنومُ يقسِّي القلبَ ويميتُهُ ، إلا إذا كانَ بقدْرِ الضرورةِ ، فيكونُ سببَ المكاشفةِ لأسرارِ الغيبِ ، فقدْ قيلَ في صفةِ الأبدالِ : (إنَّ أكلَهُمْ فاقةٌ ، ونومَهُمْ غلبةٌ ، وكلامَهُمْ ضرورةٌ)[٢] .

وقالَ إبراهيمُ الخوَّاصُ رحمهُ اللهُ : (أجمعَ رأيُ سبعينَ صدِّيقاً علىٰ أنْ كثرةَ النومِ مِنْ كثرةِ شرْبِ الماءِ)[٣] .

وأمَّا الصمتُ : فإنَّهُ تسهِّلُهُ العزلةُ ، ولٰكنِ المعتزلُ لا يخلو عنْ

---

(١) قوت القلوب (١/٩٥) .

(٢) قوت القلوب (١/١٥٤) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٣٢٩) عن أبي إسحاق الموصلي .

مشاهدةِ مَنْ يقومُ لهُ بطعامِهِ وشرابِهِ وتدبيرِ أمرِهِ ، فينبغي ألا يتكلَّمَ إلا بقدْرِ الضرورةِ ؛ فإنَّ الكلامَ يشغلُ القلبَ ، وشَرَهُ القلوبِ إلى الكلامِ عظيمٌ ؛ فإنَّهُ يستروحُ إليهِ ، ويستثقلُ التجرُّدَ للذكْرِ والفكرِ ، فيستريحُ إليهِ ، فالصمتُ يلقحُ العقلَ ، ويجلبُ الورعَ ، ويعلِّمُ التقوىٰ .

وأمَّا الخلوةُ : ففائدتُها دفعُ الشواغلِ ، وضبطُ السمعِ والبصرِ ؛ فإنَّهُما دهليزُ القلبِ ، والقلبُ في حكْمِ حوضٍ تنصبُّ إليهِ مياهٌ كريهةٌ كدرةٌ قذرةٌ مِنْ أنهارِ الحواسِّ ، ومقصودُ الرياضةِ تفريغُ الحوضِ مِنْ تلكَ المياهِ ، ومِنَ الطينِ الحاصلِ منها ؛ لينفجرَ أصلُ الحوضِ ، فيخرجُ منهُ الماءُ النظيفُ الطاهرُ .

وكيفَ يصحُّ لهُ أنْ ينزحَ الماءَ مِنَ الحوضِ والأنهارُ مفتوحةٌ إليهِ ، فيتجدَّدُ في كلِّ حالٍ أكثرَ ممَّا ينقصُ ؟!

فلا بدَّ مِنْ ضبطِ الحواسِّ إلا عنْ قدْرِ الضرورةِ ، وليسَ يتمُّ ذٰلكَ إلا بالخلوةِ في بيتٍ مظلمٍ ، وإنْ لمْ يكنْ لهُ مكانٌ مظلمٌ . . فليلفَّ رأسَهُ في جيبِهِ ، أوْ يتدثَّرْ بكساءٍ أوْ إزارٍ ، ففي مثلِ هٰذهِ الحالةِ يسمعُ نداءَ الحقِّ ، ويشاهدُ جلالَ الحضرةِ الربوبيةِ ، أما ترىٰ أنَّ نداءَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بلغَهُ وهوَ علىٰ مثلِ هٰذهِ الصفةِ ، فقيلَ لهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ (١) ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة المزمل : (١) .

(٢) سورة المدثر : (١) ، والحديث رواه البخاري (٤) ، ومسلم (١٦٠) ، وقوله : ←

فهٰذهِ الأربعةُ جُنَّةٌ وحصْنٌ ، بها تُدفعُ عنهُ القواطعُ ، وتُمنعُ العوارضُ القاطعةُ للطريقِ .

۞ ۞ ۞

فإذا فعلَ ذٰلكَ . . اشتغلَ بعدَهُ بسلوكِ الطريقِ ، وإنَّما سلوكُهُ بقطْعِ العقباتِ ، ولا عقبةَ علىٰ طريقِ اللهِ تعالىٰ إلا صفاتُ القلبِ التي سببُها الالتفاتُ إلى الدنيا ، وبعضُ تلكَ العقباتِ أعظمُ مِنْ بعضٍ .

والترتيبُ في قطعِها : أنْ يشتغلَ بالأسهلِ فالأسهلِ ، وهيَ ـ أعني : تلكَ الصفاتِ ـ أسرارُ العلائقِ التي قطعَها في أولِ الإرادةِ وآثارُها ؛ أعني : آثارَ المالِ ، والجاهِ ، وحبِّ الدنيا ، والالتفاتِ إلى الخلقِ ، والتشوُّفِ إلى المعاصي ، فلا بدَّ أنْ يخليَ الباطنَ عنْ آثارِها كما أخلى الظاهرَ عنْ أسبابِها الظاهرةِ ، وفيهِ تطولُ المجاهدةُ ، ويختلفُ ذٰلكَ باختلافِ الأحوالِ ، فربَّ شخصٍ قدْ كُفِيَ أكثرَ الصفاتِ ، فلا تطولُ عليهِ المجاهدةُ ، وقدْ ذكرنا أنَّ طريقَ المجاهدةِ مضادَّةُ الشهواتِ ، ومخالفةُ الهوىٰ في كلِّ صفةٍ غالبةٍ علىٰ نفسِ المريدِ ، كما سبقَ ذكرُهُ .

فإذا كُفِيَ ذٰلكَ ، أوْ ضعفَ بالمجاهدةِ ولمْ يبقَ في قلبِهِ علاقةٌ . . شغلَهُ بعدَ ذٰلكَ بذكْرٍ يلزمُ قلبَهُ على الدوامِ ، ويمنعُهُ مِنْ تكثيرِ الأورادِ

← (بلغه وهو علىٰ هٰذه الصفة) يؤكد هٰذا النداءُ بالحال ؛ إذ ناداه بالمدثر والمزمل وهو ملابس لذٰلك ؛ ليستشعر الملاطفة منه سبحانه .

الظاهرةِ ، بلْ يقتصرُ على الفرائضِ والرواتبِ [1] ، ويكونُ وردُهُ ورداً واحداً ، وهوَ لبابُ الأورادِ وثمرتُها ؛ أعني : ملازمةَ القلبِ لذكرِ اللهِ تعالىٰ بعدَ الخلوّ مِنْ ذكرِ غيرِهِ .

ولا يشغلُهُ بهِ ما دامَ قلبُهُ ملتفتاً إلىٰ علائقِهِ ، قالَ الشبليُّ للحصريّ : (إنْ كانَ يخطرُ بقلبِكَ مِنَ الجمعةِ التي تأتيني فيها إلى الجمعةِ الأخرىٰ شيءٌ غيرُ اللهِ تعالىٰ . . فحرامٌ عليكَ أنْ تأتيَني) [2] .

وهٰذا التجرُّدُ لا يحصلُ إلا معَ صدْقِ الإرادةِ ، واستيلاءِ حبِّ اللهِ تعالىٰ على القلبِ ، حتَّىٰ يكونَ في صورةِ العاشقِ المستهتَرِ [3] ، الذي ليسَ لهُ إلا همٌّ واحدٌ .

❊ ❊ ❊

فإذا كانَ كذٰلكَ . . ألزمَهُ الشيخُ زاويةً ينفردُ بها ، ويوكلُ بهِ مَنْ يقومُ لهُ بقدْرٍ يسيرٍ مِنَ القوتِ الحلالِ ؛ فإنَّ أصلَ طريقِ الدينِ القوتُ الحلالُ ، وعندَ ذٰلكَ يلقِّنُهُ ذكراً مِنَ الأذكارِ ، حتَّىٰ يشغلَ

---

(١) قال الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٦٢٥) : (وليس من آداب المريدين كثرة الأوراد في الظاهر ؛ فإن القوم في مكابدة إخلاء خواطرهم ، ومعالجة أخلاقهم ، ونفي الغفلة عن قلوبهم ، لا في تكثير أعمال البر ، والذي لا بد لهم منه إقامة الفرائض والسنن الراتبة ، فأما الزيادة من الصلوات النافلة . . فاستدامة الذكر بالقلب أتم لهم) .

(٢) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٦٢١) .

(٣) **والمستهتَر** : المولع بالشيء المأخوذ به ، كأنه قد وَلِهَ ، مرَّ غير مرة ، وقد روىٰ أحمد في « المسند » (٣/٧١) وابن حبان في « صحيحه » (٨١٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : « أكثروا ذكر الله حتىٰ يقولوا : مجنون » .

بهِ لسانَهُ وقلبَهُ ، فيجلسُ ويقولُ مثلاً : (الله ، الله ، الله)[1] ، أوْ (سبحانَ اللهِ ، سبحانَ اللهِ) ، أوْ ما يراهُ الشيخُ مِنَ الكلماتِ .

فلا يزالُ يواظبُ عليهِ حتَّىٰ تسقطَ حركةُ اللسانِ ، وتكونَ الكلمةُ كأنَّها جاريةٌ على اللسانِ مِنْ غيرِ تحريكٍ .

ثـمَّ لا يزالُ يواظبُ عليهِ حتَّىٰ يسقطَ الأثـرُ عنِ اللسانِ ، وتبقىٰ صورةُ اللفظِ في القلبِ .

ثمَّ لا يزالُ كذٰلكَ حتَّىٰ ينمحيَ عنِ القلبِ حروفُ اللفظِ وصورتُهُ ، وتبقىٰ حقيقةُ معناهُ لازمةً للقلبِ ، حاضرةً معَهُ ، غالبةً عليهِ ، قدْ فرغَ عنْ كلِّ ما سواهُ ؛ لأنَّ القلبَ إذا شُغِلَ بشيءٍ . . خلا عنْ غيرِهِ أيَّ شيءٍ كانَ ، فإذا اشتغلَ بذكرِ اللهِ تعالىٰ وهوَ المقصودُ . . خلا ـ لا محالةَ ـ عنْ غيرِهِ .

وعندَ ذٰلكَ يلزمُهُ أنْ يراقبَ وساوسَ القلبِ ، والخواطرَ التي تتعلَّقُ بالدنيا ، وما يتذكَّرُ فيهِ ممَّا قدْ مضىٰ مِنْ أحوالِهِ وأحوالِ غيرِهِ ؛ فإنَّهُ مهما اشتغلَ بشيءٍ منهُ ولوْ في لحظةٍ . . خلا قلبُهُ عنِ الذكرِ في تلكَ اللحظةِ ، وكانَ ذٰلكَ نقصاناً ، فليجتهدْ في دفعِ ذٰلكَ .

ومهما دفعَ الوساوسَ كلَّها وردَّ النفسَ إلىٰ هٰذهِ الكلمةِ . . جاءتْهُ الوساوسُ مِنْ هٰذهِ الكلمةِ ، وأنَّها ما هيَ ؟ وما معنىٰ قولِنا : (**الله**) ؟ ولأيِّ معنىً كانَ إلٰهاً وكانَ معبوداً ؟ ويعتريهِ عندَ ذٰلكَ خواطرُ تفتحُ

---

(١) في (ب) : (ويقول مثلاً : لا إلٰه إلا الله ، أو يقول مثلاً : الله ، الله ، الله) .

عليهِ بابَ الفكرِ ، وربَّما يردُ عليهِ مِنْ وساوسِ الشيطانِ ما هوَ كفرٌ أوْ بدعةٌ ، ومهما كانَ كارهاً لذٰلكَ ، ومتشمِّراً لإماطتِهِ عنِ القلبِ . . لمْ يضرُّهُ ذٰلكَ .

والخواطرُ منقسمةٌ :

إلىٰ ما يُعلمُ قطعاً أنَّ اللهَ تعالىٰ منزَّهٌ عنهُ ، ولٰكنَّ الشيطانَ يلقي ذٰلكَ في قلبِهِ ، ويجريهِ علىٰ خاطرِهِ ، فشرطُهُ ألا يباليَ بهِ ، ويفزعَ إلىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، ويبتهلَ إليهِ ليدفعَهُ عنهُ ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[١] .

وإلىٰ ما يُشكُّ فيهِ ، فينبغي أنْ يعرضَ ذٰلكَ علىٰ شيخِهِ ، بلْ كلُّ ما يجدُ في قلبِهِ مِنَ الأحوالِ مِنْ فترةٍ ، أوْ نشاطٍ ، أوِ التفاتٍ إلىٰ عُلْقَةٍ ، أوْ صدْقٍ في إرادةٍ . . فينبغي أنْ يظهرَ ذٰلكَ لشيخِهِ ، وأنْ يسترَهُ عنْ غيرِهِ ، فلا يطلعَ عليهِ أحداً .

ثمَّ إنَّ شيخَهُ ينظرُ في حالِهِ ، ويتأمَّلُ في ذكائِهِ وكياستِهِ ، فإنْ علمَ أنَّهُ لوْ تركَهُ وأمرَهُ بالفكْرِ تنبَّهَ مِنْ نفسِهِ لحقيقةِ الحقِّ . . فينبغي أنْ يحيلَهُ على الفكرِ ، ويأمرَهُ بملازمتِهِ ، حتَّىٰ يقذفَ في قلبِهِ مِنَ النورِ ما يكشفُ لهُ حقيقتَهُ .

وإنْ علمَ أنَّ ذٰلكَ ممَّا لا يقوىٰ عليهِ مثلُهُ . . ردَّهُ إلى الاعتقادِ

---

(١) سورة الأعراف : (٢٠٠ ـ ٢٠١) .

القاطعِ بما يحتملُهُ قلبُهُ مِنْ وعظٍ وذكرٍ ودليلٍ قريبٍ مِنْ فهمِهِ [١] .

وينبغي أنْ يتأنَّقَ الشيخُ ويتلطَّفَ بهِ ، فإنَّ هٰذهِ مهالكُ الطريقِ ومواضعُ أخطارِها ، فكمْ مِنْ مريدٍ اشتغلَ بالرياضةِ فغلبَ عليهِ خيالٌ فاسدٌ لمْ يقوَ علىٰ كشفِهِ ، فانقطعَ عليهِ طريقُهُ ، فاشتغلَ بالبطالةِ ، وسلكَ طريقَ الإباحةِ ، وذٰلكَ هوَ الهلاكُ العظيمُ .

ومَنْ تجرَّدَ للذكرِ ، ودفعَ العلائقَ الشاغلةَ عنْ قلبِهِ . . لمْ يخلُ عنْ أمثالِ هٰذهِ الأفكارِ ، فإنَّهُ قدْ ركبَ سفينةَ الخطرِ ، فإنْ سلمَ . . كانَ مِنْ ملوكِ الدينِ ، وإنْ أخطأَ . . كانَ مِنَ الهالكينَ .

ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عليكُمْ بدينِ العجائزِ » [٢] ، وهوَ تلقي أصلِ الإيمانِ وظاهرِ الاعتقادِ بطريقِ التقليدِ ، والاشتغالُ

---

(١) وعبارة الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٦٢٣) : (فالواجب علىٰ شيخه إن رأىٰ فيه كياسة أن يحيله على الحجج العقلية ، فإن بالعلم يتخلص ـ لا محالة ـ المتعرف مما يعتريه من الوساوس ، وإن تفرس شيخه فيه القوة والثبات في الطريقة . . أمره بالصبر واستدامة الذكر ، حتىٰ تسطع في قلبه أنوار القبول ، وتطلع في سره شموس الوصول ، وعن قريب يكون ذٰلك ، ولٰكن لا يكون هٰذا إلا لأفراد المريدين) .

(٢) قال الحافظ العراقي : (قال ابن طاهر في كتاب « التذكرة » : هٰذا اللفظ تداوله العامة ، ولم أقف له علىٰ أصل يرجع إليه من رواية صحيحة ولا سقيمة ، حتىٰ رأيت حديثاً لمحمد بن عبد الرحمٰن بن البيلماني عن أبيه عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا كان في آخر الزمان ، واختلفت الأهواء . . فعليكم بدين أهل البادية والنساء » ، وابن البيلماني له عن أبيه عن ابن عمر نسخة كان يتهم بوضعها) . « إتحاف » (٧/٣٧٦) ، وهٰذا اللفظ رواه ابن حبان في « المجروحين » (٢/٢٧٤) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٩٩٦) .

بأعمالِ الخيرِ ؛ فإنَّ الخطرَ في العدولِ عنْ ذٰلكَ كبيرٌ [١] .

ولذٰلكَ قيلَ : على الشيخِ أنْ يتفرَّسَ في المريدِ ، فإنْ لمْ يكنْ ذكيّاً فطناً متمكِّناً مِنِ اعتقادِ الظاهرِ . . لمْ يشغَلْهُ بالذكرِ والفكرِ ، بلْ يردُّهُ إلى الأعمالِ الظاهرةِ والأورادِ المتواترةِ [٢] ، أوْ يشغَلُهُ بخدمةِ المتجرِّدينَ للفكرِ ؛ لتشملَهُ بركتُهُمْ ؛ فإنَّ العاجزَ عنِ الجهادِ في صفِّ القتالِ ينبغي أنْ يسقيَ القومَ ، ويتعهَّدَ دوابَّهُمْ ؛ ليُحشرَ يومَ القيامةِ في زمرتِهِمْ ، وتعمَّهُ بركتُهُمْ ، وإنْ كانَ لا يبلغُ درجتَهُمْ [٣] .

ثمَّ المريدُ المتجرِّدُ للذكرِ والفكرِ قدْ تقطعُهُ قواطعُ كثيرةٌ ؛ مِنَ العجْبِ ، والرياءِ ، والفرحِ بما ينكشفُ لهُ مِنَ الأحوالِ ، وما يبدو مِنْ أوائلِ الكراماتِ ، ومهما التفتَ إلىٰ شيءٍ مِنْ ذٰلكَ وشغلَ بهِ نفسَهُ . . كانَ ذٰلكَ فتوراً في طريقِهِ أوْ وقوفاً [٤] ، بلْ ينبغي أنْ يلازمَ

---

(١) وهو ما قاله ابن الأثير في « جامع الأصول » (١/٢٩٣) ، قال : (دين الأعراب والغلمان والصبيان : الوقوف عند قبول ظاهر الشريعة ، واتباعها من غير تفتيش عن الشبه ، وتنقير عن أقوال أهل الزيغ والأهواء ، ومثله قوله : « عليكم بدين العجائز ») ، فليس دين العجائز رأياً ومذهباً تقول به فرقة من الفرق ، بل الوقوف على الظواهر ، والجد في العمل دون ميل لقول دون قول ، وانظر « فيض القدير » (١/٤٢٤) .

(٢) كصلاة الليل وصلاة الضحىٰ والإشراق والأوابين ، ومتابعة الصيام ، والأوراد المتواترة ، وأفضلها القرآن . « إتحاف » (٧/٣٧٦) .

(٣) فبخدمته لهم ، وحبِّه إياهم يبلغ درجتهم مع قصور حاله نسبةً إليهم ، كما روى البخاري (٣٦٨٨) ، ومسلم (٢٦٣٩) من قول أنس رضي الله عنه : (فأنا أحب النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم ولم أعمل بمثل أعمالهم) .

(٤) قال الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٦٢٢) : (والفرق بين الفترة والوقفة : ←

حالَهُ جملةَ عمرِهِ ملازمةَ العطشانِ الذي لا ترويهِ البحارُ ولوْ أُفيضَتْ عليهِ ، ويدومَ علىٰ ذٰلكَ ، ورأسُ مالِهِ الانقطاعُ عنِ الخلقِ إلى الحقِّ والخلوةُ .

قالَ بعضُ السياحينَ : قلتُ لبعضِ الأبدالِ المنقطعينَ عنِ الخلقِ : كيفَ الطريقُ إلى التحقيقِ ؟ فقالَ : أنْ تكونَ في الدنيا كأنَّكَ عابرُ طريقٍ ، وقالَ مرَّةً : قلتُ لهُ : دلَّني علىٰ عملٍ أعملُهُ أجدُ فيهِ قلبي معَ اللهِ تعالىٰ على الدوامِ ، فقالَ لي : لا تنظرْ إلى الخلْقِ ؛ فإنَّ النظرَ إليهِمْ ظلمةٌ ، قلتُ : لا بدَّ لي مِنْ ذٰلكَ ، قالَ : فلا تسمعْ كلامَهُمْ ؛ فإنَّ كلامَهُمْ قسوةٌ ، قلتُ : لا بدَّ لي مِنْ ذٰلكَ ، قالَ : فلا تعاملْهُمْ ؛ فإنَّ معاملتَهُمْ وحشةٌ ، قلتُ : أنا بينَ أظهرِهِمْ ، لا بدَّ لي مِنْ معاملتِهِمْ ، قالَ : فلا تسكنْ إليهِمْ ؛ فإنَّ السكونَ إليهِمْ هلكةٌ ، قلتُ : هٰذهِ العلَّةُ ، فقالَ : يا هٰذا ؛ أتنظرُ إلى الغافلينَ ، وتسمعُ كلامَ الجاهلينَ ، وتعاملُ البطَّالينَ ، وتريدُ أن تجدَ قلبَكَ معَ اللهِ عزَّ وجلَّ على الدوامِ ؟! هٰذا ما لا يكونُ أبداً [1] .

فإذاً ؛ منتهى الرياضةِ أنْ يجدَ قلبَهُ معَ اللهِ تعالىٰ على الدوامِ ، ولا يمكنُ ذٰلكَ إلا بأنْ يخلوَ عنْ غيرِهِ ، ولا يخلو عنْ غيرِهِ إلا بطولِ المجاهدةِ [2] .

← أن الفترة رجوع عن الإرادة وخروج منها ، والوقفة سكون عن السير باستحلاء حالات الكسل ، وكل مريد وقف في ابتداء إرادته . . لا يجيء منه شيء) .

(١) قوت القلوب (١/٩٩) .

(٢) فإذا تمت له الهداية . . ارتقىٰ إلىٰ مقام الإحسان الذي فسر في الحديث : أن تعبد ←

فإذا حصلَ قلبُهُ معَ اللهِ تعالىٰ . . انكشفَ لهُ جلالُ الحضرةِ الربوبيةِ ، وتجلَّىٰ لهُ الحقُّ ، وظهرَ لهُ مِنْ لطائفِ اللهِ تعالىٰ ما لا يجوزُ أنْ يُوصفَ ، بلْ لا يحيطُ بهِ الوصفُ أصلاً (١) .

وإذا انكشفَ للمريدِ شيءٌ مِنْ ذٰلكَ . . فأعظمُ القواطعِ عليهِ أنْ يتكلَّمَ بهِ وعظاً ونصحاً ، ويتصدَّىٰ للتذكيرِ ، فتجدُ النفسُ فيهِ لذَّةً ليسَ وراءَها لذةٌ ، فتدعوهُ تلكَ اللذَّةُ إلىٰ أنْ يتفكَّرَ في كيفيَّةِ إيرادِ تلكَ المعاني ، وتحسينِ الألفاظِ المعبِّرةِ عنها ، وترتيبِ ذكرِها ، وتزيينِها بالحكاياتِ وشواهدِ القرآنِ والأخبارِ ، وتحسينِ صيغةِ الكلامِ ؛ لتميلَ إليهِ القلوبُ والأسماعُ .

والشيطانُ ربَّما يخيِّلُ إليهِ أنَّ هٰذا إحياءٌ منكَ لقلوبِ الموتى الغافلينَ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّما أنتَ واسطةٌ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ وبينَ الخلقِ ، تدعو عبادَهُ إليهِ ، وما لكَ فيهِ نصيبٌ ، ولا لنفسِكَ فيهِ لذَّةٌ .

ويتَّضحُ كيدُ الشيطانِ بأنْ يظهرَ في أقرانِهِ مَنْ يكونُ أحسنَ كلاماً منهُ ، وأجزلَ لفظاً ، وأقدرَ على استجلابِ قلوبِ العوامِّ ؛ فإنَّهُ يتحرَّكُ في باطنِهِ عقربُ الحسدِ ـ لا محالةَ ـ إنْ كانَ محرِّكُهُ لذَّةَ القبولِ ،

← ربك كأنك تراه ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] أي : بمعية الشهود والانكشاف . « إتحاف » (٧/٣٧٧) .

(١) أصل التجلي هو ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب باعتبار تعدد أمور التجلي ؛ فإن لكل اسم إلٰهي بحسب حيطته ووجوهه تجلياتٍ متنوعة . « إتحاف » (٧/٣٧٧) ، وانظر « التعريفات » للجرجاني (ص١١٣) .

وإنْ كانَ محرِّكُهُ هوَ الحقَّ حرصاً علىٰ دعوةِ عبادِ اللهِ تعالىٰ إلىٰ صراطِهِ المستقيمِ . . فيعظمُ به فرحُهُ ، ويقولُ : (الحمدُ للهِ الذي عضدني وأيَّدَني بمَنْ وازرَني علىٰ إصلاحِ عبادِهِ) ؛ كالذي وجبَ عليهِ مثلاً أنْ يحملَ ميّتاً ليدفنَهُ إذْ وجدَهُ ضائعاً ، وتعيَّنَ عليهِ ذٰلكَ شرعاً ، فجاءَ مَنْ أعانَهُ عليهِ ، فإنَّهُ يفرحُ بهِ ، ولا يحسدُ معينَهُ ، والغافلونَ موتى القلوبِ ، والوعَّاظُ هُمُ المنبِّهونَ والمحيونَ لهُمْ ، ففي كثرتِهِمُ استرواحٌ وتناصرٌ ، فينبغي أنْ يعظمَ الفرحُ بذٰلكَ ، وهٰذا عزيزُ الوجودِ جدّاً ، فينبغي أنْ يكونَ المريدُ علىٰ حذرٍ منهُ ؛ فإنَّهُ أعظمُ حبائلِ الشيطانِ في قطعِ الطريقِ علىٰ مَنِ انفتحَتْ لهُ أوائلُ الطريقِ ، فإنَّ إيثارَ الحياةِ الدنيا طبعٌ غالبٌ على الإنسانِ ، ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [1] ، ثمَّ بيَّنَ أنَّ الشرَّ قديمٌ في الطباعِ ، وأنَّ ذٰلكَ مذكورٌ في الكتبِ السالفةِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [2] .

فهٰذا منهاجُ رياضةِ المريدِ وتربيتِهِ في التدريجِ إلىٰ لقاءِ اللهِ تعالىٰ .

فأمَّا تفصيلُ الرياضةِ في كلِّ صفةٍ . . فسيأتي ؛ فإنَّ أغلبَ الصفاتِ على الإنسانِ بطنُهُ وفرجُهُ ولسانُهُ ؛ أعني بهِ الشهواتِ المتعلقةَ بها ،

---

(١) سورة الأعلىٰ : (١٦) ؛ أي : يختارونها على الآخرة ، فلا يفعلون ما يسعدهم في الآخرة ، ولو علموا علماً يقيناً فناءها وبقاء الآخرة . . لما آثروها . « إتحاف » (٣٧٨/٧) .

(٢) سورة الأعلىٰ : (١٨ ـ ١٩) .

ثـمَّ الغضبُ الذي هوَ كالجندِ لحمايةِ الشهواتِ ، ثـمَّ مهما أحبَّ الإنسانُ شهوةَ البطنِ والفرجِ وأنسَ بهما . . أحبَّ الدنيا ، ولمْ يتمكَّنْ منها إلا بالمالِ والجاهِ ، وإذا طلبَ المالَ والجاهَ . . حدثَ فيهِ الكبْرُ والعجبُ والرئاسةُ ، وإذا ظهرَ ذٰلكَ . . لمْ تسمحْ نفسُهُ بتركِ الدنيا رأساً ، وتمسَّكَ مِنَ الدينِ بما فيهِ الرئاسةُ ، وغلبَ عليهِ الغرورُ .

❁ ❁ ❁

فلهٰذا وجبَ علينا بعدَ تقديمِ هٰذينِ الكتابينِ أنْ نستكملَ ربعَ المهلكاتِ بثمانيةِ كتبٍ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ :

كتابٌ في كسرِ شهوةِ البطنِ والفرجِ .

وكتابٌ في كسْرِ شَرَهِ الكلامِ .

وكتابٌ في كسرِ الغضبِ والحقدِ والحسدِ .

وكتابٌ في ذمِّ الدنيا وتفصيلِ خدعِها .

وكتابٌ في كسرِ حبِّ المالِ وذمِّ البخلِ .

وكتابٌ في ذمِّ الرياءِ وحبِّ الجاهِ .

وكتابٌ في ذمِّ الكبْرِ والعجْبِ .

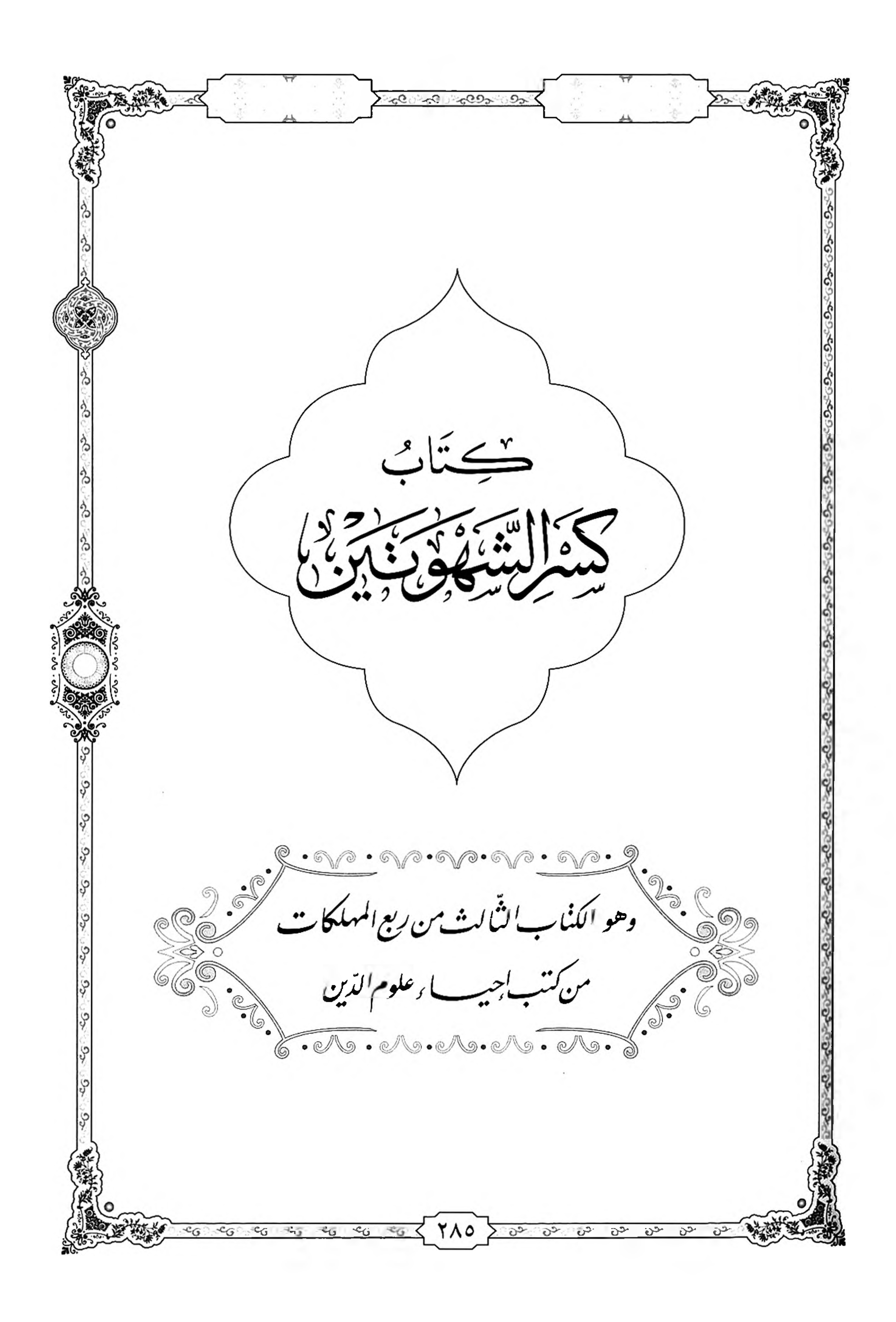
وكتابٌ في مواقعِ الغرورِ .

وبذكرِ هٰذهِ المهلكاتِ وتعليمِ طرقِ المعالجةِ فيها يتمُّ غرضُنا مِنْ ربعِ المهلكاتِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ؛ فإنَّ ما ذكرناهُ في الكتابِ الأوَّلِ

هوَ شرحٌ لصفاتِ القلبِ الذي هوَ معدنُ المهلكاتِ والمنجياتِ ، وما ذكرناهُ في الكتابِ الثاني هوَ إشارةٌ كليَّةٌ إلىٰ طريقِ تهذيبِ الأخلاقِ ومعالجةِ أمراضِ القلوبِ ، أمَّا تفصيلُها : فإنَّهُ يأتي في هٰذه الكتبِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

❁ ❁ ❁

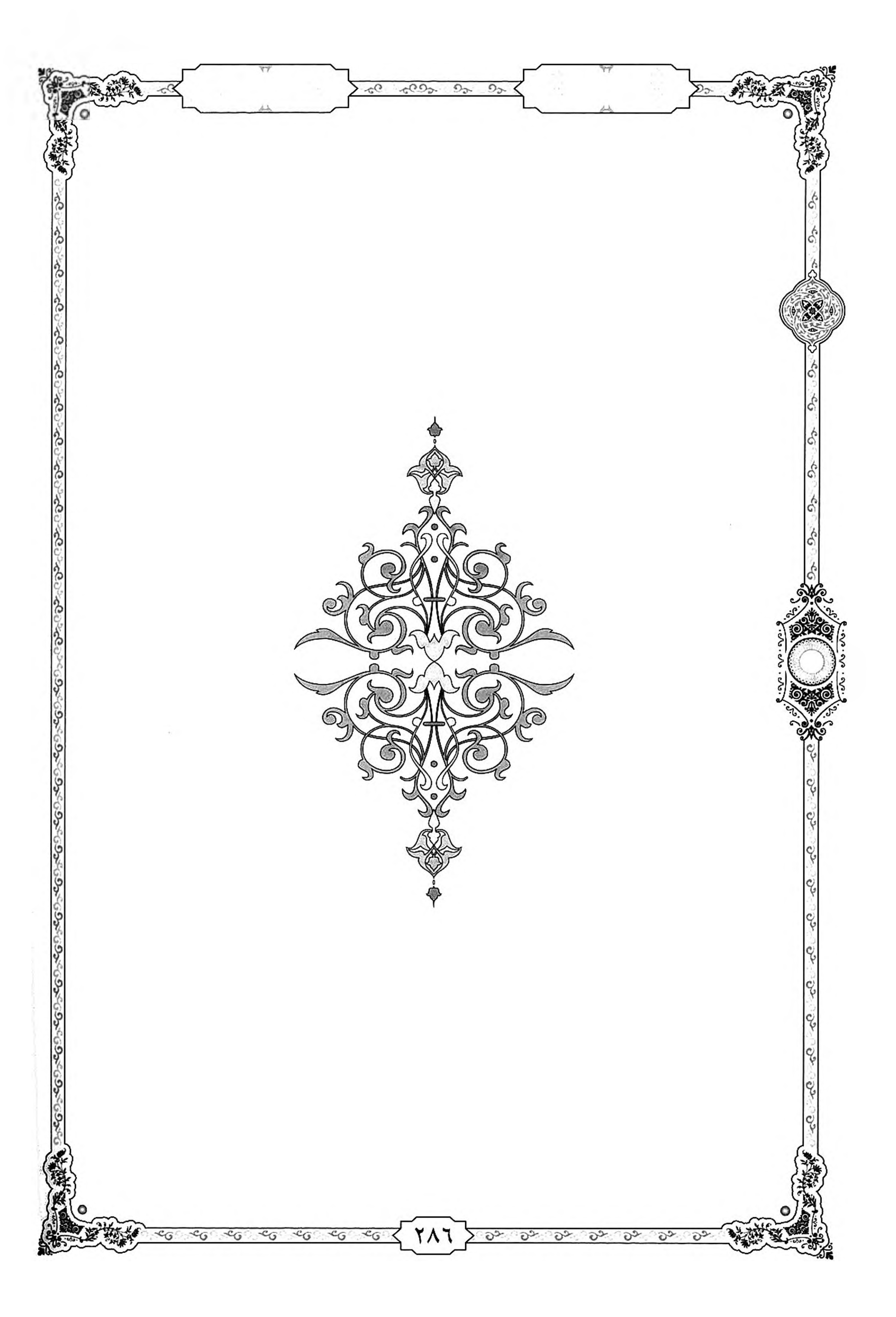
تمّ كتاب رياضة النفس وتهذيب الخلق ومعالجة أمراض القلب
وهو الكتاب الثّاني من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدّين
بحمد الله وعونه ، وصلى الله على نبيّنا محمّدٍ وآله وسلّم تسليماً
يتلوه كتاب كسر الشّهوتين



كتاب كسر الشهوتين

وهو الكتاب الثّالث من ربع المهلكات

من كتب إحياء علوم الدّين



كتاب كسر الشّهوتين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ المنفردِ بالجلالِ في كبريائِهِ وتعاليهِ ، المستحقّ للتحميدِ والتقديسِ والتسبيحِ والتنزيهِ ، القائمِ بالعدْلِ فيما يبرمُهُ ويقضيهِ ، المتطوّلِ بالفضْلِ فيما ينعمُ بِهِ ويسديهِ ، المتكفّلِ بحفْظِ عبدِهِ في جميعِ مواردِهِ ومجاريهِ ، المنعمِ عليهِ بما يزيدُ علىٰ مهمَّاتِ مقاصدِهِ بلْ بما يفي بأمانيهِ ، فهوَ الذي يرشدُهُ ويهديهِ ، وهوَ الذي يميتُهُ ويحييهِ ، وإذا مرضَ . . فهوَ يشفيهِ ، وإذا ضعُفَ . . فهوَ يقوّيهِ ، وهوَ الذي يوفِّقُهُ للطاعةِ ويرتضيهِ ، وهوَ الذي يطعمُهُ ويسقيهِ ، ويحفظُهُ مِنَ الهلاكِ ويحميهِ ، ويحرسُهُ بالطعامِ والشرابِ عمَّا يهلكُهُ ويرديهِ ، ويمكّنُهُ مِنَ القناعةِ بقليلِ القوتِ ويقوّيهِ ، حتَّىٰ تضيّقَ بهِ مجاريَ الشيطانِ الذي يناويهِ [1] ، ويكسرُ بهِ سطوةَ النفسِ التي تعاديهِ ، فيدفعُ شرَّها ثمَّ يعبدُ ربَّهُ ويتَّقيهِ ، هٰذا بعدَ أنْ يوسّعَ عليهِ ما يلتذُّ بهِ ويشتهيهِ ، ويكثِّرَ عليهِ ما يهيّجُ بواعثَهُ ويؤكِّدُ دواعيهِ [2] ، كلُّ ذٰلكَ يمتحنُهُ بهِ ويبتليهِ ، فينظرُ كيفَ يؤثرُهُ علىٰ ما يهواهُ وينتحيهِ ، وكيفَ يحفظُ أوامرَهُ وينتهي عنْ نواهيهِ ، ويواظبُ علىٰ طاعتِهِ وينزجرُ عنْ معاصيهِ .

---

(١) أي : حتىٰ تضيق القناعة بقليل القوت مجاري الشيطان .

(٢) مراعاة للسجعة ، وهي لغة أيضاً ، والأصل : (دواعيَهُ) .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ عبدِهِ النبيهِ ، ورسولِهِ الوجيهِ ، صلاةً تزلفُهُ وتحظيهِ ، وترفعُ منزلتَهُ وتعليهِ ، وعلى الأبرارِ مِنْ عترتِهِ وأقربيهِ ، والأخيارِ مِنْ صحابتِهِ وتابعيهِ .

أمابعـد :

فأعظمُ المهلكاتِ لابنِ آدمَ شهوةُ البطنِ ، فبها أُخرجَ آدمُ وحواءُ مِنْ دارِ القرارِ إلىٰ دارِ الذلِّ والافتقارِ ؛ إذْ نُهيا عنِ الشجرةِ ، فغلبَتْهُما شهواتُهما ، حتَّىٰ أكلا منها فبدَتْ لهما سوءَاتُهما .

والبطنُ على التحقيقِ ينبوعُ الشهواتِ ، ومنبتُ الأدواءِ والآفاتِ ؛ إذْ تتبعُها شهوةُ الفرجِ وشدَّةُ الشبقِ إلى المنكوحاتِ ، ثمَّ يتبعُ شهوةَ الطعامِ والنكاحِ شدَّةُ الرغبةِ في المالِ والجاهِ اللذينِ هما الوسيلةُ إلى التوسُّعِ في المطعوماتِ والمنكوحاتِ ، ثمَّ يتبعُ استكثارَ المالِ والجاهِ أنواعُ الرعوناتِ ، وضروبُ المنافساتِ والمحاسداتِ ، ثمَّ يتولَّدُ بينَهُما آفةُ الرياءِ ، وغائلةُ التفاخرِ والتكاثرِ والكبرياءِ ، ثمَّ يتداعىٰ ذٰلكَ إلى الحسدِ والحقدِ ، والعداوةِ والبغضاءِ ، ثمَّ يفضي ذٰلكَ بصاحبِهِ إلى اقتحامِ البغيِ والمنكرِ والفحشاءِ ، وكلُّ ذٰلكَ ثمرةُ إهمالِ المعدةِ ، وما يتولَّدُ منها مِنْ بطرِ الشبعِ والامتلاءِ .

ولوْ ذلَّلَ العبدُ نفسَهُ بالجوعِ ، وضيَّقَ بهِ مجاريَ الشيطانِ . . لأذعنَتْ لطاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولمْ تسلكْ سبيلَ البطرِ والطغيانِ ، ولمْ ينجرَّ بهِ ذٰلكَ إلى الانهماكِ في الدنيا ، وإيثارِ العاجلةِ على العقبىٰ ، ولمْ يتكالبْ كلَّ هٰذا التكالبِ على الدنيا .

وإذا عظمَتْ آفةُ شهوةِ البطنِ إلىٰ هٰذا الحدِّ . . وجبَ شرحُ غوائلِها وآفاتِها ؛ تحذيراً منها ، ووجبَ إيضاحُ طريقِ المجاهدةِ لها ، والتنبيهُ علىٰ فضلِها ؛ ترغيباً فيها ، وكذٰلكَ شرحُ شهوةِ الفرجِ ؛ فإنَّها تابعةٌ لها .

❁ ❁ ❁

ونحنُ نوضحُ ذٰلكَ بعونِ اللهِ تعالىٰ في فصولٍ ، يجمعُها بيانُ فضيلةِ الجوعِ ، ثمَّ فوائدِ الجوعِ ، ثمَّ طريقِ الرياضةِ في كسْرِ شهوةِ البطنِ بالتقليلِ مِنَ الطعامِ والتأخيرِ ، ثمَّ بيانُ اختلافِ حكمِ الجوعِ وفضيلتِهِ باختلافِ أحوالِ الناسِ ، ثمَّ بيانُ الرياءِ في تركِ الشهوةِ ، ثمَّ القولُ في شهوةِ الفرْجِ ، ثمَّ بيانُ ما على المريدِ في تركِ التزويجِ وفعلِهِ ، ثمَّ بيانُ فضيلةِ مَنْ يخالفُ شهوةَ البطنِ والفرْجِ والعينِ .

❁ ❁ ❁

بيان فضيلة الجوع وذم الشبع

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « جاهدوا أنفسَكُمْ بالجوعِ والعطشِ ؛ فإنَّ الأجرَ في ذٰلكَ كأجرِ المجاهدِ في سبيلِ اللهِ ، وإنَّهُ ليسَ مِنْ عملٍ أحبَّ إلى اللهِ مِنْ جوعٍ وعطشٍ »[1] .

وقالَ ابنُ عباسٍ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يدخلُ ملكوتَ السماءِ مَنْ ملأَ بطنَهُ »[2] .

وقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ الناسِ أفضلُ ؟ قالَ : « مَنْ قلَّ مطعمُهُ وضحكُهُ ، ورضيَ بما يستُرُ بهِ عورتَهُ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سيِّدُ الأعمالِ الجوعُ ، وذلُّ النَّفسِ لباسُ الصوفِ »[4] .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « البسوا وكلوا واشربوا في أنصافِ البطونِ ؛ فإنَّهُ جزءٌ مِنَ النبوَّةِ »[5] .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٣٨٦/٧) . وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١٨١/٥) عن مكحول قال : (أفضل العبادة بعد الفرائض الجوع والظمأ) .

(٢) رواه ابن الأعرابي في « معجمه » (٢٣٥٠) عن الحسن مرسلاً ، وأورده عن ابن عباس مرفوعاً الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٤) .

(٣) كذا أورده عقب الحديث السابق الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٤) .

(٤) أورده عن مكحول مرسلاً الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٤) ، وفيه : « . . . وذل النفس ، ولباس الصوف » .

(٥) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٤) ، وهو عند الديلمي في ←

وقالَ الحسنُ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الفكرُ نصفُ العبادةِ ، وقلَّةُ الطعامِ هيَ العبادةُ »[١] .

وقالَ الحسنُ أيضاً : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُكُمْ عندَ اللهِ منزلةً يومَ القيامةِ أطولُكُمْ جوعاً وتفكُّراً في اللهِ سبحانَهُ ، وأبغضُكُمْ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ كلُّ نؤُومٍ أكولٍ شروبٍ »[٢] .

وفي الخبرِ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يجوعُ مِنْ غيرِ عوزٍ ؛ أيْ : مختاراً لذٰلكَ[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يباهي الملائكةَ بمَنْ قلَّ مطعمُهُ ومشربُهُ في الدنيا ، يقولُ اللهُ تعالى : انظروا إلىٰ عبدي ، ابتليتُهُ بالطعامِ والشرابِ في الدنيا ، فصبرَ وتركَهُما ، اشهدوا

« مسند الفردوس » (٣٣٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، وهو عند صاحب « القوت » (١٦٧/٢) من حديث الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٥) عن الحسن مرسلاً .

(٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٥) عن الحسن مرسلاً .

(٣) ولفظ الخبر عند أبي طالب في « القوت » (٩٧/١) : (وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يجوعون من غير إعواز ؛ أي : مختارين) ، وهو معنىٰ قولها رضي الله عنها كما رواه عنها البيهقي في « الشعب » (٥٢٥٢) : (لو شئنا أن نشبع . . شبعنا ، ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يؤثر علىٰ نفسه) . وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٣٠٠/١) عن ابن سيرين : أن رجلاً قال لابن عمر : أجعل لك جوارش ؟ قال : وأي شيء الجوارش ؟ قال : شيء إذا كظَّك الطعام فأصبت منه . . سهل عليك ، قال : فقال ابن عمر : ما شبعت من الطعام منذ أربعة أشهر ، وما ذاك ألا أكون له واجداً ، ولٰكني عهدت قوماً يشبعون مرة ، ويجوعون أخرىٰ .

يا ملائكتي ؛ ما مِنْ أكلةٍ يدعُها إلا أبدلتُهُ بها درجاتٍ في الجنةِ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تميتوا القلوبَ بكثرةِ الطعامِ والشَّرابِ ؛ فإنَّ القلبَ كالزرعِ يموتُ إذا كثرَ عليهِ الماءُ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما ملأَ آدميٌّ وعاءً شرّاً مِنْ بطنِهِ ، حسبُ ابنِ آدمَ لقيماتٌ يقمْنَ صلبَهُ ، فإنْ كانَ لا بدَّ فاعلاً . . فثلثٌ لطعامِهِ ، وثلثٌ لشرابِهِ ، وثلثٌ لنَفَسِهِ »[٣] .

وفي حديثِ أسامةَ بنِ زيدٍ وحديثِ أبي هريرةَ الطويلِ ذكرُ فضيلةِ الجوعِ ، إذْ قالَ فيهِ : « إنَّ أقربَ النَّاسِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ مَنْ طالَ جوعُهُ وعطشُهُ وحزنُهُ في الدنيا ، الأحفياءُ الأتقياءُ ، الذينَ إنْ شَهدوا . . لمْ يُعرفوا ، وإنْ غابوا . . لمْ يُفتقدوا ، تعرفُهُمْ بقاعُ الأرضِ ، وتحفُّ بهِمْ ملائكةُ السماءِ ، نعمَ الناسُ بالدنيا ، ونَعموا بطاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، افترشَ الناسُ الفُرُشَ الوثيرةَ ، وافترشوا الجباهَ والرُّكَبَ ، ضيَّعَ الناسُ فعلَ النَّبيِّينَ وأخلاقَهُمْ ، وحفظُوها هُمْ ، تبكي الأرضُ إذا فقدَتْهُمْ ، ويسخطُ اللهُ تعالىٰ علىٰ كلِّ بلدةٍ ليسَ فيها منهُمْ أحدٌ ، لمْ يتكالبوا على الدنيا تكالبَ الكلابِ على الجيفِ ، أكلوا الفِلَقَ ولبسوا الخِرَقَ ، شعثاً غبراً ، يراهُمُ الناسُ فيظنونَ أنَّ بهِمْ داءً وما بهِمْ داءٌ ، ويُقالُ : قدْ خُولطوا وذهبَتْ عقولُهُمْ وما ذهبَتْ عقولُهُمْ ،

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » . « إتحاف » (٣٨٧/٧) .

(٢) قال الحافظ العراقي : (لم أقف له علىٰ أصل) . « إتحاف » (٣٨٧/٧) .

(٣) رواه الترمذي (٢٣٨٠) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٦٧٣٧) ، وابن ماجه (٣٣٤٩) .

ولٰكنْ نظرَ القومُ بقلوبِهِمْ إلىٰ أمرِ اللهِ الذي أذهبَ عنهُمُ الدنيا ، فهُمْ عندَ أهلِ الدنيا يمشونَ بلا عقولٍ ، عَقلوا حينَ ذهبَتْ عقولُ الناسِ ، لهُمُ الشرفُ في الآخرةِ .

يا أسامةُ ؛ إذا رأيتهُمْ في بلدةٍ . . فاعلمْ أنَّهُمْ أمانٌ لأهلِ تلكَ البلدةِ ، ولا يعذِّبُ اللهُ تعالىٰ قوماً هُمْ فيهِمْ ، الأرضُ بهِمْ فرحةٌ ، والجبَّارُ عنهُمْ راضٍ ، اتخذْهُمْ لنفسِكَ إخواناً ؛ عسىٰ أنْ تنجوَ بهِمْ ، وإنِ استطعتَ أنْ يأتيَكَ الموتُ وبطنُكَ جائعٌ وكبدُكَ ظمآنُ . . فافعلْ ؛ فإنَّكَ تدركُ بذٰلكَ شرفَ المنازلِ ، وتحلُّ معَ النبيّينَ ، وتفرحُ بقدومِ روحِكَ الملائكةُ ، ويصلِّي عليكَ الجبَّارُ »(١) .

وروى الحسنُ عنْ أبي هريرةَ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « البسوا الصوفَ ، وشمِّروا ، وكلوا في أنصافِ البطونِ . . تدخلوا في ملكوتِ السماءِ »(٢) .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/١٦٥) ، وفيه قال : (وروينا في حديث أسامة بن زيد وأبي يزيد الطويل ، اختصرته . . .) وذكر ما نقله المصنف عنه هنا ، والحديث رواه الحارث بن أبي أسامة في « مسنده » (٣٤٧) ، والخطيب في « الزهد » (٩٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٨/٧٥) من طريق الخطيب البغدادي ، وقال في آخره : (ورويت هٰذه الوصية عن محمد بن علي مرسلة ، وعن ابن عباس من وجه أعلىٰ من هٰذا) . **والفلق** : جمع فلقة ، وهي كسرة الخبز ، وفي (ب) : (العلق) بدل (الفلق) ، وعليه مشى الحافظ الزبيدي (٧/٣٨٨) ، وهو جمع عُلْقة ؛ ما يتبلَّغ به من العيش ، وكلا المعنيين مناسب .

(٢) كذا في « القوت » (٢/١٦٧) ، والحديث عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٣٨) .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يا معشرَ الحواريينَ ؛ أجيعوا أكبادَكُمْ ، وأعروا أجسادَكُمْ ؛ لعلَّ قلوبَكُمْ ترى اللهَ عزَّ وجلَّ)[1] .

ورُوِيَ ذٰلكَ أيضاً عنْ نبيِّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، رواهُ طاووسٌ[2] .

وقيلَ : (مكتوبٌ في التوراةِ : إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ليَبغضُ الحبْرَ السمينَ)[3] ؛ لأنَّ السمنَ يدلُّ على الغفلةِ وكثرةِ الأكلِ ، وذٰلكَ قبيحٌ ، خصوصاً بالحبْرِ .

ولأجلِهِ قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ يبغضُ القارئَ السمينَ مِنَ الشبعِ)[4] .

وفي خبرٍ مرسلٍ : « إنَّ الشيطانَ ليجري مِنِ ابنِ آدمَ مجرى الدّمِ ، فضيِّقوا مجاريَهُ بالجوعِ والعطشِ »[5] .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/١٦٧) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٧٠) عن مالك بن دينار بلاغاً .

(٢) إذ قال صاحب « القوت » (٢/١٦٧) : (وقد رواه عبد الرحمٰن بن يحيى الأسود عن طاووس ، رفعه إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، وكذا أورده مرفوعاً الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦١) .

(٣) روى ابن جرير الطبري في « تفسيره » (٥/٧/٣٣٣) عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل من اليهود يقال له : مالك بن الصيف يخاصم النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أنشدك بالذي أنزل التوراة علىٰ موسىٰ ؛ أما تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين ؟ » وكان حبراً سميناً ، فغضب فقال : والله ؛ ما أنزل الله علىٰ بشر من شيء . . . الخبر .

(٤) قوت القلوب (٢/١٦٨) .

(٥) قوت القلوب (٢/١٦٨) ، وهو من مرسلات الحسن كما هو عند الخركوشي في ◄

وفي الخبرِ : (إنَّ الأكلَ على الشبعِ يورثُ البرصَ)[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ يأكلُ في مِعىً واحدٍ ، والمنافقُ يأكلُ في سبعةِ أمعاءٍ »[٢] ، أيْ : يأكلُ سبعةَ أضعافِ ما يأكلُ المؤمنُ ، أوْ تكونُ شهوتُهُ سبعةَ أضعافِ شهوتِهِ ، وذكرُ المعاءِ كنايةٌ عنِ الشهوةِ ؛ لأنَّ الشهوةَ هيَ التي تقبلُ الطعامَ وتأخذُهُ كما يأخذُهُ المِعَىٰ ، وليسَ المعنىٰ زيادةَ عددِ مِعَى المنافقِ علىٰ مِعَى المؤمنِ .

وروى الحسنُ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « أديموا قرْعَ بابِ الجنَّةِ . . يُفتحْ لكُمْ » ، قلتُ : وكيفَ نديمُ قرْعَ بابِ الجنةِ ؟ قالَ : « بالجوعِ والظمأ »[٣] .

ورُوِيَ أنَّ أبا جُحَيْفَةَ تجشَّأَ في مجلسِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ لهُ : « أقصرْ مِنْ جُشائِكَ ؛ فإنَّ أطولَ الناسِ جوعاً يومَ القيامةِ أكثرُهُمْ شبعاً في الدنيا »[٤] .

← « تهذيب الأسرار » (ص٢٦٣) والشطر الأول منه رواه البخاري (٢٠٣٨) ، ومسلم (٢١٧٤) مرفوعاً .

(١) قوت القلوب (٢/١٦٨) ، وكل من المصنف وأبي طالب رحمهما الله تعالىٰ لم يرفعه .

(٢) رواه البخاري (٥٣٩٣) ، ومسلم (٢٠٦٠) .

(٣) قوت القلوب (٢/١٧١) .

(٤) رواه الترمذي (٢٤٧٨) ، وابن ماجه (٣٣٥٠) عن ابن عمر يذكر رجلاً ، ورواه عن ←

وكانَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها تقولُ : إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يمتلئْ قطُّ شبعاً ، وربَّما بكيتُ رحمةً لهُ ممَّا أرىٰ بهِ مِنَ الجوعِ ، فأمسحُ بطنَهُ بيدي ، وأقولُ : نفسي لكَ الفداءُ ، لوْ تبلَّغْتَ مِنَ الدنيا بقدْرِ ما يقوتُكَ ويمنعُكَ مِنَ الجوعِ ؟ فيقولُ : « يا عائشةُ ؛ إخواني مِنْ أولي العزْمِ مِنَ الرسلِ قدْ صبروا علىٰ ما هوَ أشدُّ مِنْ هٰذا ، فمضوا علىٰ حالِهِمْ ، فقدموا علىٰ ربِّهِمْ ، فأكرمَ مآبَهُمْ ، وأجزلَ ثوابَهُمْ ، فأجدُني أستحيي إنْ ترفَّهْتُ في معيشتي أنْ يقصُرَ بِي غداً دونَهُمْ ، فالصبرُ أياماً يسيرةً أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ ينقصَ حظِّي غداً في الآخرةِ ، وما مِنْ شيءٍ أحبَّ إليَّ مِنَ اللحوقِ بأصحابي وإخواني » ، قالَتْ عائشةُ : فواللهِ ؛ ما استكملَ بعدَ ذٰلكَ جمعةً حتَّىٰ قبضَهُ اللهُ إليهِ [1] .

وعنْ أنسٍ قالَ : جاءَتْ فاطمةُ رضوانُ اللهِ عليها بكسرةِ خبزٍ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « ما هٰذهِ الكسرةُ ؟ » قالَتْ :

← أبي جحيفة الخركوشيُّ في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٥٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٢٥٤) .

(١) كذا أورده القاضي عياض في « الشفا » (ص ١٨٧) بنحوه ، وقد روى ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٨٥٨٣) ، وأبو الشيخ في « أخلاق النبي وآدابه » (٨٠٦) عنها قالت : ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم صائماً ثم طواه ، ثم ظل صائماً ثم طواه ، ثم ظل صائماً ، قال : « يا عائشة ؛ إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة ؛ إن الله لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر علىٰ مكروهها ، والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ما كلفهم ، فقال : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] ، وإني والله لأصبرن كما صبروا جهدي ، ولا قوة إلا بالله » .

قرصُ خبزتُهُ ، ولمْ تطبْ نفسي حتَّىٰ أتيتُكَ منهُ بهٰذهِ الكسرةِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أما إنَّهُ أوَّلُ طعامٍ دخلَ فمَ أبيكِ منذُ ثلاثةِ أيامٍ »[1] .

وقالَ أبو هريرةَ : (ما أشبعَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أهلَهُ ثلاثةَ أيامٍ تباعاً مِنْ خبزِ الحنطةِ حتَّىٰ فارقَ الدنيا)[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أهلَ الجوعِ في الدنيا هُمْ أهلُ الشبعِ في الآخرةِ ، وإنَّ أبغضَ الناسِ إلى اللهِ المتخمونَ الملأىٰ ، وما تركَ عبدٌ أكلةً يشتهيها إلا كانَتْ لهُ درجةً في الجنةِ »[3] .

❀ ❀ ❀

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إيَّاكُمْ والبطنةَ ؛ فإنَّها ثقلٌ في الحياةِ نتنٌ في المماتِ)[4] .

---

(١) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١/٣٤٤) ، وأحمد في « المسند » (٣/٢١٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩٤٥) .
(٢) رواه مسلم (٢٩٧٦) .
(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٤) عن عكرمة مرسلاً ، وهو إلىٰ قوله : (في الآخرة) قد رواه الطبراني في « الكبير » (١١/٢٦٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٣٤٥) عن عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الجوع » (٨١) بلفظ : (أيها الناس ؛ إياكم والبطنة من الطعام ؛ فإنها مكسلة عن الصلاة ، مفسدة للجسد ، مورثة للسقم ، وإن الله تبارك وتعالىٰ يبغض الحبر السمين . . .) .

وقالَ شقيقٌ البلخيُّ : (العبادةُ حرفةٌ ، حانوتُها الخلوةُ ، وآلتُها المجاعةُ)[1] .

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ إذا امتلأَتِ المعدةُ . . نامَتِ الفكرةُ ، وخرسَتِ الحكمةُ ، وقعدَتِ الأعضاءُ عنِ العبادةِ)[2] .

وكانَ الفضيلُ بنُ عياضٍ يقولُ لنفسِهِ : (أيَّ شيءٍ تخافينَ ؟ أتخافينَ أنْ تجوعي ؟ لا تخافي ذٰلكِ ، أنتِ أهونُ على اللهِ مِنْ ذٰلكِ ، إنَّما يجوعُ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابُهُ) .

وكانَ كَهْمَسُ يقولُ : (إلٰهي ؛ أجعتَني وأعريتَني ، وفي ظلمِ الليالي بلا مصباحٍ أجلستَني ، فبأيِّ وسيلةٍ بلَّغتَني ما بلَّغتَني ؟!)[3] .

وكانَ فتحٌ الموصليُّ إذا اشتدَّ مرضُهُ وجوعُهُ . . يقولُ : (إلٰهي ؛ ابتليتَني بالمرضِ والجوعِ ، وكذٰلكَ تفعلُ بأوليائِكَ ، فبأيِّ عملٍ أؤدِّي شكرَ ما أنعمتَ بهِ عليَّ ؟!)[4] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : قلتُ لمحمدِ بنِ واسعٍ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ طوبىٰ لمَنْ كانَتْ لهُ غُلَيْلَةٌ تقوتُهُ وتغنيهِ عنِ الناسِ ، فقالَ لي :

---

(١) رواه الأزدي في « طبقات الصوفية » (ص ٩٩) .

(٢) أورده التوحيدي في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٤٨٨) ، والقاضي عياض في « الشفا » (ص ١٣٠) .

(٣) نسبه الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣٩٢/٧) لصاحب « القوت » .

(٤) نسبه الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣٩٢/٧) لصاحب « القوت » .

يا أبا يحيىٰ ؛ طوبىٰ لمَنْ أمسىٰ وأصبحَ جائعاً وهوَ عنِ اللهِ راضٍ [١] .

وكانَ الفضيلُ بنُ عياضٍ يقولُ : (إلٰهي ؛ أجعتَني وأجعتَ عيالي ، وتركتَني في ظلمِ الليلِ بلا مصباحٍ ، وإنَّما تفعلُ هٰذا بأوليائِكَ ، فبأيِّ منزلةٍ نلتُ هٰذا منكَ ؟!) [٢] .

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (جوعُ الراغبينَ منبهةٌ ، وجوعُ التائبينَ تجربةٌ ، وجوعُ المجتهدينَ كرامةٌ ، وجوعُ الصابرينَ سياسةٌ ، وجوعُ الزاهدينَ حكمةٌ) [٣] .

وفي التوراةِ : (اتقِ اللهَ ، وإذا شبعتَ . . فاذكرِ الجياعَ) .

وقالَ أبو سليمانَ : (لأنْ أتركَ لقمةً مِنْ عشائي أحبُّ إليَّ مِنْ قيامِ ليلةٍ إلى الصبحِ) [٤] .

وقالَ أيضاً : (الجوعُ عندَ اللهِ في خزائنِهِ ، لا يعطيهِ إلا لمَنْ أحبَّهُ) [٥] .

---

(١) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٥٥/٥٦) ، وأورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٦) بنحوه .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٩٤) ، وأورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٣) .

(٣) أورده الطوسي في « اللمع » (ص ٢٦٩) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٢٥٩) عنه بنحوه .

(٤) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٩٢٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢٩/٣٤) .

(٥) هو عند الطوسي في « اللمع » (ص ٢٦٩) ، وقد رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٧٨/٩) .

وكانَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التستريُّ يطوي نيفاً وعشرينَ يوماً لا يأكلُ ، وكانَ يكفيهِ لطعامِهِ في السنةِ درهمٌ ، وكانَ يعظِّمُ الجوعَ ويبالغُ فيهِ ، حتَّىٰ قالَ : (لا يوافي القيامةَ عملُ برٍّ أفضلُ مِنْ تركِ فضولِ الطعامِ ، والاقتداءِ بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في أكلِهِ)[1] .

وقالَ : (لمْ يرَ الأكياسُ شيئاً أنفعَ مِنَ الجوعِ للدنيا والدينِ) .

وقالَ : (لا أعلمُ شيئاً أضرَّ علىٰ طلابِ الآخرةِ مِنَ الأكلِ) .

وقالَ : (وُضعَتِ الحكمةُ والعلمُ في الجوعِ ، ووُضعَتِ المعصيةُ والجهلُ في الشبعِ)[2] .

وقالَ : (ما عُبِدَ اللهُ بشيءٍ أفضلَ مِنْ مخالفةِ الهوىٰ في تركِ الحلالِ ، وقد جاءَ في الحديثِ : « ثلثٌ للطعامِ » ، فمَنْ زادَ عليهِ . . فإنَّما يأكلُ مِنْ حسناتِهِ) .

وسُئِلَ عنِ الزيادةِ ، فقالَ : (لا يجدُ الزيادةَ حتَّىٰ يكونَ التركُ أحبَّ إليهِ مِنَ الأكلِ ، ويكونَ إذا جاعَ ليلةً . . سألَ اللهَ أنْ يجعلَها ليلتينِ ، فإذا كانَ ذٰلكَ . . وجدَ الزيادةَ) .

وقالَ : (ما صارَ الأبدالُ أبدالاً إلا بإخماصِ البطونِ ، والصمتِ والسهرِ والخلوةِ)[3] .

---

(١) هو ضمن خبر أورده القشيري في « رسالته » (ص ٦٥) .
(٢) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٥٩) .
(٣) قوت القلوب (١/٩٥) .

وقالَ : (رأسُ كلِّ برٍّ مُنزلٍ مِنَ السماءِ إلى الأرضِ الجوعُ ، ورأسُ كلِّ فجورٍ بينَهُما الشبعُ)[1] .

وقالَ : (مَنْ جوَّعَ نفسَهُ . . انقطعَتْ عنهُ الوساوسُ)[2] .

وقالَ : (إقبالُ اللهِ عزَّ وجلَّ على العبدِ بالجوعِ والسقمِ والبلاءِ إلا مَنْ شاءَ اللهُ)[3] .

وقالَ : (اعلموا أنَّ هٰذا زمانٌ لا ينالُ أحدٌ فيهِ النجاةَ إلا بذبحِ نفسِهِ وقتلِها بالجوعِ والصبرِ والجهدِ)[4] .

وقالَ : (ما مرَّ علىٰ وجهِ الأرضِ أحدٌ شربَ مِنْ هٰذا الماءِ حتَّىٰ رويَ فسلمَ مِنَ المعصيةِ وإنْ شكرَ اللهَ تعالىٰ ، فكيفَ الشبعُ مِنَ الطعامِ ؟!) .

وسُئلَ حكيمٌ : بأيِّ قيدٍ أقيِّدُ نفسي ؟ قالَ : (قيِّدْها بالجوعِ والعطشِ ، وذلِّلْها بإخمالِ الذكرِ وتركِ العزِّ ، وصغِّرْها بوضعِها تحتَ أرجلِ أبناءِ الآخرةِ ، واكسرْها بترْكِ زيِّ القرَّاءِ عنْ ظاهرِها ، وانجُ مِنْ آفاتِها بدوامِ سوءِ الظنِّ بها ، واصحبْها بخِلافِ هواها) .

---

(١) رواه بعضه ابن أبي الدنيا في « الجوع » (٩٣) عن يوسف بن أسباط ، وبعضه عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٢) عن سهل رحمه الله تعالىٰ .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٧) بلفظ : (من جوع نفسه . . لم يقربه الشيطان بإذن الله عز وجل) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٦) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٢٠١) .

وكانَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ يقسمُ باللهِ تعالىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ ما صافىٰ أحداً إلا بالجوعِ ، ولا مشوا على الماءِ إلا بالجوعِ ، ولا طُويَتْ لهُمُ الأرضُ إلا بالجوعِ ، ولا والاهُمُ اللهُ تعالىٰ إلا بالجوعِ (١) .

وقالَ أبو طالبٍ المكيُّ : (مثلُ البطْنِ مثلُ المِزهرِ ، وهوَ العودُ المجوَّفُ ذو الأوتارِ ، إنَّما حسنَ صوتُهُ لخفَّتِهِ ورقَّتِهِ ، ولأنَّهُ أجوفُ غيرُ ممتلئٍ ، وكذٰلكَ الجوفُ إذا خلا . . كانَ أعذبَ للتلاوةِ ، وأدومَ للقيامِ ، وأقلَّ للمنامِ) (٢) .

وقالَ بكرُ بنُ عبدِ اللهِ المزنيُّ : (ثلاثةٌ يحبُّهُمُ اللهُ تعالىٰ : رجلٌ قليلُ الأكلِ ، قليلُ النومِ ، قليلُ الراحةِ) (٣) .

ورُوِيَ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ مكثَ يناجي ربَّهُ ستينَ صباحاً لمْ يأكلْ ، فخطرَ ببالِهِ الخبزُ ، فانقطعَ عنِ المناجاةِ ، فإذا رغيفٌ موضوعٌ بينَ يديهِ ، فجلسَ يبكي لفقدِ المناجاةِ ، وإذا شيخٌ قدْ أظلَّهُ ، فقالَ لهُ عيسىٰ : باركَ اللهُ فيكَ يا وليَّ اللهِ ؛ ادعُ اللهَ تعالىٰ لي ، فإنِّي كنتُ في حالةٍ ، فخطرَ ببالي الخبزُ ، فانقطعَتْ عنِّي ، فقالَ الشيخُ : اللهمَّ ؛ إنْ كنتَ تعلمُ أنَّ الخبزَ خطرَ ببالي منذُ عرفتُكَ . . فلا تغفرْ لي ، بلْ كانَ إذا حضرَ لي شيءٌ . . أكلتُهُ مِنْ غيرِ فكرٍ وخاطرٍ (٤) .

---

(١) رواه أبو طالب في « القوت » (٢/١٧١) .
(٢) قوت القلوب (٢/١٧٤) بنحوه .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٤) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٧) .

ورُوِيَ أنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ لمَّا قرَّبَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ نجيّاً . . كانَ قدْ تركَ الأكلَ أربعينَ يوماً ، ثلاثينَ ثمَّ عشراً علىٰ ما وردَ بهِ القرآنُ ؛ لأنهُ أمسكَ بغيرِ تبييتٍ يوماً ، فزيدَ عشرةٌ لأجلِ ذٰلكَ [1] .

❋ ❋ ❋

(1) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٧) ، وصومه عليه الصلاة والسلام الأربعين وسر ذٰلك مبثوث بكتب التفسير ، وانظر « عوارف المعارف » (١/٣٥٦) ، وفيه قال العلامة السهروردي : (ولم يكن صوم موسىٰ عليه السلام ترك الطعام بالنهار وأكله بالليل ، بل طوى الأربعين من غير أكل ، فدل علىٰ أن خلو المعدة من الطعام أصل كبير في الباب ، حتى احتاج موسىٰ إلىٰ ذٰلك مستعداً به لمكالمة الله تعالىٰ) .

بيان فوائد الجوع وآفات الشبع

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « جاهدُوا أنفسَكُمْ بالجوعِ والعطشِ ؛ فإنَّ الأجرَ في ذٰلكَ »[1] .

ولعلَّكَ تقولُ : هٰذا الفضلُ العظيمُ للجوعِ مِنْ أينَ هوَ ؟ وما سببُهُ وليسَ فيهِ إلا إيلامُ المعدةِ ومقاساةُ الأذىٰ ؟ فإنْ كانَ كذٰلكَ . . فينبغي أنْ يعظمَ الأجرُ في كلِّ ما يتأذَّىٰ بهِ الإنسانُ ؛ مِنْ ضربِهِ لنفسِهِ ، وقطعِهِ للحمِهِ ، وتناولِهِ الأشياءَ المكروهةَ ، وما يجري مجراهُ .

فاعلمْ : أنَّ هٰذا يضاهي قولَ مَنْ شربَ دواءً فانتفعَ بهِ فظنَّ أنَّ منفعتَهُ لمرارةِ الدواءِ وكراهيتِهِ ، فأخذَ يتناولُ كلَّ ما هوَ مكروهٌ مِنَ المذاقِ ، وهوَ غلطٌ ، بلْ نفعُهُ في خاصِّيَّةٍ مِنَ الدواءِ ، وليسَ لكونِهِ مرّاً ، وإنَّما يقفُ علىٰ تلكَ الخاصِّيَّةِ الأطباءُ ، فكذٰلكَ لا يقفُ علىٰ علَّةِ نفعِ الجوعِ إلا سماسرةُ العلماءِ .

ومَنْ جوَّعَ نفسَهُ مصدِّقاً لما جاءَ في الشرعِ مِنْ مدحِ الجوعِ . . انتفعَ بهِ وإنْ لمْ يعرفْ علَّةَ المنفعةِ ؛ كما أنَّ مَنْ شربَ الدواءَ . . انتفعَ وإنْ لمْ يعلمْ وجهَ كونِهِ نافعاً ، ولٰكنَّا نشرحُ لكَ ذٰلكَ إنْ أردتَ أنْ ترتقيَ مِنْ درجةِ الإيمانِ إلىٰ درجةِ العلمِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ :

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٣٨٦/٧) . وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١٨١/٥) عن مكحول : (أفضل العبادة بعد الفرائض الجوع والظمأ) .

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾[1] .

❋ ❋ ❋

فنقولُ : في الجوعِ عشرُ فوائدَ :

الفائدةُ الأولىٰ : صفاءُ القلبِ ، وإيقادُ القريحةِ ، وإنفاذُ البصيرةِ :

فإنَّ الشبعَ يورثُ البلادةَ ، ويعمي القلبَ ، ويكثرُ البخارَ في الدماغِ شبهَ السكْرِ ، حتَّىٰ يحتوي علىٰ معادنِ الفكرِ ، فيثقلُ القلبُ بسببِهِ عنِ الجريانِ في الأفكارِ ، وعنْ سرعةِ الإدراكِ ، بلِ الصبيُّ إذا أكثرَ الأكلَ . . بطلَ حفظُهُ ، وفسدَ ذهنُهُ ، وصارَ بطيءَ الفهمِ والإدراكِ .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (عليكَ بالجوعِ ؛ فإنَّهُ مذلَّةٌ للنفسِ ، ورقَّةٌ للقلبِ ، وهوَ يورثُ العلمَ السماويَّ)[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحيوا قلوبَكُمْ بقلَّةِ الضحكِ وقلَّةِ الشبعِ ، وطهِّروها بالجوعِ ؛ تصفو وترقُّ »[3] .

ويُقالُ : (مثلُ الجوعِ مثلُ الرعدِ ، والقناعةُ كالسحابِ ، والحكمةُ كالمطرِ)[4] .

---

(١) سورة المجادلة : (١١) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٠) .

(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٢) دون قوله : (وقلة الشبع) ، أما بشأن الضحك . . فقد روى الترمذي (٢٣٠٥) ، وابن ماجه (٤١٩٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « لا تكثروا الضحك ؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب » .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٢) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أجاعَ بطنَهُ .. عظمَتْ فكرتُهُ ، وفطنَ قلبُهُ »(١) .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ شبعَ ونامَ .. قسا قلبُهُ » ، ثمَّ قالَ : « لكلِّ شيءٍ زكاةٌ ، وزكاةُ البدنِ الجوعُ »(٢) .

وقالَ الشبليُّ : (ما جعتُ للهِ يوماً إلا رأيتُ في قلبي باباً مفتوحاً مِنَ الحكمةِ والعبرةِ ما رأيتُهُ قطُّ)(٣) .

وليسَ يخفىٰ أنَّ غايةَ المقصودِ مِنَ العباداتِ الفكرُ الموصلُ إلى المعرفةِ والاستبصارِ بحقائقِ الحقِّ ، والشبعُ يمنعُ منهُ ، والجوعُ يفتحُ بابَهُ ، والمعرفةُ بابٌ مِنْ أبوابِ الجنةِ ، فبالحريِّ أنْ تكونَ ملازمةُ الجوعِ قرعاً لبابِ الجنةِ .

ولهٰذا قالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ إذا امتلأَتِ المعدةُ .. نامَتِ الفكرةُ ، وخرسَتِ الحكمةُ ، وقعدَتِ الأعضاءُ عنِ العبادةِ)(٤) .

وقالَ أبو يزيدَ البسطاميُّ : (الجوعُ سحابٌ ، فإذا جاعَ العبدُ .. أُمطِرَ القلبُ الحكمةَ)(٥) .

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٤) .
(٢) كذا أورده عن ابن عباس مرفوعاً الخركوشيُّ في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٥) ، وقد روى ابن ماجه (١٧٤٥) عن أبي هريرة مرفوعاً : « لكل شيء زكاة ، وزكاة الجسد الصوم » .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٦) .
(٤) أورده أبو حيان التوحيدي في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٤٨٨) .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٣٩) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نورُ الحكمةِ الجوعُ ، والتَّباعدُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ الشبعُ ، والقربةُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ حبُّ المساكينِ والدنوُّ منهُمْ ، لا تشبعوا فينطفئَ نورُ الحكمةِ مِنْ قلوبِكُمْ ، ومَنْ باتَ في خفَّةٍ مِنَ الطعامِ . . باتَ الحورُ حولَهُ حتَّىٰ يصبحَ »[١] .

❁ ❁ ❁

الفائدةُ الثانيةُ : رقَّةُ القلبِ وصفاؤُهُ الذي بهِ يتهيَّأُ لإدراكِ لذَّةِ المناجاةِ والتأثُّرِ بالذكرِ :

فكمْ مِنْ ذكرٍ يجري على اللسانِ معَ حضورِ القلبِ ولٰكنَّ القلبَ لا يلتذُّ بهِ ولا يتأثَّرُ[٢] ، حتَّىٰ كأنَّ بينَهُ وبينَهُ حجاباً مِنْ قساوةِ القلبِ ، وقدْ يرقُّ في بعضِ الأحوالِ فيعظمُ تأثُّرُهُ بالذكرِ ، وتلذذُّهُ بالمناجاةِ ، وخلوُّ المعدةِ هوَ السببُ الأظهرُ فيهِ .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (أحلىٰ ما تكونُ إليَّ العبادةُ إذا التصقَ ظهري ببطني)[٣] .

وقالَ الجنيدُ : (يجعلُ أحدُهُمْ بينَهُ وبينَ صدرِهِ مخلاةً مِنَ الطعامِ ويريدُ أنْ يجدَ حلاوةَ المناجاةِ !!)[٤] .

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٩/٤٤٧) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٦٧٣٠) من حديث أبي هريرة مرفوعاً .

(٢) لفوات موجب الاستعداد الذي هو الرقة والصفاء الحاصلان من الجوع . « إتحاف » (٧/٣٩٥) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/٢٧٣) .

(٤) قوت القلوب (٢/١٧٣) .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (إذا جاعَ القلبُ وعطشَ . . صفا ورقَّ ، وإذا شبعَ . . عميَ وبارَ)[١] .

فإذاً ؛ تأثُّرُ القلبِ بلذَّةِ المناجاةِ أمرٌ وراءَ تيسيرِ الفكرِ واقتناصِ المعرفةِ ، فهيَ فائدةٌ ثانيةٌ .

❊ ❊ ❊

الفائدةُ الثالثةُ : الانكسارُ والذلُّ ، وزوالُ البطَرِ والفرحِ والأشَرِ الذي هوَ مبدأُ الطغيانِ والغفلةِ عنِ اللهِ تعالىٰ :

فلا تنكسرُ النفسُ ولا تذلُّ بشيءٍ كما تذلُّ بالجوعِ ، فعندَهُ تسكنُ لربِّها ، وتخشعُ لهُ ، وتقفُ علىٰ عجزِها وذلِّها ؛ إذْ ضعفَتْ مُنَّتُها وضاقَتْ حيلتُها بلقمةِ طعامٍ فاتَتْها[٢] ، وأظلمَتْ عليها الدنيا لشربةِ ماءٍ تأخَّرَتْ عنها ، وما لمْ يشاهدِ الإنسانُ ذلَّ نفسِهِ وعجزَهُ . . لا يرىٰ عزَّةَ مولاهُ ولا قهرَهُ ، وإنَّما سعادتُهُ في أنْ يكونَ دائماً مشاهداً نفسَهُ بعينِ الذلِّ والعجزِ ، ومولاهُ بعينِ العزِّ والقدرةِ والقهْرِ .

فليكنْ دائماً جائعاً ، مضطراً إلىٰ مولاهُ ، مشاهداً للاضطرارِ بالذوقِ .

ولأجلِ ذٰلكَ لمَّا عُرضَتِ الدنيا وخزائنُها على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . قالَ : « لا ، بلْ أجوعُ يوماً وأشبعُ يوماً ، فإذا جعتُ . . صبرتُ وتضرَّعتُ ، وإذا شبعتُ . . شكرتُ » ، أوْ كما قالَ[٣] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/٢٦٦) .
(٢) المُنَّةُ : القوّة .
(٣) رواه الترمذي (٢٣٤٧) .

فالبطنُ والفرْجُ بابٌ مِنْ أبوابِ النارِ ، وأصلُهُ الشبعُ ، والذلُّ والانكسارُ بابٌ مِنْ أبوابِ الجنةِ ، وأصلُهُ الجوعُ ، ومَنْ أغلقَ باباً مِنْ أبوابِ النارِ . . فقدْ فتحَ باباً مِنْ أبوابِ الجنةِ بالضرورةِ ؛ لأنَّهُما متقابلانِ ؛ كالمشرقِ والمغربِ ، فالقربُ مِنْ أحدِهِما بُعْدٌ مِنَ الآخرِ .

❁ ❁ ❁

الفائدةُ الرابعةُ : ألا ينسىٰ بلاءَ اللهِ وعذابَهُ ، ولا ينسىٰ أهلَ البلاءِ :

فإنَّ الشبعانَ ينسى الجائعَ ، وينسى الجوعَ ، والعبدُ الفطِنُ لا يشاهدُ بلاءً مِنْ غيرِهِ إلا ويتذكَّرُ بلاءَ الآخرةِ ، فيذكرُ مِنْ عطشِهِ عطشَ الخلْقِ في عرصاتِ القيامةِ ، ومِنْ جوعِهِ جوعَ أهلِ النارِ ، حتَّىٰ إنَّهُمْ ليجوعونَ فيُطعمونَ الزقُّومَ والضريعَ ، ويُسقونَ الغسَّاقَ والمُهْلَ .

فلا ينبغي أنْ يغيبَ عنِ العبدِ عذابُ الآخرةِ وآلامُها ، فإنَّهُ الذي يهيّجُ الخوفَ ، فمَنْ لمْ يكنْ في ذلَّةٍ ولا قلةٍ ولا علَّةٍ ولا بلاءٍ . . نسيَ عذابَ الآخرةِ ، ولمْ يتمثَّلْ في نفسِهِ ، ولمْ يغلبْ علىٰ قلبِهِ .

فينبغي أنْ يكونَ العبدُ في مقاساةِ بلاءٍ أوْ مشاهدةِ بلاءٍ ، وأولىٰ ما يقاسيهِ مِنَ البلاءِ الجوعُ ؛ فإنَّ فيهِ فوائدَ جمَّةً سوىٰ تذكُّرِ عذابِ الآخرةِ ، وهٰذا أحدُ الأسبابِ الذي اقتضى اختصاصَ البلاءِ بالأنبياءِ والأولياءِ والأمثلِ فالأمثلِ .

ولذٰلكَ قيلَ ليوسفَ عليهِ السلامُ : لِمَ تجوعُ وفي يديكَ خزائنُ

الأرضِ ؟ فقالَ : أخافُ أنْ أشبعَ فأنسى الجائعَ [١] .

فذكْرُ الجائعينَ والمحتاجينَ إحدىٰ فوائدِ الجوعِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يدعو إلى الرحمةِ والإطعامِ ، والشفقةِ علىٰ خلْقِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، والشبعانُ في غفلةٍ عنْ ألمِ الجائعِ .

❊ ❊ ❊

الفائدةُ الخامسةُ ـ وهيَ مِنْ أكبرِ الفوائدِ ـ : كسرُ شهواتِ المعاصي كلِّها ، والاستيلاءُ على النفسِ الأمَّارةِ بالسوء :

فإنَّ منشأَ المعاصي كلِّها الشهواتُ والقوىٰ ، ومادةُ الشهواتِ والقوىٰ ـ لا محالةَ ـ الأطعمةُ ، فتقليلُها يضعفُ كلَّ شهوةٍ وقوَّةٍ .

وإنَّما السعادةُ كلُّها في أنْ يملكَ الرجلُ نفسَهُ ، والشقاوةُ في أنْ تملكَهُ نفسُهُ ، وكما أنَّكَ لا تملكُ الدابَّةَ الجموحَ إلا بضعْفِ الجوعِ ، فإذا شبعَتْ قويَتْ وشردَتْ وجمحَتْ . . فكذٰلكَ النفسُ ؛ كما قيلَ لبعضِهِمْ : ما بالُكَ معَ كبرِكَ لا تتعهَّدُ بدنَكَ وقدِ انهدَّ ؟ فقالَ : لأنَّهُ سريعُ المرحِ ، فاحشُ الأشَرِ ، فأخافُ أنْ يجمحَ بي فيورِّطَني ، فلأنْ أحملَهُ على الشدائدِ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ يحملَني على الفواحشِ .

وقالَ ذو النونِ : (ما شبعتُ قطُّ إلا عصيتُ أوْ هممْتُ بمعصيةٍ) [٢] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٧٣) عن الحسن ، وهو عند الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٨) عن وهب بن منبه .

(٢) رواه أبو موسى المديني في « نزهة الحفاظ » (ص ٨٨) ، والعارف السهروردي في « عوارف المعارف » (٢/٥٧٦) .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (أوَّلُ بدعةٍ حدثَتْ بعدَ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الشبعُ ، إنَّ القومَ لمَّا شبعَتْ بطونُهُمْ . . جمحَتْ بهِمْ نفوسُهُمْ إلىٰ هـٰذهِ الدنيا)[1] .

وهـٰذهِ ليسَتْ فائدةً واحدةً ، بلْ هيَ خزائنُ الفوائدِ ، ولذٰلكَ قيلَ : (الجوعُ خزانةٌ مِنْ خزائنِ اللهِ تعالىٰ)[2] .

وأوَّلُ ما يندفعُ بالجوعِ شهوةُ الفرْجِ وشهوةُ الكلامِ ؛ فإنَّ الجائعَ لا يتحرَّكُ عليهِ شهوةُ فضولِ الكلامِ ، فيتخلَّصُ بهِ مِنْ آفاتِ اللسانِ ؛ كالغيبةِ ، والفحشِ ، والكذبِ ، والنميمةِ ، وغيرِها ، فيمنعُهُ الجوعُ مِنْ كلِّ ذٰلكَ ، وإذا شبعَ . . افتقرَ إلىٰ فاكهةٍ ، فيتفكَّهُ ـ لا محالةَ ـ بأعراضِ الناسِ ، ولا يكُبُّ الناسَ علىٰ مناخرِهِمْ في النارِ إلا حصائدُ ألسنتِهِمْ .

وأمَّا شهوةُ الفرْجِ . . فلا تخفىٰ غائلتُها ، والجوعُ يكفي شرَّها ، وإذا شبعَ الرجلُ . . لمْ يملكْ فرْجَهُ ، وإنْ منعَتْهُ التقوىٰ . . فلا يملكُ عينَهُ ، فالعينُ تزني كما أنَّ الفرجَ يزني ، فإنْ ملكَ عينَهُ بغضِّ الطرفِ . . فلا يملكُ فكرَهُ ، فيخطرُ لهُ مِنَ الأفكارِ الرديئةِ وحديثِ النفسِ بأسبابِ الشهوةِ ما تتشوَّشُ بهِ مناجاتُهُ ، وربما عرضَ لهُ ذٰلكَ في أثناءِ الصلاةِ .

وإنَّما ذكرنا آفةَ اللسانِ والفرجِ مثالاً ، وإلا . . فجميعُ معاصي الأعضاءِ السبعةِ سببُها القوَّةُ الحاصلةُ بالشبعِ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الجوع » (٢٢) .
(٢) تقدم قريباً .

قالَ حكيمٌ : (كلُّ مريدٍ صبرَ على السياسةِ ، فصبرَ على الخبزِ البحْتِ سنةً لا يخلطُ بهِ شيئاً مِنَ الشهواتِ ويأكلُ في نصفِ بطنِهِ . . رفعَ اللهُ عنهُ مؤنةَ النساءِ) .

۞ ۞ ۞

الفائدةُ السادسةُ : دفعُ النومِ ودوامُ السهرِ :

فإنَّ مَنْ شبعَ . . شربَ كثيراً ، ومَنْ كثرَ شربُهُ . . كثرَ نومُهُ ، ولأجلِ ذٰلكَ كانَ بعضُ الشيوخِ يقولُ عندَ حضورِ الطعامِ : (معاشرَ المريدينَ ؛ لا تأكلوا كثيراً ، فتشربوا كثيراً ، فترقدوا كثيراً ، فتخسروا كثيراً)[1] .

وأجمعَ رأيُ سبعينَ صديقاً علىٰ أنَّ كثرةَ النومِ مِنْ كثرةِ الشرْبِ[2] .

وفي كثرةِ النومِ ضياعُ العمرِ ، وفوتُ التهجُّدِ ، وبلادةُ الطبعِ ، وقساوةُ القلبِ ، والعمرُ أنفسُ الجواهرِ ، وهوَ رأسُ مالِ العبدِ ، فيهِ يتَّجرُ ، والنومُ موتٌ ، فتكثيرُهُ ينقصُ العمرَ .

ثمَّ فضيلةُ التهجُّدِ لا تخفىٰ ، وفي النومِ فواتُها ، ومهما غلبَ النومُ ؛ فإنْ تهجَّدَ . . لمْ يجدْ حلاوةَ العبادةِ ، ثمَّ المتعزبُ إذا نامَ على الشبعِ . . احتلمَ ، ويمنعُهُ ذٰلكَ أيضاً مِنَ التهجُّدِ ، ويحوجُهُ إلى الغسلِ ؛ إمَّا بالماءِ الباردِ فيتأذَّىٰ بهِ ، أوْ يحتاجُ إلى الحمَّامِ وربَّما

---

(١) قوت القلوب (١/٩٨) ، وانظر « الشفا » (ص ١٢٩) .

(٢) روىٰ ذٰلك البيهقي في « الشعب » (٥٣٢٩) عن أبي إسحاق الموصلي .

لا يقدرُ عليهِ بالليلِ ، فيفوتُهُ الوترُ إنْ كانَ قدْ أخَّرَهُ إلى التهجُّدِ ، ثمَّ يحتاجُ إلىٰ مؤنةِ الحمَّامِ ، وربما تقعُ عينُهُ علىٰ عورةٍ في دخول الحمامِ ؛ فإنَّ فيهِ أخطاراً ذكرناها في كتابِ الطهارةِ ، وكلُّ ذٰلكَ أثرُ الشبعِ .

وقدْ قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (الاحتلامُ عقوبةٌ)[1] ، وإنَّما قالَ ذٰلكَ لأنَّهُ يمنعُ مِنْ عباداتٍ كثيرةٍ ؛ لتعذُّرِ الغسلِ في كلِّ حالٍ ، فالنومُ منبعُ الآفاتِ ، والشبعُ مجلبةٌ لهُ ، والجوعُ مقطعةٌ لهُ .

❁ ❁ ❁

الفائدةُ السابعةُ : تيسيرُ المواظبةِ على العبادةِ :

فإنَّ الأكلَ يمنعُ مِنْ كثرةِ العباداتِ ؛ لأنَّهُ يحتاجُ إلىٰ زمانٍ يشتغلُ فيهِ بالأكلِ ، وربَّما احتاجَ إلىٰ زمانٍ في شراءِ الطعامِ وطبخِهِ ، ثمَّ يحتاجُ إلىٰ غسلِ اليدِ والخلالِ[2] ، ثمَّ يكثرُ تردادُهُ إلىٰ بيتِ الماءِ لكثرةِ شربِهِ ، والأوقاتُ المصروفةُ إلىٰ هٰذا لوْ صرفَها إلى الذكرِ والمناجاةِ وسائرِ العباداتِ . . لكثرَ ربحُهُ .

قالَ السريُّ : رأيتُ معَ عليٍّ الجرجانيِّ سَويقاً يستفُّ منهُ ، فقلتُ : ما دعاكَ إلىٰ هٰذا ؟ فقالَ : إنِّي حسبتُ ما بينَ المضْغِ إلى الاستفافِ سبعينَ تسبيحةً ، فما مضغتُ الخبزَ منذُ أربعينَ سنةً[3] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/٢٦٦) .

(٢) في أسنانه ؛ ليخرج فضول الطعام منها . « إتحاف » (٧/٣٩٨) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١١٠) .

فانظرْ كيفَ أشفقَ علىٰ وقتِهِ فلم يضيعْهُ في المضْغِ ، وكلُّ نَفَسٍ مِنَ العمرِ جوهرةٌ نفيسةٌ لا قيمةَ لها ، فينبغي أنْ يستوفيَ منهُ خزانةً باقيةً في الآخرةِ لا آخرَ لها ، وذٰلكَ بصرفِهِ إلىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ وطاعتِهِ .

ومِنْ جملةِ ما يتعذَّرُ بكثرةِ الأكلِ : الدوامُ على الطهارةِ وملازمةِ المسجدِ ؛ فإنَّهُ يحتاجُ إلى الخروجِ لكثرةِ شربِ الماءِ وإراقتِهِ .

ومِنْ جملةِ ما يتعذَّر عليهِ : الصومُ ؛ فإنَّهُ يتيسَّرُ لمَنْ تعوَّدَ الجوعَ ، فالصومُ ، ودوامُ الاعتكافِ ، ودوامُ الطهارةِ ، وصرفُ أوقاتِ شغلِهِ بالأكلِ وأسبابِهِ إلى العبادةِ . . أرباحٌ كثيرةٌ ، وإنَّما يستحقرُها الغافلونَ الذينَ لمْ يعرفوا قدْرَ الدينِ ، لٰكنْ رضوا بالحياةِ الدنيا واطمأنوا بها ، ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ (١) .

وقدْ أشارَ أبو سليمانَ الدارانيُّ إلىٰ ستِّ آفاتٍ في الشبعِ فقالَ : (مَنْ شبعَ . . دخلَ عليهِ ستُّ آفاتٍ : فقْدُ حلاوةِ المناجاةِ ، وتعذُّرُ حفْظِ الحكمةِ ، وحرمانُ الشفقةِ على الخلقِ ؛ لأنَّهُ إذا شبعَ . . ظنَّ أنَّ الخلقَ كلَّهُمْ شباعٌ ، وثقلُ العبادةِ ، وزيادةُ الشهواتِ ، وأنَّ سائرَ المؤمنينَ يدورونَ حولَ المساجدِ والشباعُ يدورونَ حولَ المزابلِ) (٢) .

❀ ❀ ❀

(١) سورة الروم : (٧) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦١) .

الفائدةُ الثامنةُ : يستفيدُ مِنْ قلَّةِ الأكلِ صحَّةَ البدنِ ودفعَ الأمراضِ :

فإنَّ سببَها كثرةُ الأكلِ ، وحصولُ فضْلةِ الأخلاطِ في المعدةِ والعروقِ ، ثمَّ المرضُ يمنعُ مِنَ العباداتِ ، ويشوِّشُ القلبَ ، ويمنعُ مِنَ الذكرِ والفكرِ ، وينغِّصُ العيشَ ، ويحوجُ إلى الفصدِ والحجامةِ ، والدواءِ والطبيبِ ، وكلُّ ذٰلكَ يحتاجُ إلىٰ مؤنٍ ونفقاتٍ ، لا يخلو الإنسانُ فيها بعدَ التعبِ عنْ أنواعٍ مِنَ المعاصي واقتحامِ الشبهاتِ ، وفي الجوعِ ما يدفعُ ذٰلكَ كلَّهُ .

حُكِيَ أنَّ الرشيدَ جمعَ أربعةَ أطباءَ ؛ هنديٌّ ، وروميٌّ ، وعراقيٌّ ، وسَوادِيٌّ (١) ، وقالَ : ليصفْ كلُّ واحدٍ منكُمُ الدواءَ الذي لا داءَ فيهِ ، فقالَ الهنديُّ : الدواءُ الذي لا داءَ فيهِ عندي هوَ الإهْلِيلَجُ الأسودُ ، وقالَ الروميُّ : هوَ حبُّ الرشادِ الأبيضِ ، وقال العراقيُّ : هوَ عندي الماءُ الحارُّ ، فقالَ السواديُّ وكانَ أعلمَهُمْ : الإهْلِيلَجُ يعفِصُ المعدةَ ، وهٰذا داءٌ ، وحبُّ الرشادِ يزلِقُ المعدةَ ، وهٰذا داءٌ ، والماءُ الحارُّ يرخي المعدةَ ، وهٰذا داءٌ ، قالوا : فما عندَكَ ؟ قالَ : الدواءُ الذي لا داءَ فيهِ عندي ألا تأكلَ الطعامَ حتَّىٰ تشتهيَهُ ، وأنْ ترفعَ يدكَ عنهُ وأنتَ تشتهيهِ ، فقالوا : صدقتَ (٢) .

---

(١) أي : من سواد العراق .

(٢) قوت القلوب (٢/١٦٩) ، وقد رواه الخطيب البغدادي في « الفقيه والمتفقه » (٨٧٦) عن الأصمعي حدَّث به .

وذُكِرَ لبعضِ الفلاسفةِ مِنْ أطباءِ أهلِ الكتابِ قولُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلثٌ للطعامِ ، وثلثٌ للشرابِ ، وثلثٌ للنَّفَسِ »[١] ، فتعجَّبَ منهُ وقالَ : ما سمعتُ كلاماً في قلَّةِ الأكلِ أحكمَ مِنْ هٰذا ، وإنَّهُ لكلامُ حكيمٍ[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « البطنةُ أصلُ الدَّاءِ ، والحميةُ أصلُ الدَّواءِ ، وعوِّدوا كلَّ جسمٍ ما اعتادَ »[٣] ، وأظنُّ أنَّ تعجُّبَ الطبيبِ جرىٰ مِنْ هٰذا الخبرِ ، لا من ذاكَ .

وقالَ ابنُ سالمٍ : مَنْ أكلَ خبزَ الحنطةِ بحتاً بأدبٍ . . لمْ يعتلَّ إلا علَّةَ الموتِ ، قيلَ : وما الأدبُ ؟ قالَ : يأكلُ بعدَ الجوعِ ، ويرفعُ قبلَ الشبعِ[٤] .

وقالَ بعضُ أفاضلِ الأطباءِ في ذمِّ الاستكثارِ : (إنَّ أنفعَ ما أدخلَ الرجلُ بطنَهُ الرُّمانُ ، وأضرَّ ما أدخلَ معدتَهُ المالحُ ، ولأنْ يقلِّلَ مِنَ المالحِ خيرٌ لهُ مِنْ أنْ يستكثرَ مِنَ الرُّمانِ)[٥] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٨٠) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٦٧٣٧) ، وابن ماجه (٣٣٤٩) .
(٢) قوت القلوب (٢/١٦٩) .
(٣) صدر الخبر رواه ابن عدي في « الكامل » (٢/٨٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « أصل كل داء البرد » ، وإنما هو « البَرَدة » وهي التخمة ، كما بيَّن ذٰلك بروايته العسكريُّ في « تصحيفات المحدثين » (١/١٥٥) ، وإلا . . فهو بتمامه من كلام طبيب العرب الحارث بن كلدة ، وانظر « المقاصد الحسنة » (١٠٣٥) .
(٤) وابن سالم هو شيخ أبي طالب المكي ، انظر « القوت » (١/١٦٩) .
(٥) قوت القلوب (٢/١٧٠) .

وفي الحديثِ : « صوموا تصحُّوا »[1] ، ففي الصومِ والجوعِ وتقليلِ الطعامِ صحَّةُ الأجسامِ مِنَ الأسقامِ ، وصحةُ القلوبِ مِنْ سقمِ الطغيانِ والبطَرِ وغيرِهما .

❁ ❁ ❁

الفائدةُ التاسعةُ : خفَّةُ المؤونةِ :

فإنَّ مَنْ تعوَّدَ قلَّةَ الأكلِ كفاهُ مِنَ المالِ قدْرٌ يسيرٌ ، والذي تعوَّدَ الشبعَ صارَ بطنُهُ غريماً ملازماً لهُ ، آخذاً بمُخَنَّقِهِ في كلِّ يومٍ ، فيقولُ : ماذا تأكلُ اليومَ ؟ فيحتاجُ إلىٰ أنْ يدخلَ المداخلَ ، فيكتسبَ مِنَ الحرامِ فيعصيَ ، أوْ مِنَ الحلالِ فيذلَّ ويتعبَ ، وربَّما يحتاجُ إلىٰ أنْ يمدَّ عينَ الطمعِ إلى الناسِ ، وهوَ غايةُ الذلِّ والقماءةِ ، والمؤمنُ خفيفُ المؤونةِ .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (إنِّي لأقضي عامَّةَ حوائجي بالتركِ ، فيكونُ ذٰلكَ أروحَ لقلبي)[2] .

وقالَ آخرُ : (إذا أردتُ أنْ أستقرضَ مِنْ غيري لشهوةٍ أوْ زيادةٍ . . استقرضتُ مِنْ نفسي ، فتركتُ الشهوةَ ، فهيَ خيرُ غريمٍ لي)[3] .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٣٠٨) ، وأبو نعيم في « الطب النبوي » (١١٣) ، وابن عدي في « الكامل » (٢/٣٥٧) .

(٢) قوت القلوب (٢/١٧٣) ، والمعنىٰ : فإذا تركتها . . فكأني قضيتها . « إتحاف » (٧/٤٠١) .

(٣) قوت القلوب (٢/١٧٣) .

وكانَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمهُ اللهُ يسألُ أصحابَهُ عنْ سعرِ المأكولاتِ ، فيُقالُ : إنَّها غاليةٌ ، فيقولُ : أرخصوهُ بالتركِ [1] .

وقالَ سهلٌ رحمَهُ اللهُ : (الأكولُ مذمومٌ في ثلاثةِ أحوالٍ : إنْ كانَ مِنْ أهلِ العبادةِ . . فيكسلُ ، وإنْ كانَ مكتسباً . . فلا يسلمُ مِنَ الآفاتِ ، وإنْ كانَ ممَّنْ يدخلُ عليهِ شيءٌ [2] . . فلا ينصفُ اللهَ تعالىٰ مِنْ نفسِهِ) .

وبالجملةِ : سببُ هلاكِ الناسِ حرصُهُمْ على الدنيا ، وسببُ حرصِهِمْ على الدنيا البطنُ والفرجُ ، وسببُ شهوةِ الفرجِ شهوةُ البطنِ ، وفي تقليلِ الأكلِ ما يحسمُ هٰذهِ الأبوابَ كلَّها ، وهيَ أبوابُ النارِ ، وفي حسمِها فتحُ أبوابِ الجنةِ ، كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أديموا قرْعَ بابِ الجنةِ بالجوعِ » [3] .

فمَنْ قنعَ برغيفٍ في كلِّ يومٍ . . قنعَ في سائرِ الشهواتِ أيضاً ، وصارَ حرّاً ، واستغنىٰ عنِ الناسِ ، واستراحَ مِنَ التعبِ ، وتخلَّىٰ لعبادةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وتجارةِ الآخرةِ ، فيكونُ مِنَ الذينَ لا تلهيهِمْ تجارةٌ ولا بيعٌ عنْ ذكرِ اللهِ ، وإنَّما لا تلهيهِمْ لاستغنائِهِمْ عنها بالقناعةِ ، فأمَّا المحتاجُ . . فتلهيهِ لا محالةَ .

❊ ❊ ❊

---

(١) قوت القلوب (٢/١٧٣) .

(٢) أي : من الفيض من غير كسب .

(٣) قوت القلوب (٢/١٧١) .

الفائدةُ العاشرةُ : أنْ يتمكَّنَ مِنَ الإيثارِ والتصدُّقِ بما فضَلَ مِنَ الأطعمةِ على اليتامىٰ والمساكينِ :

فيكونَ يومَ القيامةِ في ظلِّ صدقتِهِ كما وردَ بهِ الخبرُ [١] ، فما يأكلُهُ كانَ خزانتُهُ الكنيفَ ، وما يتصدَّقُ بهِ كانَ خزانتُهُ فضْلَ اللهِ ، فليسَ للعبدِ مِنْ مالِهِ إلا ما تصدَّقَ فأبقىٰ ، أوْ أكلَ فأفنىٰ ، أوْ لبسَ فأبلىٰ [٢] ، **فالتصدُّقُ بفضلاتِ الطعامِ أولىٰ مِنَ التخمةِ والشبعِ .**

وكانَ الحسنُ رحمةُ اللهِ عليهِ إذا تلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [٣] . . قالَ : (عرضَها على السماواتِ السبعِ الطباقِ الطرائقِ اللاتي زينَها بالنجومِ ، وحملةِ العرشِ العظيمِ ، فقالَ لها : هلْ تحملينَ الأمانةَ بما فيها ؟ قالَتْ : وما فيها ؟ قالَ : إنْ أحسنتِ . . جُوزيتِ ، وإنْ أسأتِ . . عُوقبتِ ، فقالَتْ : لا ، ثمَّ عرضَها على الأرضِ كذٰلكَ ، فأبتْ ، ثمَّ عرضَها على الجبالِ الصمِّ الشوامخِ البواذخِ الصعابِ الصلابِ ، فقالَ لها : هلْ تحملينَ الأمانةَ بما فيها ؟ قالَتْ : وما فيها ، فذكرَ الجزاءَ والعقوبةَ ، فقالَتْ : لا ، ثمَّ عرضَها على الإنسانِ ، فحملَها ؛ إنَّهُ كانَ ظلوماً لنفسِهِ ، جهولاً بأمرِ ربِّهِ ، فقدْ رأيناهُمْ واللهِ اشترَوُا الأمانةَ بأموالِهِمْ فأصابوا آلافاً ،

---

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٣١٠) ، والحاكم في « المستدرك » (٤١٦/١) .
(٢) كما روىٰ ذٰلك مسلم (٢٩٥٩) .
(٣) سورة الأحزاب : (٧٢) .

فماذا صنعوا فيها ؟ وسَّعُوا بها دورَهُم ، وضيَّقوا بها قبورَهُمْ ، وأسمنوا براذينَهُمْ ، وأهزلوا دينَهُمْ ، وأتعبوا أنفسَهُمْ بالغدوِّ والرواحِ إلىٰ بابِ هٰذا السلطانِ ، يتعرَّضونَ للبلاءِ وهُمْ مِنَ اللهِ في عافيةٍ ، يقولُ أحدُهُمْ : تبيعُني أرضَ كذا وكذا وأزيدُكَ كذا وكذا ، يتكئُ علىٰ شمالِهِ ، ويأكلُ مِنْ غيرِ مالِهِ ، خدمَتُهُ سُخرةٌ ، ومالُهُ حرامٌ ، حتىٰ إذا أخذَتْهُ الكِظَّةُ [1] ، ونزلَتْ بهِ البطنةُ . . قالَ : يا غلامُ ؛ ائتني بشيءٍ يهضمُ طعامي ، يا لكعُ ؛ أطعامَكَ تهضمُ ؟! إنَّما دينَكَ تهضمُ ، أينَ الفقيرُ ؟! أينَ الأرملةُ ؟! أينَ اليتيمُ ؟! أينَ المسكينُ الذي أمركَ اللهُ تعالىٰ بهِ ؟!) [2] .

فهٰذهِ إشارةٌ إلىٰ هٰذهِ الفائدةِ ، وهوَ صرْفُ فاضلِ الطعامِ إلى الفقيرِ ؛ ليدَّخرَ بهِ الأجرَ ، فذٰلكَ خيرٌ لهُ مِنْ أنْ يأكلَهُ حتَّىٰ يتضاعفَ الوزرُ عليهِ .

ونظرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ رجلٍ سمينِ البطنِ ، فأومأَ إلىٰ بطنِهِ بإصبعِهِ وقالَ : « لوْ كانَ هٰذا في غيرِ هٰذا . . لكانَ خيراً لكَ » [3] ؛ أي : لوْ قدَّمْتَهُ لآخرتِكَ ، وآثرتَ بهِ غيرَكَ .

وعنِ الحسنِ قالَ : (واللهِ ؛ لقدْ أدركتُ أقواماً إنْ كانَ الرجلُ منهُمْ

---

(١) الكظة : غمُّ المرء من امتلاء الطعام .

(٢) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/٦٢) بنحوه .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٣/٤٧١) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/١٢١) من حديث جعدة الجشمي رضي الله عنه .

ليُمسي وعندَهُ مِنَ الطعامِ ما يكفيهِ ، ولوْ شاءَ لأكلَهُ ، فيقولُ : واللهِ ؛ لا أجعلُ هـٰذا كلَّهُ لبطني حتَّىٰ أجعلَ بعضَهُ للهِ)[1] .

فهـٰذهِ عشرُ فوائدَ للجوعِ ، يتشعَّبُ عنْ كلِّ واحدةٍ فوائدُ لا ينحصرُ عددُها ، ولا تتناهىٰ فوائدُها ، فالجوعُ خزانةٌ عظيمةٌ لفوائدِ الآخرةِ ، ولأجلِ هـٰذا قالَ بعضُ السلفِ : (الجوعُ مفتاحُ الآخرةِ ، وبابُ الزهدِ ، والشبعُ مفتاحُ الدنيا ، وبابُ الرغبةِ)[2] ، بلْ ذٰلكَ صريحٌ في الأخبارِ التي رويناها ، وبالوقوفِ علىٰ تفصيلِ هـٰذهِ الفوائدِ تدركُ معانيَ تلكَ الأخبارِ إدراكَ علمٍ وبصيرةٍ ، فإذا لمْ تعرفْ هـٰذا وصدَّقتَ بفضْلِ الجوعِ . . كانَتْ لكَ رتبةُ المقلِّدينَ في الإيمانِ ، واللهُ أعلمُ بالصوابِ .

❋ ❋ ❋

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٧٢) .

(٢) قوت القلوب (٢/١٧١) .

بيان طريق الرّياضة في كسر شهوة البطن

اعلمْ : أنَّ على المريدِ في بطنِهِ ومأكولِهِ أربعَ وظائفَ :

الأولىٰ : ألا يأكلَ إلا حلالاً :

فالعبادةُ معَ أكلِ الحرامِ كالبناءِ علىٰ أمواجِ البحرِ ، وقدْ ذكرنا ما تجبُ مراعاتُهُ مِنْ درجاتِ الورعِ في كتابِ الحلالِ والحرامِ .

وتبقىٰ ثلاثُ وظائفَ خاصَّةٍ بالأكلِ ؛ وهوَ تقديرُ قدْرِ الطعامِ في القلَّةِ والكثرةِ ، وتقديرُ وقتِهِ في الإبطاءِ والسرعةِ ، وتعيينُ الجنسِ المأكولِ في تناولِ المشتهياتِ وتركِها .

❁ ❁ ❁

أمَّا الوظيفةُ الأولىٰ في تقليلِ الطعامِ :

فسبيلُ الرياضةِ فيهِ التدريجُ ، فمَنِ اعتادَ الأكلَ الكثيرَ وانتقلَ دفعةً واحدةً إلى القليلِ . . لمْ يحتملْهُ مزاجُهُ ، وضعفَ ، وعظمَتْ مشقَّتُهُ ، فينبغي أنْ يتدرَّجَ إليهِ قليلاً قليلاً ، وذٰلكَ بأنْ ينقصَ قليلاً قليلاً مِن طعامِهِ المعتادِ .

فإنْ كانَ يأكلُ رغيفينِ مثلاً وأرادَ أنْ يردَّ نفسهُ إلىٰ رغيفٍ واحدٍ . . فينقصُ كلَّ يومٍ ربعَ سبعِ رغيفٍ ، وهوَ أنْ ينقصَ جزءاً مِنْ ثمانيةٍ وعشرينَ جزءاً ، أوْ جزءاً مِنْ ثلاثينَ جزءاً ، فيرجعُ إلىٰ رغيفٍ في شهرٍ ، ولا يستضرُّ بهِ ، ولا يظهرُ أثرُهُ ، فإنْ شاءَ . . فعلَ ذٰلكَ بالوزنِ ،

وإنْ شاءَ . . بالمشاهدةِ ، فيتركُ كلَّ يومٍ مقدارَ لقمةٍ ، وينقصُهُ عمَّا أكلَهَ بالأمسِ .

ثمَّ هٰذا فيهِ أربعُ درجاتٍ :

أقصاها : أنْ يردَّ نفسَهُ إلىٰ قدْرِ القوامِ الذي لا يبقىٰ دونَهُ ، وهوَ عادةُ الصديقينَ ، وهوَ اختيارُ سهْلٍ التستريّ رحمةُ اللهِ عليهِ ؛ إذْ قالَ : إنَّ اللهَ استعبدَ الخلقَ بثلاثٍ : بالحياةِ ، والعقلِ ، والقوَّةِ ، فإنْ خافَ العبدُ على اثنتينِ منها وهيَ الحياةُ والعقلُ . . أكلَ ، وأفطرَ إنْ كانَ صائماً ، وتكلَّفَ الطلبَ إنْ كانَ فقيراً ، وإنْ لمْ يخفْ عليهِما بلْ على القوَّةِ . . قالَ : فينبغي ألا يباليَ ولوْ ضعفَ حتَّىٰ صلَّىٰ قاعداً ، ورأىٰ أنَّ صلاتَهُ قاعداً معَ ضعْفِ الجوعِ أفضلُ مِنْ صلاتِهِ قائماً معَ قوةِ الأكلِ [1] .

وسئلَ سهلٌ عنْ بدايتِهِ وما كانَ يقتاتُ بهِ ؟ فقالَ : كانَ قُوتي في كلِّ سنةٍ ثلاثةَ دراهمَ ، كنتُ آخذُ بدرهمٍ دِبْساً ، وبدرهمٍ سمناً ، وبدرهمٍ دقيقَ الأرزِّ ، وأخلطُ الجميعَ وأسوِّي منهُ بنادقَ ، ثلاثَ مئةٍ وستينَ أُكْرَةً [2] ، آخذُ في كلِّ ليلةٍ أُكْرَةً أفطرُ عليها ، فقيلَ لهُ :

---

(١) فعلم من هٰذا أن المحافظة على العقل مقدمة علىٰ محافظة القوة ، فإن لم يصلح عقل المريد بالخبز البحت . . فلا بأس أن يأتدم ببعض الأدهان ، وقد كان سهل رحمه الله تعالىٰ يقول للمتقللين من أهل عبادان ـ كما في « القوت » (٢/١٧٢) ـ : احفظوا عقولكم ، وتعاهدوا بالأدهان والدسم ؛ فإنه ما كان ولي لله ناقص العقل . « إتحاف » (٧/٤٠٤) .

(٢) الأُكْرَة : لغة في الكرة ؛ أي : يجعل من هٰذا الخليط كالكرات ، يأخذ كل فطور واحدة .

فالساعةَ كيفَ تأكلُ ؟ قالَ : آكلُ بغيرِ حدٍّ ولا توقيتٍ (١) .

ويُحكىٰ عن بعضِ الرهابينِ أنَّهُمْ قدْ يردُّونَ أنفسَهُمْ إلىٰ مقدارِ درهمٍ مِنَ الطعامِ (٢) .

الدرجةُ الثانيةُ : أنْ يردَّ نفسَهُ بالرياضةِ في اليومِ والليلةِ إلىٰ نصْفِ مُدٍّ ، وهوَ رغيفٌ وشيءٌ ممَّا يكونُ الأربعةُ منهُ منّاً (٣) ، ويشبهُ أنْ يكونَ هٰذا مقدارَ ثلثِ البطنِ في حقِّ الأكثرينَ ، كما ذكرَهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهوَ فوقَ اللقيماتِ ؛ لأنَّ هٰذهِ الصيغةَ في الجمعِ للقلَّةِ (٤) ، فهوَ لما دونَ العشرةِ .

وقدْ كانَ ذٰلكَ عادةَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ؛ إذْ كانَ يأكلُ سبعَ لقمٍ ، أوْ تسعَ لقمٍ (٥) .

الدرجةُ الثالثةُ : أنْ يردَّها إلىٰ مقدارِ المُدِّ ، وهوَ رغيفانِ ونصفٌ ، وهٰذا يزيدُ علىٰ ثلثِ البطنِ في حقِّ الأكثرينَ ، ويكادُ ينتهي إلىٰ ثلثي البطنِ ، ويبقىٰ ثلثٌ للشرابِ ، ولا يبقىٰ شيءٌ للذكرِ ، وفي

---

(١) قوت القلوب (٢/١٧١) .

(٢) **الدرهم** : يساوي (٢٫٩٧ غ) .

(٣) وهو ما يوزن به رطلان ، لكن يزيد ثلثين ونصف ثلث ، إذ نصف المد هو نصف رطل ونصف الثلث ، فتأمل . والمن يساوي (٢٨٥١٫٢ غ) تقريباً ، والمد يساوي (٧٥٠ غ) تقريباً . « إتحاف » (٧/٤٠٤) .

(٤) وفيه أيضاً مع التقليل ـ المفاد من جمع الألف والتاء ـ التصغير ؛ لأن لقيمة تصغير لقمة . « إتحاف » (٧/٤٠٤) .

(٥) قوت القلوب (٢/١٦٩) .

بعضِ الألفاظِ : « ثلثٌ للذكرِ » بدلَ قولِهِ « للنَّفَسِ »[1] .

الدرجةُ الرابعةُ : أنْ يزيدَ على المُدِّ إلى المنِّ ، ويشبهُ أنْ يكونَ ما وراءَ المنِّ إسرافاً ، مخالفاً لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾[2] أعني : في حقِّ الأكثرينَ ، فإنَّ مقدارَ الحاجةِ إلى الطعامِ يختلفُ بالسنِّ والشخصِ والعملِ الذي يشتغلُ بهِ .

وها هنا طريقٌ خامسٌ لا تقديرَ فيهِ ، ولٰكنَّهُ موضعُ غلطٍ : وهوَ أنْ يأكلَ إذا صدقَ جوعُهُ ، ويقبضَ يدَهُ وهوَ علىٰ شهوةٍ صادقةٍ بعدُ ، ولٰكنَّ الأغلبَ أنَّ مَنْ لمْ يقدِّرْ لنفسِهِ رغيفاً أوْ رغيفينِ . . فلا يتبيَّنُ لهُ حدُّ الجوعِ الصادقِ ، ويشتبهُ عليهِ ذٰلكَ بالشهوةِ الكاذبةِ[3] .

وقدْ ذُكرَ للجوعِ الصادقِ علاماتٌ :

إحداها : ألا تطلبَ النفسُ الأُدْمَ ، بلْ تأكلُ الخبزَ وحدَهُ بشهوةٍ ؛ أيَّ خبزٍ كانَ ، فمهما طلبَتْ نفسُهُ خبزاً بعينِهِ ، أوْ طلبَتْ أُدْماً . . فليسَ ذٰلكَ بالجوعِ الصادقِ .

وقدْ قيلَ : مِنْ علامتِهِ : أنْ يبصقَ فلا يقعَ الذبابُ عليهِ ؛ أيْ : لا تبقىٰ فيهِ دهنيَّةٌ ولا دسومةٌ ، فيدلُّ ذٰلكَ علىٰ خلوِّ المعدةِ[4] .

---

(١) قوت القلوب (٢/١٦٩) .

(٢) سورة الأنعام : (١٤١) .

(٣) **والفرق بين الصادقة منها والكاذبة** : أن الصادقة ما يختل البدن بدونه ، والكاذبة ما لا يختل بدونه . « إتحاف » (٧/٤٠٥) .

(٤) قوت القلوب (٢/١٦٥) .

ومعرفةُ ذٰلكَ غامضٌ ، فالصوابُ للمريدِ أنْ يقدِّرَ معَ نفسِهِ القدْرَ الذي لا يضعفُهُ عنِ العبادةِ التي هوَ بصددِها ، فإذا انتهىٰ إليهِ . . وقفَ وإنْ بقيَتْ شهوتُهُ .

وعلى الجملةِ : فتقديرُ الطعامِ لا يمكنُ ؛ لأنَّهُ يختلفُ بالأحوالِ والأشخاصِ .

نعمْ ؛ قدْ كانَ قوتُ جماعةٍ مِنَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُم صاعاً مِنْ حنطةٍ في كلِّ جمعةٍ ، فإذا أكلوا التمرَ . . اقتاتوا منهُ صاعاً ونصفاً ، وصاعُ الحنطةِ أربعةُ أمدادٍ ، فيكونُ كلُّ يومٍ قريباً مِنْ نصفِ مدٍّ ، وهوَ ما ذكرنا أنَّهُ قدْرُ ثلثِ البطنِ ، واحتيجَ في التمرِ إلىٰ زيادةٍ لسقوطِ النوىٰ منهُ .

وقدْ كانَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : طعامي في كلِّ جمعةٍ صاعٌ مِنْ شعيرٍ علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، واللهِ ؛ لا أزيدُ عليهِ شيئاً حتَّىٰ ألقاهُ ؛ فإنِّي سمعتُهُ يقولُ : « أقربُكُمْ منِّي مجلساً يومَ القيامةِ وأحبُّكُمْ إليَّ مَنْ ماتَ علىٰ ما هوَ عليهِ اليومَ »[1] .

وكانَ يقولُ في إنكارِهِ علىٰ بعضِ الصحابةِ : (قد غيَّرْتُمْ ، يُنخلُ لكُمُ الشعيرُ ولمْ يكنْ يُنخلُ ، وخبزتُمُ المرقَّقَ ، وجمعتُمْ بينَ إدامينِ ، واختلفَ عليكُمْ بألوانِ الطعامِ ، وغدا أحدُكُمْ في ثوبٍ وراحَ في آخرَ ،

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/١٦٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/١٦١) ، وكلام أبي ذر رضي الله عنه صدر الخبر رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/١٦٢) ، وهو كما ساقه المصنف هنا عند صاحب « القوت » (٢/١٦٧) .

ولمْ تكونوا هٰكذا علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)[1] .

وقدْ كانَ قوتُ أهلِ الصُّفَّةِ مُدّاً مِنْ تمرٍ بينَ اثنينِ في كلِّ يومٍ[2] ، والمدُّ رطلٌ وثلثٌ ، ويسقطُ منهُ النوىٰ .

وكانَ الحسنُ رحمَهُ اللهُ يقولُ : (المؤمنُ مثلُ العنيزةِ ، يكفيهِ الكفُّ مِنَ الحشفِ ، والقبضةُ مِنَ السويقِ ، والجرعةُ مِنَ الماءِ ، والمنافقُ مثلُ السبعِ الضاري ، بلعاً بلعاً ، وسرطاً سرطاً ، لا يطوي بطنَهُ لجارِهِ ، ولا يؤثرُ أخاهُ بفضْلِهِ ، وجِّهوا هٰذهِ الفضولَ أمامَكُمْ)[3] .

وقالَ سهلٌ : (لوْ كانَتِ الدنيا دماً عبيطاً . . لكانَ قوتُ المؤمنِ منها حلالاً ؛ لأنَّ أكلَ المؤمنِ عندَ الضرورةِ بقدْرِ القوامِ فقطْ)[4] .

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ الثانيةُ : في وقتِ الأكلِ ومقدارِ تأخيرِهِ :

وفيه أيضاً أربعُ درجاتٍ :

الدرجة العليا : أنْ يطويَ ثلاثةَ أيامٍ فما فوقَها ، وفي المريدينَ مَنْ ردَّ الرياضةَ إلى الطيِّ ، لا إلى المقدارِ ، حتَّى انتهىٰ بعضُهُمْ إلىٰ ثلاثينَ يوماً ، وأربعينَ يوماً ، وانتهىٰ إليهِ جماعةٌ مِنَ العلماءِ يكثرُ عددُهُمْ ،

---

(١) قوت القلوب (٢/١٦٧) .

(٢) كما روىٰ ذٰلك الحاكم في « المستدرك » (٣/١٥) .

(٣) قوت القلوب (٢/١٦٧) .

(٤) قوت القلوب (٢/١٦٧) ، **والدم العبيط** : الخالص الطري ، ومعلوم أن المضطر يحل له أكل الميتة ، والمؤمن في أكله عند أبي عبد الله التستري مضطر علىٰ كل حال .

منهُمْ محمدُ بنُ عمرٍو القرنيُّ [1] ، وعبدُ الرحمٰنِ بنُ إبراهيمَ دُحَيمٌ ، وإبراهيمُ التيميُّ ، وحجَّاجُ بنُ فرافصةَ ، وحفصٌ العابدُ المِصِّيصيُّ ، والمسلمُ بنُ سعيدٍ ، وزهيرٌ ، وسليمانُ الخوَّاصُ ، وسهلُ بنُ عبدِ اللهِ التُّسْتَريُّ ، وإبراهيمُ بنُ أحمدَ الخوَّاصُ [2] .

وقدْ كانَ أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ يطوي ستةَ أيامٍ ، وكانَ عبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ يطوي سبعةَ أيامٍ ، وكانَ أبو الجوزاءِ صاحبُ ابنِ عباسٍ يطوي سبعاً ، ورُوِيَ أنَّ الثوريَّ وإبراهيمَ بنَ أدهمَ كانا يطويانِ ثلاثاً ثلاثاً [3] ، كلُّ ذٰلكَ كانوا يستعينونَ بالجوعِ علىٰ طريقِ الآخرةِ .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (مَنْ طوىٰ للهِ أربعينَ يوماً . . ظهرَتْ لهُ قدرةٌ مِنَ الملكوتِ) [4] أي : كُوشفَ ببعضِ الأسرارِ الإلٰهيةِ .

وقدْ حُكِيَ أنَّ بعضَ أهلِ هٰذهِ الطائفةِ مرَّ براهبٍ ، فذاكرَهُ بحالِهِ ، وطمعَ في إسلامِهِ ، وترْكِ ما هوَ عليهِ مِنَ الغرورِ ، فكلَّمَهُ في ذٰلكَ بكلامٍ كثيرٍ ، إلىٰ أنْ قالَ لهُ الراهبُ : إنَّ المسيحَ كانَ يطوي أربعينَ يوماً ، وإنَّ ذٰلكَ معجزةٌ لا تكونُ إلا لنبيٍّ أو صدِّيقٍ [5] ، فقالَ لهُ الصوفيُّ : فإنْ طويتُ خمسينَ يوماً . . تتركُ ما أنتَ عليهِ وتدخلُ في

---

(١) في (أ) : (العرني) ، وفي (ب) : (المغربي) .
(٢) قوت القلوب (٢/١٦٥) .
(٣) قوت القلوب (٢/١٦٦) .
(٤) قوت القلوب (٢/١٦٦) .
(٥) في النسخ : (لنبي صادق) ، وفي « القوت » : (لنبيٍّ) ، والمثبت من (ق) .

دينِ الإسلامِ ، وتعلمُ أنَّهُ حقٌّ وأنَّكَ علىٰ باطلٍ ؟ قالَ : نعمْ ، فجلسَ لا يبرحُ إلا حيثُ يراهُ حتَّىٰ طوىٰ خمسينَ يوماً ، ثمَّ قالَ : وأزيدُكَ أيضاً ، فطوىٰ إلىٰ تمامِ الستينَ ، فتعجَّبَ الراهبُ منهُ ، وقالَ : ما كنتُ أظنُّ أنَّ أحداً يجاوزُ المسيحَ ، فكانَ ذٰلكَ سببَ إسلامِهِ (١) .

وهٰذهِ درجةٌ عظيمةٌ ، قلَّ مَنْ يبلغُها إلا مكاشفٌ محمولٌ شُغِلَ بمشاهدةِ ما قطعَهُ عنْ طبعِهِ وعادتِهِ ، واستوفىٰ نفسَهُ في لذَّتِهِ ، وأنساهُ جوعَهُ وحاجتَهُ .

الدرجةُ الثانيةُ : أنْ يطويَ يومينِ إلىٰ ثلاثةٍ ، وليسَ ذٰلكَ خارجاً عنِ العادةِ ، بلْ هوَ قريبٌ يمكنُ الوصولُ إليهِ بالجدِّ والمجاهدةِ .

الدرجةُ الثالثةُ : وهيَ أدناها : أنْ يقتصرَ في اليومِ والليلةِ علىٰ أكلةٍ واحدةٍ ، وهٰذا هوَ الأقلُّ ، وما جاوزَ ذٰلكَ إسرافٌ ومداومةٌ للشبعِ ، حتَّىٰ لا يكونَ لهُ حالةُ جوعٍ ، وذٰلكَ فعلُ المترفينَ ، وهوَ بعيدٌ مِنَ السنةِ .

فقدْ روىٰ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ إذا تغدَّىٰ . . لمْ يتعشَّ ، وإذا تعشَّىٰ . . لمْ يتغدَّ (٢) .

وكانَ السلفُ يأكلونَ في كلِّ يومٍ أكلةً (٣) .

---

(١) قوت القلوب (٢/١٦٦) .

(٢) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (٦٥٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٣٢٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٨/٤٢٣) .

(٣) قوت القلوب (٢/١٦٨) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها : « إيَّاكِ والسرفَ ؛ فإنَّ أكلتينِ في يومٍ مِنَ السرفِ ، وأكلةً واحدةً في كلِّ يومينِ إقتارٌ ، وأكلةً في كلِّ يومٍ قوامٌ بينَ ذٰلكَ ، وهوَ المحمودُ في كتابِ اللهِ تعالىٰ »[١] .

ومنِ اقتصرَ في اليومِ علىٰ أكلةٍ واحدةٍ . . فيُستحبُّ لهُ أنْ يأكلَها سحراً قبلَ طلوعِ الفجرِ ، فيكونُ أكلُهُ بعدَ التهجُّدِ وقبلَ الصبحِ ، فيحصلُ لهُ جوعُ النهارِ للصيامِ ، وجوعُ الليلِ للقيامِ ، وخلوُّ القلبِ لفراغِ المعدةِ ، ورقَّةُ الفكرِ ، واجتماعُ الهمِّ ، وسكونُ النفسِ إلى المعلومِ ، فلا تنازعُهُ قبلَ وقتِهِ .

وفي حديثِ عاصمِ بنِ كليبٍ ، عنْ أبيهِ ، عنْ أبي هريرةَ قالَ : (ما قامَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قيامَكُمْ هٰذا قطُّ ، وإنْ كانَ ليقومُ حتَّىٰ تزلعَ قدماهُ ، وما واصلَ وصالَكُمْ هٰذا قطُّ ، غيرَ أنَّهُ قدْ أخَّرَ الفطرَ إلى السحرِ)[٢] .

وفي حديثِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ : (كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يواصلُ إلى السحرِ)[٣] .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٢٧٧) بنحوه .

(٢) رواه ابن الأعرابي في « معجمه » (١٣٨٤) ، **وتزلع** : تتورم وتتشقق .

(٣) كذا في « القوت » (٢/١٦٦) ، ورواه أحمد في « مسنده » (١/٩١) من حديث علي رضي الله عنه ، وابن خزيمة في « صحيحه » (٢٠٧٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وعند البخاري (١٩٦٣) من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً : « لا تواصلوا ، فأيكم إذا أراد أن يواصل . . فليواصل حتى السحر » .

فإنْ كانَ يلتفتُ قلبُ الصائمِ بعدَ المغربِ إلى الطعامِ ، وكانَ يشغلُهُ ذٰلكَ عنْ حضورِ القلبِ في التهجُّدِ . . فالأولىٰ أنْ يقسمَ طعامَهُ نصفينِ ، فإنْ كانَ رغيفينِ مثلاً . . أكلَ رغيفاً عندَ الفطرِ ، ورغيفاً عندَ السحرِ ؛ لتسكنَ نفسُهُ ، ويخفَّ عندَ التهجُّدِ بدنُهُ ، ولا يشغلَهُ جوعُهُ بالنهارِ لأجلِ تسحُّرِهِ ، فيستعينُ بالرغيفِ الأوَّلِ على التهجُّدِ ، وبالثاني على الصومِ .

ومَنْ كانَ يصومُ يوماً ويفطرُ يوماً . . فلا بأسَ أنْ يأكلَ يومَ فطرِهِ وقتَ الظهرِ ، ويومَ صومِهِ وقتَ السحرِ .

فهٰذهِ هيَ الطرقُ في مواقيتِ الأكلِ وتقاربِهِ وتباعدِهِ .

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ الثالثةُ : في نوعِ الطعامِ وتركِ الإدامِ :

وأعلى الطعامِ مخُّ البرِّ ، فإنْ نُخلَ . . فهوَ غايةُ الترفُّهِ ، وأوسطُهُ شعيرٌ منخولٌ ، وأدناهُ شعيرٌ لمْ يُنخلْ ، وأعلى الأُدْمِ اللحمُ والحلاوةُ ، وأدناهُ الملحُ والخلُّ ، وأوسطُهُ المزوَّراتُ بالأدهانِ مِنْ غيرِ لحمٍ .

وعادةُ سالكي طريقِ الآخرةِ الامتناعُ مِنَ الإدامِ على الدوامِ ، بلِ الامتناعُ عنِ الشهواتِ ؛ فإنَّ كلَّ لذيذٍ يشتهيهِ الإنسانُ وأكلَهُ . . اقتضىٰ ذٰلكَ بطراً في نفسِهِ ، وقسوةً في قلبِهِ ، وأُنْساً لهُ بلذَّاتِ الدنيا ، حتَّىٰ يألفَها ويكرهَ الموتَ ولقاءَ اللهِ تعالىٰ ، وتصيرَ الدنيا جنَّةً في حقِّهِ ، ويكونَ الموتُ سجناً لهُ ، وإذا منعَ نفسَهُ عنْ شهواتِها ، وضيَّقَ

عليها ، وحرمَها لذَّاتِها . . صارَتِ الدنيا سجناً عليهِ ، ومضيقاً لهُ ، فاشتهَتْ نفسُهُ الإفلاتَ منها ، فيكونُ الموتُ إطلاقَها ، وإليهِ الإشارةُ بقولِ يحيى بنِ معاذٍ حيثُ قالَ : (معاشرَ الصادقينَ ؛ جوّعوا أنفسَكُمْ لوليمةِ الفردوسِ ؛ فإنَّ شهوةَ الطعامِ علىٰ قدْرِ تجويعِ النفسِ)[(١)] .

فكلُّ ما ذكرناهُ مِنْ آفاتِ الشبعِ فإنَّهُ يجري في أكلِ الشهواتِ ، وتناولِ اللذَّاتِ ، فلا نطوِّلُ بإعادتِهِ ، فلذٰلكَ يعظمُ الثوابُ في تركِ الشهواتِ مِنَ المباحاتِ ، ويعظمُ الخطرُ في تناولِها ، حتَّىٰ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شرارُ أمَّتي الذينَ يأكلونَ مخَّ الحنطةِ »[(٢)] ، وهٰذا ليسَ بتحريمٍ ، بلْ هوَ مباحٌ علىٰ معنىٰ أنَّ مَنْ أكلَهُ مرَّةً أوْ مرَّتينِ . . لمْ يعصِ ، ومَنْ داومَ عليهِ أيضاً . . فلا يعصي بتناولِهِ ، ولٰكنْ تتربَّىٰ نفسُهُ بالنعيمِ ، فتأنسُ بالدنيا ، وتألفُ اللذاتِ ، وتسعىٰ في طلبِها ، فيجرُّها ذٰلكَ إلى المعاصي ، فهمْ شرارُ الأمَّةِ ؛ لأنَّ مخَّ الحنطةِ يقودُهُمْ إلى اقتحامِ أمورٍ ، تلكَ الأمورُ معاصٍ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شرارُ أمَّتي الذينَ غُذوا بالنعيمِ ، ونبتَتْ عليهِ أجسامُهُمْ ، وإنَّما همَّتُهُمْ ألوانُ الطعامِ وأنواعُ اللباسِ ، ويتشدَّقونَ في الكلامِ »[(٣)] .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٦) .

(٢) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٤١٢/٧) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٠) ، وابن عدي في « الكامل » (٣١٨/٥) من حديث السيدة فاطمة رضي الله عنها ، ورواه الطبراني في « الكبير » (١٠٧/٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩٠/٦) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : (اذكرْ أنَّكَ ساكنُ القبرَ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يمنعُكَ عنْ كثيرٍ مِنَ الشهواتِ) .

وقدِ اشتدَّ خوفُ السلفِ مِنْ تناولِ لذيذِ الأطعمةِ ، وتمرينِ النفسِ عليها ، ورأَوا أنَّ ذٰلكَ علامةُ الشقاوةِ ، ورأَوا منْعَ اللهِ تعالىٰ منهُ غايةَ السعادةِ ، حتَّىٰ رُوِيَ أنَّ وهْبَ بنَ منبِّهٍ قالَ : (التقىٰ ملكانِ في السماءِ الرابعةِ ، فقالَ أحدُهُما للآخرِ : مِنْ أينَ ؟ قالَ : أُمرتُ بسَوْقِ حوتٍ مِنَ البحرِ اشتهاهُ فلانٌ اليهوديُّ لعنَهُ اللهُ ، وقالَ الآخرُ : أُمرتُ بإهراقِ زيتٍ اشتهاهُ فلانٌ العابدُ) .

فهٰذا تنبيهٌ علىٰ أنَّ تيسيرَ أسبابِ الشهواتِ ليسَ مِنْ علاماتِ الخيرِ .

ولهٰذا امتنعَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ مِنْ شربةِ ماءٍ باردٍ بعسلٍ ، وقالَ : (اعزلوا عنِّي حسابَها) [(١)] .

فلا عبادةَ للهِ تعالىٰ أعظمُ مِنْ مخالفةِ النفسِ في الشهواتِ وتركِ اللذَّاتِ ، كما أوردناهُ في كتابِ رياضةِ النفسِ .

وقدْ روىٰ نافعٌ : أنَّ ابنَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما كانَ مريضاً ، فاشتهىٰ سمكةً طريَّةً ، فالتُمسَتْ لهُ بالمدينةِ ، فلمْ تُوجدْ ، ثمَّ وُجدَتْ بعدَ كذا وكذا ، فاشتُريَتْ لهُ بدرهمٍ ونصفٍ ، فشُويَتْ وحُملَتْ إليهِ علىٰ رغيفٍ ، فقامَ سائلٌ على البابِ ، فقالَ للغلامِ : لفَّها برغيفِها وادفعْها

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٦٢٨) .

إليهِ ، فقالَ لهُ الغلامُ : أصلحَكَ اللهُ !! قدِ اشتهيتَها منذُ كذا وكذا فلمْ نجدْها ، فلمَّا وجدناها . . اشتريناها بدرهمٍ ونصفٍ ، فنحنُ نعطيهِ ثمنَها ، فقالَ : لفَّها وادفعْها إليهِ ، ثمَّ قالَ الغلامُ للسائلِ : هلْ لكَ أنْ تأخذَ درهماً وتتركَها ؟ قالَ : نعمْ ، فأعطاهُ درهماً وأخذَها ، وأتىٰ بها ، فوضعَها بينَ يديهِ وقالَ : قدْ أعطيتُهُ درهماً وأخذتُها منهُ ، فقالَ : لفَّها وادفعْها إليهِ ، ولا تأخذْ منهُ الدرهمَ ؛ فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « أيُّما امرئٍ اشتهىٰ شهوةً ، فردَّ شهوتَهُ وآثرَ بها علىٰ نفسِهِ . . غفرَ اللهُ لهُ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا سددْتُ كَلَبَ الجوعِ برغيفٍ وكوزٍ مِنَ الماءِ القَراحِ . . فعلى الدنيا وأهلِها الدمارُ »[2] ، أشارَ إلىٰ أنَّ المقصودَ ردُّ ألمِ الجوعِ والعطشِ ودفعُ ضررِهما دونَ التنعُّمِ بلذَّاتِ الدنيا .

وبلغَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ يزيدَ بنَ أبي سفيانَ يأكلُ أنواعَ الطعامِ ، فقالَ عمرُ لمولىً لهُ : إذا علمتَ أنَّهُ قدْ حضرَ عشاؤُهُ . . فأعلمْني ، فأعلمَهُ ، فدخلَ عليهِ ، فقُرِّبَ عشاؤُهُ ، فأتوهُ بثريدٍ ولحمٍ ، فأكلَ معَهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ، ثمَّ قُرِّبَ الشواءُ ، وبسطَ يزيدُ يدَهُ ،

---

(١) رواه مع أصل القصة ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (١٤٢/٣١) ، ورواه دون ذكر القصة ابنُ عدي في « الكامل » (١٢٧/٥) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٩٨٨١) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٨٣٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، **وكَلَب الجوع** : شدته وضراوته .

وكفَّ عمرُ يدَهُ ، وقالَ : اللّهَ اللّهَ يا يزيدَ بنَ أبي سفيانَ ، أطعامٌ بعدَ طعامٍ ؟! والذي نفسُ عمرَ بيدِهِ ؛ لئِنْ خالفتُمْ عنْ سنتِهِمْ . . ليُخالفَنَّ بكُمْ عنْ طريقِهِمْ [1] .

وعنْ يسارِ بنِ نميرٍ قالَ : (ما نخلتُ لعمرَ دقيقاً قطُّ إلا وأنا لهُ عاصٍ) [2] .

ورُوِيَ أنَّ عتبةَ الغلامَ كانَ يعجنُ دقيقَهُ ويجفِّفُهُ في الشمسِ ، ثمَّ يأكلُهُ ويقولُ : (كسرةٌ وملحٌ حتَّىٰ يتهيَّأَ في الدارِ الآخرةِ الشواءُ والطعامُ الطيّبُ) [3] .

وكانَ يأخذُ الكوزَ ، فيغرفُ بهِ مِنْ حبٍّ كانَ في الشمسِ نهارَهُ ، فتقولُ مولاةٌ لهُ : يا عتبةُ ؛ لوْ أعطيتَني دقيقَكَ فخبزتُهُ لكَ وبرَّدْتُ لكَ الماءَ ؟! فيقولُ لها : يا أمَّ فلانٍ ؛ قدْ سددتُ عني كَلَبَ الجوعِ [4] .

وعنْ شقيقِ بنِ إبراهيمَ قالَ : لقيتُ إبراهيمَ بنَ أدهمَ بمكَّةَ في سوقِ الليلِ عندَ مولدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ جالسٌ بناحيةٍ مِنَ الطريقِ يبكي ، فأتيتُ إليهِ وجلستُ عندَهُ ، فقلتُ : أيشٍ هٰذا البكاءُ يا أبا إسحاقَ ؟ فقالَ : خيرٌ ، فعاودتُهُ مرتينِ وثلاثاً ، فلمَّا أكثرتُ عليه . . قالَ : يا شقيقُ ؛ أتسترُ عليَّ ؟ فقلتُ : يا أخي ؛ قلْ ما

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٧٨) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٨٣) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٥٩٤) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٢٩) .

(٤) هو ضمن الخبر السابق .

شئتَ ، فقالَ لي : اشتهَتْ نفسي منذُ ثلاثينَ سنةً سِكْباجاً[1] ، فمنعتُها جهدي ، فلمَّا كانَ البارحةَ . . كنتُ جالساً وقدْ غلبَني النعاسُ ، إذا أنا بفتىً شابٍّ بيدِهِ قدحٌ أخضرُ يعلو منهُ بخارٌ ورائحةُ سِكْباجٍ ، قالَ : فجمعتُ نهمتي عنهُ ، فقرَّبَهُ وقالَ : يا إبراهيمُ ؛ كُلْ ، فقلتُ : ما آكلُ شيئاً قدْ تركتُهُ للهِ تعالىٰ ، فقالَ لي : لئِنْ أطعمَكَ اللهُ . . تأكلُ ؟ فما كانَ لي جوابٌ إلا أنِّي بكيتُ ، فقالَ لي : كُلْ رحمَكَ اللهُ ، فقلتُ : قدْ أُمرنا ألا نطرحَ في وعائِنا إلا مِنْ حيثُ نعلمُ ، فقالَ لي : كُلْ عافاكَ اللهُ ، فإنَّما أعطيتُ ، فقيلَ لي : يا خضرُ ؛ اذهبْ بهٰذا وأطعمْ نفسَ إبراهيمَ بنِ أدهمَ ، فقدْ رحمَها اللهُ مِنْ طولِ صبْرِها علىٰ ما يحملُها مِنْ منعِها ، اعلمْ يا إبراهيمُ أنِّي سمعتُ الملائكةَ يقولونَ : مَنْ أعطيَ فلمْ يأخذْ . . طلبَ فلمْ يُعطَ ، فقلتُ : إنْ كانَ كذٰلكَ . . فهٰأنا بينَ يديكَ لأجلِ العقدِ معَ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ التفتُّ فإذا أنا بفتىً آخرَ ناولَهُ شيئاً وقالَ : يا خضرُ ؛ لقِّمْهُ أنتَ ، فلمْ يزلْ يلقِّمُني حتَّىٰ شبعتُ ، فانتبهتُ وحلاوتُهُ في فمي .

قالَ شقيقٌ : فقلتُ : أرني كفَّكَ ، فأخذتُ بكفيَّ كفَّهُ فقبَّلتُها ، وقلتُ : يا مَنْ يطعمُ الجياعَ الشهواتِ إذا صحَّحوا المنعَ ، يا مَنْ يقدحُ في الضميرِ اليقينَ ، يا مَنْ سقىٰ قلوبَهُمْ مِنْ محبَّتِهِ ؛ أترىٰ لشقيقٍ عندَكَ حالاً ؟ ثمَّ رفعتُ يدَ إبراهيمَ بنِ أدهمَ إلى السماءِ وقلتُ : بقدْرِ هٰذا الكفِّ عندَكَ ، وبقدْرِ صاحبِهِ ، وبالجودِ الذي وُجدَ منكَ . . جُدْ

---

(١) السكباج : معرب ، وهو طعام مؤلف من لحم يطبخ بخل .

علىٰ عبدِكَ الفقيرِ إلىٰ فضلِكَ وإحسانِكَ ورحمتِكَ وإنْ لمْ يستحقَّ ذٰلكَ ، قالَ : فقامَ إبراهيمُ ومشىٰ حتَّىٰ دخلنا المسجدَ الحرامَ [1] .

ورُوِيَ عَنْ مالكِ بنِ دينارٍ : أنَّهُ بقيَ أربعينَ سنةً يشتهي لبناً ، فلمْ يأكلْهُ [2] .

وأُهديَ إليهِ يوماً رطبٌ ، فقالَ لأصحابِهِ : كلوا ، فما ذقتُهُ منذُ أربعينَ سنةً [3] .

وقالَ أحمدُ بنُ أبي الحواري : اشتهىٰ أبو سليمانَ الدارانيُّ رغيفاً حارّاً بملحٍ ، فجئتُ بهِ إليهِ ، فعضَّ منهُ عضَّةً ، ثمَّ طرحَهُ وأقبلَ يبكي ، وقالَ : عَجِلتُ إلىٰ شهوتي بعدَ إطالةِ جهدي ، واشقوتي ، قدْ عزمتُ على التوبةِ ، فأقلني ، قالَ أحمدُ : فما رأيتُهُ أكلَ الملحَ حتَّىٰ لقِيَ اللّٰهَ تعالىٰ [4] .

وقالَ مالكُ بنُ ضيغمٍ : مررتُ علىٰ سوقِ البصرةِ ، فنظرتُ إلى البقْلِ ، فقالَتْ لي نفسي : لوْ أطعمتَني الليلةَ مِنْ هٰذا ، فأقسمتُ ألا أطعمَها إيَّاهُ أربعينَ ليلةً .

ومكثَ مالكُ بنُ دينارٍ بالبصرةِ خمسينَ سنةً ما أكلَ رطبةً لأهلِ البصرةِ ولا بُسرةً قطُّ ، وقالَ : (يا أهلَ البصرةِ ؛ عشتُ فيكُمْ خمسينَ

---

(١) رواه ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/٣٢٧) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٦٦) .

(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٧/٤١٤) .

(٤) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٤/١٣٠) .

سنةً ، فما أكلتُ لكُمْ رطبةً ولا بُسرةً ، فما زادَ فيكُمْ ما نقصَ منِّي ، ولا نقص منِّي ما زادَ فيكُمْ) ، وقالَ : (طلقتُ الدنيا منذُ خمسينَ سنةً ، اشتهَتْ نفسي لبناً منذُ أربعينَ سنةً ، فواللهِ ؛ لا أطعمُها حتىٰ ألحقَ باللهِ تعالىٰ) [1] .

وقالَ حمَّادُ بنُ أبي حنيفةَ : أتيتُ داوودَ الطائيَّ والبابُ مغلقٌ عليهِ ، فسمعتُهُ يقولُ : اشتهيتِ جزراً فأطعمتُكِ جزراً ، ثمَّ اشتهيتِ تمراً . . فآليتُ ألا تأكليهِ أبداً ، فسلَّمْتُ ودخلتُ ، فإذا هوَ وحدَهُ [2] .

ومرَّ أبو حازمٍ يوماً في السوقِ ، فرأى الفاكهةَ ، فاشتهاها ، فقالَ لابنِهِ : اشترِ لنا مِنْ هٰذهِ الفاكهةِ المقطوعةِ الممنوعةِ ، لعلَّنا نذهبُ إلى الفاكهةِ التي لا مقطوعةٌ ولا ممنوعةٌ ، فلمَّا اشتراها وأتىٰ بها إليهِ . . قالَ لنفسِهِ : قدْ خدعتِيني حتَّىٰ نظرتُ واشتهيتُ ، وغلبتِيني حتَّى اشتريتُ ، واللهِ ؛ لا ذقتيهِ ، فبعثَ بها إلىٰ يتامىٰ مِنَ الفقراءِ .

وعنْ موسى الأشجِّ أنَّهُ قالَ : (نفسي تشتهي ملحاً جريشاً منذُ عشرينَ سنةً) .

وعنْ أحمدَ بنِ خليفةَ قالَ : (نفسي تشتهي منذُ عشرينَ سنةً ، ما تطلبُ منِّي إلا الماءَ حتَّىٰ تَرْوَىٰ ، فما أرويتُها) .

---

(١) بنحوه رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٦/٤٠٥ ـ ٤٠٦) ، وذكر (ثلاثين) بدل (خمسين) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/٣٥٠) .

ورُوِيَ أنَّ عتبةَ الغلامَ اشتهىٰ لحماً سبعَ سنينَ ، فلمَّا كانَ بعدَ ذٰلكَ . . قالَ : قدِ استحييتُ مِنْ نفسي أنْ أدافعَها منذُ سبعِ سنينَ سنةً بعدَ سنةٍ ، فاشترىٰ قطعةَ لحمٍ علىٰ خبزٍ وشواها ، وتركَها على الرغيفِ ، فلقيَ صبيّاً ، فقالَ لهُ : ألستَ أنتَ ابنَ فلانٍ وقدْ ماتَ أبوكَ ؟ قالَ : بلىٰ ، فناولَهُ إيَّاهُ ، قالوا : وأقبلَ يبكي يقرأ : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [1] ، ثمَّ لمْ يذقْهُ بعدَ ذٰلكَ [2] .

ومكثَ يشتهي تمراً سنينَ ، فلمَّا كانَ ذاتَ يومٍ . . اشترىٰ تمراً بقيراطٍ ورفعَهُ إلى الليلِ ليفطرَ عليهِ ، قالَ : فهبَّتْ ريحٌ شديدةٌ حتَّىٰ أظلمَتِ الدنيا ، ففزعَ الناسُ ، فأقبلَ عتبةُ علىٰ نفسِهِ يقولُ : هٰذا لجراءتي عليكَ وشرائي التمرَ بالقيراطِ ، ثمَّ قالَ لنفسِهِ : ما أظنُّ أُخِذَ الناسُ إلا بذنبِكِ ، عليَّ ألا تذوقيهِ [3] .

واشترىٰ داوودُ الطائيُّ بنصفِ فَلْسٍ بقْلاً ، وبفلسٍ خلّاً ، وأقبلَ ليلتَهُ كلَّها يقولُ لنفسِهِ : ويلكَ يا داوودُ ؛ ما أطولَ حسابَكَ يومَ القيامةِ !! ثمَّ لمْ يأكلْ بعدَهُ إلا قَفاراً [4] .

وقالَ عتبةُ الغلامُ يوماً لعبدِ الواحدِ بنِ زيدٍ : إنَّ فلاناً يصفُ مِنْ نفسِهِ منزلةً ما أعرفُها مِنْ نفسي ، فقالَ : لأنَّكَ تأكلُ معَ خبزِكَ تمراً ،

---

(١) سورة الإنسان : (٨) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٣٠) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٢٨ ـ ٢٢٩) .

(٤) أي : خبزاً يابساً وحده .

وهو لا يزيدُ على الخبزِ شيئاً ، قالَ : فإنْ أنا تركتُ أكلَ التمرِ . . عرفْتُ تلكَ المنزلةَ ؟ قالَ : نعمْ ، وغيرَها ، فأخذَ يبكي ، فقالَ لهُ بعضُ أصحابِهِ : أبكى اللهُ عينَكَ ، أعلى التمرِ تبكي ؟! فقالَ عبدُ الواحدِ : دعْهُ ؛ فإنَّ نفسَهُ قدْ عرفَتْ صدقَ عزمِهِ في التركِ ، وهوَ إذا تركَ شيئاً . . لم يعاوِدْهُ أبداً (١) .

وقالَ جعفرُ بنُ نصيرٍ : أمرَني الجنيدُ أنْ أشتريَ لهُ التينَ الوزيريَّ ، فاشتريتُهُ ، فلما أفطرَ . . أخذَ واحدةً فوضعَها في فمِهِ ، ثمَّ ألقاها وجعلَ يبكي ، ثمَّ قالَ : احملْهُ ، فقلتُ لهُ في ذٰلكَ ، فقالَ : هتفَ في قلبي هاتفٌ : أما تستحي ؟! تركتَهُ مِنْ أجلي ثمَّ تعودُ إليهِ ؟! (٢) .

وقالَ صالحٌ المرّيُّ : قلتُ لعطاءٍ السلميِّ : إنّي متكلِّفٌ لكَ شيئاً ، فلا تردَّ عليَّ كرامتي ، فقالَ : افعلْ ما تريدُ ، قالَ : فبعثتُ إليهِ معَ ابني شربةً مِنْ سويقٍ قدْ لتتُّهُ بسمْنٍ وعسلٍ ، وقلتُ : لا تبرحْ حتَّىٰ يشربَها ، فشربَها ، فلمَّا كانَ مِنَ الغدِ . . جعلتُ لهُ نحوَها ، فردَّها ولمْ يشربْها ، فأتيتُهُ ولمتُهُ علىٰ ذٰلكَ ، وقلتُ : سبحانَ اللهِ !! رددتَ عليَّ كرامتي ، فلمَّا رأىٰ وجدي لذٰلكَ . . قالَ : لا يسوءُكَ هـٰذا ، إنّي قدْ شربتُها أوّلَ مَرَّةٍ ، وقدْ راودتُ نفسي في المرَّةِ الثانيةِ علىٰ شربِها فلمْ أقدرْ علىٰ ذٰلكَ ، كلَّما أردتُ ذٰلكَ . . ذكرتُ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن

---

(١) قوت القلوب (٢/١٧٤) .

(٢) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٢٧٨) .

﴿ وَرَآبِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾[1] ، قالَ صالحٌ : فبكيتُ وقلتُ في نفسي : أنا في وادٍ وأنتَ في وادٍ آخرَ[2] .

وقالَ السريُّ السقطيُّ : (نفسي منذُ ثلاثينَ سنةً تطالبُني أنْ أغمسَ جزرةً في دِبسٍ فما أطعمتُها)[3] .

وقالَ أبو بكرٍ الجلاءُ : أعرفُ إنساناً تقولُ لهُ نفسُهُ : أنا أصبرُ لكَ علىٰ طيِّ عشرةِ أيامٍ وأطعمْني بعدَ ذٰلكَ شهوةً أشتهيها ، فيقولُ لها : لا أريدُ أن تطوي عشرةَ أيامٍ ، ولٰكنِ اتركي هٰذهِ الشهوةَ .

ورُوِيَ أنَّ عابداً دعا بعضَ إخوانِهِ ، فقرَّبَ إليهِ رُغفاناً ، فجعلَ أخوهُ يقلِّبُ الأرغفةَ ليختارَ أجودَها ، فقالَ لهُ العابدُ : مَهْ ، أيَّ شيءٍ تصنعُ ؟ أما علمتَ أنَّ في الرغيفِ الذي رغبتَ عنهُ كذا وكذا حكمةً ، وعملَ فيهِ كذا وكذا صانعاً ، حتَّى استدارَ مِنَ السحابِ الذي يحملُ الماءَ ، والماءِ الذي يسقي الأرضَ ، والرياحِ ، والأرضِ ، والبهائمِ ، وبني آدمَ ، حتَّىٰ صارَ إليكَ ، ثمَّ أنتَ بعدَ هٰذا تقلبُهُ ولا ترضىٰ بهِ !![4] .

وفي الخبرِ : لا يستديرُ الرغيفُ ويُوضعُ بينَ يديكَ حتَّىٰ يعملَ فيهِ ثلاثُ مئةٍ وستونَ صانعاً ، أوَّلُهُمْ ميكائيلُ عليهِ السلامُ الذي

---

(١) سورة إبراهيم ﷺ : (١٧) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٢١٩) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١١٦) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٢٧٧) .
(٤) قوت القلوب (٢/١٦٨) .

يكيلُ الماءَ مِنْ خزائنِ الرحمةِ ، ثمَّ الملائكةُ التي تزجي السحابَ ، والشمسُ والقمرُ ، والأفلاكُ ، وملائكةُ الهواءِ ، ودوابُّ الأرضِ ، وآخرُ ذٰلكَ الخبَّازُ ، ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (١) .

وقالَ بعضُهُمْ : أتيتُ قاسماً الجوعيَّ ، فسألتُهُ عنِ الزهدِ أيُّ شيءٍ هوَ ؟ فقالَ : أيَّ شيءٍ سمعتَ فيهِ ؟ فعددتُ أقوالاً ، فسكتَ ، فقلتُ : وأيَّ شيءٍ تقولُ أنتَ ؟ فقالَ : اعلمْ أنَّ البطنَ دنيا العبدِ ، فبقدْرِ ما يملكُ مِنْ بطنِهِ يملكُ مِنَ الزهدِ ، وبقدْرِ ما يملكُهُ بطنُهُ . . تملكُهُ الدنيا (٢) .

وكانَ بشرُ بنُ الحارثِ قدِ اعتلَّ مرةً ، فسألَ عبدَ الرحمٰنِ المتطبِّبَ عنْ شيءٍ يوافقُهُ مِنَ المأكولاتِ ، فقالَ : تسألُني ، فإذا وصفتُ لكَ . . لمْ تقبلْ منِّي !! قالَ بشرٌ : فصِفْ لي حتَّىٰ أسمعَ ، قالَ : تشربُ سَكَنْجبيناً ، وتمصُّ سفرجلاً ، وتأكلُ بعدَ ذٰلكَ إسفيذباجاً ، فقالَ لهُ بشرٌ : هلْ تعلمُ شيئاً أقلَّ مِنَ السكنجبينِ ثمناً يقومُ مقامَهُ ؟ قالَ : لا ، قالَ : أنا أعرفُ ، قالَ : ما هوَ ؟ قالَ : الهندبا بالخلِّ ، ثمَّ قالَ :

---

(١) سورة إبراهيم ﷺ : (٣٤) ، وهو كذا في « القوت » (١٦٩/٢) ، وقول المصنف : (وفي الخبر) المقصود : وفي الأخبار الإسرائيليات ، وهو زيادة على الخبر السابق الذي رواه وهب بن منبه كما هو مبيَّن في « القوت » ، وقد تقدم مرفوعاً ما رواه الحاكم في « المستدرك » (١٢٢/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٤٨١) : « أكرموا الخبز » ، وعند أبي نعيم في « الحلية » (٢٤٦/٥) زيادة : « فإن الله سخر له بركات السماوات والأرض » من حديث عبد الله بن أم حرام ، وهو معنىٰ هٰذا الكلام .
(٢) قوت القلوب (١٧٢/٢) .

أتعرفُ شيئاً أقلَّ ثمناً مِنَ السفرجلِ يقومُ مقامَهُ ؟ قالَ : لا ، قال : أنا أعرفُ ، قالَ : ما هوَ ؟ قالَ : الخرنوبُ الشاميُّ ، قالَ : فتعرفُ شيئاً أقلَّ ثمناً مِنَ الإسفيذباجِ يقومُ مقامَهُ ؟ قالَ : لا ، قالَ : أنا أعرفُ ، ماءُ الحمصِ بسمْنِ البقرِ في معناهُ ، فقالَ لهُ عبدُ الرحمـٰنِ : أنتَ أعلمُ منِّي بالطبِّ ، فلِمَ تسألُني ؟ [١] .

❁ ❁ ❁

فقدْ عرفتَ بهـٰذا أنَّ هـٰؤلاءِ كيفَ امتنعوا منْ أكلِ الشهواتِ ، ومِنَ الشبعِ مِنَ الأقواتِ ، وكانَ امتناعُهُمْ للفوائدِ التي ذكرناها ، وفي بعضِ الأوقاتِ لأنَّهُمْ كانوا لا يصفو لهُمْ الحلالُ ، فلمْ يرخِّصوا لأنفسِهِمْ إلا في قدْرِ الضرورةِ ، والشهواتُ ليسَتْ مِنَ الضروراتِ ، حتَّىٰ قالَ أبو سليمانَ : (الملحُ شهوةٌ) [٢] ؛ لأنَّهُ زيادةٌ على الخبزِ ، وما زادَ على الخبزِ شهوةٌ ، وهـٰذا هوَ النهايةُ .

فمَنْ لمْ يقدرْ علىٰ ذٰلكَ . . فينبغي ألا يغفُلَ عنْ نفسِهِ ، ولا ينهمكَ في الشهواتِ ، فكفىٰ بالمرءِ إسرافاً أنْ يأكلَ كلَّ ما يشتهيهِ ، ويفعلَ كلَّ ما يهواهُ ، فينبغي ألا يواظبَ علىٰ أكلِ اللحمِ ، وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ تركَ اللحمَ أربعينَ يوماً . . ساءَ خلقُهُ ،

---

(١) قوت القلوب (٢/١٧٢) ، **والسكنجبين** : المعمول بالخل والعسل ، **والإسفيذباج** : أصله بالفارسية : اسپيدبا ، وهو نوع من الحساء ، وهو الشورباج ، ويعرف بالمسلوقة كذٰلك .

(٢) روى القول ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٣/٢٥٦) .

ومَنْ داومَ عليهِ أربعينَ يوماً . . قسا قلبُهُ) [١] .

وقيلَ : (إنَّ للمداومةِ على اللحمِ ضراوةً كضراوةِ الخمرِ) [٢] .

ومهما كانَ جائعاً ، وتاقَتْ نفسُهُ إلى الجماعِ . . فلا ينبغي أنْ يأكلَ ويجامعَ ، فيعطيَ نفسَهُ شهوتينِ ، فتقوىٰ عليهِ ، وربما طلبتِ النفسُ الأكلَ لتنبسطَ في الجماعِ .

ويُستحبُّ ألا ينامَ على الشبعِ ، فيجمعَ بينَ غفلتينِ ، فيعتادَ الفتورَ ، ويقسوَ قلبُهُ لذٰلكَ ، ولٰكنْ ليصلِّ ، أوْ ليجلسْ فيذكرَ اللهَ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ أقربُ إلى الشكرِ .

وفي الحديثِ : « أذيبوا طعامَكُمْ بالصلاةِ والذكرِ ، ولا تناموا عليهِ فتقسوَ قلوبُكُمْ » [٣] .

وأقلُّ ذٰلكَ أنْ يصلِّيَ أربعَ ركعاتٍ ، أوْ يسبِّحَ مئةَ تسبيحةٍ ، أوْ يقرأَ جزءاً مِنَ القرآنِ عَقيبَ كلِّ أكلةٍ [٤] .

وقدْ كانَ سفيانُ الثوريُّ إذا شبعَ ليلةً . . أحياها ، وإذا شبعَ في

---

(١) كذا في « القوت » (٢/١٧٢) ، وبنحوه رواه البيهقي في « الشعب » (٥٥٠٩) ، ورواه عن حفص بن عمرو ابنُ أبي الدنيا في « إصلاح المال » (١٩٠) .

(٢) رواه مالك في « الموطأ » (٢/٩٣٥) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٤٩٤٩) ، وابن عدي في « الكامل » (١/٤٠٥) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٤) قوت القلوب (٢/١٧٢) ، فإن وجد نشاطاً . . أطال في صلاته ؛ إما بإطالة القراءة في الركعات ، أو زاد علىٰ عدد الركعات ، فإن لحركة الأعضاء قياماً وقعوداً سرّاً بليغاً في إذابة الطعام . « إتحاف » (٧/٤١٩) .

يومٍ . . واصلَهُ بالصلاةِ والذكرِ ، وكانَ يقولُ : (أشبعِ الزنجيَّ وكُدَّهُ) ، ومرَّةً يقولُ : (أشبعِ الحمارَ وكُدَّهُ)[1] .

ومهما اشتهىٰ شيئاً مِنَ الطعامِ وطيباتِ الفواكهِ . . فينبغي أنْ يتركَ الخبزَ ويأكلَها بدلاً منهُ ؛ لتكونَ قوتاً ، ولا تكونَ تفكُّهاً ؛ لئلا يجمعَ للنفسِ بينَ عادةٍ وشهوةٍ .

نظرَ سهلٌ إلى ابنِ سالمٍ وفي يدهِ خبزٌ وتمرٌ ، فقالَ لهُ : (ابتدئْ بالتمرِ ، فإنْ قامَتْ كفايتُكَ بهِ ، وإلا . . أخذتَ مِنَ الخبزِ بعدَهُ بقدْرِ حاجتِكَ)[2] .

ومهما وجدَ طعاماً لطيفاً وغليظاً . . فليقدِّمِ اللطيفَ ؛ فإنَّهُ لا يشتهي الغليظَ بعدَهُ ، ولوْ قدَّمَ الغليظَ . . لأكلَ اللطيفَ أيضاً للطافتِهِ .

وكانَ بعضُهُمْ يقولُ لأصحابِهِ : (لا تأكلوا الشهواتِ ، فإنْ أكلتموها . . فلا تطلبوها ، فإنْ طلبتموها . . فلا تحبُّوها)[3] .

وطلبُ بعضِ أنواعِ الخبزِ شهوةٌ ؛ قالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رحمةُ اللهِ عليهما : (ما تأتينا مِنَ العراقِ فاكهةٌ أحبُّ إلينا مِنَ الخبزِ)[4] ، فرأىٰ ذٰلكَ الخبزَ فاكهةً .

وعلى الجملةِ : لا سبيلَ إلىٰ إهمالِ النفسِ في الشهواتِ في

---

(١) قوت القلوب (٢/١٧٢) ، وهو عند أبي نعيم في « الحلية » (٦/٣٨٩) .
(٢) قوت القلوب (٢/١٧٢) ، وابن سالم هو شيخ أبي طالب المكي .
(٣) قوت القلوب (٢/١٧٤) .
(٤) قوت القلوب (٢/١٧٤) .

المباحاتِ واتباعِها بكلِّ حالٍ ، فبقدْرِ ما يستوفي العبدُ مِنْ شهوتِهِ يخشىٰ أنْ يُقالَ لهُ يومَ القيامةِ : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ [1] ، وبقدْرِ ما يجاهدُ نفسَهُ ويتركُ شهوتَهُ يتمتَّعُ في الدارِ الآخرةِ بشهواتِهِ .

قالَ بعضُ أهلِ البصرةِ : نازعَتْني نفسي خبزَ أرزٍّ وسمكاً ، فمنعتُها ، فقويَتْ مطالبتُها ، واشتدَّتْ مجاهدتي لها عشرينَ سنةً ، فلمَّا ماتَ . . قالَ بعضُهُمْ : رأيتُهُ في المنامِ ، فقلتُ لهُ : ماذا فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : لا أحسنُ أنْ أصفَ ما تلقَّاني بهِ ربِّي مِنَ النعيمِ والكرامةِ ، وكانَ أوَّلُ شيءٍ استقبلَني بهِ خبزَ أرزٍّ وسمكاً ، وقالَ : كُلْ شهوتَكَ اليومَ هنيئاً بغيرِ حسابٍ [2] .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ [3] ، وكانوا قدْ أسلفوا تركَ الشهواتِ ، ولهٰذا قالَ أبو سليمانَ : (تركُ شهوةٍ من شهواتِ النفسِ أنفعُ للقلبِ مِنْ صيامِ سنةٍ وقيامِها) [4] ، وفَّقَنا اللهُ لما يرضيهِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) سورة الأحقاف : (٢٠) .

(٢) قوت القلوب (٢/١٧٣) .

(٣) سورة الحاقة : (٢٤) .

(٤) قوت القلوب (٢/١٧٣) .

بيان اختلاف حكم الجوع، وفضيلته، واختلاف أحوال الناس فيه

اعلمْ : أنَّ المطلوبَ الأقصىٰ في جميعِ الأمورِ والأخلاقِ الوسطُ ؛ إذْ خيرُ الأمورِ أوساطُها ، وكلا طرفي قصْدِ الأمورِ ذميمٌ .

وما أوردناهُ في فضائلِ الجوعِ ربَّما يومئُ إلىٰ أنَّ الإفراطَ فيهِ مطلوبٌ ، وهيهاتَ ، ولٰكنْ مِنْ أسرارِ حكمةِ الشريعةِ : أنَّ كلَّ ما يطلبُ الطبعُ فيهِ الطرفَ الأقصىٰ وكانَ فيهِ فسادٌ . . جاءَ الشرعُ بالمبالغةِ في المنْعِ منهُ علىٰ وجهٍ يُومئُ عندَ الجاهلِ إلىٰ أنَّ المطلوبَ مضادَّةُ ما يقتضيهِ الطبعُ بغايةِ الإمكانِ ، والعالمُ يدركُ أنَّ المقصودَ الوسطُ ؛ لأنَّ الطبعَ إذا طلبَ غايةَ الشبعِ . . فالشرعُ ينبغي أنْ يمدحَ غايةَ الجوعِ ؛ حتَّىٰ يكونَ الطبعُ باعثاً والشرعُ مانعاً ، فيتقاومانِ ، ويحصلُ الاعتدالُ ، فإنَّ مَنْ يقدرُ علىٰ قمْعِ الطبعِ بالكليَّةِ بعيدٌ ، فيُعلمُ أنَّهُ لا ينتهي إلى الغايةِ .

فإنْ أسرفَ مسرفٌ في مضادَّةِ الطبْعِ . . كانَ في الشرعِ أيضاً ما يدلُّ علىٰ إساءتِهِ ، كما أنَّ الشرعَ بالغَ في الثناءِ علىٰ قيامِ الليلِ وصيامِ النهارِ ، ثمَّ لمَّا علمَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ حالِ بعضِهِمْ أنَّهُ يصومُ الدهرَ كلَّهُ ويقومُ الليلَ كلَّهُ . . نهىٰ عنهُ [1] .

فإذا عرفتَ هٰذا . . فاعلمْ أنَّ الأفضلَ بالإضافةِ إلى الطبعِ المعتدلِ

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣) ، ومسلم (١٤٠١) ، والنسائي (٤/ ٢١٠) .

أنْ يأكلَ بحيثُ لا يحسُّ بثقلِ المعدةِ ، ولا يحسُّ بألمِ الجوعِ ، بلْ ينسىٰ بطنَهُ ، ولا يؤثِّرُ فيهِ الجوعُ أصلاً ، فإنَّ مقصودَ الأكلِ بقاءُ الحياةِ وقوَّةُ العبادةِ ، وثقلُ المعدةِ يمنعُ مِنَ العبادةِ ، وألمُ الجوعِ أيضاً يشغلُ القلبَ ويمنعُ منها .

فالمقصودُ : أنْ يأكلَ أكلاً لا يبقىٰ للمأكولِ فيهِ أثرٌ ؛ ليكونَ متشبِّهاً بالملائكةِ ، فإنَّهُمْ مقدَّسونَ عنْ ثقلِ الطعامِ وألمِ الجوعِ ، وغايةُ الإنسانِ الاقتداءُ بهِمْ ، وإذْ لمْ يكنْ للإنسانِ خلاصٌ مِنَ الشبعِ والجوعِ . . فأبعدُ الأحوالِ عنِ الطرفينِ الوسطُ ، وهوَ الاعتدالُ .

ومثالُ طلبِ الآدميِّ البعدَ عنْ هٰذهِ الأطرافِ المتقابلةِ بالرجوعِ إلى الوسطِ مثالُ نملةٍ أُلقيَتْ في وسطِ حلقةٍ محمَّاةٍ على النارِ ، مطروحةٍ على الأرضِ ، فإنَّ النملةَ تهربُ مِنْ حرارةِ الحلقةِ وهيَ محيطةٌ بها لا تقدرُ على الخروجِ منها ، فلا تزالُ تهربُ حتَّىٰ تستقرَّ على المركزِ الذي هوَ الوسطُ ، فلوْ ماتَتْ . . ماتَتْ على الوسطِ ؛ لأنَّ الوسطَ هوَ أبعدُ المواضعِ عنِ الحرارةِ التي في الحلقةِ المحيطةِ ؛ فكذٰلكَ الشهواتُ محيطةٌ بالإنسانِ إحاطةَ تلكَ الحلقةِ بالنملةِ ، والملائكةُ خارجونَ عنْ تلكَ الحلقةِ ، ولا مطمعَ للإنسانِ في الخروجِ ، وهوَ يريدُ أنْ يتشبَّهَ بالملائكةِ في الخلاصِ ، فأشبهُ أحوالِهِ بهِمُ البعدُ ، وأبعدُ المواضعِ عنِ الأطرافِ الوسطُ ، فصارَ الوسطُ مطلوباً في جميعِ هٰذهِ الأحوالِ [1] المتقابلةِ ، وعنهُ عُبِّرَ

---

(١) في غير (ج) : (الأخلاق) بدل (الأحوال) .

بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ الأمورِ أوساطُها »[1] .

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُواْ ﴾[2] .

ومهما لمْ يحسَّ الإنسانُ بجوعٍ ولا شبعٍ . . تيسَّرَتْ لهُ العبادةُ والفكْرُ ، وخفَّ في نفسِهِ وقويَ على العملِ معَ خفَّتِهِ ، ولٰكنَّ هٰذا بعدَ اعتدالِ الطبعِ .

أمَّا في بدايةِ الأمرِ ، إذا كانَتِ النفسُ جموحاً ، متشوِّقةً إلى الشهواتِ ، مائلةً إلى الإفراطِ . . فالاعتدالُ لا ينفعُها ، بلْ لا بدَّ من المبالغةِ في إيلامِها بالجوعِ ، كما يُبالغُ في إيلامِ الدابَّةِ التي ليسَتْ مروضةً بالجوعِ والضربِ وغيرِهِ إلىٰ أنْ تعتدلَ ، فإذا ارتاضَتْ واستوتْ ، ورجعَتْ إلى الاعتدالِ . . تركَ تعذيبَها وإيلامَها .

ولأجلِ هٰذا السرِّ يأمرُ الشيخُ مريدَهُ بما لا يتعاطاهُ هوَ في نفسِهِ ، فيأمرُهُ بالجوعِ وهوَ لا يجوعُ ، ويمنعُهُ الفواكهَ والشهواتِ وقدْ لا يمتنعُ هوَ منها ؛ لأنَّهُ قدْ فرغَ مِنْ تأديبِ نفسِهِ ، فاستغنىٰ عنِ التعذيبِ .

ولمَّا كانَ أغلبُ أحوالِ النفسِ الشرهَ والشهوةَ والجماحَ والامتناعَ عنِ العبادةِ . . كانَ الأصلحُ لها الجوعَ الذي تحسُّ بألمِهِ في أكثرِ الأحوالِ ؛ لتنكسرَ نفسُهُ ، والمقصودُ : أنْ تنكسرَ حتَّىٰ تعتدلَ ، فترُدَّ بعدَ ذٰلكَ في الغذاءِ أيضاً إلى الاعتدالِ .

---

(١) رواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٣١٧٠/٦) عن معبد الجهني عن بعض الصحابة مرفوعاً .

(٢) سورة الأعراف : (٣١) .

وإنَّما يمتنعُ مِنْ ملازمةِ الجوعِ مِنْ سالكي طريقِ الآخرةِ إمَّا صدِّيقٌ ، وإمَّا مغرورٌ أحمقُ .

أمَّا الصدِّيقُ : فلاستقامةِ نفسِهِ على الصراطِ المستقيمِ ، واستغنائِهِ عنْ أنْ يُساقَ بسياطِ الجوعِ إلى الحقِّ .

وأمَّا المغرورُ : فلظنِّهِ بنفسِهِ أنَّهُ الصدِّيقُ المستغني عنْ تأديبِ نفسِهِ ، الظانُّ بها خيراً .

وهٰذا غرورٌ عظيمٌ ، وهوَ الأغلبُ ؛ فإنَّ النفسَ قلَّما تتأدَّبُ تأدُّباً كاملاً ، وكثيراً ما تغترُّ فتنظرُ إلى الصدِّيقِ ومسامحتِهِ نفسَهُ في ذٰلكَ ، فيسامحُ نفسَهُ ، كالمريضِ ينظرُ إلىٰ مَنْ قدْ صحَّ مِنْ مرضِهِ ، فيتناولُ ما يتناولُهُ ، ويظنُّ بنفسِهِ الصحَّةَ فيهلكُ .

والذي يدلُّ علىٰ أنَّ تقديرَ الطعامِ بمقدارٍ يسيرٍ في وقتٍ مخصوصٍ ونوعٍ مخصوصٍ ليسَ مقصوداً في نفسِهِ ، وإنَّما هوَ مجاهدةُ نفسٍ متنائيةٍ عنِ الحقِّ ، غيرِ بالغةٍ رتبةَ الكمالِ . . أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يكنْ لهُ تقديرٌ وتوقيتٌ لطعامِهِ ، قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يصومُ حتَّىٰ نقولَ : لا يفطرُ ، ويفطرُ حتَّىٰ نقولَ : لا يصومُ)[1] .

وكانَ يدخلُ علىٰ أهلِهِ فيقولُ : « هلْ عندَكُمْ مِنْ شيءٍ ؟ فإنْ قالوا : نعمْ . . أكلَ ، وإنْ قالوا : لا . . قالَ : « إنِّي إذاً صائمٌ »[2] .

---

(١) رواه البخاري (١٩٦٩) ، ومسلم (١١٥٦) .
(٢) رواه مسلم (١١٥٤) من حديث عائشة رضي الله عنها .

وكانَ يُقدَّمُ إليهِ الشيءُ فيقولُ : « أما إنِّي قدْ كنتُ أردتُ الصومَ » ، ثمَّ يأكلُ [١] ، وخرجَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً وقالَ : « إنِّي صائمٌ » ، فقالَتْ لهُ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قدْ أُهديَ إلينا حَيْسٌ [٢] ، فقالَ : « كنتُ أردتُ الصومَ ، ولٰكنْ قرِّبيهِ » [٣] .

ولذٰلكَ حُكِيَ أنَّ سهلاً قيلَ لهُ : كيفَ كنتَ في بدايتِكَ ؟ فأخبرَ بضروبٍ مِنَ الرياضاتِ ؛ منها أنَّهُ كانَ يقتاتُ ورقَ النَّبْقِ مدَّةً ، ومنها أنَّهُ أكلَ دقاقَ التبْنِ [٤] مدَّةَ ثلاثِ سنينَ ، ثمَّ ذكرَ أنَّهُ اقتاتَ بثلاثةِ دراهمَ في ثلاثِ سنينَ ، فقيلَ لهُ : فكيفَ أنتَ في وقتِكَ هٰذا ؟ فقالَ : آكلُ بلا حدٍّ ولا توقيتٍ [٥] .

وليسَ المرادُ بقولهِ : (بلا حدٍّ ولا توقيتٍ) أنِّي آكلُ كثيراً ، بلْ : لا أقدِّرُ بمقدارٍ واحدٍ ما آكلُهُ .

وقدْ كانَ معروفٌ الكرخيُّ يُهدىٰ إليهِ طيباتُ الطعامِ ، فيأكلُ ، فقيلَ لهُ : إنَّ أخاكَ بشراً لا يأكلُ مثلَ هٰذا ، فقالَ : إنَّ أخي بشراً قبضَهُ

---

(١) هو ضمن الخبر قبله الذي رواه مسلم (١١٥٤) ، ولفظه عنده : « قد كنت أصبحت صائماً » ، كما سيبينه في الخبر بعده .

(٢) **الحيس** : هو تمر ينزع نواه ويدق مع أقط ، ويعجنان بالسمن ، ثم يدلك باليد حتىٰ يبقىٰ كالثريد .

(٣) هو ضمن الخبر قبله كذٰلك ، ولفظ المصنف في تجزيئه الخبر تبع لصاحب « القوت » (١٧٦/٢) .

(٤) في (ب) : (دقاق شجرة التين) ، وفي (ك ، ق) : (دقاق التين) .

(٥) قوت القلوب (١٧٧/٢) .

الورعُ ، وأنا بسطَتْني المعرفةُ ، ثمَّ قالَ : إنَّما أنا ضيفٌ في دارِ مولايَ ، فإذا أطعمَني . . أكلتُ ، وإذا جوَّعَني . . صبرتُ ، ما لي وللاعتراضِ والتمييزِ ؟! [١] .

ودفعَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ إلىٰ بعضِ إخوانِهِ دراهمَ وقالَ : خذْ لنا بهٰذهِ الدراهمِ زُبْداً وعسلاً وخبزاً حوارياً ، فقالَ : يا أبا إسحاقَ ؛ بهٰذا كلِّهِ ؟! قالَ : ويحَكَ ، إذا وجدْنا . . أكلْنا أكلَ الرجالِ ، وإذا عدمْنا . . صبرْنا صبرَ الرجالِ [٢] .

وأصلحَ ذاتَ يومٍ طعاماً فأكثرَ ، ودعا نفراً يسيراً ، فيهمُ الأوزاعيُّ والثوريُّ ، فقالَ لهُ الثوريُّ : يا أبا إسحاقَ ؛ أما تخافُ أنْ يكونَ هٰذا إسرافاً ؟ فقالَ : ليسَ في الطعامِ إسرافٌ ، إنَّما الإسرافُ في اللباسِ والأثاثِ [٣] .

فالذي أخذَ العلمَ مِنَ السماعِ والنقْلِ تقليداً يرىٰ هٰذا مِنْ إبراهيمَ بنِ أدهمَ ، ويسمعُ عنْ مالكِ بنِ دينارٍ أنَّهُ قالَ : (ما دخلَ الملحُ بيتي منذُ عشرينَ سنةً) ، وعنْ سريٍّ السقطيِّ أنَّهُ منذُ أربعينَ سنةً يشتهي أنْ يغمسَ جزرةً في دِبْسٍ فما فعلَ [٤] . . فيراهُ متناقضاً ، فيتحيَّرُ ، أوْ يقطعُ بأنَّ أحدَهُما مخطئٌ .

---

(١) قوت القلوب (٢/١٧٧) .

(٢) قوت القلوب (٢/١٧٧) .

(٣) قوت القلوب (٢/١٧٧) ، وقد روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٧١٣٧) عن الحسن قوله : (ليس في الطعام إسراف) .

(٤) تقدم قريباً .

والبصيرُ بأسرارِ العلمِ يعلمُ أنَّ كلَّ ذٰلكَ حقٌّ ، ولٰكنْ بالإضافةِ إلى اختلافِ الأحوالِ .

ثمَّ هٰذهِ الأحوالُ المختلفةُ يسمعُها فطِنٌ محتاطٌ ، أَوْ غبيٌّ مغرورٌ :

فيقولُ المحتاطُ : (ما أنا مِنْ جملةِ العارفينَ حتَّىٰ أسامحَ نفسي ، فليسَ نفسي أطوعَ مِنْ نفْسِ سريٍّ السقطيِّ ومالكِ بنِ دينارٍ ، وهٰؤلاءِ مِنَ الممتنعينَ عنِ الشهواتِ) ، فيقتدي بهِمْ .

والمغرورُ يقولُ : (وما نفسي بأعصىٰ عليَّ مِنْ نفسِ معروفٍ الكرخيِّ وإبراهيمَ بنِ أدهمَ ، فأقتدي بهما ، وأرفعُ التقديرَ في مأكولي ، فأنا أيضاً ضيفٌ في دارِ مولايَ ، فما لي وللاعتراضِ) ، ثمَّ إنَّهُ لوْ قصَّرَ أحدٌ في حقِّهِ وتوقيرِهِ ، أو في مالِهِ وجاهِهِ بطرفةِ عينٍ واحدةٍ . . قامَتِ القيامةُ عليهِ ، واشتغلَ بالاعتراضِ !!

وهٰذا مجالٌ رحْبٌ للشيطانِ معَ الحمقىٰ ، بلْ رفعُ التقديرِ في الطعامِ والصيامِ وأكلِ الشهواتِ لا يسلمُ إلا لمَنْ ينظرُ مِنْ مشكاةِ الولايةِ أوِ النبوَّةِ ، فيكونُ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ علامةٌ في استرسالِهِ وانقباضِهِ ، ولا يكونُ ذٰلكَ إلا بعدَ خروجِ النفسِ عنْ طاعةِ الهوىٰ والعادةِ بالكلِّيَّةِ ، حتَّىٰ يكونَ أكلُهُ إذا أكلَ علىٰ نيَّةٍ كما يكونُ إمساكُهُ علىٰ نيَّةٍ ، فيكونُ عاملاً للهِ في أكلِهِ وإفطارِهِ .

فينبغي أنْ يتعلَّمَ الحزمَ مِنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ؛ فإنَّهُ كانَ يرىٰ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يحبُّ العسلَ ويأكلُهُ ، ثمَّ لمْ يقسْ

نفسَهُ عليهِ ، بلْ لمَّا عرضَتْ عليهِ شربةٌ باردةٌ ممزوجةٌ بعسلٍ . . جعلَ يديرُ الإناءَ في يدِهِ ويقولُ : (أشربُها وتذهبُ حلاوتُها وتبقىٰ تبعتُها ؟! اعزلوا عنِّي حسابَها) ، وتركَها [1] .

وهٰذهِ الأسرارُ لا يجوزُ لشيخٍ أنْ يكاشفَ بها مريدَهُ ، بلْ يقتصرُ علىٰ مدْحِ الجوعِ فقطْ ، ولا يدعوهُ إلى الاعتدالِ ، فإنَّهُ يقصرُ ـ لا محالةَ ـ عمَّا يدعوهُ إليهِ ، فينبغي أنْ يدعوَهُ إلىٰ غايةِ الجوعِ ، حتَّىٰ يتيسَّرَ لهُ الاعتدالُ ، ولا يذكرَ لهُ أنَّ العارفَ الكاملَ يستغني عنِ الرياضةِ ؛ فإنَّ الشيطانَ يجدُ متعلَّقاً مِنْ قلبِهِ ، فيلقي إليهِ كلَّ ساعةٍ : إنَّكَ عارفٌ كاملٌ ، وما الذي فاتَكَ مِنَ المعرفةِ والكمالِ ؟

بلْ كانَ مِنْ عادةِ إبراهيمَ الخوَّاصِ أنْ يخوضَ معَ المريدِ في كلِّ رياضةٍ كانَ يأمرُهُ بها ؛ كي لا يخطرَ ببالِهِ أنَّ الشيخَ لِمَ يأمرُهُ بما لمْ يفعلْهُ ، فينفرَهُ ذٰلكَ في رياضتِهِ .

والقويُّ إذا اشتغلَ بالرياضةِ وإصلاحِ الغيرِ . . لزمَهُ النزولُ إلىٰ حدِّ الضعفاءِ تشبُّهاً بهِمْ ، وتلطُّفاً في سياقتِهِمْ إلى السعادةِ ، وهٰذا ابتلاءٌ عظيمٌ للأنبياءِ والأولياءِ .

وإذا كانَ حدُّ الاعتدالِ خفيّاً في حقِّ كلِّ شخصٍ . . فالحزمُ والاحتياطُ ينبغي ألا يتركَ في كلِّ حالٍ .

ولذٰلكَ أدَّبَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ولدَهُ عبدَ اللهِ ؛ إذْ دخلَ عليهِ

---

(١) تقدم قريباً .

فوجدَهُ يأكُل لحماً مأدوماً بسمنٍ ، فعلاهُ بالدِّرَّةِ وقالَ : (لا أمَّ لكَ ، كُلْ يوماً خبزاً ولحماً ، ويوماً خبزاً ولبناً ، ويوماً خبزاً وسمناً ، ويوماً خبزاً وزيتاً ، ويوماً خبزاً وملحاً ، ويوماً خبزاً قَفاراً) .

وهٰذا هوَ الاعتدالُ ، فأمَّا المواظبةُ على اللحمِ والشهواتِ . . فإفراطٌ وإسرافٌ ، ومهاجرةُ اللحمِ بالكلِّيَّةِ إقتارٌ ، وهٰذا قَوامٌ بينَ ذٰلكَ .

❋ ❋ ❋

بيان آفة الرياء المتطرق إلى من ترك أكل الشهوات أو قلل الطعام

اعلمْ : أنَّهُ يدخلُ على تاركِ الشهواتِ آفتانِ عظيمتانِ ، هما أعظمُ مِنْ أكلِ الشهواتِ :

إحداهُما : ألا تقدرَ النفسُ على تركِ بعضِ الشهواتِ فيشتهيَها ، ولكن لا يريدُ أنْ يُعرفَ بأنَّهُ يشتهيها ، فيخفي الشهوةَ ، ويأكلُ في الخلوةِ ما لا يأكلُهُ معَ الجماعةِ ، وهذا هوَ الشركُ الخفيُّ .

سُئِلَ بعضُ العلماءِ عنْ بعضِ الزهادِ ، فسكتَ عنهُ ، فقيلَ لهُ : هلْ تعلمُ بهِ بأساً ، قالَ : يأكلُ في الخلوةِ ما لا يأكلُ في الجماعةِ [1] .

وهذهِ آفةٌ عظيمةٌ ، بلْ حقُّ العبدِ إذا ابتليَ بالشهواتِ وحبِّها أنْ يظهرَها ؛ فإنَّ هذا صدقُ الحالِ ، وهوَ يدلُّ على فواتِ المجاهداتِ بالأعمالِ ؛ فإنَّ إخفاءَ النقصِ وإظهارَ ضدِّهِ من الكمالِ هوَ نقصانانِ متضاعفانِ ، والكذبَ معَ الإخفاءِ كذبانِ ، فيكونُ مستحقاً لمقتينِ ، ولا يُرضى منهُ إلا بتوبتينِ صادقتينِ ، ولذلكَ شدَّدَ اللهُ أمرَ المنافقينَ [2] ، فقالَ تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [3] لأنَّ الكافرَ

(١) قوت القلوب (٢/١٧٥) .

(٢) فغضب عليهم ، ومقتهم مقتين ، ثم لم يرض منهم إلا بتوبتين ، واشترط عليهم شرطين . « إتحاف » (٧/٤٢٦) ، وقد جاء البيان الإلهي بتعذيب المنافقين مرتين إذ قال سبحانه : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [التوبة : ١٠١] .

(٣) سورة النساء : (١٤٥) .

كفرَ وأظهرَ ، وهـٰذا كفرَ وسترَ ، فكانَ سترُهُ لكفرِهِ كفراً آخرَ ؛ لأنَّهُ استخفَّ بنظرِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ إلىٰ قلبِهِ ، وعظَّمَ نظرَ المخلوقينَ ، فمحا الكفرَ عنْ ظاهرِهِ[1] .

والعارفونَ يُبتلَوْنَ بالشهواتِ بلْ بالمعاصي ، ولا يُبتلوْنَ بالرياءِ والغشِّ والإخفاءِ ، بلْ كمالُ العارفِ أنْ يتركَ الشهواتِ للهِ تعالىٰ ، ويظهرَ مِنْ نفسِهِ الشهوةَ ؛ إسقاطاً لمنزلتِهِ مِنْ قلوبِ الخلقِ .

وكانَ بعضُهُمْ يشتري الشهواتِ ويعلِّقُها في البيتِ وهوَ فيها مِنَ الزاهدينَ ، وإنَّما يقصدُ بهِ تلبيسَ حالِهِ ؛ ليصرفَ عنْ نفسِهِ قلوبَ الغافلينَ ، حتَّىٰ لا يتشوَّشَ حالُهُ[2] .

فنهايةُ الزهدِ الزهدُ في الزهدِ بإظهارِ ضدِّهِ ، وهـٰذا عملُ الصدِّيقينَ ، فإنَّهُ جمْعٌ بينَ صدقينِ ، كما أنَّ الأوَّلَ جمعٌ بينَ كذبينِ ، وهـٰذا قدْ حملَ على النفسِ ثقلينِ ، وجرَّعَها كأسَ الصبرِ مرَّتينِ ؛ مرَّةً بشربِهِ ، ومرَّةً برميِهِ ، فلا جرمَ أولـٰئكَ يُؤتونَ أجرَهُمْ مرَّتينِ بما صبروا .

وهـٰذا يضاهي طريقَ مَنْ يُعطىٰ جهراً فيأخذُ ، ويردُّ سرّاً ؛ ليكسرَ نفسَهُ بالذلِّ جهراً ، وبالفقرِ سرّاً ؛ فمَنْ فاتَهُ هـٰذا . . فلا ينبغي أنْ يفوتَهُ إظهارُ شهوتِهِ ونقصانِهِ والصدقُ فيهِ ، ولا ينبغي أنْ يغرَّهُ قولُ

---

(١) فزاد الله في هوانه ، وشدد في توبته بما وكده في شرطه ، فقال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ [النساء : ١٤٦] ، وهـٰذا مما لا يمتحن به عالم بالله تعالىٰ ولا غافل عن الله تعالىٰ ولله الحمد . « إتحاف » (٧/٤٢٦) .

(٢) قوت القلوب (٢/١٧٥) .

الشيطانِ : (إنَّكَ إذا أظهرتَ . . اقتدىٰ بكَ غيرُكَ ، فاسترْهُ إصلاحاً لغيرِكَ) ؛ فإنَّهُ لوْ قصدَ إصلاحَ غيرِهِ . . لكانَ إصلاحُ نفسِهِ أهمَّ عليهِ مِنْ غيرِهِ ، فهٰذا إنَّما يقصدُ الرياءَ المجرَّدَ ، ويروِّجُهُ عليهِ الشيطانُ في معرضِ إصلاحِ غيرِهِ ، فلذٰلكَ يثقلُ عليهِ ظهورُ ذٰلكَ منهُ وإنْ علمَ أنَّ مَنِ اطلعَ عليهِ ليسَ يقتدي بهِ في الفعلِ ، أو لا ينزجرُ باعتقادِهِ أنَّهُ تاركٌ للشهواتِ .

❁ ❁ ❁

الآفةُ الثانيةُ : أنْ يقدرَ علىٰ ترْكِ الشهواتِ ، لٰكنَّهُ يفرحُ أنْ يُعرفَ بهِ ، فيشتهرَ بالتعفُّفِ عنِ الشهواتِ ، فقدْ خالفَ شهوةً ضعيفةً ، وهيَ شهوةُ الأكلِ ، وأطاعَ شهوةً هيَ شرٌّ منها ، وهيَ شهوةُ الجاهِ ، وتلكَ هيَ الشهوةُ الخفيَّةُ ، فمهما أحسَّ بذٰلكَ مِنْ نفسِهِ . . فكسْرُ هٰذهِ الشهوةِ آكدُ مِنْ كسْرِ شهوةِ الطعامِ ، فليأكلْ ؛ فهوَ أولىٰ لهُ .

قالَ أبو سليمانَ : (إذا قُدمَتْ إليكَ شهوةٌ وقدْ كنتَ تاركاً لها . . فأصبْ منها شيئاً يسيراً ، ولا تعطِ نفسَكَ مُناها ، فتكونَ قدْ أسقطتَ عنْ نفسِكَ الشهوةَ ، وتكونَ قدْ نغَّصتَ عليها إذْ لمْ تعطِها شهوتَها) [١] .

وقالَ جعفرُ بنُ محمدٍ الصادقُ : (إذا قُدِّمَتْ إليَّ شهوةٌ . . نظرتُ إلىٰ نفسي ، فإنْ هيَ أظهرَتْ شهوتَها . . أطعمتُها منها ، وكانَ ذٰلكَ

---

(١) قوت القلوب (٢/١٧٦) .

أفضلَ مِنْ منعِها ، وإنْ أخفتْ شهوتَها ، وأظهرَتِ العزوفَ عنها . . عاقبتُها بالتركِ ، ولمْ أنلْها منها شيئاً) .

وهـٰذا طريقٌ في عقوبةِ النفسِ علىٰ هـٰذهِ الشهوةِ الخفيَّةِ .

وبالجملةِ : مَنْ تركَ شهوةَ الطعامِ ووقعَ في شهوةِ الرياءِ . . كانَ كمَنْ هربَ مِنْ عقربٍ وفزعَ إلىٰ حيَّةٍ ؛ لأنَّ شهوةَ الرياءِ أضرُّ كثيراً مِنْ شهوةِ الطعامِ ، واللهُ وليُّ التوفيقِ .

❋ ❋ ❋

القول في شهوة الفرج

اعلمْ : أنَّ شهوةَ الوقاعِ سُلِّطَتْ على الإنسانِ لفائدتينِ :

إحداهُما : أنْ يدركَ لذَّتَهُ ، فيقيسَ بهِ لذَّاتِ الآخرةِ ، فإنَّ لذَّةَ الوقاعِ لوْ دامَتْ . . لكانَتْ أقوىٰ لذَّاتِ الأجسادِ ، كما أنَّ النارَ وآلامَها أعظمُ آلامِ الجسدِ ، والترغيبُ والترهيبُ يسوقُ الناسَ إلىٰ سعادتِهِمْ ، وليسَ ذٰلكَ إلَّا بألمٍ محسوسٍ ولذَّةٍ مدركَةٍ ؛ فإنَّ ما لا يدركُ بالذوقِ لا يعظمُ إليهِ الشوقُ .

الفائدةُ الثانيةُ : بقاءُ النسلِ ، ودوامُ الوجودِ .

فهٰذهِ فائدتُها ، ولٰكنْ فيها مِنَ الآفاتِ ما يهلكُ الدينَ والدنيا إنْ لمْ تُضبطْ ولمْ تُقهرْ ولمْ تُردَّ إلىٰ حدِّ الاعتدالِ .

وقدْ قيلَ في تأويلِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾[1] ، معناهُ : الغلمةُ[2] .

وعنِ ابنِ عباسٍ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾[3] هوَ قيامُ الذَّكَرِ ، وقدْ أسندَهُ بعضُ الرواةِ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، إلَّا أنَّهُ قالَ في تفسيرِهِ : الذَّكَرُ إذا دخلَ[4] .

---

(١) سورة البقرة : (٢٨٦) .

(٢) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٢٠٣) عن مكحول ، وابن عدي في « الكامل » (٣/٣١١) عن مجاهد .

(٣) سورة الفلق : (٣) .

(٤) تقدم الكلام عن هٰذا الخبر وشاهده .

وقدْ قيلَ : (إذا قامَ ذكرُ الرجلِ . . ذهبَ ثلثا عقلِهِ)[1] .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ في دعائِهِ : « أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ سمعي وبصري وقلبي ومَنِيّي »[2] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « النساءُ حبائلُ الشيطانِ »[3] .

ولولا هٰذهِ الشهوةُ . . لما كانَ للنساءِ سلطنةٌ على الرجالِ .

ورُوِيَ أنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ كانَ جالساً في بعضِ مجالسِهِ ، إذْ أقبلَ إليهِ إبليسُ وعليهِ برنسٌ يتلوَّنُ فيهِ ألواناً ، فلمَّا دنا منهُ . . خلعَ البرنسَ فوضعَهُ ، ثمَّ أتاهُ ، فقالَ : السلامُ عليكَ يا موسىٰ ، فقالَ لهُ موسىٰ : مَنْ أنتَ ؟ فقالَ : أنا إبليسُ ، فقال : لا حيَّاكَ اللهُ ، ما جاءَ بكَ ؟ قالَ : جئتُ لأسلِّمَ عليكَ لمنزلتِكَ مِنَ اللهِ ومكانتِكَ منهُ ، قالَ : فما الذي رأيتُ عليكَ ؟ قالَ : برنسٌ أختطفُ بهِ قلوبَ بني آدمَ ، قالَ : فما الذي إذا صنعَهُ الإنسانُ . . استحوذتَ عليهِ ؟ قال : إذا أعجبَتْهُ نفسُهُ ، واستكثرَ عملَهُ ، ونسيَ ذنوبَهُ ، وأحذِّرُكَ ثلاثاً : لا تخلُ بامرأةٍ لا تحلُّ لكَ ؛ فإنَّهُ ما خلا رجلٌ بامرأةٍ لا تحلُّ لهُ إلا كنتُ صاحبَهُ دونَ أصحابي حتَّىٰ أفتنَهُ بها وأفتنَها بهِ ، ولا تعاهدِ اللهَ عهداً

---

(1) رواه ابن المقرئ في « معجمه » (٨٠٥) عن تمام بن نجيح .

(2) رواه أبو داوود (١٥٥١) ، والترمذي (٣٤٩٢) .

(3) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (٥٥) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » (٥/٢٤٢) ، والرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (٣/١٨٥) من حديث خالد بن زيد الجهني رضي الله عنه مرفوعاً ضمن خطبة طويلة .

إلا وفَّيتَ بهِ ، ولا تخرجَنَّ صدقةً إلا أمضيتَها ، فإنَّهُ ما أخرجَ رجلٌ صدقةً فلمْ يمضِها إلا كنتُ صاحبَهُ دونَ أصحابي حتَّىٰ أحولَ بينَهُ وبينَ الوفاءِ بها ، ثمَّ ولَّىٰ وهوَ يقولُ : يا ويلتاهُ ، علمَ موسىٰ ما يحذِّرُ بهِ بني آدمَ[1] .

وعنْ سعيدِ بنِ المسيَّبِ قالَ : (ما بعثَ اللهُ نبيّاً فيما خلا إلا لمْ ييئسْ إبليسُ أنْ يهلكَهُ بالنساءِ ، ولا شيءَ أخوفُ عندي منهنَّ ، وما بالمدينةِ بيتٌ أدخلُهُ إلا بيتي وبيتُ ابنتي ، أغتسلُ فيهِ يومَ الجمعةِ ، ثمَّ أروحُ)[2] .

وقالَ بعضُهُمْ : (إنَّ الشيطانَ يقولُ للمرأةِ : أنتِ نصفُ جندي ، وأنتِ سهمي الذي أرمي بهِ فلا أخطئُ ، وأنتِ موضعُ سرِّي ، وأنتِ رسولي في حاجتي)[3] .

فنصفُ جندِهِ الشهوةُ ، ونصفُ جندِهِ الغضبُ ، وأعظمُ الشهواتِ شهوةُ النساءِ .

❁ ❁ ❁

وهٰذهِ الشهوةُ أيضاً لها إفراطٌ وتفريطٌ واعتدالٌ :

فالإفراطُ : ما يقهرُ العقلَ حتَّىٰ يصرفَ هِمَّةَ الرجالِ إلى الاستمتاعِ

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٣١٧١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦١/١٢٥) عن عبد الرحمـٰن بن زياد بن أنعم .

(٢) روى الشطر الأول من القول بدرُ الدين الشبلي في « آكام المرجان » (٤٢٦) .

(٣) رواه بدر الدين الشبلي في « آكام المرجان » (٤٢٣) .

بالنساءِ والجواري ، فيُحرمَ عنْ سلوكِ طريقِ الآخرةِ ، أوْ يقهرُ الدينَ حتَّىٰ يجرَّ إلى اقتحامِ الفواحشِ ، وقدْ ينتهي إفراطُها بطائفةٍ إلىٰ أمرينِ شنيعينِ :

أحدُهُما : أنْ يتناولوا ما يقوّي شهواتِهِمْ على الاستكثارِ مِنَ الوقاعِ ؛ كما قدْ يتناولُ بعضُ الناسِ أدويةً تقوّي المعدةَ لتعظمَ شهوةُ الطعامِ .

وما مثالُ ذٰلكَ إلا كمَنِ ابتليَ بسباعٍ ضاريةٍ وبهائمَ عاديةٍ فتنامُ عنهُ في بعضِ الأوقاتِ ، فيحتالُ لإثارتِها وتهييجِها ، ثمَّ يشتغلُ بإصلاحِها وعلاجِها ؛ فإنَّ شهوةَ الطعامِ والوقاعِ على التحقيقِ آلامٌ يريدُ الإنسانُ الخلاصَ منها ، فيدركُ لذَّةً بسببِ الخلاصِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فقدْ رُوِيَ في غريبِ الحديثِ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « شكوتُ إلىٰ جبريلَ ضعفَ الوقاعِ ، فأمرَني بأكْلِ الهريسةِ »(١) .

فاعلمْ : أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ تحتَهُ تسعُ نسوةٍ ، ووجبَ

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٥٩٢) ، وابن عدي في « الكامل » (٦/١٤٤) ، وتمام في « فوائده » (٩٨٨) ، وقد قال العجلوني في « كشف الخفاء » (١/١٧٥) : (ألف الحافظ ابن ناصر الدين فيه جزءاً سماه : « رفع الدسيسة عن أخبار الهريسة ») ، وانظر « الإتحاف » (٥/٣٠٩) ، ولم يسلم المصنف ثبوت هٰذا الخبر فضلاً عن أن يكون حجة ؛ إذ قال هناك : (هٰذا إن صح . . لا محمل له إلا الاستعداد للاستراحة . . .) ، ولٰكن المصنف علىٰ عادته يجيب عن مثل هٰذه التحريجات تنزُّلاً .

عليهِ تحصينُهُنَّ بالإمتاعِ ، وحرمَ علىٰ غيرِهِ نكاحُهُنَّ وإنْ طلَّقَهُنَّ ، فكانَ طلبُهُ القوَّةَ لهٰذا ، لا للتنعُّمِ .

والأمرُ الثاني : أنَّهُ قدْ تنتهي هٰذهِ الشهوةُ ببعضِ الضلَّالِ إلى العشْقِ ، وهوَ غايةُ الجهلِ بما وُضِعَ لهُ الوقاعُ ، وهوَ مجاوزةٌ في البهيميَّةِ لحدِّ البهائمِ ؛ لأنَّ العاشقَ ليسَ يقنعُ بإراقةِ شهوةِ الوقاعِ ـ وهيَ أقبحُ الشهواتِ ، وأجدرُها بأنْ يُستحيا منهُ ـ حتَّى اعتقدَ أنَّ الشهوةَ لا تنقضي إلا مِنْ محلٍّ واحدٍ ، والبهيمةُ تقضي الشهوةَ أينَ اتفقَ ، فتكتفي بهِ ، وهٰذا لا يكتفي إلا بشخصٍ واحدٍ معيَّنٍ ، حتَّىٰ يزدادَ بهِ ذلّاً إلىٰ ذلٍّ ، وعبوديةً إلىٰ عبوديةٍ ، وحتَّىٰ يستسخرَ العقلَ لخدمةِ الشهوةِ ، وقدْ خُلِقَ ليكونَ مطاعاً ، لا ليكونَ خادماً للشهوةِ ومحتالاً لأجلِها .

وما العشقُ إلا منبعُ إفراطِ الشهوةِ ، وهوَ مرضُ قلبٍ فارغٍ لا همَّ لهُ ، وإنَّما يجبُ الاحترازُ مِنْ أوائلِهِ بتركِ معاودةِ النظرِ والفكْرِ ، وإلا فإذا استحكمَ . . عسرَ دفعُهُ .

وكذٰلكَ عشقُ الجاهِ والمالِ والعقارِ والأولادِ ، حتَّىٰ حبُّ اللعبِ بالطيورِ والنردِ والشطرنجِ ، فإنَّ هٰذهِ الأمورَ قدْ تستولي علىٰ طائفةٍ بحيثُ تنغِّصُ عليهِمُ الدينَ والدنيا ، ولا يصبرونَ عنها ألبتةَ [1] .

---

(١) أما نقص الدين عليهم . . فمن جهات متعددة ، وأما نقصان الدنيا ؛ فإنه إن كان محترفاً . . يشتغل بها عن حرفته ، ويضيع عياله ، وإن كان ذا مال . . فإنه يضيعه فيما يتعلق بتلك الأشياء ، وهلم جرّاً إلىٰ أن ينفد ، وأما عدم صبرهم عنها . . فذٰلك مشاهد كادت أن تحول بينهم وبين أكلهم . « إتحاف » (٧/٤٣١) .

ومثالُ مَنْ يكسرُ سَوْرَةَ العشقِ في أوَّلِ انبعاثِهِ مثالُ مَنْ يصرفُ عِنانَ الدابَّةِ عندَ توجُّهِها إلىٰ بابٍ لتدخلَهُ ، وما أهونَ منعَها بصرْفِ عِنانِها ، ومثالُ مَنْ يعالجُها بعدَ استحكامِها مثالُ مَنْ يتركُ الدابَّةَ حتَّىٰ تدخلَ وتجاوزَ البابَ ، ثمَّ يأخذُ بذنبِها ويجرُّها إلىٰ ورائِها ، وما أعظمَ التفاوتَ بينَ الأمرينِ في اليسرِ والعسرِ .

فليكنِ الاحتياطُ في بداياتِ الأمورِ ، فأمَّا في أواخرِها . . فلا تقبلُ العلاجَ إلا بجهدٍ جهيدٍ ، يكادُ يؤدِّي إلىٰ نزعِ الروحِ .

فإذاً ؛ إفراطُ الشهوةِ أنْ يغلبَ العقلَ إلىٰ هـٰذا الحدِّ ، وهوَ مذمومٌ جدّاً .

وتفريطُها : بالعنَّةِ ، أوْ بالضعفِ عنْ إمتاعِ المنكوحةِ ، وهوَ أيضاً مذمومٌ .

وإنَّما المحمودُ أنْ تكونَ **معتدلةً** ، ومطيعةً للعقلِ والشرعِ في انقباضِها وانبساطِها ، ومهما أفرطَتْ . . فكسْرُها بالجوعِ وبالنكاحِ ؛ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « معاشرَ الشبابِ ؛ عليكُمْ بالباءةِ ، فمَنْ لمْ يستطعْ . . فعليهِ بالصومِ ؛ فإنَّهُ لهُ وجاءٌ »[(١)] .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٥) ، ومسلم (١٤٠٠) .

بيان ما على المريد في ترك التزويج وفعله

اعلمْ : أنَّ المريدَ في ابتداءِ أمرِهِ ينبغي ألا يشغلَ قلبَهُ ونفسَهُ بالتزويجِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ شغلٌ شاغلٌ يمنعُهُ عنِ السلوكِ ، ويستجرُّهُ إلى الأنْسِ بالزوجةِ ، ومَنْ أنسَ بغيرِ اللهِ تعالىٰ . . شُغِلَ عنِ اللهِ .

ولا يغرَّنَّهُ كثرةُ نكاحِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنَّهُ كانَ لا يشغلُ قلبَهُ جميعُ ما في الدنيا عنِ اللهِ تعالىٰ ، فلا تُقاسُ الملائكةُ بالحدَّادينَ .

ولذٰلكَ قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (مَنْ تزوَّجَ . . فقدْ ركنَ إلى الدنيا) (١) .

وقالَ : (ما رأيتُ مريداً تزوَّجَ فثبتَ علىٰ ما كانَ عليهِ) .

وقيلَ لهُ مرَّةً : ما أحوجَكَ إلى امرأةٍ تأنسُ بها ، فقالَ : لا آنسَني اللهُ بها ؛ أيْ : إنَّ الأنسَ بها يمنعُ الأنسَ باللهِ تعالىٰ .

وقالَ أيضاً : (كلُّ ما شغلَكَ عنِ اللهِ مِنْ أهلٍ ومالٍ وولدٍ فهوَ عليكَ مشؤومٌ) (٢) .

وكيفَ يُقاسُ غيرُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بهِ وقدْ كانَ

---

(١) قوت القلوب (١٣٥/١) ، وإنما قال ذٰلك لأن هٰذه الأمور مما توجب الركون إلى الدنيا لا محالة . « إتحاف » (٤٣٢/٧) .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٦٢/٣٣) .

استغراقُهُ بحبِّ اللهِ تعالىٰ بحيثُ كانَ يخافُ احتراقَهُ فيهِ إلىٰ حدٍّ كانَ يخشىٰ منهُ في بعضِ الأحوالِ أنْ يسريَ ذٰلكَ إلىٰ قالبِهِ فيهدمَهُ ؛ فلذٰلكَ كانَ يضربُ بيدِهِ علىٰ فخذِ عائشةَ أحياناً ويقولُ : « كلِّميني يا عائشةُ »[(١)] ؛ لتشغلَهُ بكلامِها عنْ عظيمِ ما هوَ فيهِ ، لقصورِ طاقةِ قالبِهِ عنهُ ، فقدْ كانَ طبعُهُ الأنسَ باللهِ عزَّ وجلَّ ، وكانَ أنسُهُ بالخلْقِ عارضاً رفقاً ببدنِهِ .

ثمَّ إنَّهُ كانَ لا يطيقُ الصبرَ معَ الخلقِ إذا جالسَهُمْ ، فإذا ضاقَ صدرُهُ . . قالَ : « أرحْنا بها يا بلالُ »[(٢)] ؛ حتَّىٰ يعودَ إلىٰ ما هوَ قرَّةُ عينِهِ[(٣)] .

فالضعيفُ إذا لاحظَ أحوالَهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في مثلِ هٰذهِ الأمورِ . . فهوَ مغرورٌ ؛ لأنَّ الأفهامَ تقصرُ عنِ الوقوفِ علىٰ أسرارِ أفعالِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ فشرطُ المريدِ العُزْبَةُ في الابتداءِ ، إلىٰ أنْ يقوىٰ في المعرفةِ ، هٰذا إذا لمْ تغلبْهُ الشهوةُ .

فإنْ غلبتْهُ الشهوةُ . . فليكسرْها بالجوعِ الطويلِ ، والصومِ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٧/٤٣٣) ، وعند البخاري (١١٦١) ، ومسلم (٧٤٣) من حديث عائشة رضي الله عنها : (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلىٰ ؛ فإن كنت مستيقظة . . حدَّثني ، وإلا . . اضطجع حتىٰ يؤذن بالصلاة) .

(٢) رواه أبو داوود (٤٩٨٥) .

(٣) فقد روى النسائي (٧/٦١) : « حبب إلي من الدنيا النساء والطيب ، وجعل قرة عيني في الصلاة » .

الدائمِ ، فإنْ لمْ تنقمعِ الشهوةُ بذٰلكَ ، وكانَ بحيثُ لا يقدرُ علىٰ حفظِ العينِ مثلاً وإنْ قدرَ علىٰ حفظِ الفرجِ . . فالنكاحُ لهُ أولىٰ ؛ لتسكنَ الشهوةُ ، وإلا فمهما لمْ يحفظْ عينَهُ . . لمْ يحفظْ فكرَهُ ، ويتفرَّقُ عليهِ همُّهُ ، وربما وقعَ في بليَّةٍ لا يطيقُها ، وزنا العينِ مِنْ كبارِ الصغائرِ ، وهوَ يؤدِّي على القرْبِ إلى الكبيرةِ الفاحشةِ ، وهيَ زنا الفرجِ ، ومَنْ لمْ يقدرْ علىٰ غضِّ بصرِهِ . . لمْ يقدرْ علىٰ حفظِ دينِهِ .

قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (إيَّاكُمْ والنظرةَ ؛ فإنَّها تزرعُ في القلبِ شهوةً ، وكفىٰ بها فتنةً) [١] .

وقالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ : (إنَّما جاءَتِ الفتنةُ لداوودَ عليهِ السلامُ مِنْ قبلِ النظرةِ) [٢] .

ولذٰلكَ قالَ لابنِهِ سليمانَ عليهما السلامُ : (يا بنيَّ ؛ امشِ خلفَ الأسدِ والأسودِ [٣] ، ولا تمشِ خلفَ المرأةِ) [٤] .

وقيلَ ليحيىٰ عليهِ السلامُ : ما بدْءُ الزنا ؟ قالَ : النظرُ والتمنِّي [٥] .

---

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٣٨٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/٤٦٢) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٢٥٥٣) .

(٣) أي : من الحيات .

(٤) رواه أحمد في « الزهد » (٢١٩) عن سليمان بن داوود علىٰ نبينا وعليهما الصلاة والسلام .

(٥) الخبر عن الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٧٧) .

وقالَ الفضيلُ : يقولُ إبليسُ : هيَ قوسي القديمةُ ، وسهمي الذي لا أخطئُ بهِ ؛ يعني : النظرةَ[1] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « النظرةُ سهمٌ مسمومٌ مِنْ سهامِ إبليسَ ، فمَنْ تركَها خوفاً مِنَ اللهِ تعالىٰ . . أعطاهُ اللهُ تعالىٰ إيماناً يجدُ حلاوتَهُ في قلبِهِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجالِ مِنَ النِّساءِ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اتقوا فتنةَ الدنيا وفتنةَ النساءِ ، فإنَّ أوَّلَ فتنةِ بني إسرائيلَ كانَتْ مِنْ قِبَلِ النساءِ »[4] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ . . . ﴾ الآيةَ[5] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لكلِّ ابنِ آدمَ حظٌّ مِنَ الزنا ؛ فالعينانِ تزنيانِ وزناهُما النظرُ ، واليدانِ تزنيانِ وزناهُما البطشُ ، والرجلانِ تزنيانِ وزناهُما المشيُ ، والفمُ يزني وزناهُ القُبَلُ ، والقلبُ يهُمُّ أوْ يتمنَّىٰ ، ويصدِّقُ ذٰلكَ الفرجُ أوْ يكذِّبُهُ »[6] .

---

(١) كما هو مبين في الحديث الآتي .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/١٧٣) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/٣١٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/١٠١) .

(٣) رواه البخاري (٥٠٩٦) ، ومسلم (٢٧٤٠) .

(٤) رواه مسلم (٢٧٤٢) .

(٥) سورة النور : (٣٠) .

(٦) رواه البخاري (٦٢٤٣) ، ومسلم (٢٦٥٧) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/٨٩) واللفظ له .

وقالَتْ أمُّ سلمةَ : استأذنَ ابنُ أمِّ مكتومٍ الأعمىٰ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأنا وميمونةُ جالستانِ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « احتجبا » ، فقلنا : أوَليسَ بأعمىٰ لا يبصرُنا ؟ فقالَ : « وأنتما لا تبصرانِهِ ؟! »[1] .

وهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّهُ لا يجوزُ للنساءِ مجالسةُ العميانِ كما جرَتْ بهِ العادةُ في المآتمِ والولائمِ ، فيحرمُ على الأعمى الخلوةُ بالنساءِ ، ويحرمُ على المرأةِ مجالسةُ الأعمىٰ وتحديقُ النظرِ إليهِ لغيرِ حاجةٍ ، وإنَّما جُوِّزَ للنساءِ محادثةُ الرجالِ والنظرُ إليهِمْ لأجلِ عمومِ الحاجةِ .

وإنْ قدرَ علىٰ حفظِ عينِهِ عنِ النساءِ ، ولمْ يقدرْ علىٰ حفظِها عنِ الصبيانِ . . فالنكاحُ أولىٰ بهِ ، فإنَّ الشرَّ في الصبيانِ أكثرُ ، فإنَّهُ لوْ مالَ قلبُهُ إلى امرأةٍ . . أمكنَهُ الوصولُ إلى استباحتِها بالنكاحِ ، والنظرُ إلىٰ وجهِ الصبيِّ بالشهوةِ حرامٌ ، بلْ كلُّ مَنْ يتأثَّرُ قلبُهُ بجمالِ صورةِ الأمردِ بحيثُ يدركُ التفرقةَ بينَهُ وبينَ الملتحي . . لمْ يحلَّ لهُ النظرُ إليهِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : كلُّ ذي حسٍّ يدركُ التفرقةَ بينَ الجميلِ والقبيحِ لا محالةَ ، ولمْ تزلْ وجوهُ الصبيانِ مكشوفةً ؟

فأقولُ : لستُ أعني تفرقةَ العينِ فقطْ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ إدراكُهُ

---

(١) رواه أبو داوود (٤١١٢) ، والترمذي (٢٧٧٨) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩١٩٨) .

التفرقةَ كإدراكِهِ التفرقةَ بينَ شجرةٍ خضراءَ وأخرىٰ يابسةٍ ، وبينَ ماءٍ صافٍ وماءٍ كدِرٍ ، وبينَ شجرةٍ عليها أزهارُها وأنوارُها وشجرةٍ تساقطَتْ أوراقُها ، فإنَّهُ يميلُ إلىٰ إحداهُما بعينِهِ وطبعِهِ ، ولٰكنْ ميلاً خالياً عنِ الشهوةِ ، ولأجلِ ذٰلكَ لا يشتهي ملامسةَ الأزهارِ والأنوارِ وتقبيلَها ، ولا تقبيلَ الماءِ الصافي ، وكذٰلكَ الشيبةُ الحسنةُ قدْ تميلُ العينُ إليها ، وتدركُ التفرقةَ بينَها وبينَ الوجهِ القبيحِ ، ولٰكنَّها تفرقةٌ لا شهوةَ فيها ، ويُعرَفُ ذٰلكَ بميلِ النفسِ إلى القرْبِ والملامسةِ ، فمهما وجدَ ذٰلكَ الميلَ في قلبِهِ ، وأدركَ تفرقةً بينَ الوجهِ الجميلِ ، وبينَ النباتِ الحسنِ ، والأثوابِ المنقَّشةِ ، والسقوفِ المذهبةِ . . فنظرُهُ نظرُ شهوةٍ ، فهوَ حرامٌ ، وهٰذا ممَّا يتهاونُ بهِ الناسُ ، ويجرُّهُمْ ذٰلكَ إلى المعاطبِ وهمْ لا يشعرونَ .

وقالَ بعضُ التابعينَ : (ما أنا بأخوفَ مِنَ السبعِ الضاري على الشابِّ الناسكِ مِنْ غلامٍ أمردَ يجلسُ إليهِ)(١) .

وقالَ سفيانُ الثوريُّ : (لوْ أنَّ رجلاً عبثَ بغلامٍ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ رجْلِهِ يريدُ الشهوةَ . . لكانَ لواطاً)(٢) .

وعنْ بعضِ السلفِ قالَ : (سيكونُ في هٰذهِ الأمَّةِ ثلاثةُ أصنافٍ لوطيونَ : صنفٌ ينظرونَ ، وصنفٌ يصافحونَ ، وصنفٌ يعملونَ)(٣) .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٠١٣) ، كذا عن بعض التابعين .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الورع » (١٣٧) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٤٤٠) .

(٣) رواه ابن الجوزي في « ذم الهوىٰ » (٣٨١) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٠١٩) .

فإذاً ؛ آفةُ النظرِ إلى الأحداثِ عظيمةٌ ، فمهما عجزَ المريدُ عنْ غضِّ بصرِهِ ، وضبطِ فكرِهِ . . فالصوابُ لهُ أنْ يكسرَ شهوتَهُ بالنكاحِ ، فربَّ نفْسٍ لا يسكنُ توقانُها بالجوعِ .

❁ ❁ ❁

وقالَ بعضُهُمْ : غلبَتْ عليَّ شهوتي في بدْءِ إرادتي بما لمْ أطقْ ، فأكثرتُ الضجيجَ إلى اللهِ تعالىٰ ، فرأيتُ شخصاً في المنامِ ، فقالَ : ما لكَ ، فشكوتُ إليهِ ، فقالَ : تقدَّمْ إليَّ ، فتقدمتُ إليهِ ، فوضعَ يدَهُ علىٰ صدري ، فوجدتُ بردَها في فؤادي وجميعِ جسدي ، فأصبحتُ وقدْ زالَ ما بي ، فبقيتُ معافىً سنةً ، ثمَّ عاودَني ذٰلكَ ، فأكثرتُ الاستغاثةَ ، فجاءَني شخصٌ في المنامِ فقالَ لي : أتحبُّ أنْ يذهبَ ما تجدُ وأضربَ عنقَكَ ؟ قلتُ : نعمْ ، فقالَ : مُدَّ رقبتَكَ ، فمددتُها ، فجرَّدَ سيفاً مِنْ نورٍ ، فضربَ بهِ عنقي ، فأصبحتُ وقدْ زالَ ما بي ، فبقيتُ معافىً سنةً ، ثمَّ عاودَني ذٰلكَ أوْ أشدُّ منهُ ، فرأيتُ كأنَّ شخصاً يخاطبُني فيما بينَ جنبي وصدري ويقولُ : ويحَكَ ، كمْ تسألُ اللهَ تعالىٰ رفْعَ ما لا يحبُّ رفعَهُ !! قالَ : فتزوجتُ ، فانقطعَ ذٰلكَ عنِّي ووُلِدَ لي (١) .

ومهما احتاجَ المريدُ إلى النكاحِ . . فلا ينبغي أنْ يتركَ شرطَ الإرادةِ في ابتداءِ النكاحِ ودوامِهِ ؛ أمَّا في ابتدائِهِ . . فبالنيَّةِ الحسنةِ ، وفي

(١) قوت القلوب (٢/ ١٧٠) .

دوامِهِ . . بحسنِ الخلقِ ، وسدادِ السيرةِ ، والقيامِ بالحقوقِ الواجبةِ ، كما فصَّلْنا جميعَ ذٰلكَ في كتابِ آدابِ النكاحِ ، فلا نطوّلُ بإعادتِهِ .

وأمارةُ صدْقِ إرادتِهِ أنْ ينكحَ فقيرةً متديّنةً ، ولا يطلبَ الغنيَّةَ .

قالَ بعضُهُمْ : (مَنْ تزوَّجَ غنيَّةً . . كانَ لهُ منها خمسُ خصالٍ : مغالاةُ الصداقِ ، وتسويفُ الزفافِ ، وفوتُ الخدمةِ ، وكثرةُ النفقةِ ، وإذا أرادَ طلاقَها . . لمْ يقدرْ ؛ خوفاً مِنْ ذهابِ مالِها ، والفقيرةُ بخلافِ ذٰلكِ)[1] .

وقالَ بعضُهُمْ : (ينبغي أنْ تكونَ المرأةُ دونَ الرجلِ بأربعٍ ، وإلا . . استحقرَتْهُ : بالسنِّ ، والطولِ ، والمالِ ، والحسبِ ، وأنْ تكونَ فوقَهُ بأربعٍ : بالجمالِ ، والأدبِ ، والخُلُقِ ، والورعِ)[2] .

وعلامةُ صدْقِ الإرادةِ في دوامِ النكاحِ الخُلُقُ .

تزوَّجَ بعضُ المريدينَ بامرأةٍ ، فلمْ يزلْ يخدمُها حتَّى استحيتِ المرأةُ ، وشكَتْ ذٰلكَ إلىٰ أبيها ، وقالَتْ : قدْ تحيَّرتُ في هٰذا الرجلِ ، أنا في منزلِهِ منذُ سنينَ ما ذهبتُ إلى الخلاءِ قطُّ إلا وحملَ الماءَ قبلي إليهِ !![3] .

وتزوَّجَ بعضُهُمُ امرأةً ذاتَ جمالٍ ، فلمَّا قربَ زفافُها . . أصابَها

---

(١) القول لمعاذ بن يعقوب النسفي ، كما أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٣٨) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٣٥) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٣٧) .

الجُدَريُّ ، فاشتدَّ حزْنُ أهلِها لذٰلكَ ؛ خوفاً مِنْ أنْ يستقبحَها ، فأراهُمُ الرجلُ أنَّ بهِ رمداً ، ثمَّ أراهُمْ أنَّ بصرَهُ قدْ ذهبَ ، حتَّىٰ زُفَّتْ إليهِ المرأةُ ، فزالَ عنهُمُ الحزنُ ، فبقيَتْ عندَهُ عشرينَ سنةً ، ثمَّ تُوفيَتْ ، ففتحَ عينيهِ حينَ ذٰلكَ ، فقيلَ لهُ في ذٰلكَ ، فقالَ : تعمدتُهُ لأجلِ أهلِها حتَّىٰ لا يحزنوا ، فقيلَ لهُ : قدْ سبقتَ إخوانَكَ بهٰذا الخلقِ [1] .

وتزوَّجَ بعضُ الصوفيَّةِ امرأةً سيِّئةَ الخلقِ ، فكانَ يصبرُ عليها ، فقيلَ لهُ : لِمَ لا تطلقُها ؟ فقالَ : أخشىٰ أنْ يتزوَّجَها مَنْ لا يصبرُ علىٰ خلقِها فيتأذَّىٰ بها [2] .

فإنْ نكحَ المريدُ . . فهٰكذا ينبغي أنْ يكونَ ، وإنْ قدرَ على التركِ . . فهوَ لهُ أولىٰ إذا لمْ يمكنْهُ الجمعُ بينَ فضْلِ النكاحِ وسلوكِ الطريقِ ، وعلمَ أنَّ ذٰلكَ يشغلُهُ عنْ حالِهِ .

كما رُوِيَ أنَّ محمدَ بنَ سليمانَ الهاشميَّ كانَ يملكُ منْ غلةِ الدنيا ثمانينَ ألفَ درهمٍ في كلِّ يومٍ ، فكتبَ إلىٰ أهلِ البصرةِ وعلمائِها في امرأةٍ يتزوَّجُها ، فأجمعوا كلُّهُمْ علىٰ رابعةَ العدويَّةِ رحمَها اللهُ تعالىٰ ، فكتبَ إليها :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أمَّا بعدُ : فإنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ ملَّكَني مِنْ غلَّةِ الدنيا في كلِّ يومٍ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٣٧) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٣٧) .

ثمانينَ ألفَ درهمٍ ، وليسَ تمضي الليالي والأيامُ حتَّىٰ أتمَّها مئةَ ألفٍ ، وأنا أصيِّرُ لكِ مثلَها ومثلَها ، فأجيبيني .

فكتبَتْ إليهِ :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أمَّا بعدُ : فإنَّ الزهدَ في الدنيا راحةُ القلبِ والبدنِ ، والرغبةَ فيها تورثُ الهمَّ والحزَنَ ، فإذا أتاكَ كتابي هٰذا . . فهيِّئ زادَكَ ، وقدِّمْ لمعادِكَ ، وكُنْ وصيَّ نفسِكَ ، ولا تجعلِ الرجالَ أوصياءَكَ ، فيقتسموا تراثَكَ ، وصمِ الدهرَ ، واجعلْ فطرَكَ الموتَ ، وأمَّا أنا . . فلوْ أنَّ اللهَ تعالىٰ خوَّلَني أمثالَ الذي خوَّلَكَ وأضعافَهُ . . ما سرَّني أنْ أشتغلَ عنِ اللهِ طرفةَ عينٍ [1] .

وهٰذهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ كلَّ ما شغلَ عنِ اللهِ تعالىٰ فهوَ نقصانٌ .

فلينظرِ المريدُ إلىٰ حالِهِ وقلبِهِ ، فإنْ وجدَهُ في العزوبةِ . . فهوَ الأقربُ ، وإنْ عجزَ عنْ ذٰلكَ . . فالنكاحُ أولىٰ بهِ .

ودواءُ هٰذهِ العلَّةِ ثلاثٌ : الجوعُ ، وغضُّ البصرِ ، والاشتغالُ بشغلٍ يستوفي القلبَ ، فإنْ لمْ تنفعْ هٰذهِ الثلاثةُ . . فالنكاحُ هوَ الذي يستأصلُ مادَّتَها فقطْ ، ولهٰذا كانَ السلفُ يبادرونَ إلى النكاحِ وإلىٰ تزويجِ البناتِ .

---

(١) رواه الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٤١) .

قالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ : (ما أيسَ الشيطانُ مِنْ أحدٍ إلا وأتاهُ مِنْ قبلِ النساءِ)[1] .

وقالَ سعيدٌ وهوُ ابنُ أربعٍ وثمانينَ سنةً[2] ، وقدْ ذهبَتْ إحدىٰ عينيهِ وهوَ يعشو بالأخرىٰ : (ما شيءٌ أخوفَ عندي مِنَ النساءِ)[3] .

وعنْ ابنِ أبي وداعةَ قالَ : كنتُ أجالسُ سعيدَ بنَ المسيَّبِ ، ففقدَني أياماً ، فلمَّا جئتُهُ . . قالَ : أينَ كنتَ ؟ قلتُ : تُوفيَتْ أهلي ، فاشتغلتُ بها ، فقالَ : هلَّا أخبرتَنا فشهدناها ، قالَ : ثمَّ أردتُ أنْ أقومَ ، فقالَ : هلِ استحدثتَ امرأةً ؟ فقلتُ : يرحمُكَ اللهُ تعالىٰ ، ومَنْ يزوِّجُني وما أملكُ إلا درهمينِ أوْ ثلاثةً ؟! فقالَ : أنا ، فقلتُ : وتفعلُ ؟! قالَ : نعمْ ، فحمدَ اللهَ تعالىٰ ، وصلَّىٰ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وزوَّجَني علىٰ درهمينِ أوْ قالَ : ثلاثةٍ .

قالَ : فقمتُ وما أدري ما أصنعُ مِنَ الفرحِ ، فصرتُ إلىٰ منزلي ، وجعلتُ أفكِّرُ ممَّنْ آخذُ ، وممنْ أستدينُ ، فصلَّيتُ المغربَ ، وانصرفتُ إلىٰ منزلي ، فأسرجْتُ وكنتُ وحدي صائماً ، فقدمتُ عشائي لأفطرَ ، وكانَ خبزاً وزيتاً ، وإذا بابي يُقرعُ ، فقلتُ : مَنْ هٰذا ؟ قالَ : سعيدٌ ، قالَ : فأفكرتُ في كلِّ إنسانٍ اسمُهُ سعيدٌ إلا سعيدَ بنَ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/١٦٦) .
(٢) وثمَّ خلاف في سنة وفاته ، وكأن الراجح أنه عاش أربعاً وسبعين سنة .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/١٦٦) .

المسيَّبِ ، وذٰلكَ أنَّهُ لمْ يُرَ أربعينَ سنةً إلا بينَ دارِهِ والمسجدِ ، فقمتُ فخرجتُ إليهِ ، فإذا به سعيدُ بنُ المسيَّبِ ، فظننتُ أنَّهُ قدْ بدا لهُ ، فقلتُ : يا أبا محمدٍ ؛ لوْ أرسلتَ إليَّ . . لأتيتُكَ ، فقالَ : لا ، أنتَ أحقُّ أنْ تُؤتىٰ ، قلتُ : فما تأمرُ ؟ قالَ : إنَّكَ كنتَ رجلاً عزباً ، فتزوجتَ ، فكرهتُ أنْ أبيتَكَ الليلةَ وحدَكَ ، وهٰذهِ امرأتُكَ ، فإذا هيَ قائمةٌ خلفَهُ في طولِهِ ، ثمَّ أخذَ بيدِها ، فدفعَها في البابِ وردَّهُ ، فسقطَتِ المرأةُ مِنَ الحياءِ ، فاستوثقتُ مِنَ البابِ ، ثمَّ تقدمتُ إلى القصعةِ التي فيها الزيتُ والخبزُ ، فوضعتُها في ظلِّ السراجِ لكيلا تراهُ ، ثمَّ صعدتُ السطحَ ، فرميتُ الجيرانَ ، فجاؤوني ، وقالوا : ما شأنُكَ ؟ قلتُ : ويحَكم !! زوَّجَني سعيدُ بنُ المسيَّبِ بنتَهُ اليومَ ، وقدْ جاءَ بها الليلةَ علىٰ غفلةٍ ، فقالوا : سعيدٌ زوَّجَكَ ؟! قلتُ : نعمْ ، وها هيَ في الدارِ ، فنزلوا إليها ، وبلغَ ذٰلكَ أمِّي ، فجاءَتْ وقالَتْ : وجهي مِنْ وجهِكَ حرامٌ إنْ مسستَها قبلَ أنْ أصلحَها إلىٰ ثلاثةِ أيَّامٍ ، قالَ : فأقمتُ ثلاثاً ، ثمَّ دخلتُ بها ، فإذا هي مِنْ أجملِ النساءِ ، وأحفظِ الناسِ لكتابِ اللهِ تعالىٰ ، وأعلمِهِمْ بسنَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأعرفِهِمْ بحقِّ الزوجِ .

قالَ : فمكثتُ شهراً لا يأتيني سعيدٌ ولا آتيهِ ، فلمَّا كانَ قُرْبَ الشهرِ . . أتيتُهُ وهوَ في حلقتِهِ ، فسلَّمْتُ عليهِ ، فردَّ عليَّ السلامَ ولمْ يكلِّمْني حتَّىٰ تفرَّقَ الناسُ مِنَ المجلسِ ، فقالَ : ما حالُ ذٰلكَ الإنسانِ ؟ قلتُ : خيراً يا أبا محمدٍ ، علىٰ ما يحبُّ الصديقُ ويكرهُ

العدوُّ ، قالَ : إنْ رابَكَ شيءٌ . . فالعصا ، فانصرفتُ إلىٰ منزلي ، فوجَّهَ إليَّ بعشرينَ ألفَ درهمٍ .

قالَ عبدُ اللهِ بنُ سليمانَ : وكانَتْ بنتُ سعيدِ بنِ المسيَّبِ خطبَها عبدُ الملكِ بنُ مروانَ لابنهِ الوليدِ حينَ ولَّاهُ العهدَ ، فأبىٰ سعيدٌ أنْ يزوِّجَهُ ، فلمْ يزلْ عبدُ الملكِ يحتالُ علىٰ سعيدٍ حتَّىٰ ضربَهُ مئةَ سوطٍ في يومٍ باردٍ ، وصبَّ عليهِ جرَّةَ ماءٍ ، وألبسَهُ جبَّةَ صوفٍ [1] .

فاستعجالُ سعيدٍ في الزفافِ تلكَ الليلةَ يعرِّفُكَ غائلةَ الشهوةِ ، ووجوبَ المبادرةِ إلىٰ تطفئةِ نارِها بالنكاحِ ، رضيَ اللهُ عنهُ ورحمهُ .

❋ ❋ ❋

(١) الخبر بطوله رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/١٦٧) ، وابن أبي وداعة هو كثير بن المطلب بن أبي وداعة السهمي القرشي .

بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين

اعلم : أنَّ هـٰذهِ الشهوةَ هيَ أغلبُ الشهواتِ على الإنسانِ ، وأعصاها عندَ الهيجانِ على العقلِ ، إلا أنَّ مقتضاها قبيحٌ يُستحيا منهُ ، ويُخشىٰ مِن اقتحامِهِ .

وامتناعُ أكثرِ الناسِ عنْ مقتضاها إمَّا لعجزٍ ، أوْ لخوفٍ ، أوْ لحياءٍ ، أوْ لمحافظةٍ علىٰ حشمةٍ ، وليسَ في شيءٍ مِنْ ذٰلكَ ثوابٌ ؛ فإنَّهُ إيثارُ حظٍّ مِنْ حظوظِ النفسِ علىٰ حظٍّ آخرَ .

نعمْ ؛ مِنَ العصمةِ ألا يقدرَ [1] ، ففي هـٰذهِ العوائقِ فائدةٌ ، وهيَ دفعُ الإثمِ ، فإنَّ مَنْ تركَ الزنا . . اندفعَ عنهُ إثمُهُ بأيِّ سببٍ كانَ تركُهُ ، وإنَّما الفضْلُ والثوابُ الجزيلُ في تركِهِ خوفاً مِنَ اللهِ تعالىٰ معَ القدرةِ وارتفاعِ الموانعِ وتيسُّرِ الأسبابِ ، لا سيما عندَ صدْقِ الشهوةِ ، وهـٰذهِ درجةُ الصدِّيقينَ .

ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عشقَ فعفَّ فكتمَ فماتَ . . فهوَ شهيدٌ » [2] .

---

(١) **والمشهور على الألسنة** : ومن العصمة ألا تجد ، **والمراد بالعصمة هنا** : الحفظ ؛ أي : فإذا أراد الله حفظ عبده . . لم يجعله قادراً على الإتيان بشيء من المخالفات . « إتحاف » (٤٣٩/٧) .

(٢) رواه الأصفهاني في « الزهرة » (١١٧/١) ، والخرائطي في « اعتلال القلوب » (١٠٦) ، والسراج القاري في « مصارع العشاق » (١٤/١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٤٧٥/١٢) من حديث عائشة ←

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « سبعةٌ يظلُّهُمُ اللهُ في ظلِّهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ » ، وعدَّ منهُمْ : « رجلٌ دعتْهُ امرأةٌ ذاتُ حسبٍ وجمالٍ إلىٰ نفسِها ، فقالَ : إنِّي أخافُ اللهَ ربَّ العالمينَ »[1] .

وقصَّةُ يوسفَ عليهِ السلامُ وامتناعُهُ مِنْ زليخا معَ القدرةِ ومعَ رغبتِها معروفةٌ ، وقدْ أثنى اللهُ تعالىٰ عليهِ بذٰلكَ في كتابِهِ العزيزِ ، وهوَ إمامٌ لكلِّ مَنْ وُفِّقَ لمجاهدةِ الشيطانِ في هٰذهِ الشهوةِ العظيمةِ .

ورُوِيَ أنَّ سليمانَ بنَ يسارٍ كانَ مِنْ أحسنِ الناسِ وجهاً ، فدخلَتْ عليهِ امرأةٌ ، فسألَتْهُ نفسَهُ ، فامتنعَ عليها ، وخرجَ هارباً مِنْ منزلِهِ وتركَها فيهِ ، قالَ سليمانُ : فرأيتُ تلكَ الليلةَ في المنامِ يوسفَ عليهِ السلامُ وكأنِّي أقولُ لهُ : أنتَ يوسفُ ؟ قالَ : نعمْ ، أنا يوسفُ الذي هممتُ ، وأنتَ سليمانُ الذي لمْ تهمَّ[2] .

أشارَ بهِ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾[3] .

وعنهُ أيضاً ما هوَ أعجبُ مِنْ هٰذا ، وذٰلكَ أنَّهُ خرجَ مِنَ المدينةِ حاجّاً ومعَهُ رفيقٌ لهُ ، حتَّىٰ نزلا بالأبواءِ ، فقامَ رفيقُهُ وأخذَ السفرةَ ،

← رضي الله عنها مرفوعاً كذٰلك بنحوه ، ووسع القول فيه الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٤٣٩/٧) .

(١) رواه البخاري (٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٩١/٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧٠٩) .

(٣) سورة يوسف ﷺ : (٢٤) .

وانطلقَ إلى السوقِ ليبتاعَ شيئاً ، وجلسَ سليمانُ في الخيمةِ ، وكانَ مِنْ أجملِ الناسِ وجهاً وأورعِ الناسِ ، فبصرَتْ بهِ أعرابيَّةٌ مِنْ قلَّةِ الجبلِ ، فلمَّا رأتْ جمالَهُ وحسنَهُ . . انحدرَتْ إليهِ حتىٰ وقفَتْ بينَ يديهِ وعليها البرقعُ والقفازانِ ، فأسفرَتْ عنْ وجهٍ لها كأنَّهُ فلقةُ قمرٍ ، وقالَتْ : أهنئْني ، فظنَّ أنَّها تريدُ طعاماً فقامَ إلىٰ فضلِ السفرةِ ليعطيَها ، فقالَتْ : لستُ أريدُ هٰذا ، إنَّما أريدُ ما يكونُ مِنَ الرجلِ إلىٰ أهلِهِ ، فقالَ : جهَّزَكِ إليَّ إبليسُ ، ثمَّ وضعَ رأسَهُ بينَ ركبتيهِ وأخذَ في النحيبِ ، فلمْ يزلْ يبكي ، فلمَّا رأتْ منهُ ذٰلكَ . . سدلَتِ البرقعَ علىٰ وجهِها ، وانصرفَتْ راجعةً حتَّىٰ بلغَتْ أهلَها .

وجاءَ رفيقُهُ ، فرآهُ وقدِ انتفخَتْ عيناهُ مِنَ البكاءِ وانقطعَ حلقُهُ ، فقالَ : ما يبكيكَ ؟ قالَ : خيرٌ ، ذكرتُ صبيتي ، قالَ : لا واللهِ ، إلا أنَّ لكَ قصَّةً ، إنَّما عهدُكَ بصبيتِكَ منذُ ثلاثٍ أوْ نحوِها ، فلمْ يزلْ بهِ حتَّىٰ أخبرَهُ خبرَ الأعرابيَّةِ ، فوضعَ رفيقُهُ السفرةَ وجعلَ يبكي بكاءً شديداً ، فقالَ لهُ سليمانُ : وأنتَ ما يبكيكَ ؟ قالَ : أنا أحقُّ بالبكاءِ منكَ ، لأنِّي أخشىٰ أنْ لوْ كنتُ مكانَكَ . . لما صبرتُ عنها ، فلمْ يزالا يبكيانِ .

فلمَّا انتهىٰ سليمانُ إلىٰ مكَّةَ ، وطافَ وسعىٰ . . أتى الحجرَ ، فاحتبىٰ بثوبِهِ ، فنعسَ فإذا رجلٌ وسيمٌ جميلٌ طوالٌ لهُ شارةٌ حسنةٌ ، ورائحةٌ طيبةٌ ، فقالَ لهُ سليمانُ : مَنْ أنتَ رحمَكَ اللهُ ؟ قالَ : أنا يوسفُ ، قالَ : يوسفُ الصدِّيقُ ؟! قالَ : نعمْ ، قالَ : إنَّ في شأنِكَ

وشأنِ امرأةِ العزيزِ لعجباً ، فقالَ لهُ يوسفُ : شأنُكَ وشأنُ صاحبةِ الأبواءِ أعجبُ [١] .

ورُوِيَ عنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « انطلقَ ثلاثةُ نفرٍ ممَّنْ كانَ قبلَكُمْ ، حتَّىٰ آواهُمُ المبيتُ إلىٰ غارٍ ، فدخلوهُ ، فانحدرَتْ صخرةٌ مِنَ الجبلِ ، فسدَّتْ عليهِمُ الغارَ ، فقالوا : إنَّهُ لا ينجيكُمْ مِنْ هٰذهِ الصخرةِ إلا أنْ تدعوا اللهَ تعالىٰ بصالحِ أعمالِكُمْ ، فقالَ رجلٌ منهُمْ : اللهمَّ ؛ إنَّكَ تعلمُ أنَّهُ كانَ لي أبوانِ شيخانِ كبيرانِ ، وكنتُ لا أغبِقُ قبلَهُما أهلاً ولا مالاً [٢] ، فنأىٰ بي طلبُ الشجرِ يوماً ، فلمْ أُرِحْ عليهِما حتَّىٰ ناما ، فحلبتُ لهما غَبُوقَهُما ، فوجدتُهما نائمينِ ، فكرهتُ أنْ أَغبِقَ قبلَهُما أهلاً أوْ مالاً ، فلبثتُ والقدحُ في يدي أنتظرُ استيقاظَهُما حتَّىٰ طلعَ الفجرُ ، والصبيةُ يتضاغَونَ حولَ قدمي ، فاستيقظا ، فشربا غَبُوقَهُما ، اللهمَّ ؛ إنْ كنتُ فعلتُ ذٰلكَ ابتغاءَ وجهِكَ . . ففرِّجْ عنَّا ما نحنُ فيهِ مِنْ هٰذهِ الصخرةِ ، فانفرجَتْ شيئاً لا يستطيعونَ الخروجَ منهُ .

وقالَ الآخرُ : اللهمَّ ؛ إنَّكَ تعلمُ أنَّهُ كانَتْ لي ابنةُ عمٍّ مِنْ أحبِّ الناسِ إليَّ ، فراودتُها عنْ نفسِها ، فامتنعَتْ منِّي ، حتَّىٰ ألمَّتْ بها

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/١٩١) .

(٢) أي : لا أقدم في الغبوق عليهما أحداً من الأهل ولا من المال ، والمراد بالأهل : زوجته وصبيته ، والمراد بالمال : الناطق . « إتحاف » (٧/٤٤٢) ، والغبوق : ما يشرب عشاءً .

سنةٌ مِنَ السنينَ ، فجاءَتْني ، فأعطيتُها مئةً وعشرينَ ديناراً علىٰ أنْ تخلِّيَ بيني وبينَ نفسِها ، ففعلَتْ ، حتَّىٰ إذا قدرتُ عليها . . قالَتْ : اتقِ اللهَ ولا تفضَّ الخاتمَ إلا بحقِّهِ ، فتحرَّجتُ مِنَ الوقوعِ عليها ، فانصرفتُ عنها وهيَ مِنْ أحبِّ الناسِ إليَّ ، وتركتُ الذَّهبَ الذي أعطيتُها ، اللهمَّ ؛ إنْ كنتُ فعلتُ ذٰلكَ ابتغاءَ وجهِكَ . . ففرِّجْ عنَّا ما نحنُ فيهِ ، فانفرجَتِ الصخرةُ عنهُمْ ، غيرَ أنَّهُمْ لا يستطيعونَ الخروجَ منها .

وقالَ الثَّالثُ : اللهمَّ ؛ إنِّي استأجرتُ أجراءَ ، وأعطيتُهُمْ أجرَهُمْ غيرَ رجلٍ واحدٍ ، فإنَّهُ تركَ الأجرَ الذي لهُ وذهبَ ، فثمَّرتُ أجرَهُ حتَّىٰ كثرَتْ منهُ الأموالُ ، فجاءَني بعدَ حينٍ ، فقالَ : يا عبدَ اللهِ ؛ أعطني أجري ، فقلتُ : كلُّ ما ترىٰ مِنْ أجرِكَ مِنَ الإبلِ والبقرِ والغنمِ والرقيقِ ، فقالَ : يا عبدَ اللهِ ، لا تستهزئْ بي ، فقلتُ : لا أستهزئُ بكَ ، فخذْهُ ، فاستاقَهُ وأخذَهُ كلَّهُ ولمْ يتركْ منهُ شيئاً ، اللهمَّ ؛ إنْ كنتُ فعلتُ ذٰلكَ ابتغاءَ وجهِكَ فافرُجْ عنَّا ما نحنُ فيهِ ، فانفرجَتِ الصخرةُ ، فخرجوا يمشونَ »[1] .

فهٰذا فضلُ مَنْ تمكَّنَ مِنْ قضاءِ هٰذهِ الشهوةِ فعفَّ ، ويقربُ منهُ مَنْ تمكَّنَ مِنْ قضاءِ شهوةِ العينِ ؛ فإنَّ النظرَ مبدأُ الزنا ، فحفْظُه مهمٌّ ، وهوَ عسيرٌ مِنْ حيثُ إنَّهُ قدْ يُستهانُ بهِ ، ولا يعظمُ الخوفُ فيهِ ، والآفاتُ كلُّها تنشأُ منهُ .

---

(١) رواه البخاري (٢٢٧٢) واللفظ له ، ومسلم (٢٧٤٣) .

والنظرةُ الأولىٰ إذا لمْ تُقصدْ . . لا يُؤاخذُ بها ، والمعاودةُ يُؤاخذُ بها ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لكَ الأولىٰ ، وعليكَ الثانيةُ »[1] أي : النظرةُ .

وقالَ العلاءُ بنُ زيادٍ : (لا تتبعْ بصرَكَ رداءَ المرأةِ ؛ فإنَّ النظرَ يزرعُ في القلبِ شهوةً)[2] .

وقلَّما يخلو الإنسانُ في ترداداتِهِ عنْ وقوعِ البصرِ على النساءِ والصبيانِ ، فمهما تخايلَ إليهِ الحسنُ . . تقاضى الطبعُ المعاودةَ ، وعندَهُ ينبغي أنْ يقرّرَ في نفسِهِ أنَّ هٰذهِ المعاودةَ عينُ الجهلِ ؛ لأنَّهُ إنْ حقَّقَ النظرَ فاستحسنَ . . ثارَتِ الشهوةُ ، وعجزَ عنِ الوصولِ ، فلا يحصلُ لهُ إلا التحسُّرُ ، وإنِ استقبحَ . . لمْ يلتذَّ ، ويأثمُ ؛ لأنَّهُ قصدَ الالتذاذَ ، فقدْ فعلَ ما آلمَهُ ، فلا يخلو في كلتا حالتيهِ عنْ معصيةٍ وعنْ تألُّمٍ وتحسُّرٍ .

ومهما حفظَ العينَ بهٰذا الطريقِ . . اندفعَ عنْ قلبِهِ كثيرٌ مِنَ الآفاتِ ، وإنْ أخطأَتْ عينُهُ وحفظَ الفرجَ معَ التمكُّنِ . . فذٰلكَ يستدعي غايةَ القوّةِ ونهايةَ التوفيقِ[3] .

رُويَ عنْ بكرِ بنِ عبدِ اللهِ المزنيِّ أنَّ قصَّاباً أُولعَ بجاريةٍ لبعضِ جيرانِهِ ، فأرسلَها أهلُها في حاجةٍ لهُمْ إلىٰ قريةٍ أخرىٰ ، فتبعَها ،

---

(١) رواه أبو داوود (٢١٤٩) ، والترمذي (٢٧٧٧) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٤٤) .

(٣) في (أ) : (فإن حفظ عينه وفرجه مع التمكن . . .) .

وراودَها عنْ نفسِها ، فقالَتْ لهُ : لا تفعلْ ، لأنا أشدُّ حبّاً لكَ منكَ لي ، ولٰكنِّي أخافُ اللّٰهَ .

قالَ : فأنتِ تخافينَهُ وأنا لا أخافُهُ !! فرجعَ تائباً ، فأصابَهُ العطشُ حتَّىٰ كادَ ينقطعُ عنقُهُ ، فإذا هوَ برسولٍ لبعضِ أنبياءِ بني إسرائيلَ ، فسألَهُ ، فقالَ : ما لكَ ؟ قالَ : العطشُ ، قالَ : تعالَ حتَّىٰ ندعوَ حتَّىٰ تظلَّنا سحابةٌ حتَّىٰ ندخلَ القريةَ ، قالَ : ما لي مِنْ عملٍ فأدعوَ ، قالَ : فأنا أدعو وأمِّنْ أنتَ علىٰ دعائي ، فدعا الرسولُ ، وأمَّنَ هوَ ، فأظلَّتْهُما سحابةٌ حتَّى انتهيا إلى القريةِ ، فأخذَ القصَّابُ إلىٰ مكانِهِ ، فمالَتِ السحابةُ معَهُ ، فقالَ لهُ الرسولُ : زعمتَ أنْ ليسَ لكَ عملٌ ، وأنا الذي دعوتُ وأنتَ الذي أمَّنتَ ، فأظلَّتنا سحابةٌ ، ثمَّ تبعَتْكَ ، لتخبرْني بأمرِكَ ، فأخبرَهُ ، فقالَ الرسولُ : إنَّ التائبَ عندَ اللهِ تعالىٰ بمكانٍ ليسَ أحدٌ مِنَ الناسِ بمكانِهِ (١) .

وعنْ أحمدَ بنِ سعيدٍ العابدِ ، عنْ أبيهِ قالَ : كانَ عندنا بالكوفةِ شابٌّ متعبِّدٌ ، لازمَ المسجدَ الجامعَ ، لا يكادُ يفارقُهُ ، وكانَ حسنَ الوجهِ ، حسنَ القامةِ ، حسنَ السمتِ ، فنظرَتْ إليهِ امرأةٌ ذاتُ جمالٍ وعقْلٍ ، فشُغفَتْ بهِ ، وطالَ ذٰلكَ عليها ، فلمَّا كانَ ذاتَ يومٍ . . وقفَتْ لهُ علىٰ طريقِهِ وهوَ يريدُ المسجدَ ، فقالَتْ لهُ : يا فتى ؛ اسمعْ منِّي كلماتٍ أكلِّمُكَ بها ثمَّ اعملْ ما شئتَ ، فمضىٰ ولمْ يكلِّمْها .

ثمَّ وقفَتْ لهُ بعدَ ذٰلكَ علىٰ طريقِهِ وهوَ يريدُ منزلَهُ ، فقالَتْ لهُ :

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٣٠) .

يا فتى ؛ اسمعْ منِّي كلماتٍ أكلِّمُكَ بها ، فأطرقَ مليّاً وقالَ لها : هٰذا موقفُ تهمةٍ ، وأنا أكرهُ أنْ أكونَ للتهمةِ موضعاً .

فقالَتْ لهُ : واللهِ ؛ ما وقفتُ موقفي هٰذا جهالةً منِّي بأمرِكَ ، ولٰكنْ معاذَ اللهِ أنْ يتشوَّفَ العبادُ إلىٰ مثلِ هٰذا منِّي ، والذي حملَني علىٰ أنْ لقيتُكَ في مثلِ هٰذا الأمرِ بنفسي لمعرفتي أنَّ القليلَ مِنْ هٰذا عندَ الناسِ كثيرٌ ، وأنتمْ معاشرَ العبَّادِ في مثالِ القواريرِ ، أدنىٰ شيءٍ يعيبُها ، وجملةُ ما أكلِّمُكَ بهِ أنَّ جوارحي كلَّها مشغولةٌ بكَ ، فاللهَ اللهَ في أمري وأمرِكَ .

قالَ : فمضى الشابُّ إلىٰ منزلِهِ ، وأرادَ أنْ يصلِّيَ ، فلمْ يعقلْ كيفَ يصلِّي ، فأخذَ قرطاساً وكتبَ كتاباً ، ثمَّ خرجَ مِنْ منزلِهِ ، فإذا بالمرأةِ واقفةٌ في وضعِها ، فألقى الكتابَ إليها ورجعَ إلىٰ منزلِهِ .

وكانَ فيهِ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اعلمي أيَّتُها المرأةُ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا عصاهُ العبدُ . . حلمَ ، فإذا عادَ إلى المعصيةِ مرَّةً أخرىٰ . . سترَهُ ، فإذا لبسَ لها ملابسَها . . غضبَ اللهُ تعالىٰ لنفسِهِ غضبةً تضيقُ منها السماواتُ والأرضُ والجبالُ والشجرُ والدوابُّ .

فمَنْ ذا يطيقُ غضبَهُ ؟!

فإنْ كانَ ما ذكرتِ باطلاً . . فإنِّي أذكِّرُكِ يوماً تكونُ السماءُ فيهِ

كالمُهْلِ ، وتصيرُ الجبالُ كالعهْنِ ، وتجثو الأممُ لصولةِ الجبَّارِ العظيمِ ، وإنِّي واللهِ قدْ ضعفتُ عنْ إصلاحِ نفسي ، فكيفَ بإصلاحِ غيري .

وإنْ كانَ ما ذكرتِ حقّاً . . فإنِّي أدلُّكِ على طبيبٍ يداوي الكلومَ الممرضةَ ، والأوجاعَ المُرْمِضةَ ، ذلكَ اللهُ ربُّ العالمينَ ، فاقصديهِ على صدْقِ المسألةِ ؛ فإنِّي مشغولٌ عنكِ بقولِهِ تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ۞ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ (١) .

فأينَ المهربُ مِنْ هٰذهِ الآيةِ ؟!

ثمَّ جاءَتْ بعدَ ذٰلكَ بأيامٍ ، فوقفَتْ لهُ على طريقِهِ ، فلمَّا رآها مِنْ بعيدٍ . . أرادَ الرجوعَ إلى منزلِهِ لئلا يراها ، فقالَتْ : يا فتى ؛ لا تَرجعْ ، فلا كانَ الملتقى بعدَ هٰذا اليومِ أبداً إلا غداً بينَ يدي اللهِ تعالى ، ثمَّ بكَتْ بكاءً شديداً ، وقالَتْ : أسألُ اللهَ تعالى الذي بيدِهِ مفاتيحُ قلبِكَ أنْ يسهِّلَ ما قدْ عَسُرَ مِنْ أمرِكَ .

ثمَّ إنَّها تبعَتْهُ ، فقالَتِ : امننْ عليَّ بموعظةٍ أحملُها عنكَ ، وأوصني بوصيَّةٍ أعملُ عليها .

فقالَ لها : أوصيكِ بحفْظِ نفسِكِ مِنْ نفسِكِ ، وأذكِّرُكِ قولَهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة غافر : (١٨ ـ ١٩) .

(٢) سورة الأنعام : (٦٠) .

قالَ : فأطرقَتْ وبكَتْ بكاءً شديداً أشدَّ مِنْ بكائِها الأوَّلِ ، ثمَّ إنها أفاقَتْ ولزمَتْ بيتَها ، وأخذَتْ في العبادةِ ، فلمْ تزلْ علىٰ ذٰلكَ حتَّىٰ ماتَتْ كمداً .

فكانَ الفتىٰ يذكرُها بعدَ موتِها ثمَّ يبكي فيُقالُ لهُ : ممَّ بكاؤُكَ وأنتَ قدْ آيسْتَها منْ نفسِكَ ؟

فيقولُ : إنِّي قدْ ذبحتُ طمعَها في أوَّلِ أمرِها ، وجعلتُ قطيعَتَها ذخيرةً لي عندَ اللهِ تعالىٰ ، فأنا أستحيي مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ أستردَّ ذخيرةً ادخرتُها عندَهُ (١) .

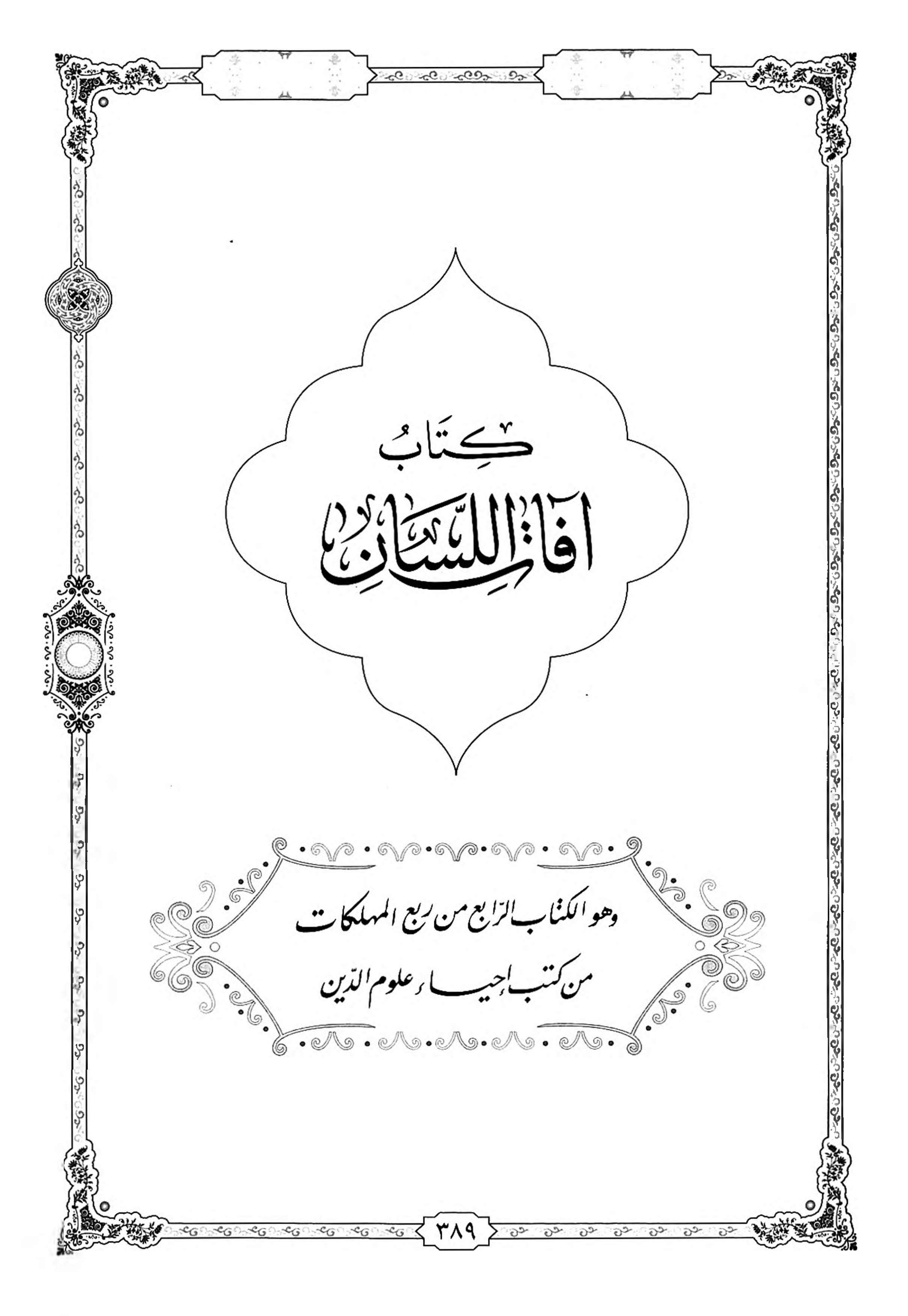
تمّ كتاب كسر الشّهوتين

وهو الكتاب الثّالث من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدّين

ولله الحمد والمنّة ، وصلواته على أشرف خلقه سيّدنا محمّدٍ وآله وصحبه وسلّم تسليمًا

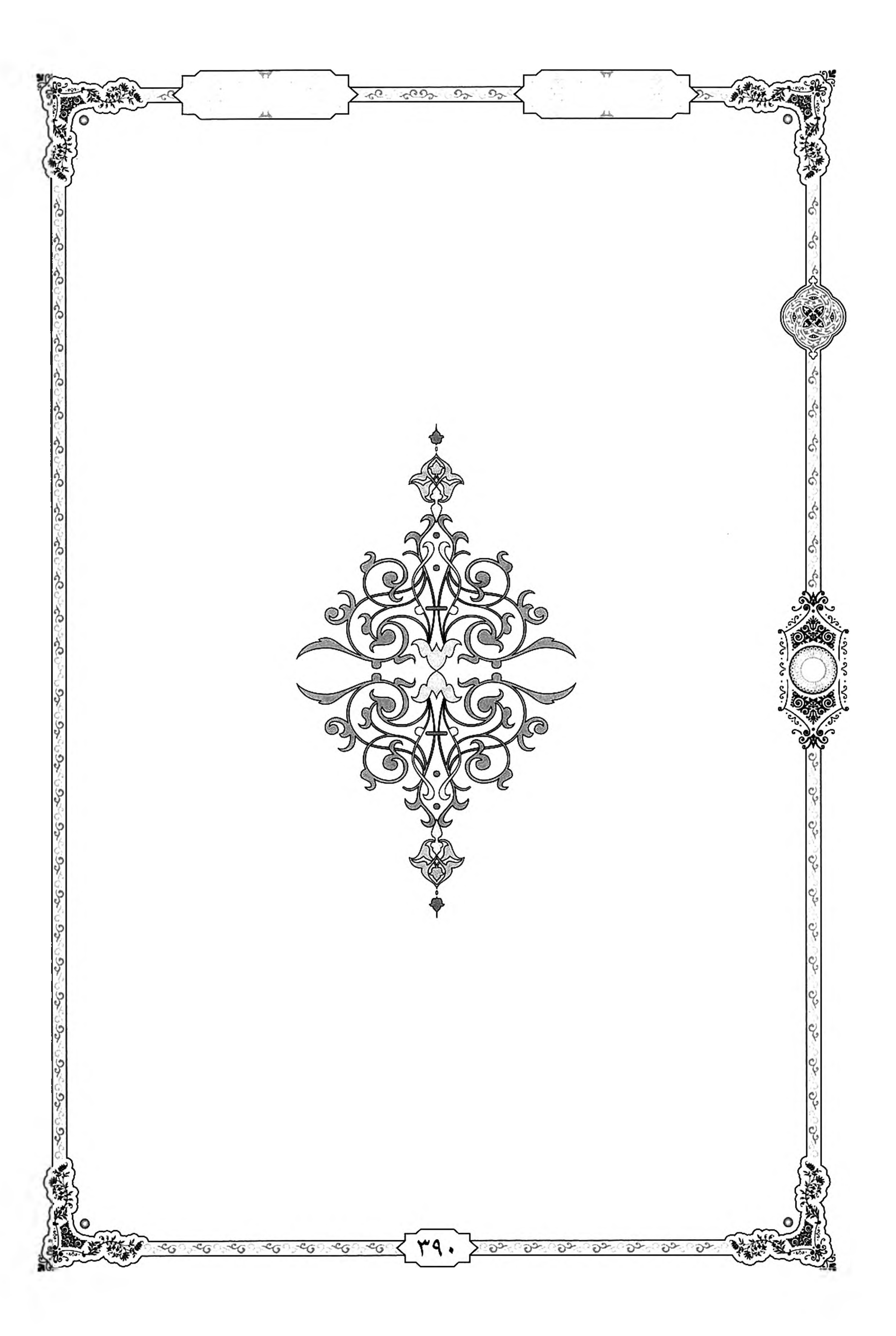
يتلوه كتاب آفات اللّسان

(١) رواها السراج القاري في « مصارع العشاق » (١/٤٩) .



كِتَابُ آفَاتِ اللِّسَانِ

وهو الكتاب الرّابع من ربع المهلكات
من كتب إحياء علوم الدّين



كتاب آفات اللسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي أحسنَ خلقَ الإنسانِ وعدَّلَهُ ، وألهمَهُ نورَ الإيمانِ فزيَّنَهُ بهِ وجمَّلَهُ ، وعلَّمَهُ البيانَ فقدَّمَهُ بهِ وفضَّلَهُ ، وأفاضَ علىٰ قلبِهِ خزائنَ العلومِ فأكملَهُ ، ثمَّ أرسلَ عليهِ سِتراً مِنْ رحمتِهِ وأسبلَهُ ، ثمَّ أمدَّهُ بلسانٍ يترجمُ بهِ عمَّا حواهُ القلبُ وعقلَهُ ، ويكشفُ عنهُ سترَهُ الذي أرسلَهُ ، فأطلقَ بالحمدِ مِقْوَلَهُ (١) ، وأفصحَ بالشكرِ عمَّا أولاهُ وخوَّلَهُ ؛ مِنْ علمٍ حصَّلَهُ ، ونطقٍ سهَّلَهُ .

وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ الذي أكرمَهُ وبجَّلَهُ ، ونبيُّهُ الذي أرسلَهُ بكتابٍ أنزلَهُ ، وآيٍ فصَّلَهُ ، ودينٍ سبَّلَهُ ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ ومَنْ قبلَهُ ، ما كبَّرَ اللهَ عبدٌ وهلَّلَهُ .

أما بعد :

فإنَّ اللسانَ مِن نعمِ اللهِ العظيمةِ ، ولطائفِ صنعِهِ الغريبةِ ، فإنَّهُ صغيرٌ جِرْمُهُ ، عظيمٌ طاعتُهُ وجُرْمُهُ ؛ إذْ لا يتبيَّنُ الكفرُ والإيمانُ إلا

---

(١) المِقْول بالكسر : اسم للسان باعتبار أنه آلة للقول ، وإطلاقه : تمكينُهُ من النطق به ، وأراد بالحمد : اللغويّ ، وهو الوصف بفضيلة علىٰ فضيلة علىٰ جهة التعظيم ، وهو باللسان فقط . « إتحاف » (٧/٤٤٧) .

بشهادةِ اللسانِ ، وهما غايةُ الطاعةِ والعصيانِ ، ثمَّ إنَّهُ ما مِنْ موجودٍ أوْ معدومٍ ، خالقٍ أوْ مخلوقٍ ، متخيَّلٍ أوْ معلومٍ ، مظنونٍ أوْ موهومٍ . . إلا واللسانُ يتناولُهُ ويتعرَّضُ لهُ بإثباتٍ أوْ نفيٍ ؛ فإنَّ كلَّ ما يتناولُهُ العلمُ يعربُ عنهُ اللسانُ إمَّا بحقٍّ أوْ باطلٍ ، ولا شيءَ إلا والعلمُ متناوِلٌ لهُ ، وهٰذهِ خاصيَّةٌ لا تُوجدُ في سائرِ الأعضاءِ ، فإنَّ العينَ لا تصلُ إلىٰ غيرِ الألوانِ والصُّورِ ، والأذنَ لا تصِلُ إلىٰ غيرِ الأصواتِ ، واليدَ لا تصِلُ إلىٰ غيرِ الأجسامِ ، وكذا سائرُ الأعضاءِ .

واللسانُ رَحْبُ الميدانِ ، ليسَ لهُ مردٌّ ، ولا لمجالِهِ منتهىً وحدٌّ ، لهُ في الخيرِ مجالٌ رحْبٌ ، ولهُ في الشرِّ ذيلٌ سَحْبٌ ، فمَنْ أطلقَ عَذَبَةَ اللسانِ [1] ، وأهملَهُ مُرخَى العِنانِ . . سلكَ بهِ الشيطانُ في كلِّ ميدانٍ ، وساقَهُ إلىٰ شفا جُرُفٍ هارٍ ، إلىٰ أن يضطرَّهُ إلى البوارِ ، ولا يكبُّ الناسَ في النارِ علىٰ مناخرِهِمْ إلا حصائدُ ألسنتِهِمْ ، ولا ينجو مِنْ شرِّ اللسانِ إلا مَنْ قيدَهُ بلجامِ الشَّرعِ ، فلا يطلقُهُ إلا فيما ينفعُهُ في الدنيا والآخرةِ ، ويكفُّهُ عنْ كلِّ ما يُخشىٰ غائلتُهُ في عاجلِهِ وآجلِهِ .

وعلمُ ما يُحمدُ فيهِ إطلاقُ اللسانِ أوْ يُذمُّ غامضٌ عزيزٌ ، والعملُ بمقتضاهُ علىٰ مَنْ عرفَهُ ثقيلٌ عسيرٌ ، وأعصى الأعضاءِ على الإنسانِ اللسانُ ؛ فإنَّهُ لا تعبَ في إطلاقِهِ ، ولا مؤنةَ في تحريكِهِ ، وقدْ تساهلَ الخلقُ في الاحترازِ عَنْ آفاتِهِ وغوائلِهِ ، والحذرِ مِنْ مصايدِهِ وحبائلِهِ ، وأنهُ أعظمُ آلةٍ للشيطانِ في استغواءِ الإنسانِ .

---

(١) **عذبة اللسان** : طرفه الدقيق .

ونحنُ بتوفيقِ اللهِ وحُسْنِ تيسيرِهِ نفصِّلُ مجامعَ آفاتِ اللسانِ ، ونذكرُها واحدةً واحدةً ، بحدودِها وأسبابِها وغوائِلِها ، ونعرِّفُ طريقَ الاحترازِ عنها ، ونوردُ ما وردَ مِنْ الأخبارِ والآثارِ في ذمِّها ، فنذكرُ أوّلاً فضلَ الصَّمتِ ، ونردفُهُ بذكرِ آفةِ الكلامِ فيما لا يعنيكَ ، ثمَّ آفةِ فضولِ الكلامِ ، ثمَّ آفةِ الخوضِ في الباطلِ ، ثمَّ آفةِ المراءِ والجدالِ ، ثمَّ آفةِ الخصومةِ ، ثمَّ آفةِ التقعُّرِ في الكلامِ ؛ بالتشدُّقِ ، وتكلُّفِ السَّجْعِ والفصاحةِ والتصنُّعِ فيهِ ، وغيرِ ذٰلكَ ممَّا جرَتْ بهِ عادةُ المتفاصحينَ المدَّعينَ للخطابةِ ، ثمَّ آفةِ الفُحْشِ والسَّبِّ وبذاءةِ اللسانِ ، ثمَّ آفةِ اللَّعنِ ؛ إمَّا لحيوانٍ ، أوْ جمادٍ ، أوْ إنسانٍ ، ثمَّ آفةِ الغناءِ وَالشِّعرِ ، وقدْ ذكرنا في كتابِ السماعِ ما يحرمُ مِنَ الغناءِ وما يحلُّ فلا نعيدُهُ ، ثمَّ آفةِ المِزاحِ ، ثمَّ آفةِ السُّخريةِ والاستهزاءِ ، ثمَّ آفةِ إفشاءِ السِّرِّ ، ثمَّ آفةِ الوعدِ الكاذبِ ، ثمَّ آفةِ الكذبِ في القولِ واليمينِ ، ثمَّ آفةِ الغيبةِ ، ثمَّ آفةِ النميمةِ ، ثمَّ آفةِ ذي اللسانينِ الذي يتردَّدُ بينَ المتعاديينِ فيكلِّمُ كلَّ واحدٍ بكلامٍ يوافقُهُ ، ثمَّ آفةِ المدحِ ، ثمَّ آفةِ الغفلةِ عن دقائقِ الخطأ في فحوى الكلامِ ، ولا سيما فيما يتعلَّقُ باللهِ عزَّ وجلَّ وصفاتِهِ ، ويرتبطُ بأمورِ الدينِ ، ثمَّ آفةِ سؤالِ العوامِّ عنْ صفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وعنْ كلامِهِ ، وعنِ الحروفِ : أهيَ قديمةٌ أوْ محدثةٌ ، وهيَ آخرُ الآفاتِ ، وما يتعلقُ بذٰلكَ ، وجملتُها عشرونَ آفةً ، ونسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بمنِّهِ وكرمِهِ .

❊ ❊ ❊

بيان عظم خطر اللّسان ، وفضيلة الصّمت

اعلمْ : أنَّ خطرَ اللسانِ عظيمٌ ، ولا نجاةَ مِنْ خطرِهِ إلا بالصمتِ ؛ فلذٰلكَ مدحَ الشرعُ الصمتَ وحثَّ عليهِ .

فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صمتَ . . نجا »[1] .

وقالَ : « الصمتُ حُكْمٌ وقليلٌ فاعلُهُ »[2] أيْ : هوَ حكمةٌ وحزمٌ .

وروىٰ عبدُ اللهِ بنُ سفيانَ عنْ أبيهِ قالَ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ أخبرْني عنِ الإسلامِ بأمرٍ لا أسألُ عنهُ أحداً بعدَكَ ، قالَ : « قلْ : آمنتُ باللهِ ، ثمَّ استقمْ » ، قالَ : قلتُ : فما أتقي ؟ فأومأَ بيدِهِ إلىٰ لسانِهِ[3] .

وقالَ عقبةُ بنُ عامرٍ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما النجاةُ ؟ قالَ : « أمسكْ عليكَ لسانَكَ ، وليسعْكَ بيتُكَ ، وابكِ علىٰ خطيئتِكَ »[4] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٠١) .

(٢) رواه ابن عدي في « الكامل » (٥/١٦٩) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٢٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٦٧٢) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٤١) عن أنس من قول لقمان الحكيم عليه السلام .

(٣) رواه الترمذي (٢٤١٠) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١٤٢٥) ، وابن ماجه (٣٩٧٢) ، وهو عند مسلم (٣٨) دون ذكر اللسان .

(٤) رواه الترمذي (٢٤٠٦) .

وقالَ سهلُ بنُ سعدٍ الساعديُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ يتكفَّلْ لي ما بينَ لَحيَيْهِ ورجليهِ . . أتكفَّلْ لهُ بالجنَّةِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ وُقِيَ شرَّ قَبْقَبِهِ وذَبْذَبِهِ ولَقْلَقِهِ . . فقدْ وُقيَ الشَّرَّ كلَّهُ »(٢) ، والقَبْقَبُ : البطنُ ، والذَّبذَبُ : الفرجُ ، واللَّقْلَقُ : اللسانُ(٣) ، فهٰذهِ الشهواتُ الثلاثُ بها يهلِكُ أكثرُ الخلقِ ؛ ولذٰلكَ اشتغلنا بذكرِ آفاتِ اللسانِ لما فرغنا مِنْ ذكرِ آفةِ الشهوتينِ البطنِ والفرجِ .

وقدْ سُئلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ أكثرِ ما يدخلُ الناسَ الجنةَ ، فقالَ : « تقوى اللهِ وحسنُ الخُلُقِ » ، وسُئلَ عنْ أكثرِ ما يدخلُ النارَ ، فقالَ : « الأجوفانِ ؛ الفمُ والفرجُ »(٤) .

ويُحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بالفمِ آفاتِ اللسانِ ؛ لأنَّهُ محلُّهُ ، ويُحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بِهِ البطنَ ؛ لأنهُ منفذُهُ ، فقدْ قالَ معاذُ بنُ جبلٍ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ أنؤاخذُ بما نقولُ ؟ فقالَ : « ثكلَتْكَ أمُّكَ يا بنَ جبلٍ !!

---

(١) رواه البخاري (٦٤٧٤ ، ٦٨٠٧) ، والترمذي (٢٤٠٨) واللفظ له .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٠٢٦) بلفظه هنا ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٩٧٨) وفيه : « فقد وجب له الجنة » .

(٣) وعند البيهقي في تمام الخبر : (أما لقلقه . . فاللسان ، وقبقبه . . فالفم ، وذبذبه . . فالفرج) ، وبنحو ما ساقه المصنف عند الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٥١) والخبر عنده عن أبي رجاء العطاردي .

(٤) رواه الترمذي (٢٠٠٤) ، وابن ماجه (٤٢٤٦) .

وهلْ يكبُّ النَّاسَ في النَّارِ على مناخرِهِمْ إلا حصائدُ ألسنتِهِمْ ؟! »[1] .

وقالَ عبدُ اللهِ الثقفيُّ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ حدِّثْني بأمرٍ أعتصمُ بهِ ، فقالَ : « قلْ : ربِّيَ اللهُ ، ثمَّ استقمْ » ، قالَ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما أخوفُ ما تخافُ عليَّ ؟ فأخذَ بلسانِهِ ثمَّ قالَ : « هٰذا »[2] .

ورُوِيَ أنَّ معاذاً قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ فأخرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لسانَهُ ، ثمَّ وضعَ عليهِ إصبعيهِ[3] .

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يستقيمُ إيمانُ العبدِ حتَّىٰ يستقيمَ قلبُهُ ، ولا يستقيمُ قلبُهُ حتَّىٰ يستقيمَ لسانُهُ ، ولا يدخُلُ الجنةَ رجلٌ لا يأْمَنُ جارُهُ بوائقَهُ »[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سرَّهُ أنْ يَسْلَمَ . . فليلزمِ الصَّمتَ »[5] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٦١٦) ، وابن ماجه (٣٩٧٣) ، ولفظه عند ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦) .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه النسائي ، قال ابن عساكر : وهو خطأ ، والصواب : سفيان بن عبد الله الثقفي كما رواه الترمذي وصححه وابن ماجه ، وقد تقدم قبل هٰذا بخمسة أحاديث) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٨) ، والطبراني في « الكبير » (٦٤/٢٠) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (١٩٨/٣) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٩) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١١) ، والطبراني في « الأوسط » (١٩٥٥) .

وعنْ سعيدِ بنِ جبيرٍ مرفوعاً إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنه قالَ : « إذا أصبحَ ابنُ آدمَ . . أصبحَتِ الأعضاءُ كلُّها تكفِّرُ اللِّسانَ تقولُ : اتَّقِ اللهَ فينا ؛ فإنَّكَ إنِ استقمتَ . . استقمنا ، وإنِ اعوججتَ . . اعوججنا »(١) .

ورويَ أنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ اطلعَ علىٰ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهما وهوَ يمدُّ لسانَهُ ، فقالَ : ما تصنعُ يا خليفةَ رسولِ اللهِ ؟ قال : إنَّ هٰذا أوردَني المواردَ ، إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ليسَ شيءٌ مِنَ الجسدِ إلا يشكو إلى اللهِ اللسانَ علىٰ حدَّتِهِ »(٢) .

وعنِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنهُ كانَ على الصَّفا يلبِّي ويقولُ : يا لسانُ ؛ قلْ خيراً . . تغنمْ ، أوْ أنصتْ . . تسلمْ ، مِنْ قبلِ أنْ تندمَ ، فقيلَ لهُ : يا أبا عبدِ الرحمٰنِ ؛ هٰذا شيءٌ تقولُهُ أوْ شيءٌ سمعتَهُ ؟ فقالَ : لا ، بلْ سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٠٧) عن سعيد بن جبير عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً ، وليس في النسخ إثبات أبي سعيد في الرواية . قال الطيبي في « شرحه علىٰ مشكاة المصابيح » (١٣٢/٩) : (قوله : « تكفر » ؛ أي : تذل وتخضع ، والتكفير : هو أن ينحني الإنسان ويطأطئ رأسه قريباً من الركوع كما يفعل من يريد تعظيم صاحبه . . . ، فإن قلت : كيف التوفيق بين هٰذا الحديث وبين قوله صلى الله عليه وسلم : « إن في الجسد مضغة إذا صلحت . . صلح الجسد كله ، وإذا فسدت . . فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » ؟ قلت : اللسان ترجمان القلب وخليفته في ظاهر البدن ، فإذا أسند إليه الأمر . . يكون علىٰ سبيل المجاز في الحكم ؛ كما في قولك : شفى الطبيب المريض) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٣) ، وفي « الورع » (٩١) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٥) .

يقولُ : « إنَّ أكثرَ خطايا ابنِ آدمَ في لسانِهِ »[1] .

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كفَّ لسانَهُ . . سترَ اللهُ عورتَهُ ، ومَنْ ملكَ غضبَهُ . . وقاهُ اللهُ عذابَهُ ، ومَنِ اعتذرَ إلى اللهِ . . قَبِلَ اللهُ عذرَهُ »[2] .

ورُوِيَ أنَّ معاذَ بنَ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أوصني ، قالَ : « اعبدِ اللهَ كأنَّكَ تراهُ ، واعددْ نفسَكَ في الموتىٰ ، وإنْ شئتَ . . أنبأتُكَ بما هوَ أملكُ لكَ مِنْ هـٰذا كلِّهِ » ، وأشارَ بيدِهِ إلىٰ لسانِهِ[3] .

وعنْ صفوانَ بنِ سُليمٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أخبرُكمْ بأيسرِ العبادةِ وأهونِها على البدنِ ؟ الصَّمتُ وحسنُ الخُلُقِ »[4] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ . . فليقلْ خيراً أوْ ليسكتْ »[5] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٨) ، والطبراني في « الكبير » (١٠/١٩٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٥٨٤) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢١) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٢) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٧) عن صفوان بن سليم مرسلاً ، ونحوه رواه مرفوعاً من حديث أبي ذر رضي الله عنه أبو الشيخ في « طبقات المحدثين » (١٠٦٣) .

(٥) رواه البخاري (٦٠١٨) ، ومسلم (٤٧) ، وكذا ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٠) .

وقالَ الحسنُ : ذُكرَ لنا أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « رحمَ اللهُ عبداً تكلَّمَ فغنمَ ، أوْ سكتَ فسلمَ » [١] .

وقالَ سفيانُ : قالوا لعيسىٰ عليهِ السلامُ : دلَّنا علىٰ عملٍ ندخلُ بهِ الجنةَ ، قالَ : لا تنطقوا أبداً ، قالوا : لا نستطيعُ ذٰلكَ ، فقالَ : فلا تنطقوا إلا بخيرٍ [٢] .

وقالَ سليمانُ بنُ داوودَ عليهما السلامُ : (إنْ كانَ الكلامُ مِنْ فضَّةٍ . . فالصمتُ مِنْ ذهبٍ) [٣] .

وعنِ البراءِ بنِ عازبٍ قالَ : جاءَ أعرابيٌّ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : دلَّني علىٰ عملٍ يدخلُني الجنةَ ، قالَ : « أطعمِ الجائعَ ، واسقِ الظمآنَ ، وأْمُرْ بالمعروفِ ، وانهَ عنِ المنكرِ ، فإنْ لمْ تطقْ . . فكفَّ لسانَكَ إلا مِنْ خيرٍ » [٤] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اخْزُنْ لسانَكَ إلا مِنْ خيرٍ ، فإنَّكَ بذٰلكَ تغلبُ الشَّيطانَ » [٥] .

---

(١) رواه هناد في « الزهد » (١١٠٦) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٦) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٧) عن الأوزاعي عنه عليه السلام .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٧) .

(٥) رواه ابن الضريس في « فضائل القرآن » (٦٨) ضمن خبر ، وكذا الطبراني في « الصغير » (٢/٦٦) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عندَ لسانِ كلِّ قائلٍ ، فليتَّقِ اللهَ امرؤٌ علِمَ ما يقولُ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا رأيتُمُ المؤمنَ صَمُوتاً وقوراً . . فادنوا منهُ ؛ فإنَّهُ يلقَّنُ الحكمةَ »[2] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الناسُ ثلاثةٌ : غانمٌ وسالمٌ وشاجبٌ ؛ فالغانمُ الذي يذكرُ اللهَ تعالىٰ ، والسالمُ السَّاكتُ ، والشَّاجبُ الذي يخوضُ في الباطلِ »[3] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ لسانَ المؤمنِ مِنْ وراءِ قلبِهِ ، فإذا أرادَ أنْ يتكلَّمَ بشيءٍ . . تدبَّرَهُ بقلبِهِ ثمَّ أمضاهُ بلسانِهِ ، وإنَّ لسانَ المنافقِ أمامَ قلبِهِ ، فإذا همَّ بشيءٍ أمضاهُ بلسانِهِ ولمْ يتدبَّرْهُ بقلبِهِ »[4] .

---

(١) رواه ابن وهب في « جامعه » (٣٣٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/١٦٠) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٠١) ولفظه : « إذا رأيتم الرجل قد أعطي زهداً في الدنيا وقلة منطق . . فاقتربوا منه ؛ فإنه يلقَّى الحكمة » .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٣/٧٥) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١٠٦٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٨٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً ، ولٰكن دون تفسير الكلمات الثلاث ، ورواه هناد في « الزهد » (١٢٣١) بنحو ما ساقه المصنف عن الحسن مرسلاً ، وهو عند البيهقي في « الشعب » (١٠٣٢٣) من قول أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه كذٰلك ، ووقع في غير (ك) نسبة الحديث لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٩٠) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٢٥) ولٰكن عن الحسن يقول : (كانوا يقولون : لسان الحكيم . . .) بنحوه .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (العبادةُ عشرةُ أجزاءٍ ، تسعةٌ منها في الصمتِ ، وجزءٌ في الفرارِ منَ الناسِ)[١] .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كثُرَ كلامُهُ . . كثُرَ سَقَطُهُ ، ومَنْ كثُرَ سَقَطُهُ . . كثُرَتْ ذنوبُهُ ، ومَنْ كثُرَتْ ذنوبُهُ . . كانَتِ النارُ أولىٰ بهِ »[٢] .

❊ ❊ ❊

الآثارُ :

كانَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ يضعُ حصاةً في فيهِ يمنعُ بها نفسَهُ مِنَ الكلامِ ، وكانَ أبداً يشيرُ إلىٰ لسانِهِ ويقولُ : (هٰذا أوردَني الموارِدَ) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (واللهِ الذي لا إلٰهَ إلا هوَ ؛ ما شيءٌ أحوجَ إلىٰ طولِ سجنٍ مِنْ لسانٍ)[٣] .

وقالَ طاووسٌ : (لساني سَبُعٌ ، إنْ أَرسلتُهُ . . أكلَني)[٤] .

---

(١) كذا رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٤٢/٨) عن وهيب بن الورد عن حكيم من الحكماء ، كما رواه مرفوعاً ابن عدي في « الكامل » (٤٤٢/٦) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (١٢٧) .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٥٣٧) ، وابن عدي في « الكامل » (١٦/٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧٤/٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٧٠٣٠) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٦) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وأداب اللسان » (٣٩) عن سفيان عن بعض الماضين ، وقد رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٩٢/١٢) عن حذيفة رضي الله عنه .

وقالَ وهْبُ بنُ منبِّهٍ : في حكمةِ آلِ داوودَ : (حقٌّ على العاقلِ أنْ يكونَ عارفاً بزمانِهِ ، حافظاً للسانِهِ ، مقبلاً علىٰ شأنِهِ)[١] .

وقالَ الحسنُ : (ما عَقَلَ دينَهُ مَنْ لمْ يحفظْ لسانَهُ)[٢] .

وقالَ الأوزاعيُّ : كتبَ إلينا عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ : (أما بعدُ : فإنَّهُ مَنْ أكثرَ ذكرَ الموتِ . . رضيَ مِنَ الدنيا باليسيرِ ، ومَنْ عدَّ كلامَهُ مِنْ عملِهِ . . قلَّ كلامُهُ فيما لا ينفعُهُ)[٣] .

وقالَ بعضُهم : (الصمتُ يجمعُ للرجلِ خصلتينِ : السلامةُ في دينِهِ ، والفهمُ عنْ صاحبِهِ)[٤] .

وقالَ محمدُ بنُ واسعٍ لمالكِ بنِ دينارٍ : (يا أبا يحيىٰ ؛ حفظُ اللسانِ أشدُّ على الناسِ مِنْ حفظِ الدنانيرِ والدراهمِ)[٥] .

وقالَ يونسُ بنُ عُبيدٍ : (ما مِنَ الناسِ أحدٌ يكونُ لسانُهُ منهُ علىٰ بالٍ إلا رأيتَ صلاحَ ذٰلكَ في سائرِ عملِهِ)[٦] .

وقالَ الحسنُ : كانوا يتكلمونَ عندَ معاويةَ رضيَ اللهُ عنهُ والأحنفُ بنُ قيسٍ ساكتٌ ، فقالوا : ما لكَ لا تتكلمُ يا أبا بحرٍ ؟!

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣١) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٤) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٥) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٥) عن محمد بن عبد الوهاب الكوفي .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٧) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠) .

قالَ : أخشى اللهَ إنْ كذبْتُ ، وأخشاكُمْ إنْ صدقْتُ [1] .

وقالَ أبو بكرِ بنُ عياشٍ : (اجتمعَ أربعةُ ملوكٍ ؛ ملكُ الهندِ ، وملكُ الصينِ ، وكسرىٰ ، وقيصرُ ، فقالَ أحدُهم : أنا أندمُ علىٰ ما قلتُ ولا أندمُ علىٰ ما لَمْ أقلْ ، وقالَ الآخرُ : إنِّي إذا تكلمتُ بكلمةٍ . . ملكَتْني ولَمْ أملكْها ، وإذا لَمْ أتكلمْ بها . . ملكْتُها ولم تملكْني ، وقالَ الثالثُ : عجبتُ للمتكلمِ !! إن رجعَتْ عليهِ كلمتُهُ . . ضرَّتْهُ ، وإنْ لَمْ ترجِعْ . . لَمْ تنفعْهُ ، وقالَ الرابعُ : أنا علىٰ ردِّ ما لَمْ أقلْ أقدَرُ منِّي علىٰ ردِّ ما قلتُ) [2] .

وقيلَ : إنَّ المنصورَ بنَ المعتمرِ لَمْ يتكلَّمْ بكلمةٍ بعدَ عشاءِ الآخرةِ أربعينَ سنةً [3] .

وقيلَ : ما تكلمَ الربيعُ بنُ خُثيمٍ بكلامِ الدُّنيا عشرينَ سنةً ، وكانَ إذا أصبحَ . . وضعَ دواةً وقرطاساً نقياً وقلماً ، فكلُّ ما تكلَّمَ بهِ كتبَهُ ، ثمَّ يحاسبُ نفسَهُ عندَ المساءِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فهٰذا الفضلُ الكبيرُ للصمتِ ما سببُهُ ؟

فاعلمْ : أنَّ سببَهُ كثرةُ آفاتِ اللسانِ ؛ مِنَ الخطأِ ، والكذبِ ، والنميمةِ ، والغيبةِ ، والرياءِ ، والنفاقِ ، والفُحْشِ ، والمِراءِ ، وتزكيةِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٢) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٥) .

(٣) رواه الجرجاني في « تاريخ جرجان » (ص ٥٠١) وفيه : (ثلاثين) بدل (أربعين) .

النفسِ ، والخصومةِ ، والفضولِ ، والخوضِ في الباطلِ ، والتحريفِ ، والزيادةِ والنقصانِ ، وإيذاءِ الخلقِ ، وهتْكِ العوراتِ .

فهٰذهِ آفاتٌ كثيرةٌ ، وهيَ سبَّاقةٌ إلى اللسانِ ، لا تثقلُ عليهِ ، ولها حلاوةٌ في القلبِ ، وعليها بواعثُ مِنَ الطبعِ ومِنَ الشيطانِ ، فالخائضُ فيها قلَّما يقدِرُ علىٰ أنْ يزمَّ لسانَهُ ، فيطلقُهُ بما يحبُّ ، ويمسكُهُ ويكفُّهُ عمَّا لا يحبُّ ، فإنَّ ذٰلكَ مِنْ غوامضِ العلمِ كما سيأتي تفصيلُهُ ، ففي الخوضِ خطرٌ ، وفي الصمتِ سلامةٌ ، فلذٰلكَ عظُمَ فضلُهُ .

هٰذا معَ ما فيهِ مِنْ جمعِ الهمِّ ، ودوامِ الوقارِ ، والفراغِ للفكرِ والعبادةِ والذكرِ ، والسلامةِ مِنْ تَبِعاتِ القولِ في الدنيا ومِنْ حسابِهِ في الآخرةِ ؛ فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [١] .

❀ ❀ ❀

ويدلُّكَ علىٰ فضلِ لزومِ الصَّمتِ أمرٌ ؛ وهوَ أنَّ الكلامَ أربعةُ أقسامٍ : قسمٌ هوَ ضررٌ محضٌ ، وقسمٌ هوَ نفعٌ محضٌ ، وقسمٌ فيهِ ضررٌ ومنفعةٌ ، وقسمٌ ليسَ فيهِ ضررٌ ولا منفعةٌ .

أمَّا الذي هوَ ضررٌ محضٌ : فلا بدَّ مِنَ السكوتِ عنهُ ، وكذٰلكَ ما فيهِ ضررٌ ومنفعةٌ لا تفي بالضررِ ، وأمَّا ما لا منفعةَ فيهِ ولا ضررَ . . فهوَ فضولٌ ، والاشتغالُ بهِ تضييعُ زمانٍ ، وهوَ عينُ الخسرانِ .

فلا يبقىٰ إلا القسمُ الرابعُ ، فقدْ سقطَ ثلاثةُ أرباعِ الكلامِ ، وبقيَ

---

(١) سورة قٓ : (١٨) .

الربعُ ، وهٰذا الربعُ فيهِ خطرٌ ؛ إذْ يمتزجُ بهِ ما فيهِ إثمٌ مِنْ دقائقِ الرياءِ والتصنُّعِ والغيبةِ وتزكيةِ النفسِ ، وفضولِ الكلامِ امتزاجاً يخفىٰ مدركُهُ ، فيكونُ الإنسانُ بهِ مخاطراً .

ومَنْ عرفَ دقائقَ آفاتِ اللسانِ علىٰ ما سنذكرُهُ . . علمَ قطعاً أنَّ ما ذكرَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ هوَ فصلُ الخطابِ ؛ حيثُ قالَ : « مَنْ صمتَ . . نجا »[1] ، فلقدْ أُوتيَ ـ واللهِ ـ جواهرَ الحِكَمِ قطعاً وجوامعَ الكَلِمِ[2] ، ولا يعرفُ ما تحتَ آحادِ كلماتِهِ مِنْ بحارِ المعاني إلا خواصُّ العلماءِ ، وفيما سنذكرُهُ مِنَ الآفاتِ وعسْرِ الاحترازِ عنها ما يعرِّفُكَ حقيقةَ ذٰلكَ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

❀ ❀ ❀

ونحنُ الآنَ نعدُّ آفاتِ اللسانِ ، ونبتدئُ بأخفِّها ، ونترقَّىٰ إلى الأغلظِ قليلاً قليلاً ، ونؤخِّرُ الكلامَ في الغيبةِ والنميمةِ والكَذِبِ ؛ فإنَّ النظرَ فيها أطولُ ، وهيَ عشرونَ آفةً :

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٠١) .

(٢) روى البخاري (٧٠١٣) ، ومسلم (٥٢٣/٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بعثت بجوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وبينا أنا نائم أتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي » .

الآفة الأولى : الكلام فيما لا يعنيك

اعلمْ : أنَّ أحسنَ أحوالِكَ أنْ تحفظَ ألفاظَكَ عَنْ جميعِ الآفاتِ التي ذكرْناها ؛ مِنَ الغيبةِ ، والنميمةِ ، والكذبِ ، والمراءِ ، والنفاقِ وغيرِهِ ، وتتكلمَ بما هوَ مباحٌ لا ضررَ عليكَ فيه ولا علىٰ مسلمٍ أصلاً ، إلا أنَّكَ تتكلمُ بما أنتَ مستغنٍ عنهُ ، ولا حاجةَ بكَ إليهِ ، فإنَّكَ مضيّعٌ بهِ زمانَكَ ، ومحاسَبٌ علىٰ عملِ لسانِكَ ، ومستبدِلٌ الذي هوَ أدنىٰ بالذي هوَ خيرٌ ؛ لأنَّكَ لوْ صرفتَ زمانَ الكلامِ إلى الفكرِ . . ربما كانَ ينفتحُ لكَ منْ نفحاتِ رحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ عندَ الفكرِ ما يعظمُ جدواهُ ، ولوْ هللتَ اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ وسبحتَهُ وذكرتَهُ . . لكانَ خيراً لكَ .

فكمْ مِنْ كلمةٍ يُبنىٰ بها قصرٌ في الجنةِ ، ومَنْ قدَرَ علىٰ أنْ يأخذَ كنزاً مِنَ الكنوزِ فأخذَ بدلَهُ مَدَرَةً لا ينتفعُ بها . . كانَ خاسراً خسراناً مبيناً .

وهٰذا مثالُ مَنْ تركَ ذكرَ اللهِ تعالىٰ واشتغلَ بمباحٍ لا يعنيهِ ؛ فإنَّهُ وإنْ لمْ يأثمْ فقدْ خسِرَ حيثُ فاتَهُ الرِّبحُ العظيمُ بذكرِ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ المؤمنَ لا يكونُ صمتُهُ إلا فكراً ، ونظرُهُ إلا عِبرةً ، ونطقُهُ إلا ذِكراً ، هٰكذا قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ [1] .

---

(١) إذ روى القضاعي في « مسند الشهاب » (١١٥٩) عن ابن عائشة ، عن أبيه قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال في خطبته : « إن ربي أمرني أن يكون نطقي ذكراً ، وصمتي فكراً ، ونظري عبرة » .

بلْ رأسُ مالِ العبدِ أوقاتُهُ ، ومهما صرفَها إلىٰ ما لا يعنيهِ ولمْ يدخرْ بها ثواباً في الآخرةِ . . فقدْ ضيَّعَ رأسَ مالِهِ ، ولهٰذا قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مِنْ حُسْنِ إسلامِ المرءِ تركُهُ ما لا يعنيهِ » (١) .

بلْ وردَ ما هوَ أشدُّ مِنْ هٰذا ، قالَ أنسٌ : استُشهدَ غلامٌ منَّا يومَ أحدٍ ، فوُجِدَ علىٰ بطنِهِ صخرةٌ مربوطةٌ مِنَ الجوعِ ، فمسحَتْ أمُّهُ الترابَ عنْ وجهِهِ وقالَتْ : هنيئاً لكَ الجنةُ يا بنيَّ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وما يدريكِ ؟ لعلَّهُ كانَ يتكلَّمُ فيما لا يعنيهِ ، ويمنعُ ما لا يضرُّهُ » (٢) .

وفي حديثٍ آخرَ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقدَ كعباً ، فسألَ عنهُ ، فقالوا : مريضٌ ، فخرجَ يمشي حتَّىٰ أتاهُ ، فلمَّا دخلَ عليهِ . . قالَ : « أبشرْ يا كعبُ » ، فقالَتْ أمُّهُ : هنيئاً لكَ الجنةُ يا كعبُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ هٰذهِ المتأَلِّيةُ على اللهِ ؟ » ، قالَ : هيَ أمِّي يا رسولَ اللهِ ، فقالَ : « وما يدريكِ يا أمَّ كعبٍ ؟ لعلَّ كعباً قالَ ما لا يعنيهِ ، أوْ منعَ ما لا يغنيهِ » (٣) ، ومعناهُ : أنَّهُ إنَّما تتهيَّأُ الجنةُ

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧) ، وابن ماجه (٣٩٧٦) ، وهو عند مالك في « الموطأ » (٩٠٣/٢) مرسلاً عن زين العابدين علي بن حسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٠٩) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٠١٧) ، وهو عند الترمذي (٢٣١٦) مختصراً .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١١٠) .

لِمَنْ لا يُحاسَبُ ، ومَنْ تكلَّمَ فيما لا يعنيهِ ، حُوسبَ عليهِ وإنْ كانَ كلامُهُ مباحاً ، فلا تتهيَّأُ الجنةُ لهُ معَ المناقشةِ في الحسابِ ؛ فإنَّهُ نوعٌ مِنَ العذابِ .

وعنْ محمدِ بنِ كعبٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أوَّلَ مَنْ يدخلُ مِنْ هٰذا البابِ رجلٌ مِنْ أهلِ الجنَّةِ » ، فدخلَ عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ ، فقامَ إليهِ ناسٌ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأخبرُوهُ بذٰلكَ ، وقالُوا : أخبرْنا بأوثقِ عملِكَ في نفسِكَ ترجو بهِ ، فقالَ : إنِّي لضعيفٌ ، وإنَّ أوثقَ ما أرجو بهِ اللهَ سلامةُ الصدرِ ، وتركُ ما لا يعنيني (١) .

وقالَ أبو ذرٍّ : قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أعلمُكَ بعملٍ خفيفٍ على البدنِ ، ثقيلٍ في الميزانِ ؟ » قلتُ : بلىٰ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « هوَ الصَّمتُ ، وحسنُ الخُلُقِ ، وتركُ ما لا يعنيكَ » (٢) .

وقالَ مجاهدٌ : سمعتُ ابنَ عباسٍ يقولُ : (خمسٌ لهنَّ أحسنُ مِنَ الدُّهْمِ الموقَفَةِ : لا تتكلمْ فيما لا يعنيكَ ؛ فإنَّهُ فضْلٌ ، ولا آمنُ عليكَ الوزْرَ ، ولا تتكلمْ فيما يعنيكَ حتَّىٰ تجدَ لهُ موضعاً ؛ فإنَّهُ ربَّ متكلمٍ في أمرٍ يعنيهِ قدْ وضعَهُ في غيرِ موضعِهِ فعَنِتَ ، ولا تمارِ حليماً ولا

(١) كذا رواه مرسلاً ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١١١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١١٢) عن وهيب بن الورد بلاغاً ، وتقدم نحوه قريباً عن صفوان بن سليم .

سفيهاً ؛ فإنَّ الحليمَ يقليكَ ، وإنَّ السفيهَ يؤذيكَ ، واذكرْ أخاكَ إذا تغيَّبَ عنكَ بما تحبُّ أنْ يذكرَكَ بهِ ، وأعفِهِ ممَّا تحبُّ أنْ يعفيَكَ منهُ ، وعاملْ أخاكَ بما تحبُّ أنْ يعاملَكَ بهِ ، واعملْ عملَ رجلٍ يرىٰ أنَّهُ مجازىً بالإحسانِ مأخوذٌ بالاجترامِ)[١] .

وقيلَ للقمانَ الحكيمِ : ما حكمتُكَ ؟ قالَ : لا أسألُ عمَّا كُفيتُ ، ولا أتكلَّفُ ما لا يعنيني[٢] .

وقالَ مُورِّقٌ العجليُّ : أمرٌ أنا في طلبِهِ منذُ عشرينَ سنةً لم أقدرْ عليهِ ، ولستُ بتاركٍ طلبَهُ ، قالوا : وما هوَ ؟ قالَ : الصمتُ عمَّا لا يعنيني[٣] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا تتعرَّضْ لما لا يعنيكَ ، واعتزلْ عدوَّكَ ، واحذرْ صديقَكَ مِنَ القومِ إلا الأمينَ ، ولا أمينَ إلا مَنْ خشيَ اللهَ تعالىٰ ، ولا تصحبِ الفاجرَ فتتعلَّمَ مِنْ فجورِهِ ، ولا تطلعْهُ علىٰ سرِّكَ ، واستشرْ في أمرِكَ الذينَ يخشونَ اللهَ تعالىٰ)[٤] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١١٤) ، والدهم الموقفة : الخيل السوداء المعدَّة للركوب .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤٣٦) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١١٥) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٢٩٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١١٨) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٠٤١) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٢٠) .

وحدُّ ما لا يعنيكَ (١) : أنْ تتكلمَ بكلِّ ما لوْ سكتَّ عنهُ . . لمْ تأثمْ ، ولمْ تتضرَّرْ في حالٍ ولا مآلٍ .

مثالُهُ : أنْ تجلِسَ معَ قومٍ فتذكرَ لهمْ أسفارَكَ ، وما رأيتَ فيها مِنْ جبالٍ وأنهارٍ ، وما وقعَ لكَ منَ الوقائعِ ، وما استحسنتَهُ مِنَ الأطعمةِ والثيابِ ، وما تعجبتَ منهُ مِنْ مشايخِ البلادِ ووقائعِهِمْ ، فهٰذهِ أمورٌ لوْ سكتَّ عنها . . لمْ تأثمْ ولمْ تتضرَّرْ ، وإذا بالغتَ في الاجتهادِ حتَّىٰ لمْ يمتزجْ بحكايتِكَ زيادةٌ ولا نقصانٌ ، ولا تزكيةُ نفسٍ مِنْ حيثُ التفاخرُ بمشاهدةِ الأحوالِ العظيمةِ ، ولا اغتيابٌ لشخصٍ ، ولا مذمةٌ لشيءٍ ممَّا خلقَهُ اللهُ تعالىٰ . . فأنتَ معَ ذٰلكَ كلِّهِ مضيِّعٌ زمانَكَ ، وأنَّىٰ تسلمُ مِنَ الآفاتِ التي ذكرْناها ؟!

ومِنْ جملتِهِ : أنْ تسألَ غيرَكَ عمَّا لا يعنيكَ ، فأنتَ بالسؤالِ مضيِّعٌ وقتَكَ ، وقدْ ألجأتَ صاحبَكَ أيضاً بالجوابِ إلى التضييعِ ، هٰذا إذا كانَ الشيءُ ممَّا لا يتطرَّقُ إلى السؤالِ عنهُ آفةٌ ، وأكثرُ الأسئلةِ فيها آفاتٌ ، فإنَّكَ تسألُ غيرَكَ مثلاً عنْ عبادتِهِ ، فتقولُ : هلْ أنتَ صائمٌ ؟ فإنْ قالَ : نعمْ . . كانَ مُظهراً لعبادتِهِ ، فيدخُلُ عليهِ الرياءُ ، وإنْ لمْ يدخُلْ . . سقطَتْ عبادتُهُ مِنْ ديوانِ السرِّ ، وعبادةُ السرِّ تفضلُ عبادةَ الجهرِ بدرجاتٍ ، وإنْ قالَ : لا . . كانَ كاذباً ، وإنْ سكتَ . . كانَ مستحقراً لكَ وتأذيتَ بهِ ، وإنِ احتالَ لمدافعةِ الجوابِ . . افتقرَ

---

(١) أي : لا تتعلق به عنايتك ، ولا يكون من مقصدك ومطلوبك ؛ لأن العناية شدة الاهتمام بالشيء ، يقال : عناه يعنيه ؛ إذا اهتم به وطلبه . « إتحاف » (٧/٤٦٢) .

إلىٰ جهدٍ وتعبٍ فيهِ ، فقدْ عرَّضتَهُ بالسؤالِ إمَّا للرياءِ ، أوْ للكذبِ ، أوْ للاستحقارِ ، أوْ للتعبِ في حيلةِ الدفعِ .

وكذٰلكَ سؤالُكَ عنْ سائرِ عباداتِهِ .

وكذٰلكَ سؤالُكَ عنِ المعاصي ، وعنْ كلِّ ما يخفيهِ ويستحيي منهُ ، وسؤالُكَ عمَّا تحدَّثَ بهِ غيرُكَ ، فتقولُ لهَ : ماذا تقولُ ؟ وفيمَ أنتمْ ؟

وكذٰلكَ ترىٰ إنساناً في الطريقِ ، فتقولُ : مِنْ أينَ ؟ فربَّما يمنعُهُ مانعٌ مِنْ ذكرِهِ ، فإنْ ذكرَهُ . . تأذَّىٰ بهِ واستحيا ، وإنْ لمْ يصدُقْ . . وقعَ في الكذبِ وكنتَ أنتَ السببَ فيهِ .

وكذٰلكَ تسألُ عنْ مسألةٍ لا حاجةَ بكَ إليها ، والمسؤولُ ربما لا تسمحُ نفسُهُ بأنْ يقولَ : لا أدري ، فيجيبُ عنْ غيرِ بصيرةٍ .

ولستُ أعني بالتكلُّمِ بما لا يعني هٰذهِ الأجناسَ ، فإنَّ هٰذا يتطرَّقُ إليهِ إثمٌ أوْ ضررٌ ، وإنَّما مثالُ ما لا يعني : ما رُوِيَ أنَّ لقمانَ الحكيمَ دخلَ علىٰ داوودَ عليهِ السلامُ وهوَ يسردُ الدرعَ [١] ، ولمْ يكنْ رآها قبلَ ذٰلكَ اليومِ ، فجعلَ يتعجَّبُ ممَّا يرىٰ ، فأرادَ أنْ يسألَهُ ، فمنعَتْهُ حكمتُهُ ، فأمسكَ نفسَهُ ولمْ يسألْهُ ، فلمَّا فرغَ . . قامَ داوودُ ولبسَهُ ثمَّ قالَ : نعمَ الدرْعُ للحربِ ، فقالَ لقمانُ : الصَّمتُ حُكْمٌ وقليلٌ فاعلُهُ ، أردتُ أنْ أسألَكَ ، فكفيتَني ، وقيلَ : إنَّهُ كانَ يتردَّدُ إليهِ سنةً وهوَ يريدُ أنْ يعلمَ ذٰلك ، فلمْ يسألْ حتىٰ حصلَ عليهِ مِنْ غيرِ سؤالٍ [٢] .

---

(١) سرد الدرع : نسجه وصناعته .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٤٦٧١) ، وتقدم بعضه مرفوعاً .

فهٰذا وأمثالُهُ مِنَ الأسئلةِ إذا لَمْ يكنْ فيهِ ضررٌ ، وهتْكُ سترٍ ، وتوريطٌ في رياءٍ وكذبٍ . . فهوَ ممَّا لا يعني ، وتركُهُ مِنْ حُسْنِ الإسلامِ ، فهٰذا حدُّهُ [١] .

وأمَّا سببُهُ الباعثُ عليهِ : فالحرصُ علىٰ معرفةِ ما لا حاجةَ بهِ إليهِ ، أوِ المباسطةُ بالكلامِ علىٰ سبيلِ التودُّدِ ، أوْ تزجيةُ الوقتِ بحكاياتِ أحوالٍ لا فائدةَ فيها ؟

وعلاجُ ذٰلكَ كلِّهِ : أنْ يعلمَ أنَّ الموتَ بينَ يديهِ ، وأنَّهُ مسؤولٌ عنْ كلِّ كلمةٍ ، وأنَّ أنفاسَهُ رأسُ مالِهِ ، وأنَّ لسانَهُ شبكةٌ يقدِرُ علىٰ أنْ يقتنصَ بها الحورَ العينَ ، فإهمالُهُ ذٰلكَ وتضييعُهُ خسرانٌ مبينٌ ، هٰذا علاجُهُ من حيثُ العلمُ .

وأمَّا مِنْ حيثُ العملُ . . فالعزلةُ ، أوْ أنْ يضعَ حصاةً في فيهِ [٢] ، وأنْ يلزِمَ نفسَهُ السكوتَ عَنْ بعضِ ما يعنيهِ ليتعوَّدَ اللسانُ تركَ ما لا يعنيهِ ، وضبطُ اللسانِ في هٰذا علىٰ غيرِ المعتزلِ شديدٌ جداً .

❋ ❋ ❋

---

(١) فمَنْ عبدَ اللهَ على استحضار قربه ومشاهدته بقلبه ، وعلى استحضار قرب الله منه واطلاعه عليه . . فقد حسن إسلامه ، ولزمه من ذٰلك أن يترك كل ما لا يعنيه في الإسلام ، ويشتغل بما يعنيه فيه ؛ فإنه يتولد من هٰذين المقامين الاستحياء من الله تعالىٰ . « إتحاف » (٧/٤٦٤) .

(٢) وقد روى ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٣٨) عن أرطاة بن المنذر قال : (تعلم رجل الصمت أربعين سنة بحصاة يضعها في فيه ، لا ينزعها إلا عند طعام أو شراب أو نوم) .

الآفة الثانية : فضول الكلام

وهوَ أيضاً مذمومٌ ، وهٰذا يتناولُ الخوضَ فيما لا يعني ، والزيادةَ فيما يعني علىٰ قدْرِ الحاجةِ ، فإنَّ مَنْ يعنيهِ أمرٌ . . يمكنُهُ أنْ يذكرَهُ بكلامٍ مختصرٍ ، ويمكنُهُ أنْ يجنحَهُ ويكررَهُ (١) .

ومهما تأدَّىٰ مقصودُهُ بكلمةٍ واحدةٍ فذكرَ كلمتينِ . . فالثانيةُ فضولٌ ؛ أيْ : فضلٌ عنِ الحاجةِ ، وهوَ أيضاً مذمومٌ لما سبقَ ، وإنْ لمْ يكنْ فيهِ إثمٌ ولا ضررٌ .

قالَ عطاءُ بنُ أبي رباحٍ : (إنَّ مَنْ كانَ قبلَكُمْ كانوا يكرهُونَ فضولَ الكلامِ ، وكانوا يعدُّونَ فضولَ الكلامِ ما عدا كتابَ اللهِ تعالىٰ ، أوْ سنةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، أوْ أمراً بمعروفٍ ، أوْ نهياً عنْ منكرٍ ، أوْ تنطقَ بحاجتِكَ في معيشتِكَ التي لا بدَّ لكَ منها ، أتنكرونَ أنَّ عليكمْ حافظينَ ، كراماً كاتبينَ ، عنِ اليمينِ وعنِ الشمالِ قعيدٌ ، ما يلفظُ مِنْ قولٍ إلا لديهِ رقيبٌ عتيدٌ ؟! أما يستحي أحدُكمْ إذا نُشرَتْ صحيفتُهُ التي أملاها صدرَ نهارِهِ كانَ أكثرُ ما فيها ليسَ مِنْ أمرِ دينِهِ ولا دنياهُ ؟!) (٢) .

وعنْ بعضِ الصحابةِ قالَ : (إنَّ الرجلَ ليكلمُني بالكلامِ لجَوابُهُ

---

(١) يجنحه : يطوله فيجعل له جناحاً . « إتحاف » (٧/٤٦٤) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٦١٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٣١٤) .

أشهىٰ إليَّ مِنَ الماءِ الباردِ إلى الظمآنِ ، فأتركُ جوابَهُ ؛ خيفةَ أنْ يكونَ فضلاً)[١] .

وقالَ مُطرِّفٌ : (ليعظمَ جلالُ اللهِ في قلوبِكمْ ؛ فلا تذكروهُ عندَ مثلِ قولِ أحدِكمْ للكلبِ وللحمارِ : اللهمَّ ؛ أخزِهِ ، وما أشبهَ ذٰلكَ)[٢] .

واعلمْ أنَّ فضولَ الكلامِ لا ينحصرُ ، بلِ المهمُّ محصورٌ في كتابِ اللهِ تعالىٰ ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طوبىٰ لمَنْ أمسكَ الفضلَ مِنْ لسانِهِ ، وأنفقَ الفضلَ مِنْ مالِهِ »[٤] .

فانظرْ كيفَ قلبَ الناسُ الأمرَ في ذٰلكَ ، فأمسكوا فضلَ المالِ ، وأطلقوا فضلَ اللسانِ .

وعنْ مُطرِّفِ بنِ عبدِ اللهِ ، عنْ أبيهِ قالَ : قدمتُ علىٰ رسولِ اللهِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٢٨) عن سعد بن مسعود عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢١٤) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٣٤) .

(٣) سورة النساء : (١١٤) ، وكما روى ابنُ أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٤) معنىٰ هٰذا عن سفيان .

(٤) رواه ابن أبي عاصم في « الزهد » (١٠٨) ، والطبراني في « الكبير » (٥/٧١) من حديث ركب المصري وهو مختلف في صحبته ، ورواه ابن عدي في « الكامل » (١/٣٨٤) من حديث أنس رضي الله عنه .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في رهْطٍ مِنْ بني عامرٍ ، فقالوا : أنتَ والدُنا ، وأنتَ سيِّدُنا ، وأنتَ أفضلُنا علينا فضلاً ، وأنتَ أطولُنا علينا طولاً ، وأنتَ الجفنةُ الغراءُ ، وأنتَ وأنتَ ، فقالَ : « قولوا بقولِكُمْ ولا يستهوينَّكُمُ الشيطانُ »(١) ، إشارةً إلىٰ أنَّ اللسانَ إذا أُطلِقَ بالثناءِ ولوْ بالصدقِ . . فيُخشىٰ أنْ يستهويَهُ الشيطانُ إلى الزيادةِ المستغنىٰ عنها .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (أنذرُكُمْ فضولَ الكلامِ ، بحسبِ امرئٍ ما بلغَ بهِ حاجتَهُ)(٢) .

وعنْ مجاهدٍ قالَ : (إنَّ الكلامَ ليُكتبُ ، حتَّىٰ إنَّ الرجلَ لَيسكِتُ ابنَهُ فيقولُ : أبتاعُ لكَ كذا وكذا ، فيُكتبُ كذيبةً)(٣) .

وقالَ الحسنُ : (يا بنَ آدمَ ؛ بُسطَتْ لكَ صحيفةٌ ، ووُكِّلَ بها ملَكانِ كريمانِ يكتبانِ عملَكَ ، فأمْلِ ما شئتَ ، وأكثرْ أوْ أقلِلْ)(٤) .

ورُوِيَ أنَّ سليمانَ بنَ داوودَ عليهِما السلامُ بعثَ بعضَ عفاريتِهِ ، وبعثَ نفراً ينظرونَ ما يقولُ ويخبرونَهُ ، فأخبروهُ أنَّهُ مرَّ على السُّوقِ ، فرفعَ رأسَهُ إلى السماءِ ، ثمَّ نظرَ إلى الناسِ وهزَّ رأسَهُ ، فسألَهُ سليمانُ عنْ ذٰلكَ ، فقالَ : عجبْتُ مِنَ الملائكةِ علىٰ رؤوسِ الناسِ ما أسرعَ ما

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧٣) ، وهو بنحوه رواه أبو داوود (٤٨٠٦) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٠٠٤) .

(٢) رواه ابن وهب في « جامعه » (٤٦٢) ، والطبراني في « الكبير » (٩٣/٩) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٥٣) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٨٥) .

يكتبونَ !! ومِنَ الذينَ أسفلَ منهُمْ ما أسرعَ ما يُمْلونَ !![1] .

وقالَ إبراهيمُ التيميُّ : (المؤمنُ إذا أرادَ أنْ يتكلمَ . . نظرَ ؛ فإنْ كانَ لهُ . . تكلَّمَ ، وإلّا . . أمسكَ ، والفاجرُ إنَّما لسانُهُ رَسَلاً رَسَلاً)[2] .

وقالَ الحسنُ : (مَنْ كثرَ كلامُهُ . . كثرَ كذبُهُ ، ومَنْ كثرَ مالُهُ . . كثرَتْ ذنوبُهُ ، ومَنْ ساءَ خلُقُهُ . . عذَّبَ نفسَهُ)[3] .

وقالَ عمرُو بنُ دينارٍ : تكلَّمَ رجلٌ عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأكثرَ ، فقالَ لهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كمْ دونَ لسانِكَ مِنْ بابٍ ؟ » ، فقالَ : شفتايَ وأسناني ، قالَ : « أما كانَ لكَ في ذٰلك ما يردُّ كلامَكَ ؟ » ، وفي روايةٍ أنَّهُ قالَ ذٰلكَ في رجلٍ أثنىٰ عليهِ فاستحفزَ في الكلامِ ، ثمَّ قال : « ما أُوتي رجلٌ شرّاً مِنْ فضْلٍ في لسانٍ »[4] .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ : (إنَّهُ ليمنعُني مِنْ كثيرٍ مِنَ الكلامِ مخافةُ المباهاةِ)[5] .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (إذا كانَ المرءُ في مجلسٍ فأعجبَهُ الحديثُ . .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٨٦) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٨٨) ، قاله وقد ذكر عنده الحسن ، ورسلاً رسلاً : متتابعاً .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٩٠) .

(٤) رواهما ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٩٣ ، ٩٤) مرسلاً وبلاغاً ، واستحفز : بالغ وأطال .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٧) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٩٦) .

فليسكتْ ، وإنْ كانَ ساكتاً فأعجبَهُ السكوتُ . . فليتحدَّثْ)[1] .

وقالَ يزيدُ بنُ أبي حبيبٍ : (مِنْ فتنةِ العالمِ أنْ يكونَ الكلامُ أحبَّ إليهِ منَ الاستماعِ وإنْ وجدَ مَنْ يكفيهِ ، فإنَّ في الاستماعِ سلامةً ، وفي الكلامِ تزيُّنٌ وزيادةٌ ونقصانٌ)[2] .

وقالَ ابنُ عمرَ : (إنَّ أحقَّ ما طهَّرَ الرجلُ لسانُهُ)[3] .

ورأىٰ أبو الدرداءِ امرأةً سليطةً ، فقالَ : (لوْ كانَتْ هـٰذهِ خرساءَ . . كانَ خيراً لها)[4] .

وقالَ إبراهيمُ : (يَهلَكُ الناسُ في خَلَّتينِ : فضولُ المالِ ، وفضولُ الكلامِ)[5] .

فهـٰذهِ مذمَّةُ فضولِ الكلامِ وكثرتِهِ ، وسببُهُ الباعثُ عليهِ ، **وعلاجُهُ** : ما سبقَ في الكلامِ فيما لا يعني .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٠٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٩٧) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٨) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٩٨) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٩٩) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٠٠) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٠٣) .

الآفة الثالثة : الخوض في الباطل

وهوَ الكلامُ في المعاصي ؛ كحكايةِ أحوالِ النساءِ [(١)] ، ومجالسِ الخمرِ ، ومقاماتِ الفسَّاقِ ، وتنعُّمِ الأغنياءِ ، وتجبُّرِ الملوكِ ، ومراسمِهِمُ المذمومةِ ، وأحوالِهِمُ المكروهةِ ، فإنَّ كلَّ ذٰلكَ ممَّا لا يحلُّ الخوضُ فيهِ ، فهٰذا حرامٌ .

وأمَّا الكلامُ فيما لا يعني ، أوْ أكثرَ ممَّا يعني . . فهوَ تركُ الأولىٰ ، ولا تحريمَ فيهِ .

نعمْ ؛ مَنْ يكثرُ الكلامَ فيما لا يعني لا يُؤمنُ عليهِ الخوضُ في الباطلِ ، وأكثرُ الناسِ يتجالسونَ للتفرُّجِ بالحديثِ ، ولا يعدو كلامُهُمُ التفكُّهَ بأعراضِ الناسِ ، أوِ الخوضَ في الباطلِ .

وأنواعُ الباطلِ لا يمكنُ أنْ تُحصىٰ ؛ لكثرتِها وتفنُّنِها ، فلذٰلكَ لا مخلصَ منها إلا بالاقتصارِ علىٰ ما يعني مِنْ مهماتِ الدينِ والدنيا ، وفي هٰذا الجنسِ تقعُ كلماتٌ يهلِكُ بها صاحبُها وهوَ مستحقرٌ لها ، فقدْ قالَ بلالُ بنُ الحارثِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرَّجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ مِنْ رُضوانِ اللهِ ما يظنُّ أنْ تبلغَ ما بلغَتْ ، يكتبُ اللهُ لهُ بها رِضوانَهُ إلىٰ يومِ يلقاهُ ، وإنَّ الرجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ

---

(١) مما يتعلق بهن ؛ كأن يقول : قالت لي كذا ، وقلت لها كذا ، وفعلتْ كذا ، وما أشبه ذٰلك . « إتحاف » (٧/٤٦٧) .

مِنْ سَخَطِ اللهِ ما يَظنُّ أنْ تبلغ بهِ ما بلغَتْ ، يكتبُ اللهُ عليهِ بها سَخَطَهُ إلىٰ يومِ القيامَةِ »[١] .

قالَ : فكانَ علقمةُ يقولُ : (كَمْ مِنْ كلامٍ قدْ منعَنيهِ حديثُ بلالِ بنِ الحارثِ)[٢] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرَّجُلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ يُضحِكُ بها جلساءَهُ يهوي بها أبعدَ مِنَ الثُّريَّا »[٣] .

وقالَ أبو هريرةَ : (إنَّ الرجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ ما يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنمَ ، وإنَّ الرجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ ما يلقي لها بالاً يرفعُهُ اللهُ بها في الجنَّةِ)[٤] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أعظمُ النَّاسِ خطايا يومَ القيامةِ أكثرُهُمْ خوضاً في الباطلِ »[٥] ، وإليهِ الإشارةُ بقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴾[٦] ، وبقولهِ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَقْعُدُواْ

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٩) ، وابن ماجه (٣٩٦٩) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا هٰكذا متابعاً للحديث السابق في « الصمت وآداب اللسان » (٧٠) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٤٨) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧١) ، وعند البخاري (٦٤٧٧) ، ومسلم (٢٩٨٨) من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « إن العبد ليتكلم بالكلمة ينزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب » .

(٤) رواه مالك في « الموطأ » (٢/٩٨٥) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧٢) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧٤) .

(٦) سورة المدثر : (٤٥) .

مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [١] .

وقالَ سلمانُ : (أكثرُ الناسِ ذنوباً يومَ القيامةِ أكثرُهُمْ كلاماً في معصيةِ اللهِ) [٢] .

وقالَ ابنُ سيرينَ : (كانَ رجلٌ مِنَ الأنصارِ يمرُّ بمجلسٍ لهمْ فيقولُ : توضَّؤوا ؛ فإنَّ بعضَ ما تقولونَ شرٌّ مِنَ الحدثِ) [٣] .

فهٰذا هوَ الخوضُ في الباطلِ ، وهوَ وراءَ ما سيأتي مِنَ الغيبةِ والنميمةِ والفُحْشِ وغيرِهِ ، بلْ هوَ الخوضُ في ذكرِ محظوراتٍ سبقَ وجودُها ، أوْ تُدبِّرَ للتوصُّلِ إليها مِنْ غيرِ حاجةٍ دينيَّةٍ إلىٰ ذكرِها [٤] ، ويدخلُ فيهِ أيضاً الخوضُ في حكايةِ البدعِ والمذاهبِ الفاسدةِ ، وحكايةِ ما جرىٰ مِنْ قتالِ الصحابةِ علىٰ وجهٍ يوهمُ الطَّعنَ في بعضِهِمْ ، وكلُّ ذٰلكَ باطلٌ ، والخوضُ فيهِ خوضٌ في الباطلِ ، نسألُ اللهَ حسنَ العونِ بلطفِهِ وكرمِهِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) سورة النساء : (١٤٠) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٨٠٤) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧٥) .

(٣) رواه ابن وهب في « جامعه » (٤٦٠) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٠٥) .

(٤) في (ب ، ج) : (دعته) بدل (دينية) .

الآفة الرّابعة : المراء والجدال

وذٰلكَ منهيٌّ عنهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تمارِ أخاكَ ولا تمازحْهُ ولا تعِدْهُ موعداً فتُخْلفَهُ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ذَرُوا المراءَ ؛ فإنَّهُ لا تُفهمُ حكمتُهُ ، ولا تُؤمنُ فتنتُهُ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تَركَ المِراءَ ، وهوَ محقٌّ . . بُنِيَ لهُ بيتٌ في أعلى الجنَّةِ ، ومَنْ تَركَ المراءَ وهوَ مُبْطِلٌ . . بُنِيَ له بيتٌ في رَبَضِ الجنَّةِ »[3] .

وعنْ أمِّ سلمةَ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أوَّلَ ما عهِدَ إليَّ ربِّي ونهاني عنهُ بعدَ عبادةِ الأوثانِ وشربِ الخمرِ ملاحاةُ الرِّجالِ »[4] .

---

(١) رواه الترمذي (١٩٩٥) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١٥٢/٨) ، وليس فيه قوله : (لا تفهم حكمته) ، وقد روى ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٢٧) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (المراء لا تعقل حكمته ، ولا تؤمن فتنته) .

(٣) رواه الترمذي (١٩٩٣) ، وابن ماجه (٥١) ؛ **وربض الشيء** : نواحيه ، أو أدناه وأسفله .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٣٤) ، والطبراني في « الكبير » (٨٣/٢٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٠٨٢) ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٤٥٤١) عن عروة بن رويم مرسلاً ، **والملاحاة** : الملامة مع الاستقصاء والمباغضة .

وقالَ أيضاً : « ما ضلَّ قومٌ بعدَ أنْ هداهُمُ اللهُ إلَّا أُوتُوا الجدَلَ »[1] .

وقالَ أيضاً : « لا يستكمِلُ عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ حتَّىٰ يدعَ المراءَ وإنْ كانَ محقاً »[2] .

وقالَ أيضاً : « ستٌّ مَنْ كُنَّ فيهِ . . بلغَ حقيقةَ الإيمانِ : الصومُ في الصَّيفِ ، وضرْبُ أعداءِ اللهِ بالسَّيفِ ، وتعجيلُ الصلاةِ في يومِ الدَّجْنِ ، والصَّبرُ على المصيباتِ ، وإسباغُ الوضوءِ على المكارِهِ ، وتركُ المراءِ وهوَ صادقٌ »[3] .

وقالَ الزبيرُ لابنِهِ : (لا تجادلِ الناسَ بالقرآنِ ؛ فإنَّكَ لا تستطيعُهُمْ ، ولٰكنْ عليكَ بالسُّنَّةِ)[4] .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ : (مَنْ جعلَ دينَهُ عُرْضةً للخصوماتِ . . أكثرَ التنقُّلَ)[5] .

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٥٣) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٣٥) بنحوه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٣٩) .

(٣) رواه المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (٤٤٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٣٤٨٤) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه ، ويوم الدجن : يوم الغيم المطبق ، ويطلق الدجن على المطر الكثير .

(٤) رواه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٦١٠) .

(٥) رواه الدارمي في « سننه » (٣١٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٦١) .

وقالَ مسلمُ بنُ يسارٍ : (إياكُمْ والمراءَ ؛ فإنَّهُ ساعةُ جهلِ العالِمِ ، وعندَها يبتغي الشيطانُ زلَّتَهُ)[1] .

وقيلَ : ما ضلَّ قومٌ بعدَ إذْ هداهُمُ اللهُ إلا بالجدالِ .

وقالَ مالكُ بنُ أنسٍ رحمةُ اللهِ عليهِ : (ليسَ هـٰذا الجدالُ مِنَ الدينِ في شيءٍ)[2] .

وقالَ أيضاً : (المراءُ يقسِّي القلوبَ ، ويورِثُ الضغائنَ)[3] .

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ لا تجادِلِ العلماءَ فيمقتوكَ)[4] .

وقالَ بلالُ بنُ سعدٍ : (إذا رأيتَ الرجلَ لَجوجاً ممارياً معجباً برأيِهِ . . فقدْ تمَّتْ خسارتُهُ)[5] .

وقالَ سفيانُ : (لوْ خالفتُ أخي في رمانةٍ ، فقالَ : حلوةٌ ، وقلْتُ : حامضةٌ . . لسعىٰ بي إلى السلطانِ)[6] .

---

(١) رواه الدارمي في « سننه » (٤١٠) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٢٥) .

(٢) رواه البيهقي في « المدخل إلى السنن الكبرىٰ » (٢٣٨) بنحوه ، وأورده ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص ٧٠) .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦١/٢٠٥) .

(٤) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٩١) عن الربيع الخولاني عنه ضمن خبر تقدم بعضه .

(٥) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٧٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/٢٢٨) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (١٢٢) .

وقالَ أيضاً : (صافِ مَنْ شئْتَ ، ثمَّ أغضبْهُ بالمِراءِ ، فليرمينَّكَ بداهيةٍ تمنعُكَ العيشَ) .

وقالَ ابنُ أبي ليلىٰ : (لا أماري صاحبي ؛ فإمَّا أنْ أكذبَهُ ، وإمَّا أنْ أغضبَهُ)[1] .

وقالَ أبو الدرداءِ : (كفىٰ بكَ إثماً ألَّا تزالَ مماريًا)[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تكفيرُ كلِّ لحاءٍ ركعتانِ »[3] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا تتعلمِ العلمَ لثلاثٍ ، ولا تتركْهُ لثلاثٍ ؛ لا تتعلمْ لتُماريَ بهِ ، ولا لتباهيَ بهِ ، ولا لترائيَ بهِ ، ولا تتركْهُ حياءً مِنْ طلبِهِ ، ولا زهادةً فيهِ ، ولا رضاً بالجهلِ منهُ)[4] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (مَنْ كثُرَ كذبُهُ . . ذهبَ جمالُهُ ، ومَنْ لاحى الرِّجالَ . . سقطَتْ مروءتُهُ ، ومَنْ كَثُرَ همُّهُ . . سقمَ جسمُهُ ، ومَنْ ساءَ خلُقُهُ . . عذَّبَ نفسَهُ)[5] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٢٤) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٣٠) .
(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/١٤٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٠/٢٦٩) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً ، وأوقفه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٧٣١) علىٰ أبي هريرة رضي الله عنه .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٣١) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٣٣) عن عبد العزيز بن حصين بلاغاً عنه عليه السلام .

وقيلَ لميمونِ بنِ مهرانَ : ما لكَ لا يفارقُكَ أخٌ لكَ عنْ قلىً ؟! قالَ : لأنِّي لا أشاريهِ ولا أماريهِ [1] .

وما وردَ في ذمِّ المراءِ والجدالِ كثيرٌ .

وحدُّ المراءِ : هوَ كلُّ اعتراضٍ علىٰ كلامِ الغيرِ ، بإظهارِ خللٍ فيهِ ؛ إمَّا في اللفظِ ، وإمَّا في المعنىٰ ، وإمَّا في قصدِ المتكلمِ .

وتركُ المراءِ : بتركِ الإنكارِ والاعتراضِ ، فكلُّ كلامٍ سمعتَهُ ؛ فإنْ كانَ حقّاً . . فصدِّقْ بهِ ، وإنْ كانَ باطلاً أوْ كذباً ولمْ يكنْ متعلقاً بأمورِ الدينِ . . فاسكتْ عنهُ .

❁ ❁ ❁

والطعنُ في كلامِ الغيرِ تارةً يكونُ في لفظِهِ : بإظهارِ خللٍ فيهِ مِنْ جهةِ النحوِ ، أوْ مِنْ جهةِ اللغةِ ، أوْ مِنْ جهةِ العربيَّةِ ، أوْ مِنْ جهةِ النظمِ والترتيبِ بسوءِ تقديمٍ وتأخيرٍ ، وذٰلكَ تارةً يكونُ مِنْ قصورِ المعرفةِ ، وتارةً يكونُ بطغيانِ اللسانِ ، وكيفما كانَ . . فلا وجهَ لإظهارِ خللِهِ .

وأمَّا في المعنىٰ . . فبأنْ يقولَ : ليسَ كما تقولُ ، وقدْ أخطأتَ فيهِ مِنْ وجهِ كذا وكذا .

وأمَّا في قصدِهِ . . فمثلُ أنْ يقولَ : هٰذا الكلامُ حقٌّ ، ولٰكنْ ليسَ قصدُكَ منهُ الحقَّ ، وإنَّما أنتَ فيهِ صاحبُ غرضٍ ، وما يجري

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٤٦) ، **والمشاراة** : المخاصمة .

مَجراهُ ، وهٰذا الجنسُ إنْ جرىٰ في مسألةٍ علميَّةٍ . . فربَّما خُصَّ باسمِ الجدلِ ، وهوَ أيضاً مذمومٌ ، بلِ الواجبُ السكوتُ ، أوِ السؤالُ في مَعْرِضِ الاستفادةِ ، لا علىٰ وجهِ العنادِ والنكادةِ ، أوِ التلطفُ في التعريفِ لا في مَعْرِضِ الطعنِ .

وأمَّا المجادلةُ : فعبارةٌ عنْ قصدِ إفحامِ الغيرِ ، وتعجيزِهِ وتنقيصِهِ بالقدحِ في كلامِهِ ، ونسبتِهِ إلى القصورِ والجهلِ فيهِ .

وآيةُ ذٰلكَ : أن يكونَ تنبيهُهُ للحقِّ منْ جهةٍ أخرىٰ مكروهاً عندَ المجادَلِ ، بلْ يحبُّ أنْ يكونَ هوَ المظهِرَ لهُ خطأَهُ ؛ ليبيِّنَ بهِ فضلَ نفسِهِ ونقصَ صاحبِهِ ، ولا نجاةَ مِنْ هٰذا إلا بالسكوتِ عنْ كلِّ ما لا يأثمُ بهِ لوْ سكتَ عنهُ .

وأمَّا الباعثُ علىٰ هٰذا : فهوَ الترفُّعُ بإظهارِ العلمِ والفضْلِ ، والتهجُّمُ على الغيرِ بإظهارِ نقصِهِ ، وهما شهوتانِ باطنتانِ للنفسِ قويَّتانِ .

أمَّا إظهارُ الفضلِ . . فهوَ منْ قبيلِ تزكيةِ النفسِ ، وهيَ مِنْ مقتضىٰ ما في العبدِ مِنْ طغيانِ دعوى العلوِّ والكبرياءِ ، وهيَ مِنْ صفاتِ الربوبيَّةِ .

وأمَّا تنقيصُ الآخرِ . . فهوَ مِنْ مقتضىٰ طبعِ السبعيَّةِ ؛ فإنَّهُ يقتضي أنْ يمزِّقَ غيرَهُ ، ويقصِمَهُ ويصدِمَهُ ويؤذيَهُ .

وهاتانِ صفتانِ مذمومتانِ مهلكتانِ ، وإنَّما قُوَّتُهما المراءُ والجدالُ ،

فالمواظبُ على المراءِ والجدالِ مقوٍّ لهٰذهِ الصفاتِ المهلكةِ ، وهٰذا مجاوزٌ حدَّ الكراهةِ ، بلْ هوَ معصيةٌ مهما حصَلَ فيهِ إيذاءُ الغيرِ .

ولا تنفكُّ المماراةُ عنِ الإيذاءِ وتهييجِ الغضبِ ، وحملِ المعترَضِ عليهِ علىٰ أنْ يعودَ فينصرَ كلامَهُ بما يمكنُهُ مِنْ حقٍّ أوْ باطلٍ ، ويقدحَ في قائلِهِ بكلِّ ما يُتصوَّرُ لهُ ، فيثورُ الشجارُ بينَ المتماريينِ كما يثورُ الهِراشُ بينَ الكلبينِ ، يقصدُ كلُّ واحدٍ منهما أنْ يعضَّ صاحبَهُ بما هوَ أعظمُ نكايةً ، وأقوىٰ في إفحامِهِ وإثخانِهِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا علاجُهُ : فهوَ بأنْ يكسِرَ الكبرَ الباعثَ لهُ علىٰ إظهارِ فضلِهِ ، والسبعيَّةَ الباعثةَ لهُ علىٰ تنقيصِ غيرِهِ ، كما سيأتي ذٰلكَ في كتابِ ذمِّ الكبرِ والعُجْبِ ، وكتابِ ذمِّ الغضبِ ؛ فإنَّ علاجَ كلِّ علَّةٍ بإماطةِ سببِها ، وسببُ المراءِ والجدالِ ما ذكرناهُ ، ثمَّ المواظبةُ عليهِ تجعلُهُ عادةً وطبعاً ، حتَّىٰ يتمكَّنَ مِنَ النفسِ ، ويعسرَ الصبرُ عنهُ .

رُوِيَ أنَّ أبا حنيفةَ رحمةُ اللهِ عليهِ قالَ لداوودَ الطائيِّ : لِمَ آثرْتَ الانزواءَ ؟ قالَ : لأجاهدَ نفسي بتركِ الجدالِ ، فقالَ : احضرِ المجالسَ واسمعْ ما يُقالُ ولا تتكلَّمْ ، قال : ففعلتُ ذٰلكَ ، فما رأيتُ مجاهدةً أشدَّ عليَّ منها (١) .

---

(١) رویٰ أبو نعيم في « الحلية » (٧/٣٤١) عن أحمد بن أبي الحواري قال : حدثني بعض أصحابنا قال : إنما كان سبب [زهد] داوود الطائي أنه كان يجالس أبا حنيفة ، فقال له أبو حنيفة : يا أبا سليمان ؛ أما الأداة . . فقد أحكمناها ، فقال داوود : فأي شيء ←

وهوَ كما قالَ ؛ لأنَّ مَنْ سمعَ الخطأَ منْ غيرِهِ وهوَ قادرٌ علىٰ كشفِهِ . . تعسَّرَ عليهِ الصبرُ عندَ ذٰلكَ جداً ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تركَ المراءَ وهوَ محقٌّ . . بنى اللهُ لهُ بيتاً في أعلى الجنَّةِ » ؛ لشدَّةِ ذٰلكَ على النَّفسِ .

وأكثرُ ما يغلبُ ذٰلكَ في المذاهبِ والعقائدِ ؛ فإنَّ المراءَ طبعٌ ، فإذا ظنَّ أنَّ لهُ عليهِ ثواباً . . اشتدَّ عليهِ حرصُهُ ، وتعاونَ الطبعُ والشرعُ عليهِ ، وذٰلكَ خطأٌ محضٌ ، بلْ ينبغي للإنسانِ أن يكفَّ لسانَهُ عنْ أهلِ القبلةِ ، وإذا رأىٰ مبتدعاً . . تلطَّفَ في نصحِهِ في خلوةٍ ، لا بطريقِ الجدالِ ؛ فإنَّ الجدالَ يخيِّلُ إليهِ أنَّها حيلةٌ منهُ في التلبيسِ ، وأنَّ ذٰلكَ صنعةٌ يقدرُ المجادلونَ منْ أهلِ مذهبِهِ علىٰ أمثالِهَا لوْ أرادوا ، فتستمرُّ البدعةُ في قلبِهِ بالجدلِ وتتأكدُ .

فإذا عرفَ أنَّ النصحَ لا ينفعُ . . اشتغلَ بنفسِهِ وتركَهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رحمَ اللهُ مَنْ كفَّ لسانَهُ عنْ أهلِ القبلةِ إلَّا بأحسنِ ما يقدرُ عليهِ » ، قالَ هشامُ بنُ عروةَ : كانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ يردِّدُ قولَهُ هٰذا سبعَ مراتٍ [١] .

← بقي ؟ قال : بقي العمل به ، قال : فنازعتني نفسي إلى العزلة والوحدة ، فقلت لها : حتىٰ تجلسي معهم فلا تجيبي في مسألة ، قال : فكان يجالسهم سنة قبل أن يعتزل ، قال : فكانت المسألة تجيء وأنا أشد شهوة للجواب فيها من العطشان إلى الماء ، فلا أجيب فيها ، قال : فاعتزلهم بعد .

(١) كذا رواه مرسلاً عن هشام بن عروة مع حكاية قوله ابنُ أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٣٧) .

وكلُّ مَنِ اعتادَ المجادلةَ مدَّةً ، وأثنى الناسُ عليهِ ، ووجدَ لنفسِهِ بسببِهِ عزّاً وقبولاً . . قويَتْ فيهِ هٰذهِ المهلكاتُ ، فلا يستطيعُ عنها نزوعاً إذا اجتمعَ عليهِ سلطانُ الكبرِ والغضبِ ، والرياءِ ، وحبِّ الجاهِ ، والتعزُّزِ بالفضلِ ، وآحادُ هٰذهِ الصفاتِ يشقُّ مجاهدتُها ، فكيفَ بمجموعِها ؟!

* * *

الآفة الخامسة : الخصومة

وهيَ أيضاً مذمومةٌ ، وهيَ وراءَ المراءِ والجدالِ .

فالمراءُ : طعنٌ في كلامِ الغيرِ ، بإظهارِ خللٍ فيهِ مِنْ غيرِ أنْ يرتبطَ بهِ غرضٌ سوىٰ تحقيرِ الغيرِ ، وإظهارِ مزيَّةِ الكياسةِ .

والجدالُ : عبارةٌ عنْ أمرٍ يتعلَّقُ بإظهارِ المذاهبِ وتقريرِها .

والخصومةُ : لجاجٌ في الكلامِ ؛ ليُستوفىٰ بهِ مالٌ أوْ حقٌّ مقصودٌ ، وذٰلك تارةً يكونُ ابتداءً ، وتارةً يكونُ اعتراضاً ، والمراءُ لا يكونُ إلا بالاعتراضِ علىٰ كلامٍ سبقَ .

فقدْ قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أبغضَ الرِّجالِ إلى اللهِ الألدُّ الخصِمُ »(١) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ جادلَ في خصومةٍ بغيرِ علمٍ . . لمْ يزلْ في سخطِ اللهِ حتَّىٰ ينزعَ »(٢) .

وقالَ بعضُهمْ : (إيَّاكُمْ والخصومةَ ؛ فإنَّها تمحقُ الدِّينَ)(٣) .

ويُقالُ : (ما خاصمَ قطُّ وَرِعٌ في الدينِ)(٤) .

---

(١) رواه البخاري (٢٤٥٧) ، ومسلم (٢٦٦٨) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٣) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٤) عن جعفر بن محمد .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٥) عن عبد الكريم بن أمية .

وقالَ ابنُ قتيبةَ : مرَّ بي بشيرُ بنُ عبيدِ اللهِ بنِ أبي بكرةَ فقالَ : ما يجلسُكَ ؟ قلتُ : خصومةٌ بيني وبينَ ابنِ عمٍّ لي ، فقالَ : إنَّ لأبيكَ عندي يداً ، وإنِّي أريدُ أنْ أجزيَكَ بها ، وإنِّي ـ واللهِ ـ ما رأيتُ شيئاً أذهبَ للدينِ ، ولا أنقصَ للمروءةِ ، ولا أضيعَ للَّذةِ ، ولا أشغلَ للقلبِ . . مِنَ الخصومةِ ، قالَ : فقمتُ لأرجعَ ، فقالَ لي خصمي : ما لكَ ؟ قلتُ : لا أخاصمُكَ : قالَ : إنَّكَ عرفتَ أنَّهُ حقِّي ؟ قلتُ : لا ، ولٰكنِّي أُكرِمُ نفسي عنْ هٰذا ، قالَ : فإنِّي لا أطلبُ منهُ شيئاً ، هوَ لكَ [1] .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فإذا كانَ للإنسانِ حقٌّ . . فلا بدَّ لهُ مِنَ الخصومةِ في طلبِهِ أوْ في حفظِهِ مهما ظلمَهُ ظالمٌ ، فكيفَ يكونُ حكمُهُ ؟ وكيفَ تُذَمُّ خصومتُهُ ؟

فاعلمْ : أنَّ هٰذا الذمَّ يتناولُ الذي يخاصمُ بالباطلِ ، والذي يخاصمُ بغيرِ علمٍ ؛ مثلُ وكيلِ القاضي ، فإنَّهُ قبلَ أنْ يتعرَّفَ أنَّ الحقَّ في أيِّ جانبٍ هوَ يتوكَّلُ في الخصومةِ مِنْ أيِّ جانبٍ يكونُ ، فيخاصمُ بغيرِ علمٍ .

ويتناولُ الذي يطلبُ حقَّهُ ، ولٰكنَّهُ لا يقتصرُ علىٰ قدْرِ الحاجةِ ، بلْ يُظهِرُ اللَّدَدَ في الخصومةِ علىٰ قصدِ التَّسلُّطِ ، أوْ علىٰ قصدِ الإيذاءِ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٨) .

ويتناولُ الذي يمزِجُ بالخصومةِ كلماتٍ مؤذيةً ليسَ يحتاجُ إليها في نصرةِ الحجَّةِ وإظهارِ الحقِّ .

ويتناولُ الذي يحملُهُ على الخصومةِ محضُ العنادِ لقهرِ الخصمِ وكسرِهِ ، معَ أنَّهُ قدْ يستحقِرُ ذٰلكَ القدْرَ مِنَ المالِ ، وفي الناسِ مَنْ يصرِّحُ بهِ ويقولُ : إنَّما قصدي عنادُهُ وكسرُ عرضِهِ ، وإنِّي إنْ أخذتُ منهُ هٰذا المالَ . . ربَّما رميتُ بهِ في بئرٍ ولا أبالي ، فهٰذا مقصودُهُ اللَّدَدُ والخصومةُ واللَّجاجُ ، وهوَ مذمومٌ جداً .

أمَّا المظلومُ الذي ينصرُ حجَّتَهُ بطريقِ الشرعِ مِنْ غيرِ لَدَدٍ وإسرافٍ وزيادةِ لَجاجٍ علىٰ قدرِ الحاجةِ ، ومِنْ غيرِ قصدِ عنادٍ وإيذاءٍ . . ففعْلُهُ ليسَ بحرامٍ ، ولٰكنِ الأولىٰ تركُهُ ما وجدَ إليهِ سبيلاً ؛ فإنَّ ضبطَ اللسانِ في الخصومةِ علىٰ حدِّ الاعتدالِ متعذِّرٌ ، والخصومةُ توغِرُ الصدرَ ، وتهيِّجُ الغضبَ ، وإذا هاجَ الغضبُ . . نُسِيَ المتنازعُ فيهِ ، وبقيَ الحقدُ بينَ المتخاصمَينِ ، حتَّىٰ يفرحُ كلُّ واحدٍ بمساءةِ صاحبِهِ ، ويحزنُ بمسرَّتِهِ ، ويطلقُ اللِّسانَ في عرضِهِ ، فمَنْ بدأَ بالخصومةِ . . فقدْ تعرَّضَ لهٰذهِ المحذوراتِ ، وأقلُّ ما فيهِ تشويشُ خاطرِهِ ، حتَّىٰ إنَّهُ في صلاتِهِ يشتغلُ بمحاجَّةِ خصمِهِ ، فلا يبقى الأمرُ علىٰ حدِّ الواجبِ .

فالخصومةُ مبدأُ كلِّ شرٍّ ، وكذا الجدالُ والمراءُ ، فينبغي ألَّا يُفتحَ بابُهُ إلَّا لضرورةٍ ، وعندَ الضرورةِ ينبغي أنْ يُحفظَ اللِّسانُ والقلبُ عَنْ تبعاتِ الخصومةِ ، وذٰلكَ متعذِّرٌ جداً .

فمنِ اقتصرَ على الواجبِ في خصومتِهِ . . سلمَ مِنَ الإثمِ ، ولا تُذمُّ خصومتُهُ ، إلا أنَّهُ إنْ كانَ مستغنياً عنِ الخصومةِ فيما خاصمَ فيهِ لأنَّ معَهُ ما يكفيهِ . . فيكونُ تاركاً للأولىٰ ، ولا يكونُ آثماً .

نعمْ ؛ أقلُّ ما يفوتُهُ في الخصومَةِ والمراءِ والجدلِ طيبُ الكلامِ ، وما وردَ فيهِ مِنَ الثوابِ ؛ إذْ أقلُّ درجاتِ طيبِ الكلامِ إظهارُ الموافقةِ ، ولا خشونةَ في الكلامِ أعظمُ مِنَ الطَّعنِ والاعتراضِ ، الذي حاصلُهُ إمَّا تجهيلٌ ، وإمَّا تكذيبٌ ؛ فإنَّ مَنْ جادلَ غيرَهُ أوْ ماراهُ أوْ خاصمَهُ . . فقدْ جهَّلَهُ أوْ كذَّبَهُ ، فيفوتُ بهِ طيبُ الكلامِ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يمكِّنُكُمْ مِنَ الجنَّةِ طيبُ الكلامِ وإطعامُ الطَّعامِ »[1] .

وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ﴾[2] .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (مَنْ سلَّمَ عليكَ مِنْ خلقِ اللهِ . . فارددْ عليهِ وإنْ كانَ مجوسيّاً ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ ﴾)[3] .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٥٤٧) من حديث جابر رضي الله عنه ، وهو عند ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٠٤) عن محمد بن المنكدر .

(٢) سورة البقرة : (٨٣) .

(٣) سورة النساء : (٨٦) ، والأثر رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٠٩) .

وقالَ ابنُ عباسٍ أيضاً : (لوْ قالَ لي فرعونُ خيراً . . لرددتُ عليهِ)[1] .

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في الجنَّةِ غُرفاً ، يُرىٰ ظاهرُها مِنْ باطنِها ، وباطنُها مِنْ ظاهرِها ، أعدَّها اللهُ تعالىٰ لمَنْ أطعمَ الطعامَ وألانَ الكلامَ »[2] .

ورُوِيَ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ مرَّ بهِ خنزيرٌ ، فقالَ : مُرَّ بسلامٍ ، فقيلَ : يا روحَ اللهِ ؛ أتقولُ هٰذا لخنزيرٍ ؟! فقالَ : أكرهُ أنْ أعوِّدَ لساني الشرَّ[3] .

وقالَ نبيُّنا عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الكلمةُ الطَّيِّبةُ صدقةٌ »[4] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « اتقوا النارَ ولوْ بشقِّ تمرةٍ ، فإنْ لمْ يكنْ . . فبكلمةٍ طيبةٍ »[5] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (البِرُّ شيءٌ هيِّنٌ ؛ وجهٌ طليقٌ وكلامٌ ليِّنٌ)[6] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣١١) .
(٢) رواه الترمذي (١٩٨٤) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٠٨) عن أنس رضي الله عنه عنه عليه السلام .
(٤) قطعة من حديث رواه مسلم (١٠٠٩) .
(٥) رواه البخاري (٦٠٢٣) ، ومسلم (١٠١٦/٦٨) .
(٦) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٧٠٢) ، وابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (١٠٩) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (الكلامُ الليّنُ يغسلُ الضغائنَ المستكنَّةَ في الجوارحِ)[1] .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (كلُّ كلامٍ لا يسخطُ ربَّكَ إلا أنَّكَ ترضي بهِ جليسَكَ . . فلا تكنْ بهِ عليهِ بخيلاً ؛ فلعلَّهُ يعوِّضُكَ منهُ ثوابَ المحسنينَ)[2] .

فهٰذا كلُّهُ في فضْلِ الكلامِ الطيِّبِ ، وتضادُّهُ الخصومةُ والمراءُ واللَّجاجُ والجدالُ ؛ فإنَّهُ الكلامُ المستكرهُ الموحشُ المؤذي للقلبِ ، المنغِّصُ للعيشِ ، المهيِّجُ للغضبِ ، الموغِرُ للصدرِ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بمنِّهِ وكرمِهِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣١٢) ، وفيه : (الجوانح) بدل (الجوارح) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣١٣) .

الآفة السادسة : التقعّر في الكلام

بالتشدُّقِ ، وتكلُّفِ السجْعِ والفصاحةِ ، والتصنُّعِ فيهِ بالتشبيباتِ والمقدِّماتِ ، وما جرَتْ بهِ عادةُ المتفاصحينَ المدَّعينَ للخطابةِ .

فكلُّ ذٰلكَ مِنَ التَّصنُّعِ المذمومِ ، ومِنَ التكلُّفِ الممقوتِ ، الذي قالَ فيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنا وأتقياءُ أمَّتي برآءُ مِنَ التَّكلُّفِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أبغضَكُمْ إليَّ ، وأبعدَكُمْ منِّي مجلساً يومَ القيامةِ الثَّرثارونَ المتفيهِقونَ المتشدِّقونَ في الكلامِ »[2] .

وقالَتْ فاطمةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شرارُ أمَّتي الذينَ غُذُوا بالنَّعيمِ ، يأكلونَ ألوانَ الطعامِ ، ويلبسونَ ألوانَ الثيابِ ، ويتشدَّقونَ في الكلامِ »[3] .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/٢٢٩) ، وروى الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٢٨) من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه مرفوعاً : « إني بريءٌ من التكلف وصالحو أمتي » .

(٢) رواه الترمذي (٢٠١٨) من حديث جابر رضي الله عنه ، وتمامه : قالوا : يا رسول الله ؛ قد علمنا الثرثارون والمتشدقون ، فما المتفيهقون ؟ قال : « المتكبرون » ، قال الترمذي : (**والثرثار** : هو الكثير الكلام ، **والمتشدق** : الذي يتطاول على الناس في الكلام ويبذو عليهم) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٠) ، وابن عدي في « الكامل » (٥/٣١٨) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا هلكَ المتنطِّعونَ » ثلاثَ مراتٍ [(١)] ، والتَّنطُّعُ : هوَ التعمُّقُ والاستقصاءُ .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ شقاشِقَ الكلامِ مِنْ شقاشِقِ الشيطانِ) [(٢)] .

وجاءَ عمرُ بنُ سعدِ بنِ أبي وقاصٍ إلىٰ أبيهِ سعدٍ يسألُهُ حاجةً ، فتكلَّمَ بينَ يدي حاجتِهِ بكلامٍ ، فقالَ لهُ سعدٌ : ما كنتَ مِنْ حاجتِكَ أبعدَ منكَ اليومَ ، إنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « يأتي على النَّاسِ زمانٌ يتخلَّلونَ الكلامَ بألسنتِهِمْ كما تتخلَّلُ البقرُ الكلأَ بألسنتِها » [(٣)] .

وكأنَّهُ أنكرَ عليهِ ما قدَّمَ على الكلامِ مِنَ التشبيبِ والمقدِّمةِ المصنوعةِ المتكلَّفةِ .

وهٰذا أيضاً مِنْ آفاتِ اللسانِ ، ويدخلُ فيهِ كلُّ سجْعٍ متكلَّفٍ ، وكذٰلكَ التفاصحُ الخارجُ عنْ حدِّ العادةِ ، وكذٰلكَ تكلُّفُ السجْعِ في المحاوراتِ ؛ إذْ قضىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بغرَّةٍ في الجنينِ ، فقالَ بعضُ قومِ الجاني : كيفَ ندي مَنْ لا شربَ ولا أكلَ ، ولا صاحَ ولا استهلَّ ، ومثلُ ذٰلكَ يطلُّ ؟! فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٢) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (١/١٧٥) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٤٩) واللفظ له ، ورواه مختصراً أبو داوود (٥٠٠٥) ، والترمذي (٢٨٥٣) .

عليهِ وسلَّمَ : « أسجْعاً كسجْعِ الأعرابِ ؟! »[1] ، وأنكرَ ذٰلكَ ؛ لأنَّ أثرَ التكلُّفِ والتصنُّعِ بيِّنٌ عليهِ ، بلْ ينبغي أنْ يقتصرَ في كلِّ شيءٍ علىٰ مقصودِهِ ، ومقصودُ الكلامِ التفهيمُ للغرضِ ، وما وراءَ ذٰلك تصنُّعٌ مذمومٌ .

ولا يدخلُ في هٰذا تحسينُ ألفاظِ الخطابةِ ، والتذكيرُ مِنْ غيرِ إفراطٍ وإغرابٍ ؛ فإنَّ المقصودَ منها تحريكُ القلوبِ وتشويقُها ، وقبضُها وبسطُها ، فلرشاقَةِ اللفظِ تأثيرٌ فيهِ ، فهوَ لائقٌ بهِ .

فأمَّا المحاوراتُ التي تجري في قضاءِ الحاجاتِ . . فلا يليقُ بها السجْعُ والتشدُّقُ ؛ فالاشتغالُ بهِ مِنَ التكلُّفِ المذمومِ ، ولا باعثَ عليهِ إلا الرياءُ وإظهارُ الفصاحةِ ، والتميُّزُ بالبراعةِ ، وكلُّ ذٰلكَ مذمومٌ يكرهُهُ الشَّرعُ ويزجرُ عنهُ .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه مسلم (١٦٨٢) .

الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان

وهوَ مذمومٌ منهيٌّ عنهُ ، ومصدرُهُ : الخبثُ واللؤمُ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إيَّاكُمْ والفحشَ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ لا يحبُّ الفحشَ ولا التَّفَحُّشَ »(١) .

ونهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ أنْ تُسبَّ قتلىٰ بدرٍ مِنَ المشركينَ ، فقالَ : « لَا تسبُّوا هٰؤلاءِ ؛ فإنَّهُ لا يخلُصُ إليهِمْ شيءٌ ممَّا تقولونَ ، وتؤذونَ الأحياءَ ، ألا إنَّ البَذاءَ لؤمٌ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ المؤمنُ بالطَّعَّانِ ولا اللَّعَّانِ ، ولا الفاحشِ ولا البذيءِ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الجنَّةُ حرامٌ علىٰ كلِّ فاحشٍ أنْ يدخلَها »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أربعةٌ يؤذونَ أهلَ النَّارِ في النارِ

---

(١) كذا رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣١٩) ، وهو ضمن حديث طويل رواه أحمد في « المسند » (٢/١٥٩) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥١٧٦) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٢٣) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٦٨) .

(٣) رواه الترمذي (١٩٧٧) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٢٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٢٨٨) .

علىٰ ما بهمْ مِنَ الأذىٰ ، يسعونَ بينَ الحميمِ والجحيمِ يدْعونَ بالويلِ والثُّبورِ ، رجلٌ يسيلُ فوهُ قيحاً ودماً ، فيُقالُ لهُ : ما بالُ الأبعدِ قدْ آذانا علىٰ ما بنا مِنَ الأذىٰ ؟ فيقولُ : إنَّ الأبعدَ كانَ ينظرُ إلىٰ كلِّ كلمةٍ قَذِعةٍ خبيثةٍ فيستلذُّها كما يستلِذُّ الرَّفثَ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعائشةَ : « يا عائشةُ ؛ لوْ كانَ الفحْشُ رجلاً . . لكانَ رجلَ سَوْءٍ »[2] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « البَذاءُ والبيانُ شعبتانِ مِنْ شُعبِ النِّفاقِ »[3] .

ويُحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بالبيانِ كشفَ ما لا يجوزُ كشفُهُ ، ويُحتملُ أيضاً : المبالغةَ في الإيضاحِ حتَّىٰ ينتهيَ إلىٰ حدِّ التكلُّفِ ، ويُحتملُ أيضاً : البيانَ في أمورِ الدينِ ، وفي صفاتِ اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّ إلقاءَ ذٰلكَ مجملاً إلىٰ أسماعِ العوامِّ أولىٰ مِنَ المبالغةِ في بيانِهِ ؛ إذْ قدْ يثورُ مِنْ غايةِ البيانِ فيهِ شكوكٌ ووساوسُ ، فإذا أُجملَتْ . . بادرَتِ القلوبُ إلى القبولِ ولمْ تضطربْ ، ولٰكنْ ذكرُهُ مقروناً بالبَذاءِ يشبهُ أنْ يكونَ المرادُ بهِ المجاهرةَ بما يستحيي الإنسانُ مِنْ بيانِهِ ، فإنَّ الأولىٰ في مثلِهِ الإغماضُ والتغافلُ ، دونَ الكشفِ والبيانِ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٢٦) من حديث شفي بن ماتع ، وهو مختلف في صحبته .

(٢) رواه الطيالسي في « مسنده » (١٤٩٥) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٣١) .

(٣) رواه الترمذي (٢٠٢٧) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ لا يحبُّ الفاحشَ المتفَحِّشَ الصَّيَّاحَ في الأسواقِ »[١] .

وقالَ جابرُ بنُ سَمُرةَ : كنتُ جالساً عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأبي أمامي[٢] ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الفُحشَ والتفحُّشَ ليسا مِنَ الإسلامِ في شيءٍ ، وإنَّ أحسنَ الناسِ إسلاماً أحاسنُهُمْ أخلاقاً »[٣] .

وقالَ إبراهيمُ بنُ ميسرةَ : (يُقالُ : الفاحشُ المتفحِّشُ يومَ القيامةِ في صورةِ كلبٍ ، أوْ في جوفِ كلبٍ)[٤] .

وقالَ الأحنفُ بنُ قيسٍ : (ألا أخبرُكُمْ بأدْوَأ الداءِ ؟ اللسانُ البذيءُ ، والخلقُ الدنيءُ)[٥] .

فهٰذهِ مذمَّةُ الفُحْشِ .

فأمَّا حدُّهُ وحقيقتُهُ : فهوَ التعبيرُ عنِ الأمورِ المستقبحةِ[٦] بالعباراتِ الصريحةِ .

---

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٣١٠) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٤٠) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٢) هو سيدنا سَمُرة بن جُنادة رضي الله عنه .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٥/٨٩) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٤٢) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٢٩) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٤١) .

(٦) شرعاً وعقلاً وطبعاً ، بحيث يكرهه الطبع ، كما ينكره العقل ، ويستخبثه الشرع . « إتحاف » (٧/٤٨١) .

ويجري أكثرُ ذٰلكَ في ألفاظِ الوِقاعِ وما يتعلَّقُ بهِ ، فإنَّ لأهلِ الفسادِ عباراتٍ صريحةً فاحشةً يستعملونَها فيهِ ، وأهلُ الصَّلاحِ يتحاشَوْنَ عنِ التعرُّضِ لها ، بلْ يكنونَ عنها ، ويدلُّونَ عليها بالرُّموزِ وبذكرِ ما يقاربُها ويتعلَّقُ بها .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ اللهَ حييٌّ كريمٌ ، يعفُّ ويكني ، كنىٰ باللمسِ عنِ الجماعِ)[(١)] .

فالمسيسُ واللمسُ ، والدخولُ ، والصحبةُ . . كناياتٌ عَنِ الوقاعِ ، وليسَتْ بفاحشةٍ ، وهناكَ عباراتٌ فاحشةٌ يُستقبحُ ذكرُها ، ويستعملُ أكثرُها في الشتمِ والتعييرِ ، وهٰذهِ العباراتُ متفاوتةٌ في الفُحْشِ ، وبعضُها أفحشُ مِنْ بعضٍ ، وربَّما اختلفَ ذٰلكَ بعادةِ البلادِ ، وأوائلُها مكروهةٌ ، وأواخرُها محظورةٌ ، وبينَهُما درجاتٌ يُتردَّدُ فيها .

وليسَ يختصُّ هٰذا بالوِقاعِ ، بلِ الكنايةُ بقضاءِ الحاجةِ عنِ البولِ والغائطِ أولىٰ مِنْ لفظِ التغوُّطِ والخِراءَةِ وغيرِها ؛ فإنَّ هٰذا أيضاً ممَّا يُخفىٰ ، وكلُّ ما يُخفىٰ ويُستحيا منهُ . . فلا ينبغي أنْ تُذكرَ ألفاظُهُ الصريحةُ ؛ فإنَّهُ فحشٌ .

وكذٰلكَ يُستحسنُ في العادةِ الكنايةُ عنِ النساءِ ، فلا يُقالُ : قالَتْ زوجُكَ كذا ، بلْ يُقالُ : قِيلَ في الحُجْرةِ ، أوْ قِيلَ مِنْ وراءِ

---

(١) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٥٠٦) ، والطبري في « تفسيره » (٤/٥/١٣٧) .

السترِ ، أوْ قالَتْ أمُّ الأولادِ كذا ، والتلطفُ في هٰذهِ الألفاظِ محمودٌ ، والتصريحُ فيها يفضي إلى الفحْشِ .

وكذٰلكَ مَنْ بهِ عيوبٌ يستحيي منها ، فلا ينبغي أنْ يُعبَّرَ عنها بصريحِ لفظِها ؛ كالبَرَصِ والقَرَعِ والبواسيرِ ، بلْ يُقالُ : العارضُ الذي يشكوهُ ، وما يجري مَجراهُ ، فالتصريحُ بذٰلكَ داخلٌ في الفحْشِ ، وجميعُ ذٰلكَ مِنْ آفاتِ اللِّسانِ .

قالَ العلاءُ بنُ هارونَ : كانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يتحفَّظُ في منطقِهِ ، فخرجَ خُرَاجٌ في إبطِهِ ، فقلنا : نسألُهُ ماذا يقولُ ؟ فقلنا : أينَ خرجَ ؟ فقالَ : في باطنِ اليدِ [١] .

والباعثُ على الفُحْشِ : إمَّا قصدُ الإيذاءِ ، وإمَّا الاعتيادُ الحاصلُ مِنْ مخالطةِ الفُسَّاقِ وأهلِ الخبثِ واللؤمِ ، ومِنْ عادتِهِمُ السَّبُّ .

وقالَ أعرابيٌّ : يا رسولَ اللهِ ؛ أوصني ، فقالَ : « عليكَ بتقوى اللهِ ، وإنِ امرُؤٌ عيَّرَكَ بشيءٍ يعلمُهُ فيكَ . . فلا تعيِّرْهُ بشيءٍ تعلَمُهُ فيهِ ، يكنْ وَبالُهُ عليهِ وأجرُهُ لكَ ، ولا تسبَّنَّ شيئاً » ، قالَ : فما سببتُ شيئاً بعدَهُ [٢] .

وقالَ عياضُ بنُ حمارٍ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ الرجلُ مِنْ قومي

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٩٠) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥/٦٣) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (١١٨٢) عن جابر بن سليم ـ وقيل : سليم بن جابر ـ رضي الله عنه .

يسبُّني وهوَ دوني ، هلْ عليَّ مِنْ بأسٍ أنْ أنتصرَ منهُ ، فقالَ : « المتسابَّانِ شيطانانِ يتكاذبانِ ويتهاتَرانِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المستبَّانِ ما قالا فعلى البادئ منهُما حتَّىٰ يعتديَ المظلومُ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سبابُ المؤمنِ فسُوقٌ ، وقتالُهُ كفْرٌ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ملعونٌ مَنْ سبَّ والدَيهِ »(٤) ، وفي روايةٍ : « مِنْ أكبرِ الكبائرِ أنْ يسبَّ الرَّجلُ والديهِ » ، قالُوا : يا رسولَ اللهِ ؛ وكيفَ يسبُّ الرجلُ والديهِ ؟ قالَ : « يسبُّ أبا الرَّجلِ ، فيسبُّ الآخرُ أباهُ »(٥) .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه الطيالسي في « مسنده » (١٠٨٠) ، وروى اللفظ المرفوع أحمد في « المسند » (٤/١٦٢) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٤٢٨) بنحوه ، والهتر : السقط من الكلام .

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٧) ، وفيه : « ما لم يعتدِ المظلوم » .

(٣) رواه البخاري (٤٨) ، ومسلم (٦٤) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (١/٢١٧) .

(٥) رواه البخاري (٥٩٧٣) ، ومسلم (٩٠) ، دون قوله : (الآخر) .

الآفة الثامنة : اللعن

إمَّا لحيوانٍ ، أوْ لجمادٍ ، أوْ لإنسانٍ ، وذٰلكَ مذمومٌ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ ليسَ بلعَّانٍ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تَلاعَنُوا بلعنةِ اللهِ ولا بغضبِهِ ولا بجهنَّمَ »(٢) .

وقالَ حذيفةُ : (ما تلاعنَ قومٌ قطُّ إلَّا حقَّ عليهمُ القولُ)(٣) .

وقالَ عِمرانُ بنُ الحصينِ : بينَما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في بعضِ أسفارِهِ ؛ إذا امرأةٌ مِنَ الأنصارِ علىٰ ناقةٍ لها ، فضجِرَتْ منها ، فلعنَتْها ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خذُوا ما عليها وأعْرُوها ، فإنَّها ملعونةٌ » ، قالَ : فكأنِّي أنظرُ إلىٰ تلكَ الناقةِ تمشي في الناسِ لا يعرِضُ لها أحدٌ(٤) .

وقالَ أبو الدرداءِ : (ما لعنَ الأرضَ أحدٌ إلا قالَتْ : لعنَ اللهُ أعصانا للهِ)(٥) .

---

(١) رواه الترمذي (٢٠١٩) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٨٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « لا يكون المؤمن لعاناً » .

(٢) رواه أبو داوود (٤٩٠٦) ، والترمذي (١٩٧٦) .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١٩٥٣٥) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٨٤٩٦) .

(٤) رواه مسلم (٢٥٩٥) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٨٥) .

وعنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ : سمعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ يلعنُ بعضَ رقيقِهِ ، فالتفَتَ إليهِ فقالَ : « يا أبا بكرٍ ؛ أَلَعَّانينَ وصدِّيقينَ ؟! كلَّا وربِّ الكعبةِ » مرتينِ أوْ ثلاثاً ، فأعتقَ أبو بكرٍ يومئذٍ بعضَ رقيقِهِ ، وجاءَ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : لا أعودُ[1] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللَّعَّانينَ لا يكونونَ شفعاءَ ولا شهداءَ يومَ القيامةِ »[2] .

وقالَ أنسٌ : كانَ رجلٌ يسيرُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ بعيرٍ ، فلعنَ بعيرَهُ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا عبدَ اللهِ ؛ لا تسرْ معَنا علىٰ بعيرٍ ملعونٍ » ، وقالَ ذٰلكَ إنكاراً عليهِ[3] .

واللَّعنُ : عبارةٌ عنِ الطَّرْدِ والإبعادِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وذٰلكَ غيرُ جائزٍ إلا علىٰ مَنْ يتصفُ بصفةٍ تبعدُهُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وهيَ الكفرُ والظلمُ ، بأنْ يقولَ : لعنةُ اللهِ على الظالمينَ وعلى الكافرينَ .

وينبغي أنْ يُتبعَ فيهِ لفظُ الشرعِ ؛ فإنَّ في اللعنةِ خطراً ، لأنَّهُ حكمٌ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٩٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٧٩١) .

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٨) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٩٠) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٣٦٢٢) .

على اللهِ عزَّ وجلَّ بأنَّهُ قدْ أبعدَ الملعونَ ، وذٰلكَ غيبٌ لا يطلعُ عليهِ غيرُ اللهِ تعالىٰ ، ويطَّلعُ عليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا أطلعَهُ اللهُ عليهِ .

والصفاتُ المقتضيةُ للَّعنِ ثلاثةٌ : الكفرُ ، والبدعةُ ، والفسقُ ، وللَّعنِ في كلِّ واحدةٍ ثلاثةُ مراتبَ :

الأولى : اللَّعنُ بالوصفِ الأعمِّ ؛ كقولِكَ : لعنةُ اللهِ على الكافرينَ والمبتدعةِ والفسقةِ .

والثانيةُ : اللَّعنُ بأوصافٍ أخصَّ منهُ ؛ كقولِكَ : لعنةُ اللهِ على اليهودِ والنَّصارىٰ والمجوسِ ، وعلى القدريةِ والخوارجِ والروافضِ ، وعلى الزناةِ والظَّلمةِ وآكلي الرِّبا .

وكلُّ ذٰلكَ جائزٌ ، ولٰكنْ في لعنِ أصنافِ المبتدعةِ خطرٌ ؛ لأنَّ معرفةَ البدعةِ غامضٌ ، فما لمْ يردْ فيهِ لفظٌ مأثورٌ [١] ، فينبغي أنْ يُمنعَ منهُ العوامُّ ؛ لأنَّ ذٰلكَ يستدعي المعارضةَ بمثلِهِ ، ويثيرُ نزاعاً بينَ الناسِ وفساداً .

والثالثةُ : اللَّعنُ للشَّخصِ المعيَّنِ ، وهٰذا فيهِ نظرٌ [٢] ؛ كقولِكَ : زيدٌ لعنهُ اللهُ ، وهوَ كافرٌ ، أوْ فاسقٌ ، أوْ مبتدعٌ .

---

(١) في (أ) : (ولم يرد فيه . . .) ، وفي بقية النسخ : (فيما لم يرد فيه . . .) ، والمثبت من (ل) .

(٢) في (أ) وحدها : (خطر) بدل (نظر) .

والتفصيلُ فيهِ : أنَّ كلَّ شخصٍ ثبتَتْ لعنتُهُ شرعاً فتجوزُ لعنتُهُ .

كقولِكَ : فرعونُ لعنَهُ اللهُ ، وأبو جهلٍ لعنَهُ اللهُ ؛ لأنَّهُ قدْ ثبتَ أنَّ هٰؤلاءِ ماتوا على الكفرِ ، وعُرِفَ ذٰلكَ شرعاً .

وأمَّا شخصٌ بعينِهِ في زمانِنا ؛ كقولِكَ : زيدٌ لعنَهُ اللهُ ، وهوَ يهوديٌّ مثلاً . . فهٰذا فيهِ خطرٌ ؛ فإنَّهُ ربَّما يسلِمُ ، فيموتُ مقرَّباً عندَ اللهِ ، فكيفَ يُحكمُ بكونِهِ ملعوناً ؟!

❁ ❁ ❁

فإنْ قلْتَ : يُلعنُ لكونِهِ كافراً في الحالِ ، كما يُقالُ للمسلمِ : (رحمَهُ اللهُ) لكونِهِ مسلماً في الحالِ ، وإنْ كانَ يُتصوَّرُ أنْ يرتدَّ .

فاعلمْ : أنَّ معنىٰ قولِنا : (رحمَهُ اللهُ) ؛ أيْ : ثبَّتَهُ اللهُ على الإسلامِ الذي هوَ سببُ الرحمةِ ، وعلى الطاعةِ ، ولا يمكنُ أنْ يُقالَ : ثبَّتَ اللهُ الكافرَ علىٰ ما هوَ سببُ اللَّعنةِ ، فإنَّ هٰذا سؤالُ الكفرِ ، وهوَ في نفسِهِ كفرٌ ، **بلِ الجائزُ أنْ يُقالَ** : لعنَهُ اللهُ إنْ ماتَ على الكفرِ ، ولا لعنَهُ اللهُ إنْ ماتَ على الإسلامِ ، وذٰلك غيبٌ لا يُدرَىٰ ، والمطلَقُ مردَّدٌ بينَ الجهتينِ ؛ ففيه خطرٌ ، وليسَ في تركِ اللَّعنِ خطرٌ .

وإذا عرفتَ هٰذا في الكافرِ . . فهوَ في زيدٍ الفاسقِ أوْ زيدٍ المبتدعِ أولىٰ ، فلعنُ الأعيانِ فيهِ خطرٌ ؛ لأنَّ الأحوالَ تتقلبُ على الأعيانِ إلا علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فإنَّهُ يجوزُ أنْ يعلمَ مَنْ يموتُ على الكفرِ ، ولذٰلكَ عيَّنَ قوماً باللَّعنِ ، فكانَ يقولُ في دعائِهِ علىٰ

قريشٍ : « اللَّهمَّ ؛ عليكَ بأبي جهلِ بنِ هشامٍ ، وعتبةَ بنِ ربيعةَ » ، وذكرَ جماعةً قُتلوا على الكفرِ ببدرٍ[1] ، حتَّىٰ إنَّ مَنْ لمْ يَعلَمْ عاقبتَهُ كانَ يلعنُهُ ، فنُهيَ عنْ ذٰلكَ ؛ إذْ رُويَ أنَّهُ كانَ يلعنُ الذينَ قَتلوا أصحابَ بئرِ معونةَ في قنوتِهِ شهراً ، فنزلَ قولُهُ تعالَىٰ : ﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾[2] يعني : أنَّهمْ ربَّما يتوبونَ ، فمِنْ أينَ تعلمُ أنَّهمْ ملعونونَ ؟!

وكذٰلكَ مَنْ بانَ لنا موتُهُ على الكفرِ . . جازَ لعنُهُ وجازَ ذمُّهُ إنْ لمْ يكُنْ فيهِ أذىً علىٰ مسلمٍ ، فإنْ كانَ . . لمْ يجزْ ، كما رُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سألَ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ عنْ قبرٍ مرَّ بهِ وهوَ يريدُ الطائفَ ، فقالَ : هٰذا قبرُ رجلٍ كانَ عاتياً على اللهِ وعلىٰ رسولِهِ ـ وهوَ سعيدُ بنُ العاصِ ـ فغضبَ ابنُهُ عمرُو بنُ سعيدٍ وقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هٰذا قبرُ رجلٍ كانَ أطعمَ للطعامِ وأضربَ للهامِ مِنْ أبي قحافةَ ، فقالَ أبو بكرٍ : يكلِّمُني هٰذا يا رسولَ اللهِ بمثلِ هٰذا الكلامِ !! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اكففْ عنْ أبي بكرٍ » فانصرفَ ، ثمَّ أقبلَ النبيُّ علىٰ أبي بكرٍ فقالَ : « يا أبا بكرٍ ؛ إذا ذكرتُمُ الكفَّارَ . . فعمِّموا ؛ فإنَّكُمْ إذا خصَّصتُمْ . . غضبَ الأبناءُ للآباءِ » ، فكفَّ الناسُ عنْ ذٰلكَ[3] .

---

(١) رواه البخاري (٢٤٠) ، ومسلم (١٧٩٤) .

(٢) سورة آل عمران : (١٢٨) ، والحديث رواه البخاري (٤٠٧٠) ، ومسلم (٦٧٥) .

(٣) رواه بنحوه هناد في « الزهد » (١١٦٨) ، وأبو داوود في « المراسيل » (٥٠٢) ، ←

وشربَ نُعيمانُ الخمرَ ، فحُدَّ مراتٍ في مجلسِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ بعضُ الصحابةِ : لعنَهُ اللهُ ؛ ما أكثرَ ما يُؤتىٰ بهِ !! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تكنْ عوناً للشَّيطانِ علىٰ أخيكَ » ، وفي روايةٍ : « لا تقُلْ هٰذا ؛ فإنَّهُ يحبُّ اللهَ ورسولَهُ »(١) ، فنهاهُ عنْ ذٰلكَ ، فهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ لعنةَ فاسقٍ بعينِهِ غيرُ جائزةٍ .

وعلى الجملةِ : ففي لعنةِ الأشخاصِ خطرٌ ، فليُجتنَبْ ، ولا خطرَ في السكوتِ عنْ لعنةِ إبليسَ ، فضلاً عنْ غيرِهِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قيلَ : هلْ يجوزُ لعنةُ يزيدَ ؛ لأنَّهُ قاتلُ الحسينِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما ، أوْ آمرٌ بهِ ؟

قلنا : هٰذا لمْ يثبتْ أصلاً ، فلا يجوزُ أنْ يُقالَ : إنَّه قتلَهُ أوْ أمرَ بقتلِهِ ما لمْ يثبتْ ذٰلكَ فضلاً عنِ اللَّعنةِ ؛ لأنَّهُ لا تجوزُ نسبةُ مسلمٍ إلىٰ كبيرةٍ منْ غيرِ تحقيقٍ .

نعمْ ؛ يجوزُ أنْ يُقالَ : قتلَ ابنُ مُلجمٍ عليّاً رضيَ اللهُ عنهُ ، وقتلَ أبو لؤلؤةَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، فإنَّ ذٰلكَ ثبتَ متواتراً .

← كلاهما من حديث علي بن ربيعة مرسلاً ، وفيه : « إن سب الأموات يغضب الأحياء ، وإذا سببتم المشركين . . فسبوهم جميعاً » .

(١) روى البخاري (٦٧٨٠) عن عقبة بن الحارث رضي الله عنه قال : (جيء بالنعيمان أو ابن النعيمان شارباً ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان في البيت أن يضربوا ، قال : فكنت أنا فيمن ضربه ، فضربناه بالنعال والجريد) .

فلا يجوزُ أنْ يُرمىٰ مسلمٌ بفسقٍ أوْ كفرٍ مِنْ غيرِ تحقيقٍ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يرمي رجلٌ رجلاً بالكفرِ ، ولا يرميهِ بالفسقِ إلَّا ارتدَّتْ عليهِ إنْ لمْ يكنْ صاحبُهُ كذٰلكَ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما شهدَ رجلٌ علىٰ رجلٍ بكفرٍ إلَّا باءَ بهِ أحدُهُما ، إنْ كانَ كافراً . . فهوَ كما قالَ ، وإنْ لمْ يكنْ كافراً . . فقدْ كفرَ بتكفيرِهِ إيَّاهُ »[٢] ، وهٰذا معناهُ : أنْ يكفِّرَهُ وهوَ يعلمُ أنَّهُ مسلمٌ ، فإنْ ظنَّ أنَّهُ كافرٌ ببدعةٍ أوْ غيرِها . . كانَ مخطئاً لا كافراً .

وقالَ معاذٌ : قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنهاكَ أنْ تشتمَ مسلماً ، أوْ تعصيَ إماماً عادلاً »[٣] .

والتعرُّضُ للأمواتِ أشدُّ ، قالَ مسروقٌ : دخلتُ علىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ، فقالَتْ : ما فعلَ فلانٌ لعنَهُ اللهُ ؟ قلتُ : تُوفيَ ، قالَتْ : رحمَهُ اللهُ ، قلتُ : وكيفَ هٰذا ؟! قالَتْ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تسبُّوا الأمواتَ ؛ فإنَّهُمْ قدْ أفضَوا إلىٰ ما قدَّموا »[٤] .

---

(١) رواه البخاري (٦٠٤٥) ، ومسلم (٦١) بنحوه ، وبلفظ المصنف رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٣) .

(٢) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٨) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٦٣٣٧) .

(٣) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٠) مفرداً ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٢٤٠) ضمن حديث طويل .

(٤) كذا رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٩٣) ، والمرفوع وحده دون القصة رواه البخاري (٦٥١٦) من حديثها رضي الله عنها .

وقالَ أيضاً : « لا تسبُّوا الأمواتَ فتؤذوا الأحياءَ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أيُّها الناسُ ؛ احفظوني في أصحابي وإخواني وأصهاري ولا تسبُّوهُمْ ، أيُّها الناسُ ؛ إذا ماتَ الميِّتُ . . فاذكروا منهُ خيراً »[2] .

❀ ❀ ❀

فإنْ قيلَ : فهلْ يجوزُ أنْ يُقالَ : قاتلُ الحسينِ لعنَهُ اللهُ ، أوِ الآمرُ بقتلِهِ لعنَهُ اللهُ ؟

قلنا : الصوابُ أنْ يُقالَ : قاتلُ الحسينِ إنْ ماتَ قبلَ التَّوبةِ . . لعنَهُ اللهُ ؛ لأنَّهُ يُحتملُ أنْ يموتَ بعدَ التوبةِ ، فإنَّ وحشيّاً قاتِلَ حمزةَ عمِّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قتلَهُ وهوَ كافرٌ ، ثمَّ تابَ عنِ الكفرِ والقتلِ جميعاً ، فلا يجوزُ أنْ يُلعنَ ، والقتلُ كبيرةٌ ، ولا تنتهي إلىٰ رتبةِ الكفرِ ، فإذا لمْ يُقيَّدْ بالتوبةِ وأُطلِقَ . . كانَ فيهِ خطرٌ ، وليسَ في السكوتِ خطرٌ ، فهوَ أولىٰ .

❀ ❀ ❀

وإنَّما أوردنا هٰذا لتهاونِ الناسِ باللَّعنةِ وإطلاقِ اللسانِ بها ، والمؤمنُ ليسَ بلعَّانٍ ، فلا ينبغي أنْ يُطلَقَ اللِّسانُ باللَّعنةِ إلا علىٰ مَنْ ماتَ على الكفرِ ، أوْ على الأجناسِ المعروفينَ بأوصافِهِمْ دونَ

---

(١) رواه الترمذي (١٩٨٢) .

(٢) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٠٠) ، والطبراني في « الكبير » (٦/١٠٤) .

الأشخاصِ المعيَّنينَ ، فالاشتغالُ بذكرِ اللهِ أولىٰ ، فإنْ لمْ يكُنْ . . ففي السكوتِ سلامةٌ .

قالَ مكيُّ بنُ إبراهيمَ : كنَّا عندَ ابنِ عونٍ ، فذكروا بلالَ بنَ أبي بردةَ ، فجعلوا يلعنونَهُ ويقعونَ فيهِ ، وابنُ عونٍ ساكتٌ ، فقالوا : يا بنَ عونٍ ؛ إنَّما نذكرُهُ لما ارتكبَ منكَ ، فقالَ ابنُ عونٍ : إنَّما هما كلمتانِ تخرجانِ مِنْ صحيفتي يومَ القيامةِ ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، ولعنَ اللهُ فلاناً ، فلأنْ يخرجَ مِنْ صحيفتي لا إلـٰهَ إلا اللهُ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ يخرجَ منها لعنَ اللهُ فلاناً [١] .

وقالَ رجلٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أوصني ، قالَ : « أوصيكَ ألا تكونَ لعَّاناً » [٢] .

وقالَ ابنُ عمرَ : (إنَّ أبغضَ عبادِ اللهِ إلى اللهِ كلُّ طعَّانٍ لعَّانٍ) [٣] .

وقالَ بعضُهمْ : (لعنُ المؤمنِ كعدْلِ قتلِهِ) ، وقالَ حمادُ بنُ زيدٍ بعدَ أنْ روىٰ هـٰذا الحديثَ : (لوْ قلتُ : إنَّهُ مرفوعٌ . . لمْ أبالِ) [٤] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧٤٦) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥/٧٠) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٧٠) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٨٠) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٧١) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٧٢) .

وعنْ أبي قتادةَ قالَ : (كانَ يُقالُ : مَنْ لعنَ مؤمناً . . فهوَ مثلُ أنْ يقتلَهُ) [١] .

وقدْ نُقلَ ذٰلكَ حديثاً مرفوعاً إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ [٢] .

ويقربُ مِنَ اللَّعنِ الدعاءُ على الإنسانِ بالشرِّ ، حتَّى الدعاءُ على الظالمِ ؛ كقولِ الإنسانِ : (لا صحَّحَ اللهُ جسمَهُ ، ولا سلَّمَهُ اللهُ) ، وما يجري مجراهُ ، فكلُّ ذٰلكَ مذمومٌ .

وفي الخبرِ : « إنَّ المظلومَ ليدعو على الظالمِ حتَّىٰ يكافئَهُ ، ثمَّ يبقىٰ للظَّالمِ عندَهُ فضلةٌ يومَ القيامةِ » [٣] .

* * *

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٧٣) .

(٢) وهو ما رواه البخاري (٦٠٤٧) ، ومسلم (١١٠) من حديث ثابت بن الضحاك مرفوعاً : « ولعن المؤمن كقتله » .

(٣) ومعناه فيما رواه الترمذي (٣٥٥٢) عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « من دعا علىٰ مَن ظلمه فقد انتصر » .

الآفة التاسعة : الغناء والشعر

وقدْ ذكرنا في كتابِ السَّماعِ ما يحرُمُ مِنَ الغِناءِ وما يحلُّ ، فلا نُعيدُهُ .

وأمَّا الشِّعرُ : فكلامٌ حسنُهُ حسنٌ ، وقبيحُهُ قبيحٌ [١] ، إلَّا أنَّ التجرُّدَ لهُ مذمومٌ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأَنْ يمتلئَ جوفُ أحدِكُمْ قيحاً حتَّىٰ يَرِيَهُ . . خيرٌ لهُ مِنْ أنْ يمتلئَ شعراً » [٢] .

وعنْ مسروقٍ أنَّهُ سُئلَ عنْ بيتٍ مِنَ الشِّعرِ ، فكرهَهُ ، فقيلَ لهُ في ذٰلكَ ، فقالَ : أنا أكرَهُ أنْ يُوجدَ في صحيفتي شعرٌ [٣] .

وسُئلَ بعضُهمْ عنْ شيءٍ مِنَ الشعرِ ، فقالَ : اجعلْ مكانَ هٰذا ذكراً ؛ فإنَّ ذكرَ اللهِ خيرٌ مِنَ الشِّعرِ [٤] .

وعلى الجملةِ : فإنشادُ الشعرِ ونظمُهُ ليسَ بحرامٍ إذا لمْ يكنْ

---

(١) وقد روى البخاري في « الأدب المفرد » (٨٦٥) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً : « الشعر بمنزلة الكلام ، حسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام » .

(٢) رواه البخاري (٦١٥٥) ، ومسلم (٢٢٥٧) ، ويريه : هو من الوَرْي ، وهو داء يفسد الجوف ؛ أي : يأكل جوفه ويفسده .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٣٦) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٣٧) ، والمسؤول هو طلحة بن مصرف .

فيهِ كلامٌ يكرَهُ[1] ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مِنَ الشِّعرِ لحكمةً »[2] .

نعمْ ؛ مقصودُ الشِّعرِ : المدحُ ، والذَّمُّ ، والتَّشبيبُ ، وقد يدخلُهُ الكذبُ ، وقدْ أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حسَّانَ بنَ ثابتٍ الأنصاريَّ بهجاءِ الكفارِ[3] .

والتوسُّعُ في المدحِ وإنْ كانَ كذباً فإنَّهُ لا يلتحقُ في التحريمِ بالكذبِ ؛ كقولِ الشَّاعرِ[4] : [من الطويل]

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ لَجادَ بِها فَلْيَتَّقِ اللهَ سائِلُهْ

فإنَّ هٰذا عبارةٌ عنِ الوصفِ بنهايةِ السَّخاءِ ، فإنْ لمْ يكُنْ صاحبُهُ سخيّاً . . كانَ كاذباً ، وإنْ كانَ سخيّاً . . فالمبالغةُ مِنْ صنعةِ الشعرِ ،

---

(١) فقد روى الترمذي (٢٨٥٠) عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : (جالست النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من مئة مرة ، فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت ، فربما تبسم معهم) .

(٢) رواه البخاري (٦١٤٥) .

(٣) رواه البخاري (٣٢١٣) ، ومسلم (٢٤٨٦) ، وفيه قوله صلى الله عليه وسلم : « اهْجُهُمْ ـ أو هاجمهم ـ وجبريل معك » .

(٤) البيت متنازع في نسبته ، وهو في « الزهرة » (١٣٤/٢) لزياد الأعجم ، والبيت في « ديوانه » (ص ١١١) ، و« الأغاني » (٥٠٩٤/١٤) لعبد الله بن الزبير الأسدي ، والبيت في « ديوانه » (ص ١٢٢) ، و« التحف والأنواء » (ص ١٧٢) لدعبل الخزاعي ، والبيت في « ديوانه » (ص ٤٥٧) ، و« خاص الخاص » (ص ٩٦) لأبي تمام ، والبيت في « ديوانه » (٢٩/٣) ، و« وفيات الأعيان » لزينب بنت الطثرية ، وانظر « ديوان زهير » (ص ١١٣) في الهامش ينسب له ، و« شعر بكر بن النطاح » (ص ٣٤) .

ولا يُقصَدُ منهُ أنْ تُعتقدَ صورتُهُ ، وقدْ أُنشدَتْ أشعارٌ بينَ يدي رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، لوْ تُتُبِّعَتْ . . لوُجدَ فيها مثلُ ذٰلكَ ، ولمْ يمنعْ منهُ (١) .

قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يخصِفُ نعلَهُ ، وكنتُ جالسةً أغزِلُ ، قالَتْ : فنظرتُ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فجعلَ جبينُهُ يعرَقُ ، وجعلَ عَرَقُهُ يتولَّدُ نوراً ، قالَتْ : فبُهِتُّ ، فنظرَ إليَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « ما لَكِ بُهِتِّ ؟ » فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ نظرتُ إليكَ ، فجعلَ جبينُكَ يعرَقُ ، وجعلَ عرقُكَ يتولَّدُ نوراً ، فلوْ رآكَ أبو كبيرٍ الهذليُّ . . لعلمَ أنَّكَ أحقُّ بشعرِهِ ، قالَ : « وما يقولُ يا عائشةُ أبو كبيرٍ الهذليُّ ؟ » قلتُ : يقولُ هٰذينِ البيتينِ (٢) : [من الكامل]

وَمُبَرّأً مِنْ كلِّ غُبَّرِ حَيْضَةٍ ... وَفَسادِ مُرْضِعَةٍ وَدَاءٍ مُغْيِلِ (٣)

وَإذا نَظَرْتَ إلَىٰ أَسِرَّةِ وَجْهِهِ ... بَرَقَتْ كَبَرْقِ الْعارِضِ الْمُتَهَلِّلِ

قالَتْ : فوضعَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما كانَ في يدِهِ

---

(١) فمن ذٰلك إنشاد كعب بن زهير بين يديه قصيدته اللامية وفيها من التشبيب والمبالغات ما لا يخفىٰ ، ولم ينكر عليه ذٰلك . « إتحاف » (٧/٤٩٤) .

(٢) ديوان الهذليين (٢/٩٣) .

(٣) **الغُبَّر** : البقية ، **والمُغْيِل** : هو من الغيل ؛ اسم للبن الذي ترضعه المرأة وهي حامل ، فهو ينفي عنه أن تكون أمه قد حملته آخر الحيض أو وهي ترضع ، ولم ترضعه وهي حامل ، **والعارض** : السحاب ، **والمتهلل** : المترقرق .

وقامَ إليَّ ، فقبَّلَ ما بينَ عينيَّ وقالَ : « جزاكِ اللهُ يا عائشةُ خيراً ، ما سُرِرْتِ منِّي كسُروري منكِ »[(١)] .

ولمَّا قسَّمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ الغنائمَ يومَ حُنينٍ . . أمرَ للعباسِ بنِ مرداسٍ بأربعِ قلائصَ ، فاندفعَ يشكو في شعرٍ لَهُ ، وفي آخرِهِ[(٢)] : [من المتقارب]

وَمـا كـانَ بَـدْرٌ وَلَا حـابِـسٌ ... يَسُودانِ مِرْداسَ في الْمَجْمَعِ
وَما كُنْتُ دُونَ امْرِئٍ مِنْهُما ... وَمَنْ تَضَعِ الْيَوْمَ لا يُرْفَعِ

فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اقطعُوا عنِّي لسانَهُ » ، فذهبَ بهِ أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ حتَّى اختارَ مئةً مِنَ الإبلِ ، ثمَّ رجعَ وهوَ مِنْ أرضى الناسِ ، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أتقولُ فيَّ الشعرَ ؟ » ، فجعلَ يعتذرُ إليهِ ويقولُ : بأبي أنتَ وأمي ؛ إنِّي لأجدُ للشعرِ دبيباً علىٰ لساني مثلَ دبيبِ النملِ ، ثمَّ يقرُصُني كما يقرُصُ النملُ ، فلا أجدُ بدّاً مِنْ قولِ الشعرِ ، فتبسَّمَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : « لا تدعُ العربُ الشِّعرَ حتَّىٰ تدعَ الإبلُ الحنينَ »[(٣)] .

❊ ❊ ❊

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٤٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ٤٢٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣/ ٣٠٧) .
(٢) ديوانه (ص ١١٢) .
(٣) رواه مسلم (١٠٦٠) ، وانظر « الإتحاف » (٧/ ٤٩٥) .

الآفة العاشرة : المزاح

وأصلُهُ مذمومٌ منهيٌّ عنهُ ، إلا قدراً يسيراً يُستثنىٰ منهُ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تمارِ أخاكَ ولا تمازِحْهُ »[1] .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : المماراةُ فيها إيذاءٌ ؛ لأنَّ فيها تكذيباً للأخِ والصديقِ ، أوْ تجهيلاً لهُ ، أمَّا المِزاحُ . . فمطايبةٌ ، وفيهِ انبساطٌ وطيبةُ قلبٍ ، فلِمَ يُنهىٰ عنهُ ؟

فاعلمْ : أنَّ المنهيَّ عنهُ الإفراطُ فيهِ ، أوِ المداومةُ عليهِ .

أمَّا المداومةُ . . فلأنَّهُ اشتغالٌ باللعبِ والهزلِ ، واللعبُ مباحٌ ، ولٰكنَّ المواظبةَ عليهِ مذمومةٌ .

وأمَّا الإفراطُ فيهِ . . فإنَّهُ يورثُ كثرةَ الضحكِ ، وكثرةُ الضحكِ تميتُ القلبَ[2] ، وتورثُ الضغينةَ في بعضِ الأحوالِ ، وتسقطُ

---

(١) رواه الترمذي (١٩٩٥) .

(٢) إذ روى الترمذي (٢٣٠٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يأخذ عني هٰؤلاء الكلمات فيعمل بهنَّ أو يعلِّم من يعمل بهنَّ ؟ » فقال أبو هريرة : فقلت : أنا يا رسول الله ، فأخذ بيدي فعدَّ خمساً وقال : « اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلىٰ جارك تكن مؤمناً ، وأحبَّ للناس ما تحبُّ لنفسك تكن مسلماً ، ولا تكثر الضحك ؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب » .

المهابةَ والوقارَ ، فما يخلو عنْ هٰذهِ الأمورِ . . فلا يذمُّ ، كما رُويَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنِّي لأمزحُ ، ولا أقولُ إلَّا حقاً »(١) ، إلَّا أنَّ مثلَهُ يقدرُ علىٰ أن يمزحَ ولا يقولَ إلا حقّاً ، وأمَّا غيرُهُ إذا فُتحَ بابُ المِزاحِ . . كانَ غرضُهُ أنْ يضحكَ الناسَ كيفما كانَ ، وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرَّجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ يُضحِكُ بها جلساءَهُ يهوي بها في النارِ أبعدَ من الثُّريَّا »(٢) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ كثُرَ ضحكُهُ . . قلَّتْ هيبتُهُ ، ومَنْ مَزَحَ . . استُخِفَّ بهِ ، ومَنْ أكثرَ مِنْ شيءٍ . . عُرِفَ بهِ ، ومَنْ كثُرَ كلامُهُ . . كثُرَ سَقَطُهُ ، ومَنْ كثُرَ سَقَطُهُ . . قلَّ حياؤُهُ ، ومَنْ قلَّ حياؤُهُ . . قلَّ ورعُهُ ، ومَنْ قَلَّ ورَعُهُ . . ماتَ قلبُهُ)(٣) .

ولأنَّ الضحكَ يدلُّ على الغفلةِ عنِ الآخرةِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ تعلمونَ ما أعلمُ . . لضحكْتُمْ قليلاً ، ولبكيتُمْ كثيراً »(٤) .

وقالَ رجلٌ لأخيهِ : يا أخي ؛ هلْ أتاكَ أنَّكَ واردٌ النارَ ؟ قالَ : نعمْ ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٠٠) ، ورواه الترمذي (١٩٩٠) ، وأحمد في « المسند » (٢/٣٤٠) بنحوه .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٤٨) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧١) ، وعند البخاري (٦٤٧٧) ، ومسلم (٢٩٨٨) من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « إن العبد ليتكلم بالكلمة ينزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب » .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٢٨٠) .

(٤) رواه البخاري (١٠٤٤) ، ومسلم (٩٠١) .

قالَ : فهلْ أتاكَ أنَّكَ خارجٌ منها ؟ قالَ : لا ، قالَ : ففيمَ الضحكُ ؟! قيلَ : فما رُئِيَ ضاحكاً حتَّىٰ ماتَ [١] .

وقالَ يوسفُ بنُ أسباطٍ : (أقامَ الحسنُ ثلاثينَ سنةً لمْ يضحكْ) [٢] .

وقيلَ : أقامَ عطاءٌ السَّلِيميُّ لمْ يضحكْ أربعينَ سنةً [٣] .

ونظرَ وهيبُ بنُ الوردِ إلىٰ قومٍ يضحكونَ في عيدِ فطرٍ ، فقالَ : إنْ كانَ هٰؤلاءِ قدْ غُفرَ لهمْ . . فما هٰذا فعلَ الشاكرينَ ، وإنْ كانَ لمْ يُغفرْ لهمْ . . فما هٰذا فعلَ الخائفينَ [٤] .

وكانَ عبدُ اللهِ بنُ أبي يعلىٰ يقولُ : (أتضحكُ ولعلَّ أكفانَكَ قدْ خرجَتْ مِنْ عندِ القصَّارِ ؟!) [٥] .

وقالَ ابنُ عباسٍ : (مَنْ أذنبَ ذنباً وهوَ يضحكُ . . دخلَ النارَ وهوَ يبكي) [٦] .

وقالَ محمدُ بنُ واسعٍ : إذا رأيتَ في الجنةِ رجلاً يبكي . . ألسْتَ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣١١) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/٢٤٠) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٢١) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الشكر » (ص ١٥) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٨٥) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٩٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٤٦) ، كلهم عن عبد الله بن ثعلبة الحنفي ، واتفقت النسخ علىٰ ما أثبت .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/٩٦) من حديثه مرفوعاً .

تعجبُ مِنْ بكائِهِ ؟ قيلَ : بلىٰ ، قالَ : فالذي يضحكُ في الدنيا ولا يدري إلىٰ ماذا يصيرُ هوَ أعجبُ منهُ [(١)] .

فهٰذهِ آفةُ الضحكِ ، **والمذمومُ** منهُ : أنْ يستغرقَ ضحكاً ، **والمحمودُ** منهُ : التبسُّمُ الذي ينكشفُ فيه السِّنُ ، ولا يُسمَعُ لهُ صوتٌ ، وكذٰلكَ كانَ ضحكُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ [(٢)] .

وقالَ القاسمُ مولىٰ معاويةَ : أقبلَ أعرابيٌّ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ قَلُوصٍ لهُ صعبٍ ، فسلَّمَ ، فجعلَ كلَّما دنا إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ليسأَلَهُ . . يفرُّ بهِ ، فجعلَ أصحابُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يضحكونَ منهُ ، ففعلَ ذٰلكَ ثلاثَ مراتٍ ، ثم وَقَصَهُ فقتلَهُ ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ الأعرابيَّ قدْ صرعَهُ قلوصُهُ ، فهلكَ ، فقالَ : « نعمْ ، وأفواهُكُمْ ملأىٰ مِنْ دمِهِ » [(٣)] .

وأمَّا أداءُ المِزاحِ إلىٰ سُقوطِ الوقارِ . . فقدْ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ مَزَحَ . . استُخفَّ بهِ) [(٤)] .

وقالَ محمدُ بنُ المنكدرِ : قالَتْ لي أمِّي : (يا بنيَّ ؛ لا تمازحِ الصبيانَ فتهونَ عليهِمْ) [(٥)] .

---

(١) كذا حكاه عن محمد بن واسع ابنُ الجوزي في « المدهش » (١/٣٥٦) .
(٢) روىٰ ذٰلك البخاري (٤٨٢٩) ، ومسلم (١٦/٨٩٩) .
(٣) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن المبارك في « الزهد والرقائق » وهو مرسل) . « إتحاف » (٧/٤٩٨) .
(٤) هو جزء من خبر رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٢٨٠) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٩٣) .

وقالَ سعيدُ بنُ العاصِ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ لا تمازحِ الشريفَ فيحقِدَ عليكَ ، ولا الدنيءَ فيجترئَ عليكَ)[١] .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ تعالى : (اتقوا اللهَ ، وإياكُمْ والمِزاحةَ ؛ فإنَّها تُورثُ الضغينةَ ، وتجرُّ إلى القبيحِ ، تحدَّثوا بالقرآنِ ، وتجالسُوا بهِ ، فإنْ ثَقُلَ عليكُمْ . . فحديثٌ حسنٌ مِنْ حديثِ الرجالِ)[٢] .

وقالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ : أتدرونَ لِمَ سُمِّيَ المِزاحُ مزاحاً ؟ قالُوا : لا ، قالَ : لأنَّهُ زاحَ عنِ الحقِّ[٣] .

وقيلَ : لكلِّ شيءٍ بَذْرٌ ، وبَذْرُ العداوةِ المِزاحُ[٤] .

ويُقالُ : المِزاحُ مَسْلَبةٌ للنُّهىٰ ، مَقْطَعةٌ للأصدقاءِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فقدْ نُقِلَ المِزاحُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابِهِ ، فكيفَ يُنهىٰ عنهُ ؟

فأقولُ : إنْ قدَرتَ علىٰ ما قَدَرَ عليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابُهُ ، وهوَ أنْ تمزحَ ولا تقولَ إلا حقّاً ، ولا تؤذيَ قلباً ، ولا تفْرِطَ فيهِ ، وتقتصرَ علىٰ ذٰلكَ أحياناً وعلى الندورِ . . فلا حرجَ عليكَ فيهِ ، ولٰكنْ مِنَ الغلطِ العظيمِ أنْ يتَّخِذَ الإنسانُ المِزاحَ حرفةً ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٩٨) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٩٧) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٩٩) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٠١) ، نقله خالد بن صفوان .

ويواظبَ عليهِ ، ويفرطَ فيهِ ، ثمَّ يتمسَّكُ بفعلِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فهوَ كمَنْ يدورُ نهارَهُ أبداً معَ الزنوجِ ينظرُ إليهِمْ وإلىٰ رقصِهِمْ ويتمسَّكُ بأنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أذِنَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها في النظرِ إلىٰ رقصِ الزنوجِ في يومِ عيدٍ [١] ، وهوَ خطأٌ ؛ إذْ مِنَ الصغائرِ ما يصيرُ كبيرةً بالإصرارِ ، ومِنَ المباحاتِ ما يصيرُ صغيرةً بالإصرارِ ، فلا ينبغي أنْ تغْفُلَ عنْ هٰذا .

نعمْ ؛ روىٰ أبو هريرةَ أنَّهمْ قالُوا : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّكَ تداعبُنا ، قالَ : « إنِّي وإنْ داعبتُكُمْ فلا أقولُ إلا حقّاً » [٢] .

وقالَ عطاءٌ : إنَّ رجلاً سألَ ابنَ عباسٍ : أكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يمزحُ ؟ فقالَ ابنُ عباسٍ : نعمْ ، فقالَ الرجلُ : فما كانَ مِزاحُهُ ؟ فقالَ ابنُ عباسٍ : إنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كسا ذاتَ يومٍ امرأةً مِنْ نسائِهِ ثوباً واسعاً ، فقالَ لها : « البسيهِ واحمدِي ، وجرِّي منهُ ذيلاً كذيلِ العروسِ » [٣] .

وقالَ أنسٌ : (إنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ مِنْ أفكَهِ النَّاسِ معَ نسائِهِ) [٤] .

---

(١) إذنه للسيدة عائشة رضي الله عنها بالنظر إلىٰ رقص الزنوج رواه البخاري (٩٥٠) ، ومسلم (٨٩٢) .

(٢) رواه الترمذي (١٩٩٠) .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١/٤) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٦٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٧/٤) .

ورُويَ أنَّهُ كانَ كثيرَ التَّبسُّمِ [١] .

وعنِ الحسنِ قالَ : أتتْ عجوزٌ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ لها صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يدخلُ الجنَّةَ عجوزٌ » ، فبكَتْ ، فقالَ : « إنَّكِ لسْتِ بعجوزٍ يومئذٍ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ۝ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴾ » [٢] .

وروىٰ زيدُ بنُ أسلمَ : أنَّ امرأةً يُقالُ لها : أمُّ أيمنَ جاءَتْ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَتْ : إنَّ زوجي يدعوكَ ، قالَ : « ومَنْ هوَ ؟ أهوَ الذي بعينِهِ بياضٌ ؟ » فقالَتْ : واللهِ ؛ ما بعينِهِ بياضٌ !! فقالَ : « بلىٰ ، إنَّ بعينِهِ بياضاً » ، فقالَتْ : لا واللهِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ أحدٍ إلَّا وبعينِهِ بياضٌ » [٣] ، وأرادَ بهِ : البياضَ المحيطَ بالحدقةِ .

وجاءَتْهُ امرأةٌ أخرىٰ فقالَتْ : يا رسولَ اللهِ ؛ احملْني علىٰ بعيرٍ ، فقالَ : « بلْ نحملُكِ على ابنِ البعيرِ » ، فقالَتْ : ما أصنعُ بهِ ؟ إنَّهُ لا يحملُني ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ بعيرٍ إلا وهوَ ابنُ بعيرٍ » [٤] ، فكانَ يمزحُ بهِ .

---

(١) فقد روى الترمذي (٣٦٤١) عن عبد الله بن الحارث بن جزء رضي الله عنه قال : (ما رأيت أحداً أكثر تبسُّماً من رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

(٢) سورة الواقعة : (٣٥ ـ ٣٦) ، والحديث رواه الترمذي في « الشمائل » (٢٤٠) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (رواه الزبير بن بكار في كتاب « الفكاهة والمزاح » ، ورواه ابن أبي الدنيا من حديث عبد الله بن سهم الفهري مع اختلاف) . « إتحاف » (٧/ ٥٠٠) .

(٤) رواه أبو داوود (٤٩٩٨) ، والترمذي (١٩٩١) ، وفيه : « إنا حاملوك علىٰ ولد ناقة » .

وقالَ أنسٌ : كانَ لأبي طلحةَ ابنٌ يُقالُ لهُ : أبو عُميرٍ ، وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يأتيهِمْ فيقولُ : « يا أبا عُميرٍ ؛ ما فعلَ النُّغيرُ ؟ » لنُغيرٍ كانَ يلعبُ بهِ [1] ، وهوَ فرخُ العصفورِ .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : خرجْنا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في غزوةِ بدرٍ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تعالَي حتَّىٰ أسابقَكِ » ، فشدَدتُ دِرعي علىٰ بطني ، ثمَّ خططنا خطاً ، فقُمنا عليهِ فاستبقنا فسبقَني ، فقالَ : « هٰذهِ مكانَ ذي المجازِ » ، وذٰلكَ أنَّهُ جاءَ يوماً ونحنُ بذي المجازِ وأنا جاريةٌ قدْ بعثَني أبي بشيءٍ ، فقالَ : « أعطينِيهِ » ، فأبيتُ وسعيتُ ، فسعىٰ علىٰ أثري ، فلمْ يدركْني [2] .

وقالَتْ أيضاً : سابقَني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فسبقتُهُ ، فلمَّا حملتُ اللحمَ . . سابقَني فسبقَني وقالَ : « هٰذهِ بتلكِ » [3] .

وقالَتْ أيضاً رضيَ اللهُ عنها : كانَ عندِي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وسودةُ بنتُ زمعةَ ، فصنعْتُ حريرةً وجئتُ بهِ ، فقلْتُ لسودةَ : كُلي ، فقالَتْ : لا أحبُّهُ ، فقلْتُ : واللهِ لتأكلِنَّ أوْ لألطِّخَنَّ بهِ وجهَكِ ، فقالَتْ : ما أنا بذائقتِهِ ، فأخذْتُ بيدي منَ الصَّحْفةِ شيئاً

---

(١) رواه البخاري (٦١٢٩) ، ومسلم (٢١٥٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « العيال » (٥٦٠) ، و« مداراة الناس » (١٥٦) ، والطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (١٨٨١) .

(٣) رواه أبو داوود (٢٥٧٨) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٨٩٤) ، وابن ماجه (١٩٧٩) .

فلطَّخْتُ بهِ وجهَها ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جالسٌ بيني وبينَها ، فخفضَ لها رسولُ اللهِ ركبتيهِ لتستقيدَ منِّي ، فتناولَتْ مِنَ الصَّحفَةِ شيئاً فمسحَتْ بهِ وجهي ، وجعلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يضحكُ [1] .

ورُوِيَ أنَّ الضحاكَ بنَ سفيانَ الكلابيَّ كانَ رجلاً دميماً قبيحاً ، فلما بايعَهُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . قالَ : إنَّ عندي امرأتينِ أحسنُ مِنْ هٰذهِ الحميراءِ ، أفلا أنزلُ لكَ عنْ إحداهما فتتزوَّجَها ؟ وعائشةُ جالسةٌ تسمعُ قبلَ أنْ يُضربَ الحجابُ ، فقالَتْ : أهيَ أحسنُ أمْ أنتَ ؟ فقالَ : بلْ أنا أحسنُ منها وأكرمُ ، فضحكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ سؤالِها إيَّاهُ ؛ لأنَّهُ كانَ دَميماً [2] .

وروىٰ علقمةُ عنْ أبي سلمةَ أنَّه كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُدلِعُ لسانَهُ للحسينِ بنِ عليٍّ فيرى الصبيُّ لسانَهُ ، فيهشُّ لهُ ، فقالَ لهُ عيينةُ بنُ بدرٍ الفزاريُّ : واللهِ ؛ ليكونُ ليَ الابنُ قدْ خرجَ وجهُهُ وما قَبَّلْتُهُ قطُّ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرحَمُ » [3] .

---

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٨٦٨) .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه الزبير بن بكار في كتاب « الفكاهة والمزاح » من رواية عبد الله بن حسن بن حسن مرسلاً أو معضلاً ، وللدارقطني نحو هٰذه القصة مع عيينة بن حصن الفزاري بعد نزول الحجاب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف) . « إتحاف » (٥٠١/٧) ، وحديث عيينة قد رواه البزار في « مسنده » (٨٧٦١) .

(٣) رواه هناد في « الزهد » (١٣٣٠) من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمٰن بن عوف ←

فأكثرُ هـٰذهِ المطايباتِ منقولةٌ معَ النّساءِ والصّبيانِ ، وكانَ ذٰلكَ منهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ معالجةً لضعفِ قلوبِهِمْ ، مِنْ غيرِ ميلٍ إلىٰ هزْلٍ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرةً لصُهيبٍ وبهِ رمدٌ وهوَ يأكلُ تمراً : « أتأكلُ التَّمرَ وأنتَ رَمِدٌ ؟! » فقالَ : إنَّما آكلُ بالشِّقِّ الآخرِ يا رسولَ اللهِ ، فتبسَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ بعضُ الرُّواةِ : حتَّىٰ نظرتُ إلىٰ نواجذِهِ[1] .

ورُويَ أنَّ خوَّاتَ بنَ جبيرٍ الأنصاريَّ كانَ جالساً إلىٰ نسوةٍ مِنْ بني كعبٍ بطريقِ مكَّةَ[2] ، فطلعَ عليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « يا أبا عبدِ اللهِ ؛ ما لك معَ النّسوةِ ؟! » فقالَ : يفْتِلْنَ ضفيراً لجملٍ لي شَرُودٍ ، قالَ : فمضَىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لحاجتِهِ ، ثمَّ عادَ فقالَ لهُ : « يا أبا عبدِ اللهِ ؛ أما تركَ ذٰلكَ الجملُ الشِّرادَ بعدُ ؟ » قالَ : فسكتُّ واستحييتُ ، وكنتُ بعدَ ذٰلكَ أنفردُ منهُ كلَّما رأيتُهُ حياءً منهُ ، حتَّىٰ قدمتُ المدينةَ ، وبعدَما قدِمتُ المدينةَ قالَ : فرآني في المسجدِ يوماً أُصلي ، فجلسَ إليَّ ، فطوَّلْتُ ، فقالَ : « لا تطوِّلْ ؛ فإنِّي أنتظرُكَ » ، فلمَّا سلَّمتُ . . قالَ : « يا أبا عبدِ اللهِ ؛

← عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٥٩٦) من حديثه عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، ويدلع لسانه : يخرجه له ، وخرج وجهه : نبتت لحيته .

(١) رواه ابن ماجه (٣٤٤٣) .

(٢) في (أ) : (قريش) بدل (بني كعب) .

أما تركَ ذٰلكَ الجملُ الشِّرادَ بعدُ ؟ » ، قال : فسكتُّ واستحييتُ ، فقامَ وكنتُ بعدَ ذٰلكَ أنفردُ منهُ ، حتَّىٰ لحقَني يوماً وهوَ علىٰ حمارٍ ، وقدْ جعلَ رجليهِ مِنْ شقٍّ واحدٍ ، فقالَ : « أبا عبدِ اللهِ ؛ أما تركَ ذٰلكَ الجملُ الشِّرادَ بعدُ ؟ » ، فقلتُ : والذي بعثَكَ بالحقِّ ؛ ما شَرَدَ منذُ أسلمْتُ ، فقالَ : « اللهُ أكبرُ ، اللهُ أكبرُ ، اللهمَّ ؛ اهدِ أبا عبدِ اللهِ » ، قالَ : فحسُنَ إسلامُهُ وهداهُ اللهُ تعالىٰ [١] .

وكانَ نعيمانُ الأنصاريُّ رجلاً مَزَّاحاً ، وكانَ يشربُ ، فيُؤتىٰ بهِ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فيضربُهُ بنعلِهِ ويأمرُ أصحابَهُ فيضربونَهُ بنعالِهِمْ ، فلَّما كثُرَ ذٰلكَ منهُ . . قالَ لهُ رجلٌ مِنْ أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : لعنكَ اللهُ ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تفعلْ ؛ فإنَّهُ يحبُّ اللهَ ورسولَهُ » [٢] ، وكانَ لا يدخلُ المدينةَ رَسَلٌ ولا طُرْفةٌ إلا اشترىٰ منها ، ثمَّ جاءَ بهِ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فيقولُ : يا رسولَ اللهِ ؛ هٰذا قدِ اشتريتُهُ وأهديتُهُ لكَ ، فإذا جاءَ صاحبُهُ يطلبُ نعيمانَ بثمنِهِ . . جاءَ بهِ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أعطِهِ ثمنَ متاعِهِ ، فيقولُ لهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوَلَمْ تهدِهِ لنا ؟ » فيقولُ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّهُ واللهِ لمْ يكُنْ عندِي ثمنُهُ وأحببتُ

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٤/٢٠٣) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٩٧٧/٢) بنحوه ، وفي جميع النسخ عدا (ج) : (أتقزز) بدل (أنفرد) ، والقزازة : الحياء .

(٢) رواه البخاري (٦٣١٦) .

أنْ تأكُلَهُ ، فيضحكُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ويأمرُ لصاحبِهِ بثمنِهِ (١) .

فهٰذهِ مطايباتٌ يباحُ مثلُها على الندورِ ، لا على الدوامِ ، والمواظبةُ عليها هزْلٌ مذمومٌ ، وسببٌ للضحكِ المُميتِ للقلبِ .

* * *

(١) هو تتمة الخبر السابق ، **والرّسَل** : ذوات اللبن .

الآفة الحادية عشرة : السخرية والاستهزاء

وهٰذا محرَّمٌ مهما كانَ مؤذياً ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ ﴾ (١) .

ومعنى **السخريةِ** : الاستحقارُ والاستهانةُ والتنبيهُ على العيوبِ والنقائصِ علىٰ وجهٍ يُضْحكُ منهُ ، وقدْ يكونُ ذٰلكَ بالمحاكاةِ في الفعلِ والقولِ ، وقدْ يكونُ بالإشارةِ والإيماءِ .

وإذا كانَ بحضرةِ المستهزأِ بهِ . . لمْ يُسمَّ ذٰلكَ غيبةً ، وفيهِ معنى الغيبةِ .

قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : حكيتُ إنساناً ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أحبُّ أنِّي حكيتُ إنساناً وأنَّ لي كذا وكذا » (٢) .

وقالَ ابنُ عباسٍ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا ﴾ (٣) : (الصغيرةُ : التبسُّمُ بالاستهزاءِ بالمؤمنِ ، والكبيرةُ : القهقهةُ بذٰلكَ) (٤) ، وهوَ إشارةٌ إلىٰ

---

(١) سورة الحجرات : (١١) .

(٢) رواه أبو داوود (٤٨٧٥) ، والترمذي (٢٥٠٢) ، وقوله : (**حكيت إنساناً**) أي : قلدتُ .

(٣) سورة الكهف : (٤٩) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٩٢) .

أنَّ الضَّحكَ على الناسِ مِنْ جملةِ الذنوبِ والكبائرِ .

وعنْ عبدِ اللهِ بنِ زمعةَ : أنَّهُ سمعَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ يخطبُ ، فوعظَهُمْ في ضحكِهِمْ مِنَ الضَّرطةِ ، وقالَ : « علامَ يضحكُ أحدُكُمْ ممَّا يفعلُ ؟! » [١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ المستهزئينَ بالنَّاسِ يُفتحُ لأحدِهِمْ بابٌ مِنَ الجنَّةِ ، فيُقالُ : هلمَّ هلمَّ ، فيجيءُ بكرْبِهِ وغمِّهِ ، فإذا جاءَ . . أُغلقَ دونَهُ ، ثمَّ يُفتحُ لهُ بابٌ آخرُ ، فيُقالُ لهُ : هلمَّ هلمَّ ، فيجيءُ بكرْبِهِ وغمِّهِ ، فإذا أتاهُ . . أُغلقَ دونَهُ ، فما يزالُ كذٰلكَ حتَّىٰ إنَّ الرَّجلَ ليُفتحُ لهُ البابُ فيُقالُ لهُ : هلمَّ هلمَّ فما يأتيهِ » [٢] .

وقالَ معاذُ بنُ جبلٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عيَّرَ أخاهُ بذنبٍ قدْ تابَ منهُ . . لمْ يمُتْ حتَّىٰ يعملَهُ » [٣] .

وكلُّ هٰذا يرجعُ إلى استحقارِ الغيرِ والضحكِ عليهِ استهانةً بهِ واستصغاراً لهُ ، وعليهِ نبَّهَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ [٤] أيْ : لِمَ تسخرُ بهِ استصغاراً ولعلَّهُ خيرٌ منكَ ؟!

وهٰذا إنَّما يحرمُ في حقِّ مَنْ يتأذَّىٰ بهِ .

---

(١) رواه البخاري (٤٩٤٢) ، ومسلم (٢٨٥٥) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٨٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٣٣٣) من حديث الحسن مرسلاً .

(٣) رواه الترمذي (٢٥٠٥) ، وزيادة : (قد تاب منه) نقلها شيخه أحمد بن منيع .

(٤) سورة الحجرات : (١١) .

فأمَّا مَنْ جعلَ نفسَهُ مَسْخَرةً ، وربَّما فَرِحَ بأنْ يُسخَرَ بهِ . . كانَتِ السخريةُ في حقِّهِ مِنْ جملةِ المزحِ ، وقدْ سبقَ ما يذمُّ منهُ وما يمدحُ .

وإنَّما المحرَّمُ : استصغارٌ يتأذَّىٰ بهِ المستهزَأُ بهِ ؛ لما فيهِ مِنَ التحقيرِ والتهاونِ ، وذٰلكَ تارةً يجري بأنْ يضحكَ علىٰ كلامِهِ إذا تخبَّطَ فيهِ ولمْ ينتظِمْ ، أوْ علىٰ أفعالِهِ إذا كانَتْ مشوَّشةً ؛ كالضَّحكِ علىٰ خطِّهِ ، وعلىٰ صنعتِهِ ، أوْ علىٰ صورتِهِ وخِلْقتِهِ إذا كانَ قصيراً أوْ ناقصاً لعيبٍ منَ العيوبِ ، فالضحكُ منْ جميعِ ذٰلكَ داخلٌ في السخريةِ المنهيِّ عنها .

* * *

الآفة الثّانية عشرة : إفشاء السّرّ

وهوَ منهيٌّ عنهُ ؛ لما فيهِ مِنَ الإيذاءِ ، والتهاونِ بحقِّ المعارفِ والأصدقاءِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا حدَّثَ الرَّجلُ الحديثَ ثمَّ الْتفتَ . . فهيَ أمانةٌ »[1] .

وقالَ مطلقاً : « الحديثُ بينَكُمْ أمانةٌ »[2] .

وقالَ الحسنُ : (إنَّ مِنَ الخيانةِ أنْ تحدِّثَ بسرِّ أخيكَ)[3] .

ويُروىٰ أنَّ معاويةَ رضيَ اللهُ عنهُ أسرَّ إلى الوليدِ بنِ عُتبةَ حديثاً ، فقالَ لأبيهِ : يا أبتِ ؛ إنَّ أميرَ المؤمنينَ أسرَّ إليَّ حديثاً ، وما أراهُ يطوي عنكَ ما بسطَهُ إلىٰ غيرِكَ .

قالَ : فلا تحدِّثْني بهِ ؛ فإنَّ مَنْ كتمَ سرَّهُ . . كانَ الخيارُ لهُ ، ومَنْ أفشاهُ . . كانَ الخيارُ عليهِ ، قالَ : فقلتُ : يا أبتِ ؛ وإنَّ هٰذا ليدخلُ بينَ الرجلِ وبينَ أبيهِ ؟ فقالَ : لا واللهِ يا بنيَّ ، ولٰكنْ أحبُّ ألَّا تذلِّلَ لسانَكَ بأحاديثِ السِّرِّ ، قالَ : فأتيتُ معاويةَ فحدَّثتُهُ ، فقالَ : يا وليدُ ؛ أعتقَكَ أخي مِنْ رقِّ الخطأِ[4] .

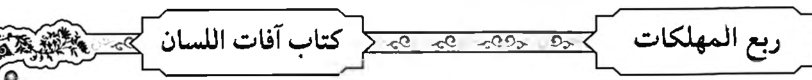
---

(١) رواه أبو داوود (٤٨٦٨) ، والترمذي (١٩٥٩) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٠٣) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٠٤) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤١٠) .



فإفشاءُ السِّرِّ خيانةٌ ، وهوَ حرامٌ إذا كانَ فيهِ إضرارٌ ، ولؤمٌ إنْ لمْ يكُنْ فيهِ إضرارٌ ، وقدْ ذكرنا ما يتعلَّقُ بكتمانِ السِّرِّ في كتابِ آدابِ الصحبةِ ، فلا نعيدُهُ .

❋ ❋ ❋

الآفة الثالثة عشرة : الوعد الكاذب

فإنَّ اللِّسانَ سبَّاقٌ إلى الوعدِ ، ثمَّ النفسُ ربَّما لا تسمحُ بالوفاءِ ، فيصيرُ الوعدُ خُلْفاً ، وذٰلكَ مِنْ أماراتِ النِّفاقِ .

وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ (١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العِدةُ عطيَّةٌ » (٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الوَأْيُ مثلُ الدَّينِ أوْ أفضلُ » (٣) ، **والوَأْيُ** : الوعدُ .

وقدْ أثنى اللهُ تعالىٰ علىٰ نبيِّهِ إسماعيلَ عليهِ السَّلامُ في كتابهِ العزيزِ فقالَ : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ (٤) .

فيُقالُ : إنَّهُ واعدَ إنساناً في موضعٍ فلمْ يرجعْ إليهِ ذٰلكَ الإنسانُ بلْ نسيَ ، فبقيَ إسماعيلُ اثنينِ وعشرينَ يوماً في انتظارِهِ (٥) .

ولمَّا حضرَتْ عبدَ اللهِ بنَ عمرٍو الوفاةُ . . قالَ : (إنَّهُ كانَ خطبَ إليَّ ابنتي رجلٌ مِنْ قريشٍ ، وقد كانَ منِّي إليهِ شبهُ الوعدِ ، فواللهِ ؛ لا

---

(١) سورة المائدة : (١) .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٧٧٣) ، وقد رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٥٦) عن الحسن مرسلاً .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٥٧) عن ابن لهيعة مرسلاً .

(٤) سورة مريم : (٥٤) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٦١) عن يزيد الرقاشي قاله .

أَلقى اللَّهَ بثلُثِ النفاقِ ، اشهدُوا أني قدْ زوَّجتُهُ ابنتي) [١] .

وعنْ عبدِ اللَّهِ بنِ أبي الحَمْساءِ قالَ : بايعتُ النبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قبلَ أنْ يبعثَ ، فبقيَتْ لهُ بقيةٌ ، فوعدتُهُ أنْ آتيَهُ بها في مكانِهِ ذٰلكَ ، فنسيتُ يومي والغدَ ، فأتيتُهُ في اليومِ الثالثِ وهوَ في مكانِهِ ، فقالَ : « يا فتىٰ ؛ قدْ شقَقتَ عليَّ ، أنا هٰهُنا منذ ثلاثٍ أنتظرُكَ » [٢] .

وقيلَ لإبراهيمَ : الرجلُ يواعدُ الرجلَ الميعادَ فلا يجيءُ ، قالَ : ينتظرُهُ ما بينَهُ وبينَ أنْ يدخلَ وقتُ الصلاةِ التي تجيءُ [٣] .

وكانَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ إذا وعدَ وعداً . . قالَ : « عسىٰ » [٤] .

وكانَ ابنُ مسعودٍ لا يعِدُ وعداً إلَّا ويقولُ : (إنْ شاءَ اللَّهُ) [٥] ، وهوَ الأولىٰ .

ثمَّ إذا فُهِمَ معَ ذٰلكَ الجزمُ في الوعدِ . . فلا بدَّ مِنَ الوفاءِ ، إلا أنْ يتعذَّرَ ، فإنْ كانَ عندَ الوعدِ عازماً علىٰ ألَّا يفيَ بهِ . . فهٰذا هوَ النفاقُ ، قالَ أبو هريرةَ : قالَ النبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مَنْ كنَّ فيهِ . . فهوَ منافقٌ وإنْ صامَ وصلَّىٰ وزعمَ أنَّهُ مسلمٌ ؛ إذا حدَّثَ . .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٥٩) .

(٢) رواه أبو داوود (٤٩٩٦) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٦٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٦٣) .

(٤) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٧/٥٠٧) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٦٧) عن أبي إسحاق قال : كان أصحاب عبد الله رضي الله عنه يقولون : إذا وعد فقال : (إن شاء الله) . . لم يخلف .

كذبَ ، وإذا وعدَ . . أخلفَ ، وإذا اؤتُمِنَ . . خانَ »[١] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو رضيَ اللهُ عنهُما : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أربعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ . . كانَ منافقاً ، ومَنْ كانَتْ فيهِ خلةٌ منهنَّ . . كانَتْ فيهِ خلةٌ مِنَ النِّفاقِ حتَّىٰ يدعَها ؛ إذا حدَّثَ . . كذَبَ ، وإذا وعدَ . . أخلفَ ، وإذا عاهَدَ . . غدرَ ، وإذا خاصَمَ . . فجَرَ »[٢] .

وهٰذا ينزَّلُ علىٰ مَنْ وَعَدَ وهوَ علىٰ عزمِ الخُلْفِ ، أوْ تركَ الوفاءَ مِنْ غيرِ عذرٍ ، فأما مَنْ عزَمَ على الوفاءِ . . فعَنَّ لهُ عذرٌ منعَهُ مِنَ الوفاءِ . . لمْ يكنْ منافقاً ، وإنْ جرىٰ عليهِ ما هوَ صورةُ النِّفاقِ .

ولٰكنْ ينبغي أنْ يحترزَ مِنْ صورةِ النِّفاقِ أيضاً كما يحترزُ مِنْ حقيقتِهِ ، ولا ينبغي أنْ يجعلَ نفسَهُ معذوراً مِنْ غيرِ ضرورةٍ حافزةٍ ؛ فقدْ رُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ وعدَ أبا الهيثمِ بنَ التَّيِّهانِ خادماً ، فأُتِيَ بثلاثةٍ مِنَ السبيِ ، فأعطى اثنينِ وبقيَ واحدٌ ، فجاءَتْ فاطمةُ بنتُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تطلُبُ منهُ خادماً وهيَ تقولُ : ألا ترىٰ أثرَ الرَّحىٰ يا رسولَ اللهِ في يدي ، فذكَرَ موعدَهُ لأبي الهيثمِ ، فجعلَ يقولُ : « كيفَ بموعدي لأبي الهيثمِ ؟ » فآثرَهُ بهِ علىٰ فاطمةَ ؛ لما سبقَ مِنْ موعدِهِ لهُ ، معَ أنَّها كانَتْ تديرُ الرحىٰ بيدِها الضعيفةِ[٣] .

---

(١) رواه البخاري (٣٣) ، ومسلم (٥٩) بنحوه .

(٢) رواه البخاري (٣٤) ، ومسلم (٥٨) .

(٣) رواه البيهقي في « دلائل النبوة » (١/ ٣٦٠) .

ولقدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جالساً يقسِمُ غنائمَ هوازنَ بحُنينٍ ، فوقفَ عليهِ رجلٌ مِنَ الناسِ ، فقالَ : إنَّ لي عندكَ موعداً يا رسولَ اللهِ ، فقالَ : « صَدَقتَ فاحْتَكِمْ ما شئتَ » ، فقالَ : أحتكمُ ثمانينَ ضائنةً وراعيَها ، فقالَ : « هيَ لكَ ، ولقد احتكَمتَ يسيراً ، ولَصاحبةُ موسَىٰ عليهِ السَّلامُ التي دلَّتهُ علىٰ عظامِ يوسفَ كانَتْ أحزمَ وأجزلَ حكماً منكَ حينَ حكَّمَها موسىٰ عليهِ السلامُ فقالَتْ : حكمي أنْ تردَّني شابَّةً ، وأدخلَ معكَ الجنَّةَ »[(١)] .

قيلَ : فكانَ الناسُ يضعِّفونَ ما احتكمَ بهِ ، حتَّىٰ جُعِلَ مثلاً ، يقولونَ : (أشحُّ[(٢)] مِنْ صاحبِ الثمانينَ والراعي) .

وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ الخلْفُ أنْ يعدَ الرَّجلُ الرَّجلَ ومِنْ نيَّتِهِ أنْ يفيَ »[(٣)] .

وفي لفظٍ آخرَ : « إذا وعدَ الرَّجلُ أخاهُ وفي نيَّتِهِ أنْ يفيَ فلمْ يجدْ . . فلا إثمَ عليهِ »[(٤)] .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٧٢٣) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/٤٠٤) بنحوه .

(٢) في (ب) : (أقنع) ، وفي (ج) : (أسمح) بدل (أشح) .

(٣) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٥٣٦٣) .

(٤) رواه أبو داوود (٤٩٩٥) ، والترمذي (٢٦٣٣) ، وفيهما : (فلم يفِ) بدل (فلم يجد) .

الآفة الرابعة عشرة : الكذب في القول واليمين

وهوَ مِنْ قبائحِ الذنوبِ وفواحشِ العيوبِ .

قالَ إسماعيلُ بنُ أوسطَ [١] : سمعتُ أبا بكرٍ الصديقَ رضيَ اللهُ عنهُ يخطبُ بعدَ وفاةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : قامَ فينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مقامي هٰذا عامَ أوَّلَ ، ثمَّ بكىٰ فقالَ : « إيَّاكُمْ والكذبَ ؛ فإنَّهُ معَ الفجورِ ، وهما في النَّارِ » [٢] .

وقالَ أبو أمامةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الكذبَ بابٌ مِنْ أبوابِ النِّفاقِ » [٣] .

وقالَ الحسنُ : (كانَ يُقالُ : إنَّ مِنَ النفاقِ اختلافَ السِّرِّ والعلانيةِ ، والقولِ والعملِ ، والمدخلِ والمخرجِ .

وإنَّ الأصلَ الذي يُبنىٰ عليهِ النفاقُ الكذبُ) [٤] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « كَبُرَتْ خيانةً أنْ تحدِّثَ أخاكَ

---

(١) كذا في جميع النسخ ، والصواب ـ كما نبَّه عليه الحافظ العراقي ـ أوسط بن إسماعيل بن أوسط البجلي . انظر « الإتحاف » (٧/٥١٠) .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٤٩) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٦٩) واللفظ له .

(٣) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٢١) ، ومعناه في حديث : « آية المنافق . . . » .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٨٤) .

حديثاً هوَ لكَ بهِ مصدِّقٌ وأنتَ لهُ بهِ كاذبٌ »[(١)] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يزالُ العبدُ يكذبُ ويتحرَّى الكذبَ حتَّىٰ يُكتبَ عندَ اللهِ كذَّاباً »[(٢)] .

ومرَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ برجلينِ يتبايعانِ شاةً ويتحالفانِ ، يقولُ أحدُهما : واللهِ ؛ لا أنقصُكَ مِنْ كذا وكذا ، ويقولُ الآخرُ : واللهِ ؛ لا أزيدُكَ علىٰ كذا وكذا ، فمرَّ بالشاةِ وقدِ اشتراها أحدُهُما ، فقالَ : « أوجبَ أحدُهُما بالإثمِ والكفَّارةِ »[(٣)] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الكذبُ ينقُصُ الرِّزقَ »[(٤)] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ التُّجَّارَ همُ الفُجَّارُ » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ، أليسَ قدْ أحلَّ اللهُ البيعَ ؟ قالَ : « نعمْ ، ولكنَّهُمْ يحلفونَ فيأثمونَ ، ويحدِّثونَ فيكذبونَ »[(٥)] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثةُ نفرٍ لا يكلِّمُهُمُ اللهُ يومَ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٩٧١) من حديث سفيان بن أُسيد رضي الله عنه ، وهو عند أحمد في « المسند » (٤/١٨٣) من حديث نواس بن سمعان رضي الله عنه .
(٢) رواه البخاري (٦٠٩٤) ، ومسلم (٢٦٠٦) ، والترمذي (١٩٧١) واللفظ له .
(٣) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١١٦) .
(٤) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١١٧) .
(٥) رواه أحمد في « المسند » (٣/٤٢٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/٦) ، وفيهما : (بلىٰ) بدل (نعم) .

القيامةِ ولا ينظرُ إليهِمْ : المنَّانُ بعطيَّتِهِ ، والمنفقُ سلعتَهُ بالحلِفِ الفاجرِ ، والمسبلُ إزارَهُ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما حلفَ حالفٌ باللهِ فأدخلَ فيها مثلَ جناحِ بعوضةٍ إلَّا كانَتْ نكتةً في قلبِهِ إلىٰ يومِ القيامةِ »[٢] .

وقالَ أبو ذرٍّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثةٌ يحبُّهُمُ اللهُ : رجلٌ كانَ في فئةٍ فنَصبَ نحْرَهُ حتَّىٰ يُقتَلَ أوْ يفتحَ اللهُ عليهِ أوْ علىٰ أصحابِهِ ، ورجلٌ كانَ لهُ جارُ سُوءٍ يؤذيهِ فيصبرُ علىٰ أذاهُ حتَّىٰ يفرِّقَ بينَهُما موتٌ أو ظَعنٌ ، ورجلٌ كانَ معَهُ قومٌ في سفرٍ أوْ سريَّةٍ فأطالوا السُّرىٰ حتَّىٰ أعجبهُمْ أنْ يمسُّوا الأرضَ فنزلُوا ، فتنحَّىٰ يصلِّي حتَّىٰ يوقظَ أصحابَهُ للرَّحيلِ ، وثلاثةٌ يشْنَؤُهُمُ اللهُ : التَّاجرُ ـ أوِ البيَّاعُ ـ الحلَّافُ ، والفقيرُ المختالُ ، والبخيلُ المنَّانُ »[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ويلٌ للذي يحدِّثُ فيكذبُ ليُضحكَ بِهِ القومَ ، ويلٌ لهُ ، ويلٌ لهُ »[٤] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رأيتُ كأنَّ رجلاً جاءَني فقالَ لي :

---

(١) رواه مسلم (١٠٦) .

(٢) رواه الترمذي (٣٠٢٠) ضمن حديث ، ومفرداً رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٢٤) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٥/١٥١) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٢٦) بلفظه .

(٤) رواه أبو داوود (٤٩٩٠) ، والترمذي (٢٣١٥) .

قُمْ ، فقمتُ معَهُ ؛ فإذا أنا برجلينِ أحدُهُما قائمٌ والآخرُ جالسٌ ، بيدِ القائمِ كَلُّوبٌ مِنْ حديدٍ يلقمُهُ في شِدْقِ الجالسِ فيجذِبُهُ حتَّىٰ يبلُغَ كاهلَهُ ، ثمَّ يجذِبُهُ فيلقمُهُ الجانبَ الآخرَ ، فيمدُّهُ ، فإذا مدَّهُ . . رجعَ الآخرُ كما كانَ ، فقلتُ للذي أقامَني : ما هٰذا ؟ قالَ : هٰذا رجلٌ كذَّابٌ يُعذَّبُ في قبرِهِ إلىٰ يومِ القيامةِ »(١) .

وعنْ عبدِ اللهِ بنِ جرادٍ أنَّهُ سألَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ يزني المؤمنُ ؟ قالَ : « قدْ يكونُ منهُ ذٰلكَ » ، قالَ : يا نبيَّ اللهِ ؛ هلْ يكذِبُ المؤمنُ ؟ قالَ : « لا » ، ثمَّ أتبعَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بقولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٢) .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يدعو فيقولُ في دعائِهِ : « اللَّهمَّ ؛ طهِّرْ قلبي مِنَ النِّفاقِ ، وفرجي مِنَ الزِّنا ، ولساني مِنَ الكذِبِ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثةٌ لا يكلِّمُهُمُ اللهُ ولا ينظرُ

---

(١) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٣١) بلفظه هنا ، وهو عند البخاري (١٣٨٦) ضمن حديث طويل .

(٢) سورة النحل : (١٠٥) ، والحديث رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٣٢) ، وفيه زيادة : يا رسول الله ؛ هل يسرق المؤمن ؟ قال : « قد يكون من ذٰلك » ، ورواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٧٧) وفيه السؤال عن الكذب فقط والسائل أبو الدرداء رضي الله عنه .

(٣) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٣٤) .

إليهِمْ ولا يزكِّيهِمْ ولهُمْ عذابٌ أليمٌ : شيخٌ زانٍ ، وملِكٌ كذَّابٌ ، وعائلٌ مستكبرٌ »[1] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عامرٍ : جاءَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ بيتِنا وأنا صبيٌّ صغيرٌ ، فذهبتُ لألعَبَ ، فقالَتْ أمِّي : يا عبدَ اللهِ ؛ تعالَ لأُعطيَكَ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وما أردتِ أنْ تعطيهِ ؟ » فقالَتْ : تمراً ، فقالَ : « أما إنَّكِ لوْ لمْ تفعلي . . كُتبَتْ عليكِ كذْبةٌ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ أفاءَ اللهُ عليَّ نَعماً عددَ هٰذهِ العِضاهِ . . لقسمتُها بينَكُمْ ثمَّ لا تجدُوني بخيلاً ولا كذَّاباً ولا جباناً »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وكانَ متكئاً : « ألا أنبِّئُكُمْ بأكبرِ الكبائرِ ؟ الإشراكُ باللهِ ، وعقوقُ الوالدينِ » ، ثمَّ قعدَ فقالَ : « ألا وقولُ الزُّورِ »[4] .

وقالَ ابنُ عمرَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ ليكذِبُ الكذْبةَ فيتباعدُ الملَكُ منهُ مسيرةَ ميلٍ مِنْ نَتْنِ ما جاءَ بهِ »[5] .

وقالَ أنسٌ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تقبَّلُوا لي بستٍّ . .

---

(١) رواه مسلم (١٠٧) .

(٢) رواه أبو داوود (٤٩٩١) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٤٠) .

(٣) رواه البخاري (٢٨٢١) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٤٤) .

(٤) رواه البخاري (٢٦٥٤) ، ومسلم (٨٧) .

(٥) رواه الترمذي (١٩٧٢) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٥٥) .

أتقبَّلْ لكمْ بالجنَّةِ » ، قالوا : وما هيَ ؟ قالَ : « إذا حدَّثَ أحدُكمْ . . فلا يكذبْ ، وإذا وعدَ . . فلا يخلفْ ، وإذا اؤتمنَ . . فلا يخنْ ، وغضُّوا أبصارَكمْ ، وكفُّوا أيديَكُمْ ، واحفظُوا فروجَكمْ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للشَّيطانِ كحلاً ولَعُوقاً ونَشُوقاً ، فأمَّا لَعُوقُهُ . . فالكذبُ ، وأمّا نَشُوقُهُ . . فالغَضبُ ، وأمَّا كحْلُهُ . . فالنومُ »(٢) .

وخطبَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ بالجابيةِ فقالَ : قامَ فينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كمَقامِي فيكُمْ ، فقالَ : « أحسنُوا إلىٰ أصحابِي ، ثمَّ الذينَ يلونَهُمْ ، ثمَّ يفشُو الكذِبُ حتَّىٰ يحلِفُ الرَّجلُ على اليمينِ ولمْ يُحلَّفْ ، ويَشْهدُ ولمْ يُستشهَدْ »(٣) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ حدَّثَ بحديثٍ وهوَ يرىٰ أنَّهُ كذبٌ . . فهوَ أحدُ الكاذبينَ »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ حدَّثَ عنِّي حديثاً يُرىٰ أنَّهُ كذبٌ . . فهوَ أحدُ الكاذبينَ »(٥) .

---

(١) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٥٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٣٥٩/٤) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٨٣٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠٦/٧) ، وابن عدي في « الكامل » (٣٧٤/٣) بنحوه .

(٣) رواه الترمذي (٢١٦٥) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩١٨١) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٢٥٢/٤) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٦٦) .

(٥) رواه مسلم في مقدمة « صحيحه » (٩/١) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٦٨) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ حَلَفَ علىٰ يمينٍ بإثمٍ ليقتطعَ بها مالَ امرئٍ مسلمٍ بغيرِ حقٍّ . . لقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ وهوَ عليهِ غضبانُ »[١] .

ورُوِيَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ردَّ شهادةَ رجلٍ في كذبةٍ كذَبَها[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « علىٰ كلِّ خَصْلةٍ يُطبَعُ ، أو يُطوىٰ عليها المؤمنُ إلا الخيانةَ والكذبَ »[٣] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (ما كانَ مِنْ خُلُقٍ أشدَّ عندَ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الكذبِ ، ولقدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يطَّلِعُ على الرَّجلِ مِنْ أصحابِهِ على الكذبةِ ، فما ينجلي مِنْ صدرِهِ حتَّىٰ يعلمَ أنَّهُ قدْ أحدثَ للهِ عزَّ وجلَّ منها توبةً)[٤] .

وقالَ موسىٰ عليهِ السلامُ : يا ربُّ ؛ أيُّ عبادِكَ خيرٌ لكَ عملاً ؟ قالَ : مَنْ لا يكذبُ لسانُهُ ، ولا يفجرُ قلبُهُ ، ولا يزني فرجُهُ[٥] .

---

(١) رواه البخاري (٢٣٥٧) ، ومسلم (١٣٨) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٩٠) عن موسى بن شيبة مرسلاً .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٥/٢٥٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٧٥) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٦/١٥٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٧٦) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٨٨) عن هزيل بن شرحبيل .

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ إيَّاكَ والكذبَ ؛ فإنَّهُ شهيٌّ كلحمِ العصفورِ ، عمَّا قليلٍ يقْلاهُ صاحبُهُ) (١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في مدحِ الصدقِ : « أربعٌ إذا كنَّ فيكَ . . فلا يضرُّكَ ما فاتَكَ مِنَ الدُّنيا : صدقُ حديثٍ ، وحفظُ أمانةٍ ، وحسنُ خليقةٍ ، وعفَّةُ طُعمةٍ » (٢) .

وقالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ في خُطبتِهِ بعدَ وفاةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : قامَ فينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مثلَ مقامي هـٰذا عامَ أوَّلَ ثمَّ بكىٰ فقالَ : « عليكُمْ بالصِّدقِ ؛ فإنَّهُ معَ البرِّ ، وهما في الجنَّةِ » (٣) .

وقالَ معاذٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لي : « أوصيكَ بتقوى اللهِ ، وصدقِ الحديثِ ، وأداءِ الأمانةِ ، ووفاءٍ بالعهدِ ، وبذلِ السَّلامِ ، وخفضِ الجناحِ » (٤) .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٤٢) عن الحسن .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤/١٧٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/٣١٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٤٦٣) .

(٣) هو بعض حديث رواه ابن ماجه (٣٨٤٩) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٦٩) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/٢٤٠) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٩٥٦) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٨/٤٣٤) .

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (أعظمُ الخطايا عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ اللسانُ الكذوبُ ، وشرُّ الندامةِ ندامةُ يومِ القيامةِ)[١] .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمَهُ اللهُ : (ما كذبتُ كذبةً منذُ شددْتُ عليَّ إزاري)[٢] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنْهُ : (أحبُّكمْ إلينا ما لمْ نرَكُمْ أحسنُكُمْ اسماً ، فإذا رأيناكُمْ . . فأحبُّكُمْ إلينا أحسنُكُم خُلُقاً ، فإذا اختبرْناكُمْ . . فأحبُّكُمْ إلينا أصدقُكُمْ حديثاً ، وأعظمُكُمْ أمانةً)[٣] .

وعنْ ميمونِ بنِ أبي شبيبٍ قالَ : (قعدْتُ أكتبُ كتاباً ، فمررتُ بحرفٍ إنْ أنا كتبتُهُ . . زيَّنتُ الكتابَ وكنتُ قدْ كذبْتُ ، فعزمْتُ على تركِهِ ، فناداني منادٍ مِنْ جانبِ البيتِ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾)[٤] .

وقالَ الشَّعبيُّ : ما أدري أيُّهما أبعدُ غوراً في النارِ ، الكذبُ أوِ البخلُ)[٥] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٨١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٨٦) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٨٧) .

(٤) سورة إبراهيم ﷺ : (٢٧) ، والأثر رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٣٩) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٤٣) .

وقالَ ابنُ السَّمَّاكِ : (ما أُراني أوجَرُ علىٰ تركِ الكذبِ ؛ لأنّي إنَّما أدعُهُ أنفةً)[١] .

وقيلَ لخالدِ بنِ صُبيحٍ : مَنْ يكذبُ كذبةً واحدةً هل يُسمىٰ فاسقاً ؟ قالَ : نعمْ[٢] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (قرأتُ في بعضِ الكتبِ : ما مِنْ خطيبٍ إلا عُرِضَتْ خطبتُهُ علىٰ عملِهِ ؛ فإنْ كانَ صادقاً . . صُدِّقَ ، وإنْ كانَ كاذباً . . قُرِضَتْ شفتاهُ بمقراضَيْنِ مِنْ نارٍ ، كلَّما قُرِضَتا . . نَبَتَتا)[٣] .

وقال مالكُ بنُ دينارٍ أيضاً : (الصدقُ والكذبُ يعتركانِ في القلبِ حتَّىٰ يخرجَ أحدُهُما صاحبَهُ)[٤] .

وكلَّم عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ الوليدَ بنَ عبدِ الملكِ في شيءٍ ، فقالَ لهُ : كذبْتَ ، فقالَ عمرُ : واللهِ ؛ ما كذبْتُ منذُ علمْتُ أنَّ الكذبَ يشينُ صاحبَهُ[٥] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٤٩) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٥٢) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٠١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٧٨/٢) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥١٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٦٠/٢) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٢٩) .

بيان ما رُخِّص فيه من الكذب

اعلمْ : أنَّ الكذبَ ليسَ حراماً لعينِهِ ، بلْ لما فيهِ مِنَ الضررِ على المخاطبِ أوْ علىٰ غيرِهِ ، فإنَّ أقلَّ درجاتِهِ أنْ يعتقدَ المُخبَرُ الشيءَ علىٰ خلافِ ما هوَ عليهِ فيكونَ جاهلاً ، وقدْ يتعلَّقُ بهِ ضررُ غيرِهِ .

وربَّ جهلٍ فيهِ منفعةٌ ومصلحةٌ وَالكذبُ محصِّلٌ لذٰلكَ الجهلِ ؛ فيكونُ مأذوناً فيهِ ، وربَّما كانَ واجباً .

قالَ ميمونُ بنُ مهرانَ : (إنَّ الكذبَ في بعضِ المواطنِ خيرٌ مِنَ الصِّدقِ ، أرأيتَ لوْ أنَّ رجلاً يسعَىٰ وآخرُ وراءَهُ بالسيفِ ، فدخلَ داراً ، فانتهىٰ إليكَ فقالَ : أرأيتَ فلاناً ؟ ما كنْتَ قائلاً : ألسْتَ تقولُ : لمْ أرَهُ ، وما تصدقُ بهِ ؟)[1] ، فهٰذا الكذبُ واجبٌ .

فنقولُ : الكلامُ وسيلةٌ إلى المقاصدِ ؛ فكلُّ مقصودٍ محمودٍ يمكنُ التَّوصُّلُ إليهِ بالصدقِ والكذبِ جميعاً . . فالكذبُ فيهِ حرامٌ ، وإنِ أمكنَ التوصُّلُ إليهِ بالكذبِ دونَ الصدقِ . . فالكذبُ فيهِ مباحٌ إنْ كانَ تحصيلُ ذٰلكَ المقصودِ مباحاً ، وواجبٌ إنْ كانَ المقصودُ واجباً ، كما أنَّ عصمةَ دمِ المسلمِ واجبةٌ ، فمهما كانَ في الصدقِ سفكُ دمِ امرئٍ مسلمٍ قدِ اختفىٰ مِنْ ظالمٍ . . فالكذبُ فيهِ واجبٌ ، ومهما كانَ لا يتمُّ مقصودُ الحربِ ، أوْ إصلاحُ ذاتِ البينِ ، أوِ استمالةُ قلبِ المجنيِّ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٠٦) بنحوه .

عليهِ إلا بكذبٍ . . فالكذبُ مباحٌ ، إلَّا أنَّهُ ينبغي أنْ يحترزَ عنهُ ما أمكنَ ؛ لأنَّهُ إذا فتحَ بابَ الكذبِ على نفسِهِ . . فيُخشىٰ أنْ يتداعَىٰ إلىٰ ما يستغني عنْهُ ، وإلىٰ ما لا يقتصرُ علىٰ حدِّ الضرورةِ ؛ فكانَ الكذبُ حراماً في الأصلِ إلا لضرورةٍ .

والذي يدلُّ على الاستثناءِ : ما رُويَ عنْ أمِّ كُلثومٍ قالَتْ : (ما سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يرخِّصُ في شيءٍ مِنَ الكذبِ إلَّا في ثلاثٍ : الرجلُ يقولُ القولَ يريدُ بهِ الإصلاحَ ، والرجلُ يقولُ القولَ في الحربِ ، والرجلُ يحدِّثُ امرأتَهُ ، والمرأةُ تحدِّثُ زوجَها)[1] .

وقالَتْ أيضاً : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ بكذَّابٍ مَنْ أصلَحَ بينَ اثنينِ ، فقالَ خيراً أوْ نمىٰ خيراً »[2] .

وقالَتْ أسماءُ بنتُ يزيدَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ الكذبِ يُكتبُ على ابنِ آدمَ إلا رجلٌ كَذَبَ بينَ رجلينِ ليصلحَ بينَهما »[3] .

ورُويَ عنْ أبي كاهلٍ قالَ : وقعَ بينَ رجلينِ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كلامٌ حتَّىٰ تصارما ، فلقيتُ أحدَهُما فقلتُ : ما لكَ ولفلانٍ ؟ فقدْ سمعتُهُ يحسِنُ عليكَ الثناءَ ، ثمَّ لقيتُ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٠٥) ، وأم كلثوم هي بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها .
(٢) رواه البخاري (٢٦٩٢) ، ومسلم (٢٦٠٥) .
(٣) رواه الترمذي (١٩٣٩) بزيادة فيه .

الآخرَ فقلتُ لهُ مثلَ ذٰلكَ ، حتَّى اصطلحا ، ثمَّ قلْتُ : أهلكْتُ نفسي وأصلحْتُ بينَ هـٰذينِ ، فأخبرْتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « يا أبا كاهلٍ ؛ أصلحْ بينَ الناسِ ولو . . . » يعني : بالكذبِ [1] .

وقالَ عطاءُ بنُ يسارٍ : قالَ رجلٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أكذبُ أهلي ؟ فقالَ : « لا خيرَ في الكذبِ » ، قالَ : أعِدُها وأقولُ لها ؟ قالَ : « لا جناحَ عليكَ » [2] .

ويُروىٰ أنَّ ابنَ أبي عزرةَ الدُّؤليَّ ـ وكانَ في خلافةِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ـ يخلعُ النساءَ اللَّاتي يتزوجُهُنَّ ، فطارَ لهُ في الناسِ مِنْ ذٰلكَ أُحدوثةٌ يكرهُها ، فلمَّا علمَ بذٰلكَ . . قامَ بعبدِ اللهِ بنِ الأرقمِ حتَّىٰ أدخلَهُ بيتَهُ ، فقالَ لامرأتِهِ : أنشُدُكِ باللهِ ؛ هلْ تبغضيني ؟ قالَتْ : لا تنشُدْني ، قالَ : فإنِّي أنشدُكِ باللهِ ، قالَتْ : نعمْ ، فقالَ لابنِ الأرقمِ : أتسمعُ ؟! ثمَّ انطلقا حتَّىٰ أتيا عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : إنَّكمْ لتُحدِّثونَ أنِّي أظلِمُ النساءَ وأخلعُهُنَّ ، فاسألِ ابنَ الأرقمِ ، فسألَهُ ، فأخبرَهُ ، فأرسلَ إلى امرأةِ ابنِ أبي عزرةَ ، فجاءَتْ هيَ وعمَّتُها ، فقالَ : أنتِ التي تحدثينَ لزوجِكِ أنَّكِ تبغضينَهُ ؟ فقالَتْ : إنِّي أوَّلُ مَنْ تابَ وراجعَ أمرَ اللهِ تعالىٰ ، إنَّهُ ناشدَني اللهَ ، فتحرَّجْتُ أنْ أكذِبَ ، أفأكذِبُ يا أميرَ المؤمنينَ ؟ قالَ : نعمْ ، فاكذبي ؛ فإنْ كانَتْ إحداكُنَّ

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٣٦١/١٨) ، وفيه : « يا أبا كاهل ؛ أصلح بين الناس ولو بكذا وكذا » .

(٢) رواه مالك في « الموطأ » (٩٨٩/٢) عن صفوان بن سليم معضلاً ، وابن عبد البر في « التمهيد » (٢٤٧/١٦) عنه عن عطاء بن يسار مرسلاً .

لا تحبُّ أحدَنا . . فلا تحدِّثْهُ بذٰلِكَ ؛ فإنَّ أقلَّ البيوتِ الذي يُبنىٰ على الحُبِّ ، ولٰكنَّ الناسَ يتعاشرونَ بالإسلامِ والإحسانِ (١) .

وعنِ النواسِ بنِ سمعانَ الكلابيِّ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما لي أراكمْ تتهافتونَ في الكذبِ تهافُتَ الفَراشِ في النَّارِ ؟! كلُّ الكذبِ مكتوبٌ كذباً لا محالةَ ، إلا أنْ يكذِبَ الرَّجلُ في الحربِ ؛ فإنَّ الحَرْبَ خَدْعةٌ ، أوْ يكونَ بينَ رجلينِ شحْناءُ فيُصلحَ بينَهما ، أوْ يحدِّثَ امرأتَهُ يرضيها » (٢) .

وقالَ ثوبانُ : (الكذِبُ كلُّهُ إثمٌ إلَّا ما نُفِعَ بهِ مسلمٌ ، أوْ دُفِعَ بهِ عنهُ ضررٌ) (٣) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا حدَّثْتُكُمْ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . فلأَنْ أخِرَّ مِنَ السَّماءِ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أكذِبَ عليهِ ، وإذا حدَّثْتُكمْ فيما بيني وبينَكُمْ . . فالحربُ خَدْعةٌ) (٤) .

فهٰذِهِ الثلاثُ وردَ فيها صريحُ الاستثناءِ ، وفي معناها ما عداها إذا ارتبطَ بهِ غرضٌ مقصودٌ صحيحٌ لهُ أوْ لغيرِهِ .

أمَّا ما لَهُ . . فمثلُ أنْ يأخذَهُ ظالمٌ ويسألَهُ عنْ مالِهِ ، فلَهُ أنْ ينكرَ ، أوْ يأخذَهُ السلطانُ فيسألَهُ عنْ فاحشةٍ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالى ارتكبَها ؛

---

(١) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٨٦) .
(٢) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٦٢) .
(٣) رواه البزار في « مسنده » (٤١٦٢) ، وتظنن في رفعه .
(٤) رواه البخاري (٣٦١١) ، ومسلم (١٠٦٦) .

فلهُ أنْ ينكرَ ذٰلكَ ويقولَ : ما زنيتُ ، وما سرقتُ ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ ارتكبَ شيئاً مِنْ هٰذهِ القاذوراتِ . . فليستترْ بسترِ اللهِ »(١) ، وذٰلكَ أنَّ إظهارَ الفاحشةِ فاحشةٌ أخرىٰ ؛ فللرَّجلِ أنْ يحفظَ دمَهُ ومالَهُ الذي يُؤخذُ ظلماً وعرضَهُ بلسانِهِ وإنْ كانَ كاذباً .

وأمَّا غَرَضُ غيرِهِ . . فبأنْ يُسألَ عنْ سرِّ أخيهِ ، فلهُ أنْ ينكرَهُ ، وأنْ يصلحَ بينَ اثنينِ ، وأنْ يصلحَ بينَ الضَّرَّاتِ مِنْ نسائِهِ ، بأنْ يظهرَ لكلِّ واحدةٍ أنَّها أحبُّ إليهِ ، أوْ كانَتِ امرأتُهُ لا تطيعُهُ إلَّا بوعدٍ لا يقدِرُ عليهِ ، فيعدُها في الحالِ تطييباً لقلبِها ، أوْ يعتذرَ إلىٰ إنسانٍ وكانَ لا يطيبُ قلبُهُ إلَّا بإنكارِ ذنبٍ وزيادةِ تودُّدٍ ؛ فلا بأسَ بهِ .

ولٰكنِ الحدُّ فيهِ : أنَّ الكذبَ محذورٌ ، ولوْ صدقَ في هٰذهِ المواضعِ . . تولَّدَ منهُ محذورٌ ؛ فينبغي أنْ يقابلَ أحدَهُما بالآخرِ ، ويزنَ بالميزانِ القسطِ ، فإذا علمَ أنَّ المحذورَ الذي يحصلُ بالصِّدقِ أشدُّ وقعاً في الشرعِ مِنَ الكذبِ . . فلهُ الكذبُ ، وإنْ كانَ ذٰلكَ المقصودُ أهونَ مِنْ مقصودِ الصِّدقِ . . فيجبُ الصِّدقُ ، وقدْ يتقابلُ الأمرانِ بحيثُ يتردَّدُ فيهما ، وعندَ ذٰلكَ الميلُ إلى الصِّدقِ أولىٰ ؛ لأنَّ الكذبَ يُباحُ لضرورةٍ أوْ حاجةٍ مهمةٍ ، فإنْ شكَّ في كونِ الحاجةِ مهمةً . . فالأصلُ التحريمُ ، فيُرجعُ إليهِ .

---

(١) رواه مالك في « الموطأ » (٢/٨٢٥) عن زيد بن أسلم مرسلاً ، ورواه الحاكم في « المستدرك » (٤/٣٨٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً .

ولأجلِ غموضِ إدراكِ مراتبِ المقاصدِ ينبغي أنْ يحترزَ الإنسانُ مِنَ الكذبِ ما أمكنَهُ ، ولذٰلكَ مهما كانتِ الحاجةُ لهُ . . فيُستحبُّ لهُ أن يتركَ أغراضَهُ ويهجرَ الكذِبَ .

فأمَّا إذا تعلَّقَ بغرضِ غيرِهِ . . فلا تجوزُ المسامحةُ لحقِّ الغيرِ والإضرارِ بهِ .

وأكثرُ كذبِ الناسِ إنَّما هوَ لحظوظِ أنفسِهِمْ ، ثمَّ هوَ لزياداتِ المالِ والجاهِ ، ولأمورٍ ليسَ فواتُها محذوراً ، حتَّىٰ إنَّ المرأةَ لتحكي عَنْ زوجِها ما تتفاخرُ بهِ وتكذبُ لأجلِ مُراغمةِ الضَّرَّاتِ ، وذٰلكَ حرامٌ .

وقالَتْ أسماءُ رضيَ اللهُ عنها : سمعْتُ امرأةً تسألُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَتْ : إنَّ لي ضَرَّةً ، وإنِّي أتكثَّرُ مِنْ زوجي بما لا يفعلُ أضارُّها بذٰلكَ ، فهلْ عليَّ فيهِ شيءٌ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المُتشبِّعُ بما لمْ يُعطَ كلابسِ ثوبَيْ زُورٍ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تطعَّمَ بما لا يطعَمُ ، وقالَ : لي وليسَ لهُ ، وأُعطِيتُ ولمْ يُعطَ . . كانَ كلابسِ ثوبَيْ زُورٍ يومَ القيامةِ »(٢) .

ويدخلُ في هٰذا فتوى العالِمِ بما لا يتحقَّقُهُ ، وروايتُهُ الحديثَ

---

(١) رواه البخاري (٥٢١٩) ، ومسلم (٢١٢٩) ، وأسماء هي بنت الصديق رضي الله عنهما .

(٢) قال الحافظ العراقي : (لم أجده بهٰذا اللفظ) . « إتحاف » (٥٢٦/٧) ، وقد روى ابن حبان في « صحيحه » (٣٤١٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٤٧/٦) من حديث جابر رضي الله عنه : « ومن تحلىٰ بباطل . . فهو كلابس ثوبي زور » .

الذي ليسَ بثَبْتٍ فيهِ ؛ إذ غرضُهُ أنْ يُظهِرَ فضلَ نفسِهِ ، فهوَ لذلكَ يستنكفُ مِنْ أنْ يقولَ : لا أدري ، وهـٰذا حرامٌ [١] .

ومما يلتحقُ بالنساءِ الصبيانُ ؛ فإنَّ الصبيَّ إذا كانَ لا يرغبُ في المكتبِ إلَّا بوعدٍ أوْ وعيدٍ أوْ تخويفٍ كاذبٍ . . كانَ ذلكَ مباحاً .

نعمْ ؛ روينا في الأخبارِ أنَّ ذلكَ يُكتبُ كذباً ، ولـٰكنَّ الكذبَ المباحَ أيضاً يُكتبُ ويُحاسبُ عليهِ ، ويُطالبُ بتصحيحِ قصدِهِ فيهِ ، ثمَّ يُعفىٰ عنهُ ؛ لأنَّهُ إنَّما أُبيحَ بقصدِ الإصلاحِ ، ويتطرَّقُ إليهِ غرورٌ كبيرٌ ؛ فإنَّهُ قدْ يكونُ الباعثُ لهُ حظَّهُ وغرضَهُ الذي هوَ مستغنىً عنهُ ، وإنَّما يتعلَّلُ ظاهراً بالإصلاحِ ؛ فلهـٰذا يُكتبُ .

وكلُّ مَنْ أتىٰ بكذبةٍ . . فقدْ وقعَ في خطرِ الاجتهادِ ؛ ليعلمَ أنَّ المقصودَ الذي كذبَ لأجلِهِ هلْ هوَ أهمُّ في الشرعِ مِنَ الصدقِ أمْ لا ، وذلكَ غامضٌ جداً ، فالحزمُ في تركِهِ إلَّا أنْ يصيرَ واجباً بحيثُ لا يجوزُ تركُهُ ؛ كما لوْ أدَّىٰ إلىٰ سفكِ دمٍ ، أوِ ارتكابِ معصيةٍ كيفَ كانَ .

وقدْ ظنَّ ظانُّونَ أنَّهُ يجوزُ وضعُ الأحاديثِ في فضائلِ الأعمالِ ،

---

(١) ويلتحق به : الانتصاب للتدريس والإفادة في العلوم الظاهرة أو الباطنة من غير تمكنه من الأهلية ؛ فإنه لعب في الدين وإزراء به ، وروى البيهقي في « الشعب » (٦٥٤٧) عن الحسن قال : (من تزيّن للناس بغير ما يعلم الله منه . . شانه) ، وحكي عن أبي الطيب الصعلوكي (٧٩١٥) : (من تصدر قبل أوانه . . فقد تصدىٰ لهوانه) ، ومثله المشهور على الألسنة : (من استعجل الشيء قبل أوانه . . عوقب بحرمانه) . انظر « فيض القدير » (٦/ ٢٦٠) ، و« الإتحاف » (٧/ ٥٢٦) .

وفي التَّشديدِ في المعاصي ، وزعموا أنَّ القصدَ منه صحيحٌ ، وهوَ خطأٌ محضٌ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كذبَ عليَّ متعمِّداً . . فليتبوَّأْ مقعدَهُ مِنَ النَّارِ » [1] ، وهٰذا لا يرتكبُ إلَّا لضرورةٍ [2] ، ولا ضرورةَ ؛ إذْ في الصِّدقِ مندوحةٌ عنِ الكذبِ ، ففيما وردَ مِنَ الآياتِ والأخبارِ كفايةٌ عنْ غيرِها .

وقولُ القائلِ : (إنَّ ذٰلكَ تكرَّرَ على الأسماعِ وسقطَ وقعُهُ ، وما هوَ جديدٌ فوقعُهُ أعظمُ) . . فهٰذا هوسٌ ؛ إذْ ليسَ هٰذا مِنَ الأغراضِ التي تُقاومُ محذورَ الكذبِ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعلى اللهِ تعالىٰ ، ويؤدي فتحُ بابِهِ إلىٰ أمورٍ تشوّشُ الشريعةَ ، فلا يقاومُ خيرُ هٰذا شرَّهُ أصلاً ، فالكذبُ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الكبائرِ التي لا يقاومُها شيءٌ ، نسألُ اللهَ العفوَ عنّا وعنْ جميعِ المسلمينَ .

* * *

---

(١) رواه البخاري (١١٠) ، ومسلم (٣) .

(٢) في النسخ : (لا يترك إلا ضرورة) ، والمثبت من (ق) ، ولعله الصواب ، والله أعلم .

بيان الحذر من الكذب بالمعاريض

قدْ نُقِلَ عنِ السَّلفِ أنَّ في المعاريضِ مندوحةً عنِ الكذبِ [(١)] .

قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (أمَا في المعاريضِ ما يكفي الرَّجلَ منَ الكذبِ ؟) ، ورُوِيَ ذٰلكَ عنِ ابنِ عباسٍ وغيرِهِ [(٢)] .

وإنَّما أرادوا بذٰلكَ إذا اضطُّرَّ الإنسانُ إلى الكذبِ ، فأمَّا إذا لمْ تكنْ حاجةٌ وضرورةٌ . . فلا يجوزُ التعريضُ ولا التصريحُ جميعاً ، ولٰكنَّ التعريضَ أهونُ .

ومثالُ **التَّعريضِ** : ما رُوِيَ أنَّ مطرِّفاً دخلَ علىٰ زيادٍ ، فاستبطأَهُ ، فتعلَّلَ بمرضٍ وقالَ : ما رفعْتُ جنبي مذْ فارقْتُ الأميرَ إلَّا ما رفعَني اللهُ [(٣)] .

وقالَ إبراهيمُ : إذا بلغَ الرَّجلَ عنكَ شيءٌ فكرهْتَ أنْ تكذِبَ . . فقُلْ : إنَّ اللهَ تعالىٰ ليعلَمُ ما قلْتُ مِنْ ذٰلكَ مِنْ شيءٍ ، فيكونُ

---

(١) **والمعاريض** : جمع معراض ، والمراد به التعريض ، وهو ذكر لفظ محتمل يفهم منه السامع خلاف ما يريده المتكلم ، ومندوحة : سعة وغنية وفسحة . انظر « الإتحاف » (٥٢٨/٧) .

(٢) هو من قول عمر رضي الله عنه رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٨٨٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٩٩/١٠) ، وعنده كذٰلك عن عمران بن حصين رضي الله عنهما .

(٣) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١٤٤/٩) ، وعنه روىٰ أيضاً القول السابق في المعاريض ، ومعلوم أن الرفع يشمل الاختياري والاضطراري .

قولُهُ : (ما) حرفَ نفيٍ عندَ المستمعِ ، وعندَهُ للإبهامِ [١] .

وكانَ معاذُ بنُ جبلٍ عاملاً لعمرَ رضيَ اللهُ عنهُما ، فلمَّا رجعَ . . قالَتِ امرأتُهُ : ما جئتَ بهِ ممَّا يأتي بهِ العمَّالُ مِنْ عُراضةِ أهليهِمْ ؟[٢] وما كانَ قدْ أتاها بشيءٍ ، فقالَ : كانَ معي ضاغطٌ ، فقالَتْ : كنْتَ أميناً عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعندَ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، فبعث عمرُ معكَ ضاغطاً !! فقامَتْ بذٰلكَ في نسائِها ، واشتكَتْ عمرَ ، فلمَّا سمعَ عمرُ ذٰلكَ . . دعا معاذاً فقالَ : بعثتُ معكَ ضاغطاً ؟ فقالَ : لمْ أجدْ ما أعتذرُ بهِ إليها إلَّا ذٰلكَ ، فضحكَ عمرُ رضيَ اللهُ عنْهُ ، وأعطاه شيئاً ، وقالَ : أرضِها بهِ .

وقولُهُ : (ضاغطاً) يعني : رقيباً ، يريدُ بهِ ربَّهُ عزَّ وجلَّ [٣] .

وكانَ النخعيُّ لا يقولُ لابنتِهِ : أشتري لكِ سكَّراً ، بلْ يقولُ : أرأيتِ لوِ اشتريتُ لكِ سكَّراً ؟ فإنَّهُ ربَّما لا يتَّفقُ لهُ ذٰلكَ .

وكانَ إبراهيمُ إذا طلَبَهُ مَنْ يكرَهُ أنْ يخرجَ إليهِ وهوَ في الدارِ . . قالَ للجاريةِ : قولي لهُ : (اطلبْهُ في المسجدِ) ، ولا تقولي : (ليسَ ها هنا) ؛ كي لا يكونَ كذباً .

---

(١) رواه ابن الجوزي في « الأذكياء » (ص ٧١) ، و(ما) عند المتكلم إما موصولة أو استفهامية ، وفي كل منهما الإبهام ، وكذا لو قال : (الله يعلم ما قلته) ، وهو أخصر من الأول . « إتحاف » (٥٢٩/٧) .

(٢) العُراضة : الهدية والتحفة تحمل إلى الأهلين وتعرض عليهم .

(٣) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٧٨) ، مع تفسير قوله (ضاغطاً) ، وقد نقله عن ابن جريج .

وكانَ الشَّعبيُّ إذا طُلِبَ في البيتِ وهوَ يكرهُهُ . . يخطُّ دائرةً ويقولُ للجاريةِ : ضَعي إصبعَكِ فيها ، وقولي : (ليسَ ها هنا) .

وهٰذا كلُّهُ في موضعِ الحاجةِ ، وأمَّا في غيرِ موضعِ الحاجةِ . . فلا ؛ لأنَّ هٰذا تفهيمٌ للكذبِ .

فإنْ لمْ يكنِ اللَّفظُ كذباً . . فهوَ مكروهٌ على الجملةِ ، كما رُويَ عنْ عبدِ اللهِ بنِ عتبةَ قالَ : دخلْتُ معَ أبي علىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ ، فخرجْتُ وعليَّ ثوبٌ ، فجعلَ الناسُ يقولونَ : هٰذا كساكَهُ أميرُ المؤمنينَ ؟ فكنْتُ أقولُ : جزى اللهُ أميرَ المؤمنينَ خيراً ، فقالَ لي : يا بنيَّ ؛ اتقِ الكذبَ ، إياكَ والكذبَ ، وما أشبهَهُ ، فنهاهُ عنْ ذٰلكَ[1] ؛ لأنَّ فيهِ تقريراً لهمْ علىٰ ظنٍّ كاذبٍ ؛ لأجلِ غرضِ المفاخرةِ ، وهوَ غرضٌ باطلٌ لا فائدةَ فيهِ .

نعم ؛ المعاريضُ تُباحُ لغرضٍ خفيفٍ ؛ كتطييبِ قلبِ الغيرِ بالمِزاحِ ؛ كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تدخلُ الجنَّةَ عجوزٌ »[2] ، وقولِهِ للأخرىٰ : « في عينِ زوجِكِ بياضٌ »[3] ، وللآخرِ : « نحملُكَ علىٰ ولدِ البعيرِ »[4] ، وما أشبهَهُ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٤٠) عن عون بن عبد الله بن عتبة ، وانظر « الإتحاف » (٧/٥٢٩) .

(٢) رواه الترمذي في « الشمائل » (٢٤٠) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (رواه الزبير بن بكار في كتاب « الفكاهة والمزاح ») . « إتحاف » (٧/٥٠٠) .

(٤) رواه أبو داوود (٤٩٩٨) ، والترمذي (١٩٩١) بنحوه .

فأمَّا الكذبُ الصريحُ . . فكما فعلَهُ نُعيمانُ الأنصاريُّ معَ عثمانَ في قصَّةِ الضَّريرِ إذْ قالَ لهُ : (إنَّهُ نُعيمانُ)[1] ، وكما يعتادُهُ الناسُ مِنْ ملاعبةِ الحمقىٰ ؛ بتغريرِهِمْ بأنَّ امرأةً قدْ رغبَتْ في تزويجِكَ ، فإنْ كانَ فيهِ ضررٌ يؤدي إلىٰ إيذاءِ قلبٍ . . فهوَ حرامٌ ، وإنْ لمْ يكنْ إلا مطايبةً . . فلا يُوصفُ صاحبُها بالفسقِ ، ولٰكنْ ينقصُ ذٰلكَ مِنْ درجةِ إيمانِهِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يستكملُ العبدُ الإيمانَ حتَّىٰ يحبَّ لأخيهِ ما يحبُّ لنفسِهِ ، وحتَّىٰ يجتنبَ الكذبَ في مزاحِهِ »[2] .

---

(١) وهو ما رواه ابن عبد البر في « الاستيعاب » (ص ٧٣٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٤٧/٦٢) عن عبد الله بن مصعب قال : كان مخرمة بن نوفل بن وهيب الزهري شيخاً كبيراً بالمدينة أعمىٰ ، وكان قد بلغ مئة وخمس عشرة سنة ، فقام يوماً في المسجد يريد أن يبول ، فصاح به الناس ، فأتاه نعيمان بن عمرو بن رفاعة بن الحارث بن سواد النجاري ، فتنحَّىٰ به ناحية من المسجد ثم قال : اجلس ها هنا ، فأجلسه يبول وتركه ، فبال ، وصاح به الناس ، فلما فرغ . . قال : من جاء بي ويحكم في هٰذا الموضع ؟ قالوا له : النعيمان بن عمرو ، قال : فعل الله به وفعل ، أما إن لله علي إن ظفرت به أن أضربه بعصاي هٰذه ضربة تبلغ منه ما بلغت ، فمكث ما شاء الله حتىٰ نسي ذٰلك مخرمة ، ثم أتاه يوماً وعثمان قائم يصلي في ناحية المسجد ، وكان عثمان إذا صلىٰ لم يلتفت ، فقال له : هل لك في نعيمان ؟ قال : نعم ، أين هو ؟ دلني عليه ، فأتىٰ به حتىٰ أوقفه علىٰ عثمان ، فقال : دونك ، هٰذا هو ، فجمع مخرمة يديه بعصاه فضرب عثمان فشجَّه ، فقيل له : إنما ضربت أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه . . . الخبر .

(٢) قوله : (لا يستكمل العبد الإيمان حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه) أورده ابن عبد البر في « الاستيعاب » (ص ٨٥٩) ، وروىٰ نحوه البخاري (١٣) ، ومسلم (٤٥) عن أنس رضي الله عنه ، وعند أحمد في « المسند » (٣٥٢/٢) من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « لا يؤمن العبد الإيمان كله حتىٰ يترك الكذب في المزاحة ، ويترك المراء وإن كان صادقاً » .

وأمَّا قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « إنَّ الرَّجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ يضحكُ بها النَّاسَ يهوي بها في النارِ أبعدَ مِنَ الثُّريَّا »[١] . . أرادَ بهِ ما فيهِ غيبةُ مسلمٍ ، أوْ إيذاءُ قلبٍ ، دونَ محضِ المِزاحِ .

ومِنَ **الكذبِ الذي لا يوجبُ الفسقَ** : ما جرَتْ بهِ العادةُ في المبالغةِ ؛ كقولِهِ : (طلبتُكَ كذا وكذا مرةٍ) ، و(قلتُ لكَ كذا مئة مرةٍ) ؛ فإنَّهُ لا يريدُ بهِ تفهيمَ المرَّاتِ بعددِها ، بلْ تفهيمَ المبالغةِ ، فإنْ لمْ يكنْ طلبَهُ إلَّا مرةً واحدةً . . كانَ كاذباً ، وإنْ كانَ طلبَهُ مرَّاتٍ لا يُعتادُ مثلُها في الكثرةِ . . فلا يأثمُ ، وإنْ لمْ تبلغْ مئةً ، وبينَهُما درجاتٌ يتعرَّضُ مطلقُ اللسانِ بالمبالغةِ فيها لخطرِ الكذبِ .

وممَّا يُعتادُ الكذبُ فيهِ ويُتساهلُ بهِ : أنْ يُقالَ : (كُلِ الطعامَ) ، فيقولَ : (لا أشتهيهِ) ، وذٰلكَ منهيٌّ عنهُ ، وهوَ حرامٌ إنْ لمْ يكُنْ فيهِ غرضٌ صحيحٌ ، قالَ مجاهدٌ : قالَتْ أسماءُ بنتُ عُميسٍ : كنتُ صاحبةَ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها في الليلةِ التي هيَّأتُها وأدخلتُها على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومعي نسوةٌ ، قالَتْ : فواللهِ ؛ ما وجدْنا عندَهُ قِرىً إلَّا قدحاً مِنْ لبنٍ ، فشربَ ثمَّ ناولَهُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ، قالَتْ : فاستحيَتِ الجاريةُ ، قالَتْ فقلْتُ : لا تردِّي يدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، خذي منهُ ، قالَتْ : فأخذَتْهُ على

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٤٨) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧١) ، وعند البخاري (٦٤٧٧) ، ومسلم (٢٩٨٨) من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « إن العبد ليتكلم بالكلمة ينزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب » .

حياءٍ فشربَتْ منهُ ، ثمَّ قالَ : « ناولي صواحبَكِ » ، فقلْنَ : لا نشتهيهِ ، فقالَ : « لا تجمعْنَ جوعاً وكذباً » ، قالَتْ : فقلْتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنْ قالَتْ إحدانا لشيءٍ تشتهيهِ : لا أشتهيهِ . . أيُعدُّ ذٰلكَ كذباً ؟ قالَ : « إنَّ الكذبَ ليُكتَبُ كذباً حتَّى الكُذَيبةُ كُذيبَةً »[١] .

وقدْ كانَ أهلُ الورعِ يحتَرِزونَ عنِ التَّسامحِ بمثلِ هٰذا الكذبِ ، قالَ اللَّيثُ بنُ سعدٍ : كانَتْ ترمَصُ عينا سعيدِ بنِ المسيَّبِ ، حتَّىٰ يبلغَ الرَّمصُ خارجَ عينيهِ ، فيُقالُ لهُ : لوْ مسحْتَ هٰذا الرَّمصَ ، فيقولُ : فأينَ قولُ الطبيبِ وهوَ يقولُ لي : لا تمسَّ عينيكَ ، فأقولُ : لا أفعلُ ؟![٢] .

وهٰذهِ مراقبةُ أهلِ الورعِ ، ومَنْ تركَهُ . . انسلَّ لسانُهُ في الكذبِ عنْ حدِّ اختيارِهِ ، فيكذبُ ولا يشعرُ .

وعن جوَّابٍ التيميِّ قالَ : جاءَتْ أختُ الربيعِ بنِ خُثيمٍ عائدةً إلىٰ بُنيٍّ لهُ ، فانكبَّتْ عليهِ ، فقالَتْ : كيفَ أنتَ يا بُنيَّ ؟ فجلسَ الربيعُ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٦/٤٣٨) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٢٤) ، كلاهما عن أسماء بنت عميس ، قال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٤/٥٤) : (رواه أحمد والطبراني في « الكبير » ، وفيه شداد عن مجاهد ، روىٰ عنه ابن جريج ويونس بن يزيد ، وبقية رجاله رجال الصحيح ، إلا أن أسماء بنت عميس كانت بأرض الحبشة مع زوجها جعفر حين تزوج النبي صلى الله عليه وسلم عائشة ، والصواب حديث أسماء بنت يزيد والله أعلم) ، وهو عن أسماء بنت يزيد عند ابن ماجه (٣٢٩٨) بلفظ المرفوع دون ذكر القصة مفصلة .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥١١) .

فقالَ : أرضعتيهِ ؟ قالَتْ : لا ، قالَ : ما عليكِ لوْ قلتِ : يا بنَ أخي فصدقْتِ ؟![1] .

ومِنَ العادةِ أنْ يقولَ : يعلمُ اللهُ فيما لا يعلمُهُ[2] ، قالَ عيسَىٰ عليهِ السلامُ : (إنَّ مِنْ أعظمِ الذنوبِ عندَ اللهِ أنْ يقولَ العبدُ : إنَّ اللهَ يعلمُ لما لا يعلمُ)[3] .

وربَّما يكذبُ في حكايةِ المنامِ ، والإثمُ فيهِ عظيمٌ ؛ قالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « إنَّ مِنْ أَعْظَمِ الفِرَىٰ أنْ يَدَّعيَ الرَّجلُ إلىٰ غيرِ أبيهِ ، أوْ يُرِيَ عينَهُ في المنامِ ما لمْ ترَ ، أوْ يقولَ عليَّ ما لمْ أَقُلْ »[4] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ كذبَ في حُلْمِهِ . . كُلِّفَ يومَ القيامةِ أنْ يعقِدَ بينَ شعيرتينِ ، وليسَ بعاقدٍ بينَهما أبداً »[5] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٣٣) ، ووقع في النسخ : (خوات) بدل (جواب) .

(٢) أي : القائل .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧٢٧) عن سعيد بن عبد العزيز .

(٤) رواه البخاري (٣٥٠٩) .

(٥) رواه البخاري (٧٠٤٢) ، وأبو داوود (٥٠٢٤) .

الآفة الخامسة عشرة : الغيبة

والنظرُ فيها طويلٌ ، فلنذكرْ أوَّلاً مذمَّةَ الغيبةِ ، وما وردَ فيها مِنْ شواهدِ الشرعِ .

وقدْ نصَّ اللهُ سبحانَهُ علىٰ ذمِّها في كتابِهِ ، وشبَّهَ صاحبَها بآكلِ لحمِ الميتةِ .

فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ (١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « كلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ ؛ دمُهُ ومالُهُ وعِرْضُهُ » (٢) ، والغيبةُ تناولُ العِرضِ ، وقدْ جمعَ اللهُ بينَهُ وبينَ الدمِ والمالِ .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تحاسدُوا ، ولا تباغضُوا ، ولا تناجَشُوا ، ولا تدابَرُوا ، ولا يغتبْ بعضُكمْ بعضاً ، وكونوا عبادَ اللهِ إخواناً » (٣) .

وعنْ جابرٍ وأبي سعيدٍ قالا : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إيَّاكُمْ والغيبةَ ، فإنَّ الغيبةَ أشدُّ مِنَ الزنا ، إنَّ الرَّجلَ قدْ يزني ويتوبُ

---

(١) سورة الحجرات : (١٢) .

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤) ضمن حديث .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٦٣) ، وأصله في « الصحيحين » وقد تقدم .

فيتوبُ اللهُ سبحانَهُ عليهِ ، وإنَّ صاحبَ الغيبةِ لا يُغفرُ لهُ حتَّىٰ يغفرَ لهُ صاحبُهُ »[١] .

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مررْتُ ليلةَ أُسريَ بي علىٰ قومٍ يخمِشُونَ وجوهَهُم بأظافيرِهِمْ ، فقلْتُ : يا جبريلُ ؛ مَنْ هٰؤلاءِ ؟ قالَ : هٰؤلاءِ الذينَ يغتابونَ الناسَ ويقعونَ في أعراضِهِمْ »[٢] .

وقالَ سليمُ بنُ جابرٍ : أتيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقلْتُ : علِّمني خيراً ينفعُني اللهُ بهِ ، فقالَ : « لا تحقرَنَّ مِنَ المعروفِ شيئاً ولوْ أنْ تصبَّ مِنْ دلوكَ في إناءِ المستسقي ، وأنْ تلقىٰ أخاكَ ببشرٍ حسنٍ ، وإذا أدبرَ . . فلا تغتابُهُ »[٣] .

وقالَ البراءُ : خطبَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ أسمعَ العواتقَ في بيوتِها ، فقالَ : « يا معشرَ مَنْ آمَنَ بلسانِهِ ولمْ يؤمنْ بقلبِهِ ؛ لا تغتابُوا المسلمينَ ، ولا تتَّبعُوا عوراتِهِمْ ؛ فإنَّهُ مَنْ يتَّبعْ عورةَ أخيهِ . . يتَّبعِ اللهُ عورتَهُ ، ومَنْ يتَّبعِ اللهُ عورتَهُ . . يفضحْهُ في جوفِ بيتِهِ »[٤] .

وقيلَ : أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السَّلامُ : (مَنْ ماتَ تائباً

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٦٤) .
(٢) رواه أبو داوود (٤٨٧٨) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٦٥) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٦٦) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٦٧) ، ورواه أبو داوود (٤٨٨٠) من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه .

مِنَ الغيبةِ . . فهوَ آخرُ مَنْ يدخلُ الجنةَ ، ومَنْ ماتَ مصرّاً عليها . . فهوَ أوّلُ مَنْ يدخلُ النارَ)[1] .

وقالَ أنسٌ : أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الناسَ بصومِ يومٍ وقالَ : « لا يفطرَنَّ أحدٌ حتَّىٰ آذنَ لهُ » ، فصامَ الناسُ ، حتَّىٰ إذا أمسَوا . . جعلَ الرجلُ يجيءُ فيقولُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ظللْتُ صائماً ، فأذنْ لي لأفطرَ ، فيأذنُ لهُ ، والرجلُ والرجلُ ، حتَّىٰ جاءَ رجلٌ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ فتاتانِ مِنْ أهلكَ ظلَّتا صائمتينِ ، وإنَّهما يستحيانِ أنْ يأتياكَ ، فأذنْ لهما أنْ يفطرا ، فأعرضَ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ عاودَهُ فأعرضَ عنهُ ، ثمَّ عاودَهُ ، فقالَ : « إنَّهما لمْ يصوما ، وكيفَ صامَ منْ ظلَّ هٰذا اليومَ يأكلُ لحومَ النَّاسِ ، اذهبْ فمرْهُما إنْ كانتا صائمتَينِ أنْ تستقِيئا » ، فرجعَ إليهما فأخبرَهُما ، فاستقاءَتا ، فقاءَتْ كلُّ واحدةٍ منهُما علقةً مِنْ دمٍ ، فرجعَ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأخبرَهُ ، فقالَ : « والذي نفسُ محمدٍ بيدهِ ؛ لوْ بقيَتا في بطونِهما . . لأكلَتْهُما النَّارُ »[2] .

وفي روايةٍ : أنَّهُ لمَّا أعرضَ عنهُ . . جاءَهُ بعدَ ذٰلكَ وقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّهما واللهِ لقدْ ماتَتَا أوْ كادَتا أنْ تموتا ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ائتوني بهِما » ، فجاءَتا ، فدعا بعُسٍّ ، فقالَ لإحداهما : « قيئي » ، فقاءَتْ مِنْ قيحٍ ودمٍ وصديدٍ حتَّىٰ ملأتِ

---

(١) الرسالة القشيرية (ص ٢٨٤) ، وانظر « تنبيه الغافلين » للسمرقندي (ص ١٦٥) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٧٠) .

القدحَ ، وقالَ للأخرىٰ : « قيئي » ، فقاءَتْ كذٰلكَ ، فقالَ : « إنَّ هاتينِ صامتَا عمَّا أحلَّ اللهُ لهما ، وأفطرتا علىٰ ما حرَّمَ اللهُ عليهما ، جلسَتْ إحداهُما إلى الأخرىٰ ، فجعلَتا تأكلانِ لحومَ الناسِ »(١) .

وقالَ أنسٌ : خطبَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فذكرَ الرِّبا وعظَّمَ شأنَهُ ، فقالَ : « إنَّ الدرهَمَ يصيبُهُ الرَّجلُ من الرِّبا أعظمُ عندَ اللهِ في الخطيئةِ مِنْ ستٍّ وثلاثينَ زنيةً يزنيها الرَّجلُ ، وإنَّ أربى الربا عِرْضُ الرَّجلِ المسلمِ »(٢) .

وقالَ جابرٌ : كنَّا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في مسيرٍ ، فأتىٰ علىٰ قبرينِ يُعذَّبُ صاحباهُما ، فقالَ : « إنَّهما يُعذَّبانِ ، وما يُعذَّبانِ في كبيرٍ ، أمَّا أحدُهُما . . فكانَ يغتابُ النَّاسَ ، وأمَّا الآخرُ . . فكانَ لا يستنزهُ مِنْ بَولِهِ » ، ودعا بجريدةٍ رطبةٍ أوْ جريدتينِ ، فكسرَهُما ، ثمَّ أمرَ بكلِّ كسرةٍ فغرِسَتْ علىٰ قبرٍ ، فقالَ : « أمَا إنَّه سيُهَوَّنُ مِنْ عذابِهِما ما كانَتا رطبتيْنِ » ، أوْ « ما لمْ يَيْبَسا »(٣) .

ولـمَّا رجَمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ماعزاً في الزنا . . قالَ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/٤٣١) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٧١) ، وقد تقدمت هٰذه الرواية .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٧٥) ، وإنما شبهه بالربا للاستطالة وتناول الزيادة مما لا يجوز في حقه .

(٣) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٧٣٥) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٧٦) ، وعند البخاري (٢١٦) ، ومسلم (٢٩٢) وفيهما ذكر النميمة بدل الغيبة .

رجلٌ لصاحبِهِ : هٰذا أُقعِصَ كما يُقْعَصُ الكلبُ ، فمرَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهما معَهُ بجيفةٍ ، فقالَ : « انهَشا منها » ، فقالا : يا رسولَ اللهِ ؛ ننهشُ جيفةً ؟! فقالَ : « ما أصبْتُما مِنْ أخيكُما أنتنُ مِنْ هٰذِهِ »(١) .

وكانَ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُم يتلاقونَ بالبِشْرِ ، ولا يغتابونَ عندَ الغَيْبةِ ، ويرونَ ذٰلكَ أفضلَ الأعمالِ ، ويرونَ خلافَهُ عادةَ المنافقينَ .

وقالَ أبو هريرةَ : (مَنْ أكلَ لحمَ أخيهِ في الدُّنيا . . قُرِّبَ إليهِ لحمُهُ في الآخرةِ ، فقيلَ له : كُلْهُ ميتاً كما أكلْتَهُ حيّاً ، فيأكلُهُ ويضِجُّ ويكلَحُ) ، ورُوِيَ مرفوعاً كذٰلكَ(٢) .

ورُوِي أنَّ رجلينِ كانا قاعدينِ عندَ بابٍ مِنْ أبوابِ المسجدِ ، فمرَّ بهما رجلٌ كانَ مخنَّثاً فتركَ ذٰلكَ ، فقالا : لقدْ بقيَ فيهِ منهُ شيءٌ ، فأُقيمَتِ الصلاةُ ، فدخلا فصلَّيا معَ الناسِ ، فحاكَ في أنفسِهما ممَّا قالا ، فأتيا عطاءً فسألاهُ ، فأمرَهُما أنْ يُعيدا الوضوءَ والصلاةَ ، وأمرَهما إنْ كانا صائمينِ أنْ يقضيا صيامَ ذٰلكَ اليومِ(٣) .

وعنْ مجاهدٍ قالَ : (﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾(٤) الهُمَزةُ :

---

(١) رواه الطيالسي في « مسنده » (٢٤٧٣) ، وفيه : (انهسا) بدل (انهشا) ، والنهش والنهس بمعنىً ، وبنحوه رواه أبو داوود (٤٤٢٨) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٧١٢٧) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٧٨) ، ورواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٩٣) عنه مرفوعاً ، **ويضجُّ** : يصيح ويتململ ، **ويكلح** : يعبس وجهه .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٨١) .

(٤) سورة الهمزة : (١) .

الطَّعَّانُ في الناسِ ، واللُّمزَةُ : الذي يأكلُ لحومَ الناسِ)[1] .

وقالَ قتادةُ : (ذُكِرَ لنا أنَّ عذابَ القبرِ ثلاثةُ أثلاثٍ : ثلثٌ مِنَ الغيبةِ ، وثلثٌ مِنَ البولِ ، وثلثٌ مِنَ النميمةِ)[2] .

وقالَ الحسنُ : (واللهِ ؛ لَلْغيبةُ أسرعُ في دينِ المؤمنِ مِنَ الأَكِلَةِ في جسدِهِ)[3] .

وقالَ بعضُهُم : (أدركْنا السَّلفَ وهمْ لا يرونَ العبادةَ في الصَّومِ ولا في الصَّلاةِ ، ولٰكنْ في الكفِّ عنْ أعراضِ الناسِ)[4] .

وقالَ ابنُ عباسٍ : (إذا أردْتَ أنْ تذكرَ عيوبَ صاحبِكَ . . فاذكرْ عيوبَكَ)[5] .

وقالَ أبو هريرةَ : (يبصرُ أحدُكمُ القَذَىٰ في عينِ أخيهِ ويدعُ الجذْعَ في عينِ نفسِهِ)[6] .

وكانَ الحسنُ يقولُ : (ابنَ آدمَ ؛ إنَّكَ لنْ تصيبَ حقيقةَ الإيمانِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٨٥) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٩٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٩٢) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٩٣) عن خصاف وخصيف وعبد الكريم بن مالك .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٩٤) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٩٥) وفيه (الجذل) بدل (الجذع) ، ورواه عنه مرفوعاً بلفظ المصنف القضاعي في « مسند الشهاب » (٦١٠) ، وقد تقدم .

حتَّىٰ لا تعيبَ الناسَ بعيبٍ هوَ فيكَ ، وحتَّىٰ تبدأَ بصلاحِ ذٰلكَ العيبِ فتصلحَهُ مِنْ نفسِكَ ، فإذا فعلْتَ ذٰلكَ . . كانَ شغْلُكَ في خاصَّةِ نفسِكَ ، وأحبُّ العبادِ إلى اللهِ مَنْ كانَ هٰكذا)[1] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : مرَّ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ ومعَهُ الحواريونَ علىٰ جيفةِ كلبٍ ، فقالَ الحواريُّونَ : ما أنتنَ ريحَ هٰذا الكلبِ !! فقالَ عيسىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : ما أشدَّ بياضَ أسنانِهِ[2] . كأنَّهُ عليهِ السلامُ نهاهُمْ عنْ غيبةِ الكلبِ ، ونبَّهَهُمْ علىٰ أنَّهُ لا يُذكرُ شيءٌ مِنْ خلقِ اللهِ إلَّا أحسنُهُ .

وسمعَ عليُّ بنُ الحسينِ رجلاً يغتابُ آخرَ ، فقالَ لهُ : (إيَّاكَ والغيبةَ ؛ فإنَّها إدامُ كلابِ الناسِ)[3] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (عليكُمْ بذكرِ اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ شفاءٌ ، وإيَّاكُمْ وذكرَ النَّاسِ ؛ فإنَّهُ داءٌ)[4] .

نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ لطاعتِهِ .

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٩٨) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٩٧) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٩٩) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٠٤) ، وغالب ما رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » بما يخص الغيبة قد رواه في « ذم الغيبة والنميمة » كذٰلك .

بيان معنى الغيبة وحدّها

اعلمْ : أنَّ حدَّ الغيبةِ : أنْ تذكُرَ أخاكَ بما يكرهُهُ لوْ بلغَهُ ، سواءٌ ذكرْتَ نقصاً في بدنِهِ ، أوْ في نسبِهِ ، أوْ في خُلُقِهِ ، أوْ في فعلِهِ ، أوْ في قولِهِ ، أوْ في دينِهِ ، أوْ في دنياهُ ، وحتَّىٰ في ثوبِهِ ، وفي دارِهِ ودابتِهِ .

أمَّا البدنُ : فكذكرِكَ العمشَ والحوَلَ ، والقَرَعَ ، والقِصَرَ والطولَ ، والسَّوادَ والصفرةَ ، وجميعَ ما يتصوَّرُ أنْ يُوصفَ بهِ ممَّا يكرهُهُ كيفما كانَ .

وأمَّا النسبُ : فأنْ تقولَ : أبوهُ نَبَطيٌّ ، أوْ هنديٌّ ، أوْ فاسقٌ ، أوْ خسيسٌ ، أوْ إسكافٌ ، أوْ زبَّالٌ ، أوْ شيءٌ ممَّا يكرهُهُ كيفما كانَ .

وأمَّا الخُلُقُ : فأنْ تقولَ : هوَ سيِّءُ الخلُقِ ، بخيلٌ ، متكبِّرٌ ، مُراءٍ ، شديدُ الغضبِ ، جبانٌ ، عاجزٌ ، ضعيفُ القلبِ ، متهوِّرٌ ، وما يجري مجراهُ .

وأمَّا في أفعالِهِ المتعلقةِ بالدِّينِ : فكقولِكَ : سارقٌ ، وكذابٌ ، وشاربُ خمرٍ ، وخائنٌ ، وظالمٌ ، ومتهاونٌ بالصلاةِ والزكاةِ ، ولا يحسنُ الركوعَ والسجودَ ، ولا يحترزُ عنِ النجاساتِ ، وليسَ بارّاً بوالديهِ ، ولا يضعُ الزكاةَ موضعَها ، ولا يحسنُ قسمتَها ، ولا يحرُسُ صومَهُ مِنَ الرفثِ والغيبةِ والتعرُّضِ لأعراضِ الناسِ .

وأمَّا فعلُهُ المتعلِّقُ بالدنيا : فكقولِكَ : إنَّهُ قليلُ الأدبِ ، متهاونٌ بالناسِ ، ولا يرىٰ علىٰ نفسِهِ لأحدٍ حقّاً ويرىٰ لنفسِهِ حقّاً ، وإنَّهُ كثيرُ الكلامِ ، كثيرُ الأكلِ ، وإنَّهُ نؤومٌ ، وينامُ في غيرِ وقتِ النومِ ، ويجلسُ في غيرِ موضعِهِ .

وأمَّا في ثوبِهِ : فكقولِكَ : إنَّهُ واسعُ الكُمِّ ، طويلُ الذَّيلِ ، وسخُ الثيابِ .

وقالَ قومٌ : لا غيبةَ في الدِّينِ ؛ لأنَّهُ ذمُّ ما ذمَّهُ اللهُ تعالىٰ ، فذكرُهُ بالمعاصي وذمُّهُ بها يجوزُ ، بدليلِ ما رُويَ : أنَّهُ ذُكِرَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ امرأةٌ وكثرةُ صلاحِها وصومِها وصلاتِها ، ولٰكنَّها تُؤذي جيرانَها بلسانِها ، فقالَ : « هيَ في النَّارِ »[١] ، وذكرَتْ عندَه امرأةٌ أخرىٰ بأنَّها بخيلةٌ ، فقالَ : « فما خيرُها إذاً ؟! »[٢] .

وهٰذا فاسدٌ ؛ لأنَّهم كانُوا يذكرونَ ذٰلكَ لحاجتِهِمْ إلىٰ تعرُّفِ الأحكامِ بالسؤالِ ، ولمْ يكنْ غرضُهمُ التنقُّصَ ، ولا يُحتاجُ إليهِ في غيرِ مجلسِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

والدليلُ عليهِ : إجماعُ الأمةِ أنَّ مَنْ ذكرَ غيرَهُ بما يكرهُهُ . . فهوَ مغتابٌ ؛ لأنَّهُ داخلٌ فيما ذكرَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حدِّ الغيبةِ ، وكلُّ هٰذا وإنْ كانَ صادقاً فيهِ . . فهوَ بِهِ مغتابٌ ، عاصٍ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/٤٤٠) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٧٦٤) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٤٣) عن أبي جعفر محمد بن علي مرسلاً .

لربِّهِ ، وآكلٌ لحمَ أخيهِ ؛ بدليلِ ما رُويَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « هلْ تدرونَ ما الغيبةُ ؟ » قالُوا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قالَ : « ذكرُكَ أخاكَ بما يكرَهُ » ، قيلَ : أرأيتَ إنْ كانَ في أخي ما أقولُ ؟ قالَ : « إنْ كانَ فيهِ ما تقولُ . . فقدِ اغتبتَهُ ، وإنْ لمْ يكُنْ فيهِ . . فقدْ بَهَتَّهُ »[1] .

وقالَ معاذُ بنُ جبلٍ : ذُكِرَ رجلٌ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالوا : ما أعجزَهُ !! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اغتبْتُمْ أخاكُمْ » ، قالُوا : يا رسولَ اللهِ ؛ قلنا ما فيهِ ، قالَ : « إنْ قلتُم ما ليسَ فيهِ . . فقدْ بهتُّموهُ »[2] .

وعنْ أبي حذيفةَ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها أنَّها ذكرَتْ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ امرأةً فقالَتْ : إنَّها قصيرةٌ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اغتبْتِيها »[3] .

وقالَ الحسنُ : (ذِكرُ الغيرِ ثلاثةٌ : الغيبةُ ، والبُهتانُ ، والإفكُ ، والكلُّ في كتابِ اللهِ تعالى ؛ الغيبةُ : أنْ تقولَ ما فيهِ ، والبُهتانُ : أنْ تقولَ ما ليسَ فيهِ ، والإفكُ : أنْ تقولَ ما بلغَكَ) .

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٩) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٠/٣٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٣٠٨) .

(٣) رواه أبو داوود (٤٨٧٥) ، والترمذي (٢٥٠٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٠٧) واللفظ له ، والجميع رواه عن أبي حذيفة عن عائشة ، وفي النسخ : (حذيفة) بدل (أبي حذيفة) .

وذكرَ ابنُ سيرينَ رجلاً فقالَ : ذٰلكَ الرجلُ الأسودُ ، ثمَّ قالَ : أستغفرُ اللهَ ، إنِّي أُراني قدِ اغتبتُهُ [1] .

وذكرَ ابنُ سيرينَ إبراهيمَ النخعيَّ فوضعَ يدَهُ علىٰ عينِهِ ، ولمْ يقلِ : الأعورَ .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : لا يغتابنَّ منكمْ أحدٌ أحداً ؛ فإنِّي قلْتُ لامرأةٍ مرّةً وأنا عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ هٰذهِ لطويلةُ الذَّيلِ ، فقالَ : « ٱلفظي ٱلفظي » ، فلفظتُ بضْعةً مِنْ لحمٍ [2] .

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢١٤) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢١٦) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٢٠١) .

بيان أنّ الغيبة لا تقتصر على اللّسان

اعلمْ : أنَّ الذكرَ باللِّسانِ إنَّما حرُمَ لأنَّ فيهِ تفهيمَ الغيرِ نقصانَ أخيكَ وتعريفَهُ بما يكرهُهُ ، فالتعريضُ بهِ كالتصريحِ ، والفعلُ فيهِ كالقولِ ، والإشارةُ والإيماءُ والغمْزُ والرَّمزُ والكتابةُ والحركةُ وكلُّ ما يُفهِمُ المقصودَ . . فهوَ داخلٌ في الغيبةِ ، وهوَ حرامٌ .

ومِنْ ذٰلكَ : قولُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها : دخلَتْ علينا امرأةٌ ، فلمَّا ولَّتْ . . أومأْتُ بيدي ؛ أيْ : أنَّها قصيرةٌ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « اغتبْتيها »(١) .

ومِنْ ذٰلكَ : المحاكاةُ ؛ بأنْ يمشيَ متعارجاً ، أوْ كما يمشي ؛ فهوَ غيبةٌ ، بلْ هوَ أشدُّ مِنَ الغيبةِ ؛ لأنَّهُ أعظمُ في التصويرِ والتفهيمِ .

ولمَّا رأىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عائشةَ حكَتِ امرأةً . . فقالَ : « ما يسرُّني أنِّي حكيتُ إنساناً ولي كذا وكذا »(٢) .

وكذٰلكَ الغيبةُ بالكتابةِ ؛ فإنَّ القلمَ أحدُ اللسانينِ ، وذكرُ المصنِّفِ شخصاً معيَّناً ، وتهجينُ كلامِهِ في الكتابِ غيبةٌ ، إلَّا أنْ يقترنَ بهِ شيءٌ مِنَ الأعذارِ المُحوِجةِ إلىٰ ذكرِهِ ، كما سيأتي بيانُهُ .

---

(١) تقدم قريباً .

(٢) رواه أبو داوود (٤٨٧٥) ، والترمذي (٢٥٠٢) .

وأمَّا قولُه : قالَ قومٌ : كذا . . فليسَ ذٰلكَ بغيبةٍ ، إنَّما الغيبةُ التعرُّضُ لشخصٍ معيَّنٍ ، إمَّا حيٍّ وإمَّا ميْتٍ .

ومِنَ الغيبةِ : أنْ تقولَ : بعضُ مَنْ مرَّ بنا اليومَ ، أوْ بعضُ مَنْ رأيناهُ ، إذا كانَ المخاطبُ يفهمُ منهُ شخصاً معيَّناً ؛ لأنَّ المحذورَ تفهيمُهُ ، دونَ ما بِهِ التَّفهيمُ ، فأمَّا إذا لمْ يفهمْ عينَهُ . . جازَ ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إذا كرِهَ مِنْ إنسانٍ شيئاً . . قالَ : « ما بالُ أقوامٍ يفعلونَ كذا وكذا » ، وكانَ لا يعيِّنُ (١) .

وقولُكَ : بعضُ مَنْ قدِمَ مِنَ السفرِ ، أوْ بعضُ مَنْ يدَّعي العلمَ ، إذا كانَ معَهُ قرينةٌ تُفهِمُ عينَ الشَّخصِ . . فهوَ غيبةٌ .

وأخبثُ أنواعِ الغيبةِ : غيبةُ القرَّاءِ المرائينَ ، فإنَّهمْ يُفهِمونَ المقصودَ علىٰ صيغةِ أهلِ الصَّلاحِ ؛ ليظهروا مِنْ أنفسِهمُ التَّعفُّفَ عنِ الغيبةِ ، ويُفهِمونَ المقصودَ ، ولا يدرونَ بجهلِهِمْ أنَّهمْ جمعوا بينَ فاحشتَينِ الرياءِ والغيبةِ ، وذٰلكَ مثلُ أنْ يُذكرَ عندَهُ إنسانٌ ، فيقولُ : (الحمدُ للهِ الذي لمْ يبتلِنا بالدُّخولِ على السلطانِ ، والتبذُّلِ في طلبِ الحطامِ) ، أوْ يقولُ : (نعوذُ باللهِ مِنْ قلَّةِ الحياءِ ، نسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يعصمَنا منها) ، وإنَّما قصدُهُ أنْ يفهمَ عيبَ الغيرِ ، فيذكرَهُ بصيغةِ الدعاءِ .

---

(١) فقد روىٰ أبو داوود (٤٧٨٨) عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن الرجل الشيء . . لم يقل : ما بال فلان ، ولٰكن يقول : « ما بال أقوام يقولون كذا وكذا » .

وكذٰلكَ قدْ يقدِّمُ مدحَ مَن يريدُ غيبتَهُ ، فيقولُ : (ما أحسنَ أحوالَ فلانٍ ، ما كانَ يقصِّرُ في العباداتِ ، ولٰكنْ قدِ اعتراهُ فتورٌ ، وابتليَ بما يُبتلىٰ بهِ كلُّنا ، وهوَ قلَّةُ الصبرِ) ، فيذكرُ نفسَهُ ومقصودُهُ أنْ يذمَّ غيرَهُ في ضمنِ ذٰلكَ ، وأنْ يمدحَ نفسَهُ بالتَّشبُّهِ بالصالحينَ في ذمِّ أنفسِهِمْ ، فيكونُ مغتاباً ومرائياً ومزكِّياً نفسَهُ ، فيجمَعُ بينَ ثلاثِ فواحشَ وهوَ يظنُّ بجهلِهِ أنَّهُ مِنَ الصالحينَ المتعففينَ عَنِ الغيبةِ .

وكذٰلكَ يلعبُ الشيطانُ بأهلِ الجهلِ إذا اشتغلوا بالعبادةِ مِنْ غيرِ علمٍ ، فإنَّهُ يتعبُهمْ ، ويُحبِطُ بمكايدِهِ عملَهُمْ ، ويضحَكُ عليهِمْ ، ويسخرُ منهمْ .

ومِنْ **ذٰلكَ** : أنْ يُذكرَ عيبُ إنسانٍ فلا يتنبهُ لهُ بعضُ الحاضرينَ ، فيقولُ : سبحانَ اللهِ !! ما أعجبَ هٰذا !! حتَّىٰ يُصغىٰ إلى المغتابِ ويُعلمَ ما يقولُهُ ، فيذكرُ اللهَ تعالىٰ ، ويستعملُ اسمَه آلةً لهُ في تحقيقِ خبثِهِ ، وهو يمنُّ على اللهِ عزَّ وجلَّ بذكرِهِ جهلاً منهُ وغروراً .

وكذٰلكَ يقولُ : لقدْ ساءَني ما جرىٰ علىٰ صديقِنا مِنَ الاستخفافِ بهِ ، فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يروِّحَ نفسَه ، ويكونُ كاذباً في دعوى الاغتمامِ ، وفي إظهارِ الدعاءِ لهُ ، بلْ لوْ قصدَ الدعاءَ . . لأخفاهُ في خلوتِهِ عَقيبَ صلاتِهِ ، ولوْ كانَ يغتمُّ بهِ . . لاغتمَّ أيضاً بإظهارِ ما يكرهُهُ .

وكذٰلكَ يقولُ : ذٰلكَ المسكينُ قدْ بُلِيَ بآفةٍ عظيمةٍ تابَ اللهُ علينا

وعليهِ ، فهوَ في كلِّ ذٰلكَ يظهرُ الدعاءَ ، واللهُ مطَّلعٌ على خُبْثِ ضميرِهِ وخفيِّ قصدِهِ ، وهوَ لجهلِهِ لا يدري أنَّهُ قدْ تعرَّضَ لمقتٍ أعظمَ ممَّا يتعرَّضُ لهُ الجهَّالُ إذا جاهرُوا .

ومِنْ ذٰلكَ : الإصغاءُ إلى الغيبةِ على سبيلِ التعجُّبِ ؛ فإنَّهُ إنَّما يُظهِرُ التعجُّبَ ليزيدَ نشاطَ المغتابِ في الغيبةِ ، فيندفعَ فيها ، فكأنَّه يستخرجُ الغيبةَ منهُ بهٰذا الطريقِ ، فيقولُ : عجبٌ !! ما علمتُ أنَّه كذٰلكَ !! ما عرفْتُهُ إلى الآنَ إلَّا بالخيرِ !! وكنْتُ أحسبُ فيهِ غيرَ هٰذا !! عافانا اللهُ مِنْ بلائِهِ ، فإنَّ كلَّ ذٰلكَ تصديقٌ للمغتابِ ، والتصديقُ بالغيبةِ غيبةٌ ، بلِ الساكتُ شريكُ المغتابِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المستمِعُ أحدُ المغتابَيْنِ »[1] .

وقد رُوِيَ عنْ أبي بكرٍ وعمرَ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّ أحدَهُما قالَ لصاحبِهِ : إنَّ فلاناً لنؤومٌ ، ثمَّ إنَّهما طلبا أُدْماً مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ليأكلا بهِ الخبزَ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قدِ ائتدَمْتُما » ، فقالا : ما نعلمُهُ ، فقالَ : « بلى ، إنَّكما أكلْتُما مِنْ لحمِ أخيكُما »[2] ، فانظرْ كيفَ جمعَهما ، وكانَ القائلُ أحدَهُما والآخرُ

---

(١) روى أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٣١٢٢/٦) عن الحسن قال : (حدثني سبعة رهط من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن النياحة وعن سماع إلى النياحة ، ونهى عن الغيبة والاستماع إلى الغيبة . . .) الخبر .

(٢) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٨٨) من حديث أنس رضي الله عنه .

مستمعٌ ، وقالَ للرجلينِ اللذينِ قالَ أحدُهما : أُقعِصَ الرجلُ كما يُقعَصُ الكلبُ : « اِنهشا مِنْ هٰذِهِ الجيفةِ »[(١)] ، فجمعَ بينهُما .

فالمستمعُ لا يخرجُ مِنْ إثمِ الغيبةِ إلَّا بأنْ ينكرَ بلسانِهِ .

فإنْ خافَ . . فبقلبِهِ ، وإنْ قدَرَ على القيامِ أوْ قطعِ الكلامِ بكلامٍ آخرَ فلمْ يفعلْهُ . . لزمَهُ .

وإنْ قالَ بلسانِهِ : (اسكُتْ) وهوَ مشتهٍ لذٰلكَ بقلبِهِ . . فذٰلكَ نفاقٌ ، ولا يخرجُهُ مِنَ الإثمِ ما لم يكرهْهُ بقلبِهِ .

ولا يكفي في ذٰلكَ أنْ يشيرَ باليدِ ، أيِ : اسكتْ ، أوْ يشيرَ بحاجبِهِ وجبينِهِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ استحقارٌ للمذكورِ ، بلْ ينبغي أنْ يعظِّمَهُ فيذبَّ عنهُ صريحاً .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أُذِلَّ عندَهُ مؤمِنٌ فلمْ ينصرْهُ وهوَ قادرٌ علىٰ أن ينصرَهُ . . أذلَّهُ اللهُ يومَ القيامةِ علىٰ رؤوسِ الخلائقِ »[(٢)] .

وقالَ أبو الدرداءِ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ردَّ عنْ عرضِ أخيهِ بالغيبِ . . كانَ حقّاً على اللهِ أنْ يردَّ عنْ عرضِهِ يومَ القيامةِ »[(٣)] .

---

(١) تقدم قريباً .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/٤٨٧) ، والطبراني في « الكبير » (٦/٧٣) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الغيبة والنميمة » (١٠٣) ، ورواه الترمذي (١٩٣١) بلفظ : « من رد عن عرض أخيه . . رد الله عن وجهه النار يوم القيامة » .

وقالَ أيضاً : « مَنْ ذبَّ عنْ عرْضِ أخيهِ بالغيبِ . . كانَ حقّاً على اللهِ أنْ يعتقَهُ مِنَ النَّارِ »[١] .

وقدْ وردَ في نصرةِ المسلمِ في الغَيْبةِ وفي فضلِ ذٰلكَ أخبارٌ كثيرةٌ ، أوردْناها في كتابِ آدابِ الصُّحبةِ وحقوقِ المسلمينَ ، فلا نطوِّلُ بإعادتِها .

* * *

(١) رواه أحمد في « المسند » (٦/٤٦١) ، والطبراني في « الكبير » (٢٤/١٧٦) .

بيان الأسباب الباعثة على الغيبة

اعلمْ : أنَّ البواعثَ على الغيبةِ كثيرةٌ ، ولٰكنْ يجمعُها أحدَ عشرَ سبباً ، ثمانيةٌ منها تطَّردُ في حقِّ العامَّةِ ، وثلاثةٌ تختصُّ بأهلِ الدينِ والخاصَّةِ .

أما الثمانيةُ :

فالأوَّلُ : أنْ يشفيَ الغيظَ ، وذٰلكَ إذا جرىٰ سببٌ غضِبَ بهِ عليهِ ، فإنَّهُ إذا هاجَ غضبُهُ . . تشفَّىٰ بذكرِ مساوئِهِ ، فيسبقُ اللِّسانُ إليهِ بالطَّبعِ إنْ لمْ يكُنْ ثَمَّ دينٌ وازعٌ ، وقدْ يمتنعُ تشفِّي الغيظِ عندَ الغضبِ ، فيحتقِنُ الغضبُ في الباطنِ ، فيصيرُ حقداً ثابتاً ، فيكونُ سبباً دائماً لذكرِ المساوئِ ، فالحقدُ والغضبُ مِنَ البواعثِ العظيمةِ على الغيبةِ .

❊ ❊ ❊

الثاني : موافقةُ الأقرانِ ، ومجاملَةُ الرفقاءِ ، ومساعدتُهُمْ على الكلامِ ؛ فإنَّهُمْ إذا كانُوا يتفكَّهونَ بذكرِ الأعراضِ ، فيرىٰ أنَّهُ لوْ أنكرَ عليهِمْ أوْ قطعَ المجلسَ . . استثقلُوهُ ونفرُوا عنهُ ، فيساعدُهُمْ ويرىٰ ذٰلكَ مِنْ حُسْنِ المعاشرةِ ، ويظنُّ أنَّهُ مجاملةٌ في الصحبةِ ، وقدْ يغضبُ رفقاؤُهُ ، فيحتاجُ إلىٰ أنْ يغضبَ لغضبِهِمْ ؛ إظهاراً للمساهمةِ في السراءِ والضَّراءِ ، فيخوضُ معهم في ذكرِ العيوبِ والمساوئِ .

❊ ❊ ❊

الثالثُ : أنْ يستشعرَ مِنْ إنسانٍ أنَّهُ سيقصدُهُ ويطوّلُ لسانَهُ فيهِ ، أوْ يقبّحُ حالَهُ عندَ محتشمٍ ، أوْ يشهدُ عليهِ بشهادةٍ ، فيبادرُهُ قبلَ أنْ يقبّحَ هوَ حالَهُ ويطعنُ فيهِ ليُسقِطَ أثرَ شهادتِهِ ، أوْ يبتدئُ بذكرِ ما فيهِ صادقاً ليكذبَ عليهِ بعدَهُ ، فيروّجُ كذبَهُ بالصدقِ الأوَّلِ ، ويستشهدُ بهِ ويقولُ ما مِنْ عادتي الكذبُ ؛ فإنّي أخبرتُكمْ بكذا وكذا مِنْ أحوالِهِ ، فكانَ كما قلتُ .

❁ ❁ ❁

الرابعُ : أنْ يُنسبَ إلىٰ شيءٍ ، فيريدُ أنْ يتبرَّأَ منهُ ، فيذكرُ الذي فعلَهُ ، وكانَ مِنْ حقِّهِ أنْ يبرّئَ نفسَهُ ، ولا يذكرَ الذي فعلَهُ ، فلا ينسبَ غيرَهُ إليهِ ، أوْ يذكرَ غيرَهُ بأنَّهُ كانَ مشاركاً لهُ في الفعلِ ؛ ليمهّدَ بذٰلكَ عذرَ نفسِهِ في فعلِهِ .

❁ ❁ ❁

الخامسُ : إرادةُ التصنُّعِ والمباهاةِ ، وهوَ أنْ يرفعَ نفسَهُ بتنقيصِ غيرِهِ ، فيقولُ : فلانٌ جاهلٌ ، وفهمُهُ ركيكٌ ، وكلامُهُ ضعيفٌ ، وغرضُهُ : أنْ يثبتَ في ضمنِ ذٰلكَ فضلَ نفسِهِ ، ويريَهُمْ أنَّهُ أفضلُ منهُ ، أوْ يحذَرَ أنْ يُعظَّمَ مثلَ تعظيمِهِ ؛ فيقدحُ فيهِ لذٰلكَ .

❁ ❁ ❁

السادسُ : الحسدُ ، وهوَ أنَّهُ ربَّما يحسدُ مَنْ يثني الناسُ عليهِ ، ويحبُّونَهُ ويكرمونَهُ ، فيريدُ زوالَ تلكَ النعمةِ عنهُ ، فلا يجدُ سبيلاً إليهِ

إلَّا بالقدْحِ فيهِ ، فيريدُ أنْ يسقطَ ماءَ وجهِهِ عندَ الناسِ ؛ حتَّىٰ يكفُّوا عنْ إكرامِهِ والثناءِ عليهِ ؛ لأنَّهُ يثقلُ عليهِ أنْ يسمعَ ثناءَ الناسِ عليهِ ، وإكرامَهُمْ لهُ ، وهـٰذا هوَ عينُ الحسَدِ ، وهوَ غيرُ الغضبِ والحقدِ ، فإنَّ ذٰلكَ يستدعي جنايةً مِنَ المغضوبِ عليهِ ، والحسدُ قدْ يكونُ معَ الصديقِ المحسنِ والقريبِ الموافقِ .

❁ ❁ ❁

السابعُ : اللعبُ ، والهزلُ ، والمطايبةُ ، وتزجيةُ الوقتِ بالضَّحكِ ، فيذكرُ غيرَهُ بما يضحِكُ الناسَ علىٰ سبيلِ المحاكاةِ والتَّعجُّبِ والتَّعجيبِ .

❁ ❁ ❁

الثامنُ : السخريةُ والاستهزاءُ استحقاراً لهُ ، فإنَّ ذٰلكَ قدْ يجري في الحضورِ ويجري أيضاً في الغَيْبةِ ، ومنشؤُهُ التكبُّرُ واستصغارُ المستهزَأِ بهِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الأسبابُ الثلاثةُ التي هيَ في الخاصَّةِ . . فهيَ أغمضُها وأدقُّها ؛ لأنَّها شرورٌ خبأَها الشيطانُ في معرِضِ الخيراتِ ، وفيها خيرٌ ، ولـٰكنْ شابَ الشيطانُ بها الشَّرَّ .

الأولُ : أنْ تنبعثَ مِنَ الدينِ داعيةُ التَّعجُّبِ مِنْ إنكارِ المنكرِ والخطأِ في الدينِ ، فيقولَ : ما أعجبَ ما رأيتُ مِنْ فلانٍ ؛ فإنَّهُ قدْ يكونُ بهِ صادقاً ، ويكونُ تعجبُهُ مِنَ المنكرِ ، ولـٰكنْ كانَ حقُّهُ أنْ

يتعجَّبَ ولا يذكرَ اسمَهُ ، فيسهِّلُ الشيطانُ عليهِ ذكرَ اسمِهِ في إظهارِ تعجُّبِهِ ، فصارَ بهِ مغتاباً وآثماً مِنْ حيثُ لا يدري .

ومِنْ ذٰلكَ قولُ الرجلِ : تعجَّبتُ مِنْ فلانٍ كيفَ يحبُّ جاريتَهُ وهيَ قبيحةٌ ، وكيفَ يجلسُ بينَ يديْ فلانٍ وهوَ جاهلٌ .

الثاني : الرَّحمةُ ، وهوَ أنْ يغتمَّ بسببِ ما يُبتلىٰ بهِ ، فيقولَ : مسكينٌ فلانٌ قدْ غمَّني أمرُهُ وما ابتُليَ بهِ ، فيكونُ صادقاً في دعوى الاغتمامِ ، ويلهيهِ الغمُّ عنِ الحذرِ عنْ ذكرِ اسمِهِ ، فيذكرُهُ ، فيصيرُ بهِ مغتاباً ، فيكونُ غمُّهُ ورحمتُهُ خيراً ، وكذا تعجُّبُهُ ، ولٰكنْ ساقَهُ الشيطانُ إلىٰ شرٍّ مِنْ حيثُ لا يدري ، والتَّرحُّمُ والاغتمامُ ممكنٌ دونَ ذكرِ اسمِهِ ، فيهيِّجُهُ الشَّيطانُ علىٰ ذكرِ اسمِهِ ؛ ليبطلَ بهِ ثوابَ اغتمامِهِ وترحُّمِهِ .

الثالثُ : الغضبُ للهِ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ قدْ يغضبُ علىٰ منكرٍ قارفَهُ إنسانٌ إذا رآهُ أوْ سمعَهُ ، فيُظهِرُ غضبَهُ ويذكرُ اسمَهُ ، وكانَ الواجبُ أنْ يُظهِرَ غضبَهُ عليهِ بالأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ ، ولا يُظهِرَهُ علىٰ غيرِهِ ، أوْ يسترَ اسمَهُ ولا يذكرَهُ بالسُّوءِ .

فهٰذهِ الثلاثةُ مما يغمضُ دَرْكُها على العلماءِ فضلاً عنِ العوامِّ ؛ فإنَّهمْ يظنُّونَ أنَّ التعجُّبَ والرحمةَ والغضبَ إذا كانَ للهِ تعالىٰ . . كانَ عذراً في ذكرِ الاسمِ ، وهوَ خطأٌ ، بلِ المرخِّصُ في الغيبةِ حاجاتٌ مخصوصةٌ لا مندوحةَ فيها عنْ ذكرِ الاسمِ كما سيأتي ذكرُهُ .

رُوِيَ عنْ عامرِ بنِ واثلةَ : أنَّ رجلاً مرَّ علىٰ قومٍ في حياةِ رسولِ اللهِ

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فسلَّمَ عليهِمْ ، فردُّوا عليهِ السَّلامَ ، فلمَّا جاوزَهُم . . قالَ رجلٌ منهُمْ : إنِّي لأبغضُ هٰذا للهِ تعالىٰ ، فقالَ أهلُ المجلسِ : لبئسَ ما قلْتَ ، واللهِ ؛ لننبئنَّهُ ، ثمَّ قالُوا : قمْ يا فلانُ ـ لرجلٍ منهُمْ ـ فأدركْهُ فأخبرْهُ بما قالَ : فأدركَهُ رسولُهُمْ فأخبرَهُ بما قالَ ، فأتى الرجلُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وحكىٰ لهُ ما قالَهُ ، وسألَهُ أنْ يدعوَهُ ، فدعاهُ وسألَهُ ، فقالَ : قدْ قلْتُ ذٰلكَ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لِمَ تبغضُهُ ؟ » ، قالَ : أنا جارُهُ ، وأنا بهِ خابرٌ ، واللهِ ؛ ما رأيتُهُ يصلي صلاةً قطُّ إلَّا هٰذهِ المكتوبةَ ، قالَ : فاسألْهُ يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ رآني قطُّ أخرْتُها عنْ وقتِها ، أوْ أسأتُ الوضوءَ لها ، أوِ الركوعَ والسجودَ فيها ؟ فسألَهُ ، فقالَ : لا ، فقالَ : واللهِ ؛ ما رأيتُهُ يصومُ شهراً قطُّ إلَّا هٰذا الشَّهرَ الذي يصومُهُ البَرُّ والفاجرُ ، قالَ : فاسألْهُ يا رسولَ اللهِ : هلْ رآني قطُّ أفطرْتُ فيهِ ، أوْ نقصْتُ مِنْ حقِّهِ شيئاً ؟ فسألَهُ ، فقالَ : لا ، قالَ : واللهِ ؛ ما رأيتُهُ يُعطي سائلاً ولا مسكيناً قطُّ ، ولا رأيتُهُ ينفقُ مِنْ مالِهِ شيئاً في سبيلِ اللهِ إلَّا هٰذهِ الزكاةَ التي يؤدِّيها البَرُّ والفاجرُ ، قالَ : فاسألهُ يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ رآني نقصْتُ منها شيئاً ، أوْ ماكَسْتُ فيها طالبَها الذي يسألُها ؟ فسألَهُ ، فقالَ : لا ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للرَّجلِ : « قمْ فلعلَّهُ خيرٌ منكَ » (١) .

❋ ❋ ❋

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/٤٥٥) .

بيان العلاج الذي به يُمنع اللسان من الغيبة

اعلمْ : أنَّ مساوئَ الأخلاقِ كلَّها إنَّما تُعالجُ بمعجونِ العلمِ والعملِ ، وإنَّما علاجُ كلِّ علةٍ بمضادَّةِ سببِها ، فلنفحصْ عنْ سببِها .

وعلاجُ كفِّ اللسانِ عنِ الغيبةِ علىٰ وجهينِ ؛ أحدُهما على الجملةِ ، والآخرُ على التَّفصيلِ .

أمَّا على الجملةِ : فهوَ أنْ يعلمَ تعرُّضَهُ لسخطِ اللهِ تعالىٰ بغيبتِهِ بهٰذهِ الأخبارِ التي رويناها ، وأنْ يعلمَ أنَّها تحبطُ حسناتِهِ يومَ القيامةِ ؛ فإنَّها تنقلُ يومَ القيامةِ حسناتِهِ إلىٰ مَنِ اغتابَهُ بدلاً عمَّا اجتاحَهُ مِنْ عرضِهِ ، فإنْ لمْ تكُنْ لهُ حسناتٌ . . نُقلَ إليهِ مِنْ سيئاتِ خصمِهِ ، وهوَ معَ ذٰلكَ متعرِّضٌ لمقتِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ومشبَّهٌ عندَهُ بآكلِ الميتةِ ، بلِ العبدُ يدخلُ النارَ بأنْ تترجَّحَ كِفَّةُ سيئاتِهِ علىٰ كِفَّةِ حسناتِهِ ، وربَّما تُنقلُ إليهِ سيئةٌ واحدةٌ ممَّنِ اغتابَهُ فيحصلُ بها الرجحانُ ويدخلُ بها النارَ ، وإنَّما أقلُّ الدرجاتِ أنْ تنقصَ مِنْ ثوابِ أعمالِهِ ، وذٰلكَ بعدَ المخاصمةِ والمطالبةِ ، والسؤالِ والجوابِ والحسابِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما النَّارُ في اليبسِ بأسرعَ مِنَ الغيبةِ في حسناتِ العبدِ » (١) .

(١) ما رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٠٢) عن الحسن قوله : (إياكم والغيبة ، والذي نفسي بيده ؛ لهي أسرع في الحسنات من النار في الحطب) ، أما مرفوعاً . . فقد قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٧/٥٤٨) .

ورُوِيَ أنَّ رجلاً قالَ للحسنِ : بلغَني أنَّكَ تغتابُني ، فقالَ : ما بلغَ مِنْ قدرِكَ عندي أنْ أحكِّمَكَ في حسناتِي .

فمهما آمنَ العبدُ بما وردَ مِنَ الأخبارِ في الغيبةِ . . لمْ يطلقْ لسانَهُ بها خوفاً مِنْ ذٰلكَ .

وينفعُهُ أيضاً : أنْ يتدبَّرَ في نفسِهِ ، فإنْ وجدَ فيها عيباً . . اشتغلَ بعيبِ نفسِهِ ، وذكرَ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طوبىٰ لمَنْ شغلَهُ عيبُهُ عنْ عيوبِ النَّاسِ »(١) .

ومهما وجدَ عيباً . . فينبغي أنْ يستحييَ مِنْ أنْ يتركَ ذمَّ نفسِهِ ويذمَّ غيرَهُ ، بلْ ينبغي أنْ يتحقَّقَ أنَّ عجزَ غيرِهِ عنْ نفسِهِ في التنزُّهِ عنْ ذٰلكَ العيبِ كعجزِهِ ، وهٰذا إنْ كانَ ذٰلكَ عيباً يتعلَّقُ بفعلِهِ واختيارِهِ .

وإنْ كانَ أمراً خلْقيّاً . . فالذمُّ لهُ ذمٌّ للخالقِ ، فإنَّ مَنْ ذمَّ صنعةً . . فقدْ ذمَّ صانعَها ، قالَ رجلٌ لحكيمٍ : يا قبيحَ الوجهِ ، قالَ : ما كانَ خلقُ وجهي إليَّ فأحسنَهُ .

وإنْ لمْ يجدِ العبدُ عيباً في نفسِهِ . . فليشكرِ اللهَ تعالىٰ ، ولا يلوِّثنَّ نفسَهُ بأعظمِ العيوبِ ، فإنَّ ثلبَ الناسِ وأكلَ لحمِ الميتةِ مِنْ أعظمِ العيوبِ ، بلْ لوْ أنصفَ . . لعلمَ أنَّ ظنَّهُ بنفسِهِ أنَّهُ بريءٌ مِنْ كلِّ عيبٍ جهلٌ بنفسِهِ ، وهوَ مِنْ أعظمِ العيوبِ .

وينفعُهُ أنْ يعلمَ أنَّ تألُّمَ غيرِهِ بغيبتِهِ كتألُّمِهِ بغيبةِ غيرِهِ لهُ ، فإذا

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٩) .

كانَ لا يرضىٰ لنفسِهِ أنْ يُغتابَ . . فينبغي ألَّا يرضىٰ لغيرِهِ ما لا يرضاهُ لنفسِهِ .

فهٰذهِ معالجاتٌ جمليَّةٌ .

أمَّا التفصيلُ : فهوَ أنْ ينظرَ في السببِ الباعثِ لهُ على الغيبةِ ، فإنَّ علاجَ العلةِ بقطعِ سببِها ، وقدْ قدَّمنا الأسبابَ .

أمَّا الغضبُ . . فيعالجُهُ بما سيأتي في كتابِ آفاتِ الغضبِ ، وهوَ أنْ يقولَ : إنِّي إنْ أمضيتُ غضبي عليهِ . . فلعلَّ اللهَ يمضي غضبَهُ عليَّ بسببِ الغيبةِ ؛ إذْ نهاني عنها فاجترأتُ علىٰ نهيهِ واستخففْتُ بزجرِهِ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لجهنمَ باباً لا يدخلُ منهُ إلَّا مَنْ شفىٰ غيظَهُ بمعصيةِ اللهِ تعالىٰ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « منِ اتَّقىٰ ربَّهُ . . كلَّ لسانُهُ ، ولمْ يشفِ غيظَهُ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « منْ كظمَ غيظاً وهوَ يقدرُ علىٰ أنْ يمضيَهُ . . دعاهُ اللهُ تعالىٰ يومَ القيامةِ علىٰ رؤوسِ الخلائقِ حتَّىٰ يخيِّرَهُ في أيِّ الحورِ شاءَ »[3] .

---

(١) رواه البزار في « مسنده » (٥١٨٠) ، وابن عدي في « الكامل » (٦/٥١) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٩٧٨) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الورع » (١٠٤) ، والعقيلي في « الضعفاء » (٢/٧٣٤) .
(٣) رواه أبو داوود (٤٧٧٧) ، والترمذي (٢٤٩٣) ، وابن ماجه (٤١٨٦) .

وفي بعضِ الكتبِ المنزلةِ علىٰ بعضِ النبيينَ : (يا بنَ آدمَ ؛ اذكرْني حينَ تغضبُ . . أذكرْكَ حينَ أغضبُ ، فلا أمحقُكَ فيمَنْ أمحقُ)[١] .

وأمَّا الموافقةُ[٢] . . فبأنْ تعلمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ يغضبُ عليكَ إذا طلبتَ سخطَهُ في رضا المخلوقينَ ، فكيفَ ترضىٰ لنفسِكَ أنْ توقِّرَ غيرَكَ وتحقِّرَ مولاكَ ، فتتركَ رضاهُ لرضاهُمْ ؟! إلَّا أنْ يكونَ غضبُكَ للهِ تعالىٰ ، وذٰلكَ لا يوجبُ أنْ تذكرَ المغضوبَ عليهِ بسوءٍ ، بلْ ينبغي أنْ تغضبَ للهِ أيضاً علىٰ رفقائِكَ إذا ذكروهُ بالسُّوءِ ؛ فإنَّهمْ عصَوا ربَّكَ بأفحشِ الذنوبِ ، وهيَ الغيبةُ .

وأمَّا تنزيهُ النفسِ بنسبةِ الغيرِ إلى الجنايةِ ؛ حيثُ يُستغنىٰ عنْ ذكرِ الغيرِ . . فتعالجُهُ بأنْ تعرفَ أنَّ التعرُّضَ لمقتِ الخالقِ أشدُّ مِنَ التعرُّضِ لمقتِ المخلوقينَ ، وأنتَ بالغيبةِ متعرِّضٌ لسخطِ اللهِ يقيناً ، ولا تدري أنَّكَ تتخلَّصُ مِنْ سخطِ الناسِ أمْ لا ، فتخلِّصُ نفسَكَ في الدنيا بالتوهُّمِ ، وتَهلِكُ في الآخرةِ وتخسرُ حسناتِكَ بالحقيقةِ ، ويحصلُ لكَ ذمُّ اللهِ عزَّ وجلَّ نقداً وتنتظرُ دفعَ ذمِّ الخلقِ نسيئةً ، وهٰذا غايةُ الجهلِ والخذلانِ .

وأمَّا عذرُكَ ؛ كقولِكَ : إنِّي إنْ أكلْتُ الحرامَ ففلانٌ يأكلُهُ ،

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (ص ٤٥) ، وابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٥٠) عن وهيب بن الورد المكي .

(٢) أي : مع الرفقاء .

وإنْ قبلْتُ مالَ السلطانِ ففلانٌ يقبلُهُ . . فهٰذا جهلٌ ؛ لأنَّكَ تعتذرُ بالاقتداءِ بمَنْ لا يجوزُ الاقتداءُ بهِ ، فإنَّ مَنْ خالفَ أمرَ اللهِ تعالىٰ لا يُقتدىٰ بهِ كائناً مَنْ كانَ ، ولوْ دخلَ غيرُكَ النارَ وأنتَ تقدرُ علىٰ ألا تدخلَها . . لمْ توافقْهُ ، ولوْ وافقتَهُ . . لسُفِّهَ عقلُكَ ، فما ذكرتَهُ غيبةٌ وزيادةُ معصيةٍ أضفتَها إلىٰ ما اعتذرْتَ عنهُ ، وسَجَّلْتَ معَ الجمعِ بينَ المعصيتينِ علىٰ جهلِك وغباوتِكَ ، وكنتَ كالشاةِ تنظرُ إلى العنزِ تردِّي نفسَها من قُلَّةِ الجبلِ ، فهيَ أيضاً تردِّي نفسَها ولوْ كانَ لها لسانٌ ناطقٌ وصرَّحْت بالعذرِ وقالَتْ : العنزُ أكيسُ منِّي وقدْ أهلكَتْ نفسَها ، فكذٰلكَ أفعلُ . . لكنتَ تضحكُ من جهلِها ، وحالُكَ مثلُ حالِها ، ثمَّ لا تعجبُ ولا تضحكُ مِنْ نفسكَ !!

وأمَّا قصدُكَ المباهاةَ وتزكيةَ النفسِ بزيادةِ الفضلِ بأنْ تقدحَ في غيرِكَ . . فينبغي أنْ تعلمَ أنَّكَ بما ذكرتَهُ بهِ أبطلْتَ فضلَكَ عندَ اللهِ ، وأنتَ مِنِ اعتقادِ الناسِ فضلَكَ علىٰ خطرٍ ، وربَّما نقصَ اعتقادُهُمْ فيكَ إذا عرفوكَ بثلْبِ الناسِ ، فتكونُ قدْ بعتَ ما عندَ الخالقِ يقيناً بما عندَ المخلوقينَ وهْماً ، ولوْ حصلَ لكَ مِنَ المخلوقينَ اعتقادُ الفضلِ . . لكانُوا لا يغنونَ عنكَ مِنَ اللهِ شيئاً .

وأمَّا الغيبةُ لأجلِ الحسدِ . . فهوَ جمعٌ بينَ عذابينِ ؛ لأنَّكَ حسدْتَهُ علىٰ نعمةِ الدنيا ، وكنتَ في الدنيا معذَّباً بالحسدِ ، فما قنعْتَ بذٰلكَ حتَّىٰ أضفْتَ إليهِ عذابَ الآخرةِ لتجمعَ بينَ النَّكالينِ ، فكنتَ خاسراً في الدنيا ، فصرْتَ أيضاً خاسراً في الآخرةِ ، فقدْ قصدتَ محسودَكَ

فأصبتَ نفسَكَ ، وأهديتَ إليهِ حسناتِكَ ، فإذا أنتَ صديقُهُ وعدوُّ نفسِكَ ، إذْ لا تضرُّهُ غيبتُكَ وتضرُّكَ ، وتنفعُهُ إذْ تنقلُ إليهِ حسناتِكَ أوْ تنقلُ إليكَ سيئاتِهِ ولا تنفعُكَ ، وقدْ جمعْتَ إلىٰ خبثِ الحسدِ جهلَ الحماقةِ ، وربَّما يكونُ حسدُكَ وقدحُكَ سببَ انتشارِ فضلِ محسودِكَ ، فقدْ قيلَ [1] : [من الكامل]

وَإِذَا أَرَادَ ٱللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ ... طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ

وأمَّا الاستهزاءُ . . فمقصودُكَ منهُ إخزاءُ غيرِكَ عندَ الناسِ بإخزاءِ نفسِكَ عندَ اللهِ تعالىٰ وعندَ الملائكةِ والنبيِّينَ عليهِم الصلاةُ والسلامُ ، فلوْ تفكَّرتَ في حسرتِكَ وجنايتِكَ وخجلتِكَ وخزيِكَ يومَ القيامةِ ، يومَ تحملُ سيئاتِ مَنِ استهزأْتَ بهِ وتُساقُ إلى النارِ . . لأدهشَكَ ذٰلكَ عنْ إخزاءِ صاحبِكَ ، ولوْ عرفْتَ حالَكَ . . لكنتَ أولىٰ أنْ يُضحَكَ منكَ ، فإنَّكَ سخرْتَ بهِ عندَ نفرٍ قليلٍ ، وعرَّضتَ نفسَكَ لأَنْ يأخذَ يومَ القيامةِ بيدكَ علىٰ ملأٍ مِنَ الناسِ ويسوقُكَ تحتَ سيئاتِهِ كما يُساقُ الحمارُ إلى النارِ ، مستهزِئاً بكَ ، وفَرِحاً بخزيِكَ ، ومسروراً بنصرةِ اللهِ تعالىٰ إيَّاهُ عليكَ ، وتسلُّطِهِ على الانتقامِ منكَ .

وأمَّا الرحمةُ لهُ علىٰ إثمِهِ . . فهوَ حسنٌ ، ولٰكنْ حسدَكَ إبليسُ فأضلَّكَ ، واستنطقَكَ بما ينقلُ مِنْ حسناتِكَ إليهِ ما هوَ أكثرُ مِنْ رحمتِكَ ، فيكونُ جبراً لإثمِ المرحومِ ، فيخرجُ عنْ كونِهِ مرحوماً ،

(١) البيت لأبي تمام في « ديوانه بشرح التبريزي » (١/٣٩٧) .

وتنقلبُ أنتَ مستحقاً لأَنْ تكونَ مرحوماً ؛ إذْ حبِطَ أجرُكَ ، ونقَّصت مِنْ حسناتِكَ .

وكذٰلكَ الغضبُ للهِ عزَّ وجلَّ لا يوجبُ الغيبةَ ، وإنَّما الشيطانُ حبَّب إليكَ الغيبةَ ليحبطَ أجرَ غضبِكَ ، وتصيرَ مُعرَّضاً لغضبِ اللهِ عزَّ وجلَّ بالغيبةِ .

وأمَّا التعجُّبُ إذا أخرجَكَ إلى الغيبةِ . . فتعجَّبْ مِنْ نفسِكَ أنَّكَ كيفَ أهلكْتَ نفسَكَ ودينَكَ بدينِ غيرِكَ أوْ بدنياهُ وأنتَ معَ ذٰلكَ لا تأمنُ عقوبةَ الدنيا ، وهوَ أنْ يهتِكَ اللهُ سترَكَ كما هتكتَ بالتعجُّبِ سترَ أخيكَ .

فإذاً ؛ علاجُ جميعِ ذٰلكَ : المعرفةُ فقطْ ، والتحقُّقُ بهٰذهِ الأمورِ التي هيَ مِنْ أبوابِ الإيمانِ ، فمَنْ قويَ إيمانُهُ بجميعِ ذٰلكَ . . انكفَّ لسانُهُ عنِ الغيبةِ لا محالةَ .

❋ ❋ ❋

بيان تحريم الغيبة بالقلب

اعلمْ : أنَّ سوءَ الظنِّ حرامٌ مثلَ سوءِ القولِ ، فكما يحرمُ عليكَ أنْ تحدِّثَ غيرَكَ بلسانِكَ بمساوئِ الغيرِ . . فليسَ لكَ أنْ تحدِّثَ نفسَكَ وتسيءَ الظنَّ بأخيكَ ، ولستُ أعني بهِ إلَّا عقدَ القلبِ وحكمَهُ علىٰ غيرِهِ بالسوءِ ، فأمَّا الخواطرُ وحديثُ النفسِ . . فهوَ معفوٌّ عنهُ ، بلِ الشكُّ أيضاً معفوٌّ عنهُ ، ولٰكنَّ المنهيَّ عنهُ أنْ يظنَّ ، والظنُّ : عبارةٌ عمَّا تركَنُ إليهِ النفسُ ، ويميلُ إليهِ القلبُ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾[1] .

وسببُ تحريمِهِ : أنَّ أسرارَ القلوبِ لا يعلمُها إلَّا علَّامُ الغيوبِ ، فليسَ لكَ أنْ تعتقدَ في غيرِكَ سوءاً إلا إذا انكشفَ لكَ بعِيانٍ لا يحتملُ التأويلَ ، فعندَ ذٰلكَ لا يمكنُكَ ألَّا تعتقدَ ما علمتَهُ وشاهدتَهُ ، وما لمْ تشاهدْهُ بعينِكَ ، ولمْ تسمعْهُ بأذنِكَ ، ثمَّ وقعَ في قلبِكَ . . فإنَّما الشيطانُ يلقيهِ إليكَ ، فينبغي أنْ تكذِّبَهُ ؛ فإنَّهُ أفسقُ الفسَّاقِ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ ﴾[2] فلا يجوزُ تصديقُ إبليسَ .

وإنْ كانَ ثَمَّ مَخْيَلَةٌ تدلُّ علىٰ فسادٍ واحتُمِلَ خلافُهُ . . لمْ يجزْ أنْ

---

(١) سورة الحجرات : (١٢) .

(٢) سورة الحجرات : (٦) .

تصدِّقَ بهِ ؛ لأنَّ الفاسقَ يُتصوَّرُ أنْ يصدقَ في خبرِهِ ، ولـٰكنْ لا يجوزُ لكَ أنْ تصدِّقَ بهِ ، حتَّىٰ إنَّ منِ استُنكِهَ فوُجِدَ منهُ رائحةُ الخمرِ لا يجوزُ أنْ يُحَدَّ ؛ إذْ يُقالُ : يمكنُ أنْ يكونَ قدْ تمضمضَ بالخمرِ ومجَّها وما شربَها ، أوْ حُمِلَ عليهِ قهراً ، فكلُّ ذٰلكَ لا محالةَ دلالةٌ محتملةٌ ، فلا يجوزُ تصديقُها بالقلبِ وإساءةُ الظنِّ بالمسلمِ بها .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ حرَّمَ مِنَ المسلمِ دمَهُ ومالَهُ ، وأنْ يُظنَّ بهِ ظنُّ السوءِ »[1] .

فلا يُستباحُ ظنُّ السوءِ إلَّا بما يُستباحُ بهِ المالُ ، وهوَ يقينُ مشاهدتِهِ ، أوْ بيِّنةٌ عادلةٌ ، فإذا لمْ يكنْ ذٰلكَ ، وخطرَ لكَ سوءُ الظَّنِّ . . فينبغي أنْ تدفعَهُ عنْ نفسِكَ ، وتقرِّرَ عليها أنَّ حالَهُ عندَكَ مستورٌ كما كانَ ، وأنَّ ما رأيتَهُ منهُ يحتملُ الخيرَ والشَّرَّ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلْتَ : فبماذا يُعرفُ عقدُ الظَّنِّ والشكوكُ تختلجُ والنفسُ تحدِّثُ ؟

فأقولُ : أمارةُ عقدِ الظَّنِّ : أنْ يتغيَّرَ القلبُ معَهُ عمَّا كانَ ، فينفرَ عنهُ نفوراً ما ، ويستثقلَهُ ، ويفترَ عنْ مراعاتِهِ وتفقُّدِهِ وإكرامِهِ والاغتمامِ بسببِهِ ، فهـٰذهِ أماراتُ عقدِ الظنِّ وتحقيقِهِ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ في المؤمنِ ولهُ منهنَّ مخرجٌ ، فمخرجُهُ مِنْ سوءِ

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٢٨٠) .

الظَّنِّ ألَّا يحقِّقَهُ »[1] أيْ : لا يحقِّقَهُ في نفسِهِ بعقدٍ ولا فعلٍ ، لا في القلبِ ولا في الجوارحِ ، أمَّا في القلبِ . . فبتغيُّرِهِ إلى النفرةِ والكراهةِ ، وأمَّا في الجوارحِ . . فبالعملِ بموجَبِهِ ، والشيطانُ قدْ يقرِّرُ على القلبِ بأدنىٰ مَخْيلةٍ مساءةَ الناسِ ، ويلقي إليهِ أنَّ هٰذا مِنْ فطنتِكَ وسرعةِ تنبُّهِكَ وذكائِكَ ، وأنَّ المؤمنَ ينظرُ بنورِ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ على التحقيقِ ناظرٌ بغرورِ الشيطانِ وظُلمتِهِ .

فأمَّا إذا أخبرَكَ بهِ عدْلٌ ، فمالَ ظنُّكَ إلىٰ تصديقِهِ . . كنتَ معذوراً ؛ لأنَّكَ لوْ كذَّبْتَهُ . . لكنتَ جانياً علىٰ هٰذا العدْلِ ؛ إذْ ظننْتَ بهِ الكذبَ ، وذٰلكَ أيضاً مِنْ سوءِ الظَّنِّ ، فلا ينبغي أنْ تحسنَ الظَّنَّ بواحدٍ وتسيءَ بالآخرِ .

نعمْ ؛ ينبغي أنْ تبحثَ هلْ بينَهُما عداوةٌ ومحاسدةٌ وتعنُّتٌ ، فتتطرَّقَ التهمةُ بسببِهِ ؟ فقدْ ردَّ الشرعُ شهادةَ الأبِ العدلِ للولدِ للتهمةِ ، وردَّ شهادةَ العدوِّ[2] ، فلكَ عندَ ذٰلكَ أنْ تتوقَّفَ وإنْ كانَ عدلاً ؛ فلا تصدقَهُ ولا تكذبَهُ ، ولٰكنْ تقولُ في نفسِكَ : المذكورُ

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٣/٢٢٨) من حديث حارثة بن النعمان رضي الله عنه ، ولفظه مرفوعاً : « ثلاث لازمات لأمتي ؛ الطيرة والحسد وسوء الظن » ، فقال رجل : ما يذهبهن يا رسول الله ممن هو فيه ؟ قال : « إذا حسدت . . فاستغفر الله ، وإذا ظننت . . فلا تحقِّق ، وإذا تطيَّرت . . فامضِ » .

(٢) فقد روى الترمذي (٢٢٩٨) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة ، ولا مجلود حداً ولا مجلودة ، ولا ذي غمر لأخيه ، ولا مجرَّب شهادة ، ولا القانع أهل البيت لهم ، ولا ظنين في ولاء ولا قرابة » ، والقانع هنا : التابع .

حالُهُ كانَ في سترِ اللهِ تعالىٰ عندي ، وكانَ أمرُهُ محجوباً عنِّي ، وقد بقيَ كما كانَ ، لمْ ينكشفْ لي شيءٌ مِنْ أمرِهِ .

وقدْ يكونُ الرجلُ ظاهرُهُ العدالةُ ولا محاسدةَ بينَهُ وبينَ المذكورِ ، ولـٰكنْ يكونُ مِنْ عادتِهِ التعرُّضُ للناسِ ، وذكرُ مساوئِهِمْ ، فهـٰذا قدْ يُظنُّ أنَّهُ عدلٌ وليسَ بعدلٍ ؛ فإنَّ المغتابَ فاسقٌ ، وإنْ كانَ ذٰلكَ مِنْ عادتِهِ . . رُدَّتْ شهادتُهُ ، إلَّا أنَّ الناسَ لكثرةِ الاعتيادِ تساهلُوا في أمرِ الغيبةِ ، ولمْ يكترثوا بتناولِ أعراضِ الخلقِ .

ومهما خطرَ لكَ خاطرُ سوءٍ علىٰ مسلمٍ . . فينبغي أنْ تزيدَ في مراعاتِهِ ، وتدعوَ لهُ بالخيرِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يغيظُ الشيطانَ ، ويدفعُهُ عنكَ ، فلا يلقي إليكَ الخاطرَ السوءَ ؛ خيفةً مِنِ اشتغالِكَ بالدعاءِ والمراعاةِ .

ومهما عرفتَ هفوةَ مسلمٍ بحجَّةٍ . . فانصحْهُ في السِّرِّ ، ولا يخدعنَّكَ الشيطانُ فيدعوَكَ إلى اغتيابِهِ ، وإذا وعظتَهُ . . فلا تعظْهُ وأنتَ مسرورٌ باطلاعِكَ علىٰ نقصِهِ لينظرَ إليكَ بعينِ التعظيمِ ، وتنظرَ إليهِ بعينِ الاستحقارِ ، وتترفَّعَ عليهِ بدالَّةِ الوعظِ ، وليكنْ قصدُكَ تخليصَهُ مِنَ الإثمِ وأنتَ حزينٌ ؛ كما تحزنُ علىٰ نفسِكَ إذا دخلَ عليكَ نقصانٌ في دينِكَ .

وينبغي أنْ يكونَ تركُهُ لذٰلكَ مِنْ غيرِ نصحِكَ أحبَّ إليكَ مِنْ تركِهِ بالنصيحةِ ، فإذا أنتَ فعلتَ ذٰلكَ . . كنتَ قدْ جمعتَ بينَ أجرِ الوعظِ وأجرِ الغمِّ بمصيبتِهِ وأجرِ الإعانةِ لهُ علىٰ دينِهِ .

ومِنْ ثمراتِ سوءِ الظنِّ : التجسُّسُ ، فإنَّ القلبَ لا يقنعُ بالظنِّ ، ويطلبُ التحقيقَ ، فيشتغلُ بالتجسُّسِ ، وهوَ أيضاً منهيٌّ عنهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾[1] ، فالغيبةُ وسوءُ الظنِّ والتجسُّسُ منهيٌّ عنهُ في آيةٍ واحدةٍ .

ومعنى التجسُّسِ : ألَّا تتركَ عبادَ اللهِ تحتَ سترِ اللهِ ، فتتوصلَ إلى الاطلاعِ وهتكِ السترِ حتَّىٰ ينكشفَ لكَ ما لوْ كانَ مستوراً عنكَ . . كانَ أسلمَ لقلبِكَ ودينِكَ ، وقدْ ذكرْنا في كتابِ الأمرِ بالمعروفِ حكمَ التجسُّسِ وحقيقتَهُ .

❋ ❋ ❋

(١) سورة الحجرات : (١٢) .

بيان الأعذار المرخِّصة في الغيبة

اعلمْ : أنَّ المرخِّصَ في الغيبةِ وذكرِ مساوئِ الغيرِ هوَ غرضٌ صحيحٌ في الشرعِ لا يمكنُ التوصُّلُ إليهِ إلا بهِ ، فيدفعُ ذلكَ إثمَ الغيبةِ .

وهيَ ستةُ أمورٍ :

الأولُ : التظلُّمُ :

فإنَّ مَنْ ذكرَ قاضياً بالظُّلمِ والخيانةِ وأخذِ الرشوةِ . . كانَ مغتاباً عاصياً إنْ لمْ يكنْ مظلوماً .

أمَّا المظلومُ مِنْ جهةِ القاضي . . فلهُ أنْ يتظلَّمَ إلى السلطانِ وينسبَهُ إلى الظُّلمِ ؛ إذْ لا يمكنُهُ استيفاءُ حقِّهِ إلا بهِ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لصاحبِ الحقِّ مقالاً »(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَطْلُ الغنيِّ ظلْمٌ »(٢) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لَيُّ الواجدِ يُحِلُّ عرضَهُ وعقوبتَهُ »(٣) .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه البخاري (٢٣٠٦) ، ومسلم (١٦٠١) .

(٢) رواه البخاري (٢٢٨٧) ، ومسلم (١٥٦٤) .

(٣) رواه أبو داوود (٣٦٢٨) ، والنسائي (٣١٦/٧) ، وابن ماجه (٢٤٢٧) ، واللَّيُّ : المطل .

الثاني : الاستعانةُ علىٰ تغييرِ المنكرِ وردِّ العاصي إلىٰ منهجِ الصلاحِ :

كما رُوِيَ أنَّ عمرَ مرَّ علىٰ عثمانَ ـ وقيلَ : علىٰ طلحةَ رضيَ اللهُ عنهمْ أجمعينَ ـ فسلَّمَ عليهِ فلم يردَّ السلامَ ، فذهبَ إلىٰ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ فذكرَ لهُ ذٰلكَ ، فجاءَ أبو بكرٍ إليهِ ليصلحَ ذٰلكَ ، ولمْ يكنْ ذٰلكَ غيبةً عندَهُمْ (١) .

وكذٰلكَ لمَّا بلغَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ أبا جندلٍ قدْ عاقرَ الخمرَ بالشامِ . . كتبَ إليهِ : بسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيمِ : ﴿ حمٓ ۞ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۞ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ . . . ﴾ الآيةَ (٢) ، فتابَ (٣) ، ولمْ يرَ عمرُ ذٰلكَ ممَّنْ أبلغَهُ غيبةً ؛ إذْ كانَ قصدُهُ أنْ ينكرَ عليهِ عمرُ فينفعُهُ نصحُهُ ما لا ينفعُهُ نصحُ غيرِهِ .

وإنَّما إباحةُ هٰذا بالقصدِ الصحيحِ ، فإنْ لمْ يكنْ ذٰلكَ هوَ المقصودَ . . كانَ حراماً .

❁ ❁ ❁

الثالثُ : الاستفتاءُ :

كما يقولُ للمفتي : قدْ ظلمَني أبي أوْ أخي أوْ زوجتي ، فكيفَ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (١/٦) ، وسبب عدم ردِّ عثمان رضي الله عنه لذهوله بوفاة سيد الوجود عليه الصلاة والسلام .

(٢) سورة غافر : (١ ـ ٣) .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١٧٠٧٨) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٩/١٠٥) .

طريقي في الخلاصِ ، والأسلمُ التعريضُ ، بأنْ يقولَ : ما قولُكَ في رجلٍ ظلمَهُ أبوهُ أوْ أخوهُ أوْ زوجتُهُ ؟ ولٰكنَّ التعيينَ مباحٌ بهٰذا العذرِ ؛ لما رُويَ عنْ هندَ بنتِ عتبةَ أنَّها قالَتْ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ أبا سفيانَ رجلٌ شحيحٌ لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي ، أفآخذُ مِنْ غيرِ علمِهِ ؟ فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « خُذي ما يكفيكِ وولدَكِ بالمعروفِ »(١) ، فذكرَتِ الشُّحَّ ، والظلمَ لها ولولدِها ، ولمْ يزجرْها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ كانَ قصدُها الاستفتاءَ .

❁ ❁ ❁

الرابعُ : تحذيرُ المسلمينَ مِنَ الشَّرِّ :

فإذا رأيتَ متفقِّهاً يتردَّدُ إلىٰ مبتدعٍ أوْ فاسقٍ ، وخفتَ أنْ تتعدَّىٰ إليهِ بدعتُهُ أو فسقُهُ . . فلكَ أنْ تكشفَ لهُ بدعتَهُ وفسقَهُ ، مهما كانَ الباعثُ لكَ الخوفَ عليهِ مِنْ سرايةِ البدعةِ والفسقِ لا غيرُ ، وذٰلكَ موضعُ الغرورِ ؛ إذْ قدْ يكونُ الحسدُ هوَ الباعثَ ، ويلبِّسُ الشيطانُ ذٰلكَ بإظهارِ الشفقةِ على الخلقِ .

وكذٰلكَ مَنِ اشترىٰ مملوكاً وقدْ عرفْتَ المملوكَ بالسرقةِ أوْ بالفسقِ أوْ بعيبٍ آخرَ ، فلكَ أنْ تذكرَ ذٰلكَ ؛ فإنَّ في سكوتِكَ ضررَ المشتري ، وفي ذكرِكَ ضررَ العبدِ ، والمشتري أولىٰ بمراعاةِ جانبِهِ .

---

(١) رواه البخاري (٢٢١١) ، ومسلم (١٧١٤) .

وكذٰلكَ المزكِّي إذا سُئلَ عنِ الشاهدِ ، فلهُ الطعنُ فيهِ إنْ علمَ مَطعناً .

وكذٰلكَ المستشارُ في التزويجِ وإيداعِ الأمانةِ لهُ أنْ يذكرَ ما يعرفُهُ علىٰ قصدِ النصحِ للمستشيرِ ، لا علىٰ قصدِ الوقيعةِ ، فإنْ علمَ أنَّهُ يتركُ التزويجَ بمجردِ قولِهِ : (لا يصلحُ لكَ) . . فهوَ الواجبُ ، وفيهِ الكفايةُ ، وإنْ علمَ أنَّهُ لا ينزجرُ إلَّا بالتصريحِ بعيبِهِ . . فلهُ أنْ يصرِّحَ بهِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَتَرعونَ عنْ ذكرِ الفاجرِ ؟ هتِّكُوهُ حتَّىٰ يعرفَهُ الناسُ ، اذكرُوهُ بما فيهِ حتَّىٰ يحذرَهُ النَّاسُ » (١) .

وكانُوا يقولونَ : (ثلاثةٌ لا غيبةَ لهمْ : الإمامُ الجائرُ ، والمبتدعُ ، والمجاهرُ بفسقِهِ) (٢) .

❊ ❊ ❊

الخامسُ : أنْ يكونَ الإنسانُ معروفاً بلقبٍ يعربُ عنْ عيبِهِ :

كالأعرجِ والأعمشِ ، فلا إثمَ علىٰ مَنْ يقولُ : روىٰ أبو الزِّنادِ عن الأعرجِ ، وسليمانُ عنِ الأعمشِ ، وما يجري مجراهُ ، فقدْ فعلَ العلماءُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٢١) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٣٦٩) ، وأتَرعون : أتتحرَّجون وتمتنعون ؛ من ورع يرع كوعد يعد ، وهتِّكوه : اكشفوا حاله وارفعوا ستره . « إتحاف » (٧/٥٥٥) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٢٧) بنحوه .

ذٰلكَ لضرورةِ التعريفِ ، ولأنَّ ذٰلكَ قدْ صارَ بحيثُ لا يكرهُهُ صاحبُهُ لوْ علمَهُ بعدَ أنْ صارَ مشهوراً بهِ .

نعمْ ؛ لوْ وجدَ عنهُ معدلاً ، وأمكنَهُ التعريفُ بعبارةٍ أخرىٰ . . فهوَ أولىٰ ، ولذٰلكَ يُقالَ للأعمى : البصيرُ ؛ عدولاً عنِ اسمِ النقصِ .

❀ ❀ ❀

السادسُ : أنْ يكونَ مجاهراً بالفسقِ :

كالمخنَّثِ ، وصاحبِ الماخورِ ، والمجاهرِ بشربِ الخمرِ ، ومصادرةِ الناسِ ، وكانَ ممنْ يتظاهرُ بالفسقِ ؛ بحيثُ لا يستنكفُ مِنْ أنْ يُذكرَ لهُ ، ولا يكرهُ أنْ يُذكرَ بهِ ، فإذا ذُكرَ منهُ ما يتظاهرُ بهِ . . فلا إثمَ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ألقىٰ جلبابَ الحياءِ عنْ وجهِهِ . . فلا غيبةَ لهُ »[١] .

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (ليسَ لفاجرٍ حرمةٌ)[٢] ، وأرادَ بهِ المجاهرَ بفسقِهِ دونَ المستترِ ؛ إذِ المستترُ لا بدَّ مِنْ مراعاةِ حرمتِهِ .

وقالَ الصَّلتُ بنُ طريفٍ : قلتُ للحسنِ : الرجلُ الفاجرُ المعلنُ بفجورِهِ ذكري لهُ بما فيهِ غيبةٌ ؟ قالَ : لا ، ولا كرامةَ[٣] .

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (١/٣٨٦) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/٢١٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٣٣) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٣٢) .

وقالَ الحسنُ : (ثلاثةٌ لا غيبةَ لهمْ : صاحبُ الهوىٰ ، والفاسقُ المعلنُ بفسقِهِ ، والإمامُ الجائرُ)[١] ، وهٰؤلاءِ الثلاثةُ يجمعُهُمْ أنَّهمْ يتظاهرونَ بهِ ، وربَّما يتفاخرونَ بهِ ، فكيفَ يكرهونَ ذٰلكَ وهمْ يقصدُونَ إظهارَهُ ؟!

نعمْ ؛ لوْ ذكرَهُ بغيرِ ما يتظاهرُ بهِ . . أثمَ .

وقالَ عوفٌ : دخلْتُ على ابنِ سيرينَ ، فتناولْتُ عندَهُ الحجَّاجَ ، فقالَ : إنَّ اللهَ حكمٌ عدْلٌ ينتقمُ للحجاجِ ممَّنِ اغتابَهُ ، كما ينتقمُ مِنَ الحجاجِ لمَنْ ظلمَهُ ، وإنَّكَ إذا لقيتَ اللهَ تعالىٰ غداً . . كانَ أصغرُ ذنبٍ أصبتَهُ أشدَّ عليكَ مِنْ أعظمِ ذنبٍ أصابَهُ الحجَّاجُ[٢] .

* * *

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٣٥) ، وروىٰ عنه أيضاً (٢٣٧) قال : (إذا ظهر فجوره . . فلا غيبة له ، قال : نحو المخنث ونحو الحرورية) ، والحرورية فرقة من الخوارج .

(٢) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص ٢٨٤) ، وبنحوه رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣١٢٢٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٢٧٠) .

بيان كفّارة الغيبة

اعلمْ : أنَّ الواجبَ على المغتابِ[1] أنْ يندمَ ويتوبَ ، ويتأسَّفَ علىٰ ما فعلَهُ ؛ ليخرجَ بهِ مِنْ حقِّ اللهِ سبحانَهُ ، ثمَّ يستحلَّ المغتابَ ليُحِلَّهُ فيخرجَ مِنْ مظلمتِهِ ، وينبغي أنْ يستحلَّهُ وهوَ حزينٌ متأسِّفٌ نادمٌ علىٰ فعلِهِ ، إذِ المرائي قدْ يستحلُّ ليظهرَ مِنْ نفسِهِ الورعَ ، وفي الباطنِ لا يكونُ نادماً ، فيكونُ قدْ قارفَ معصيةً أخرىٰ .

وقالَ الحسنُ : (يكفيهِ الاستغفارُ دونَ الاستحلالِ) ، وربَّما احتجَّ في ذٰلكَ بما روىٰ أنسُ بنُ مالكٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كفَّارةُ مَنِ اغتبْتَ أنْ تستغفرَ لهُ »[2] .

وقالَ مجاهدٌ : (كفارةُ أكلِكَ لحمَ أخيكَ أنْ تثنيَ عليهِ ، وتدعوَ لهُ بخيرٍ)[3] .

وسئلَ عطاءُ بنُ أبي رباحٍ عنِ التوبةِ مِن الفريةِ ، قالَ : أنْ تمشيَ إلىٰ صاحبِكَ فتقولَ : كذبْتُ فيما قلْتُ ، وظلمْتُ ، وأسأْتُ ، فإنْ

---

(١) أي : الذي اغتاب ، فهي صيغة اسم فاعل ، وقوله بُعيدهُ : (**يستحل المغتاب**) أي : الذي اغتيب ، فهي صيغة اسم مفعول ، والتفرقة تكون بالقرائن .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٩٣) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٢١٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٣٦٨) ، و« الدعوات الكبير » (٥٠٧) ، وروي هٰذا الرأي عن عبد الله بن المبارك ، فقد روى البيهقي في « الشعب » (٦٣٦٧) عنه قال : (إذا اغتاب رجل رجلاً . . فلا يخبره به ، ولٰكن يستغفر الله) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٩٤) .

شئْتَ . . أخذْتَ بحقِّكَ ، وإنْ شئتَ . . عفوتَ [١] .

وهٰذا هوَ الأصح .

وقولُ القائلِ : العِرْضُ لا عوضَ لهُ ؛ فلا يجبُ الاستحلالُ منهُ ؛ بخلافِ المالِ . . كلامٌ ضعيفٌ ؛ إذْ قدْ وجبَ في العرضِ حدُّ القذفِ ، وتثبتُ المطالبةُ بهِ .

بلْ في الحديثِ الصحيحِ : ما رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ كانَتْ لأخيهِ عندَهُ مظْلَمَةٌ في عرضٍ أوْ مالٍ . . فليتحللْهُ منهُ مِنْ قبلِ أنْ يأتيَ يومٌ ليسَ هناكَ دينارٌ ولا درهمٌ ، إنَّما يؤخذُ مِنْ حسناتِهِ ، فإنْ لمْ يكُنْ لهُ حسناتٌ . . أخذَ مِنْ سيئاتِ صاحبِهِ فزيدَتْ علىٰ سيِّئاتِهِ » [٢] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها لامرأةٍ قالَتْ لأخرىٰ : إنَّها طويلةُ الذيلِ : (قدِ اغتبتيها ، فاستحلِّيها) [٣] .

فإذاً ؛ لا بدَّ مِنَ الاستحلالِ إنْ قدرَ عليهِ ، فإنْ كانَ غائباً أوْ ميتاً . . فينبغي أنْ يكثرَ لهُ الاستغفارَ والدعاءَ ، ويكثرَ مِنَ الحسناتِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلْتَ : فالتحليلُ هل يجبُ ؟

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٩٥) .

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٩) .

(٣) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٢٠٠) .

فأقولُ : لا ؛ لأنَّهُ تبرُّعٌ ، والتبرُّعُ فضلٌ وليسَ بواجبٍ ، ولٰكنَّهُ مستحسنٌ ، وسبيلُ المعتذِرِ : أنْ يبالغَ في الثناءِ عليهِ ، والتَّودُّدِ إليهِ ، ويلازمَ ذٰلكَ حتَّىٰ يطيبَ قلبُهُ ، فإنْ لمْ يطِبْ قلبُهُ . . كانَ اعتذارُهُ وتودُّدُهُ حسنةً محسوبةً لهُ ، يقابلُ بها سيئةَ الغيبةِ في القيامةِ .

❊ ❊ ❊

وكانَ بعضُ السلفِ لا يحللُ ، قالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ : (لا أحللُ مَنْ ظلمَني)[١] .

وقالَ ابنُ سيرينَ : (إني لمْ أحرِّمْها عليهِ فأحلِّلَها لهُ ، إنَّ اللهَ حرَّمَ الغيبةَ عليهِ ، وما كنتُ لأحلِّلَ ما حرَّمَهُ اللهُ أبداً)[٢] .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلْتَ : فما معنىٰ قولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ينبغي أنْ يستحلَّها » وتحليلُ ما حرَّمَهُ اللهُ تعالىٰ غيرُ ممكنٍ ؟

فنقولُ : المرادُ بهِ العفوُ عنِ المظلمةِ ، لا أنْ ينقلبَ الحرامُ حلالاً ، وما ذكرَهُ ابنُ سيرينَ حسنٌ في التحليلِ قبلَ الغيبةِ ، فإنَّهُ لا يجوزُ لهُ أنْ يحلِّلَ لغيرِهِ الغيبةَ .

❊ ❊ ❊

---

(١) إذ لم يسامح من آذاه وضربه على البيعة لعبد الملك بن مروان كما في « طبقات ابن سعد » (١٢٧/٧) .

(٢) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٦٣/٢) .

فإنْ قلْتَ : فما معنىٰ قولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أيعجزُ أحدُكُمْ أنْ يكونَ كأبي ضمضمٍ ؛ كانَ إذا خرجَ مِنْ بيتِهِ . . قالَ : اللَّهمَّ ؛ إنِّي تصدَّقتُ بعرضي على الناسِ »[١] ، فكيفَ يتصدَّقُ بالعرْضِ ؟ ومنْ تصدَّقَ بهِ فهلْ يُباحُ تناولُهُ ؟ فإنْ كانَ لا تنفذُ صدقتُهُ . . فما معنى الحثِّ عليهِ ؟

فنقولُ : معناهُ : أنِّي لا أطلبُ مظلمةً في القيامَةِ منهُ ، ولا أخاصمُهُ ، وإلَّا . . فلا تصيرُ الغيبةُ حلالاً بهِ ، ولا تسقطُ المظلمةُ عنهُ ؛ لأنَّهُ عفوٌ قبلَ الوجوبِ ، إلَّا أنَّهُ وعدٌ ، ولهُ العزمُ على الوفاءِ بألا يخاصمَ ، فإنْ رجعَ وخاصمَ . . كانَ القياسُ كسائرِ الحقوقِ أنَّ لهُ ذٰلكَ ، بلْ صرَّحَ الفقهاءُ بأنَّ مَنْ أباحَ القذفَ . . لمْ يسقطْ حقُّهُ مِنْ حدِّ القذفِ ، ومظلمةُ الآخرةِ مثلُ مظلمةِ الدنيا .

❁ ❁ ❁

وعلى الجملةِ : فالعفوُ أفضلُ ، قالَ الحسنُ : (إذا جثَتِ الأممُ بينَ يديِ اللهِ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ . . نُودُوا : ليقُمْ مَنْ كانَ أجرُهُ على اللهِ ، فلا يقومُ إلَّا العافونَ عنِ الناسِ في الدنيا)[٢] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ . . . ﴾ الآيةَ[٣] ، فقالَ النبيُّ

---

(١) رواه الطبراني في « مكارم الأخلاق » (٥٣) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٦٥) .

(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٣٧٩) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٧٩٦٠) مرفوعاً .

(٣) سورة الأعراف : (١٩٩) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا جبريلُ ؛ ما هـٰذا ؟ فقالَ : إنَّ اللهَ يأمرُكَ أنْ تعفوَ عمَّنْ ظلمَكَ ، وتصلَ مَنْ قطعَكَ ، وتعطيَ مَنْ حرمَكَ »[١] .

ورُوِيَ عنِ الحسنِ : أنَّ رجلاً قالَ لهُ : إنَّ فلاناً قدِ اغتابَكَ ، فبعثَ إليهِ رُطباً علىٰ طبقٍ وقالَ : قدْ بلغَني أنَّكَ أهديتَ إليَّ منْ حسناتِكَ ، فأردْتُ أنْ أكافِئَكَ عليها ، فاعذرْني ؛ فإنِّي لا أقدِرُ أنْ أكافئَكَ على التمامِ[٢] .

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٤/٢٣١٠) من حديث قيس بن سعد بن عبادة ، ورواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢٥) عن أمَيِّ الصيرفي .

(٢) الرسالة القشيرية (ص ٢٨٥) .

الآفة السادسة عشرة : النميمة

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴾ ، ثم قَالَ : ﴿ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ (١) .

قالَ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ : الزنيمُ : ولدُ الزنا الذي لا يكتمُ الحديثَ . وأشارَ بهِ إلىٰ أنَّ كلَّ مَنْ لمْ يكتمِ الحديثَ ومشىٰ بالنميمةِ . . دلَّ علىٰ أنَّهُ ولدُ زناً ؛ استنباطاً مِنْ قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ (٢) ، والزنيمُ : هوَ الدَّعيُّ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ (٣) ، قيلَ : الهُمزةُ : النَّمامُ (٤) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ (٥) ، قيلَ : إنَّها كانَتْ نمَّامةً ، حمَّالةً للحديثِ (٦) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ (٧) ،

---

(١) سورة القلم : (١١ ـ ١٣) .
(٢) سورة القلم : (١٣) .
(٣) سورة الهمزة : (١) .
(٤) روىٰ ذلك ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٦٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(٥) سورة المسد : (٤) .
(٦) روىٰ ذلك ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٦٥) عن مجاهد .
(٧) سورة التحريم : (١٠) .

قيلَ : كانتِ امرأةُ لوطٍ تخبرُ بالضيفانِ ، وامرأةُ نوحٍ كانَتْ تخبرُ أنَّهُ مجنونٌ (١) .

وقد قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يدخلُ الجنَّةَ نمَّامٌ » (٢) .

وفي حديثٍ آخرَ : « لا يدخلُ الجنةَ قتَّاتٌ » (٣) ، والقتَّاتُ : هوَ النمَّامُ .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحبُّكمْ إلى اللهِ أحاسنُكمْ أخلاقاً ، الموطؤونَ أكنافاً ، الذينَ يَألفونَ ويُؤلفونَ ، وإنَّ أبغضَكمْ إلى اللهِ المشاؤونَ بالنميمةِ ، المفرِّقونَ بينَ الإخوانِ ، الملْتمسونَ للبرآءِ العثراتِ » (٤) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ألا أخبرُكمْ بشرارِكمْ ؟ » قالُوا : بلىٰ ، قالَ : « المشاؤونَ بالنميمةِ ، المفسدونَ بينَ الأحبَّةِ ، الباغونَ للبُرآءِ العنتَ » (٥) .

وقالَ أبو ذرٍّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أشادَ

---

(١) روىٰ ذٰلك ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٧١) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) رواه مسلم (١٠٥) .

(٣) رواه البخاري (٦٠٥٦) ، ومسلم (١٦٩/١٠٥) .

(٤) رواه الطبراني في « الصغير » (٢/ ٢٥) ، وابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (١٤٦) .

(٥) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٤٥٩) ، والطبراني في « الكبير » (٢٤/ ١٦٧) .

علىٰ مسلمٍ كلمةً ليشينَهُ بها بغيرِ حقٍّ . . شانَهُ اللهُ بها في النارِ يومَ القيامةِ »[1] .

وقالَ أبو الدرداءِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أيُّما رجلٍ أشاعَ علىٰ رجلٍ كلمةً وهوَ منها بريءٌ ليشينَهُ بها في الدنيا . . كانَ حقّاً على اللهِ أنْ يذيبَهُ بها يومَ القيامةِ في النارِ »[2] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ شهدَ علىٰ مسلمٍ شهادةً ليسَ لها بأهلٍ . . فليتبوَّأْ مقعدَهُ مِنَ النارِ »[3] .

ويقالُ : إنَّ ثلثَ عذابِ القبرِ منَ النميمةِ[4] .

وعنِ ابنِ عمرَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا خلَقَ الجنَّةَ . . قالَ لها : تكلَّمي ، فقالَتْ : سَعِدَ مَنْ دخلَني ، فقالَ الجبَّارُ جلَّ جلالُهُ : وعزَّتي وجلالي ؛ لا يسكنُ فيكِ ثمانيةُ نفرٍ مِنَ الناسِ ، لا يسكنُ فيكِ مدمنُ خمرٍ ، ولا مصرٌّ على الزِّنا ، ولا قتَّاتٌ ـ وهوَ النَّمامُ ـ ولا ديوثٌ ، ولا شُرَطيٌّ ، ولا مخنثٌ ، ولا قاطعُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٥٨) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٥٩) موقوفاً علىٰ أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال الحافظ العراقي : (ورواه الطبراني بلفظ آخر من حديثه مرفوعاً) . « إتحاف » (٥٦٣/٧) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٥٠٩/٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٦٠) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٩٠) عن قتادة يذكره .

رحمٍ ، ولا الذي يقولُ : عليَّ عهدُ اللهِ إنْ لمْ أفعلْ كذا وكذا ثمَّ لمْ يفِ بهِ » (١) .

وروىٰ كعبُ الأحبارِ : (أنَّ بني إسرائيلَ أصابَهمْ قحطٌ ، فاستسقىٰ موسىٰ عليهِ السَّلام مراتٍ فما سُقوا ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : إنِّي لا أستجيبُ لكَ ولمنْ معكَ وفيكمْ نمامٌ قدْ أصرَّ على النميمةِ ، فقالَ موسىٰ : يا ربِّ ؛ منْ هوَ ؟ دلَّني عليهِ حتَّىٰ نخرجَهُ مِنْ بينِنا ، قالَ : يا موسىٰ ؛ أنهاكُمْ عنِ النميمةِ وأكونُ نماماً ؟! فتابوا جميعاً ؛ فسُقُوا) .

ويُقالُ : اتبعَ رجلٌ حكيماً سبعَ مئةِ فرسخٍ في سبعِ كلماتٍ ، فلمَّا قدمَ عليهِ . . قالَ : إنِّي جئتُكَ للذي آتاكَ اللهُ تعالىٰ مِنَ العلمِ ، أخبرني عنِ السماءِ وما أثقلُ منها ، وعنِ الأرضِ وما أوسعُ منها ، وعنِ الحجرِ وما أقسىٰ منهُ ، وعنِ النارِ وما أحرُّ منها ، وعنِ الزمهريرِ وما أبردُ منهُ ، وعنِ البحرِ وما أغنىٰ منهُ ، وعنِ اليتيمِ وما أذلُّ منهُ ؟ فقالَ لهُ الحكيمُ : البهتانُ على البريءِ أثقلُ مِن السماواتِ ، والحقُّ أوسعُ

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجده هـٰكذا بتمامه ، ولأحمد : « لا يدخل الجنة عاق لوالديه والديوث » ، وفيه من لم يسم ، وللنسائي من حديث ابن عمر : « لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر » ، وفيه انقطاع واضطراب ، وللشيخين من حديث حذيفة : « لا يدخل الجنة قتات » ، ولهما من حديث جبير بن مطعم : « لا يدخل الجنة قاطع » ، وذكر صاحب « الفردوس » من حديث ابن عباس : « لما خلق الله الجنة فقال لها : تكلمي تزيني ، فتزينت ، فقالت : طوبىٰ لمن دخلني ورضي عنه إلـٰهي ، فقال الله عز وجل : لا يسكنك مخنث ولا نائحة » ، ولم يخرجه ولده في « مسنده ») . « إتحاف » (٥٦٣/٧) .

مِنَ الأرضِ ، والقلبُ القانعُ أغنىٰ مِنَ البحرِ ، والحرصُ والحسدُ أحرُّ مِنَ النارِ ، والحاجةُ إلى القريبِ إذا لمْ تنجحْ أبردُ مِنَ الزمهريرِ ، وقلبُ الكافرِ أقسىٰ مِنَ الحجرِ ، والنَّمامُ إذا بانَ أمرُهُ . . أذلُّ مِنَ اليتيمِ [١] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٤٧٠) .

بيان حدّ النّميمة وما يجب في ردّها

اعلمْ : أنَّ اسمَ النميمةِ إنَّما يُطلقُ في الأكثرِ علىٰ مَنْ ينُمُّ قولَ الغيرِ إلى المقولِ فيهِ ؛ كما تقولُ : فلانٌ كانَ يتكلَّمُ فيكَ بكذا وكذا ، وليستِ النميمةُ مخصوصةً بهِ ، بلْ **حدُّها** : كشفُ ما يُكرَهُ كشفُهُ ، سواءٌ كرهَهُ المنقولُ عنهُ ، أوِ المنقولُ إليهِ ، أوْ كرهَهُ ثالثٌ ، وسواءٌ كانَ الكشفُ بالقولِ أوْ بالكِتبةِ أوْ بالرمزِ أوْ بالإيماءِ ، وسواءٌ كانَ المنقولُ مِنَ الأعمالِ أوْ مِنَ الأقوالِ ، وسواءٌ كانَ ذٰلكَ عيباً ونقصاً في المنقولِ عنهُ أوْ لمْ يكُنْ ، بلْ **حقيقةُ النميمةِ** : إفشاءُ السِّرِّ ، وهتكُ السترِ عمَّا يُكرهُ كشفُهُ ، بلْ كلُّ ما رآهُ الإنسانُ مِنْ أحوالِ الناسِ ممَّا يُكرَهُ . . فينبغي أنْ يسكتَ عنهُ ، إلَّا ما في حكايتِهِ فائدةٌ لمسلمٍ ، أوْ دفعٌ لمعصيةٍ ؛ كما إذا رأىٰ مَنْ يتناولُ مالَ غيرِهِ ، فعليهِ أنْ يشهدَ بهِ ؛ مراعاةً لحقِّ المشهودِ لهُ ، فأمَّا إذا رآهُ يخفي مالاً لنفسِهِ فذكرَهُ . . فهوَ نميمةٌ ، وإفشاءٌ للسِّرِّ .

فإنْ كانَ ما ينُمُّ بهِ نقصاً وعيباً في المحكيِّ عنهُ . . كانَ قدْ جمعَ بينَ الغيبةِ والنميمةِ .

والباعثُ على النميمةِ : إمَّا إرادةُ السوءِ بالمحكيِّ عنهُ ، أوْ إظهارُ الحبِّ للمحكيِّ لهُ ، أوِ التفرُّجُ بالحديثِ ، أوِ الخوضُ في الفضولِ والباطلِ .

وكلُّ مَنْ حُملَتْ إليهِ النميمةُ وقيلَ لهُ : إنَّ فلاناً قالَ فيكَ كذا

وكذا ، أوْ فعلَ في حقِّكَ كذا وكذا ، أوْ هوَ يدبِّرُ في إفسادِ أمرِكَ ، أوْ في ممالأةِ عدوِّكَ ، أوْ تقبيحِ حالِكَ ، أوْ ما يجري مجراهُ . . فعليهِ ستةُ أمورٍ :

الأوَّلُ : ألَّا يصدِّقَهُ ؛ لأنَّ النمامَ فاسقٌ ، وهوَ مردودُ الشهادةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ ﴾ (١) .

الثاني : أنْ ينهاهُ عنْ ذٰلكَ وينصحَهُ ، ويقبِّحَ لهُ فعلَهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ (٢) .

الثالثُ : أنْ يبغضَهُ في اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ بغيضٌ عندَ اللهِ تعالىٰ ، ويجبُ بغضُ مَنْ يبغضُهُ اللهُ تعالىٰ .

الرابعُ : ألَّا تظنَّ بأخيكَ الغائبِ السوءَ ؛ لقولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ ﴾ (٣) .

الخامسُ : ألَّا يحملَكَ ما حُكِيَ لكَ على التجسُّسِ والبحثِ لتتحقَّقَ ؛ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ (٤) .

السادسُ : ألَّا ترضىٰ لنفسِكَ ما نهيتَ النَّمامَ عنهُ ، فلا تحكي

---

(١) سورة الحجرات : (٦) .

(٢) سورة لقمان : (١٧) .

(٣) سورة الحجرات : (١٢) .

(٤) سورة الحجرات : (١٢) .

نميمتَهُ فتقولَ : فلانٌ قدْ حكىٰ لي كذا وكذا ، فتكونَ بهِ نمَّاماً ومغتاباً ، وتكونَ قدْ أتيتَ ما عنهُ نَهيتَ .

وقدْ رُويَ عنْ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ دخلَ عليهِ رجلٌ ، فذكرَ عندَهُ عنْ رجلٍ شيئاً ، فقالَ عمرُ : إنْ شئتَ . . نظرنا في أمرِكَ ؛ فإنْ كنتَ كاذباً . . فأنتَ منْ أهلِ هٰذهِ الآيةِ : ﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ (١) ، وإنْ كنتَ صادقاً . . فأنتَ مِنْ أهلِ هٰذهِ الآيةِ : ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴾ (٢) ، وإنْ شئتَ . . عفونا عنكَ ، فقالَ : العفوَ يا أميرَ المؤمنينَ ، لا أعودُ إليهِ أبداً .

وذكرَ أنَّ حكيماً مِنَ الحكماءِ زارَهُ بعضُ إخوانِهِ ، فأخبرَهُ بخبرٍ عنْ بعضِ أصدقائِهِ ، فقالَ لهُ الحكيمُ : قدْ أبطأتَ في الزيارةِ وأتيتني بثلاثِ جناياتٍ : بغَّضْتَ أخي إليَّ ، وشغلتَ قلبي الفارغَ ، واتهمْتَ نفسَكَ الأمينةَ .

ورُوِيَ أنَّ سليمانَ بنَ عبدِ الملكِ كانَ جالساً وعندَهُ الزهريُّ ، فجاءَهُ رجلٌ ، فقالَ لهُ سليمانُ : بلغَني أنَّكَ وقعتَ فيَّ وقلتَ كذا وكذا ، فقالَ الرجلُ : ما فعلتُ ولا قلْتُ ، فقالَ سليمانُ : إنَّ الذي أخبرني صادقٌ ، فقالَ لهُ الزهريُّ : لا يكونُ النمامُ صادقاً ، فقالَ سليمانُ : صدقْتَ ، ثمَّ قالَ للرجلِ : اذهبْ بسلامٍ .

---

(١) سورة الحجرات : (٦) .

(٢) سورة القلم : (١١) .

وقالَ الحسنُ : (منْ نمَّ إليكَ . . نمَّ عليكَ)[1] .

وهٰذا إشارةٌ إلىٰ أنَّ النَّمامَ ينبغي أنْ يُبغضَ ولا يُوثقَ بقولِهِ ولا بصداقتِهِ ، وكيفَ لا يُبغضُ وهوَ لا ينفكُّ عنِ الكذبِ والغيبةِ ، والغدرِ والخيانةِ ، والغلِّ والحسدِ والنفاقِ ، والإفسادِ بينَ الناسِ والخديعةِ ، وهوَ ممَّنْ يسعىٰ في قطعِ ما أمرَ اللهُ بهِ أنْ يوصلَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؟![2] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[3] ، والنمَّامُ منهُمْ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مِنْ شرِّ الناسِ مَنِ اتقاهُ الناسُ لشرِّهِ »[4] ، والنمَّامُ منهُمْ .

وقالَ : « لا يدخلُ الجنةَ قاطعٌ »[5] ، قيلَ : قاطعٌ بينَ الناسِ ، وهوَ النمَّامُ ، وقيلَ : قاطعُ الرحمِ .

ورُوِيَ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّ رجلاً سعىٰ إليهِ برجلٍ ، فقالَ : يا هٰذا ؛ نحنُ نسألُ عمَّا قلْتَ ؛ فإنْ كنتَ صادقاً . . مقتناكَ ، وإنْ كنتَ كاذباً . . عاقبناكَ ، وإنْ شئتَ أنْ نقيلَكَ . . أقلْناكَ ، فقالَ : أقلْني يا أميرَ المؤمنينَ .

(١) تقدم عن الخليل بن أحمد .
(٢) سورة البقرة : (٢٧) .　(٣) سورة الشورىٰ : (٤٢) .
(٤) رواه البخاري (٦٠٣٢) ، ومسلم (٢٥٩١) .
(٥) رواه البخاري (٥٩٨٤) ، ومسلم (٢٥٥٦) .

وقيلَ لمحمدِ بنِ كعبٍ القُرظيّ : أيُّ خصالِ المؤمنِ أوضعُ لهُ ؟ فقالَ : كثرةُ الكلامِ ، وإفشاءُ السِّرِّ ، وقبولُ قولِ كلِّ أحدٍ (١) .

وقالَ رجلٌ لعبدِ اللهِ بنِ عامرٍ وكانَ أميراً : بلغَني أنَّ فلاناً أعلمَ الأميرَ أنّي ذكرتُهُ بسوءٍ ، قالَ : قدْ كانَ ذٰلكَ ، قالَ : فأخبرْني بما قالَ لكَ حتَّىٰ أظهرَ كذبَهُ عندكَ ، قالَ : ما أحبُّ أنْ أشتمَ نفسي بلساني ، وحسبي أنّي لمْ أصدِّقْهُ فيما قالَ ، ولا أقطعُ عنكَ الوصالَ .

وذُكرتِ السعايةُ عندَ بعضِ الصالحينَ ، فقالَ : ما ظنُّكُمْ بقومٍ يُحمدُ الصدقُ مِنْ كلِّ طبقةٍ مِنَ الناسِ إلا منهُمْ ؟!

وقالَ مصعبُ بنُ الزبيرِ : (نحنُ نرىٰ أنَّ قبولَ السِّعايةِ شرٌّ مِنَ السعايةِ ؛ لأنَّ السعايةَ دلالةٌ ، والقبولُ إجازةٌ ، وليسَ مَنْ دلَّ علىٰ شيءٍ فأخبرَ بِهِ كمَنْ قبلَهُ وأجازَهُ ، فاتقوا السَّاعيَ ، فلوْ كانَ صادقاً في قولِهِ . . لكانَ لئيماً في صدقِهِ ؛ حيثُ لمْ يحفظِ الحرمةَ ، ولمْ يسترِ العورةَ) (٢) .

والسعايةُ هيَ النميمةُ ، إلَّا أنَّها إذا كانَتْ إلىٰ مَنْ يُخافُ جانبُهُ . . سُميّتْ سعايةً ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « السَّاعي بالناسِ إلى الناسِ لغيرِ رِشْدَةٍ » (٣) ؛ يعني : ليسَ بولدِ حلالٍ .

ودخلَ رجلٌ علىٰ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ ، فاستأذنَهُ في الكلامِ ،

---

(١) رواه الخطابي في « العزلة » (ص ٧١) .

(٢) رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٩/١٢٢) عن الإمام الشافعي .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/١٠٣) ولم يصححه .

وقالَ : إنّي مكلِّمُكَ يا أميرَ المؤمنينَ بكلامٍ فاحتملْهُ وإنْ كرهتَهُ ، فإنَّ وراءَهُ ما تحبُّ إنْ قبلْتَهُ ، فقالَ : قلْ ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّهُ قدِ اكتنفَكَ رجالٌ ابتاعوا دنياكَ بدينِهِمْ ، ورضاكَ بسخَطِ ربِّهِمْ ، خافوكَ في اللهِ ولمْ يخافوا اللهَ فيكَ ، فلا تأمنْهُمْ على ما ائتمنَكَ اللهُ عليهِ ، ولا تصغِ إليهِمْ فيما استحفظَكَ اللهُ إيَّاهُ ، فإنَّهمْ لنْ يألوا في الأمةِ خسفاً ، وفي الأمانةِ تضييعاً ، والأعراضِ قطعاً وانتهاكاً ، أعلىٰ قُرَبِهِمُ البغيُ والنميمةُ ، وأجلُّ وسائلِهِمُ الغيبةُ والوقيعةُ ، وأنتَ مسؤولٌ عمَّا اجترحُوا ، وليسوا بمسؤولينَ عمَّا اجترحتَ ، فلا تصلحْ دنياهمْ بفسادِ آخرتِكَ ، فإنَّ أعظمَ الناسِ غَبناً مَنْ باعَ آخرتَهُ بدنيا غيرِهِ (١) .

وسعىٰ رجلٌ بزيادٍ الأعجمِ إلىٰ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ ، فجمعَ بينَهُما للموافقةِ ، فأقبلَ زيادٌ على الرجلِ وقالَ (٢) : [من الطويل]

فَأَنْتَ امْرُؤٌ إِمَّا ائْتَمَنْتُكَ خَالِياً ... فَخُنْتَ وَإِمَّا قُلْتَ قَوْلاً بِلا عِلْمِ

فَأَنْتَ مِنَ الأَمْرِ الَّذِي كانَ بَيْنَنا ... بِمَنْزِلَةٍ بَيْنَ الْخِيانَةِ وَالإِثْمِ

وقالَ رجلٌ لعمرِو بنِ عبيدٍ : إنَّ الأُسواريَّ ما يزالُ يذكرُكَ في

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٠٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٨/١٧٤) .

(٢) الخبر ورد بسياقات مختلفة في المصادر . انظر « عيون الأخبار » (١/٤١) ، و« روضة العقلاء » (ص ١٧٧) ، و« الأمالي » (٢/٤٦) ، و« الجليس الصالح » (١/٣٠٢) ، و« بهجة المجالس » (١/٥٧٧) ، و« محاضرات الأدباء » (٢/٦١) ، و« التذكرة الحمدونية » (٣/١٥٧) .

قَصصِهِ بشرٍّ ، فقالَ لهُ عمرٌو : يا هـٰذا ؛ ما رعيتَ حقَّ مجالسةِ الرجلِ حيثُ نقلْتَ إلينا حديثَهُ ، ولا أدَّيتَ حقِّي حينَ أبلغتَني عنْ أخي ما أكرَهُ ، ولـٰكنْ أبلغْهُ أنَّ الموتَ يعمُّنا ، والقبرَ يضمُّنا ، والقيامةَ تجمعُنا ، واللهُ تعالىٰ يحكمُ بينَنا وهوَ خيرُ الحاكمينَ [١] .

ورفعَ بعضُ السعاةِ إلى الصاحبِ بنِ عبادٍ رقعةً نبَّهَ فيها علىٰ مالِ يتيمٍ يحملُهُ علىٰ أخذِهِ لكثرتِهِ ، فوقَّعَ علىٰ ظهرِها : السعايةُ قبيحةٌ وإنْ كانَتْ صحيحةً ، فإنْ كنتَ أجريتَها مُجرى النصحِ . . فخسرانُكَ فيها أفضلُ مِنَ الربحِ ، ومعاذَ اللهِ أنْ نقبلَ مهتوكاً في مستورٍ ، ولولا أنَّكَ في خفارةِ شيبتِكَ . . لقابلناكَ بما يقتضيهِ فعلُكَ في مثلِكَ ، فتوقَّ يا ملعونُ العيبَ ؛ فإنَّ اللهَ أعلمُ بالغيبِ ، الميتُ رحمهُ اللهُ ، واليتيمُ جبَرَهُ اللهُ ، والمالُ ثمَّرَهُ اللهُ ، والسَّاعي لعنَهُ اللهُ .

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ إنِّي موصيكَ بخلالٍ ، إنْ تمسَّكتَ بهنَّ . . لمْ تزلْ سيِّداً : ابسطْ خلُقَكَ للقريبِ والبعيدِ ، وأمسكْ جهلَكَ عنِ الكريمِ واللئيمِ ، واحفظْ إخوانَكَ ، وصلْ أقاربَكَ ، وآمنهُمْ مِنْ قبولِ قولِ ساعٍ ، أوْ سماعِ باغٍ يريدُ فسادَكَ ويرومُ خداعَكَ ، وليكنْ إخوانُكَ مَنْ إذا فارقتَهمْ وفارقوكَ . . لمْ تعبْهُمْ ولمْ يعيبوكَ) [٢] .

وقالَ بعضُهمْ : (النميمةُ مبنيَّةٌ على الكذبِ والحسدِ والنفاقِ ، وهيَ أثافي الذُّلِّ) .

---

(١) رواه أبو هلال العسكري في « جمهرة الأمثال » (٢/ ٢٦٩) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٥٠) عن محمد بن أبي الفضل .

وقالَ بعضُهمْ : (لوْ صحَّ ما نقلَهُ النَّمامُ إليكَ . . لكانَ هوَ المجترئَ بالشتمِ عليكَ ، والمنقولُ عنهُ أولىٰ بحلمِكَ ؛ لأنَّهُ لمْ يقابلْكَ بشتمِكَ) .

وعلى الجملةِ : فشرُّ النمامِ عظيمٌ ينبغي أنْ يُتوقَّىٰ .

قالَ حمادُ بنُ سلمةَ : باعَ رجلٌ عبداً وقالَ للمشتري : ما فيهِ عيبٌ إلَّا النميمةُ ، قالَ : قدْ رضيتُ ، فاشتراهُ فمكثَ الغلامُ أياماً ، ثمَّ قالَ لزوجةِ مولاهُ : إنَّ زوجَكِ لا يحبُّكِ ، وهوَ يريدُ أنْ يتسرَّىٰ عليكِ ، فخذي الموسىٰ واحلقي مِنْ شعرِ قفاهُ عندَ نومِهِ شعراتٍ حتَّىٰ أسحرَهُ عليها ، فيحبَّكِ ، ثم قالَ للزوجِ : إنَّ امرأتَكَ اتخذَتْ خليلاً ، وتريدُ أنْ تقتلَكَ ، فتناوَمْ لها حتَّىٰ تعرفَ ذٰلكَ ، قالَ : فتناومَ لها ، فجاءَتِ المرأةُ بالموسىٰ ، فظنَّ أنَّها تريدُ قتلَهُ ، فقامَ إليها فقتلَها ، فجاءَ أهلُ المرأةِ فقتلُوا الزوجَ ، فوقعَ القتالُ بينَ القبيلتينِ ، وطالَ الأمرُ[1] ، فنسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ .

❋ ❋ ❋

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٧٠) ، وابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ١٧٩) .

الآفة السابعة عشرة : كلام ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعاديين ويكلم كل واحد بكلام يوافقه

وقلَّما يخلو عنهُ مَنْ يشاهدُ متعاديينِ ، وذٰلكَ عينُ النفاقِ .

قالَ عمارُ بنُ ياسرٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانَ لهُ وجهانِ في الدنيا . . كانَ لهُ لسانانِ مِنْ نارٍ يومَ القيامةِ »(١) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تجدونَ مِنْ شرِّ عبادِ اللهِ يومَ القيامةِ ذا الوجهينِ ، الذي يأتي هٰؤلاءِ بحديثِ هٰؤلاءِ ، وهٰؤلاءِ بحديثِ هٰؤلاءِ » .

وفي لفظٍ آخرَ : « الذي يأتي هٰؤلاءِ بوجهٍ وهٰؤلاءِ بوجهٍ »(٢) .

وقالَ أبو هريرةَ : (لا ينبغي لذي الوجهينِ أنْ يكونَ أميناً عندَ اللهِ)(٣) .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (قرأتُ في التوراةِ : بطلَتِ الأمانةُ والرجلُ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٨٧٣) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٢٩٢) .

(٢) رواه البخاري (٣٤٩٤ ، ٦٠٥٨) ، ومسلم (٢٥٢٦) بنحوه ، وبلفظ المصنف رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٧٧ ، ٢٧٨) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٢/٢٨٩) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٨٣) من حديثه مرفوعاً .

معَ صاحبِهِ بشفتينِ مختلفتينِ ، يهلكُ اللهُ تعالىٰ يومَ القيامةِ كلَّ شفتينِ مختلفتينِ)[١] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أبغضُ خليقةِ اللهِ إلى اللهِ يومَ القيامةِ الكذَّابونَ والمستكبرونَ ، والذينَ يكثرونَ البغضاءَ لإخوانِهِمْ في صدورِهِمْ ، فإذا لقوهُمْ . . تملَّقوا لهمْ ، والذينَ إذا دُعوا إلى اللهِ ورسولِهِ . . كانُوا بطآءَ ، وإذا دُعوا إلى الشيطانِ وأمرِهِ . . كانوا سِراعاً »[٢] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : لا يكونَنَّ أحدُكمْ إمَّعةً ، قالُوا : وما الإمَّعةُ ؟ قالَ : يجري معَ كلِّ ريحٍ[٣] .

واتَّفقُوا علىٰ أنَّ ملاقاةَ الاثنينِ بوجهينِ نفاقٌ ، وللنِّفاقِ علاماتٌ كثيرةٌ ، وهٰذهِ مِنْ جملتِها .

وقدْ رُويَ أنَّ رجلاً مِنْ أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ماتَ ، فلمْ يصلِّ عليهِ حذيفةُ ، فقالَ عمرُ : أيموتُ رجلٌ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ولا تصلي عليهِ ؟ فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّهُ منهمْ ، قالَ : فنشدْتُكَ اللهَ ؛ أنا منهُمْ أمْ لا ؟ قالَ : اللهمَّ لا ، ولا أؤمِّنُ منها أحداً بعدَكَ[٤] .

(١) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٢٩١) .
(٢) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٢٩٩) .
(٣) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٠١) .
(٤) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣١١) ، وتقدم سؤال الفاروق هٰذا .

فإنْ قلتَ : بماذا يصيرُ الرجلُ ذا لسانينِ ، وما حدُّ ذٰلكَ ؟

فأقولُ : إذا دخلَ علىٰ متعاديينِ ، وجاملَ كلَّ واحدٍ منهما ، وكانَ صادقاً فيهِ . . لمْ يكنْ منافقاً ولا ذا لسانينِ ، فإنَّ الواحدَ قدْ يصادقُ متعاديينِ ، ولٰكنْ صداقةً ضعيفةً لا تنتهي إلىٰ حدِّ الأخوَّةِ ؛ إذْ لوْ تحقَّقَتِ الصداقةُ . . لاقتضَتْ معاداةَ الأعداءِ ، كما ذكرْناهُ في كتابِ آدابِ الصحبةِ والأخوةِ .

نعمْ ؛ لوْ نقلَ كلامَ كلِّ واحدٍ منهما إلى الآخرِ . . فهوَ ذو لسانينِ ، وذٰلكَ شرٌّ مِنَ النميمةِ ؛ إذْ يصيرُ نمَّاماً بأنْ ينقلَ مِنْ أحدِ الجانبينِ فقطْ ، فإذا نقلَ مِنَ الجانبينِ . . فهوَ شرٌّ مِنَ النمامِ .

وإنْ لمْ ينقلْ كلاماً ، ولٰكنْ حسَّنَ لكلِ واحدٍ منهما ما هوَ عليهِ مِنَ المعاداةِ معَ صاحبِهِ . . فهٰذا ذو لسانينِ .

وكذٰلكَ إذا وعدَ كلَّ واحدٍ منهما بأنْ ينصرَهُ ، وكذٰلكَ إذا أثنىٰ علىٰ كلِّ واحدٍ منهما في معاداتِهِ ، وكذٰلكَ إذا أثنىٰ علىٰ أحدِهما ، وكانَ إذا خرجَ مِنْ عندِهِ يذمُّهُ . . فهوَ ذو لسانينِ .

بلْ ينبغي أن يسكتَ ، أوْ يثنيَ على المحقِّ مِنَ المتعاديينِ ، ويثني عليهِ في حضورِهِ وفي غيبتِهِ وبينَ يدي عدوِّهِ .

قيلَ لابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : إنَّا ندخلُ علىٰ أمرائِنا فنقولُ

القولَ ، فإذا خرجْنا . . قلْنا غيرَهُ ، فقالَ : كنَّا نعدُّ ذٰلكَ نفاقاً علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ [١] .

وهٰذا نفاقٌ مهما كانَ مستغنياً عنِ الدخولِ على الأميرِ ، وعنِ الثناءِ عليهِ ، فلوِ استغنىٰ عنِ الدخولِ ولٰكنْ إذا دخلَ يخافُ إنْ لمْ يثنِ . . فهوَ نفاقٌ ؛ لأنَّهُ الذي أحوجَ نفسَهُ إلىٰ ذٰلكَ ، وإنْ كانَ مستغنياً عنِ الدخولِ لوْ قنعَ بالقليلِ وتركَ المالَ والجاهَ ، فدخلَ لضرورةِ الجاهِ والغنىٰ وأثنىٰ . . فهوَ منافقٌ .

وهٰذا معنىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حبُّ المالِ والجاهِ ينبتانِ النفاقَ في القلبِ كما يُنبتُ الماءُ البقلَ » ؛ لأنَّهُ يحوجُ إلى الأمراءِ وإلىٰ مراعاتِهِمْ ومراءاتِهِمْ .

فأمَّا إذا ابتليَ بهِ لضرورةٍ ، وخافَ إنْ لم يُثنِ . . فهوَ معذورٌ ؛ فإنَّ اتقاءَ الشرِّ جائزٌ ، قالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّا لنكشِرُ في وجوهِ أقوامٍ وإنَّ قلوبَنا لتبغضُهمْ) [٢] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : استأذنَ رجلٌ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « ائذنُوا لهُ فبئسَ رجلُ العشيرةِ » ، فلمَّا دخلَ عليهِ . . ألانَ لهُ القولَ ، فلمَّا خرجَ . . قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ قلتَ فيهِ ما قلتَ ، ثمَّ ألنتَ لهُ القولَ !! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ :

---

(١) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٠٢) .

(٢) رواه البخاري تعليقاً قبل الحديث (٦١٣١) ، ووصله البيهقي في « الشعب » (٧٧٤٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٢٢٢) ، وفي (ل) : (قلوبنا تلعنهم) .

« يا عائشةُ ؛ إنَّ شرَّ الناسِ الذي يُكرمُ اتقاءَ فحشِهِ »[1] .

ولـٰكنَّ هـٰذا وردَ في الإقبالِ وفي الكشرِ والتبسُّمِ ، فأمَّا الثناءُ . . فهوَ كذبٌ صريحٌ ، ولا يجوزُ إلا لضرورةٍ ، أوْ إكراهٍ يُباحُ الكذبُ بمثلِهِ ، كما ذكرناهُ في آفةِ الكذبِ ، بلْ لا يجوزُ الثناءُ ، ولا التصديقُ ، ولا تحريكُ الرأسِ في معرضِ التقريرِ علىٰ كلِّ كلامٍ باطلٍ ، فإنْ فعَلَ ذٰلكَ . . فهوَ منافقٌ ، بلْ ينبغي أنْ ينكرَ ، فإنْ لمْ يقدِرْ . . فيسكُتُ بلسانِهِ وينكرُ بقلبِهِ .

* * *

(١) رواه البخاري (٦٠٥٤) ، ومسلم (٢٥٩١) بنحوه .

الآفة الثامنة عشرة : المدح

وهوَ منهيٌّ عنهُ في بعضِ المواضعِ ، أمّا الذمُّ . . فهوَ الغيبةُ والوقيعَةُ ، وقدْ ذكرنا حكمَها .

والمدحُ يدخلُهُ ستُّ آفاتٍ ، أربعٌ في المادحِ ، واثنتانِ في الممدوحِ .

***

فأمَّا المادحُ :

فالأولىٰ : أنَّهُ قدْ يُفرِطُ ، فينتهي بهِ الإفراطُ إلى الكذبِ .

قالَ خالدُ بن معدانَ : (مَنْ مدحَ إماماً أوْ أحداً بما ليسَ فيهِ علىٰ رؤوسِ الأشهادِ . . بعثَهُ اللهُ يومَ القيامةِ يتعثَّرُ بلسانِهِ) (١) .

الثانيةُ : أنَّهُ قدْ يدخلُهُ الرياءُ ، فإنَّهُ بالمدحِ مظهرٌ للحبِّ ، وقدْ لا يكونُ مضمراً لهُ ، ولا معتقداً لجميعِ ما يقولُهُ ؛ فيصيرُ بهِ مرائياً منافقاً .

الثالثةُ : أنَّهُ قدْ يقولُ ما لا يتحقَّقُهُ ولا سبيلَ لهُ إلى الاطلاعِ عليهِ ، رُوي أنَّ رجلاً مدحَ رجلاً عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ لهُ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « ويحَكَ !! قطعتَ عُنقَ صاحبِكَ ، لو سمعَها . . ما أفلحَ » ، ثمَّ قالَ : « إنْ كانَ أحدُكمْ لا بدَّ مادحاً أخاهُ . .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠٣) .

فليقلْ : أحسبُ فلاناً ولا أزكّي على اللهِ أحداً ، حسيبُهُ اللهُ ، إن كانَ يرىٰ أنَّهُ كذٰلكَ »[١] .

وهٰذهِ الآفةُ تتطرَّقُ إلى المدحِ بالأوصافِ المطلقةِ التي تُعرفُ بالأدلَّةِ ؛ كقولِهِ : إنَّهُ متَّقٍ ، وورعٌ ، وزاهدٌ ، وخيِّرٌ ، وما يجري مَجراهُ .

فأمَّا إذا قالَ : رأيتُهُ يصلِّي بالليلِ ، ويتصدَّقُ ، ويحجُّ . . فهٰذهِ أمورٌ مستيقنةٌ .

ومِنْ ذٰلكَ قولُهُ : إنَّهُ عدلٌ رضاً ؛ فإنَّ ذٰلكَ خفيٌّ ، فلا ينبغي أنْ يجزمَ القولَ بهِ إلَّا بعدَ خبرةٍ باطنةٍ ، سمعَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ رجلاً يُثني علىٰ رجلٍ ، فقالَ : أسافرتَ معهُ ؟ قالَ : لا ، قالَ : أخالطْتَهُ في المبايعةِ والمعاملةِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فأنتَ جارُهُ صباحَهُ ومساءَهُ ؟ قالَ : لا ، قالَ : واللهِ الذي لا إلٰهَ إلا هوَ ؛ لا أراكَ تعرفُهُ[٢] .

الرابعةُ : أنَّهُ قدْ يفرحُ الممدوحَ وهوَ ظالمٌ أوْ فاسقٌ ، وذٰلكَ غيرُ جائزٍ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يغضبُ إذا مُدحَ الفاسقُ »[٣] .

---

(١) رواه البخاري (٦٠٦١) ، ومسلم (٣٠٠٠) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٩٧) واللفظ له ، وفي (ك) وحدها زيادة : (لو سمعها . . ما أفلح) ، وقد رواها أحمد في المسند (٥/٥١) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠٧) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٢٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٥٤٣) .

وقالَ الحسنُ : (مَنْ دعا لظالمٍ بالبقاءِ . . فقدْ أحبَّ أنْ يُعصى اللهُ تعالىٰ في أرضِهِ)[1] .

والظالمُ الفاسقُ ينبغي أنْ يُذمَّ ليغتمَّ ، ولا يمدحَ ليفرحَ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الممدوحُ . . فيضرُّهُ مِنْ وجهينِ :

أحدُهُما : أنَّهُ يحدِثُ فيهِ كبراً وإعجاباً ، وهما مهلكانِ ، قالَ الحسنُ رضيَ اللهُ عنهُ : كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ قاعداً ومعهُ الدِّرَّةُ والناسُ حولَهُ ؛ إذْ أقبلَ الجارودُ بنُ المنذرِ ، فقالَ رجلٌ : هـٰذا سيدُ ربيعةَ ، فسمعَها عمرُ ومَنْ حولَهُ ، وسمعَها الجارودُ ، فلمَّا دنا منهُ . . خفقَهُ بالدِّرَّةِ ، فقالَ : ما لي ولكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟ فقالَ : ما لي ولكَ !! أمَا لقدْ سمعتَها ؟ قالَ : سمعتُها فمَهْ ؟ قالَ : خشيتُ أنْ يخالطَ قلبكَ منها شيءٌ ، فأحببْتُ أنْ أطأطِئَ منكَ[2] .

الثاني : هوَ أنَّهُ إذا أثنىٰ عليهِ بالخيرِ . . فرحَ بهِ وفترَ ، ورضيَ عنْ نفسِهِ ، ومَنْ أُعجبَ بنفسِهِ . . قلَّ تشمرُهُ ، وإنَّما يتشمَّرُ للعملِ مَنْ يرىٰ نفسَهُ مقصِّراً ، فأمَّا إذا انطلقَتِ الألسنةُ بالثناءِ عليهِ . . ظنَّ أنَّهُ قدْ أدركَ ، ولهـٰذا قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قطعْتَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٣١) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٩٨٦) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠٥) .

عُنقَ صاحبِكَ ، لوْ سمعَها . . ما أفلحَ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا مَدحْتَ أخاكَ في وجهِهِ . . فكأنَّما أمرَرْتَ علىٰ حلْقِهِ موسىً رميضاً »[2] .

وقالَ أيضاً لمَنْ مدحَ رجلاً : « عقرْتَ الرجلَ عقرَكَ اللهُ »[3] .

وقالَ مطرِّفٌ : (ما سمعتُ قطُّ ثناءً أوْ مدحةً إلَّا تصاغرَتْ إليَّ نفسي) ، وقالَ يزيدُ بنُ أبي مسلمٍ : (ليسَ أحدٌ يسمعُ ثناءً عليهِ أوْ مدحةً إلا تراءىٰ لهُ الشيطانُ ، ولٰكنَّ المؤمنَ يراجعُ)[4] ، فقالَ ابنُ المباركِ : لقد صدقَ كلاهما ؛ أمَّا ما ذكرَهُ يزيدُ . . فذٰلكَ قلبُ العوامِّ ، وأمَّا ما ذكرَهُ مطرِّفٌ . . فذٰلكَ قلبُ الخواصِّ[5] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ مشىٰ رجلٌ إلىٰ رجلٍ بسكينٍ مرهفٍ . . كان خيراً لهُ مِنْ أنْ يثنيَ عليهِ في وجهِهِ »[6] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/٥١) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه ، ورواه البخاري (٢٦٦٢) ، ومسلم (٣٠٠٠) دون زيادة : « لو سمعها . . ما أفلح » .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٢) من زيادات نعيم بن حماد ، والرميض : الحادُّ .

(٣) هو موقوف من قول الفاروق عمر رضي الله عنه كما رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٣٣٥) .

(٤) رواهما ابن المبارك في « الزهد » (٢١٣) من زيادات نعيم بن حماد .

(٥) حكاه عنه المحاسبي في « آداب النفوس » (ص٧٣) ، وله كلام مفصل في المدح في « الوصايا » (ص١٧٣) .

(٦) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) ، وقد تبع المصنف في إيراده مرفوعاً الحارث المحاسبي في « آداب النفوس » (ص١٠٠) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (المدحُ هوَ الذبحُ) [١] ، وذٰلكَ لأنَّ المذبوحَ هوَ الذي يفتُرُ عنِ العملِ ، والمدحُ يوجبُ الفتورَ ، ولأنَّ المدحَ يورثُ الكبرَ والعجبَ ، وهما مهلكانِ كالذبحِ ، فلذٰلكَ شبَّهَهُ بهِ .

فإنْ سلمَ المدحُ عنْ هٰذِهِ الآفاتِ في حقِّ المادحِ والممدوحِ . . لمْ يكنْ بهِ بأسٌ ، بلْ ربَّما كان مندوباً إليهِ ، ولذٰلكَ أثنىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على الصحابةِ ، فقالَ : « لو وُزِنَ إيمانُ أبي بكرٍ بإيمانِ العالمينَ . . لرجحَ » [٢] ، وقالَ لعمرَ : « لوْ لمْ أُبعثْ . . لبُعثْتَ يا عمرُ » [٣] ، وأيُّ ثناءٍ يزيدُ علىٰ هٰذا ؟ ولٰكنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ عنْ صدقٍ وبصيرةٍ ، وكانُوا رضيَ اللهُ عنهُم أجلَّ رتبةً مِنْ أنْ يورثَهُمْ ذٰلكَ كبراً أوْ عجباً أوْ فتوراً .

بلْ مدحُ الرجلِ نفسَهُ قبيحٌ ؛ لما فيهِ مِنَ الكبرِ والتفاخرِ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنا سيدُ ولدِ آدمَ ولا فخرَ » [٤] أيْ : لستُ أقولُ هٰذا تفاخراً كما يقصدُهُ الناسُ بالثناءِ علىٰ أنفسِهِمْ ، وذٰلكَ لأنَّ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٧٨٨) .
(٢) رواه مرفوعاً ابن عدي في « الكامل » (٤/٢٠١) ، والبيهقي موقوفاً علىٰ عمر رضي الله عنه في « الشعب » (٣٥) .
(٣) رواه أحمد في « فضائل الصحابة » (٦٧٦) ، وابن عدي في « الكامل » (٣/١٥٥) بلفظ : « لو لم أبعث فيكم نبياً . . لبعث عمر بن الخطاب » ، ورواه الترمذي (٣٦٨٦) بلفظ : « لو كان بعدي نبي . . لكان عمر بن الخطاب » .
(٤) رواه ابن ماجه (٤٣٠٨) ، وعند مسلم (٢٢٧٨) : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة » .

افتخارَهُ كانَ باللهِ ، وبقربِهِ مِنَ اللهِ ، لا بكونِهِ مقدَّماً على ولدِ آدمَ ، كما أنَّ المقبولَ عندَ الملكِ قبولاً عظيماً إنَّما يفتخرُ بقبولِهِ إيَّاهُ ، وبهِ يفرحُ ، لا بتقدُّمِهِ على بعضِ رعاياهُ .

وبتفصيلِ هـٰذِهِ الآفاتِ تقدرُ على الجمعِ بينَ ذمِّ المدحِ وبينَ الحثِّ عليهِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وجبَتْ » لمَّا أثنَوا على بعضِ الموتى[1] .

وقالَ مجاهدٌ : (إنَّ لبني آدمَ جلساءَ مِنَ الملائكةِ ، فإذا ذكرَ الرجلُ أخاهُ المسلمَ بخيرٍ . . قالَتِ الملائكةُ : ولكَ مثلُهُ ، وإذا ذكرَهُ بسوءٍ . . قالَتِ الملائكةُ : يا بنَ آدمَ المستورَ عورتُهُ ؛ اربَعْ على نفسِكَ ، واحمدِ اللهَ الذي سترَ عورتَكَ)[2] .

فهـٰذِهِ آفاتُ المدحِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه البخاري (١٣٦٧) ، ومسلم (٩٤٩) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦١٥) ، **واربع على نفسك** : ارفق بها .

بيان ما على الممدوح

اعلمْ : أنَّ على الممدوحِ أنْ يكونَ شديدَ الاحترازِ عنْ آفةِ الكبرِ والعُجبِ ، وآفةِ الفتورِ ، ولا ينجو منهُ إلَّا بأنْ يعرفَ نفسَهُ ، ويتأمَّلَ في خطرِ الخاتمةِ ، ودقائقِ الرياءِ ، وآفاتِ الأعمالِ ، فإنَّهُ يعرفُ مِنْ نفسِهِ ما لا يعرفُهُ المادحُ ، ولوِ انكشفَ لهُ جميعُ أسرارِهِ وما يجري علىٰ خواطرِهِ . . لكفَّ المادحُ عنْ مدحِهِ .

وعليهِ أنْ يُظهرَ كراهةَ المدحِ بإذلالِ المادحِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « احثُوا في وجوهِ المدَّاحينَ الترابَ »[1] .

وقالَ سفيانُ بنُ عيينةَ : (لا يضرُّ المدحُ مَنْ عرفَ نفسَهُ)[2] .

وأُثنيَ علىٰ رجلٍ مِنَ الصالحينَ ، فقالَ : (اللهمَّ ؛ إنَّ هٰؤلاءِ لا يعرفوني ، وأنتَ تعرفُني)[3] .

وقالَ آخرُ لمَّا أُثنيَ عليهِ : (اللَّهمَّ ؛ إنَّ عبدَكَ هٰذا تقرَّبَ إليَّ بمقتِكَ ، وأنا أشهدُكَ علىٰ مقتِهِ)[4] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ لمَّا أُثنيَ عليهِ : (اللَّهمَّ ؛ اغفرْ لي ما لا

---

(١) رواه مسلم (٣٠٠٢) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠٨) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠١) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠٢) .

يعلمونَ ، ولا تؤاخذْني بما يقولونَ ، واجعلْني خيراً ممَّا يظنُّونَ)[1] .

وأثنىٰ رجلٌ علىٰ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، فقالَ : (أتهلكُني وتهلكُ نفسكَ ؟!)[2] .

وأثنىٰ رجلٌ علىٰ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ في وجهِهِ ، وكانَ بلغَهُ أنَّهُ يقعُ فيهِ ، فقالَ عليٌّ : (أنا دونَ ما قلتَ ، وفوقَ ما في نفسِكَ)[3] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٣٢/٣٠) عن الأصمعي يحكيه عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦١٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦١١) .

الآفة التاسعة عشرة : في الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام

لا سيَّما فيما يتعلَّقُ باللهِ وصفاتِهِ ، ويرتبطُ بأمورِ الدينِ ، فلا يقدرُ علىٰ تقويمِ اللفظِ في أمورِ الدينِ إلَّا العلماءُ الفصحاءُ .

فمَنْ قصَّرَ في علمٍ أوْ فصاحةٍ . . لمْ يخلُ كلامُهُ عنِ الزَّللِ ، لٰكنَّ اللهَ تعالىٰ يعفو عنهُ لجهلِهِ .

مثالُهُ : ما قالَ حذيفةُ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يقلْ أحدُكُمْ : ما شاءَ اللهُ وشئْتَ ، ولٰكنْ ليقُلْ : ما شاءَ اللهُ ثمَّ شئْتَ »(١) .

وذٰلكَ لأنَّ في العطفِ المطلقِ تشريكاً وتسويةً ، وهوَ علىٰ خلافِ الاحترامِ .

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فكلَّمَهُ في بعضِ الأمورِ ، فقالَ : ما شاءَ اللهُ وشئتَ ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٤٤) ، ورواه أبو داوود (٤٩٨٠) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٧٥٥) بلفظ : « لا تقولوا : ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان » ، وبلفظ المصنف رواه ابن ماجه (٢١١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وروى النسائي (٦/٧) من حديث قتيلة رضي الله عنها : أن يهودياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنكم تندّدون ، وإنكم تشركون ، تقولون : ما شاء الله وشئتَ ، وتقولون : والكعبةِ ، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة ، ويقولون : ما شاء الله ثم شئتَ .

فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أجعلتَني للهِ عديلاً ؟! بلْ ما شاءَ اللهُ وحدَهُ »[1] .

وخطبَ رجلٌ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : مَنْ يطعِ اللهَ ورسولَهُ . . فقدْ رَشَدَ ، ومَنْ يعصِهِمَا . . فقدْ غوىٰ ، فقالَ : « قُلْ : ومَنْ يعصِ اللهَ ورسولَهُ . . فقدْ غَوىٰ »[2] ، فكرِهَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قولَهُ : « ومَنْ يعصِهِما » ؛ لأنَّهُ تسويةٌ وجمعٌ[3] .

وكانَ إبراهيمُ يكرَهُ أنْ يقولَ الرجلُ : أعوذُ باللهِ وبكَ ، ويجوِّزُ أنْ يقولَ : أعوذُ باللهِ ثمَّ بكَ ، وأنْ يقولَ : لولا اللهُ ثمَّ فلانٌ ، ولا يقولُ : لولا اللهُ وفلانٌ[4] .

وكرِهَ بعضُهمْ أنْ يُقالَ : اللَّهمَّ ؛ أعتقْنا مِنَ النارِ ، ويقولُ : العتقُ يكونُ بعدَ الورودِ ، وكانوا يستجيرونَ مِنَ النارِ ، ويتعوَّذونَ مِنَ النارِ[5] .

---

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٧٥٩) .

(٢) رواه مسلم (٨٧٠) .

(٣) أي : ذكرهما في حيز واحد ، هٰذا هو المشهور ، واختلف في ذٰلك ؛ فقيل : كان ذٰلك في أول الإسلام ، ثم لما شاع وانتشر وكمل نور الإيمان . . أبيح ذٰلك كما ذكره شرّاح « الشفاء » ، وقال بعضهم : ولعل الأوجه أن يقال : العدول عن الاسمين الكريمين غير لائق وإن كان المقام يقتضي الضمير اختصاراً ، ولهٰذا ورد في كثير من القرآن : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ، ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ، ولله در القائل :

أعـدْ ذكـرَ نَعمانَ لنا إنَّ ذكـرَهُ ... هـوَ الـمسكُ ما كـرَّرْتَـهُ يتضوَّعُ

« إتحاف » (٧/٥٧٥) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٤٧) ، وإبراهيم هو النخعي .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٤٨) .

وقالَ رجلٌ : اللَّهمَّ ؛ اجعلْني ممَّنْ تصيبُهُ شفاعةُ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ حذيفةُ : (إنَّ اللهَ يُغني المؤمنينَ عنْ شفاعةِ محمدٍ ، وتكونُ شفاعتُهُ للمذنبينَ مِنَ المسلمينَ)[١] .

وقالَ إبراهيمُ : (إذا قالَ الرجلُ للرجلِ : يا حمارُ ، يا خنزيرُ . . قيلَ لهُ يومَ القيامةِ : حماراً رأيتَني خلقتُهُ ؟ خنزيراً رأيتَني خلقتُهُ ؟)[٢] .

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (إنَّ أحدَكُمْ ليشركُ حتَّىٰ يشركَ بكلبِهِ ، يقولُ : لولاهُ . . لسُرِقْنا الليلةَ)[٣] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ ينهاكُمْ أنْ تحلفُوا بآبائِكُم ، مَنْ كانَ حالفاً . . فلْيحلِفْ باللهِ أوْ لِيَصْمُتْ » ، قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : واللهِ ؛ ما حلفْتُ بها منذُ سمعتُها[٤] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تسمُّوا العنبَ الكرمَ ، إنَّما الكرمُ الرجلُ المسلمُ »[٥] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يقولنَّ أحدُكُمْ : عبدي وأمتي ، كلُّكمْ عبيدُ اللهِ ، وكلُّ نسائِكُمْ إماءُ اللهِ ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٤٩) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٥٣) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٦٠) .
(٤) رواه البخاري (٦٦٤٧) ، ومسلم (٣/١٦٤٦) واللفظ له .
(٥) رواه البخاري (٦١٨٣) ، ومسلم (٢٢٤٧) واللفظ له .

ولٰكنْ ليقُلْ : غلامي وجاريتي ، وفتايَ وفتاتي ، ولا يقُلِ المملوكُ : ربِّي ، ولا ربَّتي ، ولٰكنْ ليقلْ : سيدي وسيدتي ، فكلُّكمْ عبيدُ اللهِ ، والربُّ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تقولُوا للمنافقِ : سيدُنا ؛ فإنَّهُ إنْ يكنْ سيدَكُمْ . . فقدْ أسخطْتُمْ ربَّكمْ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ : أنا بريءٌ مِنَ الإسلامِ ؛ فإنْ كانَ صادقاً . . فهوَ كما قالَ ، وإنْ كانَ كاذباً . . فلنْ يرجعَ إلى الإسلامِ سالماً »[3] .

فهٰذا وأمثالُهُ ممَّا يدخلُ في الكلامِ ، ولا يمكنُ حصرُهُ .

ومَنْ تأمَّلَ جميعَ ما أوردناهُ مِنْ آفاتِ اللسانِ . . علمَ أنَّهُ إذا أطلقَ لسانَهُ . . لمْ يسلمْ ، وعندَ ذٰلكَ يعرفُ سرَّ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صمتَ . . نجا »[4] ، لأنَّ هٰذهِ الآفاتِ كلَّها مهالكُ ومعاطبُ ، وهيَ علىٰ طريقِ المتكلِّمِ .

فإنْ سكتَ . . سلمَ مِنَ الكلِّ ، وإنْ نطقَ وتكلَّمَ . . خاطرَ بنفسِهِ ،

---

(١) رواه البخاري (٢٥٥٢) ، ومسلم (٢٢٤٩) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٦٥) واللفظ له .

(٢) رواه أبو داوود (٤٩٧٧) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٦٧) واللفظ له .

(٣) رواه أبو داوود (٣٢٥٨) ، والنسائي (٦/٧) ، وابن ماجه (٢١٠٠) .

(٤) رواه الترمذي (٢٥٠١) .

إلَّا أنْ يوافقَهُ لسانٌ فصيحٌ ، وعلمٌ غزيرٌ ، وورعٌ حافظٌ ، ومراقبةٌ لازمةٌ ، ويقلِّلَ مِنَ الكلامِ ، فعساهُ يسلمُ عندَ ذٰلكَ ، وهوَ معَ جميعِ ذٰلكَ لا ينفكُّ عنِ الخطرِ ، فإنْ كنتَ لا تقدرُ علىٰ أنْ تكونَ ممَّن تكلَّمَ فغنمَ . . فكنْ ممَّنْ سكَتَ فسلِمَ ؛ فالسلامةُ إحدى الغنيمتَينِ .

* * *

الآفة العشرون : سؤال العوام عن صفات الله تعالىٰ وعن كلامه ، وعن الحروف ، وأنّها قديمة أو محدثة

ومِنْ حقِّهِمُ الاشتغالُ بالعملِ بما في القرآنِ[١] ، إلَّا أنَّ ذٰلك ثقيلٌ على النفوسِ ، والفضولَ خفيفٌ على القلبِ ، والعاميُّ يفرحُ بالخوضِ في العلمِ ؛ إذِ الشيطانُ يخيِّلُ إليهِ أنَّكَ مِنَ العلماءِ وأهلِ الفضلِ .

ولا يزالُ يحبِّبُ إليهِ ذٰلكَ حتَّىٰ يتكلَّمَ في العلمِ بما هوَ كفرٌ وهوَ لا يدري .

وكلُّ كبيرةٍ يرتكبُها العاميُّ فهيَ أسلمُ لهُ مِنْ أنْ يتكلَّمَ في العلمِ ، لا سيَّما فيما يتعلَّقُ باللهِ وصفاتِهِ ، وإنَّما شأنُ العوامِّ الاشتغالُ

---

(١) أي : من الأوامر والنواهي . « إتحاف » (٥٧٩/٧) ، ثم ما المراد بالعاميّ في هٰذا الباب ؟ يقول الحافظ الزبيدي موضحاً ومبيناً في « الإتحاف » (٥٨١/٧) : (وليس المراد بالعوام السوقية والأجلاف من أهل السواد فقط ، بل في معنى العوام الأديب والنحوي والمحدث والمفسر والفقيه والمتكلم ، بل كل عالم سوى المتجردين لعلم السباحة في بحار المعرفة القاصرين أعمارهم عليه ، الصارفين وجوههم عن الدنيا والشهوات ، المعرضين عن المال والجاه والخلق وسائر اللذات ، المخلصين لله تعالىٰ في العلوم والأعمال ، القائمين بجميع حدود الشريعةِ وآدابها في القيام بالطاعات وترك المنكرات ، المفرغين قلوبهم بالجملة عن غير الله لله ، المستحقرين للدنيا بل للآخرة في جنب محبة الله تعالىٰ ، فهٰؤلاء هم أهل الغوص في بحر المعرفة ، وهم مع ذٰلك كله علىٰ خطر عظيم ، يهلك في العشرة تسعة إلىٰ أن يسعد واحد منهم بالدر المكنون والسر المخزون) .

بالعباداتِ ، والإيمانُ بما وردَ بهِ القرآنُ ، والتسليمُ لما جاءَتْ بهِ الرسلُ مِنْ غيرِ بحثٍ .

وسؤالُهُمْ عنْ غيرِ ما يتعلقُ بالعباداتِ سوءُ أدبٍ منهُمْ ، يستحقُّونَ بهِ المقتَ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويتعرَّضونَ لخطرِ الكفرِ ، وهوَ كسؤالِ ساسةِ الدوابِّ عنْ أسرارِ الملوكِ ، وهوَ موجبٌ للعقوبةِ ، وكلُّ منْ سألَ عنْ علمٍ غامضٍ ولمْ يبلغْ فهمُهُ تلكَ الدرجةَ فهوَ مذمومٌ ؛ فإنَّهُ بالإضافةِ إليهِ عاميٌّ ، ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ذروني ما تركتُكُمْ ، فإنَّما هلكَ مَنْ كانَ قبلَكُم بكثرةِ سؤالِهِمْ ، واختلافِهِمْ على أنبيائِهِمْ ، ما نهيتُكمْ عنهُ فاجتنبُوهُ ، وما أمرتُكمْ بهِ فأتوا منهُ ما استطعتُمْ » (١) .

وقالَ أنسٌ : سألَ الناسُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً حتَّى أكثرُوا عليهِ وأغضبُوهُ ، فصعدَ المنبرَ وقالَ : « سلوني ، فلا تسألُوني عنْ شيءٍ إلا أنبأتكُمْ بهِ » ، فقامَ إليهِ رجلٌ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ مَنْ أبي ؟ فقالَ : « أبوكَ حذافةُ » ، فقامَ إليهِ شابَّانِ أخوانِ ، فقالا : يا رسولَ اللهِ ؛ مَنْ أبونا ؟ فقالَ : « أبوكُما الذي تدعيانِ إليهِ » فقامَ إليهِ رجلٌ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أفي الجنةِ أنا أمْ في النارِ ؟ فقالَ : « لا ، بلْ في النارِ » ، فلمَّا رأى الناسُ غضبَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . أمسكُوا ، فقامَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : رضينا باللهِ ربّاً ، وبالإسلامِ ديناً ، وبمحمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رسولاً ، فقالَ :

---

(١) رواه البخاري (٧٢٨٨) ، ومسلم (١٣٢٧) .

« اجلسْ يا عمرُ ؛ يرحمُكَ اللهُ ، إنَّكَ ما علمتَ لموفقٌ »[١] .

وفي الحديثِ : (نهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ القيلِ والقالِ ، وإضاعةِ المالِ ، وكثرةِ السؤالِ)[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يوشكُ الناسُ يتساءلونَ بينهُمْ حتَّىٰ يقولوا هٰذا : خَلقَ اللهُ الخلقَ ، فمَنْ خلقَ اللهَ ؟ فإذا قالُوا ذٰلكَ . . فقولوا : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ . . . ﴾ حتَّىٰ تختموا السورةَ[٣] ، ثمَّ ليتفُلْ أحدُكمْ عنْ يسارِهِ ثلاثاً ، وليستعذْ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ »[٤] .

وقالَ جابرٌ : (ما نزلَتْ آيةُ التلاعنِ إلا لكثرةِ السؤالِ)[٥] .

وفي قصةِ موسىٰ والخضرِ عليهما السلامُ تنبيهٌ على المنعِ مِنَ السؤالِ قبلَ أوانِ استحقاقِهِ ؛ إذْ قالَ : ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾[٦] ، فلمَّا سألَ عنِ السفينةِ . . أنكرَ عليهِ حتَّى اعتذرَ ، وقالَ : ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي

---

(١) رواه البخاري (٩٣) ، ومسلم (٢٣٥٩) وليس فيهما ذكر الشابين والسائل عن عاقبته ، ورواه أحمد في « المسند » (٣/١٦٢) وليس فيه ذكر الشابين .

(٢) رواه البخاري (١٤٧٧) ، ومسلم (٥٩٣) (كتاب الأقضية ، باب النهي عن كثرة المسائل) .

(٣) سورة الإخلاص : (١ ـ ٤) .

(٤) رواه أبو داوود (٤٧٢٢) ، وبنحوه رواه البخاري (٧٢٩٦) ، ومسلم (١٣٤) .

(٥) رواه الخطيب في « الأسماء المبهمة » (ص ٤٨١) .

(٦) سورة الكهف : (٧٠) .

عُسْرًا ﴾ [١] ، فلمّا لم يصبرْ حتّىٰ سألَ ثلاثاً . . قالَ : ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ [٢] وفارقَهُ .

فسؤالُ العوامِّ عنْ غوامضِ الدينِ مِنْ أعظمِ الآفاتِ ، وهوَ مِنَ المثيراتِ للفتنِ ، فيجبُ ذمُّهمْ ومنعهُمْ مِنْ ذٰلكَ ، وخوضُهُمْ في حروفِ القرآنِ يضاهي حالَ مَنْ كتبَ إليهِ الملكُ كتاباً ، ورسمَ لهُ فيهِ أموراً ، فلمْ يشتغلْ بشيءٍ منها ، وضيَّعَ زمانَهُ في السؤالِ : أنَّ قرطاسَ الكتابِ عتيقٌ أمْ حديثٌ ؟ فاستحقَّ بذٰلكَ العقوبةَ لا محالةَ ، فكذٰلكَ تضييعُ العاميِّ حدودَ القرآنِ واشتغالُهُ بحروفهِ أهيَ قديمةٌ أمْ محدثةٌ ، وكذٰلكَ سائرُ صفاتِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ .

❁ ❁ ❁

تمّ كتاب آفات اللّسان

وهو الكتاب الرّابع من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدّين

والحمد لله ربّ العالمين ، حمدًا دائمًا كثيرًا طيّبًا مباركًا فيه

وصلى الله على سيّدنا محمّدٍ النّبيّ العربيّ المصطفى

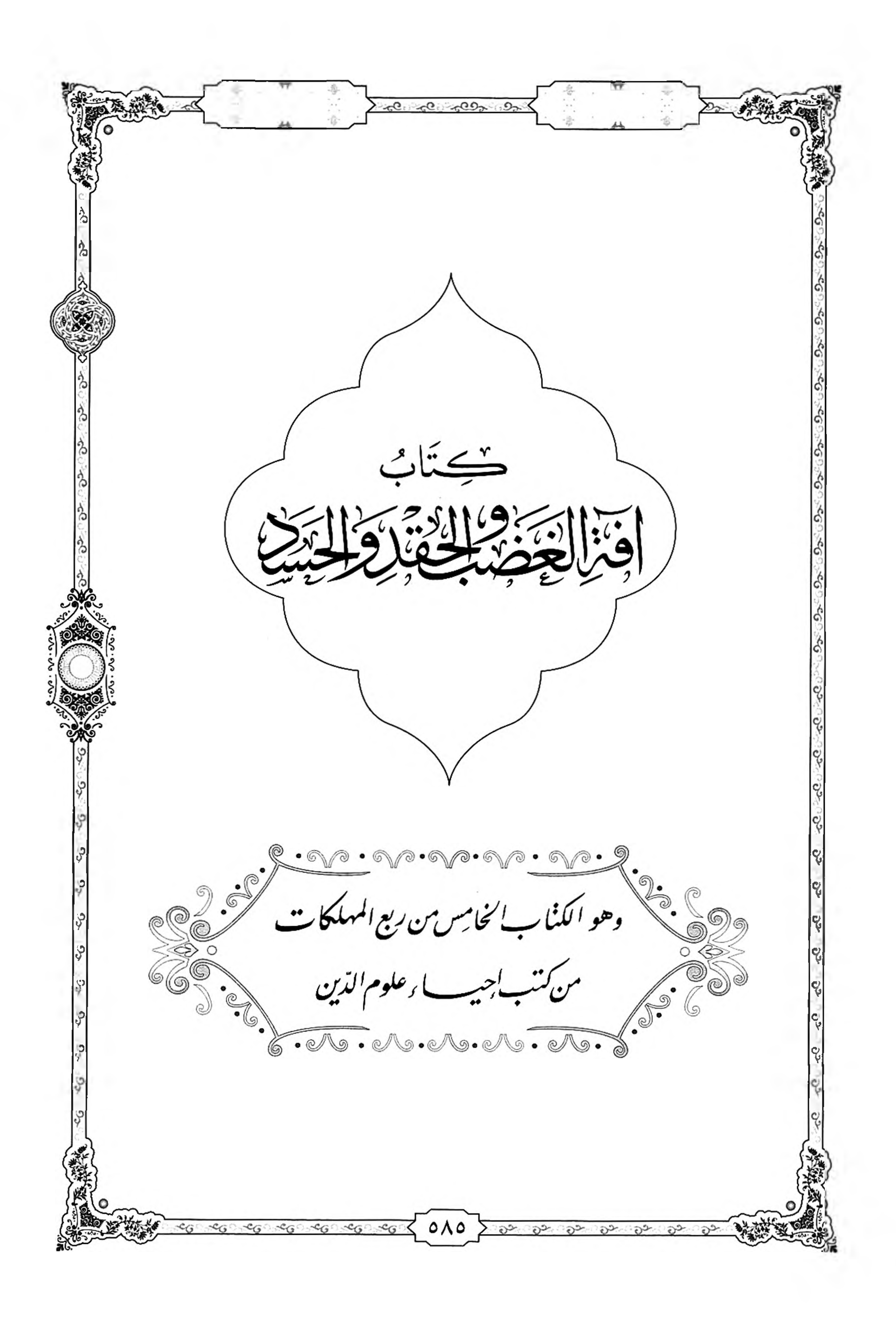
خيرة الله من خلقه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا

يتلوه كتاب آفة الغضب والحقد والحسد

---

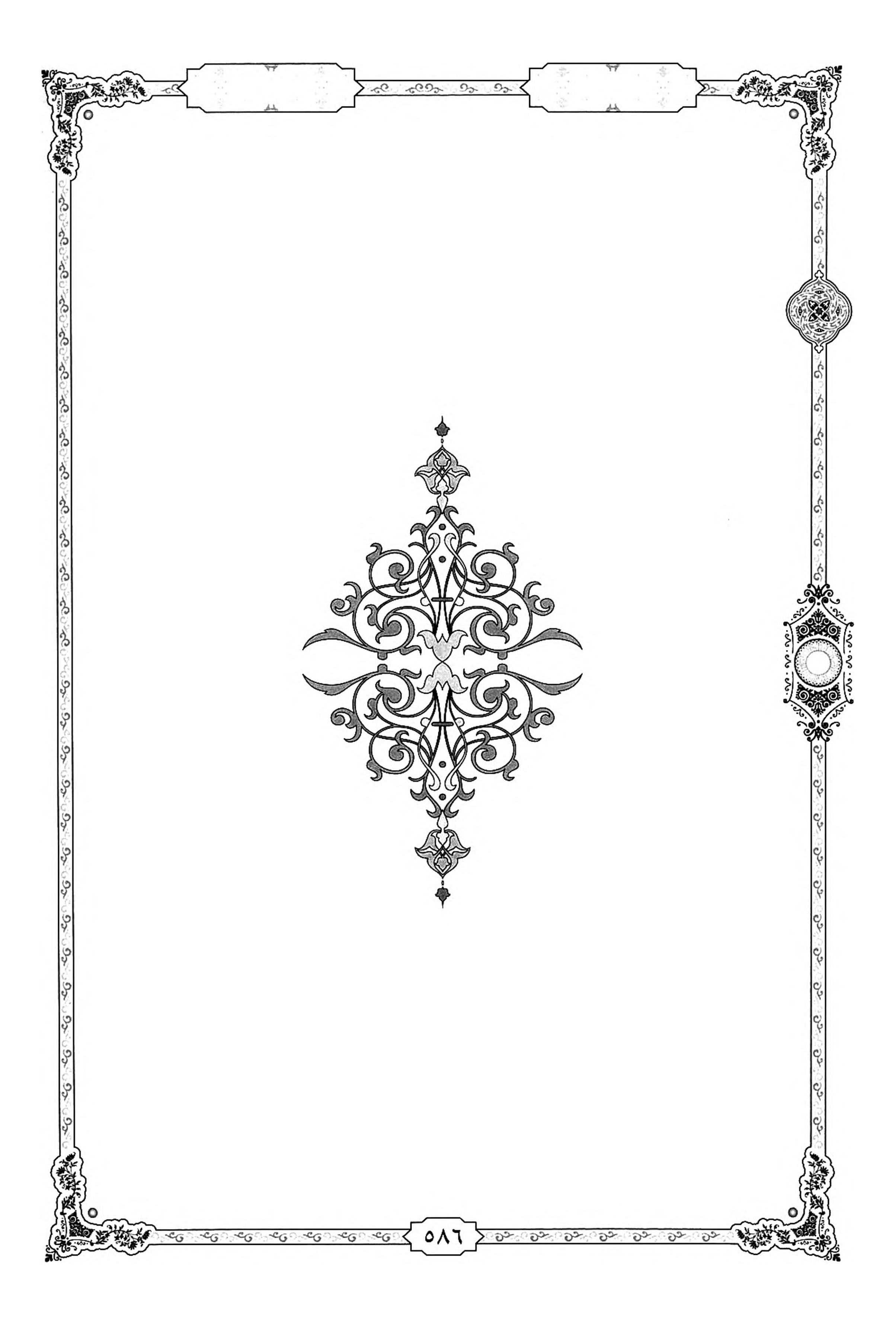
(١) سورة الكهف : (٧٣) .

(٢) سورة الكهف : (٧٨) .



كتاب آفة الغضب والحقد والحسد

وهو الكتاب الخامس من ربع المهلكات
من كتب إحياء علوم الدين



كتاب آفة الغضب والحقد والحسد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي لا يتكلُ إلا علىٰ عفوهِ ورحمتهِ الراجونَ ، ولا يحذرُ سوىٰ غضبِهِ وسطوتِهِ الخائفونَ ، الذي استدرجَ عبادَهُ مِنْ حيثُ لا يعلمونَ ، وسلَّطَ عليهِمُ الشهواتِ وأمرَهُمْ بتركِ ما يشتهونَ ، وابتلاهُمْ بالغضبِ وكلَّفَهُمْ كظمَ الغيظِ فيما يغضبونَ ، ثمَّ حفَّهُمْ بالمكارِهِ واللذَّاتِ وأملىٰ لهُمْ لينظرَ كيفَ يعملونَ ، وامتحنَ بِهِ حبَّهُمْ ليعلمَ صدقَهُمْ فيما يدَّعونَ ، وعرَّفَهُمْ أنَّهُ لا يخفىٰ عليهِ شيءٌ مما يسرُّونَ وما يعلنونَ ، وحذَّرهُمْ أنْ يأخذَهُمْ بغتةً وهُمْ لا يشعرونَ ؛ فقالَ : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١) .

والصَّلاةُ علىٰ محمدٍ رسولِهِ الذي يسيرُ تحتَ لوائِهِ النبيونَ والمرسلونَ ، وعلىٰ آلهِ وأصحابِهِ الأئمةِ المهديِّينَ والسادةِ المرضيِّينَ ، صلاةً يوازي عددُها عددَ ما كانَ مِنْ خلقِ اللهِ وما سيكونُ ، ويحظىٰ ببركتِها الأولونَ والآخرونَ ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإنَّ الغضبَ شعلةُ نارٍ اقتُبِسَتْ مِنْ نارِ اللهِ الموقدةِ ، التي تطلعُ

---

(١) سورة يسٓ : (٤٩ ـ ٥٠) .

على الأفئدةِ ، وإنَّها لمستكنَّةٌ في طيِّ الفؤادِ استكنانَ الجمرِ تحتَ الرمادِ ، ويستخرجُها الكِبْرُ الدفينُ فِي قلبِ كلِّ جبارٍ عنيدٍ ؛ كما يستخرجُ الحجرُ النارَ مِنَ الحديدِ ، وقدِ انكشفَ للناظرينَ بنورِ اليقينِ : أنَّ الإنسانَ ينزِعُ منهُ عرقٌ إلى الشيطانِ اللعينِ ، فمَنِ استفزَّتْهُ نارُ الغضبِ . . فقدْ قويَتْ فيهِ قرابةُ الشيطانِ ؛ حيثُ قالَ : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾[1] ، فإنَّ شأنَ الطينِ السكونُ والوقارُ ، وشأنَ النارِ التلظِّي والاستعارُ ، والحركةُ والاضطرابُ .

ومِنْ نتائجِ الغضبِ الحقدُ والحسدُ ، وبهما هلكَ مَنْ هلكَ ، وفسدَ مَنْ فسدَ ، ومفيضُهما مضغةٌ إذا صلُحَتْ . . صلُحَ سائرُ الجسدِ ، وإذا كانَ الحقدُ والحسدُ والغضبُ ممَّا يسوقُ العبدَ إلىٰ مواطنِ العطَبِ . . فما أحوجَهُ إلىٰ معرفةِ معاطبِهِ ومساويهِ ؛ ليحذرَ ذٰلكَ ويتقيهِ ، ويميطَهُ عنِ القلبِ إن كانَ وينقِّيهِ[2] ، ويعالجَهُ إنْ رسَخَ في قلبِهِ ويداويهِ ، فإنَّ مَنْ لا يعرفُ الشرَّ . . يوشكُ أنْ يقعَ فيهِ ، ومَنْ عرفَهُ . . فالمعرفةُ لا تكفيهِ ، ما لمْ يعرفِ الطريقَ الذي بهِ يدفعُ الشرَّ ويُقصيهِ .

ونحنُ نذكرُ ذمَّ الغضبِ وآفاتِ الحقدِ والحسدِ في هٰذا الكتابِ ، ويجمعُها بيانُ ذمِّ الغضبِ ، ثمَّ بيانُ حقيقةِ الغضبِ ، ثمَّ بيانُ أنَّ الغضبَ هلْ يمكنُ إزالةُ أصلِهِ بالرياضةِ أمْ لا ، ثمَّ بيانُ الأسبابِ المهيِّجةِ للغضبِ ، ثمَّ بيانُ علاجِ الغضبِ بعدَ هيجانِهِ ، ثمَّ بيانُ

---

(١) سورة الأعراف : (١٢) .

(٢) وحقها ظهور علامة النصب ، وسكنت مراعاة للسجعة ، وكذا القول فيما سيأتي .

فضيلةِ كظْمِ الغيظِ ، ثـمَّ بيانُ فضيلةِ الحلمِ ، ثـمَّ بيانُ القدرِ الذي بهِ يجوزُ الانتصارُ والتشفِّي مِنَ الكلامِ ، ثـمَّ بيانُ القولِ في معنى الحقدِ ونتائجِهِ ، وفضيلةِ العفوِ والرفقِ ، ثـمَّ بيانُ القولِ في ذمِّ الحسدِ ، وفي حقيقتِهِ وأسبابِهِ ومعالجتِهِ ، وغايةِ الواجبِ في إزالتِهِ ، ثـمَّ بيانُ السببِ في كثرةِ الحسدِ بينَ الأمثالِ والأقرانِ والإخوةِ وبني العمِّ والأقاربِ وتأكُّدِهِ ، وقلَّتِهِ وضعفِهِ في غيرِهِمْ ، ثـمَّ بيانُ الدواءِ الذي بهِ يُنفىٰ مرضُ الحسدِ عنِ القلبِ ، ثمَّ بيانُ القدرِ الواجبِ في نفيِ الحسدِ عنِ القلبِ ، وباللهِ التوفيقُ .

❊ ❊ ❊

بيان ذمّ الغضب

قـالَ اللّهُ تعالىٰ : ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ . . . ﴾ الآيةَ (١) ، ذمَّ الكفارَ بما تظاهرُوا بهِ مِنَ الحميَّةِ الصادرةِ عنِ الغضبِ بالباطلِ ، ومدحَ المؤمنينَ بما أنزلَ اللّهُ عليهمْ مِنَ السكينةِ .

ورویٰ أبو هريرةَ أنَّ رجلاً قالَ : يا رسولَ اللّهِ ؛ مُرْنِي بعملٍ وأقللْ ، قالَ : « لا تغضبْ » ، ثمَّ أعادَ عليهِ ، قالَ : « لا تغضبْ » (٢) .

وقالَ ابنُ عمرَ : قلتُ لرسولِ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ : قلْ لي قولاً وأقللْ لعلِّي أعقلُهُ ، فقالَ : « لا تغضبْ » ، فأعدْتُ عليهِ مرَّتينِ ، كلُّ ذٰلكَ يرجعُ إليَّ « لا تغضبْ » (٣) .

وعنْ عبدِ اللّهِ بنِ عمرٍو أنَّهُ سألَ رسولَ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ : ماذا يبعدُني مِنْ غضبِ اللّهِ ؟ قالَ : « لا تغضبْ » (٤) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : قالَ النبيُّ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما تعدُّونَ الصُّرَعةَ فيكُمْ ؟ » قلْنا : الذي لا يصرعُهُ الرجالُ ، قالَ : « ليسَ ذٰلكَ ، ولٰكنِ الذي يملكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ » (٥) .

---

(١) سورة الفتح : (٢٦) .
(٢) رواه البخاري (٦١١٦) .
(٣) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٥٦٨٥) .
(٤) رواه أحمد في « مسنده » (٢/١٧٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٩٢٩) .
(٥) رواه مسلم (٢٦٠٨) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ الشديدُ بالصُّرَعةِ ، إنَّما الشديدُ الذي يملكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ »[(١)] .

وقالَ ابنُ عمرَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كفَّ غضبَهُ . . سترَ اللهُ عورتَهُ »[(٢)] .

وقالَ سليمانُ بنُ داوودَ عليهِما السلامُ : (يا بُنيَّ ؛ إياكَ وكثرةَ الغضبِ ؛ فإنَّ كثرةَ الغضبِ تستخفُّ فؤادَ الرجلِ الحليمِ)[(٣)] .

وعنْ عكرمةَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ﴾[(٤)] . قال : (السيدُ الذيْ لا يغلبُهُ الغضبُ)[(٥)] .

وقالَ أبو الدرداءِ : قلْتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ دلَّني علىٰ عملٍ يدخلُني الجنةَ ، قالَ : « لا تغضبْ »[(٦)] .

وقالَ يحيىٰ لعيسىٰ عليهِما السلامُ : لا تغضبْ ، قالَ : لا أستطيعُ ألَّا أغضبَ ، إنَّما أنا بشرٌ ، قالَ : لا تقتنِ مالاً ، قالَ : هٰذا عسىٰ[(٧)] .

---

(١) رواه البخاري (٦١١٤) ، ومسلم (٢٦٠٩) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » (٣٦) ، والطبراني في « الكبير » (١٢/٣٤٦ ـ ٣٤٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/٣٤٨) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/٧٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٢/٢٨٤) .
(٤) سورة آل عمران : (٣٩) .
(٥) رواه الطبري في « تفسيره » (٣/٣/٣٢٨) .
(٦) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (٢١) ، وفي « الأوسط » (٢٣٧٤) .
(٧) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٨٦) عن عبد الله بن أبي الهذيل .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الغضبُ يفسدُ الإيمانَ كما يفسدُ الصَّبِرُ العسلَ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما غضبَ أحدٌ إلا أشفىٰ علىٰ جهنَّمَ »[٢] .

وقالَ لهُ رجلٌ : أيُّ شيءٍ أشدُّ ؟ قالَ : « غضبُ اللهِ » ، قالَ : فما يبعدُني مِنْ غضبِ اللهِ ؟ قالَ : « لا تغضبْ »[٣] .

❊ ❊ ❊

الآثارُ :

قالَ الحسنُ : (يا بنَ آدمَ ؛ كلمَّا غضبتَ . . وثبتَ ؟! يوشكُ أنْ تثِبَ وثبةً فتقعَ في النارِ)[٤] .

وعنْ ذي القرنينِ أنَّهُ لقيَ مَلَكاً منَ الملائكةِ ، فقالَ : علِّمْني علماً أزدادُ بهِ إيماناً ويقيناً ، قالَ : لا تغضبْ ؛ فإنَّ الشيطانَ أقدرُ ما يكونُ على ابنِ آدمَ حينَ يغضبُ ، فرُدَّ الغضبَ بالكظمِ ، وسكِّنْهُ بالتؤدةِ ، وإياكَ والعجلةَ ؛ فإنَّكَ إذا عجلتَ . . أخطأتَ

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٤١٧/١٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٤١) من حديث معاوية بن حيدة رضي الله عنه .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه البزار وابن عدي من حديث ابن عباس : « للنار باب لا يدخله إلا من شفىٰ غيظه بمعصية الله » وإسناده ضعيف) .

(٣) تقدم قريباً .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٦/٨) .

حظَّكَ ، وكنْ سهلاً ليناً للقريبِ والبعيدِ ، ولا تكنْ جباراً عنيداً [١] .

وعنْ وهبِ بنِ منبِّهٍ : أنَّ راهباً كانَ في صومعتِهِ ، فأرادَ الشيطانُ أنْ يضلَّهُ ، فلمْ يستطعْ ، فجاءَهُ حتَّىٰ ناداهُ ، فقالَ لهُ : افتحْ ، فلمْ يجبْهُ ، فقالَ : افتَحْ ؛ فإنِّي إنْ ذهبتُ . . ندمتَ ، فلمْ يلتفتْ إليهِ ، فقالَ : إنِّي أنا المسيحُ ، قالَ الراهبُ : وإنْ كنتَ المسيحَ ، فما أصنعُ بكَ ؟ أليسَ قدْ أمرْتَنا بالعبادةِ والاجتهادِ ، ووعدْتَنا القيامةَ ؟ فلوْ جئْتَنا اليومَ بغيرِ ذٰلكَ . . لمْ نقبلْهُ منكَ ، قالَ : فقالَ : فإنِّي أنا الشيطانُ وقدْ أردْتُ أنْ أضلَّكَ ، فلمْ أستطعْ ، فجئتُكَ لتسألَني عمَّا شئتَ فأخبرَكَ ، قالَ : ما أريدُ أنْ أسألَكَ عنْ شيءٍ ، قالَ : فولَّىٰ مدبراً ، فقالَ الراهبُ : ألا تسمعُ ؟ قال : بلىٰ ، قالَ : أخبرْني أيُّ أخلاقِ بني آدمَ أعونُ لكَ عليهِمْ ؟ قالَ : الحِدَّةُ ، إنَّ الرجلَ إذا كانَ حديداً . . قلَّبناهُ كما يقلِّبُ الصبيانُ الكرةَ [٢] .

وقالَ خيثمةُ : (الشيطانُ يقولُ : كيفَ يغلبُني ابنُ آدمَ ، وإذا رضيَ . . جئتُ حتَّىٰ أكونَ في قلبِهِ ، وإذا غضبَ . . طرتُ حتَّىٰ أكونَ في رأسِهِ ؟!) [٣] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٢٥٧) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٣٢) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/٥٢) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٩٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/١١٧) .

وقالَ جعفرُ بنُ محمدٍ : (الغضبُ مفتاحُ كلِّ شرٍّ)[(١)] .

وقالَ بعضُ الأنصارِ : (رأسُ الحمقِ الحِدَّةُ ، وقائدُهُ الغضبُ ، ومَنْ رضيَ بالجهلِ . . استغنىٰ عنِ الحلمِ ، والحلمُ زينٌ ومنفعةٌ ، والجهلُ شينٌ ومضرَّةٌ ، والسكوتُ عنْ جوابِ الأحمقِ جوابُهُ)[(٢)] .

وقالَ مجاهدٌ : (قالَ إبليسُ : ما أعجزَني بنو آدمَ فلنْ يعجزوني في ثلاثٍ ؛ إذا سكِرَ أحدُهُمْ . . أخذنا بخزامتِهِ ، فقدْناهُ حيثُ شئْنا ، وعملَ لنا بما أحببْنا ، وإذا غضبَ . . قالَ بما لا يعلمُ ، وعملَ بما يندمُ ، ونبخِّلُهُ بما في يديهِ ، ونمنِّيهِ بما لا يقدرُ عليهِ)[(٣)] .

وقيلَ لحكيمٍ : ما أملكَ فلاناً لنفسِهِ !! قالَ : إذاً لا تذلَّهُ الشهوةُ ، ولا يصرعَهُ الهوىٰ ، ولا يغلبَهُ الغضبُ[(٤)] .

وقالَ بعضُهمْ : (إيَّاكَ والغضبَ ؛ فإنَّهُ يصيِّرُكَ إلىٰ ذلةِ الاعتذارِ)[(٥)] .

وقيلَ : (اتقوا الغضبَ ، فإنَّهُ يفسدُ الإيمانَ كما يفسدُ الصبرُ العسلَ)[(٦)] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (٧/٨) .
(٢) رواه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٧١٣) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم المسكر » (٣٨) .
(٤) عزاه أبو حيان التوحيدي في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٢٦٤) لفيثاغورس ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٧/٨) : (رواه ابن أبي الدنيا) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (٧/٨) .
(٦) تقدم مرفوعاً قريباً .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ : (انظرُوا إلىٰ حلْمِ الرجلِ عندَ غضبِهِ ، وأمانتِهِ عندَ طمعِهِ ، وما علمُكَ بحلمِهِ إذا لمْ يغضبْ ؟! وما علمُكَ بأمانتِهِ إذا لمْ يطمعْ ؟!)[1] .

وكتبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ إلىٰ عاملِهِ : (ألا تعاقبَ عندَ غضبِكَ ، وإذا غضبْتَ علىٰ رجلٍ . . فاحبسْهُ ، فإذا سكنَ غضبُكَ . . فأخرجْهُ فعاقبْهُ علىٰ قدْرِ ذنبِهِ ، ولا تجاوزْ بهِ خمسةَ عشرَ سوطاً)[2] .

وقالَ عليُّ بنُ زيدٍ : أغلظَ رجلٌ مِنْ قريشٍ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ القولَ ، فأطرقَ عمرُ طويلاً ، ثمَّ قالَ : أردْتَ أنْ يستفزَّني الشيطانُ بعزِّ السلطانِ ، فأنالَ منكَ اليومَ ما تنالُهُ منِّي غداً[3] .

وقالَ بعضُهمْ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ لا يثبتُ العقلُ عندَ الغضبِ ، كما لا تثبتُ روحُ الحيِّ في التنانيرِ المسجورةِ ، فأقلُّ الناسِ غضباً أعقلُهُمْ ، فإنْ كانَ للدنيا . . كانَ دهاءً ومكراً ، وإنْ كانَ للآخرةِ . . كانَ علماً وحلماً)[4] .

وقدْ قيلَ : (الغضبُ عدوُّ العقلِ ، والغضبُ غولُ العقلِ)[5] .

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٣/١٧٨) .
(٢) روىٰ نحوه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٣٠٤) .
(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٩٧١) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٨) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (٨/٨) .

وكانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ إذا خطبَ . . قَالَ في خطبتِهِ : (أفلحَ منكُمْ مَنْ حُفِظَ مِنَ الهوىٰ والطمعِ والغضبِ) [١] .

وقالَ بعضُهمْ : (مَنْ أطاعَ شهوتَهُ وغضبَهُ . . قاداهُ إلى النارِ) [٢] .

وقالَ الحسنُ : (مِنْ علاماتِ المسلمِ : قوةٌ في دينٍ ، وحزمٌ في لينٍ ، وإيمانٌ في يقينٍ ، وعلمٌ في حلمٍ ، وكيسٌ في رفقٍ ، وإعطاءٌ في حقٍّ ، وقصدٌ في غنىً ، وتجمُّلٌ في فاقةٍ ، وإحسانٌ في قدرةٍ ، وتحمُّلٌ في رفاقةٍ ، وصبرٌ في شدَّةٍ ، لا يغلبُهُ الغضبُ ، ولا تجمحُ بِهِ الحميَّةُ ، ولا تغلبُهُ شهوتُهُ ، ولا يفضحُهُ بطنُهُ ، ولا يستخفُّهُ حرصُهُ ، ولا تقصرُ بِهِ نيتُهُ ، ينصُرُ المظلومَ ، ويرحمُ الضعيفَ ، ولا يبخلُ ولا يبذِّرُ ، ولا يسرِفُ ولا يقتِّرُ ، يغفرُ إذا ظُلِمَ ، ويعفو عنِ الجاهلِ ، نفسُهُ منهُ في عناءٍ ، والناسُ منهُ في رخاءٍ) [٣] .

وقيلَ لعبدِ اللهِ بنِ المباركِ : أجمِلْ لنا حسنَ الخلقِ في كلمةٍ ، فقالَ : تركُ الغضبِ [٤] .

وقالَ نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ لمَنْ معَهُ : مَنْ يتكفَّلُ لي ألَّا يغضبَ ويكونَ معي في درجتي ، ويكونَ بعدي خليفتي ؟ فقالَ شابٌّ مِنَ القومِ : أنا ، ثمَّ أعادَ عليهِ ، فقالَ : الشابُّ : أنا أُوفِّي بهِ ، فلما ماتَ . . كانَ في

---

(١) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/٢١٥) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٨) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف (٨/٨) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (٨/٨) .

منزلتِهِ بعدَهُ ، وهوَ ذو الكِفْلِ ، سُمِّيَ بهِ ؛ لأنَّهُ كفَلَ بالغضبِ ووفَّىٰ بهِ [1] .

وقالَ وهبُ بنُ منبِّهٍ : (للكفرِ أربعةُ أركانٍ : الغضبُ ، والشهوةُ ، والخُرْقُ ، والطمعُ) [2] .

* * *

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٨) ، وفي (أ) : (كفل بترك الغضب) .

(٢) رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٤/٧٠) ، وفي (أ) : (الحرص) بدل (الخرق) .

بيان حقيقة الغضب

اعلمْ : أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا خلقَ الحيوانَ معرَّضاً للفسادِ والمُوتانِ بأسبابٍ في داخلِ بدنِهِ وأسبابٍ خارجةٍ عنهُ . . أنعمَ عليهِ بما يحميهِ عنِ الفسادِ ، ويدفعُ عنهُ الهلاكَ إلىٰ أجلٍ معلومٍ سمَّاهُ في كتابِهِ .

أما السببُ الداخلُ : فهوَ أنَّهُ ركَّبَهُ منَ الحرارةِ والرطوبةِ ، وجعلَ بينَ الحرارةِ والرطوبةِ عداوةً ومضادَّةً ؛ فلا تزالُ الحرارةُ تحلِّلُ الرطوبةَ وتجفِّفُها وتبخِّرُها حتىٰ تتفشَّىٰ أجزاؤُها بخاراً يتصاعدُ منها ، فلوْ لمْ يتصلْ بالرطوبةِ مددٌ مِنَ الغذاءِ يَجبُرُ ما انحلَّ وتبخَّرَ منْ أجزائِها . . لفسدَ الحيوانُ ، فخلقَ اللهُ الغذاءَ الموافقَ لبدنِ الحيوانِ ، وخلقَ في الحيوانِ شهوةً تبعثُهُ علىٰ تناولِ الغذاءِ ؛ كالموكلِ بهِ في جبْرِ ما انكسرَ وسدِّ ما انثلمَ ؛ ليكونَ ذٰلكَ حافظاً لهُ مِنَ الهلاكِ بهٰذا السببِ .

وأمَّا الأسبابُ الخارجةُ التي يتعرَّضُ لها الإنسانُ : فكالسيفِ والسِّنانِ وسائرِ المهلكاتِ التي يقصدُ بها ، فافتقرَ إلىٰ قوَّةٍ وحميَّةٍ تثورُ مِنْ باطنِهِ فتدفعُ المهلكاتِ عنهُ ، فخلقَ اللهُ الغضبَ مِنَ النارِ ، وغرزَهُ في الإنسانِ ، وعجنَهُ بطينتِهِ ، فمهما قُصِدَ في غرضٍ مِنْ أغراضِهِ ، ومقصودٍ مِنْ مقاصدِهِ . . اشتعلَتْ نارُ الغضبِ ، وثارَتْ ثوراناً يغلي منها دمُ القلبِ ، وينتشرُ في العروقِ ، ويرتفعُ إلىٰ أعالي البدنِ كما ترتفعُ النارُ ، وكما يرتفعُ الماءُ الذي يغلي في القِدْرِ ؛ فلذٰلكَ ينصبُّ إلى الوجهِ ، فيحمرُّ الوجهُ والعينُ ، والبشرةُ لصفائِها تحكي لونَ ما

وراءَها مِنْ حمرةِ الدمِ ؛ كما تحكي الزجاجةُ لونَ ما فيها ، وإنَّما ينبسطُ الدمُ إذا غضبَ علىٰ مَنْ دونَهُ واستشعرَ القدرةَ عليهِ ، فإنْ صدرَ الغضبُ علىٰ مَنْ فوقَهُ ، وكانَ معَهُ يأسٌ مِنَ الانتقامِ . . تولَّدَ منهُ انقباضُ الدمِ مِنْ ظاهرِ الجلدِ إلىٰ جوفِ القلبِ ، وصارَ حزناً ، ولذٰلكَ يصفرُّ اللونُ ، وإنْ كانَ الغضبُ علىٰ نظيرٍ يشكُّ فيهِ . . تولَّدَ منهُ تردُّدُ الدمِ بينَ انقباضٍ وانبساطٍ ؛ فيحمرُّ ويصفرُّ ويضطربُ .

وبالجملةِ : فقوَّةُ الغضبِ محلُّها القلبُ ، ومعناها : غليانُ دمِ القلبِ لطلبِ الانتقامِ ، وإنَّما تتوجَّهُ هٰذهِ القوَّةُ عندَ ثورانِها إلىٰ دفعِ المؤذياتِ قبلَ وقوعِها ، وإلى التشفِّي والانتقامِ بعدَ وقوعِها ، والانتقامُ قوتُ هٰذهِ القوَّةِ وشهوتُها ، وفيهِ لذَّتُها ، ولا تسكنُ إلا بهِ .

ثمَّ الناسُ في هٰذهِ القوَّةِ علىٰ درجاتٍ ثلاثٍ في أوَّلِ الفطرةِ : مِنَ التفريطِ ، والإفراطِ ، والاعتدالِ .

أمَّا التفريطُ : فبفقدِ هٰذهِ القوَّةِ أوْ ضعفِها ، وذٰلكَ مذمومٌ ، وهوَ الذي يُقالُ فيهِ : (إنَّهُ لا حميَّةَ لهُ) ، ولذٰلكَ قالَ الشافعيُّ رحمهُ اللهُ : (منِ استُغضِبَ فلمْ يغضبْ . . فهوَ حمارٌ) [١] .

فمَنْ فَقَدَ قوَّةَ الحميَّةِ والغضبِ أصلاً . . فهوَ ناقصٌ جدّاً ، وقدْ وصفَ اللهُ سبحانَهُ أصحابَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالشدَّةِ والحميَّةِ ، فقالَ : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [٢] ، وقالَ لنبيِّهِ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/١٤٣) .
(٢) سورة الفتح : (٢٩) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [1] ، وإنَّما الغِلْظةُ والشدَّةُ مِنْ آثارِ قوَّةِ الحميَّةِ ، وهوَ الغضبُ .

وأمَّا الإفراطُ : فهوَ أنْ تغلبَ هٰذهِ الصفةُ حتَّىٰ تخرجَ عنْ سياسةِ العقلِ والدينِ وطاعتِهِ ، ولا يبقىٰ للمرءِ معها بصيرةٌ ولا نظرٌ ولا فكرٌ ولا اختيارٌ ، بلْ يصيرُ في صورةِ المضطرِّ .

وسببُ غلبتِهِ : أمورٌ غريزيَّةٌ ، وأمورٌ اعتياديَّةٌ ، فربَّ إنسانٍ هوَ بالفطرةِ مستعدٌّ لسرعةِ الغضبِ ، حتَّىٰ كأنَّ صورتَهُ في الفطرةِ صورةُ غضبانَ ، ويعينُ علىٰ ذٰلكَ حرارةُ مزاجِ القلبِ ؛ لأنَّ الغضبَ مِنَ النارِ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ [2] ، وإنَّما برودةُ المزاجِ تطفئُهُ وتكسرُ سَوْرتَهُ .

وأمَّا الأسبابُ الاعتياديةُ : فهوَ أنْ يخالطَ قوماً يتبجَّحونَ بتشفِّي الغيظِ وطاعةِ الغضبِ ، ويسمُّونَ ذٰلكَ شجاعةً ورجوليَّةً ، فيقولُ الواحدُ منهمْ : (أنا الذي لا أصبرُ على المكرِ والمحالِ ، ولا أحتملُ مِنْ أحدٍ أمراً) ، ومعناهُ : لا عقلَ لي ولا حلمَ ، ثمَّ يذكرُهُ في معرِضِ الفخرِ لجهلِهِ ، فمَنْ سمعَهُ . . رسَخ في نفسِهِ حسنُ الغضبِ ، وحبُّ التشبُّهِ بالقومِ ، فيقوىٰ بهِ الغضبُ .

---

(١) سورة التوبة : (٧٣) .

(٢) إذ روى الترمذي (٢١٩١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : « ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم ، أما رأيتم إلىٰ حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه . . . » الحديث . وروىٰ أبو داوود (٤٧٨٤) من حديث عطية السعدي رضي الله عنه مرفوعاً : إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار . . . » الحديث .

ومهما اشتعلَتْ نارُ الغضبِ وقويَ اضطرامُها . . أعمَتْ صاحبَها ، وأصمَّتْهُ عنْ كلِّ موعظةٍ ، فإذا وُعظَ . . لمْ يسمعْ ، بلْ زادَهُ ذٰلكَ غضباً ، فإنِ استضاءَ بنورِ عقلِهِ ، وراجعَ نفسَهُ . . لمْ يقدرْ ؛ إذْ ينطفئُ نورُ العقلِ ، وينمحي في الحالِ بدخانِ الغضبِ ، فإنَّ معدِنَ الفكرِ الدماغُ ، ويتصاعدُ عندَ شدَّةِ الغضبِ منْ غليانِ دمِ القلبِ دخانٌ إلى الدماغِ مظلمٌ يستولي علىٰ معادنِ الفكرِ ، وربَّما يتعدَّىٰ إلىٰ معادنِ الحسِّ ، فتظلمُ عينُهُ حتَّىٰ لا يرىٰ بعينِهِ ، وتسودُّ عليهِ الدنيا بأسرِها ، ويكونُ دماغُهُ علىٰ مثالِ كهفٍ اضطرمَتْ فيهِ نارٌ فاسودَّ جوُّهُ ، وحميَ مستقرُّهُ ، وامتلأَ بالدخانِ جوانبُهُ ، وكانَ فيهِ سراجٌ ضعيفٌ فانطفأَ وانمحىٰ نورُهُ ، فلا تثبُتُ فيهِ قدمٌ ، ولا يُسَمعُ فيهِ كلمٌ ، ولا تُرىٰ فيهِ صورةٌ ، ولا يقدرُ علىٰ إطفائِهِ لا مِنْ داخلٍ ولا مِنْ خارجٍ ، بلْ ينبغي أنْ يصبرَ إلىٰ أنْ يحترقَ جميعُ ما يقبلُ الاحتراقَ ، فكذٰلكَ يفعلُ الغضبُ بالقلبِ والدماغِ .

وربما تقوىٰ نارُ الغضبِ فتفنى الرطوبةُ التي بها حياةُ القلبِ ، فيموتُ صاحبُهُ غيظاً ؛ كما تقوى النارُ في الكهفِ فيتشقَّقُ وتنهدُّ أعاليهِ علىٰ أسافلِهِ ، وذٰلكَ لإبطالِ النارِ ما في جوانبِهِ منَ القوَّةِ الممسكةِ الجامعةِ لأجزائِهِ ، فهٰكذا حالُ القلبِ معَ الغضبِ .

وبالحقيقةِ فالسفينةُ في ملتطمِ الأمواجِ عندَ اضطرابِ الرياحِ في لجَّةِ البحرِ أحسنُ حالاً وأرجىٰ سلامةً منَ النفسِ المضطربةِ غيظاً ؛ إذْ في السفينةِ مَنْ يحتالُ لتسكينِها وتدبيرِها ، وينظرُ لها ويسوسُها ،

وأمَّا القلبُ . . فهوَ صاحبُ السفينةِ ، وقدْ سقطَتْ حيلتُهُ ؛ إذْ أعماهُ الغضبُ وأصمَّهُ .

ومِنْ آثارِ هاذا الغضبِ في الظاهرِ : تغيُّرُ اللَّونِ ، وشدَّةُ الرِّعدةِ في الأطرافِ ، وخروجُ الأفعالِ عنِ الترتيبِ والنظامِ ، واضطرابُ الحركةِ والكلامِ ، حتَّىٰ يظهرُ الزبدُ على الأشداقِ ، وتحمرُّ الأحداقُ ، وتنقلبُ المناخرُ ، وتستحيلُ الخِلْقةُ ، ولَوْ رأى الغضبانُ في حالِ غضبِهِ قبحَ صورتِهِ . . لسكنَ غضبُهُ حياءً مِنْ قبحِ صورتِهِ واستحالةِ خِلْقتِهِ ، وقبحُ باطنِهِ أعظمُ مِنْ قبحِ ظاهرِهِ ؛ فإنَّ الظاهرَ عنوانُ الباطنِ ، وإنَّما قبُحَتْ صورةُ الباطنِ أوَّلاً ثمَّ انتشرَ قبحُها إلى الظاهرِ ثانياً ، فتغيُّرُ الظاهرِ ثمرةُ تغيُّرِ الباطنِ ، فقسِ المثمَرَ بالثمرةِ ، فهاذا أثرُهُ في الجسدِ .

وأمَّا أثرُهُ في اللسانِ : فانطلاقُهُ بالشتمِ والفُحشِ وقبائحِ الكلامِ الذي يستحيي منهُ ذوو العقولِ ، ويستحيي منهُ قائلُهُ عندَ فتورِ الغضبِ ، وذٰلكَ معَ تخبُّطِ النظمِ ، واضطرابِ اللفظِ .

وأمَّا أثرُهُ على الأعضاءِ : فالضربُ ، والتهجُّمُ ، والتمزيقُ ، والقتلُ ، والجرحُ عندَ التمكُّنِ مِنْ غيرِ مبالاةٍ ، فإنْ هربَ منهُ المغضوبُ عليهِ ، أوْ فاتَهُ بسببٍ وعجزَ عنِ التشفِّي . . رجعَ الغضبُ علىٰ صاحبِهِ ، فيمزِّقُ ثوبَ نفسِهِ ، ويلطِمُ نفسَهَ ، وقدْ يضربُ بيدِهِ على الأرضِ ، ويعدو عدْوَ الوالِهِ السكرانِ والمدهوشِ المتحيّرِ ، وربَّما يسقطُ صريعاً ، لا يطيقُ العدْوَ والنهوضَ لشدَّةِ الغضبِ ، ويعتريهِ مثلُ الغشيةِ ، وربَّما

يضربُ الجماداتِ والحيواناتِ ، فيضربُ القصعةَ مثلاً على الأرضِ ، وقدْ يكسرُ المائدةَ إذا غضبَ عليها ، ويتعاطىٰ أفعالَ المجانينِ ، فيشتمُ البهيمةَ والجمادَ ويخاطبُها ويقولُ : إلىٰ متىٰ هٰذا منكِ يا كيتَ وكيتَ ؟! كأنَّهُ يخاطبُ عاقلاً !! حتَّىٰ ربَّما رفستْهُ دابةٌ فيرفسُ الدابَّةَ ويقابلُها بذٰلكَ .

وأمَّا أثرُهُ في القلبِ معَ المغضوبِ عليهِ : فالحقدُ ، والحسدُ ، وإضمارُ السوءِ ، والشماتةُ بالمساءاتِ ، والحزنُ بالسرورِ ، والعزمُ علىٰ إفشاءِ السرِّ وهتكِ السترِ ، والاستهزاءُ ، وغيرُ ذٰلكَ مِنَ القبائحِ .

فهٰذهِ ثمرةُ الغضبِ المفرطِ .

وأمَّا ثمرةُ الحميَّةِ الضعيفةِ : فقلَّةُ الأنفةِ ممَّا يُؤنفُ منهُ ؛ مِنَ التعرضِ للحُرَمِ ، والزوجةِ ، والأمِّ ، واحتمالُ الذلِّ من الأخسَّاءِ ، وصغرُ النفسِ ، والقماءةُ ، وهوَ أيضاً مذمومٌ ؛ إذْ مِنْ ثمراتِهِ عدمُ الغَيرةِ على الحُرَمِ ، وهوَ خنوثةٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ سعداً لغيورٌ ، وأنا أغيرُ منْ سعدٍ ، وإنَّ اللهَ أغيرُ منِّي »[1] .

وإنَّما خلقَتِ الغَيرةُ لحفظِ الأنسابِ ، ولو تسامحَ الناسُ بذٰلكَ . . لاختلطتِ الأنسابُ ، ولذٰلكَ قيلَ : (كلُّ أمَّةٍ وُضعَتِ الغيرةُ في رجالِها . . وُضعَتِ الصيانةُ في نسائِها) .

ومنْ ضعفِ الغضبِ الخَوَرُ ، والسكوتُ عندَ مشاهدةِ المنكراتِ ،

---

(١) رواه البخاري (٦٨٤٦) ، ومسلم (١٤٩٩) .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيارُ أمتِي أحدَّاؤُها »[1] يعني : في الدينِ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾[2] .

بلْ مَنْ فقدَ الغضبَ . . عجزَ عنْ رياضةِ نفسِهِ ؛ إذْ لا تتمُّ الرياضةُ إلا بتسليطِ الغضبِ على الشهوةِ حتَّىٰ يغضبَ علىٰ نفسِهِ عندَ الميلِ إلى الشهواتِ الخسيسةِ .

ففقدُ الغضبِ مذمومٌ ، وإنَّما المحمودُ غضبٌ ينتظرُ إشارةَ العقلِ والدينِ ، فينبعثُ حيثُ تجبُ الحميَّةُ ، وينطفئُ حيثُ يحسُنُ الحلمُ ، وحفظُهُ علىٰ حدِّ الاعتدالِ هوَ الاستقامةُ التي كلَّفَ اللهُ بها عبادَهُ ، وهوَ الوسطُ الذي وصفَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « خيرُ الأمورِ أوساطُها »[3] ، فمَنْ مالَ غضبُهُ إلى الفتورِ حتَّىٰ أحسَّ مِنْ نفسِهِ بضعفِ الغَيرةِ وخسَّةِ النفسِ في احتمالِ الذلِّ والضيمِ في غيرِ محلِّهِ . . فينبغي أنْ يعالجَ نفسَهُ حتَّىٰ يقوِّيَ غضبَهُ ، ومَنْ مالَ

---

(١) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٢٧٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٩٤٨ ، ٧٩٤٩) من حديث علي رضي الله عنه مرفوعاً ، وفيه زيادة : « الذين إذا غضبوا . . رجعوا » ، **وأحداء** : جمع حديد ، والمعنىٰ كما أشار الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١٣/٨) : (أنشطها وأسرعها إلى الخير) ، أو أن الحدة الصلابة في الدين كما في « النهاية » (٣٥٣/١) .

(٢) سورة النور : (٢) .

(٣) رواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٣١٧٠/٦) عن معبد الجهني عن بعض الصحابة مرفوعاً .

غضبُهُ إلى الإفراطِ حتَّىٰ جرَّهُ إلى التهوّرِ واقتحامِ الفواحشِ . . فينبغي أنْ يعالجَ نفسَهُ ليغضَّ مِنْ سَوْرةِ الغضبِ ، ويقفَ على الوسطِ الحقّ بينَ الطرفينِ ، فهوَ الصراطُ المستقيمُ ، وهوَ أرقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ ، وأحدُّ مِنَ السيفِ ، فإنْ عجزَ عنهُ . . فليطلبِ القربَ منهُ ، قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ (١) ، فليسَ كلُّ مَنْ عجزَ عنِ الإتيانِ بالخيرِ كلِّهِ ينبغي أنْ يأتيَ بالشرّ كلِّهِ ، ولٰكنْ بعضُ الشرِّ أهونُ مِنْ بعضٍ ، وبعضُ الخيرِ أرفعُ مِنْ بعضٍ .

فهٰذهِ حقيقةُ الغضبِ ودرجاتُهُ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ لما يرضيهِ ؛ إنَّهُ علىٰ ما يشاءُ قديرٌ .

* * *

(١) سورة النساء : (١٢٩) .

بيان أنّ الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرّياضة أم لا ؟

اعلمْ : أنَّهُ ظنَّ ظانُّونَ أنَّهُ يُتصوَّرُ محوُ الغضبِ بالكلّيَّةِ ، وزعموا أنَّ الرياضةَ إليهِ تتوجَّهُ ، وإيَّاهُ تقصدُ ، وظنَّ آخرونَ أنَّهُ لا يقبلُ العلاجَ أصلاً ، وهـٰذا رأيُ مَنْ يظنُّ أنَّ الخُلُقَ كالخَلْقِ ، وكلاهما لا يقبلُ التغييرَ .

وكلا الرأيينِ ضعيفٌ ، بلِ الحقُّ فيهِ ما نذكرُهُ ؛ وهوَ أنَّهُ ما دامَ الإنسانُ يحبُّ شيئاً ويكرهُ شيئاً . . فلا يخلو عَنِ الغيظِ والغضبِ ، وما دامَ يوافقُهُ شيءٌ ويخالفُهُ آخرُ . . فلا بدَّ وأنْ يحبَّ ما يوافقُهُ ويكرهَ ما يخالفُهُ ، والغضبُ يتبعُ ذٰلكَ ، فإنَّهُ مهما أُخِذَ منهُ محبوبُهُ . . غضبَ لا محالةَ ، وإذا قُصِدَ بمكروهٍ . . غضبَ لا محالةَ ، **إلا أنَّ ما يحبُّهُ الإنسانُ ينقسمُ إلىٰ ثلاثةِ أقسامٍ** :

الأوّلُ : ما هوَ ضروريٌّ في حقِّ الكافَّةِ :

وهوَ كالقوتِ ، والمسكنِ ، والملبسِ ، وصحةِ البدنِ ، فمنْ قُصِدَ بدنُهُ بالضربِ والجرحِ . . فلا بدَّ وأنْ يغضبَ ، وكذٰلكَ إذا أُخِذَ منهُ ثوبُهُ الذي يسترُ عورتَهُ ، وكذٰلكَ إذا أُخرِجَ مِنْ دارِهِ التي هيَ مسكنُهُ ، أوْ أُريقَ ماؤُهُ الذي هوَ لعطشِهِ ، فهـٰذهِ ضروراتٌ لا يخلو الإنسانُ مِنْ كراهةِ زوالِها ، ومِنْ غيظٍ علىٰ مَنْ يتعرَّضُ لها .

القسمُ الثاني : ما ليسَ ضرورياً لأحدٍ مِنَ الخلقِ :

كالجاهِ ، والمالِ الكثيرِ ، والغلمانِ ، والدوابِّ ، فإنَّ هـٰذهِ الأمورَ صارَتْ محبوبةً بالعادةِ والجهلِ بمقاصدِ الأمورِ ، حتَّىٰ صارَ الذهبُ والفضةُ محبوبينِ في أنفسِهما فيُكنزانِ ، ويغضبُ علىٰ مَنْ يسرقُهُما وإنْ كانَ مستغنياً عنهُما في القوتِ ، فهـٰذا الجنسُ ممَّا يُتصوَّرُ أنْ ينفكَّ الإنسانُ عنْ أصلِ الغيظِ عليهِ ، فإذا كانَتْ لهُ دارٌ زائدةٌ علىٰ مسكنِهِ ، فهدمَها ظالمٌ . . فيجوزُ ألَّا يغضبَ ؛ إذْ يجوزُ أنْ يكونَ بصيراً بأمرِ الدنيا ، فيزهدَ في الزيادةِ على الحاجةِ ، فلا يغضبَ بأخذِها ، فإنَّهُ لا يحبُّ وجودَها ، ولوْ أحبَّ وجودَها . . لغضبَ على الضرورةِ بأخذِها .

وأكثرُ غضبِ الناسِ علىٰ ما هوَ غيرُ ضروريٍّ ، كالجاهِ ، والصِّيتِ ، والتصدُّرِ في المجالسِ ، والمباهاةِ بالعلمِ ، فمنْ غلبَ هـٰذا الحبُّ عليهِ . . فلا محالةَ يغضبُ إذا زاحمَهُ مزاحمٌ على الصدرِ في المحافلِ ، ومنْ لا يحبُّ ذٰلكَ . . فلا يبالي ولوْ جلسَ في صفِّ النعالِ ، فلا يغضبُ إذا جلسَ غيرُهُ فوقَهُ .

وهـٰذهِ العاداتُ الرديئةُ هيَ التي أكثرَتْ محابَّ الإنسانِ ومكارهَهُ ، فأكثرَتْ غضبَهُ ، وكلَّما كانَتِ الإراداتُ والشهواتُ أكثرَ . . كانَ صاحبُها أحطَّ رتبةً وأنقصَ ؛ لأنَّ الحاجةَ صفةُ نقصٍ ، فمهما كثرَتْ . . كثرَ النقصُ ، والجاهلُ أبداً جهدُهُ في أنْ يزيدَ في حاجاتِهِ وفي شهواتِهِ ، وهوَ لا يدري أنَّهُ مستكثرٌ مِنْ أسبابِ الغمِّ والحزنِ ، حتَّىٰ ينتهيَ

بعضُ الجهَّالِ بالعاداتِ الرديئةِ ومخالطةِ قرناءِ السوءِ إلىٰ أنْ يغضبَ لوْ قيلَ لهُ : إنَّهُ لا يُحسِنُ اللعبَ بالطيورِ ، واللعبَ بالشطرنجِ ، ولا يقدرُ علىٰ شربِ الخمرِ الكثيرِ ، وتناولِ الطعامِ الكثيرِ ، وما يجري مجراهُ مِنَ الرذائلِ ، فالغضبُ علىٰ هـٰذا الجنسِ ليسَ بضروريٍّ ؛ لأنَّ حبَّهُ ليسَ بضروريٍّ .

❁ ❁ ❁

القسمُ الثالثُ : ما يكونُ ضروريّاً في حقِّ بعضِ الناسِ دونَ البعضِ :

كالكتابِ للعالمِ ؛ لأنهُ مضطرٌّ إليهِ ، فيحبُّهُ ، فيغضبُ علىٰ مَنْ يخرِقُهُ ويمزقُهُ ، وكذٰلكَ أدواتُ الصناعاتِ في حقِّ المكتسبِ الذي لا يمكنُهُ التوصُّلُ إلى القوتِ إلَّا بها ، فإنَّ ما هوَ وسيلةٌ إلى الضروريِّ والمحبوبِ يصيرُ ضرورياً ومحبوباً ، وهـٰذا يختلفُ بالأشخاصِ .

وإنَّما الحبُّ الضروريُّ ما أشارَ إليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بقولِهِ : « مَنْ أصبحَ آمناً في سربِهِ ، معافىً في بدنِهِ ، وعندَهُ قوتُ يومِهِ . . فكأنَّما حيزَتْ لهُ الدُّنيا بحذافيرِها »[١] ، ومَنْ كانَ بصيراً بحقائقِ الأمورِ وسلمَتْ لهُ هـٰذهِ الثلاثُ . . يُتصوَّرُ ألَّا يغضبَ في غيرِها .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٦) ، وابن ماجه (٤١٤١) من حديث عبيد بن محصن رضي الله عنه ، وليس عندهما : (بحذافيرها) ، وهي عند أبي نعيم في « الحلية » (٥/٢٤٩) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

فهٰذهِ ثلاثةُ أقسامٍ ، فلنذكُرْ غايةَ الرياضةِ في كلِّ واحدٍ منها .

أمَّا القسمُ الأوَّلُ . . فليسَتِ الرياضةُ فيهِ لينعدمَ غيظُ القلبِ ، ولٰكنْ لكي يقدرَ علىٰ ألَّا يطيعَ الغضبَ ، ولا يستعملَهُ في الظاهرِ إلَّا علىٰ حدٍّ يستحبُّهُ الشرعُ ، ويستحسنُهُ العقلُ ، وذٰلكَ ممكنٌ بالمجاهدةِ ، وتكلُّفِ الحلمِ والاحتمالِ مدَّةً ، حتَّىٰ يصيرَ الحلمُ والاحتمالُ خُلُقاً راسخاً .

فأمَّا قمعُ أصلِ الغيظِ مِنَ القلبِ . . فليسَ مقتضى الطبعِ ، وهوَ غيرُ ممكنٍ .

نعمْ ؛ يمكنُ كسرُ سَوْرتِهِ وتضعيفُهُ ، حتىٰ لا يشتدَّ هيجانُ الغيظِ في الباطنِ ، وينتهيَ ضعفُهُ إلىٰ ألَّا يظهرَ أثرُهُ في الوجهِ ، ولٰكنَّ ذٰلكَ شديدٌ جدّاً ، **وهٰذا حكمُ القسمِ الثالثِ أيضاً** ؛ لأنَّ ما صارَ ضروريّاً في حقِّ شخصٍ فلا يمنعُهُ مِنَ الغيظِ استغناءُ غيرِهِ عنهُ ، فالرياضةُ فيهِ تمنعُ العملَ بهِ ، وتضعفُ هيجانَهُ في الباطنِ ، حتَّىٰ لا يشتدَّ التألُّمُ بالصبرِ عليهِ .

وأمَّا القسمُ الثاني . . فيمكنُ التوصُّلُ بالرياضةِ إلى الانفكاكِ عنِ الغضبِ عليهِ ؛ إذْ يمكنُ إخراجُ حُبِّهِ مِنَ القلبِ ، وذٰلكَ بأنْ يعلمَ الإنسانُ أنَّ وطنَهُ القبرُ ، ومستقرَّهُ الآخرةُ ، وأنَّ الدنيا معبرٌ يعبرُ عليها ، ويتزوَّدُ منها قدرَ الضرورةِ ، وما وراءَ ذٰلكَ عليهِ وبالٌ في وطنِهِ ومستقرِّهِ ، فيزهدُ في الدنيا ، وينمحي حبُّها عَنْ قلبِهِ ، ولوْ كانَ للإنسانِ كلبٌ لا يحبُّهُ . . لمْ يغضبْ إذا ضربَهُ غيرُهُ ، فالغضبُ

تبعٌ للحُبِّ ، فالرياضةُ في هٰذا قدْ تنتهي إلىٰ قمعِ أصلِ الغضبِ ، وهوَ نادرٌ جدّاً ، وقدْ تنتهي إلى المنعِ مِنِ استعمالِ الغضبِ والعملِ بموجَبِهِ ، وهوَ أهونُ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : الضروريُّ مِنَ القسمِ الأولِ التألُّمُ بفواتِ المحتاجِ إليهِ دونَ الغضبِ ، فمَنْ لهُ شاةٌ مثلاً وهيَ قوتُهُ ، فماتَتْ . . لا يغضبُ علىٰ أحدٍ ، وإنْ كانَ يحصلُ فيهِ كراهةٌ ، وليسَ مِنْ ضرورةِ كلِّ كراهةٍ غضبٌ ، فالإنسانُ يتألمُ بالفصْدِ والحجامةِ ولا يغضبُ على الفصَّادِ والحجَّامِ ، فمَنْ غلبَ عليهِ التوحيدُ حتَّىٰ يرى الأشياءَ كلَّها بيدِ اللهِ ومنهُ . . فلا يغضبُ علىٰ أحدٍ مِنْ خلقِهِ ؛ إذْ يراهُمْ مسخَّرينَ في قبضةِ قدرتِهِ ؛ كالقلمِ في يدِ الكاتبِ ، ومَنْ وقَّعَ ملكٌ بضربِ رقبتِهِ . . لمْ يغضبْ على القلمِ ، فلا يغضبُ علىٰ مَنْ يذبحُ شاتَهُ التي هيَ قوتُهُ كما لا يغضبُ علىٰ موتِها ؛ إذْ يرى الموتَ والذبحَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فيندفعُ الغضبُ بغلبةِ التوحيدِ ، ويندفعُ أيضاً بحسنِ الظنِّ باللهِ ، وهوَ أنْ يرىٰ أنَّ الكلَّ مِنَ اللهِ ، وأنَّ اللهَ لا يقدرُ لهُ إلا ما فيهِ الخِيرَةُ ، وربَّما تكونُ الخِيرَةُ في جوعِهِ ومرضِهِ ، وجرحِهِ وقتلِهِ ، فلا يغضبُ ، كما لا يغضبُ على الفصَّادِ والحجَّامِ ؛ لأنَّهُ يرىٰ أنَّ الخِيَرَةَ فيهِ .

فنقولُ : هٰذا علىٰ هٰذا الوجهِ غيرُ محالٍ ، ولٰكنَّ غلبةَ التوحيدِ إلىٰ هٰذا الحدِّ إنَّما تكونُ كالبرقِ الخاطفِ ، تغلبُ في أحوالٍ مختطفةٍ ولا تدومُ ، ويرجعُ القلبُ إلى الالتفاتِ إلى الوسائطِ رجوعاً طبْعيّاً لا

يندفعُ عنهُ ، ولوْ تُصوِّرَ ذٰلكَ على الدوامِ لبشرٍ . . لتُصوِّرَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنهُ كانَ يغضبُ حتَّىٰ تحمرَّ وجنتاهُ[١] ، حتَّىٰ قالَ : « اللهمَّ ؛ إنَّما أنا بشرٌ ، أغضبُ كما يغضبُ البشرُ ، فأيُّما مسلمٍ سببتُهُ أوْ لعنتُهُ أوْ ضربتُهُ . . فاجعلْها منِّي صلاةً عليهِ وزكاةً وقربةً تقرِّبُهُ بها إليكَ يومَ القيامةِ »[٢] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ العاصِ : يا رسولَ اللهِ ؛ أكتبُ عنكَ كلَّ ما قلْتَ في الغضبِ والرضا ؟ فقالَ : « اكتبْ ، فوالذي بعثَني بالحقِّ نبيّاً ؛ ما يخرجُ منهُ إلَّا حقٌّ » ، وأشارَ إلىٰ لسانِهِ[٣] ، فلمْ يقلْ : إنِّي لا أغضبُ ، ولٰكنْ قالَ : إنَّ الغضبَ لا يخرجُني عنِ الحقِّ ؛ أيْ : لا أعملُ بموجَبِ الغضبِ .

وغضبَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها مرةً ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما لكِ جاءَكِ شيطانُكِ ؟ » ، فقالَتْ : وما لكَ شيطانٌ ؟ فقالَ : « بلىٰ ، ولٰكنْ دعوتُ اللهَ فأعانني عليهِ فأسلمُ ، فلا يأمرُ إلَّا بخيرٍ »[٤] ، فلمْ يقلْ : لا شيطانَ لي ، وأرادَ شيطانَ الغضبِ ، لٰكنْ قالَ : لا يحملُني على الشرِّ .

---

(١) روىٰ ذٰلك البخاري (٩١) ، ومسلم (٢/١٧٢٢) .

(٢) رواه مسلم (٢٦٠١) بلفظ : « اللهم ؛ إنما محمد بشر ، يغضب كما يغضب البشر ، وإني قد اتخذت عندك عهداً لن تخلفنيه ، فأيما مؤمن آذيته أو سببته أو جلدته . . فاجعلها له كفارة ، وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة » ، وذكر الضرب عند أبي يعلىٰ في « مسنده » (١٢٦٢) .

(٣) رواه أبو داوود (٣٦٤٦) .

(٤) رواه مسلم (٢٨١٥) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يغضبُ للدنيا ، فإذا أغضبَهُ الحقُّ . . لمْ يعرفْهُ أحدٌ ، ولمْ يقمْ لغضبِهِ شيءٌ ، حتَّىٰ ينتصرَ لهُ)(١) .

فكانَ يغضبُ على الحقِّ ، وإنْ كانَ غضبُهُ للهِ . . فهوَ التفاتٌ إلى الوسائطِ على الجملةِ ، بلْ كلُّ مَنْ يغضبُ علىٰ مَنْ يأخذُ ضرورةَ قوتِهِ وحاجتِهِ التي لا بدَّ لهُ في دينِهِ منها . . فإنَّما غضبَ للهِ ، فلا يمكنُ الانفكاكُ عنهُ .

نعمْ ؛ قدْ يُفْقَدُ أصلُ الغضبِ فيما هوَ ضروريٌّ إذا كانَ القلبُ مشغولاً بضروريٍّ أهمَّ منهُ ، فلا يكونُ في القلبِ متسعٌ للغضبِ ؛ لاشتغالِهِ بغيرِهِ ، فإنَّ استغراقَ القلبِ ببعضِ المهمَّاتِ يمنعُ الإحساسَ بما عداهُ ، وهـٰذا كما أنَّ سلمانَ لمَّا شُتِمَ قالَ : (إنْ خفَّتْ موازيني . . فأنا شرٌّ ممَّا تقولُ ، وإنْ ثقلَتْ موازيني . . لمْ يضرَّني ما تقولُ)(٢) ، فقدْ كانَ همُّهُ مصروفاً إلى الآخرةِ ، فلمْ يتأثرْ قلبُهُ بالشتمِ .

وكذٰلكَ شُتمَ الربيعُ بنُ خثيمٍ فقالَ : (يا هـٰذا ؛ قدْ سمعَ اللهُ كلامَكَ ، وإنَّ دونَ الجنةِ عقبَةً ، إنْ قطعْتُها . . لمْ يضرَّني ما تقولُ ، وإنْ لمْ أقطعْها . . فأنا شرٌّ ممَّا تقولُ)(٣) .

وسبَّ رجلٌ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، فقالَ : (ما سترَ اللهُ عنكَ

(١) رواه الترمذي في « الشمائل » (٢٢٥) .
(٢) روىٰ قوله البيهقي في « الزهد الكبير » (٧٦٣) ، وليس فيه ذكر الشتم .
(٣) عزاه الحافظ الزبيدي لأبي نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٨/١٨) .

أكثرُ)[١] ، فكأنَّهُ كانَ مشغولاً بالنظرِ في تقصيرِ نفسِهِ عنْ أنْ يتقيَ اللّٰهَ حقَّ تقاتِهِ ، ويعرفَهُ حقَّ معرفتِهِ ، فلمْ يغضبْهُ نسبةُ غيرِهِ إياهُ إلىٰ نقصانٍ ؛ إذْ كانَ ينظرُ إلىٰ نفسِهِ بعينِ النقصانِ ، وذٰلكَ لجلالةِ قدرِهِ .

وقالَتِ امرأةٌ لمالكِ بنِ دينارٍ : يا مُرائي ، فقالَ : ما عرفَني غيرُكِ[٢] ، فكأنَّهُ كانَ مشغولاً بأنْ ينفيَ عنْ نفسِهِ آفةَ الرياءِ ، ومنكراً علىٰ نفسِهِ ما يلقيهِ الشيطانُ إليهِ ، فلمْ يغضبْ لما نُسبَ إليهِ .

وسبَّ رجلٌ الشعبيَّ فقالَ : (إنْ كنتَ صادقاً . . فغفرَ اللّٰهُ لي ، وإنْ كنتَ كاذباً . . فغفرَ اللّٰهُ لكَ)[٣] .

فهٰذهِ الأقاويلُ دالةٌ في الظاهرِ علىٰ أنَّهمْ لمْ يغضبُوا لاشتغالِ قلوبِهِمْ بمهماتِ دينِهِمْ ، ويحتملُ أنْ يكونَ قدْ أثَّرَ ذٰلكَ في قلوبِهِمْ ، ولٰكنَّهمْ لمْ يشتغلُوا بهِ ، واشتغلُوا بما كانَ هوَ الأغلبَ علىٰ قلوبِهِمْ .

فإذاً ؛ اشتغالُ القلبِ ببعضِ المهماتِ لا يبعدُ أنْ يمنعَ هيجانَ الغضبِ عندَ فواتِ بعضِ المحابِّ ، فإذاً ؛ يُتصوَّرُ فقْدُ الغيظِ ؛ إمَّا باشتغالِ القلبِ بمهمٍّ ، أوْ بغلبةِ نظرِ التوحيدِ ، أوْ بسببٍ ثالثٍ ، وهوَ أنْ يعلمَ أنَّ اللّٰهَ تعالىٰ يحبُّ منهُ ألَّا يغتاظَ ، فتطفئُ شدَّةُ حبِّهِ للّٰهِ غيظَهُ ، وذٰلكَ غيرُ محالٍ في أحوالٍ نادرةٍ .

---

(١) سيأتي قريباً خبر شتمه وصبره ثم ردّه رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/٣٣٩) .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٣٧) .

وقدْ عرفْتَ بهٰذا أنَّ طريقَ الخلاصِ مِنْ نارِ الغضبِ محوُ حبِّ الدنيا مِنَ القلبِ ، وذٰلكَ بمعرفةِ آفاتِ الدنيا وغوائِلها ، كما سيأتي في كتابِ ذمِّ الدنيا ، ومَنْ أخرجَ حُبَّ المزايا عنِ القلبِ . . تخلَّصَ مِنْ أكثرِ أسبابِ الغضبِ ، وما لا يمكنُ محوُهُ . . فيمكنُ كسرُهُ وتضعيفُهُ ، فيضعفُ الغضبُ بسببِهِ ، ويهونُ دفعُهُ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بلطفِهِ وكرمِهِ ؛ إنَّهُ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، والحمدُ للهِ وحدَهُ .

❋ ❋ ❋

بيان الأسباب المهيجة للغضب

قدْ عرفتَ أنَّ علاجَ كلِّ علَّةٍ بحسمِ مادَّتِها ، وإزالةِ أسبابِها ، فلا بدَّ مِنْ معرفةِ أسبابِ الغضبِ .

وقدْ قالَ يحيىٰ لعيسىٰ عليهِما السلامُ : أيُّ شيءٍ أشدُّ ؟ قالَ : غضبُ اللهِ ، قالَ : فما يقرِّبُ مِنْ غضبِ اللهِ ؟ قالَ : أنْ تغضبَ ، قالَ : فما يبدي الغضبَ وما ينبتُهُ ، قالَ عيسى : الكِبرُ ، والفخرُ ، والتعزُّزُ ، والحميَّةُ (١) .

فالأسبابُ المهيجةُ للغضبِ هيَ : الزهوُّ ، والعجبُ ، والمِزاحُ ، والهزلُ ، والهزءُ ، والتعييرُ ، والمماراةُ ، والمضادَّةُ ، والغدرُ ، وشدَّةُ الحرصِ علىٰ فضولِ المالِ والجاهِ ، وهيَ بأجمعِها أخلاقٌ رديئةٌ مذمومةٌ شرعاً ، ولا خلاصَ عنِ الغضبِ معَ بقاءِ هٰذهِ الأسبابِ ، فلا بدَّ مِنْ إزالةِ هٰذهِ الأسبابِ بأضدادِها .

فينبغي أنْ تميتَ الزهوَ بالتواضعِ ، وتميتَ العجبَ بمعرفتِكَ بنفسِكَ ، كما سيأتي بيانُهُ في كتابِ الكبرِ والعجبِ ، وتزيلَ الفخرَ بأنَّكَ مِنْ جنسِ عبدِكَ ؛ إذِ الناسُ يجمعُهُمْ في الانتسابِ أبٌ واحدٌ ، وإنَّما اختلفُوا في الفضلِ أشتاتاً ، فبنو آدمَ جنسٌ واحدٌ ، وإنَّما الفخرُ بالفضائلِ ، والفخرُ والعجبُ والكِبرُ أكبرُ الرذائلِ ، وهيَ رأسُها وأصلُها ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/١٨) .

فإذا لم تخلُ عنها . . فلا فضلَ لكَ علىٰ غيرِكَ ، فلِمَ تفتخرُ وأنتَ مِنْ جنسِ عبدِكَ مِنْ حيثُ البنيةُ والنسبُ والأعضاءُ الظاهرةُ والباطنةُ ؟!

وأما المزاحُ . . فتزيلُهُ بالتشاغلِ بالمهمَّاتِ الدينيَّةِ التي تستوعبُ العمرَ وتفضلُ عنهُ إذا عرفْتَها .

وأمَّا الهزلُ . . فتزيلُهُ بالجدِّ في طلبِ الفضائلِ والأخلاقِ الحسنةِ ، والعلومِ الدينيَّةِ التي تبلِّغُكَ إلىٰ سعادةِ الآخرةِ .

وأمَّا الهزءُ . . فتزيلُهُ بالتكرُّمِ عنْ إيذاءِ الناسِ ، وبصيانةِ النفسِ عنْ أنْ يُستهزأَ بكَ .

وأمَّا التعييرُ . . فبالحذرِ عنِ القولِ القبيحِ ، وصيانةِ النفسِ عنْ مُرِّ الجوابِ .

وأمَّا شدَّةُ الحرصِ علىٰ مزايا العيشِ . . فتزالُ بالقناعةِ بقدْرِ الضرورةِ ؛ طلباً لعزِّ الاستغناءِ ، وترفُّعاً عنْ ذلِّ الحاجةِ .

وكلُّ خُلُقٍ مِنْ هٰذهِ الأخلاقِ وصفةٍ مِنْ هٰذهِ الصفاتِ يَفتقرُ في علاجِهِ إلىٰ رياضةٍ وتحمُّلِ مشقَّةٍ ، وحاصلُ رياضتِها يرجعُ إلىٰ معرفةِ غوائلِها ؛ لترغبَ النفسُ عنها ، وتنفرَ عنْ قبحِها ، ثمَّ المواظبةِ علىٰ مباشرةِ أضدادِها مدَّةً مديدةً ، حتَّىٰ تصيرَ بالعادةِ مألوفةً هيِّنةً على النفسِ ، فإذا انمحَتْ عنِ النفسِ . . فقدْ زكَتْ وطهُرَتْ عنْ هٰذهِ الرذائلِ ، وتخلَّصَتْ أيضاً مِنَ الغضبِ الذي يتولَّدُ منها .

ومِنْ أشدِّ البواعثِ على الغضبِ عندَ أكثرِ الجهالِ : تسميتُهُمُ

الغضبَ شجاعةً ، ورجوليةً ، وعزَّةَ نفسٍ ، وكبرَ همةٍ ، وتلقيبُهُ بالألقابِ المحمودةِ غباوةً وجهلاً ، حتَّىٰ تميلَ النفسُ إليهِ وتستحسنَهُ ، وقدْ يتأكَّدُ ذٰلكَ بحكايةِ شدَّةِ الغضبِ عنِ الأكابرِ في معْرِضِ المدحِ بالشجاعةِ ، والنفوسُ مائلةٌ إلى التشبُّهِ بالأكابرِ ، فيهيجُ الغضبُ في القلبِ بسببِهِ ، وتسميةُ هٰذا عزَّةَ نفسٍ وشجاعةً جهلٌ ، بلْ هوَ مرضُ قلبٍ ، ونقصانُ عقلٍ ، وهوَ لضعفِ النفسِ ونقصانِها ، وآيةُ أنَّهُ لضعفِ النفسِ : أنَّ المريضَ أسرعُ غضباً مِنَ الصحيحِ ، والمرأةُ أسرعُ غضباً مِنَ الرجلِ ، والصبيُّ أسرعُ غضباً من الرجلِ الكبيرِ ، والشيخُ الضعيفُ أسرعُ غضباً مِنَ الكهلِ ، وذو الخُلُقِ السيِّئِ والرذائلِ القبيحةِ أسرعُ غضباً مِنْ صاحبِ الفضائلِ ؛ فالرَّذْلُ يغضبُ لشهوتِهِ إذا فاتَتْهُ اللُّقمةُ ، ولبخلِهِ إذا فاتتْهُ الحبَّةُ ، حتَّىٰ إنَّهُ يغضبُ علىٰ أهلِهِ وولدِهِ وأصحابِهِ ، بلِ القويُّ مَنْ يملِكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ ؛ كما قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ الشديدُ بالصُّرَعةِ ، إنَّما الشَّديدُ الذي يملكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ » (١) ، بلْ ينبغي أنْ يُعالَجَ هٰذا الجاهلُ بأنْ تُتلىٰ عليهِ حكاياتُ أهلِ الحلمِ والعفوِ ، وما استُحْسِنَ منهمْ مِنْ كظمِ الغيظِ ، فإنَّ ذٰلكَ منقولٌ عنِ الأنبياءِ والأولياءِ والحكماءِ والعلماءِ ، وأكابرِ الملوكِ الفضلاءِ ، وضدُّ ذٰلكَ منقولٌ عنِ الأتراكِ والأكرادِ ، والجهلةِ والأغبياءِ ، الذينَ لا عقلَ لهمْ ولا فضلَ .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه البخاري (٦١١٤) ، ومسلم (٢٦٠٩) .

بيان علاج الغضب بعد هيجانه

اعلمْ : أنَّ ما ذكرناهُ هوَ حسمٌ لموادِّ الغضبِ ، وقطعٌ لأسبابِهِ حتَّىٰ لا يهيجَ ، فإذا جرىٰ سببٌ هيَّجَهُ . . فعندَهُ يجبُ التثبُّتُ ؛ حتَّىٰ لا يضطرَّ صاحبُهُ إلى العملِ بهِ على الوجهِ المذمومِ ، وإنَّما يعالجُ الغضبَ عندَ هيجانِهِ بمعجونِ العلمِ والعملِ .

❁ ❁ ❁

أمَّا العلمُ . . فهوَ ستةُ أمورٍ :

الأوَّلُ : أنْ يتفكَّرَ في الأخبارِ التي سنوردُها في فضلِ كظمِ الغيظِ والعفوِ والحلمِ والاحتمالِ ، فيرغبَ في ثوابِهِ ، فتمنعَهُ شدَّةُ الحرصِ علىٰ ثوابِ الكظمِ عنِ التشفِّي والانتقامِ ، وينطفئَ غيظُهُ .

قالَ مالكُ بنُ أوسِ بنِ الحَدَثانِ : غضبَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ علىٰ رجلٍ وأمرَ بضربِهِ ، فقلتُ : يا أميرَ المؤمنينَ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[1] ، فكانَ عمرُ يقولُ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[2] فكانَ يتأملُ في الآيةِ ، وكانَ وقَّافاً عندَ كتابِ اللهِ مهما تُليَ عليهِ ، كثيرَ التدبُّرِ فيهِ ، فتدبَّرَ فيهِ ، وخلَّى الرجلَ[3] .

---

(١) سورة الأعراف : (١٩٩) . (٢) سورة الأعراف : (١٩٩) .

(٣) رواه البخاري (٤٦٤٢) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يذكره بنحوه ، والناصح فيه لأمير المؤمنين هو الحرُّ بن قيس رضي الله عنه .

وأمرَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ بضربِ رجلٍ ، ثمَّ قرأَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾[1] ، وقالَ لغلامِهِ : خَلِّ عنهُ[2] .

❁ ❁ ❁

الثاني : أنْ يخوِّفَ نفسَهُ بعقابِ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ أنْ يقولَ : قدرةُ اللهِ عليَّ أعظمُ مِنْ قدرتي علىٰ هـٰذا الإنسانِ ، فلوْ أمضيتُ غضبي عليهِ . . لمْ آمنْ أنْ يمضيَ اللهُ غضبَهُ عليَّ يومَ القيامةِ أحوجَ ما أكونُ إلى العفوِ ، فقدْ قالَ تعالىٰ في بعضِ الكتبِ القديمةِ : (يا بنَ آدمَ ؛ اذكرْني حينَ تغضبُ . . أذكرْكَ حينَ أغضبُ ، فلا أمحقُكَ فيمَنْ أمحقُ)[3] .

وبعثَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وصيفاً إلىٰ حاجةٍ ، فأبطأَ عليهِ ، فلمَّا جاءَ . . قالَ : « لولا القصاصُ . . لأوجعْتُكَ »[4] ؛ أيِ : القصاصُ في القيامةِ .

وقيلَ : ما كانَ في بني إسرائيلَ ملكٌ إلا ومعهُ حكيمٌ ، إذا غضبَ . . أعطاهُ صحيفةً فيها : ارحمِ المسكينَ ، واخشَ الموتَ ،

---

(١) سورة آل عمران : (١٣٤) .

(٢) رواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (٨/١٤٨) .

(٣) رواه أحمد في « الزهد » (ص ٤٥) ، وابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٥٠) عن وهيب بن الورد المكي .

(٤) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٩٠١) ، والطبراني في « الكبير » (٢٣/٣٧٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/٣٧٨) ، والوصيف : الخادم ، غلاماً كان أو جارية كما هو الحال هنا .

واذكرِ الآخرةَ ، فكانَ يقرؤُها حتَّىٰ يسكنَ غضبُهُ [1] .

الثالثُ : أنْ يحذِّرَ نفسَهُ عاقبةَ العداوةِ والانتقامِ ، وتَشمُّرَ العدوّ لمقابلتِهِ ، والسعيَ في هدمِ أغراضِهِ ، والشماتةَ بمصائبِهِ ، وهوَ لا يخلو عنِ المصائبِ ، فيخوِّفَ نفسَهُ بعواقبِ الغضبِ في الدنيا إنْ كانَ لا يخافُ مِنَ الآخرةِ .

وهٰذا يرجعُ إلىٰ تسليطِ شهوةٍ علىٰ غضبٍ ، وليسَ هٰذا مِنْ أعمالِ الآخرةِ ، ولا ثوابَ عليهِ ؛ لأنَّهُ متردِّدٌ علىٰ حظوظِهِ العاجلةِ ، يقدِّمُ بعضَها علىٰ بعضٍ ، إلَّا أنْ يكونَ محذورُهُ أنْ يتشوَّشَ عليهِ في الدنيا فراغُهُ للعلمِ والعملِ ، وما يعينُهُ على الآخرةِ ؛ فيكونُ مثاباً عليهِ .

❁ ❁ ❁

الرابعُ : أنْ يتفكَّرَ في قبحِ صورتِهِ عندَ غضبِهِ ؛ بأنْ يتذكَّرَ صورةَ غيرِهِ في حالةِ الغضبِ ويتفكَّرَ في قبحِ الغضبِ في نفسِهِ ، ومشابهةِ صاحبِهِ للكلبِ الضاري والسبعِ العادي ، ومشابهةِ الحليمِ الهادئِ التاركِ للغضبِ الأنبياءَ والأولياءَ والعلماءَ والحكماءَ ، ويخيِّرُ نفسَهُ بينَ أنْ يتشبَّهَ بالكلابِ والسباعِ وأراذلِ الناسِ ، وبينَ أنْ يتشبَّهَ بالأنبياءِ والعلماءِ في عادتِهم ؛ لتميلَ نفسُهُ إلىٰ حبِّ الاقتداءِ بهٰؤلاءِ إنْ كانَ قدْ بقيَ معَهُ مُسْكةٌ مِنْ عقلٍ .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٢١) .

الخامسُ : أنْ يتفكَّرَ في السببِ الذي يدعوهُ إلى الانتقامِ ، ويمنعُهُ مِنْ كظمِ الغيظِ ، ولا بدَّ وأنْ يكونَ لهُ سببٌ ؛ مثلَ قولِ الشيطانِ لهُ : إنَّ هـٰذا يُحمَلُ منكَ على العجزِ ، وصغَرِ النفسِ ، والذلَّةِ ، والمهانةِ ، وتصيرُ حقيراً في أعينِ الناسِ ، فليقلْ لنفسِهِ : ما أعجبَكِ يا نفسُ !! تأنفينَ مِنَ الاحتمالِ الآنَ ، ولا تأنفينَ مِنْ خزيِ يومِ القيامةِ والافتضاحِ إذا أخذَ هـٰذا بيدِكِ وانتقمَ منكِ ، وتحذرينَ مِنْ أنْ تَصغُري في أعينِ الناسِ ، ولا تحذرينَ مِنْ أنْ تصغُري عندَ اللهِ والملائكةِ والنبيّينَ ؟!

فمهما كظمَ الغيظَ . . فينبغي أنْ يكظمَهُ للهِ تعالىٰ ، وذٰلكَ يعظِّمُهُ عندَ اللهِ ، فما لهُ وللناسِ ؟! وذلُّ مَنْ ظلمَهُ يومَ القيامةِ أشدُّ مِنْ ذلِّهِ لَوِ انتقمَ الآنَ ، أفلا يحبُّ أنْ يكونَ هوَ القائمَ إذا نوديَ يومَ القيامةِ : ليقمْ مَنْ أجرُهُ على اللهِ ، فلا يقومُ إلا مَنْ عفا[1] .

فهـٰذا وأمثالُهُ مِنْ معارفِ الإيمانِ ينبغي أنْ يقرِّرَهُ علىٰ قلبِهِ .

❁ ❁ ❁

السادسُ : أنْ يعلمَ أنَّ غضبَهُ مِنْ تعجُّبِهِ مِنْ جريانِ الشيءِ علىٰ وفقِ مرادِ اللهِ لا علىٰ وَفقِ مرادِهِ ، فكيفَ يقولُ : مرادي أولىٰ مِنْ مرادِ اللهِ ؟! ويوشكُ أنْ يكونَ غضبُ اللهِ عليهِ أعظمَ مِنْ غضبِهِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٣٧٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/٢٠٤) عن الحسن .

وأمَّا العملُ :

فأنْ تقولَ بلسانِكَ : (أعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيم) ، هٰكذا أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يُقالَ عندَ الغيظِ [١] .

وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا غضبَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها . . أخذَ بأنفِها وقالَ : « يا عويشُ ؛ قولي : اللهمَّ ، ربَّ النَّبيِّ محمدٍ ؛ اغفرْ لي ذنبي ، وأذهبْ غيظَ قلبي ، وأَجِرْني مِنْ مضلَّاتِ الفِتنِ » [٢] ، فيُستحبُّ أنْ تقولَ ذٰلكَ .

فإنْ لمْ يزُلْ بذٰلكَ . . فاجلسْ إنْ كنتَ قائماً ، واضطجعْ إنْ كنتَ جالساً ، واقربْ مِنَ الأرضِ التي منها خلقتَ ؛ لتعرفَ بذٰلكَ ذلَّ نفسِكَ ، واطلبْ بالجلوسِ والاضطجاعِ السكونَ ؛ فإنَّ سببَ الغضبِ الحرارةُ ، وسببَ الحرارةِ الحركةُ ، فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الغضبَ جمرةٌ تُوقَدُ في القلبِ ، ألمْ تروا إلى انتفاخِ أوداجِهِ وحُمرةِ عينيهِ ؟! فإذا وجدَ أحدُكمْ مِنْ ذٰلكَ شيئاً ؛ فإنْ كانَ قائماً . . فليجلسْ ، وإنْ كانَ جالساً . . فلينمْ » [٣] .

فإنْ لمْ يزُلْ ذٰلكَ . . فليتوضَّأْ بالماءِ الباردِ أوْ يغتسلْ ؛ فإنَّ النارَ لا يطفئُها إلا الماءُ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا غضبَ

---

(١) رواه البخاري (٣٢٨٢) ، ومسلم (٢٦١٠) .

(٢) رواه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٤٥٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٨١/٦٨) .

(٣) رواه الترمذي (٢١٩١) بنحوه ، وقد تقدم بعضه ، وذكر الجلوس والاضطجاع أيضاً جاء عند أبي داوود (٤٧٨٢) .

أحدُكمْ . . فليتوضَّأْ بالماءِ ؛ فإنَّ الغضبَ مِنَ النارِ » ، وفي روايةٍ : « إنَّ الغضبَ مِنَ الشيطانِ ، وإنَّ الشيطانَ خُلقَ مِنَ النارِ ، وإنَّما تُطفأُ النارُ بالماءِ ، فإذا غضبَ أحدُكُمْ . . فليتوضأْ »(١) .

وقالَ ابنُ عباسٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا غضبتَ . . فاسكُتْ »(٢) .

وقالَ أبو هريرةَ : (كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا غضبَ وهوَ قائمٌ . . جلسَ ، وإذا غضبَ وهوَ جالسٌ . . اضطجعَ ، فيذهبُ غضبُهُ)(٣) .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا إنَّ الغضبَ جمرةٌ في قلبِ ابنِ آدمَ ، ألا ترونَ إلىٰ حُمرةِ عينيهِ وانتفاخِ أوداجِهِ ؟! فمَنْ وجدَ مِنْ ذٰلكَ شيئاً . . فليُلصِقْ خدَّهُ بالأرضِ »(٤) ، وكأنَّ هٰذا إشارةٌ إلى السجودِ ، وتمكينِ أعزِّ الأعضاءِ مِنْ أذلِّ المواضعِ ، وهوَ الترابُ ؛ لتستشعرَ بهِ النفسُ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٧٨٤) ، وأحمد في « المسند » (٤/٢٢٦) .

(٢) رواه أحمد في « مسنده » (١/٢٨٣) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (١٣٢٠) ، والطبراني في « الكبير » (١١/٣٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٣) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا وفيه من لم يسم) . « إتحاف » (٨/٢٣) ، وتقدم نحو هٰذا المعنىٰ ، ولابن حبان في « صحيحه » (٥٦٨٨) عن أبي ذر رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا غضب أحدكم وهو قائم . . فليجلس ، فإذا ذهب عنه الغضب وإلا . . فليضطجع » .

(٤) هو جزء من حديث رواه الترمذي (٢١٩١) .

الذلَّ ، وتزايلَ بهِ العزَّةَ والزهوَ الذي هوَ سببُ الغضبِ .

ورُويَ أنَّ عمرَ غضبَ يوماً ، فدعا بماءٍ فاستنشقَ وقالَ : (إنَّ الغضبَ مِنَ الشيطانِ ، وهٰذا يذهبُ الغضبَ) [1] .

وقالَ عروةُ بنُ محمدٍ : لمَّا استُعمِلتُ على اليمنِ . . قالَ لي أبي : أَوَلِيتَ ؟ قلتُ : نعمْ ، قالَ : فإذا غضبتَ . . فانظرْ إلى السماءِ فوقَكَ ، وإلى الأرضِ تحتَكَ ، ثمَّ أعظمْ خالقَهُما [2] .

ورُويَ أنَّ أبا ذرٍّ قالَ لرجلٍ : يا بنَ الحمراءِ ، في خصومةٍ بينهُما ، فبلغَ ذٰلكَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « يا أبا ذرٍّ ؛ بلغَني أنَّكَ اليومَ عيَّرْتَ رجلاً بأمِّهِ !! » فقالَ : نعمْ ، فانطلقَ أبو ذرٍّ ليرضيَ صاحبَهُ ، فسبقَهُ الرجلُ فسلَّم عليهِ ، فذُكِرَ ذٰلكَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « يا أبا ذرٍّ ؛ ارفعْ رأسَكَ فانظرْ ، ثمَّ اعلمْ أنَّكَ لستَ بأفضلَ مِنْ أحمرَ فيها ولا أسودَ إلَّا أنْ تفضلَهُ بعملٍ » ، ثمَّ قالَ : « إذا غضبتَ ؛ فإنْ كنتَ قائماً . . فاقعدْ ، وإنْ كنتَ قاعداً . . فاتَّكِئْ ، وإنْ كنتَ متَّكئاً . . فاضطجعْ » [3] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٢٣) .

(٢) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٢١٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٤/٢٢١) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » بإسناد صحيح) . « إتحاف » (٨/٢٤) ، وأصل الخبر عند البخاري (٣٠) ، ومسلم (١٦٦١) ، وعند أحمد في « المسند » (٥/١٥٨) من حديثه مرفوعاً : « انظر ، فإنك ليس بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بالتقوىٰ » .

وقالَ المعتمرُ بنُ سليمانَ : كانَ رجلٌ ممَّنْ كانَ قبلَكُمْ يغضبُ فيشتدُّ غضبُهُ ، فكتبَ ثلاثَ صحائفَ ، فأعطىٰ كلَّ صحيفةٍ رجلاً ، وقالَ للأوَّلِ : إذا غضبتُ . . فأعطني هٰذهِ ، وقالَ للثاني : إذا سكنَ بعضُ غضبي . . فأعطني هٰذهِ ، وقالَ للثالثِ : إذا ذهبَ غضبي . . فأعطني هٰذهِ ، فاشتدَّ غضبُهُ يوماً ، فأُعطيَ الصحيفةَ الأولىٰ ، فإذا فيها : (ما أنتَ وهٰذا الغضبُ ؟! إنَّكَ لستَ بإلٰهٍ ، إنَّما أنتَ بشرٌ يوشكُ أنْ يأكلَ بعضُكَ بعضاً) ، فسكنَ بعضُ غضبِهِ ، فأُعطيَ الثانيةَ ، فإذا فيها : (ارحمْ مَنْ في الأرضِ . . يرحمْكَ مَنْ فِي السماءِ) ، فأُعطيَ الثالثةَ ، فإذا فيها : (خذِ الناسَ بحقِّ اللهِ ؛ فإنَّهُ لا يصلحُهُمْ إلَّا ذٰلكَ) أيْ : لا تعطلِ الحدودَ [1] .

وغضبَ المهديُّ علىٰ رجلٍ ، فقالَ شبيبٌ : لا تغضبنَّ للهِ بأشدَّ مِنْ غضبِهِ لنفسِهِ ، فقالَ : خلُّوا سبيلَهُ [2] .

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٢٤) .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٢٤) .

فضيلة كظم الغيظ

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ (١) ، وذكرَ ذٰلكَ في معرِضِ المدحِ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كفَّ غضبَهُ . . كفَّ اللهُ عنهُ عذابَهُ ، ومَنِ اعتذرَ إلى اللهِ . . قبِلَ اللهُ عذرَهُ ، ومَنْ خزَنَ لسانَهُ . . سترَ اللهُ عورتَهُ » (٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أشدُّكُمْ مَنْ غلَبَ نفسَهُ عندَ الغضبِ ، وأحلمُكُمْ مَنْ عفا بعدَ القدرةِ » (٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كظمَ غيظاً ولوْ شاءَ أنْ يمضيَهُ أمضاهُ . . ملأَ اللهُ قلبَهُ يومَ القيامةِ رضاً » (٤) .

وفي روايةٍ : « ملأَ اللهُ قلبَهُ أمناً وإيماناً » (٥) .

وقالَ ابنُ عمرَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما جرعَ

---

(١) سورة آل عمران : (١٣٤) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٢٤) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١٥٨٣) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٢٥) ، وكذا رواه العسكري في « تصحيفات المحدثين » (١/ ٣٤٩) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٨٥٠) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٢٥) .

(٥) رواه أبو داوود (٤٧٧٧) .

عبدٌ جُرعةً أعظمَ أجراً مِنْ جُرعةِ غيظٍ كظَمَها ابتغاءَ وجهِ اللهِ »[1] .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لجهنَّمَ باباً لا يدخلُهُ إلَّا مَنْ شفىٰ غيظَهُ بمعصيةِ اللهِ تعالىٰ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنَ جُرعةٍ أحبُّ إلى اللهِ تعالىٰ مِنْ جرعةِ غيظٍ يكظمُها عبدٌ ، وما كظمَها عبدٌ إلَّا ملأَ اللهُ قلبَهُ إيماناً »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كظمَ غيظاً وهوَ يقدرُ علىٰ أنْ يُنْفذَهُ . . دعاهُ اللهُ علىٰ رؤوسِ الخلائقِ ويخيّرُهُ مِنْ أيِّ الْحورِ شاءَ »[4] .

❀ ❀ ❀

الآثارُ :

قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنِ اتقى اللهَ . . لمْ يشفِ غيظَهُ ، ومَنْ خافَ اللهَ . . لمْ يفعلْ ما يريدُ ، ولولا يومُ القيامةِ . . لكانَ غيرَ ما ترونَ)[5] .

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٨٩) .

(٢) رواه البزار في « مسنده » (٥١٨٠) ، وابن عدي في « الكامل » (٦/٥١) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٩٧٨) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » من حديث ابن عباس . « إتحاف » (٨/٢٥) .

(٤) رواه أبو داوود (٤٧٧٧) ، والترمذي (٢٤٩٣) ، وابن ماجه (٤١٨٦) .

(٥) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٤٠٥) من طريق ابن أبي الدنيا .

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ لا تذهبْ ماءَ وجهِكَ بالمسألةِ ، ولا تشفِ غيظَكَ بفضيحتِكَ ، واعرفْ قدرَكَ . . تنفعْكَ معيشتُكَ)[١] .

وقالَ أيوبُ : (حلمُ ساعةٍ يدفعُ شرّاً كثيراً)[٢] .

واجتمعَ سفيانُ الثوريُّ وأبو خزيمةَ اليربوعيُّ والفضيلُ بنُ عياضٍ ، فتذاكرُوا الزهدَ ، فأجمعُوا علىٰ أنَّ أفضلَ الأعمالِ الحلمُ عندَ الغضبِ ، والصبرُ عندَ الطمعِ[٣] .

وقالَ رجلٌ لعمرَ رضيَ اللهُ عنهُ : واللهِ ؛ ما تقضي بالعدلِ ، ولا تعطي الجزلَ ، فغضبَ عمرُ حتَّىٰ عُرِفَ ذٰلكَ في وجهِهِ ، فقالَ لهُ رجلٌ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ ألمْ تسمعْ أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[٤] فهٰذا مِنَ الجاهلينَ ، فقالَ عمرُ : صدقتَ ، فكأنَّما كانَتْ ناراً فأُطفِئَتْ[٥] .

وقالَ محمدُ بنُ كعبٍ : (ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ استكملَ الإيمانَ باللهِ ؛ إذا رضيَ . . لمْ يُدخِلْهُ رضاهُ في الباطلِ ، وإذا غضبَ . . لمْ يخرجْهُ غضبُهُ عنِ الحقِّ ، وإذا قدرَ . . لمْ يتناولْ ما ليسَ لهُ)[٦] .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٢٦) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٠٦٨) ، وأيوب هو السختياني .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٢٦) .

(٤) سورة الأعراف : (١٩٩) .

(٥) رواه البخاري (٤٦٤٢) .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٣١٢) ضمن خبر طويل .

وجاءَ رجلٌ إلىٰ سلمانَ ، فقالَ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ أوصني ، فقالَ : لا تغضبْ ، قالَ : لا أقدرُ ، قالَ : فإنْ غضبتَ . . فأمسِكْ لسانَكَ ويدَكَ [1] .

* * *

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٢٦) .

بيان فضيلة الحلم

اعلمْ : أنَّ الحلمَ أفضلُ مِنْ كظمِ الغيظِ ؛ لأنَّ كظمَ الغيظِ عبارةٌ عنِ التحلُّمِ ؛ أيْ : تكلُّفِ الحلمِ ، ولا يحتاجُ إلىٰ كظمِ الغيظِ إلَّا مَنْ هاجَ غيظُهُ ، ويحتاجُ فيهِ إلىٰ مجاهدةٍ شديدةٍ ، ولٰكنْ إذا تعوَّدَ ذٰلكَ مدَّةً . . صارَ ذٰلكَ اعتياداً ، فلا يهيجُ الغيظُ ، وإنْ هاجَ . . فلا يكونُ في كظمِهِ تعبٌ ، وهوَ الحلمُ الطبيعيُّ ، وهوَ دلالةُ كمالِ العقلِ واستيلائِهِ ، وانكسارِ قوةِ الغضبِ وخضوعِهَا للعقلِ ، ولٰكنِ ابتداؤُهُ التحلُّمُ وكظمُ الغيظِ تكلُّفاً .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما العلمُ بالتعلُّمِ ، والحلمُ بالتحلُّمِ ، ومَنْ يتحرَّ الخيرَ . . يعطَهُ ، ومَنْ يتوقَّ الشَّرَّ . . يوقَهُ »[(١)] ، أشارَ بهٰذا إلىٰ أنَّ اكتسابَ الحلمِ طريقُهُ التحلُّمُ أولاً وتكلُّفُهُ ؛ كما أنَّ اكتسابَ العلمِ طريقُهُ التعلُّمُ .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اطلبُوا العلمَ ، واطلُبُوا معَ العلمِ السكينةَ والحلمَ ، لينُوا لمَنْ تُعلِّمونَ ولمَنْ تَعلَّمونَ منهُ ، ولا تكونُوا مِنْ جبابرةِ العلماءِ ؛ فيغلبَ جهلُكُمْ حلمَكُمْ »[(٢)] ، أشارَ بهٰذا إلىٰ أنَّ التجبُّرَ والتكبُّرَ هوَ الذي يهيِّجُ الغضبَ ويمنعُ مِنَ الحلمِ واللِّينِ .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٦٨٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/١٧٤) .
(٢) رواه ابن عدي في « الكامل » (٤/٣٣٥) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٢٣٨) .

وكانَ مِنْ دعاءِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللَّهمَّ ؛ أغنني بالعلمِ ، وزيِّنِّي بالحلمِ ، وأكرمْني بالتقوىٰ ، وجمِّلْني بالعافيةِ »[1] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ابتغُوا الرِّفعةَ عندَ اللهِ » ، قالُوا : وما هيَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « تصلُ مَنْ قطعَكَ ، وتعطي مَنْ حرَمَكَ ، وتحلُمُ عمَّنَ جهِلَ عليكَ »[2] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خمسٌ مِنْ سننِ المرسلينَ : الحياءُ ، والحِلْمُ ، والحجامَةُ ، والسِّواكُ ، والتَّعطُّرُ »[3] .

وقالَ عليٌّ كرمَ اللهُ وجهَهُ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرجلَ المسلمَ ليُدْركُ بالحلْمِ درجةَ الصائمِ القائمِ ، وإنَّهُ ليُكْتَبُ جباراً عنيداً وما يملكُ إلَّا أهلَ بيتِهِ »[4] .

وقالَ أبو هريرةَ : إنَّ رجلاً قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ لي قرابةً أصِلُهُمْ ويقطعُوني ، وأحسنُ إليهِمْ ويسيئونَ إليَّ ، ويجهلونَ عليَّ وأحلُمُ عنهُمْ ، فقالَ : « لئِنْ كانَ كما تقولُ . . فكأنَّما تُسِفُّهُمُ الملَّ ، ولا يزالُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٣) عن سفيان بن عيينة معضلاً ، ووصله الرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (٢/٣٢٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٤) بلفظ المصنف هنا .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٦) من رواية مليح بن عبد الله الخطمي عن أبيه عن جده .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٨) ، والطبراني في « الأوسط » (٦٢٦٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/٢٨٩) .

معكَ مِنَ اللهِ ظهيرٌ ما دُمتَ علىٰ ذٰلكَ »[١] ، الملُّ ؛ يعني : الرملَ .

وقالَ رجلٌ مِنَ المسلمينَ : اللهمَّ ؛ ليسَ عندي صدقةٌ أتصدَّقُ بها ، فأيُّما رجلٍ أصابَ مِنْ عرضي شيئاً . . فهوَ عليهِ صدقةٌ ، فأَوحى اللهُ تعالىٰ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أنِّي قدْ غفرتُ لهُ[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أيعجزُ أحدُكُمْ أنْ يكونَ كأبي ضمضمٍ ؟ » قالُوا : وما أبو ضمضمٍ ؟ قالَ : « رجلٌ فيمَنْ كانَ قبلَكُمْ ، كانَ إذا أصبحَ يقولُ : اللَّهمَّ ؛ إنِّي تصدَّقْتُ اليومَ بعرضي علىٰ مَنْ ظلَمَني »[٣] .

وقيلَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾[٤] أيْ : حلماءَ علماءَ[٥] .

وعنِ الحسنِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾[٦] قالَ : (حلماءُ ، إن جُهِلَ عليهِمْ . . لمْ يجهلُوا)[٧] .

---

(١) رواه مسلم (٢٥٥٨) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٩) ، والقائل هو عبلة بن زيد رضي الله عنه .

(٣) رواه الطبراني في « مكارم الأخلاق » (٥٣) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٦٥) .

(٤) سورة آل عمران : (٧٩) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٩) .

(٦) سورة الفرقان : (٦٣) .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (١٠) .

وقالَ عطاءُ بنُ أبي رباحٍ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ (١) أيْ : حلماً (٢) .

وقالَ ابنُ أبي حبيبٍ في قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَكَهْلًا ﴾ (٣) قالَ : الكهْلُ : منتهى الحلمِ (٤) .

وقالَ مجاهدٌ : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ (٥) أيْ : إذا أُوذُوا . . صفحُوا (٦) .

ورُوِيَ أنَّ ابنَ مسعودٍ مرَّ بلغوٍ معرضاً ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أصبحَ ابنُ مسعودٍ وأمسىٰ كريماً » ، ثمَّ تلا إبراهيمُ بنُ ميسرةَ ـ وهوَ الرَّاوي ـ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ (٧) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللَّهمَّ ؛ لا يُدْركُني ولا أدركُهُ زمانٌ لا يتَّبعُونَ فِيهِ العليمَ ، ولا يستحْيونَ فيهِ مِنَ الحليمِ ، قلوبُهُمْ قلوبُ العجمِ ، وألسنُتُهمْ ألسنةُ العربِ » (٨) .

---

(١) سورة الفرقان : (٦٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (١١) .

(٣) سورة آل عمران : (٤٦) .

(٤) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٣٥٢٦) .

(٥) سورة الفرقان : (٧٢) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٢٥) .

(٧) سورة الفرقان : (٧٢) ، والحديث رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٥٤٦٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢٨/٣٣) عن إبراهيم بن ميسرة بلاغاً .

(٨) رواه أحمد في « مسنده » (٣٤٠/٥) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ليلِنِي منكُمْ ذوُو الأحلامِ والنُّهىٰ ، ثمَّ الذينَ يلونَهُمْ ، ثمَّ الذينَ يلونَهُمْ ، ولا تختلفُوا فتختلفَ قلوبُكُمْ ، وإيَّاكُمْ وهَيْشاتِ الأسواقِ »(١) .

ورُوِيَ أنَّهُ وفدَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الأشجُّ ، فأناخَ راحلتَهُ ثمَّ عقلَها ، ثمَّ طرحَ عنهُ ثوبينِ كانا عليهِ ، وأخرجَ مِنَ العَيبةِ ثوبينِ حسنينِ فلبسَهُما ، وذٰلكَ بعينِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يرىٰ ما يصنعُ ، ثمَّ أقبلَ يمشي إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ لهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أشجُّ ؛ إنَّ فيكَ لخُلقينِ يحبُّهمَا اللهُ ورسولُهُ » ، قالَ : وما هما بأبي أنتَ وأمي يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « الحلمُ والأناةُ » ، فقالَ : خُلُقانِ تخلَّقْتُهما أوْ خُلُقانِ جُبلتُهما ؟ فقالَ : « بلْ خُلُقانِ جبلَكَ اللهُ عليهما » ، فقالَ : الحمدُ للهِ الذي جبلَني علىٰ خُلُقينِ يحبُّهُما اللهُ ورسولُهُ(٢) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يحبُّ الحليمَ الحييَّ ، الغنيَّ المتعفِّفَ أبا العيالِ التقيَّ ، ويبغضُ الفاحشَ البذيءَ ، السائلَ الملحِفَ الغبيَّ »(٣) .

وقالَ ابنُ عباسٍ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مَنْ

---

(١) رواه مسلم (٤٣٢) مختصراً ، وهو عند أبي داوود (٢٢٨) ، والهيشة : الفتنة .

(٢) رواه أبو داوود (٥٢٢٥) ، وأصله عند مسلم (١٨) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٥٤) مرسلاً من حديث عمرو بن دينار ، وعند مسلم (٢٩٦٥) مرفوعاً : « إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي » .

لَمْ تكنْ فيهِ واحدةٌ منهنَّ . . فلا يُعتدَّنَّ بشيءٍ مِنْ عملِهِ : تقوىٰ تحجزُهُ عنْ معاصي اللهِ عزَّ وجلَّ ، وحِلْمٌ يكفُّ بهِ السَّفيهَ ، وخُلُقٌ يعيشُ بهِ في الناسِ »[١] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا جمعَ اللهُ الخلائقَ يومَ القيامةِ . . نادىٰ منادٍ : أينَ أهلُ الفضلِ ؟ فيقومُ ناسٌ وهمْ يسيرٌ ، فينطلقُونَ سراعاً إلى الجنَّةِ ، فتتلقاهُمُ الملائكةُ ، فيقولُونَ لهُمْ : إنَّا نراكُمْ سراعاً إلى الجنَّةِ ، فيقولُونَ : نحنُ أهلُ الفضلِ ، فيقولُونَ لهُمْ : ما كانَ فضلُكُمْ ؟ فيقولُونَ : كنَّا إذا ظُلِمْنا . . صبرْنا ، وإذا أُسِيءَ إلينا . . غفرْنا ، وإذا جُهِلَ علينا . . حَلُمْنا ، فيُقالُ لهمُ : ادخلُوا الجنَّةَ ؛ فنعمَ أجرُ العاملينَ »[٢] .

❁ ❁ ❁

الآثارُ :

قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (تعلَّموا العلمَ ، وتعلَّمُوا للعلمِ السكينةَ والحلمَ)[٣] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ليسَ الخيرُ أنْ يكثرَ مالُكَ وولدُكَ ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٥٥) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٢٩) ، ورواه الطبراني في « الكبير » (٣٠٧/٢٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٥٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٧٣١) .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٠٧) ، ورواه مرفوعاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ابن عدي في « الكامل » (٣٣٥/٤) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٢٣٨) .

ولكنَّ الخيرَ أنْ يكثرَ علمُكَ ، ويعظمَ حلمُكَ ، وأن تباهيَ الناسَ بعبادةِ ربِّكَ ، فإذا أحسنتَ . . حمدتَ اللّهَ ، وإذا أسأتَ . . استغفرتَ اللّهَ) (١) .

وقالَ الحسنُ : (اطلبُوا العلمَ ، وزيِّنوهُ بالوقارِ والحلْمِ) (٢) .

وقالَ أكثمُ بنُ صيفيٍّ : (دعامةُ العقلِ الحلمُ ، وجماعُ الأمرِ الصبرُ) (٣) .

وقالَ أبو الدرداءِ : أدركْتُ الناسَ ورقاً لا شوكَ فيهِ ، فأصبحُوا شوكاً لا ورقَ فيهِ ، إنْ نقدْتَهمْ . . نقدُوكَ ، وإنْ تركتَهُمْ . . لمْ يتركوكَ ، قالُوا : كيفَ نصنعُ ؟ قالَ : تقرضُهُمْ مِنْ عرضِكَ ليومِ فقرِكَ (٤) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللّهُ عنهُ : (إنَّ أوّلَ عوضِ الحليمِ مِنْ حلمِهِ أنَّ الناسَ كلَّهُمْ أعوانُهُ على الجاهلِ) (٥) .

وقالَ معاويةُ رضيَ اللّهُ عنهُ : (لا يبلغُ الرجلُ مبلغَ الرأيِ حتَّىٰ يغلبَ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/٧٥) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٦٠) ولكن من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٣٢) ، وقد رویٰ بنحوه مرفوعاً عن أبي هريرة رضي الله عنه ابن عدي في « الكامل » (٤/٣٣٥) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٢٣٨) ولفظه : « اطلبوا العلم ، واطلبوا مع العلم السكينة والحلم . . . » الحديث .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (١٦) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (١٣) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (١٢) .

حلمُهُ جهلَهُ ، وصبرُهُ شهوتَهُ ، ولا يبلغُ ذٰلكَ إلا بقوَّةِ العلمِ)[1] .

وقالَ معاويةُ لعمرِو بنِ الأهتمِ : أيُّ الرجالِ أشجعُ ؟ قالَ : مَنْ ردَّ جهلَهُ بحلمِهِ ، قالَ : أيُّ الرجالِ أسخىٰ ؟ قالَ : مَنْ بذلَ دنياهُ لصلاحِ دينِهِ[2] .

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[3] : (هوَ الرجلُ يشتمُهُ أخوهُ ، فيقولُ : إنْ كنتَ كاذباً . . فغفرَ اللهُ لكَ ، وإنْ كنتَ صادقاً . . فغفرَ اللهُ لي)[4] .

وعنْ بعضِهِمْ قالَ : شتمتُ فلاناً مِنْ أهلِ البصرةِ ، فحلمَ عنِّي ، فاستعبدَني بها زماناً[5] .

وقالَ معاويةُ لعَرابةَ بنِ أوسٍ : بمَ سدتَ قومَكَ ؟ قالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ، كنتُ أحلُمُ عنْ جاهلِهِمْ ، وأعطي سائلَهُمْ ، وأسعىٰ في حوائجِهِمْ ، فمَنْ فعلَ فعلي . . فهوَ مثلي ، ومَنْ جاوزَني . . فهوَ أفضلُ مني ، ومَنْ قصُرَ عنِّي . . فأنا خيرٌ منهُ[6] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (١٣) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٢٢) .
(٣) سورة فصلت : (٣٤ ـ ٣٥) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٤٩) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٣٤) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٣٩) إلىٰ قوله : (وأسعىٰ في حوائجهم) ، وأشار إلىٰ روايته بتمامه الحافظ الزبيدي عنده في « ذم الغضب » . انظر « الإتحاف » (٨/٣٣) .

وسبَّ رجلٌ ابنَ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما ، فلمَّا فرغَ . . قالَ : يا عكرمةُ ؛ هلْ للرجلِ حاجةٌ فنقضيَها ؟ فنكَّسَ الرجلُ رأسَهُ واستحيا[1] .

وقالَ رجلٌ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ : أشهدُ أنَّكَ مِنَ الفاسقينَ ، فقالَ : ليسَ تُقبلُ شهادتُكَ[2] .

وعنْ عليِّ بنِ الحسينِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُمْ : أنَّهُ سبَّهُ رجلٌ ، فرمىٰ إليهِ خميصةً كانَتْ عليهِ ، وأمرَ لهُ بألفِ درهمٍ[3] ، فقالَ بعضُهمْ : جَمعَ فيهِ خمسَ خصالٍ محمودةٍ : الحلمُ ، وإسقاطُ الأذىٰ ، وتخليصُ الرجلِ ممَّا يبعدهُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وحملُهُ على الندمِ والتوبةِ ، ورجوعُهُ إلى المدحِ بعدَ الذمِّ ، اشترىٰ جميعَ ذٰلكَ بشيءٍ مِنَ الدنيا يسيرٍ[4] .

وقالَ رجلٌ لجعفرِ بنِ محمدٍ : إنهُ قدْ وقعَ بيني وبينَ قومٍ منازعةٌ في أمرٍ ، وإنِّي أريدُ أنْ أتركَهُ فأخشىٰ أنْ يقالَ لي : إنَّ تركَكَ لهُ ذلٌّ ، فقالَ جعفرٌ : إنَّما الذليلُ الظالمُ[5] .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٣٣) .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٣٣) .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١/٣٩٤) ، وفيه أنه قال له بعد أن سبَّه الرجل : ما ستر عنك من أمرنا أكثر ، ألك حاجة نعينك عليها ؟ فاستحيا الرجل ورجع إلىٰ نفسه ، فألقىٰ إليه خميصة . . . الخبر .

(٤) كذا الخبر بتمامه عند ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٣٣) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٣٣) .

وقالَ الخليلُ بنُ أحمدَ : (كانَ يُقالُ : مَنْ أساءَ فأُحسِنَ إليهِ . . فقدْ جُعلَ لهُ حاجزٌ مِنْ قلبِهِ يردعُهُ عنْ مثلِ إساءَتِهِ)[١] .

وقالَ الأحنفُ بنُ قيسٍ : (لستُ بحليمٍ ، ولٰكنِّي أتحلَّمُ)[٢] .

وقالَ وهبُ بنُ منبِّهٍ : (مَنْ يَرحَمْ . . يُرحمْ ، ومَنْ يصمُتْ . . يسلمْ ، ومَنْ يجهلْ . . يُغلَبْ ، ومَنْ يعجلْ . . يخطئْ ، ومَنْ يحرصْ على الشرِّ . . لا يسلمْ ، ومَنْ لا يدعِ المراءَ . . يُشْتَمْ ، ومَنْ لا يكرهِ الشتمَ . . يأثمْ ، ومَنْ يكرهِ الشرَّ . . يُعصَمْ ، ومَنْ يتبعْ وصيةَ اللهِ . . يُحفَظْ ، ومَنْ يحذرِ اللهَ . . يأمنْ ، ومَنْ يتولَّ اللهَ . . يُمنعْ ، ومَنْ لا يسألِ اللهَ . . يفتقرْ ، ومَنْ لا يكنْ معَ اللهِ . . يُخذلْ ، ومَنْ يستعنْ باللهِ . . يظفرْ)[٣] .

وقالَ رجلٌ لمالكِ بنِ دينارٍ : بلغَني أنَّكَ ذكرتَني بسوءٍ ، قالَ : أنتَ إذاً أكرمُ عليَّ مِنْ نفسي ؛ إنِّي إذا فعلتُ ذٰلكَ . . أهديتُ إليكَ حسناتِي[٤] .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (الحلمُ أرفعُ مِنَ العقلِ ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ تسمَّىٰ بهِ)[٥] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٤٦) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٤٨) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٤٩) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٥١) مختصراً .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (١٥) عن رجاء بن أبي سلمة .

وقالَ رجلٌ لبعضِ الحكماءِ : واللهِ ؛ لأسبَّنَّكَ سبّاً يدخلُ معكَ في قبرِكَ ، فقالَ : معكَ يدخلُ لا معي [١] .

ومرَّ المسيحُ ابنُ مريمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بقومٍ مِنَ اليهودِ ، فقالُوا لهُ شراً ، فقالَ لهمْ خيراً ، فقيلَ لهُ : إنَّهمْ يقولونَ شراً وأنتَ تقولُ خيراً !! فقالَ : كلُّ واحدٍ ينفقُ ممَّا عندَهُ [٢] .

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (ثلاثةٌ لا يُعرَفُونَ إلا عندَ ثلاثةٍ : لا يُعرفُ الحليمُ إلا عندَ الغضبِ ، ولا الشجاعُ إلا عندَ الحربِ ، ولا الأخُ إلَّا عندَ حاجتِكَ إليهِ) [٣] .

ودخلَ علىٰ بعضِ الحكماءِ صديقٌ لهُ ، فقدَّمَ إليهِ طعاماً ، فخرجَتِ امرأةُ الحكيمِ وكانَتْ سيِّئةَ الخلُقِ ، فرفعَتِ المائدةَ ، وأقبلَتْ علىٰ شتمِ الحكيمِ ، فخرجَ الصديقُ مغضباً ، فتبعَهُ الحكيمُ وقالَ لهُ : تذكرُ يومَ كنَّا في منزلِكَ نَطعَمُ فسقطَتْ دجاجةٌ على المائدةِ فأفسدَتْ ما عليها فلمْ يغضبْ أحدٌ منَّا ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : فاحسَبْ أنَّ هٰذهِ مثلُ تلكَ الدجاجةِ ، فسُرِّيَ عنِ الرجلِ غضبُهُ وانصرفَ ، وقالَ : صدقَ الحكيمُ ، الحلمُ شفاءٌ مِنْ كلِّ ألمٍ [٤] .

وضربَ رجلٌ قدمَ حكيمٍ فأوجعَهُ ، فلمْ يغضبْ ، فقيلَ لهُ في

---

(١) رواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (٣٢٣/١٢) ، والحكيم فيه هو الأحنف .
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٣٤/٨) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٨٩/٧) .
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . (٣٤/٨) .

ذلكَ ، فقالَ : أقمتُهُ مقامَ حجرٍ تعثَّرتُ بهِ ، وذبحتُ الغضبَ .

وقالَ محمودٌ الوراقُ (١) : [من الطويل]

سَأُلْزِمُ نَفْسِي الصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مُذْنِبٍ ... وَإِنْ كَثُرَتْ مِنْهُ عَلَيَّ الْجَرائِمُ

وَما النَّاسُ إِلَّا واحِدٌ مِنْ ثَلاثَةٍ ... شَرِيفٌ وَمَشْرُوفٌ وَمِثْلٌ مُقاوِمُ

فَأَمَّا الَّذِي فَوْقِي فَأَعْرِفُ قَدْرَهُ ... وَأَتْبَعُ فِيهِ الْحَقَّ وَالْحَقُّ لازِمُ

وَأَمَّا الَّذِي دُونِي فَإِنْ قَالَ صُنتُ عَنْ ... إِجابَتِهِ عِرْضِي وَإِنْ لامَ لائِمُ

وَأَمَّا الَّذِي مِثْلِي فَإِنْ زَلَّ أَوْ هَفا ... تَفَضَّلْتُ إِنَّ الْفَضْلَ بِالْخَيْرِ حاكِمُ

❊ ❊ ❊

---

(١) ديوانه (ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥) .

بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام

اعلمْ : أنَّ كلَّ ظلمٍ صَدَرَ مِنْ شخصٍ فلا يجوزُ مقابلتُهُ بمثلِهِ ؛ فلا تجوزُ مقابلةُ الغيبةِ بالغيبةِ ، ولا مقابلةُ التجسُّسِ بالتجسُّسِ ، ولا مقابلةُ السَّبِّ بالسَّبِّ ، وكذا سائرُ المعاصي ، وإنَّما القصاصُ والغرامةُ علىٰ قدرِ ما وردَ الشرعُ بهِ ، وقدْ فصَّلناهُ في الفقهِ .

وأمَّا السَّبُّ . . فلا يقابلُ بمثلِهِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنِ امرؤٌ عيَّرَكَ بما فيكَ . . فلا تعيِّرْهُ بما فيهِ »(١) .

وقالَ : « المستبَّانِ ما قالا ، فهوَ على البادئِ ما لمْ يعتدِ المظلومُ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المستبَّانِ شيطانانِ يتهاترانِ »(٣) .

وشتمَ رجلٌ أبا بكرٍ الصدِّيقَ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ ساكتٌ ، فلمَّا ابتدأَ ينتصرُ منْهُ . . قامَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ أبو بكرٍ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّكَ كنتَ ساكتاً لما شتمَني ، فلمَّا تكلَّمتُ . . قمتَ ؟ قالَ : « لأَنَّ المَلكَ كانَ يجيبُ عنكَ ، فلمَّا تكلَّمتَ . . ذهبَ الملَكُ وجاءَ الشَّيطانُ ، فلمْ أكُنْ لأجلسَ في مجلسٍ فيهِ الشَّيطانُ »(٤) .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/٦٣) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (١١٨٢) .
(٢) رواه مسلم (٢٤٤٢) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤/١٦٢) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٤٢٨) .
(٤) رواه أبو داوود (٤٨٩٦) موصولاً ومرسلاً بنحوه .

وقالَ قومٌ : تجوزُ المقابلةُ بما لا كذبَ فيهِ ، ونهيُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ مقابلةِ التعييرِ بمثلِهِ نهيُ تنزيهٍ ، والأفضلُ تركُهُ ، ولـٰكنَّهُ لا يعصي بهِ .

والذي يُرخَّصُ فيهِ أنْ تقولَ : مَنْ أنتَ ؟ وهلْ أنتَ إلَّا مِنْ بني فلانٍ [1] ؛ كما قالَ سعدٌ لابنِ مسعودٍ : وهلْ أنتَ إلَّا مِنْ بني هذيلٍ ؟ فقالَ ابنُ مسعودٍ : وهلْ أنتَ إلَّا مِنْ بني أميَّةَ ؟

ومثلُ قولِهِ : يا أحمقُ ، قالَ مطرفٌ : (كلُّ الناسِ أحمقُ فيما بينَهُ وبينَ ربِّهِ ، إلَّا أنَّ بعضَ الناسِ أقلُّ حماقةً مِنْ بعضٍ) [2] .

وقالَ ابنُ عمرَ في حديثٍ طويلٍ : (حتَّىٰ ترى الناسَ كلَّهمْ حمقىٰ في ذاتِ اللهِ تعالىٰ) [3] .

وكذٰلكَ قولُهُ : يا جاهلُ ؛ إذْ ما مِنْ أحدٍ إلَّا وفيهِ جهلٌ ؛ فقدْ آذاهُ بما ليسَ بكذبٍ .

وكذٰلكَ قولُهُ : يا سيِّئَ الخلُقِ ، يا صفيقَ الوجهِ ، يا ثلَّابَ الأعراضِ ، وكانَ ذٰلكَ فيهِ .

وكذٰلكَ قولُهُ : لوْ كانَ فيكَ حياءٌ . . لما تكلَّمْتَ ، وما أحقرَكَ

---

(١) ينسبه لقبيلته التي هو منها ، إلا إن كانت القبيلة مما ينبز باللؤم ؛ كباهلة وسلول وهيثم . « إتحاف » (٨/٣٥) .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٣٥) .

(٣) رواه مرفوعاً من حديث أبي الدرداء ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥١٥) ، وفيه : « لا يفقه العبد كل الفقه حتىٰ يمقت الناس في ذات الله . . . » .

في عيني بما فعلْتَ ، وأخزاكَ اللهُ ، وانتقمَ منكَ .

فأمَّا النميمةُ ، والغيبةُ ، والكذبُ ، وسبُّ الوالدَينِ . . فحرامٌ بالاتفاقِ ؛ لما رُوِيَ أنَّهُ كانَ بينَ خالدِ بنِ الوليدِ وسعدٍ كلامٌ ، فذكرَ رجلٌ خالداً عندَ سعدٍ ، فقالَ سعدٌ : (مَهْ ؛ إنَّ ما بينَنا لمْ يبلغْ دينَنا) [١] ؛ يعني : أنْ يأثَمَ بعضُنا في بعضٍ ، فلمْ يسمعِ السوءَ ، فكيفَ يجوزُ أنْ يقولَهُ .

والدليلُ علىٰ جوازِ ما ليسَ بكذبٍ ولا حرامٍ ؛ كالنسبةِ إلى الزِّنا والسَّبِّ والفحشِ . . ما روَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : أنَّ أزواجَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أرسلْنَ إليهِ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها ، فجاءَتْ فقالَتْ : يا رسولَ اللهِ ؛ أرسلَني إليكَ أزواجُكَ يسأَلْنَكَ العدلَ في ابنةِ أبي قحافةَ ، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نائمٌ ، فقالَ : « يا بنيَّةُ ؛ أتحبينَ ما أحبُّ ؟ » ، قالَتْ : نعمْ ، قالَ : « فأحبِّي هٰذهِ » ، فرجعَتْ إليهنَّ ، فأخبرتْهُنَّ بذٰلكَ ، فقلنَ : ما أغنيتِ عنَّا شيئاً ، فأرسلنَ زينبَ بنتَ جحشٍ ، قالَتْ : وهيَ التي كانَتْ تساميني في الحبِّ ، فجاءَتْ ، فقالَتْ : بنتُ أبي بكرٍ ، وبنتُ أبي بكرٍ ، فما زالَتْ تذكرُني وأنا ساكتةٌ أنتظرُ أنْ يأذنَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الجوابِ ، فأذنَ لي ، فسببتُها حتَّىٰ جفَّ لساني ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلَّا ، إنَّها ابنةُ أبي بكرٍ » [٢] ، يعني : أنَّكِ لا تقاومينَها

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٠٤٨) ، والطبراني في « الكبير » (٤/١٠٦) .

(٢) رواه البخاري (٢٥٨١) ، ومسلم (٢٤٤٢) واللفظ له .

في الكلامِ قطُّ ، وقولُها : (سببتُها) ليسَ المرادُ بهِ الفحشَ ، بلْ هوَ الجوابُ عنْ كلامِها بالحقِّ ، ومقابلتُها بالصدقِ .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المستبَّانِ ما قالا ، فعلى البادئِ منهما حتَّىٰ يعتديَ المظلومُ »[1] ، فأثبتَ للمظلومِ انتصاراً إلىٰ أنْ يعتديَ ، فهٰذا القدرُ هوَ الذي أباحَهُ هٰؤلاءِ ، وهوَ رخصةٌ في الإيذاءِ جزاءً علىٰ إيذائِهِ السابقِ .

ولا تبعدُ الرخصةُ في هٰذا القدْرِ ، ولٰكنَّ الأفضلَ تركُهُ ؛ فإنَّهُ يجرُّ إلىٰ ما وراءَهُ ، ولا يمكنُهُ الاقتصارُ علىٰ مقدارِ الحقِّ فيهِ ، والسكوتُ عنْ أصلِ الجوابِ لعلَّهُ أيسرُ مِنَ الشروعِ في الجوابِ والوقوفِ علىٰ حدِّ الشرعِ فيهِ ، ولٰكنْ مِنَ الناسِ مَنْ لا يقدرُ علىٰ ضبطِ نفسِهِ في فورةِ الغضبِ ، ولٰكنْ يعودُ سريعاً ، ومنهمْ مَنْ يكفُّ نفسَهُ في الابتداءِ ولٰكنْ يحقِدُ على الدوامِ .

والناسُ في الغضبِ أربعةٌ : فبعضُهُمْ كالحَلْفاءِ ، سريعُ الوقودِ سريعُ الخمودِ ، وبعضُهُم كالغضا ، بطيءُ الوقودِ بطيءُ الخمودِ ، وبعضُهُمْ بطيءُ الوقودِ سريعُ الخمودِ ، وهوَ الأحمدُ ، ما لمْ ينتهِ إلىٰ فتورِ الحميَّةِ والغَيْرةِ ، وبعضُهُمْ سريعُ الوقودِ بطيءُ الخمودِ ، وهٰذا هوَ شرُّهمْ .

---

(١) رواه مسلم (٢٤٤٢) ، قال الإمام النووي في « شرح صحيح مسلم » (١٤٠/١٦) : (معناه : أن إثم السباب الواقع من اثنين مختص بالبادئ منهما كله ؛ إلا أن يتجاوز الثاني قدر الانتصار ، فيقول للبادئ أكثر مما قال له ، وفي هٰذا جواز الانتصار ولا خلاف في جوازه) .

وفي الخبرِ : « المؤمنُ سريعُ الغضبِ سريعُ الرِّضا ، فهٰذهِ بتلكَ »[1] .

وقالَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ : (منِ استُغضِبَ فلمْ يغضبْ . . فهوَ حمارٌ ، ومَنِ استُرضيَ فلمْ يرضَ . . فهوَ شيطانٌ)[2] .

وقدْ قالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا إنَّ بني آدمَ خُلقُوا علىٰ طبقاتٍ شتَّىٰ ، فمنهُمْ بطيءُ الغضبِ سريعُ الفيءِ ، ومنهُمْ سريعُ الغضبِ سريعُ الفيءِ ، فتلكَ بتلكَ ، ومنهُمْ سريعُ الغضبِ بطيءُ الفيءِ ، ألا وإنَّ خيرَهُمُ البطيءُ الغضبِ السَّريعُ الفيءِ ، وشرَّهُمُ السَّريعُ الغضبِ البطيءُ الفيءِ »[3] .

ولمَّا كانَ الغضبُ في الحالِ يهيِّجُ ويؤثِّرُ في كلِّ إنسانٍ . . وجبَ على السلطانِ ألَّا يعاقبَ أحداً في حالِ غضبِهِ ؛ لأنَّهُ ربَّما يتعدَّى الواجبَ ، ولأنَّهُ ربَّما يكونُ مُشْفياً غيظَهُ ، ومريحاً نفسَهُ منْ ألمِ الغيظِ ؛ فيكونُ صاحبَ حظٍّ فيهِ ؛ فينبغي أنْ يكونَ انتقامُهُ وانتصارُهُ للهِ تعالىٰ لا لنفسِهِ .

ورأىٰ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ سكرانَ ، فأرادَ أنْ يأخذَهُ ويعزِّرَهُ ، فشتمَهُ

---

(١) نسب الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢٣٢/٦) لفظه لصاحب « القوت » وزاد : (فهٰذه بهٰذه) ، وروىٰ نحوه الترمذي (٢١٩١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه كما سيأتي قريباً .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٤٣/٩) .

(٣) رواه الترمذي (٢١٩١) .

السكرانُ ، فرجعَ عمرُ ، فقيلَ لهُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ لمَّا شتمَكَ .. تركتَهُ !! قالَ : لأنَّهُ أغضبَني ، ولوْ عزَّرتُهُ .. لكانَ ذٰلكَ لغضبِي لنفسِي ، ولمْ أحبَّ أنْ أضربَ مسلماً حميَّةً لنفسِي [1] .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ لرجلٍ أغضبَهُ : (لولا أنَّكَ أَغضبتَني .. لعاقَبتُكَ) [2] .

* * *

(١) أخرجه الإسماعيلي في « مناقب عمر » . « إتحاف » (٨/٣٧) ، وتقدم قوله رضي الله عنه : (من اتقى الله .. لم يشف غيظه) .

(٢) نسبه الحافظ الزبيدي لأبي نعيم في « الحلية » . انظر « الإتحاف » (٨/٣٧) .

القول في معنى الحقد ونتائجه ، وفضيلة العفو والرّفق

اعلمْ : أنَّ الغضبَ إذا لزمَ كظمُهُ لعجزٍ عنِ التشفِّي في الحالِ . . رجعَ إلى الباطنِ واحتقنَ فيهِ ، فصارَ حقداً .

ومعنى الحقدِ : أنْ يلزمَ قلبَهُ استثقالُهُ والبغضةُ لهُ والنفارُ منهُ ، وأنْ يدومَ ذٰلكَ ويبقىٰ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ ليسَ بحقودٍ »(١) ، فالحقدُ ثمرةُ الغضبِ .

❁ ❁ ❁

والحقدُ يثمرُ ثمانيةَ أمورٍ :

الأولُ : الحسدُ ، وهوَ أنْ يحملَكَ الحقدُ علىٰ أنْ تتمنَّىٰ زوالَ النعمةِ عنهُ ، فتغتمَّ بنعمةٍ إنْ أصابَها ، وتُسرَّ بمصيبةٍ إنْ نزلَتْ بهِ ، وهٰذا مِنْ فعلِ المنافقينَ ؛ أعني : الحسدَ ، وسيأتي ذمُّهُ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

الثاني : أنْ تزيدَ علىٰ إضمارِ الحسدِ في الباطنِ ، فتشمَتَ بما يصيبُهُ مِنَ البلاءِ .

الثالثُ : أنْ تهجرَهُ وتصارِمَهُ وتنقطعَ عنهُ وإنْ طلبَكَ وأقبلَ عليكَ .

---

(١) وقد روى النسائي (٦/١١) : « ولا يجتمعان في قلب عبدٍ الإيمانُ والحسدُ » ، وقوله : « يجتمعان » علىٰ لغةٍ أو حذفٍ ، وأما الحديث بلفظ المؤلف « المؤمن ليس بحقود » . . فانظر « كشف الخفاء » (٢/٢٩٣) .

الرابعُ : ـ وهوَ دونَهُ ـ : أنْ تعرِضَ عنهُ استصغاراً لهُ .

الخامسُ : أنْ تتكلَّمَ فيهِ بما لا يحلُّ ؛ مِنْ كذبٍ ، وغيبةٍ ، وإفشاءِ سرٍّ ، وهتكِ سترٍ ، وغيرِهِ .

السادسُ : أنْ تحاكيَهُ استهزاءً بهِ وسخريةً منهُ .

السابعُ : إيذاؤُهُ بالضربِ وما يؤلمُ بدنَهُ .

الثامنُ : أنْ تمنعَهُ حقَّهُ ؛ مِنْ صلةِ رحمٍ ، أوْ قضاءِ دَينٍ ، أوْ ردِّ مظلمةٍ ، وكلُّ ذٰلكَ حرامٌ .

***

وأقلُّ درجاتِ الحقدِ :

أنْ تحترزَ مِنَ الآفاتِ الثمانيةِ المذكورةِ ، ولا تخرجَ بسببِ الحقدِ إلىٰ ما تعصي اللهَ بهِ ، ولٰكنْ تستثقلُهُ في الباطنِ ، ولا تنهىٰ قلبَكَ عنْ بغضِهِ ، حتَّىٰ تمتنعَ عمَّا كنتَ تتطوعُ بهِ مِنَ البشاشةِ ، والرفقِ ، والعنايةِ ، والقيامِ بحاجاتِهِ ، والمجالسةِ معَهُ علىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، والمعاونةِ على المنفعةِ لهُ ، أوْ تتركَ الدعاءَ لهُ ، والثناءَ عليهِ ، أوِ التحريضَ علىٰ برِّهِ ومواساتِهِ ، فهٰذا كلُّهُ ممَّا ينقصُ درجتَكَ في الدينِ ، ويحولُ بينَكَ وبينَ فضلٍ عظيمٍ وثوابٍ جزيلٍ ، وإنْ كانَ لا يعرِّضُكَ لعقابِ اللهِ .

ولـمَّا حلفَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ ألَّا ينفقَ علىٰ مِسْطحٍ ـ وكانَ قريبَهُ ـ لما تكلَّمَ في واقعةِ الإفكِ . . نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا

ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ (١) فقالَ أبو بكرٍ : بلىٰ ، نحبُّ ذٰلكَ ، وعادَ إلى الإنفاقِ عليهِ (٢) .

والأولىٰ أنْ يبقىٰ علىٰ ما كانَ عليهِ ، فإنْ أمكنَهُ أنْ يزيدَ في الإحسانِ مجاهدةً للنفسِ وإرغاماً للشيطانِ . . فذٰلكَ هوَ مقامُ الصدِّيقينَ ، وهوَ مِنْ فضائلِ أعمالِ المقرَّبينَ .

فللمحقودِ ثلاثةُ أحوالٍ عندَ القدرةِ :

أحدُها : أنْ يستوفيَ حقَّهُ الذي يستحقُّهُ مِنْ غيرِ زيادةٍ ونقصانٍ ، وهوَ العدلُ .

والثاني : أنْ يحسنَ إليهِ بالعفوِ والصلةِ ، وذٰلكَ هوَ الفضلُ .

والثالثُ : أنْ يظلمَهُ بما لا يستحقُّهُ ، وذٰلكَ هوَ الجورُ ، وهوَ اختيارُ الأراذلِ ، والثاني هوَ اختيارُ الصدِّيقينَ ، والأولُ هوَ منتهىٰ درجاتِ الصالحينَ ، ولنذكرِ الآنَ فضيلةَ العفوِ والإحسانِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) سورة النور : (٢٢) .

(٢) رواه البخاري (٢٦٦١) ، ومسلم (٢٧٧٠) ضمن حديث البراءة المشهور .

فضيلة العفو والإحسان

اعلمْ : أنَّ معنى العفوِ أنْ تستحقَّ حقّاً ، فتسقطَهُ وتبرئَ عنهُ ؛ مِنْ قصاصٍ أوْ غرامةٍ ، وهوَ غيرُ الحلمِ وكظمِ الغيظِ ؛ فلذٰلكَ أفردناهُ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ . . . ﴾ الآيةَ[1] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[2] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ ـ والَّذي نفسِي بيدِهِ ـ إنْ كنتُ لحالفاً عليهنَّ : ما نقصَتْ صدقةٌ مِنْ مالٍ ؛ فتصدَّقُوا ، ولا عفا رجلٌ عنْ مظلمةٍ يبتغي بها وجهَ اللهِ إلَّا زادَهُ اللهُ بها عزّاً يومَ القيامةِ ، ولا فتحَ رجلٌ علىٰ نفسِهِ بابَ مسألةٍ إلَّا فتحَ اللهُ عليهِ بابَ فقرٍ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « التَّواضعُ لا يزيدُ العبدَ إلا رفعةً ، فتواضعُوا . . يرفعْكُمُ اللهُ ، والعفوُ لا يزيدُ العبدَ إلَّا عزّاً ، فاعفُوا . . يعزَّكمُ اللهُ ، والصَّدقةُ لا تزيدُ المالَ إلَّا كثرةً ، فتصدَّقوا . . يرحمْكُمُ اللهُ »[4] .

---

(١) سورة الأعراف : (١٩٩) .

(٢) سورة البقرة : (٢٣٧) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (١/١٩٣) من حديث عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه ، والترمذي (٢٣٢٥) من حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه ، وبنحوه هو عند مسلم (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » من حديث محمد بن عمير العبدي ، وقال ←

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (ما رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ منتصراً مِنْ مظلمةٍ ظُلِمَها قطُّ ما لَمْ تُنتهَكْ حرمةٌ مِنْ محارمِ اللهِ ، فإذا انتُهِكَ مِنْ محارمِ اللهِ شيءٌ . . كانَ أشدَّهُمْ في ذٰلكَ غضباً ، وما خُيِّرَ بينَ أمرينِ إلَّا اختارَ أيسرَهُما ما لَمْ يكنْ مأثماً)[1] .

وقالَ عقبةُ بنُ عامرٍ : لقيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً ، فبدرتُهُ فأخذتُ بيدِهِ ، أوْ بدرَني فأخذَ بيدي ، فقالَ : « يا عقبةُ ؛ ألا أخبرُكَ بأفضلِ أخلاقِ أهلِ الدُّنيا والآخرةِ ؟ تصلُ مَنْ قطعَكَ ، وتعطي مَنْ حرمَكَ ، وتعفو عمَّنْ ظلمَكَ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ موسىٰ عليهِ السَّلامُ : يا ربِّ ؛ أيُّ عبادِكَ أعزُّ عليكَ ؟ قالَ : الذي إذا قدَرَ . . عفا »[3] .

وكذٰلكَ سُئلَ أبو الدرداءِ : مَنْ أعزُّ الناسِ ؟ قالَ : الذي يعفو إذا قدرَ ؛ فاعفُوا . . يعزَّكُمُ اللهُ[4] .

وجاءَ رجلٌ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يشكو مظلمةً ، فأمرَهُ

← العراقي : رواه أبو الشيخ الأصبهاني في « الترغيب والترهيب » ، والديلمي في « مسند الفردوس » من حديث أنس بسند ضعيف . « إتحاف » (٨/٣٩) .

(١) رواه الترمذي في « الشمائل المحمدية » (٣٤٩) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (١٩) ، والطبراني في « الكبير » (١٧/٢٦٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/١٦١) .

(٣) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٣٦٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦١/١٣٤) .

(٤) تقدم قريباً في المرفوع .

النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يجلسَ ، وأرادَ أن يأخذَ لهُ بمظلمتِهِ ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ المظلومينَ همُ المفلحونَ يومَ القيامةِ » ، فأبىٰ أن يأخذَها حينَ سمعَ الحديثَ [1] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ دعا علىٰ مَنْ ظلمَهُ . . فقدِ انتصرَ » [2] .

وعنْ أنسٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا بعثَ اللهُ الخلائقَ يومَ القيامةِ . . نادىٰ منادٍ مِنْ تحتِ العرشِ ثلاثةَ أصواتٍ : يا معشرَ الموحِّدينَ ؛ إنَّ اللهَ قدْ عفا عنكُمْ ، فليعْفُ بعضُكُمْ عنْ بعضٍ » [3] .

وعنْ أبي هريرةَ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا فتحَ مكةَ . . طافَ بالبيتِ ، وصلَّىٰ ركعتينِ ، ثمَّ أتى الكعبةَ ، فأخذَ بعضادتيِ البابِ فقالَ : « ما تقُولونَ ؟ وما تظنُّونَ ؟ » فقالُوا : نقولُ : أخٌ وابنُ عمٍّ حليمٌ رحيمٌ ، قالُوا ذٰلكَ ثلاثاً ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » عن أبي صالح الحنفي مرسلاً) . « إتحاف » (٨/ ٤٠) ، وزاد أن ابن أبي الدنيا رواه أيضاً في « ذم الغضب » ، وكذا أرسله سفيان الثوري كما في « الحلية » (٧/ ٦٩) .

(٢) رواه الترمذي (٣٥٥٢) .

(٣) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٧٢٤٢) ، والطبراني في « الأوسط » (١٣٥٨) عن أم هانئ أخت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، ورواه ابن عدي في « الكامل » (٧/ ٤٩) من حديث أنس رضي الله عنه ، وأشار المتقي الهندي في « كنز العمال » (٢٩٢) إلىٰ روايته عن ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » بلفظ المصنف .

وسلَّمَ : « أقولُ كما قالَ يوسفُ : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [1] » ، قالَ : فخرجُوا كأنَّما نُشرُوا مِنَ القبورِ ، فدخلُوا في الإسلامِ [2] .

وعنْ سهيلِ بنِ عمرٍو قالَ : لمَّا قدِمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مكَّةَ . . وضعَ يديهِ علىٰ بابَيِ الكعبةِ والناسُ حولَهُ ، فقالَ : « لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، صدقَ وعدَهُ ، ونصرَ عبدَهُ ، وهزَمَ الأحزابَ وحدَهُ » ، ثمَّ قالَ : « يا معشرَ قريشٍ ؛ ما تقولُونَ ؟ وما تظنُّونَ ؟ » قالَ : قلْتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ نقولُ خيراً ، ونظنُّ خيراً ؛ أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريمٍ ، وقدْ قدَرْتَ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أقولُ كما قالَ أخي يوسفُ : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ » [3] .

وعنْ أنسٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا وقفَ العبادُ . . نادىٰ منادٍ : ليقمْ مَنْ أجرُهُ على اللهِ فليدخلِ الجنةَ ، قيلَ : ومَنْ ذا الذي أجرُهُ على اللهِ ؟ قالَ : العافُونَ عنِ النَّاسِ ، فقامَ كذا وكذا ألفاً ، فدَخلُوها بغيرِ حسابٍ » [4] .

---

(١) سورة يوسف ﷺ : (٩٢) .

(٢) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١٢٣٤) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » (٥٧/٥) واللفظ له .

(٣) سورة يوسف ﷺ : (٩٢) ، والحديث رواه الواقدي في « مغازيه » (٨٣٥/٢) ، ورواه مرسلاً القاسم بن سلام في « الأموال » (٣٢٢) ، ورواه ابن زنجويه في « الأموال » (٤٥٦) موصولاً ، وعنده ذكر سهيل بن عمرو رضي الله عنه .

(٤) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٠١٩) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (١٨٧/٦) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا ينبغي لوالي أمرٍ أنْ يُؤتىٰ بحدٍّ إلا أقامَهُ ، واللهُ عفوٌّ يحبُّ العفوَ » ، ثمَّ قرأَ : ﴿ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْ . . . ﴾ الآيةَ [1] .

وقالَ جابرٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مَنْ جاءَ بهنَّ معَ إيمانٍ . . دخلَ مِنْ أيِّ أبوابِ الجنةِ شاءَ ، وزُوِّجَ مِنَ الحورِ العينِ حيثُ شاءَ ؛ مَنْ أدَّىٰ ديْناً خفيّاً ، وقرأَ في دُبرِ كلِّ صلاةٍ (قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) عشرَ مراتٍ ، وعفا عنْ قاتلِهِ » ، فقالَ أبو بكرٍ : أَوْ إحداهُنَّ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « أَوْ إحداهنَّ » [2] .

❁ ❁ ❁

الآثارُ :

قالَ إبراهيمُ التيميُّ : (إنَّ الرجلَ ليظلمُني فأرحمُهُ) [3] .

وهٰذا إحسانٌ وراءَ العفوِ ؛ لأنَّهُ يشتغلُ قلبُهُ بتعرُّضِهِ لمعصيةِ اللهِ تعالىٰ بالظُّلمِ ، وأنَّهُ يطالَبُ يومَ القيامةِ فلا يكونُ لهُ جوابٌ .

وقالَ بعضُهمْ : (إذا أرادَ اللهُ أنْ يتحِفَ عبداً . . قيضَ لهُ مَنْ يظلِمُهُ) [4] .

---

(١) سورة النور : (٢٢) ، وهو جزء من خبر رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١٣٥١٩) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٤٤) ، والطبراني في « الكبير » (١٠٩/٩) .

(٢) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (١٧٩٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٣٣٨٥) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٥٥٢/٢) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢١٣/٤) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الإشراف في منازل الأشراف » (٧٩) .

ودخلَ رجلٌ علىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، فجعلَ يشكُو إليهِ رجلاً ظلمَهُ ويقعُ فيهِ ، فقالَ لهُ عمرُ : (إنَّكَ أنْ تلقى اللهَ ومظلمتُكَ كما هيَ خيرٌ لكَ مِنْ أنْ تلقاهُ وقدِ انتقصْتَها)(١) .

وقالَ يزيدُ بنُ ميسرةَ : (إنْ ظَلِلتَ تدعُو علىٰ مَنْ ظلمَكَ . . فإنَّ اللّهَ تعالىٰ يقولُ : إنَّ آخرَ يدعُو عليكَ بأنَّكَ ظلمتَهُ ، فإنْ شئتَ . . استجبنا لكَ واستجبنا عليكَ ، وإنْ شئتَ . . أخَّرتُكما إلىٰ يومِ القيامةِ ، فيسعُكُما عفوي)(٢) .

وقالَ مسلمُ بنُ يسارٍ لرجلٍ دعا علىٰ مَنْ ظلمَهُ : (كِلِ الظالمَ إلىٰ ظلمِهِ ، فإنَّهُ أَسرعُ إليهِ مِنْ دعائِكَ عليهِ ، إلَّا أنْ يتداركَهُ بعملٍ ، وقمِنٌ ألَّا يفعلَ)(٣) .

وعنِ ابنِ عمرَ عنْ أبي بكرٍ أنَّهُ قالَ : (بلغَنا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يأمرُ منادياً يومَ القيامةِ فينادي : مَنْ كانَ لهُ عندَ اللهِ شيءٌ . . فليقُمْ ، فيقومُ أهلُ العفوِ ، فيكافئُهُمُ اللهُ بما كانَ مِنْ عفوِهِمْ عنِ الناسِ)(٤) .

وقالَ هشامُ بنُ محمدٍ : أُتِيَ النعمانُ بنُ المنذرِ برجلينِ ، أحدُهُما قدْ أذنبَ ذنباً عظيماً فعفا عنهُ ، والآخرُ أذنبَ ذنباً صغيراً

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٨٦) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٢٣٩) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٠٧٧) .

(٤) رواه أحمد في « فضائل الصحابة » (٧٠٠) .

فعاقبَهُ ، وقالَ [١] : [من مجزوء الكامل]

تَعْفُو الْمُلُوكُ عَنِ الْعَظِيـ ـمِ مِنَ الذُّنُوبِ بِفَضْلِها
وَلَقَدْ تُعاقِبُ فِي الْيَسِيـ ـرِ وَلَيْسَ ذاكَ لِجَهْلِها
إِلَّا لِيُعْرَفَ حِلْمُها وَتُخافَ شِدَّةُ نَكْلِها

وعنْ مباركِ بنِ فضالةَ قالَ : وفدَ سوارُ بنُ عبدِ اللهِ في وفدٍ مِنْ أهلِ البصرةِ إلىٰ أبي جعفرٍ ، فكنْتُ عندَهُ ؛ إذْ أُتِيَ برجلٍ فأمرَ بقتلِهِ ، فقلتُ : يُقتَلُ رجلٌ مِنَ المسلمينَ وأنا حاضرٌ ؟! فقلتُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ ألا أحدِّثُكَ حديثاً سمعتُهُ مِنَ الحسنِ ؟ قالَ : وما هُوَ ؟ قلتُ : سمعتُهُ يقولُ : إذا كانَ يومُ القيامةِ . . جمعَ اللهُ عزَّ وجلَّ الناسَ في صعيدٍ واحدٍ ؛ حيثُ يسمعُهُمُ الداعي ، وينفذُهُمُ البصرُ ، فيقومُ منادٍ فيقولُ : مَنْ لهُ عندَ اللهِ يدٌ . . فليقُمْ ، فلا يقومُ إلَّا مَنْ عفا ، فقالَ : واللهِ ؛ لسمعتَهُ مِنَ الحسنِ ؟ فقلتُ : واللهِ ؛ لسمعتُهُ منهُ ، فقالَ : خلَّينا عنهُ [٢] .

وقالَ معاويةُ : (عليكُمْ بالحلمِ والاحتمالِ حتَّىٰ تمكنَكُمُ الفرصةُ ، فإذا أمكنَتْكُمْ . . فعليكُمْ بالصفحِ والإفضالِ) [٣] .

ورُوِيَ أنَّ راهباً دخلَ علىٰ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ ، فقالَ للراهبِ :

---

(١) انظر « عيون الأخبار » (١/١٠٠) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص ١٣٤) ، و« التذكرة الحمدونية » (١/٣١٢) .

(٢) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/٢١٣) .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٨/٤٣) .

أرأيتَ ذا القرنينِ أكانَ نبياً ؟ قالَ : لا ، ولٰكنَّهُ إنَّما أُعطيَ ما أُعطيَ بأربعِ خصالٍ كنَّ فيهِ ؛ كانَ إذا قدرَ . . عفا ، وإذا وعدَ . . وفَّىٰ ، وإذا حدَّثَ . . صدقَ ، ولا يجمعُ شغلَ اليومِ لغدٍ (١) .

وقالَ بعضُهُمْ : (ليسَ الحليمُ مَنْ ظُلِمَ فحلمَ ، حتَّىٰ إذا قدَرَ . . انتقمَ ، ولٰكنَّ الحليمَ مَنْ ظُلِمَ فحلمَ ، ثم قدَرَ فعفا) (٢) .

وقالَ زيادٌ : (القدرةُ تذهِبُ الحفيظةَ) (٣) يعني : الحقدَ والغضبَ .

وأُتـيَ هشامٌ برجلٍ بلغَهُ عنهُ أمرٌ ، فلما أُقيـمَ بينَ يديهِ . . جعلَ يتكلَّم بحجتِهِ ، فقالَ لهُ هشامٌ : وتتكلَّمُ أيضاً ؟! فقالَ الرجلُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ قـالَ اللهُ عـزَّ وجـلَّ : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ (٤) أفنجادلُ اللهَ تعالىٰ ولا نتكلَّمُ بينَ يديكَ كلاماً ؟! قالَ هشامٌ : بلىٰ ويحَكَ ، فتكلَّمْ (٥) .

ورُويَ أنَّ سارقاً دخلَ خباءَ عمارِ بنِ ياسرٍ بصفينَ ، فقيلَ لهُ : اقطعْهُ فإنَّهُ مِنْ أعدائِنا ، فقالَ : بلْ أسترُ عليهِ ، لعلَّ اللهَ أنْ يسترَ عليَّ يومَ القيامةِ .

وجلسَ ابنُ مسعودٍ في السوقِ يبتاعُ متاعاً ، فابتاعَ ، ثـمَّ طلبَ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٨/٤٣) .
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٨/٤٣) .
(٣) أورده البلاذري في « أنساب الأشراف » (٥/٢٠٥) لزياد بن أبيه .
(٤) سورة النحل : (١١١) .
(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٨/٢١٢) .

الدراهمَ وكانَتْ في عمامتِهِ ، فوجدَها قدْ حُلَّتْ ، فقالَ : لقَدْ جلستُ وإنَّها لمعي ، فجعلوا يدعونَ علىٰ مَنْ أخذَها : اللهمَّ ؛ اقطعْ يدَ السارقِ الذي أخذَها ، اللهمَّ ؛ افعلْ بِهِ كذا ، فقالَ عبدُ اللهِ : اللهمَّ ؛ إنْ كانَ حملَهُ علىٰ أخذِها حاجةٌ . . فبارِكْ لهُ فيها ، وإنْ كانَ حملَهُ جراءةٌ على الذنبِ . . فاجعلْهُ آخرَ ذنوبِهِ (١) .

وقالَ الفضيلُ : ما رأيتُ أزهدَ مِنْ رجلٍ مِنْ أهلِ خراسانَ ، جلسَ إليَّ في المسجدِ الحرامِ ، ثمَّ قامَ ليطوفَ ، فسُرقَتْ دنانيرُ كانَتْ معَهُ ، فجعلَ يبكي ، فقلتُ : أعلى الدنانيرِ تبكي ؟ قالَ : لا ، ولٰكنْ مثَّلْتُني وإيَّاهُ بينَ يديِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فأشرفَ عقلي علىٰ إدحاضِ حجتِهِ ، فبكائي رحمةٌ لهُ (٢) .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : أتينا منزلَ الحكمِ بنِ أيوبَ ليلاً وهوَ على البصرةِ أميرٌ ، وجاءَ الحسنُ وهوَ خائفٌ ، فدخلنا عليهِ ومعنا الحسنُ ، فما كنَّا معه إلا بمنزلةِ الفراريجِ .

فذكرَ الحسنُ قصةَ يوسفَ عليهِ السلامُ ، وما صنعَ بهِ إخوتُهُ مِنْ بيعِهِمْ إيَّاهُ ، وطرحِهِمْ لهُ في الجبِّ ، فقالَ : باعُوا أخاهُمْ وأحزنُوا أباهُمْ ، وذكرَ ما لقيَ مِنْ كيدِ النساءِ ، ومِنَ الحبسِ ، ثمَّ قالَ : أيُّها الأميرُ ؛ ماذا صنعَ اللهُ بهِ ؟ أدالَهُ منهُمْ ، ورفعَ ذكرَهُ ، وأعلىٰ كعبَهُ ، وجعلَهُ علىٰ خزائنِ الأرضِ ، فماذا صنعَ حينَ أكملَ لهُ أمرَهُ ، وجمعَ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٨/٤٣) .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٨/٤٤) .

لهُ أهلَهُ ؟ قالَ : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[١] ، يعرِّضُ للحَكَمِ بالعفوِ عنْ أصحابِهِ .

فقالَ الحكمُ : فأنا أقولُ : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾[٢] ، ولوْ لمْ أجِدْ إلا ثوبي . . لواريتُكُمْ تحتَهُ[٣] .

وكتبَ ابنُ المقفَّعِ إلىٰ صديقٍ لهُ يسألُهُ العفوَ عَنْ بعضِ إخوانِهِ : (فلانٌ هاربٌ مِنْ زلَّتِهِ إلىٰ عفوكَ ، لائذٌ منكَ بكَ ، واعلمْ أنَّهُ لنْ يزدادَ الذنبُ عظماً إلَّا ازدادَ العفوُ فضلاً)[٤] .

وأُتِيَ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ بأُسارى ابنِ الأشعثِ ، فقالَ لرجاءِ بنِ حيوةَ : ما ترىٰ ؟ قال : إنَّ اللهَ قدْ أعطاكَ ما تحبُّ مِنَ الظفرِ ، فأعطِ اللهَ ما يحبُّ مِنَ العفوِ ، فعفا عنهُمْ[٥] .

ورُوِيَ أنَّ زياداً أخذَ رجلاً مِنَ الخوارجِ فأفلَتَ منْهُ ، فأخذَ أخاً لهُ ، فقالَ : إنْ جئتَ بأخيكَ وإلَّا . . ضربتُ عنقَكَ .

فقالَ : أرأيتَ إنْ جئتُكَ بكتابٍ مِنْ أميرِ المؤمنينَ . . تخلِّي سبيلي ؟

قالَ : نعمْ ، قالَ : فأنا آتيكَ بكتابٍ مِنَ العزيزِ الحكيمِ ، وأقيمُ عليهِ

---

(١) سورة يوسف ﷺ : (٩٢) .
(٢) سورة يوسف ﷺ : (٩٢) .
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٨/٤٤) .
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٨/٤٤) .
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٨/٤٥) .

شاهدينِ إبراهيمَ وموسىٰ ، ثمَّ تلا : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [1] فقالَ زيادٌ : خلوا سبيلَهُ ، هٰذا رجلٌ قدْ لُقِّنَ حجَّتَهُ [2] .

وقيلَ : مكتوبٌ في الإنجيلِ : (مَنِ استغفرَ لِمنْ ظلمَهُ . . فقدْ هزمَ الشيطانَ) [3] .

❊ ❊ ❊

---

(١) سورة النجم : (٣٦ ـ ٣٨) .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٨/٤٥) .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٨/٤٥) .

فضيلة الرّفق

اعلمْ : أنَّ الرفقَ محمودٌ ، ويضادُّهُ العنفُ والحدَّةُ ، والعنفُ نتيجةُ الغضبِ والفظاظةِ ، والرفقُ واللينُ نتيجةُ حسنِ الخُلُقِ والسلامةِ ، وقدْ يكونُ سببُ الحِدَّةِ الغضبَ ، وقدْ يكونُ سببُها شدةَ الحرصِ واستيلاءَهُ ، بحيثُ يدهشُ عنِ التفكرِ ، ويمنعُ مِنَ التثبُّتِ .

فالرفقُ في الأمورِ ثمرةٌ لا يثمرُها إلا حسنُ الخلُقِ ، ولا يحْسُنُ الخلُقُ إلا بضبطِ قوَّةِ الغضبِ وقوَّةِ الشهوةِ ، وحفظِهما علىٰ حدِّ الاعتدالِ ؛ ولأجلِ هٰذا أثنىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على الرفقِ وبالغَ فيهِ ، فقالَ : « يا عائشةُ ؛ إنَّهُ مَنْ أُعْطيَ حظَّهُ مِنَ الرِّفقِ . . فقدْ أُعطيَ حظَّهُ مِنْ خيرِ الدُّنيا والآخرةِ ، ومَنْ حُرِمَ حظَّهُ مِنَ الرِّفقِ . . فقدْ حُرِمَ حظَّهُ مِنْ خيرِ الدُّنيا والآخرةِ » [١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أحبَّ اللهُ أهلَ بيتٍ . . أدخلَ عليهِمُ الرِّفقَ » [٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ ليُعطِي على الرفْقِ ما لا

---

(١) رواه بتمامه أبو نعيم في « الحلية » (٩/١٥٩) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٤٤٤) ، وأشار إليه الترمذي (٢٠١٣) وقد رواه عن أم الدرداء رضي الله عنها ، وعند البخاري (٦٠٢٤) ، ومسلم (٢١٦٥) من حديثها رضي الله عنها : « مهلاً يا عائشة ؛ إن الله يحب الرفق في الأمر كله » .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٦/٧١) ، والبيهقي في « الشعب » (٦١٤٠) .

يُعطي على الخُرْقِ ، وإذا أحبَّ اللهُ عبداً . . أعطاهُ الرِّفقَ ، وما مِنْ أهلِ بيتٍ يُحرمونَ الرِّفقَ إلَّا قدْ حُرِمُوا »[١] .

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ رفيقٌ يحبُّ الرفقَ ، ويُعطِي عليه ما لا يُعطِي على العُنفِ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا عائشةُ ؛ ارفقي ، فإنَّ اللهَ إذا أرادَ بأهلِ بيتٍ كرامةً . . دلَّهمْ علىٰ بابِ الرِّفقِ »[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ يُحرَمِ الرِّفقَ . . يُحرَمِ الخيرَ كلَّهُ »[٤] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أيُّما والٍ وليَ فَلانَ ورفقَ . . رفقَ اللهَ تعالىٰ بهِ يومَ القيامةِ »[٥] .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٣٠٦/٢) ، **والخرق** ـ بضمة وبضمتين ـ : ضد الرفق ، وبفتحتين هو الدهش من الخوف والحياء ، وفي « الإتحاف » (٤٦/٨) : (الخرق بالضم : اسم من خرق كتعب ؛ إذا عمل شيئاً فلم يرفق فيه ، فهو أخرق وهي خرقاء) ، وفي (ب) : (إلا حرموا محبة الله تعالىٰ) .

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٣) .

(٣) رواه أحمد في « مسنده » (١٠٤/٦) ، وهو بنحوه عند أبي داوود (٤٨٠٨) ولفظه : « يا عائشة ؛ ارفقي ، فإن الرفق لم يكن في شيء قط إلا زانه ، ولا نزع من شيء قط إلا شانه » .

(٤) رواه مسلم (٢٥٩٢) ، وقوله : (كله) عند أبي داوود (٤٨٠٩) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » من حديث عائشة رضي الله عنها . « إتحاف » (٤٧/٨) ، وعند مسلم (١٨٢٨) من دعائه صلى الله عليه وسلم : « اللهم من ولي من ←

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تدرونَ مَنْ يُحرَّمُ على النارِ يومَ القيامةِ ؟ كلُّ هيِّنٍ ليِّنٍ سهلٍ قريبٍ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الرِّفقُ يُمنٌ والخُرْقُ شؤْمٌ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « التأنِّي مِنَ اللهِ ، والعجلةُ مِنَ الشيطانِ »[3] .

ورُوِي أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أتاهُ رجلٌ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ اللهَ قدْ باركَ لجميعِ المسلمينَ فيكَ ، فاخصصْني منكَ بخيرٍ ، فقالَ : « الحمدُ للهِ » مرتينِ أوْ ثلاثاً ، ثمَّ أقبلَ عليهِ فقالَ : « هلْ أنتَ مستوصٍ ؟ » مرتينِ أوْ ثلاثاً ، قالَ : نعمْ ، قالَ : « إذا أردتَ أمراً . . فتدبَّرْ عاقبتَهُ ، فإنْ كانَ رشداً . . فأمْضِهِ ، وإنْ كانَ سوىٰ ذٰلكَ . . فانْتهِ عنْهُ »[4] .

← أمر أمتي شيئاً فشقَّ عليهم . . فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم . . فارفق به » .

(١) رواه الترمذي (٢٤٨٨) ، وأحمد في « المسند » (١/٤١٥) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/٣٥٢) .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٤٠٩٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣٢٦) .

(٣) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٢٥٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٠٥٨) ، وتقدم بلفظ : « الأناة من الله . . . » .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤١) عن عبد الله بن مسور أبي جعفر مرسلاً ، ورواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/٣٥٩) عن أبي جعفر عن عبد الله بن مسعود قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل أنت مستوص إن أوصيتك ؟ » قلت : نعم ، قال : « إذا هممت بأمر . . فتدبر عاقبته ؛ فإن كان رشداً . . فأمضه ، وإن كان غيّاً . . فانتهِ » .

وعنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها : أنَّها كانَتْ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في سفرٍ على بعيرٍ صعبٍ ، فجعلَتْ تصرفُهُ يميناً وشمالاً ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا عائشةُ ؛ عليكِ بالرِّفقِ ؛ فإنَّهُ لا يدخلُ في شيءٍ إلَّا زانَهُ ، ولا يُنْزَعُ من شيءٍ إلَّا شانَهُ »(١) .

***

الآثارُ :

بلغَ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ جماعةً منْ رعيَّتِهِ اشتكَوا مِنْ عمَّالِهِ ، فأمرَهُمْ أنْ يوافُوهُ ، فلما أتَوْهُ . . قامَ فحمدَ اللهَ وأثنىٰ عليهِ ، ثمَّ قالَ : (أيَّتُها الرَّعيَّةُ ؛ إنَّ لنا عليكُمْ حقاً ، النصيحةُ بالغيبِ ، والمعاونةُ على الخيرِ ، أيَّتُها الرُّعاةُ ؛ إنَّ للرعيَّةِ عليكُمْ حقّاً ، واعلموا أنَّه لا حلمَ أحبُّ إلى اللهِ ولا أعمُّ مِنْ حلمِ إمامٍ ورفقِهِ ، وليسَ جهلٌ أبغضَ إلى اللهِ ولا أغمَّ مِنْ جهلِ إمامٍ وخُرْقِهِ ، واعلمُوا أنَّهُ من يأخذْ بالعافيةِ فيمَنْ بينَ ظهريهِ . . يرزقِ العافيةَ ممَّنْ هوَ دونَهُ)(٢) .

وقالَ وهبُ بنُ منبِّهٍ : (الرفقُ بُنَيُّ الحلمِ)(٣) .

وفي الخبرِ موقوفاً ومرفوعاً : « العلمُ خليلُ المؤمنِ ، والحلمُ

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٤) .

(٢) رواه هناد في « الزهد » (١٢٨١) بنحوه ، وابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٤٨) .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٤٨) ، وبُنَيُّ : تصغير ابن ؛ أي : ثمرته ونتيجته ، كذا في « الإتحاف » ، وعنده في « تاج العروس » (ب ن ي) : (الرفق بنيُّ الحلم ؛ أي : مثله) أي : يحاكيه في البناء .

وزيرُهُ ، والعقلُ دليلُهُ ، والعملُ قيِّمُهُ ، والرِّفقُ والدُهُ ، واللِّينُ أخوهُ ، والصبرُ أميرُ جنودِهِ »[(١)] .

وقالَ بعضُهمْ : (ما أحسنَ الإيمانَ يزينُهُ العلمُ !! وما أحسنَ العلمَ يزينُهُ العملُ !! وما أحسنَ العملَ يزينُهُ الرفقُ !! وما أضيفَ شيءٌ إلىٰ شيءٍ مثلَ حلمٍ إلىٰ علمٍ)[(٢)] .

وقالَ عمرُو بنُ العاصِ لابنِهِ عبدِ اللهِ : ما الرِّفقُ ؟ قالَ : أن تكونَ ذا أناةٍ وتلاينَ الولاةَ ، قالَ : فما الخُرْقُ ؟ قالَ : معاداةُ إمامِكَ ، ومناوأةُ مَنْ يقدِرُ علىٰ ضررِكَ[(٣)] .

وقالَ سفيانُ لأصحابِهِ : أتدرونَ ما الرفقُ ؟ قالوا : قلْ يا أبا محمدٍ ؛ قالَ : أنْ تضعَ الأمورَ مواضعَها ، الشدَّةَ في موضعِها ، واللينَ في موضعِهِ ، والسيفَ في موضعِهِ ، والسوطَ في موضعِهِ[(٤)] .

وهٰذهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّهُ لا بدَّ مِنْ مزجِ الغلظةِ باللينِ ، والفظاظةِ بالرِّفقِ ؛ كما قيلَ[(٥)] :　[من الطويل]

وَوَضْعُ النَّدَىٰ فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلا　مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَىٰ

---

(١) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٥٢ ، ١٥٣) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٤١٩٥) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٣٦) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٤٩) .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » ، وسفيان هو ابن عيينة . « إتحاف » (٨/٤٩) .

(٥) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (١/٢٨٨) .

فالمحمودُ وسطٌ بينَ اللينِ والعنفِ ؛ كما في سائرِ الأخلاقِ ، ولٰكنْ لمَّا كانَتِ الطِّباعُ إلى الحدَّةِ والعنفِ أميلَ . . كانَتِ الحاجةُ إلىٰ ترغيبِهِمْ في جانبِ الرفقِ أكثرَ ، فلذٰلكَ كثُرَ ثناءُ الشرعِ علىٰ جانبِ الرفقِ دونَ العنفِ ، وإنْ كانَ العنفُ في محلِّهِ حسناً ، كما أنَّ الرفقَ في محلِّه حسنٌ ، فإذا كانَ الواجبُ هوَ العنفَ . . فقدْ وافقَ الحقُّ الهوىٰ ، وهوَ ألذُّ مِنَ الزُّبْدِ بالشهدِ ، هٰكذا قالَهُ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ [1] .

رُوِيَ أنَّ عمرَو بنَ العاصِ كتبَ إلىٰ معاويةَ يعاتبُهُ في التأنِّي ، فكتبَ إليهِ معاويةُ :

(أمَّا بعدُ : فإنَّ التفهُّمَ في الخيرِ زيادةٌ ورشَدٌ ، وإنَّ الرشيدَ مَنْ رشدَ عنِ العجلةِ ، وإنَّ الخائبَ مَنْ خابَ عنِ الأناةِ ، وإنَّ المتثبِّتَ مصيبٌ ، أوْ كادَ أنْ يكونَ مصيباً ، وإنَّ المعجِّلَ مخطئٌ ، أوْ كادَ أنْ يكونَ مخطئاً ، وإنَّ مَنْ لا ينفعُهُ الرفقُ . . يضرُّهُ الخُرْقُ ؛ ومَنْ لا تنفعُهُ التجاربُ . . لا يدركُ المعاليَ) [2] .

وعنْ أبي عونٍ الأنصاريِّ قالَ : (ما تكلَّمَ الناسُ بكلمةٍ صعبةٍ إلَّا وإلىٰ جانبِها كلمةٌ ألينُ منها تجري مجراها) [3] .

---

(١) تقدم ، ولفظه : (إذا وافق الحق الهوىٰ . . فهو الزبد بالنَّرسيان) ، وقال الحافظ الزبيدي : (كما أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب ») . « إتحاف » (٨/٤٩) .

(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٢٠٢١٤) .

(٣) رواه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٧١٦) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (١٥١) ، وفي النسخ : (ابن عون) بدل (أبي عون) .

وقالَ أبو حمزةَ الكوفيُّ : (لا تتخذْ مِنَ الخدمِ إلَّا ما لا بدَّ منهُ ، فإنَّ معَ كلِّ إنسانٍ شيطاناً ، واعلمْ أنَّهم لا يعطونَكَ بالشدَّةِ شيئاً إلَّا أعطوكَ باللِّينِ ما هوَ أفضلُ منهُ)[١] .

وقالَ الحسنُ : (المؤمنُ وقَّافٌ متأنٍّ ، وليسَ كحاطبِ ليلٍ)[٢] .

فهٰذا ثناءُ أهلِ العلمِ على الرفقِ ؛ وذٰلكَ لأنَّهُ محمودٌ ومفيدٌ في أكثرِ الأحوالِ وأغلبِ الأمورِ ، والحاجةُ إلى العنفِ قَدْ تقعُ ، ولٰكنْ على الندورِ ، وإنَّما الكاملُ مَنْ يميِّزُ مواقعَ الرفقِ مِنْ مواقعِ العنفِ ، فيعطي كلَّ أمرٍ حقَّهُ ، فإنْ كانَ قاصرَ البصيرةِ ، أوْ أشكلَ عليهِ حكمُ واقعةٍ مِنَ الوقائعِ . . فليكنْ ميلُهُ إلى الرفقِ ؛ فإنَّ النُّجْحَ معهُ في الأكثرِ .

* * *

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٥٠) .

(٢) إذ لا يخوض فيما لا يعنيه ، فإن الذي يجمع الحطب بالليل يوشك أن يلم ما يؤذيه من حية وغيرها يظنه حطباً ، أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٥٠) ، ونحوه عند البيهقي في « الزهد الكبير » (٩٣٠) .

القول في ذمّ الحسد، وفي حقيقته، وأسبابه، ومعالجته وغاية الواجب في إزالته

بيان ذمّ الحسد

اعلمْ : أنَّ الحسدَ أيضاً مِنْ نتائجِ الحقدِ ، والحقدُ مِنْ نتائجِ الغضبِ ، فهوَ فرعُ فرعِ الغضبِ ، والغضبُ أصلُ أصلِهِ .

ثمَّ إنَّ للحسدِ مِنَ الفروعِ الذميمةِ ما لا يكادُ يُحصىٰ ، وقدْ وردَ في ذمِّ الحسدِ خاصةً أخبارٌ كثيرةٌ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحسدُ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في النهيِ عنِ الحسدِ وأسبابِهِ وثمراتِهِ : « لا تحاسدُوا ، ولا تقاطعُوا ، ولا تباغضُوا ، ولا تدابرُوا ، وكونُوا عبادَ اللهِ إخواناً »[2] .

وقالَ أنسٌ : كنَّا يوماً جلوساً عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « يطلُعُ عليكُمُ الآنَ مِنْ هٰذا الفجِّ رجلٌ مِنْ أهلِ الجنَّةِ » ، قالَ : فطلعَ رجلٌ مِنَ الأنصارِ تنطفُ لحيتُهُ مِنْ وضوئِهِ ، قدْ علَّقَ نعليهِ في يدِهِ الشمالِ فسلَّمَ ، فلمَّا كانَ الغدُ . . قالَ صلَّى اللهُ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٩٠٣) ، وابن ماجه (٤٢١٠) .

(٢) رواه البخاري (٦٠٦٥) ، ومسلم (٢٥٥٩) .

عليهِ وسلَّمَ مثلَ ذٰلكَ ، فطلعَ ذٰلكَ الرجلُ ، وقالَهُ في اليومِ الثالثِ ، فطلعَ ذٰلكَ الرجلُ ، فلمَّا قامَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . تبعَهُ عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ العاصِ فقالَ : إنِّي لاحيتُ أبي ، فأقسمْتُ ألَّا أدْخلَ عليهِ ثلاثاً ، فإنْ رأيتَ أنْ تؤوِيَني إليكَ حتَّىٰ تمضيَ الثلاثُ . . فعلتُ ، قالَ : نعمْ ، فباتَ عندَهُ ثلاثَ ليالٍ ، فلمْ يرَهُ يقومُ مِنَ الليلِ شيئاً ، غيرَ أنَّهُ إذا تقلَّبَ علىٰ فراشِهِ . . ذكرَ اللهَ تعالىٰ ، ولمْ يقمْ حتَّىٰ يقومَ لصلاةِ الفجرِ ، قالَ : غيرَ أنِّي لمْ أسمعْهُ يقولُ إلا خيراً ، فلمَّا مضتِ الثلاثُ ، وكدتُ أنْ أحتقرَ عملَهُ . . قلتُ : يا عبدَ اللهِ ؛ لمْ يكنْ بيني وبينَ والدي غضبٌ ولا هجرةٌ ، ولٰكنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ كذا وكذا ، فأردتُ أنْ أعرفَ عملَكَ ، فلمْ أركَ تعملُ عملاً كثيراً ، فما الذي بلغَ بكَ ذاكَ ؟ قالَ : ما هو إلَّا ما رأيتَ ، فلمَّا ولَّيتُ . . دعاني ، فقالَ : ما هوَ إلَّا ما رأيتَ ، غيرَ أنِّي لا أجدُ علىٰ أحدٍ منَ المسلمينَ في نفسِي غشّاً ولا حسداً علىٰ خيرٍ أعطاهُ اللهُ إيَّاهُ ، فقالَ عبدُ اللهِ : فقلتُ لهُ : هيَ التي بلغَتْ بكَ ، وهيَ التي لا نطيقُ [١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ لا ينجو منهنَّ أحدٌ : الظَّنُّ والطِّيرةُ والحسدُ ، وسأحدِّثُكمْ بالمخرجِ مِنْ ذٰلكَ ، إذا ظننتَ . . فلا تحقِّقْ ، وإذا تطيَّرتَ . . فامضِ ، وإذا حسدتَ . . فلا تبغِ » [٢] .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٩٤) ، وأحمد في « المسند » (٣/١٦٦) .

(٢) رواه ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٢/٨) عن إسماعيل بن أمية معضلاً ، وفي ←

وفي روايةٍ : « ثلاثٌ لا ينجُو منهنَّ أحدٌ ، وقلَّ مَنْ ينجُو منهنَّ »[1] ، فأثبتَ في هٰذهِ الروايةِ إمكانَ النجاةِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دبَّ إليكمْ داءُ الأممِ قبلَكُمْ : الحسدُ ، والبغضاءُ ، والبغضةُ هيَ الحالقةُ ، لا أقولُ : حالقةُ الشَّعرِ ، ولٰكنْ حالقةُ الدِّينِ ، والذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ ؛ لا تدخلونَ الجنةَ حتَّىٰ تؤمنُوا ، ولنْ تؤمنُوا حتَّىٰ تحابُّوا ، ألَا أنبِّئُكُمْ بما يثْبتُ ذٰلكَ لكم ؟ أفشُوا السَّلامَ بينَكُمْ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كادَ الفقرُ أنْ يكونَ كفراً ، وكادَ الحسدُ أنْ يغلبَ القدَرَ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّهُ سيصيبُ أمَّتي داءُ الأممِ » ،

« الإتحاف » (٨/٥١) : (رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « ذم الحسد » من حديث أبي هريرة ، وفيه يعقوب بن محمد الزهري ، وموسى بن يعقوب ، ضعفهما الجمهور) .

(١) قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٨/٥١) : (رواها ابن أبي الدنيا أيضاً من رواية عبد الرحمٰن بن معاوية ، وهو مرسل ضعيف ، وتقدم في آفات اللسان حديث حارثة بن النعمان : « ثلاث لازمات لأمتي : سوء الظن والحسد والطيرة ، فإذا ظننت . . فلا تحقق ، وإذا حسدت . . فاستغفر الله تعالىٰ ، وإذا تطيرت . . فامض » ، رواه أبو الشيخ في « التوبيخ » [٧٧] ، والطبراني في « الكبير » [٣/٢٢٨] ، وروىٰ رستة في كتاب « الإيمان » له من مرسل الحسن بلفظ : « ثلاث لم تسلم منها هٰذه الأمة ، الحسد والظن والطيرة ، ألا أنبئكم بالمخرج منها ؟ إذا ظننت . . فلا تحقق ، وإذا حسدت . . فلا تبغ ، وإذا تطيرت . . فامض ») .

(٢) رواه الترمذي (٢٥١٠) .

(٣) رواه أبو الشيخ في « التوبيخ والتنبيه » (٧٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٥٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦١٨٨) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

قالُوا : وما داءُ الأممِ ؟ قالَ : « الأشرُ ، والبطرُ ، والتَّكاثرُ ، والتَّنافسُ في الدُّنيا ، والتَّباعدُ ، والتَّحاسدُ ، حتَّىٰ يكونَ البغيُ ، ثمَّ الهرْجُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تظهرِ الشماتةَ لأخيكَ ، فيعافيَهُ اللهُ ويبتليَكَ »(٢) .

ورُوِيَ أنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ لمَّا تعجَّلَ إلىٰ ربِّهِ تعالىٰ . . رأىٰ في ظلِّ العرشِ رجلاً ، فغبطَهُ بمكانِهِ ، وقالَ : إنَّ هـٰذا لكريمٌ علىٰ ربِّهِ ، فسألَ ربَّهُ أنْ يخبرَهُ باسمِهِ ، فلمْ يخبرْهُ باسمِهِ ، وقالَ : أحدثُكَ مِنْ عملِهِ بثلاثٍ ، كانَ لا يحسدُ الناسَ علىٰ ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فضلِهِ ، وكانَ لا يعقُّ والديهِ ، ولا يمشِي بالنميمةِ(٣) .

وقالَ زكريا عليهِ السلامُ : (يقولُ اللهُ تعالى : الحاسدُ عدوٌّ لنعمتي ، متسخِّطٌ لقضائي ، غيرُ راضٍ بقسمتي التي قسمتُ بينَ عبادي)(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أخوفُ ما أخافُ علىٰ أمَّتي أن يكثرَ لهمُ المالُ ، فيتحاسدونَ ويقتتلونَ »(٥) .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٩٠١٢) ، والحاكم في « المستدرك » (١٦٨/٤) .

(٢) رواه الترمذي (٢٥٠٦) ، وفيه : (فيرحمه الله) بدل (فيعافيه الله) ، وهي عند أبي نعيم في « الحلية » (١٨٦/٥) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٦٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٤٩/٤) .

(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٢١٣) عن الأصمعي قال : (إن الله عز وجل يقول : الحاسد . . .) .

(٥) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (١١١٥) من حديث أبي عامر الأشعري ←

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « استعينوا علىٰ قضاءِ الحوائجِ بالكتمانِ ، فإنَّ كلَّ ذي نعمةٍ محسودٌ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لنعمِ اللهِ أعداءً » ، فقيلَ : ومَنْ أولئكَ ؟ قالَ : « الذينَ يحسدونَ الناسَ علىٰ ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فضلِهِ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ستَّةٌ يدخلونَ النَّارَ قبلَ الحسابِ بستةٍ » ، قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ مَنْ هُمْ ؟ قالَ : « الأمراءُ بالجورِ ، والعربُ بالعصبيَّةِ ، والدَّهاقينُ بالكبرِ ، والتُّجَّارُ بالخيانة ، وأهلُ الرُّستاقِ بالجهالةِ ، والعلماءُ بالحسدِ »(٣) .

❁ ❁ ❁

الآثارُ :

قالَ بعضُ السلفِ : (أوَّلُ خطيئةٍ كانَتْ هيَ الحسدُ ، حسدَ إبليسُ

← رضي الله عنه ، وعند البخاري (١٤٦٥) ، ومسلم (١٠٥٢) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه : « إني مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها . . . » الحديث .

(١) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٦٨١) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٩٤) ، وابن عدي في « الكامل » (٢/ ٣٦٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٢٢٨) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٧٢٧٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً بلفظ : « إن لأهل النعم حساداً فاحذروهم » .

(٣) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٤٩١) من حديث أنس وأبي هريرة رضي الله عنهما ، وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (١٥٦٥) من حديث عثمان رضي الله عنه .

آدمَ عليهِ السلامُ علىٰ رتبتِهِ فأبىٰ أنْ يسجدَ لهُ ، فحملَهُ الحسدُ على المعصيةِ)[1] .

وحُكيَ أنَّ عونَ بنَ عبدِ اللهِ دخلَ على المفضَّلِ بنِ المهلَّبِ وكانَ يومئذٍ علىٰ واسطٍ ، فقالَ : إنِّي أريدُ أنْ أعظَكَ بشيءٍ ، فقالَ : وما ذاكَ ؟

قالَ : إيَّاكَ والكبرَ ؛ فإنَّهُ أولُ ذنبٍ عُصِيَ اللهُ بهِ ، ثمَّ قرأَ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ . . . ﴾ الآيةَ[2] .

وإيَّاكَ والحرصَ ؛ فإنَّهُ أخرجَ آدمَ مِنَ الجنةِ ، أمكنَهُ اللهُ مِنْ جنَّةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ يأكلُ منها إلا شجرةً واحدةً نهاهُ اللهُ عنها ، فأكلَ منها ، فأخرجَهُ اللهُ تعالىٰ منها ، ثمَّ قرأَ : ﴿ ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا . . . ﴾ إلىٰ آخرِ الآيةِ[3] .

وإيَّاكَ والحسدَ ، فإنَّهُ قتلَ ابنُ آدم أخاهُ حينَ حسَدَهُ ، ثمَّ قرأَ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ . . . ﴾ الآياتِ[4] ، وإذا ذُكِرَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . فاسكتْ ، وإذا ذُكرَ القدرُ . . فاسكتْ ، وإذا ذُكرَتِ النجومُ . . فاسكتْ[5] .

---

(١) رواه أبو الشيخ في « التوبيخ والتنبيه » (٦٩) عن جنادة بن أبي أمية بنحوه .

(٢) سورة البقرة : (٣٤) .

(٣) سورة البقرة : (٣٨) .

(٤) سورة المائدة : (٢٧ ـ ٣٢) .

(٥) قطعة من الخبر عند البلاذري في « أنساب الأشراف » (١١/ ٢٣٠) ، وروىٰ نحوه عن عبد الملك بن مروان ورجل من المهاجرين يعظه أبو الشيخ في « التوبيخ والتنبيه » (٦٨) .

وقالَ بكرُ بنُ عبدِ اللهِ المزنيُّ : كانَ رجلٌ يغشىٰ بعضَ الملوكِ فيقومُ بحذاءِ الملكِ ، فيقولُ :

أحسنْ إلى المحسنِ بإحسانِهِ ؛ فإنَّ المسيءَ ستكفيكَهُ إساءتُهُ ، قالَ : فحسدَهُ رجلٌ علىٰ ذٰلكَ المقامِ والكلامِ ، فسعىٰ بهِ إلى الملكِ ، فقالَ :

إنَّ هٰذا الذي يقومُ بحذائِكَ ويقولُ ما يقولُ زعمَ أنَّ الملكَ أبخرُ ، فقالَ لهُ الملكُ : وكيفَ يصحُّ ذٰلكَ عندي ؟

قالَ : تدعو بهِ إليكَ ، فإنَّهُ إذا دنا منكَ وضعَ يدَهُ علىٰ أنفِهِ ؛ لئلا يشمَّ ريحَ البخَرِ .

فقالَ لهُ : انصرفْ حتَّىٰ أنظرَ ، فخرجَ مِنْ عندِ الملكِ ، فدعا الرجلَ إلىٰ منزلِهِ ، فأطعمَهُ طعاماً فيهِ ثومٌ ، فخرجَ الرجلُ مِنْ عندِهِ ، وقامَ بحذاءِ الملكِ ، فقالَ :

أحسنْ إلى المحسنِ بإحسانِهِ ، فإنَّ المسيءَ ستكفيكَهُ إساءتُهُ ، فقالَ لهَ الملكُ :

ادْنُ منِّي ، فدنا منهُ ، فوضعَ يدَهُ علىٰ فيهِ مخافةَ أنْ يشَمَّ الملكُ منهُ ريحَ الثومِ ، فقالَ الملكُ في نفسِهِ : ما أرىٰ فلاناً إلَّا قدْ صدقَ .

قالَ : وكانَ الملكُ لا يكتبُ بخطِّهِ إلا بجائزةٍ أوْ صلةٍ ، فكتبَ لهُ كتاباً بخطِّهِ إلىٰ عاملٍ مِنْ عمالِهِ :

إذا أتاكَ حاملُ كتابي . . فاذبحْهُ واسلخْهُ ، واحشُ جلدَهُ تبناً ، وابعثْ بهِ إليَّ .

فأخذَ الكتابَ وخرجَ ، فلقيَهُ الرجلُ الذي سعىٰ بهِ ، فقالَ : ما هٰذا الكتابُ ؟

فقالَ : خطُّ الملكُ لي بصلةٍ ، فقالَ : هبْهُ لي ، فقالَ : هوَ لكَ .

فأخذَهُ ومضىٰ إلى العاملِ ، فقالَ العاملُ :

في كتابِكَ أنْ أذبحَكَ وأسلخَكَ ، قالَ : إنَّ الكتابَ ليسَ هوَ لي ، فاللهَ اللهَ في أمري حتَّىٰ أراجعَ الملكَ .

قالَ : ليسَ لكتابِ الملكِ مراجعةٌ ، فذبحَهُ وسلخَهُ ، وحشا جلدَهُ تبناً ، وبعثَ بهِ .

ثمَّ عادَ الرجلُ إلى الملكِ كعادتِهِ ، وقالَ مثلَ قولِهِ ، فتعجبَ الملكُ ، وقالَ : ما فعلَ الكتابُ ؟

فقالَ : لقيَني فلانٌ واستوهبَهُ منِّي فوهبتُهُ لهُ ، قالَ الملكُ : إنَّهُ ذكرَ لي أنَّكَ تزعمُ أنِّي أبخرُ ، قالَ : ما فعلْتُ ، قالَ : فلمَ وضعْتَ يدكَ علىٰ أنفِكَ ؟ قالَ : كانَ أطعمَني طعاماً فيه ثومٌ ، فكرهتُ أن تشمَّهُ ، قالَ : صدقتَ ، ارجعْ إلىٰ مكانِكَ ، فقدْ كفاكَ المسيءَ إساءتُهُ (١) .

وقالَ ابنُ سيرينَ رحمهُ اللهُ : (ما حسدتُ أحداً علىٰ شيءٍ مِنَ

---

(١) رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٢٢٨) .

الدنيا ؛ لأنَّهُ إنْ كانَ مِنَ أهلِ الجنةِ . . فكيفَ أحسدُهُ على الدنيا وهيَ حقيرةٌ في الجنةِ ؟! وإنْ كانَ مِنْ أهلِ النارِ . . فكيفَ أحسدُهُ علىٰ أمرِ الدنيا ، وهوَ يصيرُ إلى النارِ ؟!)[١] .

وقالَ رجلٌ للحسنِ : هلْ يَحسدُ المؤمنُ ؟

قالَ : ما أنساكَ بني يعقوبَ !! نعمْ ، ولٰكنْ غمَّةٌ في صدرِكَ ، وإنَّهُ لا يضرُّكَ ما لمْ تعدِّ بهِ يداً ولا لساناً[٢] .

وقالَ أبو الدرداءِ : (ما أكثرَ عبدٌ ذكرَ الموتِ إلا قلَّ فرحُهُ ، وقلَّ حسدُهُ)[٣] .

وقالَ معاويةُ : (كلُّ الناسِ أقدرُ علىٰ رضاهُ إلا حاسدَ نعمةٍ ؛ فإنَّه لا يرضيهِ إلا زوالُها)[٤] .

ولذٰلك قيلَ[٥] : [من البسيط]

كُلُّ الْعَداوَةِ قَدْ تُرْجَىٰ إِماتَتُها   إِلَّا عَداوَةَ مَنْ عاداكَ مِنْ حَسَدِ

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (الحسدُ جرحٌ لا يبرأُ ، وحسْبُ الحسودِ ما يلقىٰ)[٦] .

---

(١) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ١٣٤) .
(٢) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ١٣٦) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/٢٢٠) .
(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١١٣) .
(٥) البيت للإمام الشافعي في « ديوانه » (ص ٥٤) .
(٦) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٢٢٤) عن ذي النون المصري .

وقالَ أعرابيٌّ : (ما رأيتُ ظالماً أشبهَ بمظلومٍ مِنْ حاسدٍ ، إنَّهُ يرى النعمةَ عليكَ نقمةً عليهِ)[1] .

وقالَ الحسنُ : (يا بنَ آدمَ ؛ لِمَ تحسدُ أخاكَ ؟ فإنْ كانَ الذي أعطاهُ اللهُ لكرامتِهِ عليهِ . . فلِمَ تحسدُ مَنْ أكرمَهُ اللهُ ؟! وإنْ كانَ غيرَ ذٰلكَ . . فلمَ تحسدُ مَنْ مصيرُهُ إلى النارِ ؟!)[2] .

وقالَ بعضُهمْ : (الحاسدُ لا ينالُ مِنَ المجالسِ إلا مذمَّةً وذُلّاً ، ولا ينالُ مِنَ الملائكةِ إلا لعنةً وبغضاً ، ولا ينالُ مِنَ الخلقِ إلَّا جزعاً وغمّاً ، ولا ينالُ عندَ النزعِ إلا شدّةً وهولاً ، ولا ينالُ عندَ الموقفِ إلا فضيحةً ونكالاً)[3] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٢١١) عن الخليل بن أحمد .
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الحسد » . « إتحاف » (٥٧/٨) .
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الحسد » . « إتحاف » (٥٧/٨) .

بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه

اعلمْ : أنَّهُ لا حسدَ إلا علىٰ نعمةٍ ، فإذا أنعمَ اللهُ علىٰ أخيكَ بنعمةٍ . . فلكَ فيها حالتانِ :

إحداهُما : أنْ تكرهَ تلكَ النعمةَ وتحبَّ زوالَها ، وهـٰذهِ الحالةُ تُسمَّىٰ **حسداً** ، **فالحسدُ حدُّهُ** : كراهةُ النعمةِ ، وحبُّ زوالِها عنِ المنعَمِ عليهِ .

الحالةُ الثانيةُ : ألَّا تحبَّ زوالَها ولا تكرَهَ وجودَها ودوامَها ، ولـٰكنْ تشتهي لنفسِكَ مثلَها ، وهـٰذهِ تُسمَّىٰ **غبطةً** ، وقدْ تُخصُّ باسمِ المنافسةِ ، وقدْ تُسمَّى المنافسةُ حسداً ، والحسدُ منافسةً ، ويُوضعُ أحدُ اللفظينِ موضعَ الآخرِ ، ولا حجرَ في الأسامي بعدَ فهمِ المعاني .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ يغبطُ ، والمنافقُ يحسُدُ »[(١)] .

فأمَّا الأوَّلُ . . فهوَ حرامٌ بكلِّ حالٍ إلا نعمةً أصابَها فاجرٌ أوْ كافرٌ ، وهوَ يستعينُ بها علىٰ تهييجِ الفتنةِ ، وإفسادِ ذاتِ البينِ ، وإيذاءِ الخلقِ ، فلا يضرُّكَ كراهتُكَ لها ، ومحبتُكَ لزوالِها ؛ فإنَّكَ لا تحبُّ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً مرفوعاً ، وإنما هو من قول الفضيل بن عياض ، كذٰلك رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الحسد ») . « إتحاف » (٨/٥٨) ، ورواه أبو نعيم عنه في « الحلية » (٨/٩٥) .

زوالَها مِنْ حيثُ إنَّها نعمةٌ ، بلْ مِنْ حيثُ إنَّها آلةُ الفسادِ ، ولوْ أمنْتَ فسادَهُ . . لمْ يغمَّكَ تنعُّمُهُ .

ويدلُّ علىٰ تحريمِ الحسدِ الأخبارُ التي نقلناها ، وأنَّ هـٰذهِ الكراهةَ تسخُّطٌ لقضاءِ اللهِ تعالىٰ في تفضيلِ بعضِ عبادِهِ علىٰ بعضٍ ، وذٰلكَ لا عذرَ فيهِ ولا رخصةَ ، وأيُّ معصيةٍ تزيدُ علىٰ كراهتِكَ لراحةِ مسلمٍ مِنْ غيرِ أنْ يكونَ لكَ فيهِ مضرةٌ ؟!

وإلىٰ هـٰذا أشارَ القرآنُ بقولِهِ : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ﴾ (١) ، وهـٰذا الفرحُ شماتةٌ ، والحسدُ والشماتةُ يتلازمانِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا ﴾ (٢) ، فأخبرَ تعالىٰ أنَّ حبَّهمْ زوالَ نعمةِ الإيمانِ حسدٌ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ (٣) .

وذكرَ اللهُ تعالىٰ حسدَ إخوةِ يوسفَ ، وعبَّرَ عمَّا في قلوبِهِمْ بقولِهِ : ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ (٤) ،

---

(١) سورة آل عمران : (١٢٠) .

(٢) سورة البقرة : (١٠٩) .

(٣) سورة النساء : (٨٩) .

(٤) سورة يوسف ﷺ : (٨ ـ ٩) .

فلمَّا كرهُوا حبَّ أبيهِمْ لهُ . . ساءَهُمْ ذٰلكَ ، وأحبُّوا زوالَهُ عنهُ ، فغيبُوهُ عنهُ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ ﴾ [١] أيْ : لا تضيقُ بهِ صدورُهُمْ ولا يغتمُّونَ ، فأثنىٰ عليهِمْ بعدمِ الحسدِ .

وقالَ تعالىٰ في معرضِ الإنكارِ : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [٢] .

وقالَ : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ [٣] قيلَ في التفسيرِ : حسداً [٤] .

وقالَ : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ [٥] ، فأنزلَ اللهُ العلمَ ليجمعَهُمْ ويؤلِّفَ بينهُمْ علىٰ طاعتِهِ ، فأمرَهُمْ أنْ يتألَّفوا بالعلمِ ، فتحاسدُوا واختلفُوا ؛ إذ أرادَ كلُّ واحدٍ أنْ ينفردَ بالرئاسةِ وقبولِ القولِ ، فردَّ بعضُهُمْ علىٰ بعضٍ .

قالَ ابنُ عباسٍ : كانَتِ اليهودُ قبلَ أنْ يُبعثَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا قاتلوا قوماً . . قالوا :

---

(١) سورة الحشر : (٩) .
(٢) سورة النساء : (٥٤) .
(٣) سورة البقرة : (٢١٣) .
(٤) أي : فسروا البغي بالحسد ؛ فإنه تجاوز من الحق إلى الباطل . « إتحاف » (٨/ ٦٠) .
(٥) سورة الشورىٰ : (١٤) .

نسألُكَ بالنبيِّ الذي وعدتَنا أن ترسلَهُ ، وبالكتابِ الذي تنزلُهُ إلا ما نصرتَنا ، فكانُوا يُنصرونَ .

فلمَّا جاء النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ ولدِ إسماعيلَ . . عرفُوهُ ، وكفرُوا بهِ بعدَ معرفتهِمْ إيَّاهُ ، فقالَ تعالَىٰ : ﴿ وَكَانُوا۟ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ أَن يَكۡفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا ﴾ [1] أيْ : حسداً [2] .

وقالَتْ صفيَّةُ بنتُ حييٍّ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : جاءَ أبي وعمِّي مِنْ عندِكَ يوماً ، فقالَ أبي لعمي : ما تقولُ فيهِ ؟

قالَ : أقولُ : إنَّهُ النبيُّ الذي بشَّرَ بهِ موسىٰ ، قالَ : فما ترىٰ ؟ قالَ : أرىٰ معاداتَهُ أيامَ الحياةِ [3] .

فهٰذا حكمُ الحسدِ في التحريمِ .

وأمَّا المنافسةُ . . فليسَتْ بحرامٍ ، بلْ هيَ إمَّا واجبةٌ ، وإمَّا مندوبةٌ ، وإمَّا مباحةٌ ، وقدْ يُستعملُ لفظُ المنافسةِ بدلَ الحسدِ ، والحسدِ بدلَ المنافسةِ .

---

(١) سورة البقرة : (٨٩ ـ ٩٠) .

(٢) رواه الآجري في « الشريعة » (٩٧٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/٢٦٣) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » (٢/٧٦) ، ومجمل روايات الاستنصار به صلى الله عليه وسلم وحسدهم له عليه الصلاة والسلام عند الطبري في « تفسيره » (١/١/٥٣٩ ـ ٥٤٢) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن إسحاق في « السيرة » ، قال : حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال : حدثت صفية ، فذكره نحوه ، وهو منقطع) . « إتحاف » (٨/٦٠) .

قالَ قثمُ بنُ العباسِ : لمَّا أرادَ هوَ والفضلُ أنْ يأتيا النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيسألانِهِ أنْ يؤمِّرَهُما على الصدقةِ .

قالا لعليٍّ حينَ قالَ لهُما :

لا تذهبا إليهِ ؛ فإنَّهُ لا يؤمِّرُكما عليها ، فقالا لهُ : ما هٰذا منكَ إلا نفاسةٌ ، واللهِ ؛ لقدْ زوَّجَكَ ابنتَهُ فما نفِسْنا ذٰلكَ عليكَ ؛ أيْ : هٰذا منكَ حسدٌ ، وما حسدناكَ علىٰ تزويجِهِ إياكَ فاطمةَ[1] .

والمنافسةُ مشتقةٌ في اللغةِ مِنَ النفاسةِ ، والذي يدلُّ علىٰ إباحةِ المنافسةِ : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾[2] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[3] .

وإنَّما المسابقةُ عندَ خوفِ الفوتِ ، وهوَ كالعبدينِ يتسابقانِ إلىٰ خدمةِ مولاهما ؛ إذْ يجزعُ كلُّ واحدٍ أن يسبقَهُ صاحبُهُ فيحظىٰ عندَ مولاهُ بمنزلةٍ لا يحظىٰ هوَ بها .

وكيفَ وقدْ صرَّحَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بذٰلكَ فقالَ :

« لاحسدَ إلَّا في اثنتينِ : رجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً ، فسلَّطَهُ علىٰ هلكتِهِ في الحقِّ ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ علماً ، فهوَ يعملُ بهِ ويعلِّمُهُ النَّاسَ »[4] .

---

(١) رواه مسلم (١٠٧٢) بنحوه .

(٢) سورة المطففين : (٢٦) .

(٣) سورة الحديد : (٢١) .

(٤) رواه البخاري (٧٣) ، ومسلم (٨١٦) .

ثمَّ فسَّرَ ذٰلكَ في حديثِ أبي كبشةَ الأنماريِّ فقالَ : « مثلُ هٰذهِ الأمَّةِ مثلُ أربعةِ رجالٍ :

رجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً وعلماً ، فهو يعملُ بعلمِهِ في مالِهِ .

ورجلٌ آتاهُ اللهُ علماً ولمْ يؤتِهِ مالاً ، فيقولُ ربُّ العلمِ : لوْ أنَّ لي مالاً مثلَ مالِ فلانٍ . . لكنتُ أعملُ فيهِ بمثلِ عملِهِ ؛ فهما في الأجرِ سواءٌ » .

وهٰذا منهُ حبٌّ لأنْ يكونَ لهُ مثلُ مالِهِ فيعملَ مثلَ ما يعملُ مِنْ غيرِ حبِّ زوالِ النعمةِ عنهُ .

قالَ : « ورجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً ولم يؤتِهِ علماً ، فهوَ يُنفقُهُ في معاصِي اللهِ .

ورجلٌ لمْ يؤتِهِ اللهُ علماً ولمْ يؤتِهِ مالاً ، فيقولُ : لوْ أنَّ لي مثلَ مالِ فلانٍ . . لكنْتُ أنفقُهُ في مثلِ ما أنفقَهُ فيهِ مِنَ المعاصي ؛ فهما في الوزْرِ سواءٌ »(١) .

فذمَّهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ جهةِ تمنِّيهِ للمعصيةِ ، لا مِنْ جهةِ حبِّهِ أنْ يكونَ لَهُ مِنَ النعمةِ مثلُ مالِهِ .

فإذاً ؛ لا حرجَ علىٰ مَنْ يغبطُ غيرَهُ في نعمةٍ ويشتهي لنفسِهِ مثلَها ؛ مهما لمْ يحبَّ زوالَها عنهُ ، ولمْ يكرَهْ دوامَها لهُ .

نعمْ ؛ إنْ كانَتْ تلكَ النعمةُ نعمةً دينيَّةً واجبةً ؛ كالإيمانِ ،

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٥) ، وابن ماجه (٤٢٢٨) .

والصلاةِ ، والزكاةِ . . فهٰذِهِ المنافسةُ **واجبةٌ** ، وهوَ أنْ يحبَّ أنْ يكونَ مثلَهُ ؛ لأنَّهُ إنْ لمْ يحبَّ ذٰلكَ . . فيكونُ راضياً بالمعصيةِ ، وذٰلكَ حرامٌ .

وإنْ كانَتِ النعمةُ مِنَ الفضائلِ ؛ كإنفاقِ الأموالِ في المكارمِ والصدقاتِ . . فالمنافسةُ فيها **مندوبٌ إليها** ، وإنْ كانَتْ نعمةً يُتنعَّمُ بها علىٰ وجهٍ مباحٍ . . فالمنافسةُ فيها مباحةٌ .

وكلُّ ذٰلكَ يرجعُ إلىٰ إرادتِهِ مساواتَهُ واللحوقَ بهِ في النعمةِ ، وليسَ فيها كراهةُ النعمةِ ، وكانَ تحتَ هٰذهِ النعمةِ أمرانِ :

أحدُهُما : راحةُ المنعَمِ عليهِ .

والآخرُ : ظهورُ نقصانِ غيرِهِ وتخلُّفِهِ عنهُ .

وهوَ يكرَهُ أحدَ الوجهينِ ، وهوَ تخلُّفُ نفسِهِ ، ويحبُّ مساواتَهُ لهُ ، ولا حرجَ علىٰ مَنْ يكرهُ تخلُّفَ نفسِهِ ونقصانَها في المباحاتِ .

نعمْ ؛ ذٰلكَ ينقصُ مِنَ الفضلِ ، ويناقضُ الزهدَ والتوكلَ والرضا ، ويحجبُ عنِ المقاماتِ الرفيعةِ ، ولٰكنَّهُ لا يوجبُ العصيانَ .

❁ ❁ ❁

وها هنا دقيقةٌ غامضةٌ : وهيَ أنَّهُ إذا أيسَ مِنْ أنْ ينالَ مثلَ تلكَ النعمةِ وهوَ يكرهُ تخلُّفَهُ ونقصانَهُ . . فلا محالَةَ يحبُّ زوالَ النقصانِ ، وإنَّما يزولُ نقصانُهُ إمَّا بأنْ ينالَ مثلَ ذٰلكَ ، أوْ بأنْ تزولَ نعمةُ المحسودِ .

فإذا انسدَّ أحدُ الطريقينِ . . فيكادُ القلبُ لا ينفكُّ عنْ شهوةِ الطريقِ الآخرِ ، حتَّىٰ إذا زالَتِ النعمةُ عنِ المحسودِ . . كانَ ذٰلكَ أشهىٰ عندَهُ مِنْ دوامِها ؛ إذ بزوالِها يزولُ تخلُّفُهُ وتقدُّمُ غيرِهِ ، وهٰذا لا يكادُ ينفكُّ القلبُ عنهُ .

فإنْ كانَ بحيثُ لوْ أُلقيَ الأمرُ إليهِ ورُدَّ إلى اختيارِهِ لسعىٰ في إزالةِ النعمةِ عنهُ . . فهوَ حسودٌ حسداً مذموماً ، وإنْ كانَ تردعُهُ التقوىٰ عنْ إزالةِ ذٰلكَ . . فيُعفىٰ عنهُ فيما يجدُهُ في طبعِهِ مِنِ ارتياحٍ إلىٰ زوالِ النعمةِ عنْ محسودِهِ مهما كَانَ كارهاً لذٰلكَ مِنْ نفسِهِ بعقلِهِ ودينِهِ ، ولعلَّهُ المعنيُّ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ لا ينفكُّ المؤمنُ عنهنَّ : الحسدُ والظنُّ والطِّيَرةُ » .

ثمَّ قالَ : « ولهُ منهنَّ مخرجٌ ، إذا حسدتَ . . فلا تبغِ »[١] ؛ أيْ : إنْ وجدتَ في قلبِكَ شيئاً . . فلا تعملْ بهِ ، وبعيدٌ أنْ يكونَ الإنسانُ مريداً للحاقِ بأخيهِ في النعمةِ فيعجزُ عنها ، ثمَّ ينفكُّ عنْ ميلٍ إلىٰ زوالِ النعمةِ ؛ إذْ يجدُ ـ لا محالةَ ـ لهُ ترجيحاً علىٰ دوامِها .

فهٰذا الحدُّ مِنَ المنافسةِ يزاحمُ الحسدَ الحرامَ ، فينبغي أنْ يُحتاطَ منهُ ، فإنَّهُ موضعُ الخطرِ ، وما مِنْ إنسانٍ إلَّا وهوَ يرىٰ فوقَ نفسِهِ مِنْ معارفِهِ وأقرانِهِ مَنْ يحبُّ أن يساويَهُ ، ويكادُ يجرُّهُ ذٰلكَ

---

(١) رواه ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٨/٢) عن إسماعيل بن أمية معضلاً ، وفي « الإتحاف » (٥١/٨) : (رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « ذم الحسد » من حديث أبي هريرة ، وفيه يعقوب بن محمد الزهري ، وموسى بن يعقوب ، ضعفهما الجمهور) .

إلى الحسدِ المحظورِ إنْ لمْ يكنْ قويَّ الإيمانِ رزينَ التقوىٰ .

ومهما كانَ محرِّكُهُ خوفَ التفاوتِ وظهورَ نقصانِهِ عنْ غيرِهِ . . جرَّهُ ذٰلكَ إلى الحسدِ المذمومِ ، وإلىٰ ميلِ الطبعِ إلىٰ زوالِ النعمةِ عنْ أخيهِ ، حتَّىٰ ينزلَ هوَ إلىٰ مساواتِهِ إذْ لمْ يقدِرْ هوَ أنْ يرتقيَ إلىٰ مساواتِهِ بإدراكِ النعمةِ ؛ وذٰلكَ لا رخصةَ فيهِ أصلاً ، بلْ هوَ حرامٌ ، سواءٌ كانَ في مقاصدِ الدينِ أوْ مقاصدِ الدنيا ، ولٰكنْ يُعفىٰ عنهُ في ذٰلكَ ما لمْ يعملْ بهِ إنْ شاءَ اللهُ ، وتكونُ كراهتُهُ لذٰلكَ مِنْ نفسِهِ كفارةً لهُ .

فهٰذهِ حقيقةُ الحسدِ وأحكامُهُ .

❊ ❊ ❊

وأمَّا مراتبُهُ . . فأربعٌ :

الأُولىٰ : أنْ يحبَّ زوالَ النعمةِ عنهُ وإنْ كانَتْ لا تنتقلُ إليهِ ، وهٰذا غايةُ الخبثِ .

الثانيةُ : أنْ يحبَّ زوالَ النعمةِ إليهِ ؛ لرغبتِهِ في تلكَ النعمةِ ، مثلُ رغبتِهِ في دارٍ حسنةٍ ، أوِ امرأةٍ جميلةٍ ، أوْ ولايةٍ نافذةٍ واسعةٍ نالَها غيرُهُ ، وهوَ يحبُّ أنْ تكونَ لهُ ، ومطلوبُهُ تلكَ النعمةُ لا زوالُها عنهُ ، ومكروهُهُ فقدُ النعمةِ لا تنعُّمُ غيرِهِ بها .

الثالثةُ : ألَّا يشتهيَ عينَها ، بلْ يشتهي لنفسِهِ مثلَها ، فإنْ عجزَ عنْ مثلِها . . أحبَّ زوالَها ؛ كي لا يظهرَ التفاوتُ بينَهُما .

الرابعةُ : أنْ يشتهيَ لنفسِهِ مثلَها ، فإنْ لمْ يحصلْ . . فلا يحبُّ زوالَها عنهُ .

وهٰذا الأخيرُ هوَ المعفوُّ عنهُ إنْ كانَ في الدنيا ، والمندوبُ إليهِ إنْ كانَ في الدينِ ، والثالثةُ فيها مذمومٌ وغيرُ مذمومٍ ، والثانيةُ أخفُّ مِنَ الثالثةِ ، والأولىٰ مذمومٌ محضٌ .

وتسميةُ الثانيةِ حسداً فيهِ تجوُّزٌ وتوسُّعٌ ، ولٰكنَّهُ مذمومٌ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ ﴾[1] ، فتمنِّيهِ لمثلِ ذٰلكَ غيرُ مذمومٍ ، وأمَّا تمنِّيهِ عينَ ذٰلكَ . . فهوَ مذمومٌ .

❋ ❋ ❋

(١) سورة النساء : (٣٢) .

بيان أسباب الحسد والمنافسة

أمَّا المنافسةُ . . فسببُها حبُّ ما فيهِ المنافسةُ ، فإنْ كانَ ذلكَ أمراً دينيّاً . . فسببُهُ حبُّ اللهِ تعالىٰ وحبُّ طاعتِهِ ، وإنْ كانَ دنيوياً . . فسببُهُ حبُّ مباحاتِ الدنيا والتنعُّمِ بها ، وإنَّما نظرُنا الآنَ في الحسدِ المذمومِ ، ومداخلُهُ كثيرةٌ جدّاً ، ولٰكنْ **يحصُرُ جملتَها سبعةُ أسبابٍ** : العداوةُ ، والتعزُّزُ ، والكبرُ ، والتعجُّبُ ، والخوفُ مِنْ فوتِ المقاصدِ المحبوبةِ ، وحبُّ الرئاسةِ ، وخبثُ النفْسِ وبخلُها .

فإنَّهُ إنَّما يكرَهُ النعمةَ علىٰ غيرِهِ إمَّا لأنَّهُ عدوُّهُ ، فلا يريدُ لهُ الخيرَ ، وهٰذا لا يختصُّ بالأمثالِ ، بلْ يحسُدُ الخسيسُ الملِكَ ؛ بمعنىٰ : أنَّهُ يحبُّ زوالَ نعمتِهِ ؛ لكونِهِ مبغضاً لهُ بسببِ إساءتِهِ إليهِ أوْ إلىٰ مَنْ يحبُّهُ .

وإمَّا أنْ يكونَ مِنْ حيثُ يعلمُ أنَّهُ يستكبرُ بالنعمةِ عليهِ وهوَ لا يطيقُ احتمالَ كبرِهِ وتفاخرِهِ لعزَّةِ نفسِهِ ، وهوَ المرادُ بالتعزُّزِ .

وإمَّا أنْ يكونَ في طبعِهِ أنْ يتكبَّرَ على المحسودِ ، ويمتنعُ ذٰلكَ عليهِ لنعمتِه ، وهوَ المرادُ بالتكبُّرِ .

وإمَّا أنْ تكونَ النعمةُ عظيمةً والمنصبُ كبيراً ، فيتعجَّبُ مِنْ فوزِ مثلِهِ بمثلِ تلكَ النعمةِ ، وهوَ المرادُ بالتعجُّبِ .

وإمَّا أنْ يخافَ مِنْ فواتِ مقاصدِهِ بسببِ نعمتِهِ ؛ بأنْ يتوصَّلَ بها إلىٰ مزاحمتِهِ في أغراضِهِ .

وإمَّا أنْ يكونَ يحبُّ الرئاسةَ التي تنبني على الاختصاصِ بنعمةٍ لا يُساوىٰ فيها .

وإمَّا ألا يكونَ بسببٍ مِنْ هٰذهِ الأسبابِ ، بلْ لخبثِ النفسِ وشحِّها بالخيرِ لعبادِ اللهِ تعالىٰ .

ولا بدَّ مِنْ شرحِ هٰذهِ الأسبابِ .

❊ ❊ ❊

السببُ الأولُ : العداوةُ والبغضاءُ :

وهٰذا أشدُّ أسبابِ الحسدِ ، فإنَّ مَنْ آذاهُ إنسانٌ بسببٍ مِنَ الأسبابِ ، وخالفَهُ في غرضِهِ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ . . أبغضَهُ قلبُهُ ، وغضبَ عليهِ ، ورسخَ في نفسِهِ الحقدُ ، والحقدُ يقتضي التشفِّيَ والانتقامَ .

فإنْ عجزَ المبغضُ عنْ أنْ يتشفَّىٰ بنفسِهِ . . أحبَّ أنْ يتشفَّىٰ منهُ الزمانُ ، وربَّما يحيلُ ذٰلكَ علىٰ كرامةِ نفسِهِ عندَ اللهِ ، فمهما أصابَتْ عدوَّهُ بليَّةٌ . . فرحَ بها ، وظنَّ أنَّها مكافأةٌ لهُ مِنْ جهةِ اللهِ علىٰ بغضِهِ ، وأنَّها أصابَتْهُ لأجلِهِ ، ومهما أصابَتْهُ نعمةٌ . . ساءَهُ ذٰلكَ ؛ لأنَّهُ ضدُّ مرادِهِ ، وربَّما يخطرُ لهُ أنَّهُ لا منزلةَ لهُ عندَ اللهِ ؛ حيثُ لمْ ينتقمْ لهُ مِنْ عدوِّهِ الذي آذاهُ ، بلْ أنعمَ عليهِ .

وبالجملةِ : فالحسدُ يلزمُ البغضَ والعداوةَ ولا يفارقُهما ، وإنَّما غايةُ التقيِّ ألَّا يبغيَ ، وأنْ يكرهَ ذٰلكَ مِنْ نفسِهِ ، فأمَّا أنْ يبغضَ إنساناً ثمَّ يستويَ عندَهُ مسرَّتُهُ ومساءتُهُ . . فهٰذا غيرُ ممكنٍ .

وهٰذا ما وصفَ اللهُ تعالى الكفارَ بهِ ؛ أعني : الحسدَ بالعداوةِ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ . . . ﴾ الآيةَ [1] .

وكذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ [2] .

والحسدُ بسببِ البغضِ ربَّما يفضي إلى التنازعِ والتقاتلِ ، واستغراقِ العمرِ في إزالةِ النعمةِ بالحيلِ ، وبالسعايةِ ، وهتكِ السترِ ، وما يجري مجراهُ .

❁ ❁ ❁

السببُ الثاني : التعزُّزُ :

وهوَ أن يثقُلَ عليهِ أنْ يترفَّعَ عليهِ غيرُهُ ، فإذا أصابَ بعضُ أمثالِهِ ولايةً أوْ علماً أوْ مالاً . . خافَ أنْ يتكبَّرَ عليهِ ، وهوَ لا يطيقُ تكبُّرَهُ ، ولا تسمحُ نفسُهُ باحتمالِ صَلفِهِ وتفاخرِهِ عليهِ ، وليسَ مِنْ غرضِهِ أنْ يتكبَّرَ ، بلْ غرضُهُ أنْ يدفَعَ كبرَهُ ، فإنَّهُ قدْ رضيَ بمساواتِهِ مثلاً ، ولٰكنْ لا يرضىٰ بترفُّعِهِ عليهِ .

❁ ❁ ❁

السببُ الثالثُ : الكبرُ :

وهوَ أنْ يكونَ في طبعِهِ أنْ يتكبَّرَ عليهِ ، ويستصغرَهُ ويستخدمَهُ ،

---

(١) سورة آل عمران : (١١٩ ـ ١٢٠) .

(٢) سورة آل عمران : (١١٨) .

ويتوقَّعَ منهُ الانقيادَ لهُ ، والمتابعةَ في أغراضِهِ ، فإذا نالَ نعمةً . . خافَ ألَّا يحتملَ تكبُّرَهُ ، ويترفعَ عنْ متابعتِهِ ، أوْ ربَّما يتشوَّفُ إلىٰ مساواتِهِ ، أوْ إلىٰ أنْ يرتفعَ عليهِ ، فيعودَ متكبراً بعدَ أنْ كانَ متكبَّراً عليهِ .

وَمِنَ التعزُّزِ والتكبُّرِ كانَ حسدُ أكثرِ الكفارِ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ قالُوا : كيفَ يتقدَّمُ علينا غلامٌ يتيمٌ ؟![1] .

وكيفَ نطأطئُ لهُ رؤوسَنا ؟! فقالُوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[2] أيْ : كانَ لا يثقلُ علينا أنْ نتواضعَ لهُ ونتَّبعَهُ إذا كانَ عظيماً[3] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ يصفُ قولَ قريشٍ : ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾[4] كالاستحقارِ لهمْ والأنفةِ منهُمْ[5] .

---

(١) إذ روى ابن سعد في « طبقاته » (١/١٣٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بعثت قريش النضر بن الحارث بن علقمة وعقبة بن أبي معيط وغيرهما إلىٰ يهود يثرب وقالوا لهم : سلوهم عن محمد ، فقدموا المدينة فقالوا : أتيناكم لأمر حدث فينا ، منا غلام يتيم حقير يقول قولاً عظيماً ، يزعم أنه رسول الرحمٰن ، ولا نعرف الرحمٰن إلا رحمان اليمامة ، قالوا : صفوا لنا صفته ، فوصفوا لهم ، قالوا : فمن تبعه منكم ؟ قالوا : سفلتنا ، فضحك حبرٌ منهم وقال : هٰذا النبي الذي نجد نعته ونجد قومه أشد الناس له عداوة .

(٢) سورة الزخرف : (٣١) .

(٣) والمراد بالقريتين : مكة والطائف ، واختلفوا في تعيين المراد بالرجل في الآية . انظر « تفسير الطبري » (١٣/٢٥/٧٩) .

(٤) سورة الأنعام : (٥٣) .

(٥) يشيرون إلىٰ من اتبعه صلى الله عليه وسلم من المؤمنين ، حملهم علىٰ ذٰلك التعزز والكبر والجبروت . « إتحاف » (٨/٦٥) .

السببُ الرابعُ : التعجُّبُ :

كما أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنِ الأممِ السالفةِ ؛ إذْ قالُوا : ﴿ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾[(١)] .

وقالُوا : ﴿ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا ﴾[(٢)] ، ﴿ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾[(٣)] ، فتعجَّبُوا مِنْ أنْ يفوزَ برتبةِ الرسالةِ والوحيِ والقربِ مِنَ اللهِ بشرٌ مثلُهُمْ ، فحسدُوهُمْ ، وأحبُّوا زوالَ النبوَّةِ عنهُمْ ؛ جزعاً أنْ يفضلَ عليهِمْ مَنْ هوَ مثلُهُمْ في الخلقةِ ، لا عنْ قصدِ تكبُّرٍ ، وطلبِ رئاسةٍ ، وتقدُّمِ عداوةٍ ، أوْ سببٍ آخرَ مِنْ سائرِ الأسبابِ .

وقالُوا متعجِّبينَ : ﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴾[(٤)] ، وقالُوا : ﴿ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾[(٥)] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ . . . ﴾ الآيةَ[(٦)] .

❁ ❁ ❁

السببُ الخامسُ : الخوفُ مِن فوتِ المقاصدِ :

وذٰلكَ يختصُّ بمتزاحمينَ علىٰ مقصودٍ واحدٍ ، فإنَّ كلَّ واحدٍ يحسُدُ صاحبَه علىٰ كلِّ نعمةٍ تكونُ عوناً لَهُ في الانفرادِ بمقصودِهِ ،

---

(١) سورة يسٓ : (١٥) .
(٢) سورة المؤمنون : (٤٧) .
(٣) سورة المؤمنون : (٣٤) .
(٤) سورة الإسراء : (٩٤) .
(٥) سورة الفرقان : (٢١) .
(٦) سورة الأعراف : (٦٣) .

ومِنْ هٰذا الجنسِ تحاسدُ الضَّرَّاتِ في التزاحمِ علىٰ مقاصدِ الزوجيَّةِ ، وتحاسدُ الإخوةِ في التزاحمِ علىٰ نيلِ المنزلةِ في قلبِ الأبوينِ ؛ للتوصُّلِ بهِ إلىٰ مقاصدِ الكرامةِ والمالِ .

وكذٰلكَ تحاسدُ التلميذينِ لأستاذٍ واحدٍ في نيلِ المنزلةِ في قلبِ الأستاذِ ، وتحاسدُ ندماءِ الملكِ وخواصِّهِ علىٰ نيلِ المنزلةِ مِنْ قلبِهِ ؛ للتوصُّلِ بهِ إلى الجاهِ والمالِ .

وكذٰلكَ تحاسدُ الواعظينِ المتزاحمينِ علىٰ أهلِ بلدةٍ واحدةٍ ، إذا كانَ غرضُهما نيلَ المالِ منَ القبولِ عندَهُمْ ، وكذٰلكَ تحاسدُ العالمينِ المتزاحمينِ علىٰ طائفةٍ مِنَ المتفقِّهةِ محصورينَ ؛ إذْ يطلبُ كلُّ واحدٍ منزلةً في قلوبِهِمْ ؛ للتوصُّلِ بهِمْ إلىٰ أغراضٍ لهُ .

❊ ❊ ❊

السببُ السادسُ : حبُّ الرئاسةِ ، وطلبُ الجاهِ لنفسِهِ مِنْ غيرِ توصُّلٍ بهِ إلىٰ مقصودٍ :

وذٰلكَ كالرجلِ الذي يريدُ أنْ يكونَ عديمَ النظيرِ في فنٍّ مِنَ الفنونِ ، إذا غلبَ عليهِ حبُّ الثناءِ ، واستفزَّهُ الفرحُ بما يُمدحُ بهِ مِنْ أنَّهُ واحدُ الدهرِ وفريدُ العصرِ في فنِّهِ ، وأنَّهُ لا نظيرَ لهُ ، فإنَّهُ لوْ سمعَ بنظيرٍ لهُ في أقصى العالمِ . . ساءَهُ ذٰلكَ ، وأحبَّ موتَهُ ، أوْ زوالَ النعمةِ التي بها يشاركُهُ في المنزلةِ ؛ مِنْ شجاعةٍ ، أوْ علمٍ ، أوْ عبادةٍ ، أوْ صناعةٍ ، أوْ جمالٍ ، أوْ ثروةٍ ، أوْ غيرِ ذٰلكَ ممَّا يتفرَّدُ هوَ بهِ ، ويفرحُ بسببِ تفرُّدِهِ .

وليسَ السببُ في هٰذا عداوةً ، ولا تعزُّزاً ، ولا تكبراً على المحسودِ ، ولا خوفاً مِنْ فواتِ مقصودٍ ، سوىٰ محضِ الرئاسةِ بدعوى الانفرادِ ، وهٰذا وراءَ ما بينَ آحادِ العلماءِ مِنْ طلبِ الجاهِ والمنزلةِ في قلوبِ الناسِ للتوصُّلِ إلىٰ مقاصدَ سوى الرئاسةِ .

وقدْ كانَ علماءُ اليهودِ ينكرونَ معرفةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ولا يؤمنونَ بهِ ؛ خيفةً مِنْ أنْ تبطلَ رئاستُهُمْ واستتباعُهُمْ مهما نُسِخَ علمُهُمْ .

❁ ❁ ❁

السببُ السابعُ : خبثُ النفسِ وشحُّها بالخيرِ لعبادِ اللهِ تعالىٰ :

فإنَّكَ تجدُ مَنْ لا يشتغلُ برئاسةٍ ولا تكبرٍ ولا طلبِ مالٍ ، إذا وصِفَ عندَهُ حسنُ حالِ عبدٍ مِنْ عبادِ اللهِ فيما أنعمَ اللهُ بهِ عليهِ . . شقَّ عليهِ ذٰلكَ .

وإذا وُصِفَ لهُ اضطرابُ أمورِ الناسِ ، وإدبارُهُمْ ، وفواتُ مقاصدِهِمْ ، وتنغُّصُ عيشِهِمْ . . فرحَ بهِ ، فهوَ أبداً يحبُّ الإدبارَ لغيرِهِ ، ويبخلُ بنعمةِ اللهِ علىٰ عبادِهِ ، كأنَّهُم يأخذونَ ذٰلكَ مِنْ ملكِهِ وخزانتِهِ .

ويُقالُ : البخيلُ : مَنْ يبخلُ بمالِ نفسِهِ ، والشحيحُ : هوَ الذي يبخلُ بمالِ غيرِهِ ، فهٰذا يبخلُ بنعمةِ اللهِ تعالىٰ علىٰ عبادِهِ الذينَ ليسَ بينَهُ وبينهُمْ عداوةٌ ولا رابطةٌ ، وهٰذا ليسَ لهُ سببٌ ظاهرٌ إلا خبثٌ في النفسِ ، ورذالةٌ في الطبعِ ، عليهِ وقعَتِ الجبلَّةُ ، ومعالجتُهُ شديدةٌ ؛ لأنَّ الحسدَ الثابتَ بسائرِ الأسبابِ أسبابُهُ عارضةٌ يُتصوَّرُ

زوالُها ، فيطمعُ في إزالتِها ، وهـٰذا خبثٌ في الجبلَّةِ ، لا عنْ سببٍ عارضٍ ؛ فتعسرُ إزالتُهُ ؛ إذْ يستحيلُ في العادةِ إزالتُهُ .

❁ ❁ ❁

فهـٰذهِ هيَ أسبابُ الحسدِ ، وقدْ يجتمعُ بعضُ هـٰذهِ الأسبابِ أوْ أكثرُها أوْ جميعُها في شخصٍ واحدٍ فيعظمُ فيهِ الحسدُ بذٰلكَ ، ويقوىٰ قوَّةً لا يقدرُ معها على الإخفاءِ والمجاملةِ ، بلْ يهتكُ حجابَ المجاملةِ ، ويظهرُ العداوةَ بالمكاشفةِ ، وأكثرُ المحاسداتِ تجتمعُ فيها جملةٌ مِنْ هـٰذهِ الأسبابِ ، وقلَّما يتجرَّدُ سببٌ واحدٌ منها .

❁ ❁ ❁

بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والإخوة وبني العم والأقارب وتأكّده وقلّته في غيرهم وضعفه

اعلمْ : أنَّ الحسدَ إنَّما يكثرُ بينَ قومٍ تكثرُ بينهُمُ الأسبابُ التي ذكرْناها ، وإنَّما يقوىٰ بينَ قومٍ تجتمعُ فيهِمْ جملةٌ مِنْ هٰذهِ الأسبابِ وتتظاهرُ ؛ إذِ الشخصُ الواحدُ يجوزُ أنْ يحسدَ ؛ لأنَّهُ يمتنعُ عنْ قبولِ التكبُّرِ ، ولأنَّهُ يتكبَّرُ ، ولأنَّهُ عدوٌّ ، ولغيرِ ذٰلكَ مِنَ الأسبابِ .

وهٰذهِ الأسبابُ إنَّما تكثرُ بينَ أقوامٍ تجمعُهُمْ روابطُ يجتمعونَ بسببِها في مجالسِ المخاطباتِ ، ويتواردونَ على الأغراضِ .

فإذا خالفَ واحدٌ صاحبَهُ في غرضٍ مِنْ أغراضِهِ . . نفرَ عنهُ طبعُهُ ، وأبغضَهُ ، وثبتَ الحقدُ في قلبِهِ ، فعندَ ذٰلكَ يريدُ أنْ يستحقرَهُ ويتكبَّرَ عليهِ ، ويكافئَهُ علىٰ مخالفتِهِ لغرضِهِ ، ويكرهُ تمكُّنَهُ مِنَ النعمةِ التي توصلُهُ إلىٰ أغراضِهِ ، وتترادفُ جملةٌ مِنْ هٰذهِ الأسبابِ ؛ إذْ لا رابطةَ بينَ شخصينِ في بلدتينِ متنائيتينِ ؛ فلا يكونُ بينَهما محاسدةٌ ، وكذٰلكَ في محلَّتينِ .

نعمْ ؛ إذا تجاورا في مسكنٍ ، أوْ سوقٍ ، أوْ مسجدٍ ، أوْ مدرسةٍ . . تواردا علىٰ مقاصدَ تتناقضُ فيها أغراضُهُما ، فيثورُ مِنَ التناقضِ التنافرُ والتباغضُ ، ومنهُ تثورُ بقيَّةُ أسبابِ الحسدِ ، فلذٰلكَ ترى العالمَ يحسدُ العالمَ دونَ العابدِ ، والعابدُ يحسدُ العابدَ دونَ العالمِ ،

والتاجرُ يحسدُ التاجرَ ، بلِ الإسكافُ يحسدُ الإسكافَ ، ولا يحسدُ البزَّازَ إلَّا بسببٍ آخرَ سوى الاجتماعِ في الحرفةِ ، ويحسدُ الرجلُ أخاهُ وابنَ عمِّهِ أكثرَ ممَّا يحسدُ الأجانبَ ، والمرأةُ تحسُدُ ضرَّتَها وسُرِّيَّةَ زوجِها أكثرَ مما تحسُدُ أمَّ الزوجِ وابنتَهُ ؛ لأنَّ مقصدَ البزَّازِ غيرُ مقصدِ الإسكافِ ؛ فلا يتزاحمونَ على المقاصدِ ؛ إذْ مقصدُ البزَّازِ الثروةُ ، ولا يحصِّلُها إلا بكثرةِ الزبونِ ، وإنَّما ينازعُهُ فيهِ بزَّازٌ آخرُ ؛ إذْ حَرِيفُ البزَّازِ لا يطلبُهُ الإسكافُ [1] ، بلِ البزَّازُ ، ثمَّ مزاحمةُ البزَّازِ المجاورِ لهُ أكثرُ مِنْ مزاحمةِ البعيدِ عنهُ إلىٰ طرفِ السوقِ ؛ فلا جرمَ يكونُ حسدُهُ للجارِ أكثرَ .

وكذٰلكَ الشجاعُ يحسدُ الشجاعَ ، ولا يحسدُ العالمَ ؛ لأنَّ مقصدَهُ أنْ يُذكرَ بالشجاعةِ ، ويُشتهرَ بها ، وينفردَ بهٰذهِ الخصلةِ ، ولا يزاحمُهُ العالمُ علىٰ هٰذا الغرضِ ، وكذٰلكَ يحسُدُ العالمُ العالمَ ، ولا يحسدُ الشجاعَ ، ثمَّ حسدُ الواعظِ للواعظِ أكثرُ مِنْ حسدِهِ للفقيهِ والطبيبِ ؛ لأنَّ التزاحمَ بينَهُما علىٰ مقصودٍ واحدٍ أخصَّ .

فأصلُ هٰذهِ المحاسداتِ العداوةُ ، وأصلُ العداوةِ التزاحمُ بينهُما علىٰ غرضٍ واحدٍ ، والغرضُ الواحدُ لا يجمعُ متباعدينِ بلْ متناسبينِ ؛ فلذٰلكَ يكثرُ الحسدُ بينهُما .

نعمْ ؛ مَنِ اشتدَّ حرصُهُ على الجاهِ ، وأحبَّ الصيتَ في جميعِ أطرافِ العالمِ بما هوَ فيهِ . . فإنَّهُ يحسُدُ كلَّ مَنْ هوَ في العالمِ

---

(١) **الحريف** : المعامل ، والجمع حرفاء ؛ كشريف وشرفاء . « إتحاف » (٦٧/٨) .

ـ وإنْ بعدَ ـ ممَّنْ يساهمُهُ في الخصلةِ التي يتفاخرُ بها .

ومنشأُ جميعِ ذٰلكَ حبُّ الدنيا ؛ فإنَّ الدنيا هيَ التي تضيقُ على المتزاحمينَ ، أمَّا الآخرةُ . . فلا ضيقَ فيها ، وإنَّما مثالُ الآخرةِ نعمةُ العلمِ ، فلا جرمَ مَنْ يحبُّ معرفةَ اللهِ تعالىٰ ، ومعرفةَ صفاتِهِ ، وملائكتِهِ ، وأنبيائِهِ ، وملكوتِ أرضِهِ وسمائِهِ . . لمْ يحسُدْ غيرَهُ إذا عرفَ ذٰلكَ أيضاً ؛ لأنَّ المعرفةَ لا تضيقُ عنِ العارفينَ ، بلِ المعلومُ الواحدُ يعرفُهُ ألفُ ألفِ عالمٍ ، ويفرحُ بمعرفتِهِ ، ويلْتَذُّ بهِ ، ولا تنقصُ لذَّةُ واحدٍ بسببِ غيرِهِ ، بلْ يحصُلُ بكثرةِ العارفينَ زيادةُ الأنسِ ، وثمرةُ الإفادةِ والاستفادةِ ؛ فلذٰلكَ لا يكونُ بينَ علماءِ الدينِ محاسدةٌ ؛ لأنَّ مقصودَهُمْ معرفةُ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ بحرٌ واسعٌ لا ضيقَ فيهِ ، وغرضُهُمْ المنزلةُ عندَ اللهِ تعالىٰ ، ولا ضيقَ أيضاً فيما عندَ اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ أجملَ ما عندَ اللهِ مِنَ النعيمِ لذَّةُ لقائِهِ ، وليسَ فيهِ ممانعةٌ ومزاحمةٌ ، ولا يضيِّقُ بعضُ الناظرينَ علىٰ بعضٍ ، بلْ يزيدُ الأنسُ بكثرتِهِمْ .

نعمْ ؛ إذا قصدَ العلماءُ بالعلمِ المالَ والجاهَ . . تحاسدوا ؛ لأنَّ المالَ هوَ أعيانٌ وأجسامٌ ، إذا وقعَتْ في يدِ واحدٍ . . خلَتْ عنها يدُ الآخرِ ، ومعنى الجاهِ : ملكُ القلوبِ ، ومهما امتلأَ قلبُ شخصٍ بتعظيمِ عالمٍ . . انصرفَ عنْ تعظيمِ الآخرِ أوْ نقصَ عنهُ لا محالةَ ، فيكونُ ذٰلكَ سبباً للمحاسدةِ ، وإذا امتلأَ قلبٌ بالفرحِ بمعرفةِ اللهِ تعالىٰ . . لمْ يمنعْ ذٰلكَ أنْ يمتلئَ قلبُ غيرِهِ بها ، وأنْ يفرحَ بذٰلكَ .

فالفرقُ بينَ العلمِ والمالِ : أنَّ المالَ لا يحُلُّ في يدٍ ما لمْ يرتحلْ

عنِ اليدِ الأخرىٰ ، والعلمُ في قلبِ العالمِ مستقرٌّ ، ويحلُّ في قلبِ غيرِهِ بتعليمِهِ مِنْ غيرِ أنْ يرتحلَ عنْ قلبِهِ ، وأنَّ المالَ أجسامٌ وأعيانٌ ولها نهايةٌ ، فلوْ ملكَ الإنسانُ جميعَ ما في الأرضِ . . لَمْ يبقَ بعدَهُ مالٌ يتملَّكُهُ غيرُهُ ، والعلمُ لا نهايةَ لهُ ، ولا يُتصوَّرُ استيعابُهُ ، فمَنْ عوَّدَ نفسَهُ الفكرَ في جلالِ اللهِ وعظمتِهِ وملكوتِ أرضِهِ وسمائِهِ . . صارَ ذٰلكَ ألذَّ عندَهُ مِنْ كلِّ نعيمٍ ، ولمْ يكنْ ممنوعاً منهُ ، ولا مُزاحَماً فيه ، فلا يكونُ في قلبِهِ حسدٌ لأحدٍ مِنَ الخلقِ ؛ لأنَّ غيرَهُ أيضاً لوْ عرفَ مثلَ معرفتِهِ . . لمْ ينقصْ مِنْ لذَّتِهِ ، بلْ زادَتْ لذَّتُهُ بمؤانستِهِ ، فتكونُ لذَّةُ هٰؤلاءِ في مطالعةِ عجائبِ الملكوتِ على الدوامِ أعظمَ مِنْ لذةِ مَنْ ينظرُ إلىٰ أشجارِ الجنَّةِ وبساتينِها بالعينِ الظاهرةِ ؛ فإنَّ نعيمَ العارفِ وجنَّتَهُ معرفتُهُ التي هيَ صفةُ ذاتِهِ ، يأمنُ زوالَها ، وهوَ أبداً يجني ثمارَها ، فهوَ بروحِهِ وقلبِهِ متغذٍّ بفاكهةِ علمِهِ ، وهيَ فاكهةٌ غيرُ مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ ، بلْ قطوفُها دانيةٌ ، فهوَ وإنْ غمضَ العينَ الظاهرةَ . . فروحُهُ أبداً ترتعُ في جنةٍ عاليةٍ ، ورياضٍ زاهرةٍ ، فإنْ فُرِضَ كثرةٌ في العارفينَ . . لمْ يكونُوا متحاسدينَ ، بلْ كانُوا كما قالَ فيهمْ ربُّ العالمينَ : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [1] ، فهٰذا حالُهُمْ وهُمْ بعدُ في الدنيا ، فماذا يُظَنُّ بهِمْ عندَ انكشافِ الغطاءِ ومشاهدةِ المحبوبِ في العُقبىٰ ؟!

❁ ❁ ❁

(١) سورة الحجر : (٤٧) .

فإذاً ؛ لا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ في الجنةِ محاسدةٌ ، ولا أنْ يكونَ بينَ أهلِ الجنةِ في الدنيا محاسدةٌ ؛ لأنَّ الجنَّةَ لا مضايقةَ ولا مزاحمةَ فيها ، ولا تُنالُ إلا بمعرفةِ اللهِ تعالى ، التي لا مزاحمةَ فيها في الدنيا أيضاً ، فأهلُ الجنةِ بالضَّرورةِ برآءُ مِنَ الحسدِ في الدنيا والآخرةِ جميعاً ، بلِ الحسدُ مِنْ صفاتِ المبعدينَ عنْ سعةِ علِّيِّينَ إلىٰ مضيقِ سجينٍ ، ولذٰلكَ وُسِمَ بهِ الشيطانُ اللعينُ ، وذُكرَ مِنْ صفاتِهِ أنَّهُ حسدَ آدمَ علىٰ ما خُصَّ بهِ مِنَ الاجتباءِ ، ولمَّا دُعِيَ إلى السجودِ . . استكبرَ وأبىٰ ، وتمردَّ وعصىٰ .

فقدْ عرفتَ أنَّهُ لا حسدَ إلا للتواردِ علىٰ مقصودٍ يضيقُ عنِ الوفاءِ بالكلِّ ، ولهٰذا لا ترى الناسَ يتحاسدُونَ على النظرِ إلىٰ زينةِ السماءِ ، ويتحاسدونَ على البساتينِ التي هيَ جزءٌ يسيرٌ مِنْ جملةِ الأرضِ ، وكلُّ الأرضِ لا وزنَ لها بالإضافةِ إلى السماءِ ، ولٰكنَّ السماءَ لسعةِ الأقطارِ وافيةٌ بجميعِ الأبصارِ ، فلمْ يكنْ فيها تزاحمٌ ولا تحاسدٌ أصلاً .

فعليكَ ـ إنْ كنتَ بصيراً وعلىٰ نفسكَ مشفقاً ـ أنْ تطلبَ نعيماً لا زحمةَ فيهِ ، ولذةً لا مكدِّرَ لها ، ولا يُوجدُ ذٰلكَ في الدنيا إلا في معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، ومعرفةِ صفاتِهِ وأفعالِهِ ، وعجائبِ ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، ولا يُنالُ ذٰلكَ في الآخرةِ إلا بهٰذهِ المعرفةِ أيضاً ، فإنْ كنتَ لا تشتاقُ إلىٰ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، ولمْ تجدْ لذَّتَها ، وفترَ عنكَ رأيُكَ ، وضعفَتْ فيها رغبتُكَ . . فأنتَ في ذٰلكَ معذورٌ ؛ إذِ العنِّينُ لا

يشتاقُ إلىٰ لذَّةِ الوقاعِ ، والصبيُّ لا يشتاقُ إلىٰ لذةِ الملكِ ، فإنَّ هـٰذهِ لذاتٌ يختصُّ بإدراكِها الرجالُ دونَ الصبيانِ والمخنثينَ ، فكذٰلكَ لذةُ المعرفةِ يختصُّ بإدراكِها الرجالُ ، ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[1] ، ولا يشتاقُ إلىٰ هـٰذهِ اللذَّةِ غيرُهُمْ ؛ لأنَّ الشوقَ بعدَ الذوقِ ، ومَنْ لمْ يذقْ . . لمْ يعرِفْ ، ومَنْ لمْ يعرِفْ . . لمْ يشتَقْ ، ومَنْ لمْ يشتَقْ . . لمْ يطلُبْ ، ومَنْ لمْ يطلُبْ . . لمْ يدرِكْ ، ومَنْ لمْ يدرِكْ . . بقيَ معَ المحرومينَ في أسفلِ السافلينَ ، ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾[2] .

* * *

(١) سورة النور : (٣٧) .

(٢) سورة الزخرف : (٣٦) .

بيان الدواء الذي به ينفى مرض الحسد عن القلب

اعلمْ : أنَّ الحسدَ مِنَ الأمراضِ العظيمةِ للقلوبِ ، ولا تُداوىٰ أمراضُ القلوبِ إلَّا بالعلمِ والعملِ .

❀ ❀ ❀

والعلمُ النافعُ لمرضِ الحسدِ : هوَ أنْ تعرفَ تحقيقاً أنَّ الحسدَ ضررٌ عليكَ في الدنيا والدينِ ، وأنَّهُ لا ضررَ فيهِ على المحسودِ في الدنيا والدينِ ، بلْ ينتفعُ بهِ في الدنيا والدينِ ، ومهما عرفتَ هٰذا عنْ بصيرةٍ ، ولمْ تكنْ عدوَّ نفسِكَ وصديقَ عدوِّكَ . . فارقتَ الحسدَ لا محالةَ .

أمَّا كونُهُ ضرراً عليكَ في الدينِ : فهوَ أنَّكَ بالحسدِ سخطتَ قضاءَ اللهِ تعالىٰ ، وكرهتَ نعمتَهُ التي قسمَها لعبادِهِ ، وعدلَهُ الذي أقامَهُ في ملكِهِ بخفيِّ حكمتِهِ ، فاستنكرتَ ذٰلكَ واستبشعتَهُ ، وهٰذهِ جنايةٌ علىٰ حدقةِ التوحيدِ ، وقذىً في عينِ الإيمانِ ، وناهيكَ بهِما جنايةً على الدينِ ، وقدِ انضافَ إلىٰ ذٰلكَ أنَّكَ غششتَ رجلاً مِنَ المؤمنينَ ، وتركتَ نصيحتَهُ ، وفارقتَ أولياءَ اللهِ وأنبياءَهُ في حبِّهِمُ الخيرَ لعبادِ اللهِ تعالىٰ ، وشاركتَ إبليسَ وسائرَ الكفارِ في محبَّتِهِمْ للمؤمنينَ البلايا وزوالَ النعمِ ، وهٰذهِ خبائثُ في القلبِ ، تأكلُ حسناتِ القلبِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ ، وتمحوها كما يمحو الليلُ النهارَ .

وأمَّا كونُهُ ضرراً عليكَ في الدنيا : فهوَ أنَّكَ تتألَّمُ بحسدِكَ في الدنيا أوْ تتعذَّبُ بهِ ولا تزالُ في كمدٍ وغمّ ؛ إذْ أعداؤُكَ لا يخليهِمُ اللهُ عنْ نعمٍ يفيضُها عليهِمْ ، فلا تزالُ تتعذَّبُ بكلِّ نعمةٍ تراها ، وتتألَّمُ بكلِّ بليَّةٍ تنصرفُ عنهُمْ ، فتبقىٰ مغموماً محروماً متشعِّبَ القلبِ ، ضيِّقَ الصدرِ قدْ نزلَ بكَ ما يشتهيهِ الأعداءُ لكَ وتشتهيهِ لأعدائِكَ ، فقدْ كنتَ تريدُ المحنةَ لعدوِّكَ ، فتنجَّزَتْ في الحالِ محنتُكَ وغمُّكَ نقداً ، ومعَ هٰذا فلا تزولُ النعمةُ عنِ المحسودِ بحسدِكَ ، ولوْ لمْ تكنْ تؤمنُ بالبعثِ والحسابِ . . لكانَ مقتضى الفطنةِ ـ إن كنتَ عاقلاً ـ أنْ تحذرَ مِنَ الحسدِ ؛ لما فيهِ مِنْ ألمِ القلبِ ومساءَتِهِ ، معَ عدمِ النفعِ ، فكيفَ وأنتَ عالمٌ بما في الحسدِ مِنَ العذابِ الشديدِ في الآخرةِ ، فما أعجبَ مِنَ العاقلِ أنْ يتعرَّضَ لسخطِ اللهِ تعالىٰ مِنْ غيرِ نفعٍ ينالُهُ ، بلْ معَ ضررٍ يحتملُهُ ، وألمٍ يقاسيهِ ، فيهلكُ دينَهُ ودنياهُ مِنْ غيرِ جدوىٰ ولا فائدةٍ !!

وأمَّا أنَّهُ لا ضررَ فيهِ على المحسودِ في دينِهِ ودنياهُ : فواضحٌ ؛ لأنَّ النعمةَ لا تزولُ عنهُ بحسدِكَ ، بلْ ما قدَّرَهُ اللهُ تعالىٰ مِنْ إقبالٍ ونعمةٍ فلا بدَّ أنْ يدومَ إلىٰ أجلٍ معلومٍ قدَّرَهُ اللهُ سبحانَهُ ، فلا حيلةَ في دفعِهِ ، بلْ كلُّ شيءٍ عندَهُ بمقدارٍ ، ولكلِّ أجلٍ كتابٌ ، ولذٰلكَ شكا نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ مِنِ امرأةٍ ظالمةٍ مستوليةٍ على الخلقِ ، فأوحى اللهُ إليهِ : (فرَّ مِنْ قُدَّامِها حتَّىٰ تنقضيَ أيامُها) أي : ما قدرناهُ في الأزلِ لا سبيلَ إلىٰ تغييرِهِ ، فاصبرْ حتَّىٰ تنقضيَ المدَّةُ التي سبقَ القضاءُ بدوامِ

إقبالِها فيها ، ومهما لمْ تزلِ النعمةُ بالحسدِ . . لم يكنْ على المحسودِ ضررٌ في الدنيا ، ولا يكونُ عليهِ إثمٌ في الآخرةِ .

ولعلكَ تقولُ : ليتَ النعمةَ كانَتْ تزولُ عنِ المحسودِ بحسدِي ، **وهـٰذا غايةُ الجهلِ** ؛ فإنَّهُ بلاءٌ تشتهيهِ أوَّلاً لنفسِكَ ، فإنَّكَ أيضاً لا تخلو عنْ عدوٍّ يحسدُكَ ، فلوْ كانَتِ النعمةُ تزولُ بالحسدِ . . لم تبقَ للهِ تعالىٰ عليكَ نعمةٌ ، ولا على الخلقِ ، ولا نعمةُ الإيمانِ أيضاً ؛ لأنَّ الكفارَ يحسدونَ المؤمنينَ على الإيمانِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ مخبراً عنْ حسدِهِمْ : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾[1] .

إذْ ما يريدُهُ الحسودُ لا يكونُ .

نعمْ ؛ هوَ يضلُّ بإرادتِهِ الضلالَ لغيرِهِ ، فإنَّ إرادةَ الكفرِ كفرٌ ، فمَنِ اشتهىٰ أنْ تزولَ النعمةُ عنِ المحسودِ بالحسَدِ . . فكأنَّهُ يريدُ أنْ يُسلبَ نعمةَ الإيمانِ بحسدِ الكفارِ ، وكذٰلكَ سائرُ النعمِ .

وإنِ اشتهيتَ أنْ تزولَ النعمةُ عنِ الخلقِ بحسدِكَ ولا تزولَ عنكَ بحسدِ غيرِكَ . . فهـٰذا غايةُ الجهلِ والغباوةِ ، فإنَّ كلَّ واحدٍ مِنْ حمقى الحسَّادِ أيضاً يشتهي أنْ يُخصَّ بهـٰذهِ الخاصيَّةِ ، ولستَ بأولىٰ مِنْ غيرِكَ ، فنعمةُ اللهِ عليكَ في أنْ لمْ تزُلِ النعمةُ بالحسدِ ممَّا يجبُ عليكَ شكرُها ، وأنتَ بجهلِكَ تكرهُها .

---

(١) سورة البقرة : (١٠٩) .

وأمَّا أنَّ المحسودَ ينتفعُ بهِ في الدينِ والدنيا . . فواضحٌ :

أمَّا منفعتُهُ في الدينِ : فهوَ أنَّهُ مظلومٌ مِنْ جهتِكَ ، لا سيَّما إذا أخرجَكَ الحسدُ إلى القولِ والفعلِ ؛ بالغيبةِ ، والقدحِ فيهِ ، وهتكِ سترِهِ ، وذكرِ مساويهِ ، فهٰذهِ هدايا تهديها إليهِ ؛ أعني : أنَّكَ بذٰلكَ تُهدي إليهِ حسناتِكَ ، حتَّىٰ تلقاهُ يومَ القيامةِ مفلساً محروماً عنِ النعمةِ ، كما حرمتَ في الدنيا مِنَ النعمةِ ، فكأنَّكَ أردتَ زوالَ النعمةِ عنهُ فلمْ تزُلْ .

نعمْ ؛ كانَ للهِ عليهِ نعمةٌ ؛ إذْ وفقَكَ للحسناتِ ، فنقلتَها إليهِ ، فأضفتَ لهُ نعمةً إلىٰ نعمةٍ ، وأضفتَ لنفسِكَ شقاوةً إلىٰ شقاوةٍ .

وأمَّا منفعتُهُ في الدنيا : فهوَ أنَّ أهمَّ أغراضِ الخلقِ مساءةُ الأعداءِ ، وغمُّهُمْ ، وشقاوتُهُمْ ، وكونُهُمْ معذَّبينَ مغمومينَ ، ولا عذابَ أعظمُ ممَّا أنتَ فيهِ مِنْ ألمِ الحسدِ ، وغايةُ أماني أعدائِكَ : أنْ يكونُوا في نعمةٍ ، وأنْ تكونَ في غمٍّ وحسرةٍ بسببِهِمْ ، وقدْ فعلتَ بنفسِكَ ما هوَ مرادُهُمْ ؛ ولذٰلكَ لا يشتهي عدوُّكَ موتَكَ ، بلْ يشتهي أنْ تطولَ حياتُكَ ، ولٰكنْ في عذابِ الحسَدِ ؛ لتنظرَ إلىٰ نعمةِ اللهِ عليهِ فينقطعَ قلبُكَ حسداً ، ولذٰلكَ قيلَ [1] : [من السريع]

لا ماتَ أَعْداؤُكَ بَلْ خَلَدُوا حَتَّىٰ يَرَوا فِيكَ الَّذي يُكْمِدُ

(1) انظر « حماسة الظرفاء » (٢/١٩٧) .

لا زِلْتَ مَحْسُوداً عَلَىٰ نِعْمَةٍ فَإِنَّما الْكامِلُ مَنْ يُحْسَدُ

ففرحُ عدوِّكَ بغمِّكَ وحسدِكَ أعظمُ مِنْ فرحِهِ بنعمتِهِ ، ولوْ علمَ خلاصَكَ مِنْ ألمِ الحسدِ وعذابِهِ . . لكانَ ذٰلكَ أعظمَ مصيبةٍ وبليَّةٍ عندَهُ ، فما أنتَ فيما تلازمُهُ مِن غمِّ الحسدِ إلَّا كما يشتهيهِ عدوُّكَ .

❀ ❀ ❀

فإذا تأمَّلتَ هٰذا . . عرفتَ أنَّكَ عدوُّ نفسِكَ ، وصديقُ عدوِّكَ ؛ إذْ تعاطيتَ ما تضررتَ بهِ في الدنيا والآخرةِ ، وانتفعَ بهِ عدوُّكَ في الدنيا والآخرةِ ، وصرتَ مذموماً عندَ الخلقِ والخالقِ ، شقيّاً في الحالِ والمآلِ ، ونعمةُ المحسودِ دائمةٌ ، شئتَ أمْ أبيتَ باقيةٌ .

ثمَّ لمْ تقتصرْ علىٰ تحصيلِ مرادِ عدوِّكَ ، حتَّىٰ توصَّلتَ إلىٰ إدخالِ أعظمِ سرورٍ علىٰ إبليسَ الذي هوَ أعدىٰ أعدائِكَ ؛ لأنَّهُ لمَّا رآكَ محروماً مِنْ نعمةِ العلمِ والورعِ والجاهِ والمالِ الذي اختُصَّ بهِ عدوُّكَ عنكَ . . خافَ أنْ تحبَّ ذٰلكَ لهُ ، فتشاركَهُ في الثوابِ بسببِ المحبَّةِ ؛ لأنَّ مَنْ أحبَّ الخيرَ للمسلمينَ . . كانَ شريكاً في الخيرِ ، ومَنْ فاتَهُ اللحاقُ بدرجةِ الأكابرِ في الدينِ . . لمْ يفتْهُ ثوابُ الحُبِّ لهمْ مهما أحبَّ ذٰلكَ ، فخافَ إبليسُ أنْ تحبَّ ما أنعمَ اللهُ بهِ علىٰ عبدِهِ في دينِهِ ودنياهُ ، فتفوزَ بثوابِ الحبِّ ، فبغَّضَهُ إليكَ حتَّىٰ لا تلحقَهُ بحبِّكَ ، كما لمْ تلحقْهُ بعمَلِكَ .

وقدْ قالَ أعرابيٌّ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : يا رسولَ اللهِ ؛

الرجلُ يحبُّ القومَ ولـمَّا يلحقْ بهِمْ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المرءُ معَ مَنْ أحبَّ »(١) .

وقامَ أعرابيٌّ ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يخطبُ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ متى الساعةُ ؟ فقالَ : « ما أعددْتَ لها ؟ » قالَ : ما أعددْتُ لها كثيرَ صلاةٍ ولا صيامٍ ، إلا أنِّي أحبُّ اللهَ ورسولَهُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنتَ معَ مَنْ أحببتَ » ، قالَ أنسٌ : فما فرحَ المسلمونَ بعدَ إسلامِهِمْ كفرحِهِم يومئذٍ ؛ إشارةً إلىٰ أنَّ أكثرَ ثقتِهِمْ كانَ بحبِّ اللهِ ورسولِهِ ، قالَ أنسٌ : فنحنُ نحبُّ رسولَ اللهِ وأبا بكرٍ وعمرَ ولا نعملُ بمثلِ عملِهِمْ ، ونرجُو أنْ نكونَ معَهُمْ(٢) .

وقالَ أبو موسى الأشعريُّ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ الرجلُ يحبُّ المصلِّينَ ولا يصلِّي ، ويحبُّ الصُّوَّامَ ولا يصومُ ، حتىٰ عدَّ أشياءَ ، فقالَ : النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هوَ معَ مَنْ أحبَّ »(٣) .

وقالَ رجلٌ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ : إنَّهُ كانَ يُقالُ : إنِ استطعتَ أنْ تكونَ عالماً . . فكنْ عالماً ، فإنْ لمْ تستطعْ أنْ تكونَ عالماً . . فكُنْ متعلِّماً ؛ فإنْ لمْ تستطعْ أنْ تكونَ متعلِّماً . . فأحبَّهُمْ ، فإنْ لم

---

(١) رواه البخاري (٦١٦٩) ، ومسلم (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٣٦٨٨) ، ومسلم (٢٦٣٩) .

(٣) رواه هناد في « الزهد » (٤٨١) بلفظ المصنف هنا عن عبيد بن عمير مرسلاً ، وهو عند البخاري (٦١٧٠) ، ومسلم (٢٦٤١) من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه وقد سئل صلى الله عليه وسلم : الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ، قال : « المرء مع من أحب » .

تستطِعْ . . فلا تبغضْهُمْ ، فقالَ : سبحانَ اللهِ ؛ لقدْ جعلَ اللهُ لنا مخرجاً !![1] .

فانظرِ الآنَ كيفَ حسدَكَ إبليسُ ، ففوَّتَ عليكَ ثوابَ الحبِّ ، ثمَّ لمْ يقنَعْ بذٰلكَ حتَّىٰ بغَّضَ إليكَ أخاكَ ، وحملَكَ على الكراهةِ حتَّىٰ أثمتَ .

وكيفَ لا وعساكَ تحسدُ رجلاً مِنْ أهلِ العلمِ ، وتحبُّ أنْ يخطئَ في دينِ اللهِ وينكشفَ خطؤُهُ ليُفتضحَ ، وتحبُّ أنْ يخرسَ لسانُهُ حتَّىٰ لا يتكلَّمَ ، أوْ يمرضَ حتَّىٰ لا يعلِّمَ ولا يتعلَّمَ ، وأيُّ إثمٍ يزيدُ علىٰ ذٰلكَ ؟! فليتكَ إذْ فاتَكَ اللحاقُ بهِ ثمَّ اغتمَمْتَ بسببِهِ . . سلمتَ مِنَ الإثمِ وعذابِ الآخرةِ ؛ فقدْ جاءَ في الحديثِ : « أهلُ الجنَّةِ ثلاثةٌ : المحسنُ ، والمحبُّ لهُ ، والكافُّ عنهُ »[2] أيْ : مَنْ يكفُّ عنهُ الأذىٰ ، والحسدَ ، والبغضَ ، والكراهةَ .

فانظرْ كيفَ أبعدَكَ إبليسُ عنْ جميعِ المداخلِ الثلاثةِ ، حتَّىٰ لا تدورَ بها ألبتةَ ، فقدْ نفذَ فيكَ حسدُ إبليسَ وما نفذَ حسدُكَ في عدوِّكَ ، بلْ علىٰ نفسِكَ .

بلْ لوْ كُوشفتَ بحالِكَ في يقظةٍ أوْ منامٍ . . لرأيتَ نفسَكَ ـ أيُّها الحاسدُ ـ في صورةِ مَنْ يرمي حجراً إلىٰ عدوِّهِ ليصيبَ بهِ مقتلَهُ ، فلا

---

(١) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٤٣) .

(٢) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٨/٧٣) ، وتقدم حديث : « من ذب عن عرض أخيه بالغيب . . كان حقاً على الله أن يعتقه من النار » .

يصيبُهُ ، بلْ يرجعُ على حدقتِهِ اليُمنى فيقلعُها ، فيزيدُ غضبُهُ فيعودُ ثانيةً فيرمِيهِ أشدَّ مِنَ الأولى فيرجعُ على عينِهِ الأخرى فيعميها ، فيزدادُ غيظُهُ ، فيعودُ ثالثةً ، فيعودُ على رأسِهِ فيشجُّهُ ، وعدوُّهُ سالمٌ في كلِّ حالٍ ، وهوَ راجعٌ إليهِ مرةً بعدَ أخرى ، وأعداؤُهُ حولَهُ يفرحونَ بِهِ ، ويضحكونَ عليهِ ، وهٰذا حالُ الحسودِ وسخريةِ الشيطانِ منهُ .

لا بلْ حالُك في الحسدِ أقبحُ مِنْ هٰذا ؛ لأنَّ الحجرَ العائدَ لمْ يُفوِّتْ إلا العينَ ، ولوْ بقيَتْ . . لفاتَتْ بالموتِ لا محالةَ ، والحسدُ يعودُ بالإثمِ ، والإثمُ لا يفوتُ بالموتِ ، ولعلَّهُ يسوقُهُ إلى غضبِ اللهِ تعالى وإلى النارِ ، فلأَنْ تذهبَ عينُهُ في الدنيا خيرٌ لهُ مِنْ أنْ تبقى لهُ عينٌ يدخلُ بها النارَ فيقلعُها لهيبُ النارِ .

فانظرْ كيفَ انتقمَ اللهُ مِنَ الحاسدِ ؛ إذْ أرادَ زوالَ النعمةِ عنِ المحسودِ ، فلمْ يزلْها اللهُ عنْهُ ، ثمَّ أزالَها عنِ الحاسدِ ؛ إذِ السلامةُ مِنَ الإثمِ نعمةٌ ، والسلامةُ مِنَ الغمِّ والكمدِ نعمةٌ ، وقدْ زالتا عنهُ ؛ تصديقاً لقولِهِ تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ (١) ، وربَّما يُبتلى بعينِ ما يشتهيهِ لعدوِّهِ ، وقلَّما يشمتُ شامتٌ بمساءَةٍ إلَّا ويُبتلى بمثلِها ، حتَّى قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (ما تمنيتُ لعثمانَ شيئاً إلَّا نزلَ بي ، حتَّى لوْ تمنَّيتُ لهُ القتلَ . . لقتلتُ) (٢) .

---

(١) سورة فاطر : (٤٣) .

(٢) رواه ابن شبة في « تاريخ المدينة المنورة » (٤/١٢٣٥) ، وكان سبب كلامها فيه لكثرة ما كان يبلغها من الشكاية في حقه من قبل جور عماله وإبقائهم على أعمالهم ، فكانت كغيرها من الصحابة يغضبون بذلك منه . « إتحاف » (٨/٧٤) .

فهٰذا إثمُ الحسدِ نفسِهِ ، فكيفَ ما يجرُّ إليهِ الحسدُ ؛ مِنَ الاختلافِ ، وجحودِ الحقّ ، وإطلاقِ اللسانِ واليدِ بالفواحشِ في التشفِّي مِنَ الأعداءِ ، وهوَ الداءُ الذي فيهِ هلَكَتِ الأممُ السالفةُ ؟!

فهٰذهِ هيَ الأدويةُ العلميَّةُ ، فمهما تفكَّرَ الإنسانُ فيها بذهنٍ صافٍ ، وقلبٍ حاضرٍ . . انطفأَتْ مِنْ قلبِهِ نارُ الحسدِ ، وعلمَ أنَّهُ مهلكٌ نفسَهُ ، ومفرحٌ عدوَّهُ ، ومسخطٌ ربَّهُ ، ومنغِّصٌ عيشَهُ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا العملُ النافعُ فيهِ :

فهوَ أنْ يحكِّمَ الحسدَ ، فكلُّ ما يتقاضاهُ الحسدُ مِنْ قولٍ وفعلٍ فينبغي أنْ يكلِّفَ نفسَهُ نقيضَهُ ، فإنْ بعثَهُ الحسدُ على القدحِ في محسودِهِ . . كلَّفَ لسانَهُ المدحَ لهُ والثناءَ عليهِ ، وإنْ حملَهُ على التكبُّرِ عليهِ . . ألزمَ نفسَهُ التواضعَ لهُ والاعتذارَ إليهِ ، وإنْ بعثَهُ علىٰ كفِّ الإنعامِ عنهُ . . ألزمَ نفسَهُ الزيادةَ في الإنعام عليهِ ، فمهما فعلَ ذٰلكَ عنْ تكلُّفٍ وعرفَهُ المحسودُ . . طابَ قلبُهُ وأحبَّهُ ، ومهما ظهرَ حبُّهُ . . عادَ الحاسدُ وأحبَّهُ ، وتولَّدَتْ بينَهُما الموافقةُ التي تقطعُ مادَّةَ الحسدِ ؛ لأنَّ التواضعَ والثناءَ والمدحَ وإظهارَ السرورِ بالنعمةِ يستميلُ قلبَ المنعَمِ عليهِ ، ويسترقُّهُ ويستعطفُهُ ، ويحملُهُ علىٰ مقابلةِ ذٰلكَ بالإحسانِ ، ثمَّ ذٰلكَ الإحسانُ يعودُ إلى الأوّلِ ، فيطيبُ قلبُهُ ، فيصيرُ ما تكلَّفَهُ أوّلاً طبعاً آخراً .

ولا يصدَّنَّهُ عنْ ذٰلكَ قولُ الشيطانِ لهُ : لوْ تواضعتَ وأثنيتَ عليهِ . .

حملَهُ العدوُّ على العجزِ ، أوْ على النفاقِ أوِ الخوفِ ، وأنَّ ذٰلكَ مذلةٌ ومهانةٌ ، فإنَّ ذٰلكَ مِنْ خدعِ الشيطانِ ومكايدِهِ ، بلِ المجاملةُ ـ تكلُّفاً كانَتْ أوْ طبعاً ـ تكسرُ سَوْرَةَ العداوةِ مِنَ الجانبينِ ، وتفلُّ مِنْ غَرْبِها ، وتقودُ القلوبَ إلى التآلفِ والتحابِّ ، وبذٰلكَ تستريحُ القلوبُ مِنْ ألمِ الحسدِ وغمِّ التباغضِ .

فهٰذِهِ هيَ أدويةُ الحسدِ ، وهيَ نافعةٌ جداً ، إلا أنَّها مُرَّةٌ على القلوبِ جدّاً ، ولٰكنَّ النفعَ في الدواءِ المرِّ ، فمَنْ لمْ يصبِرْ علىٰ مرارةِ الدواءِ . . لمْ ينلْ حلاوةَ الشفاءِ ، وإنَّما تهونُ مرارةُ هٰذا الدواءِ ـ أعني : التواضعَ للأعداءِ ، والتقرُّبَ إليهمْ بالمدحِ والثناءِ ـ بقوَّةِ العلمِ بالمعاني التي ذكرْناها ، وقوَّةِ الرغبةِ في ثوابِ الرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ ، وحبِّ ما أحبَّهُ اللهُ ، وعزَّةِ النفسِ وترفُّعِها عنْ أنْ يكونَ في العالمِ شيءٌ علىٰ خلافِ مرادِهِ ، وعندَ ذٰلكَ يريدُ ما يكونُ ؛ إذْ لا مطمعَ في أنْ يكونَ ما يريدُ ، وفواتُ المرادِ ذلٌّ وخِسَّةٌ ، ولا طريقَ إلى الخلاصِ مِنْ هٰذا الذلِّ إلا بأحدِ أمرينِ : إمَّا بأنْ يكونَ ما تريدُ ، أوْ بأنْ تريدَ ما يكونُ ، والأولُ ليسَ إليكَ ، ولا مدخلَ للتكلُّفِ والمجاهدةِ فيهِ ، وأمَّا الثاني . . فللمجاهدةِ فيهِ مدخلٌ ، وتحصيلُهُ بالرياضةِ ممكنٌ ، فيجبُ تحصيلُهُ علىٰ كلِّ عاقلٍ .

هٰذا هوَ الدواءُ الكلِّيُّ .

فأمَّا الدواءُ المفصلُ . . فهوَ تتبُّعُ أسبابِ الحسدِ ؛ مِنَ الكبرِ ، وعزَّةِ النفسِ ، وشدَّةِ الحرصِ علىٰ ما لا يُغني ، وسيأتي تفصيلُ مداواةِ هٰذهِ

الأسبابِ في مواضعِها إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ؛ فإنَّها موادُّ هـٰذا المرضِ ، ولا ينقمعُ المرضُ إلا بقمعِ المادةِ ، فإنْ لمْ تُقمَعِ المادةُ . . لمْ يحصلْ بما ذكرْناهُ إلا تسكينٌ وتطفئةٌ ، ولا يزالُ يعودُ مرّةً بعدَ أخرىٰ ، ويطولُ الجهدُ في تسكينِهِ معَ بقاءِ موادِّهِ ، فإنَّه ما دامَ محبّاً للجاهِ فلا بدَّ وأنْ يحسدَ مَنِ استأثرَ بالجاهِ والمنزلةِ في قلوبِ الناسِ دونَهُ ، ويغمَّهُ ذٰلكَ لا محالةَ ، وإنَّما غايتُهُ : أنْ يهوّنَ الغمَّ علىٰ نفسِهِ ، ولا يظهرَ بلسانِهِ ويدِهِ ، فأمَّا الخلوُّ عنهُ رأساً . . فلا يمكنُهُ ، واللهُ الموفِّقُ .

❋ ❋ ❋

بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب

اعلمْ : أنَّ المؤذيَ ممقوتٌ بالطبعِ ، ومَنْ آذاكَ . . فلا يمكنُكَ ألَّا تبغضَهُ غالباً ، فإذا تيسَّرَتْ لهُ نعمةٌ . . فلا يمكنُكَ ألَّا تكرهَها حتَّىٰ يستويَ عندَكَ حسنُ حالِ عدوِّكَ وسوءُ حالِهِ ، بلْ لا تزالُ تدركُ في النفسِ بينَهما تفرقةً ، ولا يزالُ الشيطانُ ينازعُكَ إلى الحسدِ لهُ .

ولٰكنْ إنْ قويَ ذٰلكَ فيكَ حتَّىٰ بعثَك علىٰ إظهارِ الحسدِ بقولٍ أوْ فعلٍ ، بحيثُ يُعرَفُ ذٰلكَ مِنْ ظاهرِكَ بأفعالِكَ الاختياريةِ . . فأنتَ حسودٌ عاصٍ بحسدِكَ .

وإنْ كففتَ ظاهرَكَ بالكلِّيَّةِ ، إلا أنَّكَ بباطنِكَ تحبُّ زوالَ النعمةِ ، وليسَ في نفسِكَ كراهةٌ لهٰذهِ الحالةِ . . فأنتَ أيضاً حسودٌ عاصٍ ؛ لأنَّ الحسدَ صفةُ القلبِ لا صفةُ الفعلِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾[١] ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾[٢] ، وقالَ : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾[٣] .

أمَّا الفعلُ . . فهوَ غيبةٌ وكذبٌ ، وهوَ عملٌ صادرٌ عنِ الحسدِ ، وليسَ هوَ عينَ الحسدِ ، بلْ محلُّ الحسدِ القلبُ دونَ الجوارحِ .

---

(١) سورة الحشر : (٩) .

(٢) سورة النساء : (٨٩) .

(٣) سورة آل عمران : (١٢٠) .

نعمْ ؛ هٰذا الحسدُ ليسَ مظلمةً يجبُ الاستحلالُ منها ، بلْ هوَ معصيةٌ بينَكَ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّما يجبُ الاستحلالُ مِنَ الأسبابِ الظاهرةِ على الجوارحِ .

فأمَّا إذا كففتَ ظاهرَكَ ، وألزمتَ معَ ذٰلكَ قلبَكَ كراهةَ ما يترشَّحُ منهُ بالطبعِ ؛ مِنْ حبِّ زوالِ النعمةِ حتَّىٰ كأنَّكَ تمقتُ نفسَكَ علىٰ ما في طبعِها ، فتكونُ تلكَ الكراهةُ مِنْ جهةِ العقلِ في مقابلةِ الميلِ مِنْ جهةِ الطبعِ . . فقدْ أدَّيتَ الواجبَ عليكَ ، ولا يدخلُ تحتَ اختيارِكَ في أغلبِ الأحوالِ أكثرُ مِنْ هٰذا .

فأمَّا تغييرُ الطبعِ ليستويَ عندَهُ المؤذي والمحسنُ ، ويكونَ فرحُهُ أوْ غمُّهُ بما يتيسَّرُ لهما مِنْ نعمةٍ ، أوْ ينصبُّ عليهما مِنْ بليةٍ سواءً . . فهٰذا ممَّا لا يطاوعُ الطبعُ عليهِ ما دامَ ملتفتاً إلىٰ حظوظِ الدنيا ، إلَّا أنْ يصيرَ مستغرقاً بحبِّ اللهِ تعالىٰ ؛ مثلَ السكرانِ الوالِهِ ، فقدْ ينتهي أمرُهُ إلىٰ ألَّا يلتفتَ قلبُهُ إلىٰ تفاصيلِ أحوالِ العبادِ ، بلْ ينظرُ إلى الكلِّ بعينٍ واحدةٍ ، وهيَ عينُ الرحمةِ ، ويرى الكلَّ عباداً للهِ ، وأفعالَهُمْ أفعالاً للهِ ، ويراهُمْ مسخَّرينَ ، وذٰلكَ إنْ كانَ . . فهوَ كالبرقِ الخاطفِ لا يدومُ ، ويرجعُ القلبُ بعدَ ذٰلكَ إلىٰ طبعِهِ ، ويعودُ العدوُّ إلىٰ منازعتِهِ ؛ أعني : الشيطانَ ؛ فإنَّهُ ينازعُ بالوسوسةِ ، فمهما قابلَ ذٰلكَ بكراهةٍ وألزمَ قلبَهُ هٰذهِ الحالةَ . . فقدْ أدَّىٰ ما كُلِّفَهُ .

وذهبَ ذاهبونَ إلىٰ أنَّه لا يأثمُ إذا لمْ يظهرِ الحسدُ علىٰ جوارحِهِ ؛

لما رويَ عنِ الحسنِ : أنَّهُ سئلَ عنِ الحسدِ فقالَ : (غمَّةٌ ؛ فإنَّهُ لا يضرُّكَ ما لمْ تبدِهِ) [١] .

ورُويَ عنهُ موقوفاً ومرفوعاً إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « ثلاثٌ لا يخلو منهنَّ مؤمنٌ ، ولهُ منهنَّ مخرجٌ . . . ، ومخرجُهُ مِنَ الحسدِ ألا يبغيَ » [٢] .

والأولىٰ أنْ يُحملَ هٰذا علىٰ ما ذكرناهُ ؛ مِنْ أنْ يكونَ فيهِ كراهةٌ مِنْ جهةِ الدينِ والعقلِ في مقابلةِ حبِّ الطبعِ لزوالِ نعمةِ العدوِّ ، وتلكَ الكراهةُ تمنعُهُ مِنَ البغيِ والإيذاءِ ؛ فإنَّ جميعَ ما وردَ مِنَ الأخبارِ في ذمِّ الحسدِ يدلُّ ظاهرُهُ علىٰ أنَّ كلَّ حاسدٍ آثمٌ ، والحسدُ عبارةٌ عنْ صفةِ القلبِ لا عنِ الأفعالِ ، فكلُّ محبٍّ مساءَةَ المسلمينَ . . فهوَ حاسدٌ .

❀ ❀ ❀

فإذاً ؛ كونُهُ آثماً بمجرَّدِ حسدِ القلبِ مِنْ غيرِ فعلٍ هوَ في محلِّ الاجتهادِ ، والأظهرُ ما ذكرناهُ مِن حيثُ ظواهرُ الآياتِ والأخبارِ ، ومِنْ حيثُ المعنىٰ ؛ إذْ بعيدٌ أنْ يُعفىٰ عنِ العبدِ في إرادتِهِ مساءَةَ المسلمينَ واشتمالِهِ بالقلبِ علىٰ ذٰلكَ مِن غيرِ كراهةٍ .

---

(١) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ١٣٦) .
(٢) أما الموقوف . . فرواه ابن أبي الدنيا في « ذم الحسد » ، ورستة في كتاب « الإيمان » له بلفظ : (ثلاث لم تسلم منها هٰذه الأمة : الحسد والظن والطيرة ، ألا أنبئكم بالمخرج منها ؟ إذا ظننت . . فلا تحقق ، وإذا حسدت . . فلا تبغ ، وإذا تطيرت . . فامض) . « إتحاف » (٧٦/٨) . وأما المرفوع . . فرواه الطبراني في « الكبير » (٢٢٨/٣) ، وأبو الشيخ في « التوبيخ والتنبيه » (١٥٢ ، ٢٣٧) .

وقدْ عرفتَ مِنْ هٰذا أنَّ لكَ في أعدائِكَ ثلاثةَ أحوالٍ :

إحداها : أنْ تحبَّ مساءَتَهمْ بطبعِكَ ، وتكرَهَ حبَّكَ لذٰلكَ ، وميلَ قلبِكَ إليهِ بعقلِكَ ، وتمقتَ نفسَكَ عليهِ ، وتودَّ لوْ كانَتْ لكَ حيلةٌ في إزالةِ ذٰلكَ الميلِ منكَ ، وهٰذا معفوٌّ عنهُ قطعاً ؛ لأنَّهُ لا يدخلُ تحتَ الاختيارِ أكثرُ منهُ .

الثانيةُ : أنْ تحبَّ ذٰلكَ ، وتظهرَ الفرحَ بمساءتِهِ ؛ إمَّا بلسانِكَ أوْ بجوارحِكَ ، فهٰذا هو الحسدُ المحظورُ قطعاً .

الثالثةُ : وهو بينَ الطرفينِ ، أنْ تحسدَ بالقلبِ مِنْ غيرِ مقتٍ لنفسِكَ علىٰ حسدِكَ ، ومِنْ غيرِ إنكارٍ منكَ علىٰ قلبِكَ ، ولٰكنْ تحفظُ جوارحَكَ عنْ طاعةِ الحسدِ في مقتضاها ، وهٰذا محلُّ الخلافِ ، **والظاهرُ :** أنَّهُ لا يخلو عنْ إثمٍ بقدْرِ قوَّةِ ذٰلكَ الحبِّ وضعفِهِ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وحسبنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ .

❁ ❁ ❁

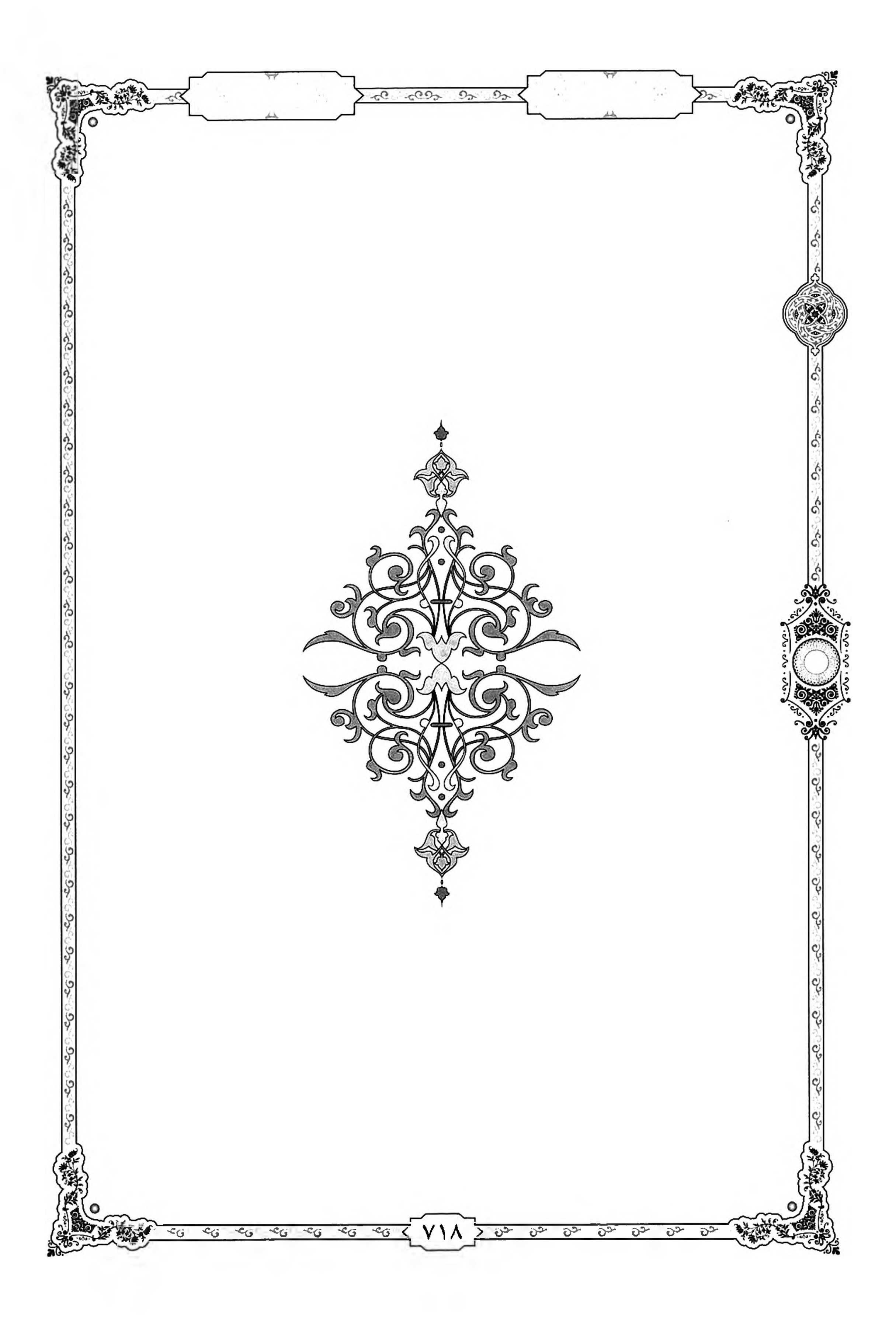
تمّ كتاب آفة الغضب والحقد والحسد

وهو الكتاب الخامس من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدّين

والحمد لله ربّ العالمين

والصّلاة والسّلام على رسوله محمّدٍ وآله الطّيّبين الطّاهرين وصحبه أجمعين

يتلوه كتاب ذمّ الدّنيا



محتوى الكتاب

ربع المهلكات / القسم الأول

❊ ❊ ❊